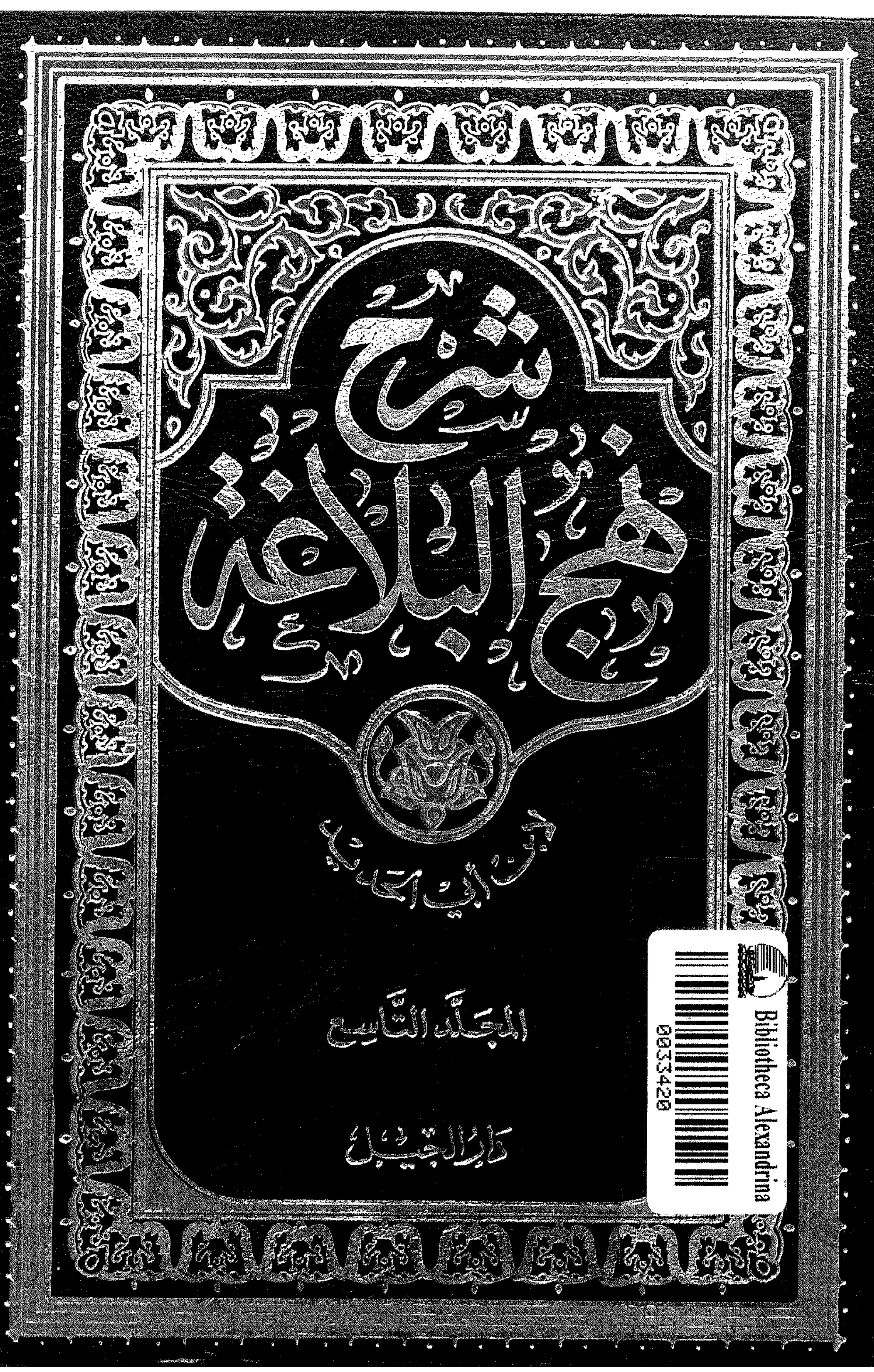

شرح
نهج البلاغة
ابن أبي الحديد
المجلد التاسع
دار الجيل
Bibliotheca Alexandrina
0033420





شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السابع عشر

دار الجيل
بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

(٤٦)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِيمِ ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ .

فَاسْتَعِنْ بِاللهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ ، وَاخْلِطِ الشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ اللِّينِ ؛ وَارْفُقْ مَا كَانَ الرِّفْقُ أَرْفَقَ ، وَاعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشِّدَّةُ .

* * *

وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ؛ وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ ، وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَيْئَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ . والسلام .

* * *

الشَّرْحُ :

قد أخذ الشاعر معنى قوله : « وآس بينهم فى اللحظة والنظْرة » ، فقال :

---

(١) ا : « وبه نستعين » ، د : « وبه ثقتى » .

اقسم اللحظَ بيننا إنّ فى اللّحـ ... ـظِ لَعنوانُ ما تُجِنُّ الصدورُ

إنّمـــا البِرّ روضةٌ فإذا ما ... كان بِشرٌ فروضةٌ وغـــديرُ

قوله : « وآس بينهم فى اللحظــة » ، أى اجعلهم أسوة ، وروى : « وساوِ بينهم فى اللحظة » ؛ والمعنى واحد .

واستظهِرْ به : اجعلْه كالظَّهْر .

والنّخوة : الـكبرياء : والأثيم : المخطئ المذنب .

وقوله : « وأسُدَّ به لَهاة الثّغر » استعارة جسنة .

والضِّغث فى الأصل : قبضة حشيش مختلط يابُسها بشىء من الرّطْب ، ومنه « أضغاث الأحلام » للرؤيا المختلطة التى لا يصحّ تأويلها ، فاستعار اللفظة ها هنا ؛ والمراد : امزُج[(١)] الشدّة بشىء من اللين [(٢)] فاجعلهما كالضِّغْث ، وقال تعالى : ﴿ وَخُذْ بيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ [(٢)] .

قوله : « فاعتزم بالشدّة » أى إذا جـدّ بك الجِدّ فدَع اللّين ، فإنّ فى حال الشدّة لا تُغـنِى إلّا الشدّة ، قال الفِنْد الزِّمّانِىّ :

فلمّـا صرّح الشرُّ ... فأمسَى وهو عُريانُ [(٣)]

ولم يبقَ سِوَى العـدْوا ... نِ دِنّاهمْ كما دانُوا

قوله : « حتى لا يطمَع العظاء فى حَيْفك» ، أى حتّى لا يطمع العظماء فى أن تمالِئهم على حَيْفِ الضعفاء ، وقد تقدّم مثل هذا فيا سبق .

---

(١) د : « مزج » . (٢ ــ ٢) ساقط من د .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ ــ بشرح التبريزى ، من شعرقاله فى حرب البسوس .

(٤٧)

الأصلُ :

ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله :

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ ، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا ، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا ، وَقُولَا بِالْحَقِّ ، وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً ، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً .

أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ .

اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ ، فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ ، لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ ، فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ ، لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا .

وَاللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ(١) فِي سَبِيلِ اللهِ .

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ ؛ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ ، لَا تَتْرُكُوا

---

(١) ساقط من ب .

الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ .

* * *

ثم قال :

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا ، تَقُولُونَ : قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ! أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي ، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مُتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ .

* * *

الشرح :

روى : « واعملا للآخرة » ، وروى : « فلا تغيّروا أفواهكم » ؛ يقول: لا تطلبا الدّنيا وإن طلبتكما ؛ فإذا كان مَنْ تطلبه الدنيا منهيًّا عن طلبها فمن لا تطلبه يكون منهيًّا عن طلبها بالطريق الأولى .

ثم قال : « ولا تأسفا على شيء منها زُوِى عنكما » ، أى قبض ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « زُوِيتْ لِيَ الدنيا فأرِيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمّتى ما زُوِى لى منها » .

وروى : « ولا تأسيا » ؛ وكلاهما بمعنى واحد ، أى لا تحزنا ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾[1] .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

قوله : «صلاح ذات البين» أخذهذه اللفظة عبد الملك بن مروان فقال لبنيه وقد جُمعوا عنده يوم موته :

انفُوا الضّغائن بينــكُمْ وعليــكُمُ　　عند المغيب وفى حضور المشهدِ
بصلاح ذاتِ البين طول حياتــكُمْ　　إن مُدَّ فى عمرى وإن لم يُمْدَدِ
إنّ القِداحَ إذا اجتمعنَ فرامَهــا　　بالـكَسْر ذو بطشٍ شَديد أيِّدِ
عزّتْفلم تُـكسَر ، وإنهى بُدّدتْ　　فالوهنُ والتـكسير للمتبدِّدِ

وذات هاهنا زئدة مقحمة .

قوله : « فلا تُغبّوا أفواههم » ، أى لا تجيعوهم بأن تطعموهم غِبًّا ، ومَنْ روى : « فلا تغيّروا أفواههم » فذاك لأن الجائع يتغيّر فمُـه ، قال عليه السلام : « لَخُلُوفُ فمِ الصائم أطْيَبُ عند الله من ريح المِسْك » .

قال : « ولا يضيعوا بحضرتكم » أى لا تضيّعوهم ، فالنهى فىالظاهر للأيتام وفى المعنى للأوصياء والأولياء ، والظاهر أنه لايعنى الأيتام الذين لهم مال تحت أيدى أوصيائهم؛ لأنّ أولئك الأوصياءمحرّم عليهم أن يصيبوا من أموال اليتامى إلّا القَدْر النّزْر جدًّاعندالضرورة ثم يقضونه مع التمـكّن ، ومَنْ هذه حالُه لا يحسن أن يقال له : لا تغيّرُوا أفواه أيتـامكم ، وإنماالأظهرُ أنّه يعنى الّذينمات آباؤهم وهم فقراء يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود عنهم، كماقال تعالى:﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْـكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيرًا ﴾[١]، واليُتْمفىالنّاسمنقِبَل الأب ، وفى البهائم منقِبَل الأمّ ؛ لأن الآباء منالبهائم لا عنايةلهم بالأولاد ، بلالعناية للأمّ لأنها المرضعة المشفقة؛ وأمّا النّاس فإنّ الأبَ هو الـكافل القيّم بنفقة الولد ؛ فإذا مات وصل الضّرر إليه لفقدكافله والأمّ بمعزل عن ذلك . وجمع يتيم على أيتام ، كما قالوا : شريف وأشراف . وحكى أبو عَلِيّ فى التّـكْملة : « كمِىء وأكماء » ، ولا يسمى الصبيّ يتيما إلّا إذا

---

(١) سورة الإنسان ٨ .

كان دون البلوغ وإذا بلغ زالَ اسمُ اليتيم[1] عنه . واليتامى أحد الأصناف الّذين عيّنوا فى الخُمْس بنصّ الكتاب العزيز .

***

[فصل فى الآثار الواردة فى حقوق الجار]

ثم أوصى بالجيران ، واللفظ الذى ذكره عليه السلام قد ورد مرفوعا فى رواية عبد الله ابن عمر لما ذبح شاة ، فقال : أهديتم لجارنا اليهوديّ ؟ فإنى سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » ، وفى الحديث أنه صلّى الله عليه وآله قال : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِم جاره » ، وعنه عليه السلام : « جار السوء فى دار المقامة قاصمة الظهر » ، وعنه عليه السلام : « مِن جهد البلاء جارُ سُوء معك فى دار مُقامة إن رأى حسنةً دفنَها ، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها ».

ومن أدعيتهم : اللهمّ إنّى أعوذ بك من مالٍ يكون علىّ فتنة ، ومنْ ولد يكون علىّ كَلّا ، ومِنْ حَليلة تقرّب الشيب ، ومن جار ترانى عيناه وترعانى أذناه ، إن رأى خيراً دفنه ، وإن سمع شرّاً طار به .

ابن مسعود يرفعه : « والذى نفسى بيده لا يُسلِم العبد حتى يَسْلَم قلبُه ولسانه ، ويأمن جارُه بوائقَه » ، قالوا : ما بوائقه ؟ قال : غَشْمه وظلمه » .

لُقْمان : يابنىّ ، حملتُ الحجارة والحديد فلم أر شيئا أثقلَ من جار السوء .

وأنشدوا :

ألا مَنْ يشترِى داراً برُخْصٍ   كراهة بَعْضِ جيرتِها تباعُ

وقال الأصمعىّ : جاور أهلُ الشام الرّومَ فأخذوا عنهم خصلتين : اللؤم وقلّة الغَيْرة ،

---

(١) ا : « اليتم » .

وجاور أهل البصرة الْخَزَر، فأخذوا عنهم خصلتين: الزنا وقلّة الوفاء، وجاور أهلُ الكوفة السوادَ، فأخذوا عنهم خصلتين: السخاء والغَيْرة.

وكان يقال: مَنْ تطاول على جارِه، حُرِم بركة داره.

وكان يقال: مَنْ آذى جاره ورّثه الله دارَه.

باع أبو الجهم العدوىّ داره، وكان فى جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم، فلما أحضرها المشترى قال له: هذا ثمن الدار، فأعطنى ثمن الجوار، قال: أىّ جوار؟ قال: جوار سعيد بن العاص، قال: وهل اشترى أحدٌ جوارا قطّ! فقال: رُدّ علىّ دارى، وخذ مالك، لا أدَع جوار رجل؛ إن قعدتُ سأل عنّى، وإن رآنى رحّب بى، وإن غبْت عنه حفظنى، وإن شهدت عنده قرّبنى، وإن سألته قضى حاجتى، وإن لم أسأله بدأنى، وإن نابتْنِى نائبة فرّج عنى. فبلغ ذلك سعيدا فبعث إليه مائة ألف درهم، وقال: هذا ثمن دارك، ودارُك لك.

الحسن: ليس حسنُ الجوار كفُّ الأذى، ولكنّ حسنَ الجوار الصّبْر على الأذى.

جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الْخَلّة[1]، وقالت: أنا جارتك، قال: كم بينى وبينك؟ قالت: سبع أدؤُرٍ، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم، فأعطاها إياها، وقال: كدنا نَهْلِك.

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يُصْلحه، وحماه ممّن يقصده، وإن هلك له شىء أخلفه عليه، وإن مات وداه لأهله، فجاوره أبو دُوَاد الإيادىّ؛ فزاره على العادة، فبالغ فى إكرامه. وكانت العرب إذا حمدت جارا قالت: جار كجار أبى دُواد، قال قيس بن زهير:

---

(١) الخلة: الحاجة.

أطوّف ما أطوّف ثم آوِى ... إلى جارٍ كجارِ أبى دُوادِ(١)

ثم تعلّم منه أبو دواد، وكان يفعل لجاره فِعل كعبٍ به .

وقال مسكين الدارِمىّ :

ما ضرّ جاراً لى أجاورُهُ ... ألّا يكونَ لِبابِهِ سِتْرُ(٢)

أعمى إذا ماإذا جارتى خرجتْ ... حتّى يوارىَ جارتى الخِدْرُ

نارِى ونارُ الجارِ واحدةٌ ... وإليه قَبلِى يُنزَل القِدْرُ(٣)

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرسا مِحْضيرا(٤) ، فقال لأصحابه : لماذا يصلح هذا ؟ فذكروا سباق الخيل ، وصَيْد الحُمر والنّعام ، واتباع الفارّ من الحرب ، فقال : لم تصنعوا شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء .

سُئل سليمان علىّ بن خالد بن صفوان عن ابنيه : محمد وسليمان ــ وكانا جارَيْه ــ فقال : كيف إحمادُك جوارَهما ؟ فتمثّل بقول يزيد بن مفرّغ الحميرىّ :

سقى الله داراً لى وأرضا تركتُها ... إلى جنبِ دارَىْ معقِل بن يَسَارِ

أبو مَالِكٍ جارٌ لها وابن مَرثدٍ ... فيالك جارىْ ذلّةٍ وصَغارِ !

وفى الحديث المرفوع أيضا من رواية جابر : الجيران ثلاثة : فجارٌ له حقّ ، وجار له حقّان ، وجارٌ له ثلاثة حقوق ؛ فصاحب الحقّ الواحد جارٌ مشرِكٌ لا رحِم له ، فحقّه

(١) المضاف والمنسوب ١ : ١٠٠ .

(٢) الأولان فى أمالى المرتضى ١ ٤٣ ، ٤٤ .

(٣) موضعه فى أمالى المرتضى :

وَيَصَمُّ عمّا كانَ بينهما ... سمعى ومَا بى غَيْرَهُ وَقْرُ

(٤) فرس محضير ، أى شديد الحضر ؛ وهو العدو .

حقّ الجوار ، وصاحب الحقَّين جار مسلم لا رَحِم له ، وصاحب الثلاثة جار مسلم ذو رَحِم ، وأدْنَى حق الجوار ألّا تؤذِيَ جارَك بقُتار قِدْرِك ، إلّا أن تقتدح له منها » .

قلت : تقتدح : تغترف ، والمقدحة المغرفة .

وكان يقال : الجيران خمسة : الجار الضارّ السَّيّء الجوار ، والجار الدَّمِس الحسن الجوار ، والجار اليربُوعىّ المنافق ، والجار البرَاقشىّ المتلوّن فى أفعاله ، والجار الحسْدلىّ(١) الذى عينه تَراك وقلبه يرعاك .

وروى أبو هريرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « اللهمّ إنى أعوذ بك من جار السوء فى دار المُقامة ، فإنّ دار البادية تتحوّل» .

***

قوله عليه السلام : « الله الله فى القرآن » أمرها بالمسارعة إلى العمل به ، ونهاها أن يسبقهما غيرُها إلى ذلك ، ثم أمرها بالصلاة والحجّ .

وشدّد الوَصاة فى الحجّ ، فقال : « فإنه إن تُرِك لم تناظروا » أى يتعجّل الانتقام منكم .

فأما المُثْلة فمنهىّ عنها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمثّل بهبّار بن الأسود لأنه روَّع زينب حتّى أجهضتْ ، ثم نهى عن ذلك ، وقال : لا مُثْلة ، المُثْلة حرام .

---

(١) الحسدلى : منسوب إلى الحسدل ؛ وهو القراد .

(٤٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتِغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَتَأَلَّوْا عَلَى اللهِ فَأَكْذَبَهُمْ ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ ، وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا ، وَلَكِنَّا أَجَبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ ، وَالسَّلَامُ .

* * *

الشرح :

يُوتغان : يُهلِكان ؛ والوتَغ بالتحريك : الهلاك ؛ وقد وتغ يَوْتَغ وتَغا ، أى أثِم وهلك ، وأوتغه الله : أهلكه الله ، وأوتغ فلان دينه بالإثم .

قوله : « فتألّوْا على الله » ، أى حلفوا ، من الأليّة وهى اليمين ، وفى الحديث : « من تألّى على الله أكذبه الله » ، ومعناه : مَنْ أقسم تجبّراً واقتدارا : لأفعلنّ كذا ، أكذبه الله ولم يبلغ أمله .

وقد روى : « تأوّلوا على الله » أى حرّفوا الكلم عن مواضعه ، وتعلّقوا بشبهة فى تأويل القرآن انتصاراً لمذاهبهم وآرائهم ، فأكذبهم الله بأن أظهر للعقلاء فسادَ تأويلاتهم. والأوّل أصحّ .

ويغتبط فيه : يفْرح ويُسرّ ، والغِبطة : السرور ، روى « يغبط فيــه » أى يتمنّى مثلُ حاله هذه .

قوله : « ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه » الياء التى هى حرف المضارعة عائدة على المكلف الذى أَمكن الشيطان من قياده . يقول : إذا لم يجاذب الشيطان من قياده فإنه يندم ؛ فأما مَنْ جاذَبَه قيادَه فقد قام بما عليه .

ومثله قوله : « ولسنا إياك أجَبْنا » قوله : « والله ما حكّمت مخلوقا وإنما حكّمت القرآن » ومعنى « مخلوقاً » : بشراً لا محدِثا .

(٤٩)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَلَهَجاً بِهَا ، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى ، حَفِظْتَ مَا بَقِيَ ؛ وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا كما قيل فى المثـــل : صاحب الدّنيا كشارب ماء البحر ؛ كلّما ازداد شرباً ازداد عطشا ، والأصل فى هذا قول الله تعـالى : « لو كانَ لابن آدم واديانِ من ذهبٍ لابتغى لهما ثالثا ، ولا يملأ عين ابن آدم إلّا التراب » ، وهــــذا من القرآن الذى رُفع ونسختْ تلاوتُه .

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال :

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص ، وزاد فيــه زيادةً لم يذكرها الرضىّ : أمّا بعد ؛ فإنّ الدنيا مشغلة عن الآخرة ، وصاحبها منهوم[١] عليها ، لم يصب شيئاً منها قطّ إلّا فتحت عليه حرصاً ، وأدخلت عليــه مؤنة[٢] تزيده رغبةً فيهـا ؛

(١) صفين : « مقهور فيها » .   (٢) صفين : « مئونة » .

ولن يستغنى صاحبُها بما نال عمّا لم يدرك ، ومن وراء ذلك فراق ما جَمَع ؛ والسعيد مَنْ وُعِظ بغيره ، فلا تُحْبِط أجرك أبا عبد الله [١] ولا تشرك معاوية فى باطله [١] ؛ فإن معاوية غمصَ الناس ، وسفّه الحق [٢] . والسلام [٣] .

قال نصر : وهذا أوّل كتاب كتبه علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، فكتب إليه عمرو جوابه :

أمّا بعد ، فإنّ الذى فيه صلاحنا ، وألفة ذات بيننا ، أن تُنيب إلى الحقّ [٤] ، وأن تجيب إلى [٥] ما ندعوكم إليه من الشورى [٥] ؛ فصبّر الرجل منّا نفسَه على الحقّ ، وعذَرهُ النّاس بالمحاجزة ، والسلام [٦] .

قال نصر : فكتب علىٌّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً .

وهو الذى ضرب مَثَله فيه بالكلْبِ يتبع الرجل ، وهو مذكور فى " نهج البلاغة " واللَّهَج : الحرص .

ومعنى قوله عليه السلام : « لو اعتبرت بما مضى حفِظْتَ ما بقِىَ » ، أى لو اعتبرتَ بما مضَى من عمرك لحفظت باقيَه أن تنفقه فى الضّلال وطلب الدنيا وتضيّعه .

* * *

(١ــ١) صفين : « ولا تجارين معاوية فى باطله » .
(٢) غمص الناس : احتقرهم ؛ وسفهالحق ، أى جهله .
(٣) صفين ١٢٤ . (٤) تنيب إلى الحق : ترجع .
(٥ ــ ٥) صفين : « أن نجيب إلى ما تدعون إليه من شورى » .
(٦) صفين ١٢٣ .

(٥٠)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيوش :

من عبد الله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين رفعة إلى أصحاب المسالح :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ ، وَلَا طَوْلٌ خُصَّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ ، وَعَطْفًا عَلَى إِخْوَانِهِ .

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ ، وَلَا أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ ، وَلَا أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلَا أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ ، وَأَلَّا تَنْكِصُوا عَنْ دَعْوَةٍ ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحٍ ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِي عَلَى ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ اعْوَجَّ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً .

فَخُذُوا هَذَا مِنْ أُمَرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ ، وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

أصحابُ المسَالح : جماعات تَكون بالثّغر يحمون البَيْضة ، والمسْلَحة هي الثّغر ، كالمرغبة ، وفي الحديث : « كان أدنى مسالحِ فارس إلى العَرب العُذَيْب » (١) ؛ قال : يجب على الوالي ألّا يتطاول على الرعيّة بولايته ، وما خُصّ به عليهم من الطَّوْل وهو الفضل ؛ وأن تَكون تلك الزيادة التي أعطِيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعيّة وحنوّه عليهم .

ثم قال : « لكم عندي ألّا أحتجِز دونكم بسرٍّ » ، أي لا أستتر . قال : « إلّا في حرب » ، وذلك لأن الحرب يحمَد فيها طيّ الأسرار ، والحرب خُدعة .

ثم قال : « ولا أطوِي دونكم أمرا إلّا في حُكْم » ، أي أظهركم على كلِّ ما نفسي مما يحسن أن أظهرَكم عليه ؛ فأمّا أحكام الشريعة والقضاء على أحَد الخصْمين فإنّي لا أعلمكم به قبل وقوعه ؛ كَيْلا تفسد القضيّة بأن يحتال ذلك الشخص لصرْف الحكْم عنه

ثم ذكر أنه لا يؤخّر لهم حقا عن محلّه ـ يعني العطاء ـ وأنّه لا يقف دون مقطعه ، والحق ها هنا غير العطاء ، بل الحكم ، قال زُهير :

فإنّ الحقّ مقطعُه ثلاثٌ ... يمينٌ أو نفارٌ أو جِلاَءُ (٢)

أي متى تعيّن الحكْم حكَمْتُ به وقطعت ولا أقف ، ولا أتحبَّس .

ولمّا استوفى ما شرط لهم قال : فإذا أنا وَفّيت بما شرطت على نفسي وجبتْ لله عليكم النّعمة ولي عليكم (٣) الطاعة .

ثم أخذ في الاشتراط عليهم كما شرط لهم ، فقال : ولي عليكم ألّا تنكصوا عن

---

(١) العذيب ؛ بالتصغير : يطلق على مواضع ؛ منها ماء بين القادسية والمغيثة ؛ بينه وبين القادسية أربعة أميال . (٢) ديوانه ٧٥ . النفار : المنافرة إلى الحاكم ؛ أو رجل يحكم بينهم . الجلاء : أن ينكشف الأمر وينجلي . (٣) ا : « نحوكم » .

دعوة ، أى لا تتقاعسُوا عن الجهاد إذا دعوتُـكم إليه ، ولا تفرّطوا فى صلاح ؛ أى إذا أمكنتْـكم فرصة ، أو رأيتم مصلحة فى حرب العـدوّ أو حماية الثّغر ، فلا تفرّطوا فيها فتفوت . وأن تخوضوا الغمراتِ إلى الحقّ ؛ أى تـكابدوا المشاقّ العظيمة ؛ ولا يهولنّـكم خوضُها إلى الحقّ .

ثم توعّدهم إن لم يفعلوا ذلك ، ثم قال : تخذوا هذا من أمرائـكم ؛ ليس يعنى به أنّ على هؤلاء أصحاب المسالح أمراء من قِبَله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه ، بل من أمرائـكم ؛ يعنى منّى وممّن يقوم فى الخلافة مقامى بعدى ، لأنه لو كان الغرض هو الأوّل لما كان محلهم عنـده أن يقول : « ألا أحتجز دونـكم بسرٍّ ولا أطوى دونـكم أمرا ». لأن محلّ من كان بتلك الصفة دون هذا .

(٥١)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج :

أَمَّا بَعْدُ ! فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ ، لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا .

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسِيرٌ ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ ، فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ ، وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ ، وَسُفَرَاءُ الْأَئِمَّةِ ، وَلَا تُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ ، وَلَا تَبِيعُنَّ النَّاسَ فِي الْخَرَاجِ كُسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا ، وَلَا عَبْدًا ، وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِمَكَانِ دِرْهَمٍ ، وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ .

وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً ، وَلَا دِينَ اللهِ قُوَّةً .

وَأَبْلُوهُ فِي سَبِيلِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا

وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا ، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

* * *

الشَّرْحُ :

يقول : لو قدّرنا أنّ القبائح العقليّة كالظلم والبغى لاعقابَ على فعلها بل فى تركها ثواب فقط ؛ لم يكن الإنسان معذوراً إذا فرّط فى ذلك الترك ؛ لأنه يكون قد حرَم نفسَه نفعاً هو قادر على إيصاله إليها .

قوله : « ولا تُحشموا أحداً » ؛ أى لا تغضبوا طالب حاجة فتقطعوه عن طلبها ، أحشمتُ زيداً ، وجاء « حَشَمْته » ، وهو أن يجلس إليك فتغضبه وتؤذيه . وقال ابن الأعرابىّ : حشمتُه : أخجلته ، وأحشمته : أغضبته ، والاسم الحِشْمة ، وهى الاستحياء والغضب .

ثم نهاهم أن يبيعوا لأرباب الخراج ما هو من ضروريّاتهم كثياب أبدانهم وكدابّةٍ يعتَمِلون عليها ، نحو بقر الفلاحة ، وكعَبْدٍ لابدّ للإنسان منه يخدُمه ، ويسعى بين يديه .

ثم نهاهم عن ضرب الأبشار لاستيفاء الخراج

وكتب عدىّ بن أرْطاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى عذاب العمّال ، فكتب إليه : كأنّى لك جُنّة من عذاب الله ، وكأنّ رضاىَ ينجيك من سَخط الله ! من قامت عليه بيّنة، أو أقرّ بما لم يكن مضطهدا مضطرا إلا الإقرار به، فخُذْه بأدائه ؛ فإن كان قادرا عليه فاستأدِه، وإن أبَى فاحبسه ، وإن لم يقدر فخلّ سبيلَه ؛ بعد أن تُحلِّفه بالله أنّه لا يقدِر على شىء ، فلأَنْ يلقوا الله بجناياتهم أحبُّ إلىَّ من أن ألقاه بدمائهم .

ثم نهاهم أن يعرضُوا لمال أحدٍ من المسلمين أو من المعاهَدِين ؛ المعاهد هاهنا : هو الذّمىّ أو مَنْ يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد ، إما لأداء رسالة ، أو لتجارة : ونحو ذلك ، ثم يعود إلى بلاده .

ثم نهاهم عن الظّلم وأخذ أموال النّاس على طريق المصادرة والتأويل الباطـــل ؛ قال : إلّا أن تخافوا غائلةَ المعاهدِين ، بأن تجدوا عندهم خيولًا أوسلاحا ، وتظنّوا منهم وثبة على بلد من بلاد المسلمين ، فإنه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذ .

قوله : « وأَبْلوا فى سبيل الله » ، أى اصطنعوا من المعروف فى سبيل الله ما استوجب عليكم ، يقال : هو يبلوه معروفا ، أى يصنعه إليه ، قال زهير :

جَزَى الله بالإحسانِ ما فَعَــلَا بِــكُمْ وأبلاهما خيرَ البلاء الّذى يَبْــلو[1]

قوله عليه السلام : « قد اصطنعا عندنا وعندكم أن نشكره » ، أى لأنْ نشكره، بلام التعليل وحذفها ، أى أحسن إلينا لنشكره ، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾[2] .

---

(١) ديوانه ١١٦ . (٢) سورة المائدة ٨٠ .

(٥٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد فى معنى الصلاة :

أَمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرْبِضِ الْعَنْزِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيْضاءُ حَيَّةٌ فى عُضْوٍ مِنَ النَّهارِ حِينَ يُسارُ فِيها فَرْسَخانِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ الصَّائِمُ ، وَيَدْفَعُ الْحاجُّ إلَى مِنًى ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْعِشاءَ حِينَ يَتَوارَى الشَّفَقُ إلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَداةَ والرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صاحِبِهِ ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاةَ أَضْعَفِهِمْ ، وَلَا تَكُونوا فَتَّانِينَ .

* * *

الشرح

[بيان اختلاف الفقهاء فى أوقات الصلاة]

قد اختلف الفقهاء فى أوقات الصلاة ، فقال أبو حنيفة : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثانى ؛ وهو المعترض فى الأفق ، وآخر وقتها ما لم تطلع الشمس . وأوّل وقت الظهر إذا زالت الشمس ، وآخر وقتها إذا صار ظلّ كلّ شيء مثليْه سوى الزوال . وقال أبو يوسف ومحمّد : آخر وقتها إذا صار الظلّ مثله .

قال أبو حنيفة : وأوّل وقت العصر إذا خرج وقتُ الظهر ؛ وهذا على القولين ، وآخر وقتها ما لم تغرب الشمس ، وأوّل وقت المغرب إذا غربت الشمس ، وآخر وقتها

ما لم يغب الشّفق ؛ وهو البياض الّذِى فى الأُفق بعد الحمرة . وقال أبو يوسف ومحمد : هو الحمرة .

قال أبو حنيفة : وأوّل وقت العِشاء إذا غاب الشفق ، وهذا[١] على القولين ، وآخر وقتها ما لم يطلع الفجر .

وقال الشافعىّ : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر الثانى ، ولا يزال وقتها المختار باقياً إلى أن يسفر ، ثم يبقى وقت الجواز إلى طلوع الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ من الشافعية : لايبقى وقت الجواز ، بل يخرج وقتها بعد الإسفار ويصلّى قضاء ؛ ولم يتابعه على هذا القول أحدٌ . قال الشافعىّ : وأوّل وقت الظُّهر إذا زالت الشمس . وحكى أبو الطيّب الطّبرىّ من الشافعية أنّ من الناس من قال : لا تجوز الصّلاة حتى يصير الفىْء بعد الزّوال مثل الشِّراك .

وقال مالك : أحبّ أن يؤخر الظّهر بعد الزوال بقدرما يصير الظلّ ذراعا ؛ وهذا مطابق لما قال أمير المؤمنين عليه السلام حين تفىْء الشمس كمربض العنز ، أى كموضع تربض العنز ، وذلك نحو ذراع أو أكثر بزيادة يسيرة .

قال الشافعىّ : وآخر وقت الظهر إذا صار ظلّ كلّ شىء مثله ، ويعتبر المثْل من حدّ الزّيادة على الظلّ الذى كان عند الزوال ، وبهذا القول قال أبو يوسف ومحمد ؛ وقدحكيناه من قبلُ، وبه أيضا قال الثورىّ وأحمد، وهو رواية الحسن بن زياد اللؤلؤى عن أبى حنيفة ، فأمّا الرواية المشهورة عنه ــ وهى الّتى رواها أبو يوسف ــ فهو أنّ آخر وقت الظهر صيرورةالظلّ مثليْه ، وقد حكيناه عنه فيما تقدم .

وقال ابن المنذِر : تفرّد أبو حَنيفة بهذا القول ؛ وعن أبى حنيفة رواية ثالثة أنه إذاصار ظلّ كل شىء مثله خرج وقت الظهر ؛ ولم يدخل وقت العصر إلى أن يصير ظلّ كلّ شىء مثليْه .

---

(١) ا : « وهو » .

وقال أبو ثور ومحمد بن جرير الطبرىّ : قدر أربع ركعات بين المثْل والمثلين ، يكون مشتركا بين الظهر والعصر .

وحكى عن مالك أنه قال : إذا صار ظلّ كل شىء مثله ، فهو آخر وقت الظهر وأوّل وقت العصر ، فإذا زاد على المثْل زيادة بيّنة خرج وقت الظهر واختصّ الوقت بالعصر .

وحكى ابن الصبّاغ من الشافعية ، عن مالك ، أنّ وقت الظّهر إلى أن يصير ظلّ كلّ شىء مثله وقتا مختارا ، فأمّا وقت الجواز والأداء فآخره إلى أن يبقى إلى غروب الشمس قَدْر أربع ركعات ؛ وهذا القول مطابقٌ لمذهب الإماميَّة .

وقال ابن جُريج وعطاء : لا يكون مفرّطا بتأخيرها حتى تكون فى الشمس صُفرة .

وعن طاوس : لا يفوت حتى الّليل .

فأمّا العصر : فإن الشافعىّ يقول: إذا زاد على المِثْل أدنى زيادة ، فقد دخل وقت العصر؛ والخلاف فى ذلك بينه وبين أبى حنيفة ؛ لأنّه يقول : أوّل وقت العصر إذا صار ظلّ كلّ شىء مثلْيه ، وزاد عليه أدنى زيادة . وقد حكيناه عنه فيما تقدّم .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى العصر مطابق لمذهب أبى حنيفة ، لأنّ بعد صيرورة الظلّ مثليْه ، هو الوقت الذى تكون فيه الشمس حَيَّة بيضاء فى عِضْو من النهار ، حين يُسار فيه فرسخان ، وأما قبل ذلك فإنّه فوق ذلك يُسار من الفراسخ أكثر من ذلك ، ولا يزال وقت الاختيار عند الشافعىّ للعصر باقياً حتى يصير ظلّ كلّ شىء مثليْه ؛ ثم يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ من أصحابه : يصير قضاء بمجاوزة المثْليْن ؛ فأمّا وقت المغرب فإذا غَرَبت الشمس وغروبها سقوط القرص .

وقال أبو الحسن علىّ بن حبيب الماوردىّ من الشافعية: لا بدَّ أن يسقط القُرْص ويغيب

حاجب الشمس ، وهو الضياء المستعلى عليها كالمتّصل بها ، ولم يذكر ذلك من الشافعيّة أحد غيره .

وذكر الشّاشى فى كتاب "حلية العلماء" أنّ الشيعة قالت : أوّل وقت المغرب إذا اشتبكت النجوم . قال قد حكى هذا عنهم . ولا يساوى الحكاية ، ولم تذهب الشيعة إلى هذا ، وسنذكر قولهم فيما بعد .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى المغرب لاينصّ على وقت معين لأنّه عرف ذلك بكونه وقت الإفطار ، ووقت ما يدفع الحاجّ ، وكلاَ الأمرين يحتاج إلى تعريف كما يحتاج وقت الصلاة ، اللهمّ إلّا أن يكون قد عرّف أمراء البلاد الّذين يصلّون بالناس من قبل هذا الكتاب متى هذا الوقت الذى يُفْطر فيه الصائم ، ثم يدفع فيه الحاجّ بعينه ، ثم يحيلهم فى هذا الكتاب على ذلك التعريف المخصوص .

قال الشافعىّ : وللمغرب وقت واحد ، وهو قول مالك .

وحكى أبو ثَوْر عن الشافعىّ أنّ لها وقتين ، وآخر وقتها إذا غابَ الشّفق . وليس بمشهور عنه ، والمشهور القول الأول ، وقد ذكرنا قول أبى حنيفة فيما تقدّم ، وهو امتداد وقتها إلى أن يغيب الشّفق ، وبه قال أحمد وداود .

واختلَف أصحابُ الشافعىّ فى مقدار الوقت الواحد ، فمنهم من قال : هو مقدّر بقدْر الطّهارة وستر العَوْرة والأذان والإقامة وفعل ثلاث ركعات ، ومنهم مَنْ قَدّره بغير ذلك .

وقال أبو إسحاق الشيرازىّ منهم : التضييق إنّما هو فى الشّروع ، فأمّا الاستدامة فتجوز إلى مغيب الشفق .

فأما وقت العشاء ، فقال الشافعىّ : هو أن يغيب الشفق وهو الحمرة ، وهو قول مالك وأحمد وداود وأبى يوسف ومحمد ، وقد حكينا مذهب أبى حنيفة فيما تقدّم ، وهو أن يغيب الشفق الذى هو البياض ، وبه قال زُفَر والمزنىّ .

قال الشافعىّ : وآخر وقتها المختار إلى نِصْف الليل ، هذا هو قوله القديم ، وهو مذهب أبى حنيفة ، وقال فى الجديد : إلى ثلث الليل . ويجب أن يحمَل قولُ أميرِ المؤمنين عليه السلام فى العشاء أنّها إلى ثلث الليل على وقت الاختيار ، ليكون مطابقا لهذا القول ، وبه قال مالك ، وإحدى الروايتَيْن عن أحمد . ثم يذهب وقت الاختيار ؛ ويبقى وقتُ الجواز إلى طلوع الفجر الثانى .

وقال أبو سعيد الإصطخرىّ : لا يبقى وقت الجواز بعد نصف الليل ، بل يصير قضاء .

***

فقد ذكرنا مذهبي أبى حنيفة والشافعىّ فى الأوقات ، وهما الإمامان المعتبران فى الفقه ، ودخل فى ضمن حكاية مذهب الشافعى ما يقوله مالك وأحمد وغيرهما من الفقهاء .

فأما مذهب الإماميّة من الشيعة ، فنحن نذكره نقلا عن كتاب أبى عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله المعروف بالمفيد "بالرسالة المقنعة" قال : وقتُ الظهر من بعد زوال الشمس إلى أن يرجع الفىء سُبْعَى الشخص ، وعلامة الزوال رجوعُ الفىء بعد انتهائه إلى النّقصان ، وطريق معرفة ذلك بالإصطرلاب أو ميزان الشمس ، وهو معروف عند كثير من الناس ، أو بالعمود المنصوب فى الدائرة الهنديّة أيضا ، فمن لم يعرف حقيقة العمل بذلك ، أو لم يجد آلته فلينصب عوداً من خشب أو غيره فى أرض مستوية السّطح ، ويكون أصلُ العود غليظا ورأسه دقيقا شبْه المذرى الذى ينسَج به التّكك أو المسلّة التى تُخاط بها الأحمال ، فإن ظلّ هذا العود يكون بلا شكٍّ فى أول النهار أطولَ من العود ، وكلّما ارتفعت الشمس نقص من طوله حتى يقف القُرْص فى وسط السماء ، فيقف الفىء حينئذ ، فإذا زال القرص عن الوسط إلى جهة المغرب رَجَع الفىء إلى الزيادة . فليعتبرْ مَنْ أراد الوقوف على وقت الزوال ذلك بخطط وعلامات يجعلها على رأس ظلّ العود عند وضعه

فى صدر النهار ، وكلّما نقص فى الظلّ شىء علّم عليه ، فإذا رجع إلى الزيادة على موضع العلامة عرف حينئذ برجوعه أن الشمس قد زالت .

وبذلك تُعرف أيضا القبلة ، فإنّ قُرْص الشمس يقف فيهـا وسَط النهار ، ويصير عن يسارها ويمين المتوجّه إليها بعد وقوفها وزوالها عن القُطْب ، فإذا صارت مما يلى حاجبه الأيمن من بين عينيه عُلم أنها قـد زالت ، وعرف أنّ القبلة تلقاء وجهه ؛ ومن سبقت معرفته بجهة القبلة فهو يعرف زوال الشمس إذا توجّه إليها ، فرأى عينَ الشمس مما يلى حاجبه الأيمن ؛ إلا أنّ ذلك لا يبين إلّا بعد زوالهـا بزمان ، ويبيّن الزوال من أوّل وقته بمـا ذكرناه من الإصطرلاب وميزان الشمس والدائرة الهندية والعمود الذى وصفناه ، ومَنْ لم يحصل له معرفة ذلك ، أو فقد الآلة توجّه إلى القبلة فاعتبر صيرورة الشمس على طرف حاجبه الأيمن وقت العصر من بعـد الفراغ من الظهر ، إذا صليت الظهر فى أوّل أوقاتها — أعنى بعد زال الشمس بلا فصل — ويمتدّ إلى أن يتغيّر لون الشمس باصفرارها للغروب ، وللمضطر والناسى إلى مغيبها بسقوط القُرْص عمـا تبلغه أبصارنا من السماء ، وأوّل وقت المغرب مغيب الشمس ، وعلامة مغيبها عدم الحُمْرة فى المشرق المقابل للمغرب فى السماء ؛ وذلك أن المشرق فى السماء مُطلّ على المغرب ، فمـا دامت الشمس ظاهرة فوق أرضنا فهى تلقى ضوءها على المشرق فى السماء ، فيرى حُمْرتها فيه ، فإذا ذهبت الحمرة منه علم أن القُرْص قد سقط وغاب. وآخره أول وقت العشاء الآخرة ، وأوّل وقتها مغيب الشمس وهو الحمرة فى المغرب ، وآخره مضى الثلث الأول من الليل ، وأول وقت الغداة اعتراض الفجر ، وهو البياض فى المشرق يعقبه الحمرة فى مكانه ؛ ويكون مقدمـة لطلوع الشمس على الأرض من السماء ؛ وذلك أن الفجر الأول ، وهو البياض الظاهر فى المشرق يطلع طولا ثم ينعكس بعد مدّة عرضا ثم يحمر الأفق بعده للشمس .

ولا ينبغى للإنسان أنْ يصلّىَ فريضة الغــداة حتى يعترض البياض ، وينتشر صُعُداً فى السماء كما ذكرنا ، وآخر وقت الغداة طلوع الشمس .

هذا ما تقوله الفقهاء فى مواقيت الصلاة .

* * *

فأما قوله عليه السلام : « والرجــل يعرِف وجه صاحبه » ؛ فمعناه الإسفار ، وقد ذكرناه .

وقوله عليــه السلام : « وصلُّوا بهم صلاة أضعفِهم » ؛ أىْ لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدّعوات الطويلة .

ثم قال : « ولا تكونوا فتّانين » ، أى لا تفتِنوا الناس بإتعابهم وإدخال المشقّة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة، نحو أن يُحْدِث الإمام فيستخلف فيصلّى الناس خلف خليفته ، فإن ذلك لا يجوز على أحد قولى الشافعىّ ؛ ونحو أن يُطيل الإمام الركوع والسجود ، فيظنّ المأمومون أنّـه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة ؛ ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء فى كتبهم .

* * *

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنمـا بدأ بصلاة الظهر ، لأنها أوّلُ فريضة افترضت على المكلّفين من الصلاة على ما كان يذهب إليه عليــه السلام ؛ وإلى ذلك تذهب الإماميّة ، وينصر قولَهم تسميتها بالأولى ؛ ولهــذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها ؛ فأمّا مَنْ عـدا هؤلاء فأول الصلاة المفروضة عندهم الصبح ؛ وهى أول النهار .

* * *

وأيضا يتفرع على هــذا البحث القولُ فى الصلاة الوسطى ، ما هى ؟ فذهب جمهور

النّاس إلى أنها العصر ، لأنها بين صلاتىْ نهار وصلاتَى ليل ؛ وقد رووا أيضا فى ذلك روايات بعضها فى الصحاح ، وقياس مذهب الإمامية أنها المغرب ؛ لأنّ الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى ؛ إلا أنّهم يروون عن أئمتهم عليهم السلام أنها الظهر ، ويفسرون الوسطى بمعنى الفُضْلى ؛ لأنّ الوَسط فى اللغة هو خيار كل شىء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾[1] ، وقد ذهب إلى أنها المغرب قوم من الفقهاء أيضا .

وقال كثير من الناس : إنّها الصبح ، لأنها أيضا بين صلاتىْ ليل وصلاتىْ نهارٍ ، ورووا أيضا فيها روايات وهو مذهب الشافعىّ ، ومن الناس من قال : إنها الظهر كقول الإمامية ولم يسمع عن أحد معتبرا أنها العشاء إلا قولا شاذًّا ذكره بعضهم .

وقال : لأنها بين صلاتين لا تُقْصَران .

(١) سورة البقرة ١٤٣ .

(٥٣)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي رحمه الله لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر وهو أطول عهد كتبه وأجمعه للمحاسن :

بسم الله الرحمن الرحيم

هَـذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِـينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا ، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا ، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا .

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يُسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا ، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ .

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ ، وَيَنْزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللهُ .

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ

الْوُلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِى اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ . فَامْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ .

* * *

الشَّرْحُ :

نصرة الله باليد : الجهاد بالسيف ، وبالقلب الاعتقاد للحقّ ، وباللسان قولُ الحقّ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد تكفّل الله بنُصرة من نَصَره ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ[1] ﴾ .

والجمَحات : منازعة النَّفْس إلى شهواتها ومآربها ، ونزعها بكفّها .

ثم قال له : قد كنت تسمع أخبار الولاة ، وتعيب قوماً وتمدح قوماً ، وسيقول الناس فى إمارتك الآن نحو ما كنت تقول فى الأمراء ؛ فاحذر أن تعاب وتذمّ كما كنت تعيب وتذمّ مَنْ يستحقّ الذم .

ثم قال : إنما يستدلّ على الصالحين بما يكثر سماعه من ألسنة النّاس بمدحهم والثناء عليهم ؛ وكذلك يستدلّ على الفاسقين بمثل ذلك .

وكان يقال : ألسنة الرعيّة أقلام الحقّ سبحانه إلى الملوك .

ثم أمره أن يشحّ بنفسه ، وفسّر له الشحّ ما هو ؟ فقال : أن تنتصف منها فيما أحبّت

---

(١) سورة الحج ٤٠ .

وكرهت ، أى لا تمكنها من الاسترسال فى الشهوات ، وكُنْ أميراً عليها ، ومسيطراً وقامعاً لها من التهوّر والانهماك .

فإن قالت : هذا معنى قوله : « فيما أحببْتَ » ، فما معنى قوله : « وكرهت » ؟

قلت : لأنها تكره الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية ، وكما يجب أن يكون الإنسان مهيمناً عليها فى طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها فى طرف التَّرْك .

***

الأصل :

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ لَكَ فِى الدِّينِ ؛ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِى الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِى الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الَّذِى تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِى الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ .

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَىْ لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوحَةً .

وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّى مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِى الْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ .

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ !

* * *

الشَّرْحُ :

أشعِر قلبَك الرحمة ، أى اجعلها كالشِّعار له ، وهو الثّوب اللاصق للجسد ؛ قال : لأنّ الرعيّة ؛ إمّا أخوك فى الدّين ، أو إنسان مثلك تقتضى رقّة الجنسيّة وطبع البشرية الرحمةَ له .

قوله : « ويؤتَى على أيديهم » ، مثْل قولك : « ويؤخذ على أيديهم » ؛ أى يهذّبون ويثقّفون ، يقال : خذ على يد هذا السّفيه ، وقد حجَر الحاكم على فلان ، وأخذ على يده .

ثم قال : فنسْبَتُهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى ، وكما تحبّ أن يصفح الله عنك ينبغى أن تصفح أنت عنهم .

قوله : « لا تنصبنّ نفسَك لحرْب الله » ؛ أى لا تبارزْه بالمعاصى . فإنه لا يدىْ لك بنقمته ؛ اللام مُقحمة ، والمراد الإضافة ، ونحوه قولهم : لا أبا لك .

قوله : « ولا تقولنّ إنى مُؤَمّر » ؛ أى لا تقل : إنى أمير ووالٍ آمرُ بالشىء فأطاع .

والإدغال : الإفساد ، ومنهكة للدين : ضعف وسقم .

ثم أمره عند حدوث الأبّهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمْرَة أن يذكر عظمةَ الله تعالى وقدرتَه على إعدامه وإيجاده ، وإماتته وإحيائه ؛ فإنّ تذكّر ذلك يطامِن من غُلَوائه ، أىْ يغضّ من تعظّمه وتكبّره ، ويطأطئ منه .

والغَرْب : حدّ السيف ، ويستعار للسطوة والسرعة فى البطش والفَتْك .

قوله : « وُيفِىء » ؛ أى يرجع إليك بما بعد عنك من عَقْلك ، وحرْف المضارعة مضموم لأنّه من « أفاء » .

ومساماة الله تعالى : مباراته فى السموّ وهو العلوّ .

***

الأصْلُ :

أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ هَوًى فِيهِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ للهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ .

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ ؛ فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِى الْحَقِّ ، وَأَعَمُّهَا فِى الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ .

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ ، مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ؛ وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ .

* * *

الشرح

قال له : أنصِف اللهَ ، أى قُم له بما فَرَض عليك من العبادة والواجبات العقليّة والسمعيّة .

ثمّ قال : وأنصِف الناس من نفسك ومن ولَدِك وخاصّة أهلِك ومَن تحبّه وتميل إليه من رعيّتك ، فتى لم تفعل ذلك كنتَ ظالما .

ثمّ نهاه عن الظّلم ، وأكّد الوصاية عليه فى ذلك .

ثمّ عرّفه أنّ قانون الإمارة الاجتهاد فى رضا العامّة ، فإنّه لا مبالاة بسُخْط خاصّة الأمير مع رضا العامّة ، فأمّا إذا سخِطَت العامّة لم ينفعه رضا الخاصّة ، وذلك مثل أن يكون فى البلد عشرةٌ أو عشرون من أغنيائه ، وذوِى الثّروة من أهله ، يلازمون الوالىَ ويخدمُونه ويسامرونه ، وقد صار كالصّديق لهم ، فإنّ هؤلاء ومن ضارَعَهم من حواشى الوالى وأرباب الشفاعات والقُرُبات عنده لا يُغنُون عنه شيئا عند تنكّر العامّة له ، وكذلك لا يضرّ سُخْط هؤلاء إذا رضيت العامّة ، وذلك لأنّ هؤلاء عنهم غنًى ، ولهم بدل ، والعامّة لا غنًى عنهم ولا بدل منهم ، ولأنّهم إذا شَغَبوا عليه كانوا كالبحر إذا هاج واضطرب ، فلا يقاومه أحد ، وليس الخاصة كذلك .

ثمّ قال عليه السلام ـ ونِعْمَ ما قال : ليس شىء أقلَّ نفعا ، ولا أكثرَ ضررا على الوالى من خواصّه أيّام الولاية ، لأنّهم يثقّلون عليه بالحاجات ، والمسائل والشّفاعات ، فإذا عُزِل هَجَروه ورَفَضُوه حتّى لو لقوه فى الطريق لم يسلّموا عليه .

والصِّغو[1] بالكسر والفتح والصّغا مقصور : الميْل .

* * *

الأصْلُ :

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ، فَإِنَّ فِى النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِى أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللّٰهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ ؛ يَسْتُرِ اللّٰهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ[2] رَعِيَّتِكَ .

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ ، فَإِنَّ السَّاعِىَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِى مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ ، وَلَا جَبَاناً يُضَعِّفُكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللّٰهِ .

* * *

(١) ب : « الصفو » ، تحريف .　　(٢) فى د : « عن » .

الشَّـرح :

أشنَأهم عندك ، أبغَضَهم إليك :

وتَغابَ : تغافَلْ ، يقال : تَغابى فلانٌ عن كذا .

ويَضِح : يَظهَر ، والماضى وَضَح .

* * *

[فصل فى النهى عن ذكر عيوب الناس وما ورد فى ذلك من الآثار]

عاب رجلٌ رجلا عند بعض الأشراف فقال له : لقـد اُستدللتُ على كثرة عيوبك بما تُـكثِر فيه من عُيوب الناس ، لأنّ طالبَ العُيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها .

وقال الشاعر :

وأجرأُ من رأيتَ بظهر غيبٍ　　　على عَيب الرجال أولو العيُوبِ

وقال آخر :

يا مَنْ يعيب وعيبُه مُتَشَعِّبٌ　　　كَمْ فيك من عيبٍ وأنت تعيبُ !

وفى الخبر المرفوع : « دعُوا الناس بغَفَلاتِهم يعيش بعضُهم مع بعض » .

وقال الوليد بن عتبة بن أبى سُفْيان : كنت أسايرُ أبى ورجلٌ معنا يقع فى رجل، فالتفت أبى إلىّ فقـال : يا بُنىّ ؛ نَزِّه سمعَك عن استماع الخنا كما تُنزّه لسانَك عن الـكلام به ، فإنّ المستمعَ شريك القائل ، إنّما نظر إلى أخبث ما فى وعائه فأفرَغَه فى وعائك ، ولو ردّت كلمـة جاهل فى فيه لسعد رادّها كما شقِىَ قائلُها .

وقال ابن عبـاس ، الحـدَث حَـدثان : حَدَث مِنْ فيك ، وحَـدَث من فَرْجك .

وعاب رجلٌ رجلا عند قُتَيبة بن مسلم ؛ فقال له قتيبة : أمسِك ويحْك ! فقد تلمّظت بمُضغةٍ طالما لَفِظها الكرام .

ومرّ رجل بجارَيْن له ومعه ريبة ، فقال أحدهما لصاحبه : أفهمتَ ما معه من الرّيبة ؟ قال : وما معه ؟ قال : كذا ، قال : عبدى حرّ لوجه الله شكرا لله تعالى إذ لم يعرّفنى من الشرّ ما عرّفك .

وقال الفُضَيل بن عِياض : إنّ الفاحشة لَتَشيع فى كثير من المسلمين حتّى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خُزّانا .

وقيل لبزُرُجمهر : هل من أحد لا عيبَ فيه ؟ فقال : الذى لا عيبَ فيه لا يموت .

وقال الشاعر :

ولستُ بذى نَيْرَبٍ فى الرّجا ... ل مَنّاعَ خيرٍ وسَبّابَها(١)

ولا مَنْ إذا كان فى جانبٍ ... أضاعَ العشيرةَ واُغتابَها

ولكن أطاوِعُ ساداتِها ... ولا أتعَلَّم ألقابَها

وقال آخر :

لا تَلتمسْ من مساوِى الناس ما سَتَرُوا ... فيكشف الله سِتْراً من مَساوِيكا

واُذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِروا ... ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكا

وقال آخر :

ابدأ بنفسك فاْنهها عن غيّها ... فإذا انتهتْ عنه، فأنت حكيمُ(٢)

فهناكَ تُعذر إن وَعظتَ ويقتدَى ... بالقول منكَ ، ويُقبَل التّعليمُ

***

(١) النيرب : الشر وحمل العداوة .

(٢) لأبى الأسود الدؤلى ؛ خزانة الأدب ٣ : ٦١٧ ؛ والرواية هناك : « عن غيها » .

فأمّا قوله عليه السلام : « أطلقْ عن الناس عقدة كلّ حقد » ، فقد استوفَى هذا المعنى زيادٌ فى خطبته البتْراء فقال : وقد كانت بينى وبين أقوام إحَن(١) ، وقد جعلت ذلك دَبْرَ أذنى وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزددْ إحسانا ، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن إساءته ، إنّى لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السُّلال(٢) من بُغضِى لم أكشف عنه قناعا ، ولم أهتِك له سِترا ، حتى يبدىَ لى صفحته ، فإذا فعل لم أناظِرْه ، ألا فليشمل كلّ امرىء منكم على ما فى صدره ، ولا يكوننّ لسانُه شفرةً تجرى على وَدَجِه .

***

[فصل فى النهى عن سماع السعاية وما ورد فى ذلك من الآثار]

فأمّا قوله عليه السلام :« ولا تعجلنّ إلى تصديق ساعٍ » ، فقد ورد فى هذا المعنى كلامٌ حَسَن ، قال ذو الرّياستين: قبول السِّعاية شرّ من السعاية لأنّ السعاية دلالة ، والقبول إجازة، وليس مَنْ دلّ على شىء كمن قبله وأجازه ، فامقت الساعىَ على سِعايته ، فإنه لو كان صادقا كان لئيما ؛ إذ هَتَك العورة ، وأضاع الحُرْمة .

وعاتب مصعبُ بنُ الزبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه فأنكره ، فقال مُصعب : أخبرَنى به الثِّقة ، قال : كلّا أيها الأمير ، إن الثقة لا يبلّغ .

وكان يقال : لو لم يكن من عَيْب الساعى إلّا أنه أصدق ما يكون أضرّ ما يكون على الناس ، لكان كافيا .

كانت الأكاسرة لا تأذن لأحد أن يطبخ السِّكْباج(٣) ، وكان ذلك ممّا يختصّ به الملِك ، فرفع ساع إلى أنوشروان : إنّ فلانا دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه

---

(١) الإحن : جمع إحنة ، وهى العداوة . (٢) السلال والسل بمعنى .

(٣) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل ؛ معرب .

سِكْباج ، فوقّع أنو شروان على رقعته : قـد حمدنا نصيحتَك ، وذَممنا صديقَك على سوء اختياره للإخوان .

جاء رجلٌ إلى الوليد بن عبد الملك وهـو خليفة عبد الملك على دِمَشق ، فقال : أيُّها الأمير ، إنّ عندى نصيحة ، قال : اذكُرهـا ، قال : جارٌ لى رجع من بعثه سرًّا ، فقال : أمّا أنت فقد أخبرتَنا أنك جارُ سَوْء ، فإن شئت أرسلنا معك ، فإن كنتَ كاذبا عاقبناك ، وإن كنت صادقا مقتناك ، وإن تركتنا تركناك ، قال : بل أتركك أيّها الأمـير . قال : فانصرف .

ومثلُ هـذا يُحكى عن عبد الملك أنّ إنسانا سأله الخَلْوة ، فقال لجلسائه : إذا شئتم فانصرفوا ، فلمـا تهيّأ الرجل للـكلام قال له : اسمع ما أقول ، إيّاك أن تمدَحَنى فأنا أعرَفُ بنفسى منك ، أو تـكذبنى فإنـه لا رأى لـمكذوب ، أو تسعى بأحد إلىّ فإنّى لا أحبّ السعاية ؛ قال : أفيأذنُ أمير المؤمنين بالانصراف ! قال : إذا شئت .

وقال بعض الشعراء :

لَعَمرُك ما سبّ الأميرَ عدوُّهُ   ولـكنّما سبَّ الأميرَ المبلِّغُ

وقال آخر :

حُرمتُ مُنائى منكَ إنْ كان ذا الذى[1]   أتاكَ بـه الواشُون عنّى كما قالوا
ولـكنّهم لمّا رأوك شريعـةً   إلىّ تواصَوا بالنميمةِ واحْتالوا[2]
فقد صِرتَ أُذْنا للوُشاة سميعـةً   ينالون مِنْ عِرْضى ولو شئتَ ما نالوا

وقال عبد الملك بنُ صالح لجعفر بن يحيى وقد خرج يودّعه لمّا شخص إلى خُراسان : أيّها الأمير ، أُحِبّ أن تـكون لى كما قال الشاعر :

---

(١) فى د « إن يكن الذى » ، وهو مستقيم الوزن والمعنى أيضاً .

(٢) الشريعة : مورد الشاربة .

فكونى على الواشين لَدّاء شَغْبةً　　كما أنا للواشى ألدُّ شَغُوبُ (١)

قال : بل أكون كما قال القائل :

وإذا الواشى وَشَى يوماً بها　　نفع الواشِى بما جاء يضُرّ

وقال العباس بن الأحنف :

ما حَطّك الواشُون من رُتْبةٍ　　عنـدى ولا ضَرّك مُغتابُ

كأنّهمْ أثنَوْا ولم يعلموا　　عليكَ عندى بالذى عابوا

***

قوله عليه السلام : « ولا تُدْخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفَضْل ، ويعدك الفقر » ، مأخوذٌ من قول الله تعالى : ﴿ الشَّيطانُ يَعِدُكم الفقرَ ويأمرُكُمْ بالْفَحْشَاء واللهُ يَعِدُكُمْ مَغفرةً منهُ وفَضْلاً ﴾(٢)؛ قال المفسّرون : الفَحْشاء ها هنا البُخْل ؛ ومعنى «يعدكم الفقر» ، يخيِّل إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوّفكم فتخافون فتبخلون .

قوله عليه السلام: « فإنّ البخلَ والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله»، كلامٌ شريف عالٍ على كلام الحكماء ، يقول: إن بينها قَدْرا مشترَكا وإن كانت غرائز وطبائع مختلفة ، وذلك القدْر المشترك هو سوء الظنّ بالله ، لأنّ الجبان يقول فى نفسه : إن أقدمتُ قُتِلت ، والبخيلَ يقول : إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ ، والحريصَ يقول : إن لم أجدّ وأجتهد وأدأب فاتنى ما أروم ؛ وكلّ هذه الأمور ترجع إلى سوء الظنّ بالله ، ولو أحسن الظنّ الإنسان بالله وكانَ يقينه صادقا لعلم أنّ الأجل مقدّر ، وأنّ الرزق مقدَّر ، وأنّ الغنى والفقر مقدَّران ، وأنّه لا يكون من ذلك إلاّ ما قَضَى الله تعالى كونه .

***

---

(١) اللداء : الشديدة الخصومة .　(٢) سورة البقرة ٢٦٨

الأَصْلُ :

شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لِلْأَشْرَارِ وَزِيراً ، وَمَنْ شرَكَهُمْ فِى الْآثَامِ ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ ؛ وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُم خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ وَلَا آثِماً عَلَى إِثْمِهِ ؛ أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً ، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً .

فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ .

* * *

الشَّرْحُ :

نهاه عليه السلام ألّا يتّخذ بطانة قد كانوا من قبلُ بطانةً للظّلَمة ، وذلك لأنّ الظلم وتحسينه قد صار ملَكةً ثابتة فى أنفسهم ، فبعيد أن يمكنهم الخلوّ منها إذ قد صارت كالخُلُق الغريزىّ اللّازم لتكرارها وصيرورتها عادَةً ، فقد جاءت النصوص فى الكتاب والسنّة بتحريم معاونة الظلمة ومساعَدتهم ، وتحريم الاستعانة بهم ، فإنّ من استعان بهم كان معيناً لهم ، قال تعالى : ﴿ وما كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[1] ، وقال : ﴿ لا تجدُ قوماً يُؤْمنُون باللهِ واليَوْم الآخر يُوَادُّون مَنْ حادّ الله ورسولَهُ ﴾[2] .

وجاء فى الخبر المرفوع: «يُنادَى يوم القيامة : أين من بَرَى[3] لهم ـ أى الظالمين ـ قلَما».

(١) سورة الكهف ٥١ .   (٢) سورة المجادلة ٢٢ .

(٣) ب : « يرى » ، تحريف ، صوابه فى ا ، د .

أُتِي الوليد بن عبـد الملك برجـل من الخوارج ، فقال له : ما تقول فى الحجّاج ؟ قال : وما عَسِيت أن أقول فيه ! هل هو إلّا خطيئة من خطاياك ، وشَرَر من نارك ؟ فلعنك الله ولعن الحجّاج معك ! وأقبل يشتُمهما ، فالتفت الوليدإلى عمرَ بن عبد العزيز فقال : ما تقول فى هذا؟ قال : ما أقول فيه ! هذا رجل يشتِمُـكم ، فإمّا أن تَشْتِمُوه كما شتمكم ، وإمّا أن تعفُوا عنه . فغضب الوليدُ وقال لعُمَر : ما أظنّك إلّا خارجيّا ! فقال عمر : وما أظنّك إلا مجنونا ؛ وقام فخرج مغضَبا ، ولحقه خالدُ بنُ الرّيان صاحب شُرْطة الوليد ، فقال له ما دعاك إلى ما كلّمتَ به أمير المؤمنين ! لقد ضربت بيدى إلى قائم سَيْفِى أنتظر متى يأمرنى بضرب عنقك ؛ قال : أو كنت فاعلا لو أمرك ؟ قال : نعم . فلمّا استُخْلف عمرُ جاء خالد بن الرّيان فوقف على رأسه متقلّدا سيفه ، فنظر إليه وقال : يا خالد ، ضَعْ سيفك فإنك مطيعنا فى كلّ أمرٍ نأمرك به — وكان بين يديه كاتب للوليد ، فقال له : ضع أنتَ قلمك ، فإنك كنتَ تضرّ به وتنفع ، اللهمّ إنى قد وضعتهما فلا ترفعْهما ، قال : فوالله ما زالا وضيعَين مَهِينَين حتى ماتا .

وروى الغزالىّ فى كتاب " إحياء علوم الدّين " ، قال لما خالط الزّهرىّ السّلْطان كتب أخٌ له فى الدّين إليه : عافانا الله وإيّاكَ أبا بكر من الفتن ، فقـد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعوَ الله لك ويرحمك ، فقد أصبحت شيخا كبيرا ، وقد أثقلتْك نعم الله عليك بما فهّمك من كتابه ، وعلّمك من سنّة نبيه ؛ وليس كذلك أخـذ الله الميثاقَ على العلماء ، فإنه تعـالى قال : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تَكْتُمونهُ ﴾[1] . واعلم أنّ أيسرَ ما ارتكبت ، وأخفّ ما احتملت ، أنك آنستَ وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغىّ بدنوّك إلى مَنْ لم يؤدّ حقّا ، ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك أبا بكر قُطْبا تدور

---

(١) سورة آل عمران ١٨٧ .

عليه رَحَا ظُلمهم ، وجِسْرا يعبرون عليه إلى بلائهم ومعاصيهم ، وسُلَّما يَصعدون فيه إلى ضلالتهم ، يُدخِلون بك الشّكّ على العلماء، ويقتادون بك قلوبَ الجهلاء، فما أيسر ما عَمَّروا لك فى جَنْب ما خرّبوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فى جَنْب ما أفسدوا من حالك ودينك ! وما يؤمِّنك أن تكون ممّن قال الله تعالى فيهم ﴿فخلَفَ مِنْ بَعْدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصّلاة واتبعوا الشهواتِ فسوف يَلقَون غيّا ﴾(١) يا أبا بكر ، إنّك تُعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداوِ دينَك فقد دخله سَقَم ، وهيّئْ زادَك فقد حضرَ سَفر بعيد ؛ ﴿وما يخفَى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾(٢) ، والسلام .

* * *

الأصل

والْصَقْ بأهْلِ الْوَرَعِ والصِّدْقِ ثمَّ رُضْهُمْ عَلَى ألّا يُطْرُوكَ ولَا يُبَجِّحُوكَ بِباطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فإن كَثْرَةَ الإطْرَاء تُحْدِثُ الزَّهْوَ ، وتُدْنِى مِنَ الْعِزَّةِ .

ولَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ والمُسِئُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاء ؛ فإنَّ فى ذَلِكَ تَزْهِيدًا لأهْلِ الإحْسانِ فى الإحْسانِ ، وتَدْرِيباً لأهْلِ الإساءَةِ عَلَى الإساءةِ ، وألْزِمْ كُلًّا منهمْ ما ألْزَمَ نَفْسَهُ .

* * *

---

(١) سورة مريم ١٢٥ . (٢) سورة ابراهيم ٣٨ .

الشَّرح :

قوله : « والصَق بأهل الورع » ، كلمةٌ فصيحــة ، يقول : اجعلهم خاصّتك وخُلصاءك .

قال : ثمّ رُضْهم على ألاّ يُطرُوك ، أى عوّدهم ألاّ يمدحوك فى وجهك. ولا يبجّحوك بباطل : لا يجعلوك ممن يبجَح أى يفخر بباطل لم يفعــله كما يُبَجِّح أصحابُ الأمراء الأمراء بأن يقولوا لهم : ما رأينا أعدل منــكم ولا أسمحَ ، ولا حَمَى هذا الثغرَ أمير أشدَّ بأسا منــكم ! ونحو ذلك ، وقد جاء فى الخبر : « احْثُوا فى وجوه المدّاحين التراب » .

وقال عبد الملك لمن قام يسارّه : ما تريد ! أتريد أن تمدَحَنى وتَصِفنى ، أنا أعلم بنفسى منك .

وقام خالد بنُ عبدِ الله القَسْرىّ إلى عمرَ بن عبد العزيز يوم بَيْعته فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ كانت الخلافة زائنَتَه فقــد زيّنــتَها ، ومَنْ كانت شرّفته فقد شرّفتَها ، فإنّك لــكما قال القائل :

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجُوهٍ   كان للدّرّ حُسنُ وجهك زَيْنَا

فقال عمرُ بنُ عبد العزيز : لقد أُعطِى صاحبُــكم هذا مِقْوَلًا ، وحُرِم مَعْقولا . وأمَرَه أن يجلس .

ولما عَقدَ معاوية البَيْعة لابنه يزيد قام النّاس يخطبون ، فقال معــاوية لعمرو بنِ سعيد الأشْدَق : قم فاُخطب يا أبا أميّة ، فقام فقــال : أمّا بعد ، فإنّ يزيدَ ابنَ أمير المؤمنين أملٌ تأمُلونه ، وأجلٌ تأمَنونه، إن افتقرتم إلى حِلمِه وَسِعَــكم ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدَكم، وإن اجتَدَيتم ذاتَ يده أغنا كم وشَمِلَــكم ؛ جِذْعٌ قارِح ؛ سُوبِق فَسَبَق ، ومُوجِدَ فمُجد ،

وقُورِع فَقَرِع ، وهو خلف أمير المؤمنين ، ولا خَلْفَ منه . فقال معاية : أَوْسَعتَ يا أبا أميّة فاجلس ، فإنّما أردنا بعضَ هذا .

وأَثنَى رجلٌ على عليّ عليه السلام فى وجهه ثناءً أوسَع فيه ـ وكان عنده متّهما ـ فقال له : أنا دونَ ما تقول ، وفوق ما فى نفسك .

وقال ابن عبّاس لعُتْبة بن أبى سُفْيان وقد أَثنَى عليه فأكثر : رويداً فقد أمهَيْتَ يا أبا الوليد ـ يعنى بالغتَ ، يقال أمهَى حافرُ البئر ، إذا استقصَى حفْرَها .

فأمّا قوله عليه السلام : « ولا يكوننّ المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء » ، فقد أخذه الصّابى فقال : «وإذا لم يكن للمُحسِن ما يَرفعه، وللمسىء ما يَضَعُه ، زَهِد المحسن فى الإحسان، واستمرّ المسىء على الطّغيان » ، وقال أبو الطيّب :

شرّ البلاد بلادٌ لا صديقَ بها وشرّ ما يكسب الإنسانُ ما يَصِمُ[(١)]

وشرّ ما قبضتْه راحتى قَنَصٌ شُهْبُ البُزاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ

وكان يقال : قضاء حقّ المحسن أدبٌ للمسىء ، وعقوبة المسىء جزاءٌ للمحسِن .

* * *

الأصْـلُ :

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَىْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ المَئُونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ . فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِى ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ .

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٧٣ .

وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَـذِهِ الْأُمَّةِ ، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ ، فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا ، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيتِ مَاصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ ؛ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ .

* * *

الشرح :

خلاصةُ صدرِ هذا الفصل ، أنّ مَنْ أحسنَ إليك حَسُن ظنُّه فيك ، ومَنْ أساء إليك اُستَوْحش منك ، وذلك لأنّك إذا أحسنتَ إلى إنسان وتـكرّر منك ذلك الإحسان تبع ذلك اُعتقادُك أنّه قد أحبّك ، ثمّ يتبع ذلك الاعتقادَ أمرٌ آخر ، وهو أنّك تحبّه ؛ لأنّ الإنسان مجبول على أن يحبّ مَن يحبُّه ، وإذا أحببتَه سكنتَ إليه وحَسُن ظنّك فيه ، وبالعكس من ذلكَ إذا أسأتَ إلى زيد ، لأنّك إذا أسأت إليه وتـكرّرت الإساءة تَبِع ذلك اُعتقادُك أنّه قد أبغضك ، ثمّ يتبع ذلك الاعتقادَ أمرٌ آخر ، وهو أن تُبغضه أنت ، وإذا أبغضتَه انقبضتَ منه واُستوحشت ، وساءَ ظنّك به .

قال المنصور للرّبيع : سَلْني لنفسك ؛ قال . يا أمير المؤمنين ، ملأتَ يدى فلم يبقَ عندى موضعٌ للمسألة ؛ قال : فسَلْني لوَلَدك ، قال : أسألك أن تحبّه ، فقال المنصور : ياربيع ، إنّ الحبَّ لايُسأل ، وإنّما هو أمرٌ تقتضيه الأسباب ، قال : ياأمير المؤمنين ، وإنّما أسألك أن تزيد مِنْ إحسانك ، فإذا تـكرّر أحبّك ، وإذا أحبّك أحببتَه . فاُستحسن

المنصورُ ذلك ، ثمّ نهاه عن نقض السّنن الصالحة الّتى قد عمل بها من قبله من صالحى الأمّة ، فيكون الوزر عليه بما نَقَض ، والأجر لأولئك بما أَسّسوا ، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء فى مَصالح عمله ، فإنّ المشورة بركة ، ومن استشار فقد أضاف عَقْلا إلى عقله .

ومما جاء فى معنى الأوّل :

قال رجلٌ لإياس بن معاوية : مَن أحبُّ الناسِ إليك ؟ قال : الذين يُعطُونى ، قال : ثمّ من ؟ قال : الّذين أُعطيهم .

وقال رجل لهشام بن عبد الملك : إنّ الله جعل العطاء محبّة ، والمنعَ مَبغضَة ، فأعِنّى على حُبّك ، ولا تُعِنّى فى بُغْضك .

***

الأصْلُ :

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ ، لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ ، وَلَا غِنًى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا .

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ ؛ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ

وَالْكُتَّابِ ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا ؛ وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِى الصِّنَاعَاتِ ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ ، مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ .

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ .

وَفِى اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِى حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ .

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِى مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ ، إِلَّا بِالاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ ؛ وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قالت الحكماء : الإنسانُ مَدَنىّ بالطّبع ؛ ومعناه أنه خُلِق خِلْقةً لابدَّ معها من أن يكون منضمّا إلى أشخاصٍ من بنى جنسه ، ومتمدّنا فى مكان بعينه ، وليس المراد بالمتمدّن ساكنَ المدينة ذات السّور والسّوق ، بل لابدّ أن يقيم فى موضع مّا مع قوم من البَشَر ؛ وذلك لأنّ الإنسان مضطرّ إلى ما يأكله ويشربُه ليقيمَ صورتَه ، ومضطرّ إلى ما يلبسه ، ليدفع عنه أذى الحرّ والبرْد ، وإلى مَسكَن يسكُنه ليردّ عنه عاديَةَ غيره من الحيوانات ، وليكون مَنزِلا له ليتمكّن من التصرّف والحركة عليه ، ومعلومٌ أن الإنسان وحده لا يستقلّ بالأمور التى عددناها ، بل لابدَّ من جماعة يَحرُث بعضهم لغيره الحرْث ، وذلك الغير يَحُوكُ للحرّاث الثوب ، وذلك الحائك يبنى له غيره المَسْكَن ، وذلك البنّاء يحمل له

غيرُه[1] الماء ، وذلك السّقاء يكفيه غيرُه أمرَ تحصيل الآلة الّتى يطحن بها الحبّ ويعجن بها الدّقيق ، ويَخبز بها العجين ، وذلك المحصّل لهـذه الأشياء يكفيه غيرُه الاهتمام بتحصيل الزّوجة الّتى تدعو إليها داعية الشَّبَق ، فيَحصُل مساعدة بعض الناس لبعض ، لولا ذلك لما قامت الدنيا ، فلهذا معنى قوله عليه السلام : « إنّهم طبقات لا يصلُح بعضُها إلّا ببعض ، ولا غَناء ببعضها عن بعض » .

ثم فصّلهم وقسّمهم فقـال : منهم الجند ، [2] ومنهم الـكتّاب ، ومنهم القُضاة ، ومنهم العمّال [2] ، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذّمة ، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين ، ومنهم التجّار ، ومنهم أرباب الصّناعات . ومنهم ذوو الحاجات والمَسكَنة ، وهم أدوَن الطبقات .

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال : الجند للحماية ، والخراجُ يُصرَف إلى الجند والقُضاة والعمّال والـكتّاب لما يحكمونه من المعاقد ، ويجمعونه من المنافع ، ولابدّ لهـؤلاء جميعا من التجّار لأجل البَيْع والشّراء الّذى لا غَناءَ عنه ، ولابدّ لـكلٍّ من أرباب الصناعات كالحدّاد والنجّار والبنّاء وأمثالهم . ثمّ تلى هؤلاء الطبقة السفلى ، وهم أهـل الفقر والحاجة الّذين تجب معونتُهم والإحسانُ إليهم .

وإنّما قسّمهم فى هذا الفصل هذا التقسيم تمهيدا لما يذكره فيما بعد ، فإنّه قد شرع بعد هـذا الفصل ، فذَكَر طبقةً طبقةً وصِنفاً صِنفا ، وأوصـاه فى كلّ طبقة وفى كلّ صِنف منهم بما يليق بحاله ، وكأنّـه[3] مَهّد هـذا التمهيد ، كالفِهرِست لـما يأتى بعده من التفصيل .

***

---

(١) ب : « غير تحريف » . (٢–٢) ساقط من ب ، وأثبته من ا د .

(٣) ا : « فـكأنه » .

الأصْـلُ :

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإمَامِكَ، وَأَطْهَرَهُمْ جَيْباً، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ؛ وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ؛ وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ؛ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ؛ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا؛ وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ. وَلَا تُحَقِّرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ.

وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا؛ فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ؛ وَلْيَكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ. وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ[١] عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ.

فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ

---

(١) مخطوطة النهج : « بحيطّتهم » بالياء المشددة المكسورة .

مِنهُمْ، فَإنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فَعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ ؛ إنْ شَاءَاللهُ.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إلَى غَيْرِهِ ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ .

وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إلَى أَنْ تُعَظِّمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيماً ، وَارْدُدْ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إرْشَادَهُمْ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾[1] ، فَالرَّدُّ إلَى اللهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ .

* * *

الشرح :

هذا الفصل مختصٌّ بالوَصاة فيما يتعلّق بأمراء الجيش ، أمَرَه أن يولّيَ أمر الجيش من جنودِه مَن كان أنصحَهم لله فى ظنّه ، وأطهرَهم جَيْبا ، أى عفيفا أمينا ؛ ويُكنَى عن العفّة والأمانة بطهارة الجَيْب ، لأنّ الّذى يسرق يجعل المسروق فى جَيْبه .

فإن قلت : وأىّ تعلّق لهذا بوُلاة الجيش ؟ إنّما ينبغى أن تكون هذه الوصيّة فى وُلاة الخراج !

قلت : لابدّ منها فى أمراء الجيش لأجل الغنائم .

ثمّ وصف ذلك الأمير فقال: « ممّن يبطىء عن الغضب، ويستريح إلى العُذر » ، أى يقبَل

---

(١) سورة النساء ٥٩ .

أَدْنى عذر ، ويستريحُ إليه ، ويَسكُن عنده . ويَرْؤُف[1] على الضّعفاء ، يَرفق بهم ويَرحمُهم ، والرأفة : الرحمة . ويَنْبو عن الأقوياء : يتَجافى عنهم ويبعد ، أى لا يُمكِّنهم من الظّلم والتعدّى على الضعفاء . ولا يثيره العُنْف : لا يهيج غضبَه عُنْف وقَسْوة . ولا يَقْعد به الضّعف ، أى ليس عاجزا .

ثم أمره أن يَلصق بذوى الأحساب وأهلِ البيوتات ، أى يكرمهم ويَجعل معوّله فى ذلك عليهم ولا يتعدّاهم إلى غـيرهم ، وكان يقال : عليكم بذوِى الأحساب ؛ فإنْ هم لم يتكرّموا استحيَوْا[2] .

ثم ذكر بعدهم أهلَ الشجاعة والسّخاء ، ثم قال : « إنها جِمَاع من الكرم ، وشُعَب من العرف » ؛ من هاهنا زائدة ؛ وإن كانت فى الإيجاب على مذهب أبى الحسن الأخفش ، أى جماع الكرم ، أى يجمعه كقول النبىّ صلى الله عليه وآله : « الخمر جِمَاع الإثم » . والعُرْف : المعروف .

وكذلك « مـن » فى قوله : « وشُعَب من العُرْف » أى وشُعَب العُرْف ، أى هى أقسامه وأجزاؤه ، ويجوز أن تكون « من » على حقيقتها للتبعيض ، أى هذه الخلال جملة من الكرم وأقسام المعروف ؛ وذلك لأنّ غيرها أيضا من الكرم والمعروف ، ونحو العدل والعفّة .

قوله : « ثم تفقّد من أمورهم » الضمير هاهنا يرجع إلى الأجناد لا إلى الأمراء لما سنذكره ؛ ممّا يدلّ الكلام عليه .

فإن قلت : إنه لم يَجْرِ للأجناد ذِكْرٌ فيما سبق ؛ وإنما المذكور الأمراء !

قلت : كلاّ بل سبق ذكر الأجناد ، وهو قوله : « الضعفاء والأقوياء » .

---

(١) د : « يرأف » ، تحريف . .

(٢) د : « استحسبوا » ، ب : « استحبوا » ، وأثبت ما فى ا .

وأمره عليه السلام أن يتفقّد من أمور الجيش ما يتفقّد الوالدان من حال الولَد ؛ وأمره ألّا يعظِّم عنده ما يقوّيهم به وإن عظم ، وألّا يستحقِر شيئاً تعهّدهم به وإن قلّ ، وألّا يمنعه تفقّدُ جسيم أمورهم عن تفقد صغيرها . وأمره أن يكون آثر رءوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه مَنْ واساهم فى معونته ؛ هذا هو الضمير الدالّ على أنّ الضمير المذكور أولا للجُند لا لأمراء الجند ؛ لولا ذلك لما انتظم الكلام .

قوله : « من خُلُوف أهليهم » ، أى ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم .

ثم قال : لا يصحّ نصيحة الجند لك إلا بحيطتهم على ولاتهم ؛ أى بتعطّفهم عليهم وتحنّنهم ، وهى الحِيطَة على وزن الشِّيمة ، مصدر حاطه يحوطه حَوْطا وحياطا ، وحِيطة ، أى كلأه ورعاه ، وأكثر الناس يروونها « إلّا بحيِّطتهم » بتشديد الياء وكسرها ، والصحيح ما ذكرناه .

قوله : « وقلّة استثقال دُوَلهم » ؛ أى لا تصحّ نصيحة الُجنْد لك إلّا إذا أحبُّوا أمراءهم ثم لم يستثقلوا دُوَلهم ؛ ولم يتمنّوا زوالَها .

ثم أمره أن يذكر فى المجالس والمحافل بلاءَ ذوى البلاء منهم ؛ فإنّ ذلك مما يُرهِف عَزْم الشُّجَاع ويحرّك الجبان .

قوله : « ولا تضُمَّنَّ بلَاءَ امرئ إلى غيره » ، أى اذكر كلَّ من أبلى منهم مفرَدا غير مضموم ذكرُ بلائه إلى غيره ، كى لا يكون مغمورا فى جَنْب ذكر غيره .

ثم قال له : لا تعظّم بلاء ذوِى الشرف لأجل شرفهم ، ولا تحقِر بلاء ذَوِى الضَّعَة لضعة أنسابهم ، بل اذكر الأمورَ على حقائقها .

ثم أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يُضلعه من الخطوب ؛ أى ما يئوده ويُميله

لثقله ، وهذه الرواية أصحّ من رواية من رواها بالظّاء ؛ وإن كان لتلك وجه .

* * *

[رسالة الإسكندر إلى أرسطو وردّ أرسطو عليه]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضع رسالة أرسطو إلى الإسكندر فى معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوى الأحساب ، وأن يخصّهم بالرياسة والإمْرة ؛ ولا يعدل عنهم إلى العامّة والسِّفلة ، فإن فى ذلك تشييداً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ووصيّته .

لما ملك الإسكندر إيران شَهْر ـ وهو العراق مملكة الأكاسرة ـ وقتلَ دارًا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو ببلاد اليونان :

عليك أيّها الحكيم منّا السلام ، أما بعد فإن الأفلاك الدائرة ، والعلل السمائيّة ؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمور التى أصبح الناس لنا بها دائبين ، فإنّا جدُّ واجِدِين لمسّ الاضطرار إلى حكمتك ، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك ، والاستنامَة[1] إلى مشورتك والاقتداء برأيك ؛ والاعتماد لأمرك ونهيك ، لِمَا بلوْنَا من جَدا ذلك علينا ، وذقنا من جَنَا منفعته ، حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسُّخه فى أذهاننا وعقولنا كالغذاء لنا ، فما ننفكّ نعوّل عليه ، ونستمدّ منه استمدادَ الجداول من البحور ، وتعويل الفروع على الأصول ، وقوّة الأشكال بالأشكال . وقد كان مما سيق إلينا من النّصر والفَلْج ، وأُتيح لنا من الظَّفَر ، وبلغنا فى العدوّ من النِّكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه ، ويقصِّر شكر المنعم عن موقع الإنعام به ، وكان من ذلك أنّا جاوزنا أرض سوريَة والجزيرة إلى بابل وأرض فارس ، فلما حللنا بعقوَة[2] أهلها وساحة بلادهم ، لم يكن إلا ريثما تلقّانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هديّة إلينا ، وطلباً للحظوة عندنا ، فأمرنا بصلْب مَن

(١) كذا فى ا ، واستنام إلى الأمر : سكن إليه ؛ وفى ب : « الاستبانة » .

(٢) العقوة : ماحول الدار .

جاء به وشهرته لسوء بلائه ، وقلة ارعوائه ووفائه ؛ ثم أمرنا بجمع مَنْ كان هنـاك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوى الشرف منهم ؛ فرأينـا رجالاً[1] عظيمةً أجسامهم وأحلامهم ، حاضرة ألبابهم وأذهانهم ، رائعة مناظرهم ومناطقهم ، دَليـلاً على أن مايظهر من رُوائهم ومنطقهم أنّ وراءه من قوّة أيديهم ، وشدّة نجْدتهم وبأسهم مالم يـكن ليـكون لنا سبيل إلى غلَبتهم وإعطائهم بأيديهم ، لولا أنّ القضاء أدالنا منهم ، وأظفرنا بهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نرَ بعيدا من الرأى فى أمرهم أن نستأصل شأفتهم ، ونجتثّ أصلهم ، ونلحقهم بمَنْ مضى من أسلافهم ، لتسكن القـلوب بذلك الأمْن إلى جرائرهم وبوائقهم ؛ فرأينا ألّا نعجل بإسعافٍ بادئ الرأى فى قتلهم دون الاستظهار عليهم بمشورتك فيهم . فارفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بعد صحّته عندك ، وتقليبك إياه بجلىّ نظرك ، وسلام أهل السلام ، فليـكن علينا وعليك .

فـكتب إليه أرسطو :

لملك الملوك ، وعظيم العظماء ، الإسكندر المؤيّد بالنصر على الأعـداء ، المهدى له الظفر بالملوك ، من أصغر عبيده وأقل خَوَلِه ؛ أرسطو طاليس البَخُوع بالسُّجود والتـذلل فى السلام ، والإذعان فى الطاعة :

أما بعد ، فإنه لا قوّة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه ، واجتهد فى تثقيف معانيه ، وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقلّ ماتناله القدرة من بَسْطةِ علُوّ الملك وسموّ ارتفاعه عن كلّ قولٍ ، وإبرازه على كلّ وصف ، واغترافه بكلّ إطناب . وقد كان تقرّر عنـدى من مقدّمات إعلام فضل الملك فى صَهْلة سبقه ، وبروز شأوه ، ويُمْن نقيبته ، مـذ أدّت إلىّ حاسةُ بصرِى صورة شخصه ، واضطرب فى حسّ سمعى صـوتُ لفظه ، ووقع وهمى

---

(١) ب : « رجالة » .

على تعقيب نجاح رأيه ، أيّام كنت أؤدى إليه من تكلّف تعليمى إيّاه ما أصبحتُ قاضيا على نفسى بالحاجة إلى تعلّمه منه . ومهما يَكُنْ منّى إليه فى ذلك ، فإنما هو عقل مردود إلى عقله ، مستنبطة أواليه وتواليه من علمه وحكمته . وقد جلا إلىّ كتاب الملك ومخاطبته إيّاى ومسألته لى عمّا لا يتخالجنى الشكّ فى لقاح ذلك وإنتاجه من عنده، فعنه صَدَر وعليه ورَد ؛ وأنا فيما أشير به على الملك ــ وإن اجتهدت فيه واحتشدت له ، وتجاوزت حدّ الوسع والطاقة منّى فى استنظافه واستقصائه ــ كالعدم مع الوجود ، بل كما لا يتجزّأ فى جنب معظم الأشياء ، ولكنّى غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل ، مع علمى ويقينى بعظيم غناه عنى ، وشدّة فاقتى إليه ، وأنا رادٌّ إلى الملك ما اكتسبتُه منه ، ومشير عليه بما أخذته منه فقائل له:

إنّ لكل تربة لا محالة قَسْماً من الفضائل ، وإن لفارس قسمها من النَّجْدة والقوّة ، وإنّك إن تقتل أشرافهم تُخلِّف الوضعاء على أعقابهم ، وتورث سِفْلتهم على منازل عِلْيَتهم ، وتغلِّب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم ؛ ولم يبتلَ الملوك قطّ ببلاء هو أعظمُ عليهم وأشدّ توهينا لسلطانهم من غلبة السِّفْلة ، وذلّ الوجوه ، فاحذر الحذر كله أنْ تمكّن تلك الطبقة من الغَلَبة والحركة ، فإنه إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجمٌ دهمهم منه ما لا رويّة فيه ، ولا بقيّة معه ؛ فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمَد إلى مَنْ قبلك من أولئك العظماء والأحرار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كلّ مَنْ ولّيته منهم ناحيته ، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه ، فإن التسمّى بالملك لازم لاسمه ، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره ، فليس ينشب[1] ذلك أن يوقع كلّ ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطعاً وتغالباً على الملك ، وتفاخراً بالمال والجند ؛ حتى ينسوْا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك ، ويعود حربهم لك حرباً

(١) ا : « يلبث » .

بينهم ، وحنَقهم عليك حنَقاً منهم على أنفسهم ، ثم لا يزدادون فى ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها استقامة ؛ إن دنوتَ منهم دانوا لك ، وإن نأيتَ عنهم تعزّزوا بك ، حتى يثب مَنْ ملك منهم على جاره باسمك ، ويسترهبَه بجندك ، وفى ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لإحداثهم بعدك ، وإن كان لا أمانَ للدهر ، ولا ثقة بالأيام .

قد أدّيتُ إلى الملك ما رأيتهُ لى حظا ، وعلىّ حقـا ، من إجابتى إيّاه إلى ما سألنى عنه ، ومحّضته النصيحة فيه ، والملكُ أعلى عيناً ، وأنفذُ رَوِيّةً ، وأفضل رأيا ، وأبعد هِمّة فيما استعان بى عليه ؛ وكلّفنى بتبيينه والمشورة عليه فيه . لا زال الملك متعرّفاً من عوائد النّعم وعواقب الصنع ، وتوطيد الملك ، وتنفيس الأجل ، ودَرك الأمل ، ما تأتى فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر !

والسلام الذى لا انقضاء له ، ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .

قالوا : فعمِل الملك برأيه ، واستخلف على إيران شهر أبناء الملوك والعظماء من أهل فارس ، فهم ملوك الطوائف الذين بقوا بعده ؛ والمملكة موزعة بينهم إلى أن جاء أزْدَشير ابن بابَك فانتزع الملك منهم .

* * *

الأصْلُ :

ثُمَّ اُخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِى نَفْسِكَ ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تَمْحَكُهُ الْخُصُومُ ، وَلَا يَتَمادَى فِى الزَّلَّةِ ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، وَلَا يَكْتَفِى بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ . وَأَوْقَفَهُمْ فِى الشُّبُهاتِ ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ

عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ .

ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ ، وَأَفْسِحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَالَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَرًا بَلِيغًا ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .

***

الشَّرْحُ :

تمحّكه الخصوم : تجعله ماحكا ، أى لجوجا ، محك الرّجل ، أى لجّ ، وماحك زيد عمْرا ؛ أى لاجّه .

قوله : « ولا يتمادى فى الزّلّة » ، أى إن زلّ رجع وأناب ، والرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادى فى الباطل .

قوله : « ولا يحصَر من الفىء » هو المعنى الأول بعينه ، والفىء : الرجوع ، إلّا أنّ ها هنا زيادة ، وهو أنه لا يحصَر ، أى لا يعيا فى المنطق ، لأنّ مِن النّاس من إذا زلّ حصِر عن أن يرجع وأصابه كالفهاهة والعىّ خجلا .

قوله : « ولا تُشرِفُ نفسه » ، أى لا تشفق . والإشراف : الإشفاق والخوف ، وأنشد الليث :

ومِنْ مُضَر الحمراء إسراف أنفسٍ   علينا وحيّاها علينا تمضّرا

وقال عروة بن أُذَيْنة :

لقد عَلِمْتُ وما الإشرافُ من خُلُقى   أنّ الذى هو رزقى سوفَ يأتينى[1]

والمعنى : ولا تشفق نفسه ، وتخاف من فوت المنافع والمرافق .

ثم قال : « ولا يكتفى بأدنى فهم » ، أى لا يكون قانعا بما يخطر له بادئ الرأى من أمر الخصوم ، بل يستقصى ويبحث أشدّ البحث .

قوله : « وأقلهم تبرّما بمراجعة الخصم » ، أى تضجُّراً ، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه عليه السلام ، فإنّ القلق والضجر والتبرُّم قبيح ، وأقبح ما يكون من القاضى .

قوله : «وأصرمهم»، أى أقطعهم وأمضاهم . وازدهاه كذا ، أى استخفّه . والإطراء: المدح . والإغراء : التحريض .

ثم أمره أنْ يتطلّع على أحكامه وأقضيته ، وأن يفرض له عطاء واسعا يملأ عينه ، ويتعفّف به عن المرافق والرّشوات ، وأن يكون قريب المكان منه ، كثير الاختصاص به ليمنع قربه من سعاية الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده .

ثم قال :« إنّ هذا الدّين قد كان أسيرا »، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه ، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده ، بل بالهوى لطلب الدنيا .

وأما أصحابنا فيقولون : رحم الله عثمان ! فإنه كان ضعيفا ، واستولى عليه أهله ، قطعوا الأمور دونه ، فإثمهم عليهم وعثمان برىء منهم .

* * *

(١) اللسان (شرف) .

[فصل فى القضاة وما يلزمهم وذكر بعض نوادرهم]

قد جاء فى الحديث المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » . وجاء فى الحديث المرفوع أيضا : « من ابْتُلِيَ بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومجلسه ومقعده » .

دخل ابن شهاب على الوليد ـ أو سليمان ـ فقال له : يابنَ شهاب ، ما حديث يرويه أهل الشام؟ قال: ماهو ياأمير المؤمنين؟ قال: إنهم يروون أن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعيّة كُتب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات ، فقال : كذبوا يا أمير المؤمنين ، أيّما أقرب إلى الله ؛ نبيّ أم خليفة ! قال : بل نبيٌّ ؛ قال : فإنه تعالى يقول لنبيه داود : ﴿ يا دَاودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ الله إِنَّ الَّذِين يَضلُّون عن سبيل الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ[1] ﴾ . فقال سليمان : إن الناس لَيغُرُّوننا عن ديننا .

وقال بكر بن عبد الله العَدَوِيّ لابن أرطاة ــ وأراد أن يستقضيَه : والله ما أحسِن القضاء ، فإن كنتُ صادقا لم يحلَّ لك أن تستقضِيَ مَنْ لا يحسن ، وإن كنت كاذبا فقد فسقت ، والله لا يحلّ أن تستقضِيَ الفاسق .

وقال الزُّهرِيّ : ثلاث إذا كنّ فى القاضى فليس بقاضٍ ، أنْ يَكْرَهَ اللائمة ، ويحبّ المحمدة ، ويخاف العزْل .

وقال محارب بن زياد للأعمش : ولِّيتُ القضاء فبكى أهلى ، فلمّا عُزِلت بكى أهْلِى ، فما أدرى مِمّ ذلك ؟ قال : لأنك ولِّيتَ القضاء وأنت تكرهه وتجزعُ منه ،

---

(١) سورة ص ٢٦ .

فبكى أهلك لجزعك ، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت فبكى أهلك لجزعك . قال : صدقت .

أُتِىَ ابنُ شُبْرُمة بقوم يشهدون على قَراحٍ(١) نخل، فشهدوا — وكانوا عدولا — فامتحنهم فقال : كم فى القَراح(١) من نخلة ؟ قالوا : لا نعلم ، فردَّ شهادتهم ، فقال له أحدهم : أنت أيّها القاضى تقضى فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنةً ، فأَعْلِمْنا كم فيه من أسطوانة ؟ فسكت وأجازهم .

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة يتلقّى الخيزران ، وقد أقبلتْ تريد الحجّ ، وقد كان استُقضى وهو كاره ، فأتى شاهى(٢) ، فأقام بها ثلاثا ، فلم توافِ ، فخفّ زادُه وما كان معه ، فجعل يبلّه بالماء ويأكله بالمِلح ، فقال العلاء بن المنهال الغَنَوِىّ :

فإنَ كان الذى قد قلتَ حقّا ... بأن قد أَكْرَهوكَ على القضاء(٣)

فما لَكَ مُوضِعا فى كلّ يومٍ ... تلقّى مَنْ يَحُجّ من النّساء

مُقيما فى قُرى شاهى ثلاثا ... بلا زادٍ سوى كِسَرٍ وماء !

وتقدّمتْ كَلْثَم بنت سريع مولَى عَمرو بن حريث — وكانت جميلةً — وأخوها الوليد ابن سريع إلى عبد الملك بن عُمير ؛ وهو قاضٍ بالكوفة ، فقَضَى لها على أخيها ، فقال هُذَيل الأشجعى :

أتاه وليدٌ بالشهودِ يسوقُهمْ ... على ما ادّعى من صامتِ المالِ والَخوَلْ

وجاءت إليه كَلْثمٌ وكَلامُها ... شِفاءٌ من الدّاء المخامِر والَخبَلْ

فأدلى وليدٌ عند ذاكَ بحقّه ... وكانَ وليدٌ ذَا مِراء وذا جَدَلْ

فدَلّهت القِبطىَّ حتى قضى لها ... بغير قضاء الله فى مُحكَم الطِّوَلْ

---

(١) القراح هنا : البستان ، وانظر ياقوت (قرح) . (٢) شاهى : موضع قرب القادسية .
(٣) الخبر والأبيات فى معجم البلدان ٥ : ٢٢٤ .

فلو كان مَنْ فى القصر يَعلَم علمَــه   لما أُستعمل القِبطىُّ فينا على عمَــلْ
له حــين يقضِى للنساء تخاوُصٌ   وكان وما فيه التَّخاوُصُ والَحوَلْ
إذا ذاتُ دَلٍّ كلّمَتْـــه لحاجةٍ   فهمّ بأن يَقضِى تَنحنَحَ أو سَعَلْ
وبرّق عينيـــه وَلَاكَ لسانَـهُ   يرى كلّ شىءٍ ما خلا وَصْلِها جَلَلْ

وكان عبدُ الملك بن عمير يقول: لعن الله الأشجعىّ ، والله لرُبّما جاءتْنى السّعلةُ والنّحْنحة وأنا فى المتوضّأ فأردّها لما شاعَ من شِعره.

كتب عمر بنُ الخطّاب إلى معاوية : أمّا بعد ، فقد كتبتُ إليك فى القضــاء بكتاب لم آلُكَ ونفسِى فيه خيراً ؛ الزَم خمسَ خِصال يَسلمْ لك دينُك، وتأخذْ بأفضل حظّك: إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة، وأَدْنِ الضّعيف حتّى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانُه ، وتعهّد الغريبَ فإنّك إن لم تتعهده تَركَ حقّه ورجع إلى أهله ؛ وإنّما ضَيّع حقه من لم يُرفَقْ به ، وآسِ بين الخصوم فى لحظك ولَفْظك ، وعليك بالصّلح بين النــاس ما لم يَسْتَبِن لك فصل القضاء .

وكتب عمر إلى شُريح : لا تسارِر ولا تُضارِرْ ، ولا تَبِـع ولا تَبْتَـع فى مجلس القضاء ، ولا تَقْضِ وأنتَ غضبانُ ، ولا شديدُ الجوع ، ولا مشغولُ القلب .

شهد رجل عند سوّار القاضى ، فقال : ما صناعتُك ؟ فقال : مؤدِّب ؛ قال : أنا لا أجيز شهادتَك ؛ قال : ولم ؟ قال : لأنّك تأخذ على تعليم القرآن أجرا ، قال : وأنت أيضا تأخذ على القضاء بين المسلمين أجرا ، قال : إنّهم أكرَهونى ؛ قال : نعم أكرهوك على القضاء ، فهل أكرَهوك على أخذ الأجر ! قال : هلمّ شهادتَك .

ودخل أبو دُلامَة ليشهَد عند أبى ليلَى ، فقال حين جلس بين يديه :

إذا النــاسُ غطّوْنى تَغطّيتُ عنهمُ   وإن بحثوا عنّى ففيهمْ مَباحِثُ (١)

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٣٤ ، وفيه « إن الناس » .

وإن حَفَروا بئرى حفرْتُ بئارَهمْ   ليعلم ما تُخفيـه تلك النبّائثُ

فقال : بل نعطّيك يا أبا دُلامة ولا نبحثك ؛ وصرَفَـه راضيا، وأعطى المشهود عليه من عندِه قيمةَ ذلك الشيء .

كان عامرُ بنُ الظَّرِب العَدْوانىّ حاكمَ العرب وقاضيَها ، فنزل بهقوم يسيفتونه فى الخنثى وميراثه ؛ فلم يدرِ ما يَقضِى فيه ، وكان له جارية اسمُها خصيلة ، ربّما لامها فى الإبطاء عن الرّعى وفى الشيء يجدُه عليها ، فقال لهـا : يا خُصَيلة ، لقد أسرَعَ هؤلاء القومُ فى غنمى ، وأطالوا المكث ؛ قالت : وما يَكبُر عليك من ذلك ؟ اتبعهْ مَبالَه وخلاكَ ذمّ ، فقال لها : «مَسِّى[1] خُصَيلُ بعدَها أو رُوحى ».

وقال أعرابىّ لقوم يتنازعون : هـل لكم فى الحقّ أو ما هو خير من الحقّ ؟ قيل : وما الّذى هو خيرٌ من الحقّ ؟ قال: التحاطّ والهَضْم ؛ فإنّ أخذ الحقّ كلّه مرّ .

وعزل عمرُ بنُ عبد العزيز بعضَ قُضاتِه ، فقال : لم عزلْتَنى ؟ فقال : بلغنى أنّ كلامك أكثرُ من كلام الخصْمين إذا تحاكَما إليك .

ودخل إياسُ بنُ معاويةَ الشام وهو غلام، فقدّم خَصْما إلى باب القاضى فى أيّام عبد الملك ، فقال القاضى : أما تستَحيي ! تُخاصم وأنت غلامٌ شيخاً كبيرا ؟ فقال : الحقّ أكبرُ منه ، فقال : اسكتْ وَيْحَك ! قال : فمن ينطق بحجّتى إذاً ! قال : ما أظنّك تقول اليوم حقًّا حتى تقوم ؛ فقال : لا إلـه إلّا الله . فقام القاضى ودخل على عبدِ الملك وأخبرَه ، فقال : اقض حاجتَه وأخرجْه من الشام كى لا يُفسِد علينا الناس .

واُختصم أعرابىّ وحَضَرِىّ إلى قاضٍ ، فقال الأعرابىّ : أيّها القاضى ، إنه وإن هَمْلَج[2] إلى الباطل ، فإنه عن الحق لَعطُوف .

وردّ رجلٌ جاريةً على رَجل اشتراها منه بالُحمْق ، فترافَعَا إلى إياسِ بنِ معـاوية ،

---

(١) فى مجمع الأمثال ٢ : ٢٩٥ «مسّى سخيل بعدها أو صبّحى».   (٢) هملج : أسرع .

فقال لها إياس : أىّ رِجْليكِ أطوَل ؟ فقالت : هذه ، فقال: أتذكرين ليلَة ولدتْك أمّك ؟ قالت : نعم ، فقال إياس : ردّ ردّ !

وجاء فى الخبر المرفوع من رواية عبد الله بن عمر : « لا قدّستْ أمّـةٌ لا يُقضَى فيها بالحقّ » ؛ ومن الحديث المرفوع من رواية أبى هريرة : « ليس أحدٌ يحكُم بين الناس إلّا جىءَ به يومَ القيامة مغلولةٌ يداه إلى عُنقه ، فكّه العَدْل ، وأسلَمه الجور » .

واُستعدى رجلٌ على علىّ بن أبى طالب عليه السلام عمرَ بنَ الخطّاب رضى الله عنه وعلىٌّ جالس ، فالتفت عمرُ إليه ، فقال : قم يا أبا الحسن فاجلس مع خَصْمك ، فقام فجلس معه وتناظرا ؛ ثمّ اُنصرف الرّجل ورجع علىّ عليه السلام إلى محلّه ، فتبيّن عمر التغيّر فى وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ، مالى أراك متغيّراً ! أكرهتَ ما كان ؟ قال : نعم ، قال : وماذاك ؟ قال : كنّيتنى بحضرة خَصْمى ، هلّا قلتَ : قم ياعلىّ فاُجلس مع خَصْمك ! فاعتنق عمرُ عليّا ، وجعل يقبّل وجهَه ، وقال بأبى أنتم ! بِكم هدانا الله ، وبِكم أخرجَنَا من الظُّلْمة إلى النور .

أبان بنُ عبدِ الحميد اللّاحقىّ فى سوّار بن عبد الله القاضى :

لا تَقدَح الظِّنّةُ فى حُكْمِهِ   شيمتهُ عـدلٌ وإنصافُ
يَمضِى إذا لم تَلقَهُ شُبهـةٌ   وفى اُعتراض الشكِّ وَقّافُ

كان ببغداد رجلٌ يُذكَر بالصّلاح والزهد يقال له رُوَيم ، فوُلِّىَ القضاءَ ، فقال الُجنيد: مَنْ أراد أن يستوْدع سرّه من لا يفشيه فعليه برُوَيم ، فإنّه كتم حبّ الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها .

الأشهب الكوفىّ :

يا أهلَ بغدَاد قد قامت قيامتُكمْ   مذ صار قاضيكُمُ نوحَ بنَ دَرّاجِ
لوكان حيًّا له الحجّاجُ ما سلِمتْ   صحيحةً يـده من وَسْم حَجّاجِ

وكان الحجّاج يسِم أيدى النّبَط بالمِشراط والنِّيل .

لمّا وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شُريحٌ القضاءَ وقال : لا أقضِى فى الفتنة ؛ فبقىَ لا يَقضِى تسعَ سنين، ثم عاد إلى القضاء وقد كَبِرتْ سنّه ، فاعترضه رجل وقد انصرف من مجلس القضاء ، فقال له : أما حان لك أن تخافَ الله ! كبرتْ سنّك ، وفسَدَ ذِهْنُك ، وصارت الأمورُ تجوز عليك ، فقال : والله لا يقولُها بعدَك لى أحدٌ . فلزم بيتَه حتى مات .

قيل لأبى قِلابة وقد هرَب من القضاء : لو أجبتَ ؟ قال : أخاف الهَلاك ، قيل : لو اجتهدتَ لم يكن عليكَ بأسٌ ؛ قال : وَيْحَكم ! إذا وقع السابح فى البحر كم عسى أن يَسْبَح !

دعا رجلٌ لسليمان الشّاذَكونىّ ، فقال : أرانيكَ اللهُ يا أبا أيّوبَ على قضاء إصبهان ! قال : وَيْحك! إنْ كان ولابدّ فعلَى خَراجِها ، فإنّ أخذَ أموال الأغنياء أسهلُ مِن أخذِ أموال الأيتام .

ارتفعتْ جميلةُ بنتُ عيسى بنجراد — وكانت جميلةً كاسمها — مع خصم لها إلى الشّعبىّ — وهو قاضى عبدِ الملك — فقضَى لها ، فقال هُذَيل الأشجعىّ :

فُتِنَ الشعبىُّ لمّا رَفَع الطَّرفَ إليها
فتَنتْه بثَنايا ها وقَوْسَىْ حاجِبَيْها
ومَشَتْ مشياً رُوَيداً ثم هزّت منكِبَيْها
فقَضَى جَوْراً على الخَصْ مِ ولم يَقضِ عليها

فقبض الشّعبىّ عليه وضرَبَه ثلاثين سوطا .

قال ابنُ أبى ليلَى : ثم انصرف الشعبىّ يوما من مجلس القضاء وقد شاعت الأبيات.

وتَناشَدها الناسُ ، ونحن معه ، فررْنا بخادمٍ تَغسل الثياب ، وتقول :

* فُتِن الشعبىُّ لمّا *

ولا تحفظ تتمّة البيت ، فوقف عليها ولقّنها ، وقال :

* رفَع الطَّرْفَ إليها *

ثمّ ضحك وقال : أبعدَه الله ! واللهِ ما قضينا (١) لها إلّا بالحقّ .

جاءت امرأة إلى قاضٍ فقالت : مات بَعْلى وترَك أبوَيْن وابنا وبنى عمّ ، فقال القاضى : لأبوَيه الثّكل ، ولابنه اليُتم ، ولك اللّائمة ، ولبنى عمّه الذّلّة ، واحملِى المال إلينا إلى أن ترتفِع الخصوم !

لقى سُفْيان الثورىُّ شريكا بعدما استُقْضِىَ ، فقال له يا أبا عبد الله ، بعد الإسلام والفِقه والصلاح تَلِى القضاء ! قال : يا أبا عبدِ الله ، فهل للنّاس بدٌّ من قاض ! قال : ولا بدّ يا أبا عبدِ الله للنّاس من شُرَطِىّ .

وكان الحسنُ بنُ صالح بن حىّ يقول لمّا ولِّىَ شَريك القضاء : أىَّ شَيْخٍ أفسَدوا !

قال أبو ذَرّ رضى الله عنه : قال لى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : يا أبا ذرّ ، اعقِل (٢) ما أقولُ لك ؛ جعلَ يردّدها علىّ ستّة أيام ، ثم قال لى فى اليوم السابع : أُوصِيك بتقوَى الله فى سَرِيرَتك وعلانِيَتك ، وإذا أسأتَ فأحسن ، ولا تسألنّ أحداً شيئا ولو سَقَط سوطُك ، ولا تتقلدنّ أمانةً ، ولا تلِيَنّ وِلاية ، ولا تكفلنّ يتيما ، ولا تقضينّ بين اثنين » .

أراد عثمانُ بنُ عفّانَ أن يستقضىَ عبدَ الله بن عمر ، فقال له : ألستَ قد سمعت النبىّ صلّى الله عليه وآله يقول : « من استعاذ بالله فقد عاذَ بمَعاذ ! » ، قال : بلى ، قال: فإنّى أعوذ بالله منك أن تستقضِيَنى .

---

(١) ا ، د : « قضيت » ، وأثبت ما فى د . (٢) فى د : « افعل » .

وقد ذكر الفقهاء في آداب القاضي[1] أموراً، قالوا: لا يجوز أن يقبل هديّةً في أيّام القضاء إلّا ممّن كانت له عادة يهدى إليه قبل أيام القضاء، ولا يجوز قبولها في أيّام القضاء ممّن له حكومة وخصومة، وإن كان ممّن له عادة قديمة، وكذلك إن كانت الهديّة أنفسَ وأرفعَ ممّا كانت قبل أيّام القضاء لا يجوز قبولُها. ويجوز أن يحضر القاضي الولائمَ، ولا يحضر عند قوم دون قوم؛ لأنّ التخصيصَ يشعر بالمَيْل، ويجوز أن يعودَ المرضَى، ويَشهدَ الجنائز، ويأتى مقدم الغائب. ويكره له مباشرة البيع والشراء. ولا يجوز أن يَقضيَ وهو غَضْبان ولا جائع ولا عَطْشان، ولا في حال الحزن الشديد، ولا الفرح الشديد، ولا يقضى والنّعاس يَغلِبه، والمَرض يُقلِقه، ولا وهو يدافع الأخبَثَين، ولا في حَرٍّ مُزْعِج، ولا في بَرْد مزعِج. وينبغى أن يجلس للحُكم في موضع بارز يصل إليه كلّ أحد، ولا يحتجب إلّا لعذر. ويُستحَبّ أن يكون مجلسُه فسيحا لا يتأذّى بذلك هو أيضا. ويكره الجلوس في المساجد للقضاء، فإن احتاج إلى وكلاء جاز أن يتّخذهم ويوصيهم بالرفق بالخصوم. ويستحبّ أن يكون له حَبْس، وأن يتّخذ كاتبا إن احتاج إليه؛ ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يَكتُب به عن القضاء.

واُختُلف في جوازِ كونه ذِمّيًا؛ والأظهَر أنه لا يجوز. ولا يجوز أن يكون كاتبه فاسقا، ولا يجوز أن يكون الشهودُ عنده قوماً معيّنين، بل الشهادة عامّة فيمن اُستكمل شروطَها.

* * *

الأصْـلُ:

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِيَارًا، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِى الْمَطَامِعِ إِشْرَافاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا.

(١) كذا في ا، د وهو الصواب وفي ب: «القضاء».

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ . ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ . وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا ، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

لمّا فرغ عليه السلام من أمر القضاء ، شرع فى أمر العمّال ، وهم عمّال السواد والصَّدَقات والوقوف والمصالح وغيرها ، فأمَرَه أن يستعملهم بعد اختبارهم وتجربتهم ، وألّا يولّيَهم محاباةً لهم ، ولمن يشفع فيهم ، ولا أثَرة ولا إنعاماً عليهم .

كان أبو الحسن بنُ الفُرات يقول : الأعمال للكُفاةِ من أصحابنا ، وقضاءُ الحقوق على خواصّ أموالنا .

وكان يحيى بن خالد يقول : مَنْ تسبّب إلينا بشفاعة فى عمل ، فقد حلّ عندنا محلّ مَنْ ينهض بغيره ، ومَنْ لم ينهض بنفسه لم يكن للعمل أهلا .

ووقّع جعفر بن يحيى فى رُقعةٍ متحرّم به : هذا فتًى له حُرْمة الأمل ، فامتحنْه بالعمل؛ فإن كان كافيا فالسلطان له دوننا ، وإن لم يكن كافيا فنحن له دون السلطان .

ثم قال عليه السلام : « فإنهما — يعنى استعمالهم للمحاباة والأثَرة — جماع من شُعَب الجوْر والخيانة » . وقد تقدّم شرح مثل هذه اللفظة ، والمعنى أن ذلك يجمع ضروبا من الجوْر والخيانة. أمّا الجوْر فإنه يكون قد عدل عن المستحق إلى غير المستحقّ ، ففى ذلك جَوْر على المستحقّ ،

وأمّا الخيانة فلأنّ الأمانة تقتضى تقليدَ الأعمـالِ الأكفاء ؛ فمن لم يعتمد ذلك فقد خان مَنْ ولّاه .

ثم أمره بتخيّر مَنْ قد جرّب ؛ ومَنْ هو من أهل البيوتات والأشراف لشدّة الحرص على الشيء والخوف من فواته .

ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم ؛ فإنّ الجائع لا أمانةَ له ؛ ولأنّ الحجّة تـكون لازمةً لهم إن خانوا ، لأنهم قد كُفُوا مؤنة أنفسهم وأهليهم بما فرض لهم من الأرزاق[1] .

ثم أمره بالتطلّع عليهم وإذكاء[2] العيون والأرصادِ على حركاتهم .

وحدوة باعث ، يقال : حدانى هذا الأمر حَدْوةً على كذا ؛ وأصله سَوْق الإبل ، ويقال للشّمْأل حَدْواء ؛ لأنّها تسوق السحاب .

ثم أمره بمؤاخذة من ثبتتْ خيانته واستعادة المال منه ؛ وقد صنع عمر كثيرا من ذلك ؛ وذكرناه فيما تقدّم .

قال بعض الأكاسرة لعامل من عمّاله : كيف نومُك بالليل ؟ قال : أنامُه كلّه ، قال : أحسنت ! لو سرقت ما نمت هذا النوم .

* * *

الأصْـلُ :

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ .

وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَ

(١) فى د « الرزق » .   (٢) فى ا ، د « وبعث » .

الْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً ، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْبٍ ، أَوْ بَالَّةٍ ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ ؛ خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ .

وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ ؛ مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ؛ مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ ؛ وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ ؛ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ ؛ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ .

***

الشَّرْحُ :

انتقل عليه السلام من ذكر العمّال إلى ذكر أرباب الخراج ودهاقين السّواد ، فقال : تفقّد أمرهم ، فإنّ النّاس عيال عليهم ؛ وكان يقال : استوصُوا بأهل الخراج ؛ فإنّكم لا تزالون سماناً ما سَمِنُوا .

ورُفع إلى أنوشِرْوان أنّ عامل الأهواز قد حمل من مال الخراج ما يزيد على العادة ؛ وربما يكون ذلك قد أجحف بالرّعية ، فوقّع : يُرَدّ هذا المال على من قد استوفى منه ؛ فإنّ تكثيرَ المَلِك ماله بأموال رعيّته بمنزلة مَنْ يحصّن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه .

وكان على خاتَم أنوشِرْوان : لا يكون عُمرانٌ ، حيث يجور السلطان..

وروى : « استحلاب الخراج » بالحاء .

ثم قال : « فإن شكَوْا ثِقْلًا » ، أى ثقل طَسْق[1] الخراج المضروب عليهم ، أو ثقل وطأة العامل .

قال: « أو علّة » ، نحو أن يصيب الغلّةَ آفة كالجراد والبرق أو البرد .

قال: « أو انقطاع شرْب »[2]، بأن يَنقُص الماء فى النهر ، أو تتعلق أرض الشّرب عنه لفقد الحفْر .

قال : « أو بالّة » ، يعنى المطر .

قال : « أو إحالة أرض اغتمرها غرق » ، يعنى أو كوْن الأرض قد حالت ، ولم يحصل منها ارتفاع ؛ لأنّ الغرق غمرها وأفسد زَرْعها .

قال : « أو أجْحف بها عطش » ، أى أتلفها .

فإن قلت : فهذا هو انقطاع الشّرب ؟

قلت : لا ، قد يكون الشِّرب غير منقطع ، ومع ذلك يُجحِف بها العطش ، بأن لا يكفيها الماء الموجود فى الشِّرب .

ثم أمره أن يخفّف عنهم مَتَى لحقهم شىء من ذلك ؛ فإنّ التخفيف يُصْلح أمورهم ، وهو وإن كان يُدْخِل على المال نقصاً فى العاجل إلّا أنه يقتضى[3] توفير زيادة فى الآجل ؛ فهو بمنزلة التجارة التى لا بدّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه .

---

(١) فى اللسان عن التهذيب : « الطسق شبه الخراج له مقدار معلوم ؛ وليس بعربى خالص » .
(٢) الشرب بالكسر : النصيب من الماء .
(٣) فى د « يفضى إلى » .

قال : « ومــع ذلك فإنه يفضى إلى تزيين بلادك بعمارتهـا ، وإلى أنك تَبْجح بين الولاة بإفاضة العدل فى رعيّتك معتمداً فَضْلَ قوّتهم » ؛ و« معتمداً » ، منصوب على الحال من الضّمير فى « خففت » الأولى ، أى خَفّفت عنهم معتمداً بالتخفيف فضل قوّتهم .

والإجمام : الترفيه .

ثم قال له : وربما احتجتَ فيما بعــد إلى تــكلّفهم بحادث يحــدُث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضاً أو معونة محضة ؛ فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك ، طيّبة قلوبُهم[1] به .

ثم قال عليــه السلام : فإن العمران محتمل ما حمّلته .

سمعت أبا محمــد بن خُليــد — وكان صاحب ديوان الخراج فى أيام الناصر لدين الله — يقول لمن قال له : قد قيل عنك : إنّ واسط والبَصْرة قد خربت لشدّة العُنف بأهلها فى تحصيل الأموال ! فقال أبو محمد : ما دام هذا الشّطّ بحاله ، والنّخْل نابتا فى منابته بحاله ، ما تخرب واسط والبصرة أبدا .

ثم قال عليــه السلام : « إنما تُؤتَى الأرض » ، أى إنما تُدْهَى من إعواز أهلهـا ، أى من فقرهم .

قال : والموجب لإعوازهم طمعُ ولاتهم فى الجباية وجمع الأموال لأنفُسهم ولسلطانهم وسوء ظنّهم بالبقاء يحتمل أن يريد به أنهم يظنّون طول البقاء وينسَوْن الموتَ والزوال . ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيّلون العَزْل والصرف ، فينتهزون الفرص ، ويقتطعون الأموال، ولا ينظرون فى عِمارة البلاد .

* * *

---

(١) فى د « نفوسهم » .

[عهد سابور بن أردشير لابنه]

وقد وجدت فى عهد سابور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذاالعهد ؛ وهو قوله :

واعلم أنّ قِوام أمرك بدُرور الخراج ، ودُرور الخراج بعمارة البلاد ، وبلوغ الغاية فى ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم ، والمعونة لهم ؛ فإنّ بعض الأمور لبعضٍ سبب ، وعوامّ الناس لخواصّهم عدّة ، وبكلّ صنف منهم إلى الآخر حاجة ، فاختر لذلك أفضلَ مَنْ تقدر عليه من كُتّابك ، وليكونوا من أهل البَصَر والعفاف والكفاية ، واسترسل إلى كلّ امرئ منهم شخصا (١) يضطلع به ويمكنه تعجيلُ الفراغ منه ؛ فإن اطّلعت على أنّ أحدا منهم خان أو تعدّى فنكِّلْ به ، وبالغ فى عقوبته ؛ واحذر أن تستعمل على الأرض الكثيرِ خراجها إلاالبعيد الصوت ، العظيم شرف المنزلة . ولاتولينّ أحداً من قواد جندك الذين هم عُدّه للحرب ، وجُنَّة من الأعداء ، شيئاً من أمر الخراج ؛ فلعلك تهجُم من بعضهم على خيانة فى المال ، أوتضييع للعمل ؛ فإن سوّغتَه المال ، وأغضيت له على التّضييع ، كان ذلك هلاكا وإضرارا بك وبرعيّتك ، وداعيةً إلى فساد غيره ؛ وإنْ أنت كافأته فقد استفسدته ، وأضْقت(٢) صدره ، وهذا أمر توقّيه حزم ، والإقدام عليه خُرْق ، والتقصير فيه عَجْز .

واعلم أن من أهل الخراج مَنْ يلجئ بعض أرضه وضياعه إلى خاصّة الملك وبطانته ؛ لأحد أمرين ؛ أنت حرىّ بكراهتهما : إمّا لامتناع من جَوْر العمال وظلم الولاة ؛ وتلك منزلة يظهر بها سوء أثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، وإما للدفع عمّا يلزمهم

---

(١) فى د « شقصا » .   (٢) فى د « وأضغنت » .

من الحقّ والتيسّر له ، وهـــذه خَلّة تَفسُد بها آداب الرعيّة ، وتُنتقص بها أموال الملك ، فاحذر ذلك ، وعاقب الملتجئين والملجأ إليهم .

* * *

ركب زياد يوما بالسُّوس يطوف بالضياع والزروع ، فرأى عمارة حسنة ، فتعجّب منها ، فخاف أهلها أن يزيد فى خراجهم ، فلما نزل دعا وجوه البلد ، وقال : بارك الله عليكم ، فقد أحسنتم العمارة ، وقد وضعت عنكم مائة ألف درهم . ثم قال : ما توفّر علىّ من تهالك غيرهم على العمارة وأمنهم جَوْرى أضعاف ما وضعت عن هؤلاء الآن ؛ والذى وضعته بقدر ما يحصل من ذاك ، وثواب عموم العمارة وأمن الرعيّة أفضل رِبْح .

* * *

الأصلُ :

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ ؛ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتى تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ، بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ . وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِى مِنْكَ ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْدًا اعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ .

ثُمَّ لَا يَكُنْ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ ،

فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ؛ وَلَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ ، وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ .

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ ؛ لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا ، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ؛ وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ .

***

[فصل فيما يجب على مصاحب الملك]

الشرح :

لما فرغ من أمر الخراج ، شرع فى أمر(١) الكتّاب الذين يلُون أمر الحضرة ، ويترسّلون عنه إلى عمّاله وأمرائه ، وإليهم مَعاقد التدبير وأمرُ الديوان ، فأمَرَه أن يتخيّر الصالح منهم ، ومَنْ يوثق على الاطلاع على الأسرار والمكايد والحِيَل والتدبيرات ، ومن لا يُبطِره الإكرام والتقريب ، فيطمعَ فيجترئَ على مخالفته فى مَلأٍ من الناس والردّ عليه ، ففى ذلك من الوَهَن للأمير وسوء الأدب الذى انكشف الكاتب عنه ما لا خفاء به .

قال الرشيد للكِسَائىّ : يا علىّ بن حمزة ، قد أحللْناكَ المحلّ الذى لم تكنْ تبلغه همّتك ، فروِّنا من الأشعار أعفّها ، ومن الأحاديث أجمعَها لمحاسن الأخلاق ، وذاكرْنا بآداب الفُرْس والهند ، ولا تُسرِع علينا الردّ فى ملأٍ ، ولا تترك تثقيفنا فى خلاء .

وفى آداب ابن المقفّع : لا تكونَنّ صحبتك للسلطان إلّا بعد رياضة منك لنفسك على

---

(١) فى د « ذكر » .

طاعتهم فى المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك ، فإن كنتَ حافظا إذا ولّوك . حذراً إذا قرّبوك ، أمينا إذا ائتمنوك ، تعلّمهم وكأنّك تتعلّم منهم ، وتأدّبهم وكأنك تتأدّب بهم ، وتَشكُر لهم ولا تكلّفهم الشكر ؛ ذليلا إن صَرَموك ، راضيا إن أسخطوك ، وإلا فالبعد منهم كل البعد ، والحذَرمنهم كلّ الحذر . وإن وجدتَ عن السلطان وصحبته غِنًى فاستغن عنه ، فإنه من يخدُم السلطانَ حقّ خدمته يخلّى بينه وبين لذة الدنيا وعمل الأخرى ، ومَنْ يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وزْر الآخرة ، وعرّض نفسه للهلكة والفضيحة فى الدنيا . فإذا صحبتَ السلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملال ، وإذا نزلتَ منه بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام المَلَق ، ولا تُكثِرْ له من الدّعاء ، ولا تردّنّ عليه كلاما فى حفْل وإن أخطأ ، فإذا خلوتَ به فبصّره فى رفق ، ولا يكونن طلبك ما عنده بالمسألة ، ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولا تخبرنّهُ أنّ لك عليه حقّا ، وأنك تعتمد عليه ببلاء ، وإن استطعت ألّا تنسى حقّك وبلاءك بتجديد النصح والاجتهاد فافعل ، ولا تعطينّه المجهود كلّه من نفسك فى أوّل صحبتك له ، وأعدّ موضعا للمزيد . وإذا سأل غيرَك عن شىء فلا تكن المجيبَ .

واعلم أنّ استلابك الكلامَ خفّة فيك واستخفافٌ منك بالسائل والمسئول ، فما أنت قائل إن قال لك السائل : ماإيّاك سألتُ ؛ أو قال المسئول : أجب بمجالسته ومحادثته أيّها المعجب بنفسه ، والمستخفّ بسلطانه .

وقال عبدُ الملك بنُ صالح لمؤدّبِ ولده بعد أن اُختصّه بمجالسته ومحادثته : يا عبدَ الله ، كُن على اُلتماس الحظّ فيك بالسّكوت أحرصَ منك على التماسه بالكلام ، فإنّهم قالوا : إذا أعجبك الكلامُ فاُصمُت ، وإذا أعجبك الصّمتُ فتكلّم . واُعلم أن أصعب الملوك معاملةً الجبّارُ الفَطِن المتفقّد ، فإنّ ابتُليتَ بصحبته فاُحترس ، وإن عُوفيت فاُشكر الله على السّلامة ، فإنّ السلامة أصل كلّ نعمة . لا تساعدْنى على ما يقْبُح بى ، ولا تردّنّ علىّ

خطأ فى مجلس ، ولا تكلّفنى جوابَ التشميت والتهنئة، ودع عنك : كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى! وكلّمنى بقدر ما أستنطقك ، واجعل بدل التقريظ لى صوابَ الاستماع منّى . واعلم أنّ صواب الاستماع أحسنُ من صواب القول ، فإذا سمعتنى أتحدّث فلا يفوتنّك منه شيء ، وأرِنى فهمَك إيّاه فى طَرْفِك ووجهك ، فما ظنّك بالمَلِك وقد أحلّك محلّ المعجب بما يسمعك إيّاه ، وأحللته محلّ من لا يسمع منه ! وكلٌّ من هذا يُحبِط إحسانَك ، ويُسقِط حقَّ حُرمتك ، ولا تستدعِ الزيادة من كلامى بما تُظهر من استحسان ما يكون منّى ، فمن أسوأ حالا ممّن يستكدّ الملوكَ بالباطل ، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجَب الله تعالى من حقِّهم . واعلم أنّى جعلتك مؤدّبا ، بعد أن كنتَ معلّما ، وجعلتك جليسا مقرّبا بعد أن كنتَ مع الصّبيان مباعدا ، فمتى لم تعرف نقصانَ ما خرجتَ منه ، لم تعرفْ رُجْحانَ ما دخلتَ فيه ، وقد قالوا : من لم يعرف سوء ما أَوْلى ، لم يَعرِف حُسن ما أَبْلَى .

***

ثم قال عليه السلام : وليكن كاتبُك غيرَ مقصّر عن عرض مكتوبات عمّالك عليك ، والإجابة عنها حسن الوكالة والنيابةِ عنك فيما يحتجّ به لك عليهم مِن مكتوباتهم ، وما يُصدِره عنك إليهم من الأجوبة ، فإن عَقَد لك عقدا قوّاه وأحكَمه ، وإن عَقد عليك عقدا اجتهد فى نقضِه وحَلّه . قال : وأن يكون عارفا بنفسه ، فمن لم يعرف قدرَ نفسِه لم يَعرِف قدرَ غيره .

ثمّ نهاه أن يكون مستنَد اختيارِه لهؤلاء فِراستُه فيهم ، وغلبةُ ظنِّه بأحوالهم ، فإن التّدليس ينمّ فى ذلك كثيرا ، وما زال الكتّاب يتصنّعون للأمراء بحُسن الظاهر ، وليس وراء ذلك كثير طائل فى النصيحة والمعرفة ، ولكن ينبغى أن يرجع فى ذلك إلى ما حكمتْ

به التجربةُ لهم ، وما وُلّوه من قبل، فإن كانت ولايتهم وكتابتُهم حسنةً مشكورةً فهم هم، وإلّا فلا ، ويتعرّفون لفراسات الوُلاة ، يجعلون أنفسهم بحيث يعرف بضُروب من التصنّع، وروى: « يتعرّضون » .

ثم أمَرَه أن يقسم فنونَ الكتابة وضروبَها بينهم نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء ، والآخر لأجوبة عمّال السواد ، والآخر بحضرة الأمير فى خاصّته وداره، وحاشيته وثقاته .

ثم ذكر له أنّه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابَى عنه ، ويتغافل من عيوب كتّابه ، فإن الدين لا يبيح الإغضاءَ والغفلةَ عن الأعوان والخَوَل ، ويوجب التطلّع عليهم .

***

[فصل فى الكتّاب وما يلزمهم من الآداب]

واعلم أنّ الكاتب الذى يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الذى يسمى الآن فى الاصطلاح العُرْفىّ وزيرا ، لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير، والنائب عنه فى أموره ، وإليه تصل مكتوباتُ العمّال وعنه تصدر الأجوبة ، وإليه العَرْض على الأمير ، وهو المستدرِك على العمّال ، والمهيمِن عليهم ، وهو على الحقيقة كاتبُ الكتّاب ، ولهذا يسمّونه : الكاتب المطلَق.

وكان يقال : للكاتب على الملك ثلاث : رفعُ الحجاب عنه ، واتّهام الوُشاة عليه ، وإفشاء السرّ إليه .

وكان يقال : صاحبُ السلطان نصفُه ، وكاتبُه كُلُّه . وينبغى لصاحب الشرْطة أن يطيل الجلوس ، ويديمَ العُبوس ، ويستخفّ بالشفاعات .

وكان يقال : إذا كان الملك ضعيفا ، والوزيرُ شَرِهاً ، والقاضي جائرا ، فرّقوا المُلْك شَعاعا .

وكان يقال : لا تخَفْ صولةَ الأمير مع رِضا الكاتب ، ولا تثقنّ برضا الأمير مع سُخْط الكاتب ، وأخذ هذا المعنى أبو الفضل بنُ العميد فقال :

وزعمتَ أنّك لست تُفكِر بعد ما   عَلِقتْ يداك بذِمّة الأمراءِ
هيهاتَ قد كذَبتْك فكرتُك الّتي   قد أوهمتْك غِنًى عن الوزراءِ
لم تُغْنِ عن أحدٍ سماءٌ لم تجد   أرضًا ولا أرضٌ بغير سماءِ

وكان يقال : إذا لم يُشرِف المَلِك على أموره ، صار أغشّ الناس إليه وزيرُه

وكان يقال : ليس الحرب الغشومُ بأسرعَ في اجتياح[1] المُلْك من تضييع مراتب الكتّاب حتّى يصيبها أهل النّذالة ، ويزهدَ فيها أولو الفَضْل .

* * *

[فصل في ذكر ما نصحتْ به الأوائلُ الوزراء]

وكان يقال : لا شيء أذهبُ بالدّوَل من استكفاء المَلِك الأسرار .

وكان يقال : مِن سعادة جِدّ المرء ألّا يكون في الزّمان المختلط وزيرا للسلطان .

وكان يقال : كما أنّ أشجع الرّجال يحتاج إلى السّلاح ، وأسبَقَ الخيل يحتاج إلى السّوط ، وأحدَّ الشِّفار يحتاج إلى المِسَنّ ، كذلك أحزم الملوك وأعقَلُهم يحتاج إلى الوزير الصالح .

وكان يقال : صلاحُ الدنيا بصلاح الملوك ، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء ،

---

(١) اجتياح الملك: الذهاب به .

وكما لا يَصْلُح الملك إلّا بمن يستحقّ المـلك ، كذلك لا تَصلُح الوَزارة إلّا بمن يستحقّ الوَزارة .

وكان يقال : الوزير الصالح لا يرى أنّ صلاحـه فى نفسه كائن صلاحا حتّى يتّصل بصلاح الملِك وصلاح رعيّته ، وأن تـكون عنايته فيما عطف الملك على رعيّته ، وفيما استعطف قلوب الرعيّة والعامة على الطاعة للملك ، وفيما فيـه قِوام أمر الملْك من التدبير الحَسَن ، حتّى يجمع إلى أخذ الحقّ تقديم عموم الأمن . وإذا طرقت الحوادثُ ، كان للمَلك عُدّةً وعتادا ، وللرعيّة كافيا محتاطا ، ومن ورائها محاميا ذابًّا ، يعنيه من صلاحها مالا يعنيه من صلاح نفسِه دونَها .

وكان يقال : مَثَل الملك الصالح إذا كان وزيره فاسدا مَثلُ المـاء العذب الصافى وفيه التمساح ، لا يستطيع الإنسان ــ وإن كان سابحـا ، وإلى الماء ظامئا ــ دخوله ، حذرا على نفسه .

قال عمر بنُ عبد العزيز لمحمد بن كعب القرَظىّ حين استُخلِف : لو كنتَ كاتبى ورِدْءًا لى على ما دُفعت إليه ! قال : لا أفعل ، ولـكنّى سأرشدك ؛ أسرِع الاستماع ، وأبطىء فى التصديق حتّى يأتيَك واضحُ البرهان ، ولا تعملن ثبجتك فيما تـكتفى فيـه بلسانك ، ولا سوطك فيما تـكتفى فيه بثبجتك ، ولا سيفك فيما تـكتفى فيه بسوطك .

وكان يقال : التقاط الـكاتب للرّشا وضبطُ الملك لا يجتمعان .

وقال أبرويز لـكاتبه : اكتُم السرَّ ، واصـدُق الحديث ، واجتهد فى النصيحة ، وعليك بالحَذَر ؛ فإنّ لك علىّ ألّا أعجّل عليك حتّى أستأنىَ لك ، ولا أقبل فيك قولاً حتّى أستيقنَ ، ولا أُطمِـعُ فيك أحدا فتُغتال ؛ واعلم أنّك بمَنجاةٍ[1] رفعة فلا تحُطّنّها، وفى

(١) المنجاة : ما ارتفع من الأرض .

ظلّ مملكةٍ فلا تستترِ بِلَمِّه . قارِب الناس مجاملةً من نفسك، وباعدْهم مسامحةً عن عدوّك ، واقصِد إلى الجميل ازدراءًا لغَدِك ، وتنزّه بالعفاف صَوْنا لمرُوءتك ، وتحسن عندى بما قدرت عليه . احذر لا تُسرِعَنّ الألسنةَ عليك ، ولا تقبِّحنّ الأحدوثة عنك، وصُن نفسَك صونَ الدُّرّة الصافية ، وأَخلِصها إخلاصَ الفِضّة البيضاء ، وعاتبها معاتبة الحَذِر الشفِق ، وحصّنها تحصينَ المدينة المنيعة . لا تدعَنّ أن ترفع إلىّ الصغيرَ فإنّه يدلّ على(١) الكبير ، ولا تكتمنّ عنّى الكبير فإنه ليس بشاغل عن الصغير . هذّب أمورَك ثمّ القنى بها ، وأَحكِم أمرَك ثم راجعنى فيه ، ولا تجترئنّ علىّ فأمتعِض ، ولا تنقبضنّ منّى فأتّهم ، ولا تُمرِضنّ ما تلقانى به ولا تخدجنّه(٢) ؛ وإذا أفكرتَ فلا تعجل ، وإذا كتبتَ فلا تُعْذِر ، ولا تستعنْ بالفضول فإنها علاوة على الكفاية ، ولا تقصّرنّ عن التحقيق فإنها هُجْنة بالمقالة ، ولا تلبّس كلاما بكلام ، ولا تبعدن معنًى عن معنى . وأكرِم لى كتابك عن ثلاث : خضوع يستخفّه ، وانتشار يهجّنه ، ومعانٍ تعقّد به . واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول وليكن بسطة كلامك على كلام السُّوقة كبسطة الملك الذى تحدّثه على الملوك . لا يكن ما نلتَه عظيما ، وما تتكلم به صغيرا ، فإنما كلام الكاتب على مقدار الملك ، فاجعله عاليا كعلوّه ، وفائقا كتفوّقه ، فإنما جماع الكلام كلّه خصال أربع : سؤالك الشيء ، وسؤالك عن الشيء ، وأمرُك بالشيء ، وخَبرُك عن الشيء ؛ فهذه الخصال دعائمُ المقالات ، إن التُمِس إليها خامس لم يوجَد ، وإن نَقَص منها واحد لم يتمّ ؛ فإذا أمرت فأحكِم ، وإذا سألت فأَوضِح ، وإذا طلبتَ فأسمِح ، وإذا أخبرت فحقّق ، فإنك إذا فعلت ذلك أخذت بجراثيم القول كلِّه ، فلم يشتبه عليك واردةٌ ، ولم تُعجزْك صادرة . أثبت فى دواوينك ما أَخذت ، وأحْصِ فيها ما أخرجت ، وتيقّظ لما تُعطِى ، وتجرّد لما تأخذ ، ولا يغلبنّك النِّسيان عن الإحصاء ، ولا الأناةُ عن التقدّم ، ولا تخرجنّ

---

(١) كذا فى ا ، وهو الوجه ؛ وفى ب : « عن الكبير » .

(٢) التمريض : التوهين ، والتخديج : أن تأتى بالشىء ناقصاً .

وزنَ قيراط فى غير حقّ ؛ ولا تعظّمنّ إخراج الألوف الكثيرة فى الحقّ ؛ وليكن ذلك كلّه عن مؤامرتى .

* * *

الأصْلُ :

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِى الصِّنَاعَاتِ ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا ، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ ، وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ؛ فِى بَرِّكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ .

وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِى حَوَاشِى بِلَادِكَ . وَاعْلَمْ — مَعَ ذَلِكَ — أَنَّ فِى كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا ، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّماً فِى الْبِيَاعَاتِ ، وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ ، فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ . وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ ، وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ؛ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ ، وَعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ .

* * *

الشّرْحُ :

خرج عليه السلامُ الآن إلى ذكر التّجار وذوى الصناعات ؛ وأَمَرَهُ[1] بأن يعمل معهم الخير ، وأن يُوصِىَ غيره من أمرائه وعمّاله أن يعملوا معهم الخير . واستوصِ بمعنى «أوص»

---

(١) ا ، ب : « أمره » ، بدون واو .

نحو قَرّ فى المكان واستقرّ ، وعلا قِرْنَه واستعلاه .

وقوله : « استوصِ بالتجّار خيرا » ، أى أوصِ نفسك بذلك ، ومنه قول النبىّ صلّى الله عليه وآله : « استوْصوا بالنّساء خيرا » ؛ ومَفْعولا « استوص وأَوصِ » ها هنا محذوفان للعلم بهما ، ويجوز أن يكون « استوصِ » أى اقبل الوصيّة منّى بهم ، وأوصِ بهم أنتَ غيركَ .

ثم قسّم عليه السلام الموصّى بهم ثلاثة أقسام : اثنان منها للتجّار[1] ، وهما المقيم ، والمضطرب ، يعنى المسافر . والضّرب : السيرُ فى الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ[2] ﴾ ، وواحد لأرباب الصناعات ، وهو قوله : « والمترفّق ببدنه » ، ورُوِى « بيديه » ، تثنية يد .

والمَطارِح : الأماكن البعيدة .

وحيث لا يلتئم الناس : لا يجتمعون ، ورُوِى « حيث لا يلتئم » ؛ بحذف الواو .

ثم قال : « فإنّهم أولو سِلْم » ، يعنى التّجار والصناع ، استعطفه عليهم ، واستماله إليهم .

وقال : ليسوا كعمال الخراج وأمراء الأجناد ، فجانبُهم ينبغى أن يراعى ، وحالُهم يجب أن يُحاط ويُحمَى ، إذ لا يتخوّف منهم بائقة لا فى مال يخونون فيه ، ولا فى دَوْلة يُفسِدونها . وحواشى البلاد : أطرافها .

ثم قال له : قد يكون فى كثير منهم نوعٌ من الشحّ والبُخْل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار فى الأقوات ، والحَيْف فى البياعات . والاحتكار[3] : ابتياع الغلّات فى أيام

(١) د : « التجار » . (٢) سورة النساء ١٠١ .
(٣) د : « فالاحتكار » .

رخصها ، وادّخارها فى المخازن[١] إلى أيام الغلاء والقحط . والحيف : تطفيفٌ فى الوزن والكيل ، وزيادةٌ فى السعر[٢] ، وهو الذى عبّر عنه بالتحكّم ، وقد نهى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عن الاحتكار ؛ وأما التطفيف وزيادة التّسْعير فنهىٌ عنهما فى نص الكتاب[٣] .

وقارَفَ حُكْرة : واقعها ، والحاء مضمومة ، وأمرَه أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف ، وذلك أنّه دون المعاصى التى توجب الحدود ، فغاية أمره من التعزير الإهانة والمنع.

***

الأصل :

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِى الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ ؛ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى ، فَإِنَّ فِى هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرًّا .

وَاحْفَظِ اللهَ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِى الْإِسْلَامِ فِى كُلِّ بَلَدٍ ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِى لِلْأَدْنَى ؛ وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ .

وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ ؛ فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ . وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ؛ فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ .

ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ؛ وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ فِى تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ .

---

(١) د : « المحارز » . (٢) د : « التسعير » .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ ، وَذَوِى الرِّقَّةِ فِى السِّنِّ ، مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذَلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ ؛ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ .

***

الشَّرْحُ :

انتقل من التجّار وأرباب الصّناعات إلى ذكر فقراء الرعيّة ومَغْموريها ، فقال : وأهل البؤسَى ، وهى البؤسُ كالنُّعمى للنّعيم ، والزَّمْنى أولو الزّمانة .

والقانع : السائل ؛ والمعترّ : الّذى يَعرِض لك ولا يسألك ، وهما من ألفاظ الكتاب العزيز[١] .

وأمَره أن يعطيَهم من بيت مال المسلمين لأنّهم من الأصناف المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾[٢] ، وأن يُعطيَهم من غلّات صوافى الإسلام ـ وهى الأرَضون الّتى لم يُوجَف عليها بخيل ولا ركاب ـ وكانت صافية لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، فلمّا قُبِض صارت لفقراء المسلمين ، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام .

ثمّ قال له : « فإنّ للأقصى منهم مثل الّذى للأدنى » ، أى كلّ فقراء المسلمين سواء فى سهامهم ، ليس فيها أقصى وأدنى ، أى لا تُؤْثِر مَنْ هو قريب إليك أو إلى أحدٍ من خاصّتك على مَنْ هو بعيد ليس له سببٌ إليك ، ولا علْقة بينه وبينك . ويمكن أن يريد به : لا تَصرِف غلّات ما كان من الصّوافى فى بعض البلاد إلى مساكين ذلك

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الحج ٣٦ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ .
(٢) سورة الأنفال ٤١ .

البلد خاصّة ؛ فإنّ حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم فى ذلك البلد .

والتافه : الحقير . وأشخصتُ زيدا من موضع كذا ؛ أخرجتُه عنه . وفلان يصعِّر خدَّه للناس ، أى يتكبّر عليهم .

وتقتَحِمه العيون : تزدَريه . وتحتقِره والإعذار إلى الله : الاجتهاد والمبالغة فى تأدية حقّه والقيام بفرائضه .

* * *

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه ، ولا يثق إلى غيره ، ويقعد بحيث يَسمع الصوت ، فإذا سمعه أدخلَ المتظلّم ، فأصيب بصَمَم فى سَمْعه فنادَى مناديه ، إنَّ الملك يقول : أيّها الرعيَّة ، إنّى إن أصبتُ بصَمَم فى سمعى فلم أُصَب فى بصرى ؛ كلّ ذى ظلامة فليَلْبَس ثوبا أحمر ، ثم جلس لهم فى مستشرَف له .

وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سمّاه بيتَ القِصَص ، يُلقِى الناسُ فيه رقاعَهم ، وكذلك كان فعل المهدىّ محمّد بن هارون الواثق ، من خلفاء بنى العبّاس .

* * *

الأَصْلُ :

وَاجْعَلْ لِذَوِى الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامًّا ؛ فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلّٰهِ الَّذِى خَلَقَكَ ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ ؛ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ ؛ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِى غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِىِّ ؛ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ » .

ثُمَّ احْتَمِلْ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ ، وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَالْأَنَفَ ، يَبْسُطِ اللَّهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ . وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً ، وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا ؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ . وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفصل من تتمّة ماقبله، وقد رُوِى : « حتى يكلِّمك مكلِّمهم » ، فاعل من « كلِّم » والرواية الأولى أحسن .

وغير متتعتع : غير مزعِج ولا مقلق . والمُتَتَعْتِـع فى الخبر النبوىِّ : المتردِّد المضطرب فى كلامه عِيًّا من خوف لحقه ، وهو راجع إلى المعنى الأوّل .

والُخرق : الجهل . ورُوِى : « ثمَّ احتمل الُخرق منهم والغىَّ ». والغىّ وهو الجهل أيضا ، والرواية الأولى أحسن .

ثم بيّن له عليه السلام أنه لا بدَّ له من هذا المجلس لأمرٍ آخر غير ما قدَّمه عليه السلام، وذلك لأنَّه لا بدَّ من أن يكون فى حاجات الناس ما يضيق به صدور أعوانه ، والنُّوّاب عنه ، فيتعيَّن عليه أن يباشرَها بنفسه ؛ ولا بدَّ من أن يكون فى كتب عمّاله الواردة عليه

ما يعيا كتّابه عن جوابه ، فيجيب عنه بعلْمه . ويدخل فى ذلك أن يكون فيها ما لا يجوز فى حُكْم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتاب عليه ، فيجيب أيضا عن ذلك بعلمه .

ثم قال له : لا تُدخِلْ عملَ يومٍ فى عمل يومٍ آخر فيُتْعِبك ويُكَدِّرك ؛ فإنّ لكلّ يومٍ ما فيه من العمل .

* * *

الأصْلُ :

وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلهِ ؛ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً ، فَأَعْطِ اللهَ مِنَ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ .

وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّرًا وَلَا مُضَيِّعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ ، وَلَهُ الْحَاجَةُ ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ : كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ ؟ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ ؛ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

* * *

الشَّرْحُ :

لمّا فرغ عليه السلام من وصيّته بأمور رعيّته ، شَرَع فى وصيّته بأداء الفرائض التى

افترضها الله عليه من عبادته ، ولقد أحسن عليه السلام فى قوله : « وإن كانت كلها لله » ، أي أنّ النظر فى أمور الرعيّة مع صحّة النيّة وسلامة النـاس من الظّلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً .

ثم قال له : « كاملا غيرَ مثلومٍ » ، أى لا يحملنّك شُغْل السلطان على أن تختصر الصّلاة اختصاراً ، بل صلّها بفرائضها وسُنَنها وشعائرها فى نهارِك وليلِك ؛ وإن أتعبك ذلك ونالَ من بدَنك وقوّتك .

ثمّ أمرَه إذا صلّى بالناس جماعة ألّا يطيل فينفرّهم عنها ، وألا يخدج الصّلاة وينقُصها فيضيّعها[1] .

ثم روَى خبرا عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، وهو قوله عليه السلام له : « صلّ بهم كصلاةِ أضعفهم » ، وقوله : « وكن بالمؤمنين رحيما » ؛ يحتمل أن يكون من تتمّة الخبر النبوىّ ، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، والظاهر أنّه من كلام أميرِ المؤمنين من الوصيّة للأشتر ؛ لأنّ اللفظة الأولى عند أرباب الحديث هى المشهور فى الخبر .

***

الأصْـلُ :

وَأَمَّا بَعْدَ هَـذَا ؛ فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ . وَالِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ

(١) د : « فيضعفها » .

ٱلْكَذِبِ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إِمَّا ٱمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِى ٱلْحَقِّ ، فَفِيمَ ٱحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ ، إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِى مُعَامَلَةٍ .

* * *

الشَّرْحُ :

نهاه عن الاحتجاب ؛ فإنّه مَظِنّة انطواء الأمور عنه ، وإذا رُفِع الحجاب دخل عليه كلٌّ أحد فعرَف الأخبار ، ولم يَخْفَ عليه شيء من أحوال عمله .

ثم قال : لم تحتجب ، فإنّ أكثر الناس يحتجبون كيلا يُطلَب منهم الرِّفد !

وأنت فإن كنتَ جوادا سَمْحا لم يكن لك إلى الحجاب داعٍ ، وإن كنتَ مُمسِكا فسيعلم الناسُ ذلك منك ، فلا يسألك أحدٌ شيئاً .

ثم قال : عَلَى أنّ أكثرَ ما يسأل منك مالا مؤونة عليه فى ماله ؛ كردّ ظُلَامة أو إنصاف من خَصْم .

* * *

[ذكر الحجاب وما ورد فيه من الخبر والشعر]

والقول فى الحجاب كثير :

حضر بابَ عمرَ جماعةٌ من الأشراف : منهم سُهَيل بن عمرو وعُيَينة بن حِصْن والأقرع ابن حابس ، فحُجِبوا ، ثم خرج الآذن فنادى : أين عمّار ؟ أين سَلْمان ؟ أين صُهَيب ؟

فأدخلهم فتمعّرت[1] وجوهُ القوم ، فقال سُهيل بن عمرو : لِمَ تتمعّر وجوهكم ! دُعوا ودُعِينا؛ فأسرَعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمرَ اليوم لأنتم غداً لهم[2] أحسد .

واستأذن أبو سُفْيانَ على عثمان فحجَبه ، فقيل له : حَجَبك ! فقال : لا عدمتُ من أهلى مَنْ إذا شاء حَجَبنى .

وحَجَب معاويةُ أبا الدرداء ؟ فقيل لأبى الدرداء : حَجَبك معاوية ! فقال : مَنْ يَغْش أبوابَ الملوك يُهَنْ ويُكْرَم ، ومن صادف بابا مُغلقا عليه وَجَد إلى جانبه بابا مفتوحا ، إن سأل أُعطِىَ ، وإن دعا أُجيب ، وإن يكن معاوية قد احتجب فربُّ معاويةَ لم يحتجب .

وقال أبرويز لحاجبه : لا تَضَعنّ شريفا بصُعوبة حجاب ، ولا ترفَعنّ وضيعا بسهولته ؛ ضع الرجالَ مواضعَ أخطارهم ، فمن كان قديما شرفه ثم ازدرعه[3] ولم يهدمه بعد آبائه فقدّمه على شرفه الأوّل ، وحسِّن رأيه الآخر ، ومَنْ كان له شرف متقدّم ولم يَصُن ذلك حياطةً له ، ولم يزدرعه تثمير المُمارَسة، فألحِق بآبائه منْ رفعة حالهما يقتضيه سابقُ شرفِهم ، وألحق به فى خاصّته ما ألحق بنفسه ، ولا تأذن له إلّا دَبريًّا وإلا سرارا ؛ ولا تلحقه بطبقة الأوّلين . وإذا ورد كتابُ عاملٍ من عمّا لى فلا تحبسه عنّى طرفةَ عين إلّا أن أكون على حالٍ لا تستطيع الوصولَ إلىّ فيها ، وإذا أتاك مَنْ يدّعى النصيحة لنا فلتكتبها سرّا ثم أدخله بعد أن تستأذن له ، حتى إذا كان منّى بحيث أراه فادفع إلىّ كتابه ، فإن أحمدت قبلت ، وإن كرهت رفضت . وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن ، فأْذَنْ له ، فإنّ العلم شريفٌ وشريفٌ صاحبه ، ولا تحجُبنّ عنّى أحدا من أفناء الناس ، إذا أخذتُ مجلسى مجلسَ العامّة ، فإنّ الملك لا يُحجَب إلا عن ثلاث : عِىٍّ يكره أن يُطّلع عليه منه ، أو بخل يكره أن يدخل عليه من يسأله ، أو رِيبة هو مصرّ عليها فيشفق من إبدائها .

---

(١) تمعرت وجوههم : تغيرت غيظاً وحنقاً . (٢) ساقطة من د . (٣) ازدرعه : أثبته .

ووقوف الناس عليها ، ولابدّ أن يحيطوا بها عِلْما ، وإن اجتهد فى سَترها . وقد أخذ هـذا المعنى الأخير محمود الورّاق فقال :

إذا اُعتصمَ الوالِي بإغلاق بابـــه ... وردّ ذوى الحاجات دونَ حجابهِ
ظننت به إحـــدى ثلاثٍ وربَّما ... رَجَمْتُ بظنٍّ واقعٍ بصَوابهِ
أقول به مَسٌّ من العِيّ ظاهرٌ ... ففى إذْنه للناسِ إظهارُ ما بِـــهِ
فإن لم يكن عِىّ اللسان فغالب ... من البُخْل يحمى ماله عن طِلابهِ
وإن لم يـــكن لاذا ولاذا فرِيبَةٌ ... يُـــكتِّمها مستورةٌ بثيـــابهِ

أقام عبد العزيز بن زُرارة الـكلابىّ على باب معاوية سنةً فى شَملة من صوف لا يأذن له؛ ثمّ أذن له وقرّبه وأدناه ، ولَطُف محلّه عنده حتّى ولّاه مصر ، فـكان يقال : استأذن أقوام لعبد العزيز بن زرارة ، ثمّ صار يستأذن لهم ، وقال فى ذلك :

دخلتُ على معاويةَ بنَ حرب ... ولـكن بعد يأسٍ من دخولِ
وما نلتُ الدخولَ عليه حتّى ... حللت مَحَـلّة الرجل الذّليلِ
وأغضيتُ الجفونَ على قذَاها ... ولم أنظر إلى قالٍ وقيلِ
وأدركتُ الّذى أمّلت منه ... وحرمانُ المُنَى زادُ العَجولِ

ويقال : إنه قال له لمّا دخـل عليه أميرُ المؤمنين : دخلتُ إليك بالأمل ، واُحتملت جفوْتك بالصبر ، ورأيتُ ببابك أقواما قدّمهم الحظّ ، وآخرين أخّرهم الحرمان ، فليس ينبغى للمقدّم أن يأمن عواقب الأيام ، ولا للمؤخّر أن يَيْئَسَ من عطف الزّمان .

وأوّل المعرفة الاختبار ، فابلُ واختـبر إن رأيت . وكان يقال : لم يلزم باب السلطان أحدٌ فَصَبر على ذلّ الحجاب، وكلام البوّاب ، وألقى الأنَف ، وحمل الضَّيْم ، وأدام الملازمة ، إلّا وصل إلى حاجته أو إلى معظمها .

قال عبد الملك لحاجبه : إنك عينٌ أنظرُ بها ، وجُنّة أستلئم بها ، وقد ولّيتُكَ ما وراء بابى ، فماذا تراك صانعا برعيّتى ؟ قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك ، وأضَعُهم فى إبطائهم عن بابك ، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم ، وأرَتّبهم حيث وضعهم ترتيبك ، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغَك عنهم . قال : لقد وفّيت بما عليك ، ولكن إن صدّقت ذلك بفعلك . وقال دِعْبل وقد حُجب عن باب مالك بن طَوْق :

لَعَمرِى لئن حجبتْنى العبيدُ ... لَمَا حجبتْ دونَكَ القافيهْ[1]
سأرمِى بها من وراء الحجابِ ... شَنعاءَ تأتيكَ بالدّاهِيَهْ
تُصِمّ السميعَ، وتُعْمِى البصيرَ ... ويُسألُ من مِثلها العافيهْ

وقال آخر :

سأترك هذا الباب مادام إذنُه ... على ما أرى حتّى يلينَ قليلا
فما خاب من لم يأته مترفّعا ... ولا فاز مَنْ قد رام فيه دُخولا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً ... وَجَدْنا إلى ترك المجىء سبيلا

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه :

وإن عدتُ بعد اليوم إنّى لظالمٌ ... سأصرف وجهى حيث تُبغى المكارِمُ
متى يُفلح الغادى إليك لحاجةٍ ... ونصفُكَ محجوبٌ ، ونصفك نائمُ !

يعنى ليله ونهاره .

استأذن رجلان على معاوية ، فأذن لأحدهما ــ وكان أشرف منزلةً من الآخر ــ ثم أذن للآخر فدخل ، فجلس فوق الأوّل ، فقال معاوية : إنّ الله قد ألزَمَنا تأديبكم

---

(١) ديوانه ٢١٢ ، ونقلها عن ابن أبى الحديد (النجف ١٩٦٢) .

كما ألزَمنا رعايتكم ، وإنّا لم تأذن له قبلك ، ونحن نريد أن يكون مجلسُه دونَك ، فقم لا أقام الله لك وزنا . وقال بشار :

تأبى خلائقُ خالدٍ وَفَعَالُه إلّا تجنُّبَ كلّ أمرٍ عائبِ
وإذا أتينا البابَ وقت غدَائه أدنى الغدَاءَ لنا برغم الحاجب

وقال آخر يهجو :

ياأميرا على جَريبٍ من الأر ضِ له تسعةٌ من الحجّابِ
قاعد فى الخراب يحْجبُ عَنّا ما سَمِعْنا بحاجبٍ فى خرابِ

وكتب بعضهم إلى جعفرَ بن محمد بن القاسم بن عُبيد الله بن سليمان ين وهب :

أبا جعفرٍ إنَّ الولاية إن تكنْ منبّلة قوسا فأنت لها نَبْلُ
فلا تَرتفِع عنّا لأمرٍ وَليتَه كما لم يصغّر عندَنا شأنَك العَزْلُ

ومن جيّد ما مُدِح به بشر بن مروان قول القائل :

بعيدُ مراد الطّرف ما ردّ طَرْفه حذار الغَواشى باب دارٍ ولا سِتْرُ
ولو شاء بِشْرٌ كان من دونِ بابه طماطمُ سُودٌ أو صقالبةٌ حُمرُ(١)
ولكنّ بِشرا يَستر البابَ للّتى يكون لها فى غِبّها الحمدُ والأجر

وقال بشّار :

خليلَىَّ من كعبٍ أعينَا أخاكما على دهرِه إنَّ الكريم يعينُ
ولا تَبخَلا بُخلَ ابن قَرْعة إنَّه مخافة أن يرجَى نَداه حَزينُ
إذا جئتَه للعُرف أغلَق بابَه فلم تَلقَه إلَّا وأنت كَمينُ
فقل لأبى يحيى متى تُدركُ العلا وفى كلّ معروف عليك يمينُ !

---

(١) الطماطم : الأعاجم.

وقال إبراهيم بن هَرْمة :

هَشٌّ إذا نَزَلَ الوفـودُ ببابه سهلُ الحجاب مؤدّب الخـدّامِ(١)
وإذا رأيتَ صديقَه وشقيقَـه لم تدر أيّهمـا ذوى الأرحامِ

وقال آخر :

وإنّى لأستحيي الكريمَ إذا أتى على طمعٍ عند اللئيمِ يُطالبهْ
وأرثِى له من مجلسٍ عند بابِه كمرثِيَتى للطِّرف والعِلْـجُ راكِبُـهْ

وقال عبد الله بن محمّد بن عُيينة :

أتيتُك زائرا لقضـاء حقّ فحالَ السّتر دونَك والحجابُ
ورأيِى مذهب عن كلِّ ناءٍ يجانبه إذا عزّ الذّهابُ
ولست بساقطٍ فى قِدْرِ قومٍ وإن كرهوا كما يَقع الذّبابُ

وقال آخر :

ما ضاقت الأرضُ على راغبٍ تطلّب الرزقَ ولا راهبِ
بل ضاقت الأرض على شاعرٍ أصبح يشـكو جفوةَ الحاجبِ
قد شتَمَ الحاجبَ فى شعره وإنّما يَقصِد للصّاحبِ

* * *

الأصْـلُ :

ثُمَّ إنَّ لِلوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً ، فِيهِـمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ ، وَقِلَّةُ إنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ ، فَاحْسِمْ مَئُونَةَ أُولَـئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ ، وَلَا تقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً ، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي

---

(١) المحاسن والمساوى ١ : ٢٦٤ .

شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ ، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِى ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِباً ، وَاقِعاً ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَوَاصِّكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ .

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً ، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ؛ فَإِنَّ فِى ذَلِكَ إِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

***

الشَّرْحُ :

نهاه عليه السلام عن أن يَحمِل أقاربَه وحاشيَته وخواصَّه على رقاب النـاس ، وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتّطاول والإذلال ، ونهاه من أن يقطع أحداً منهم قطيعة ، أو يملّكه ضَيْعة تضرّ بمن يجاورها من السادة والدّهاقين[١] فى شِرْب يتغلّبون على الماء منه ، أو ضِياعٍ يُضيفونها إلى ما ملّكهم إيّاه ، وإعفاء لهم من مؤنة ، أو حفر وغيره فيعفيهم الوُلاة منـه مراقبةً لهم ، فيكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم ، وحِمْل ثقلها على غيرهم .

ثم قال عليه السلام : لأنّ منفعة ذلك فى الدّنيا تكون لهم دونَك ، والوِزْر فى الآخرة عليك ، والعيب والذمّ فى الدنيا أيضا لاحقان بك .

ثم قال له : إن اتّهمتْك الرعيّة بحَيْفٍ عليهم ، أو ظنّتْ بك جَوْرا ، فاذكر لهم عذرَك

(١) الدهاقين : جمع دهقان ؛ وهو من ألقاب الرؤساء فى الأعاجم.

فى ذلك ، وما عنــدَك ظاهرا غير مستور ، فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحقّ .

وأصحرتُ بكذا، أى كشفته ؛ مأخوذٌ من الإصحار ، وهو الخروج إلى الصّحراء .

وحامّة الرجل : أقاربُه وبطانته . واعتقدت عقدة ، أى ادّخرت ذخيرة . والمهنأ مصدر هنأه كذا . ومغبّة الشيء : عاقبتُه .

واعدل عنكَ ظنونَهم : نحّها . والإعذار : إقامة العُذْر .

***

[طرف من أخبار عمر بن عبد العزيز ونزاهته فى خلافته]

ردّ عمرُ بنُ عبــد العزيز المظالم التى احتقَبها[1] بنو مروان فأبغضوه وذمّوه ؛ وقيل : إنّهم سمّوه فمات .

وروى الزّبير بن بكّار فى "الموفّقيّات" أنّ عبد الملك بن عمر بن عبــد العزيز دخل على أبيه يوما وهو فى قائلته ، فأيقظَه . وقال له : ما يؤمّنك أن تؤتَى فى منامك وقد رُفِعت إليك مظالم لم تقضِ حقّ الله فيها ! فقال : يا بنىّ إنّ نفسى مطيّتى إن لم أرفُق بها لم تبلّغنى ، إنّى لو أتعبتُ نفسى وأعوانى لم يكن ذلك إلّا قليلا حتّى أسقط ويسقطوا ، وإنّى لأحتسب فى نومتى من الأجر مثل الّذى أحتسِب فى يقظتى ، إنّ الله جلّ ثناؤه لو أراد أن ينزّل القرآن جملة لأنزله ، ولـكنّه أنزل الآية والآيتين حتّى استكثر[2] الإيمان فى قلوبهم .

ثم قال : يا بنىّ ممّا أنا فيه أمرٌ هو أهم إلى أهل بيتك ، هم أهل العدّة والعَدَد ، وقبلهم ما قبلهم ، فلو جمعتُ ذلك فى يوم واحد خشيتُ انتشارهم علىّ ، ولـكنّى أنصف من الرّجل

(١) يقال احتقب فلان الإثم ؛ كأنه جمعه واحتقبه من خلفه . (٢) د : « استكبر » .

والاثنين ، فيبلغ ذلك من وراءها ، فيكون أنجع له ، فإنّ يُرِد الله إتمام هذا الأمر أتمّه ، وإن تكن الأخرى فحسْب عبدٍ أن يَعلَم اللهُ منه أنّه يحبّ أن ينصف جميع رعيّته.

وروى جُويرية بنُ أسماء ، عن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : كنّا عند عمر بن عبد العزيز ، فلمّا تفرّقنا نادى مناديه : الصّلاة جامعة ! فجئتُ المسجدَ ، فإذا عمرُ على المنبر ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ هؤلاء ــ يعني خلفاءَ بني أميّة قبله ــ قد كانوا أعطَوْنا عَطَايَا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم ، وما كان ينبغي لهم أن يُعطوناها ، وإنّي قد رأيتُ الآن أنّه ليس عليّ في ذلك دونَ الله حسيب ، وقد بدأتُ بنفسي والأقربين من أهل بيتي ، اقرأْ يا مزاحمُ . فجعل مُزاحمٌ يقرأ كتابا فيه الإقطاعات بالضّياع والنّواحي ، ثمّ يأخذه عمرُ بيَده فيقصّه بالجلَم [1] ، لم يزل كذلك حتى نُوديَ بالظّهر .

وروى الفراتُ بنُ السائب ، قال : كان عند فاطمةَ بنتِ عبدالملك بن مرْوان جوهر جليل ، وهَبَها أبوها ، ولم يكن لأحد مثله ، وكانت تحت عمرَ بن عبد العزيز ، فلمّا ولِيَ الخلافةَ قال لها : اختاري ؛ إمّا أن تردّي جوهركِ وحليّكِ إلى بيت مال المسلمين ، وإمّا أن تأذني لي في فراقِكِ ، فإنّي أكرَه أن أجتمعَ أنا وأنتِ وهوَ في بيت واحد . فقالت : بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لي ؛ وأمرتْ به فحُمِل إلى بيت المال ، فلمّا هلك عمر واُستُخلِف يزيد ابن عبد الملك قال لفاطمة أخته : إن شئتِ رددتُه عليك ؛ قالت : فإنّي لا أشاء ذلك ، طبتُ عنه نفسا في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبدا . فلمّا رأى يزيدُ ذلك قَسَمه بين ولدِه وأهلِه .

وروى سهيل بن يحيى المَرْوَزيّ عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن عمرَ بن عبد العزيز ، قال : لمّا دفن سليمانُ صَعِد عمرُ على المنبر فقال : إنّي قد خلعتُ ما في رقبتي من بيعتكم . فصاح الناسُ صيحةً واحدة : قد اُخترناك ، فنزل ودخل وأَمَر بالستّور فهُتِكت ،

(١) الجلم : المقص .

والثّياب الّتى كانت تُبسَط للخلفاء فحُمِلَت إلى بيت المـــال ، ثمّ خرج ونادى مناديه : مَنْ كانت له مظلمةٌ من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليَحضُر؛ فقام رجل ذِمّىّ من أهل حِمْصَ أبيضُ الرأس واللِّحية ، فقال : أسألك كتابَ الله ! قال: ما شأنك ؟ قال : العبّاسُ بن الوليد ابن عبد الملك اُغتصَبنى ضَيْعتى — والعبّاس جالس — فقـال عمر : ما تقول يا عبّاس ؟ قال : أقطعَنِيها أميرُ المؤمنين الوليد ، وكتب لى بها سجلّا . فقال عمر : ما تقول أنت أيّها الذّمىّ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتابَ الله ! فقال عمر : إيهاً لعَمرى إنّ كتاب الله لأحقّ أن يُتّبع من كتاب الوليد ، اردُد عليه يا عبّاس ضَيْعتَه ؛ فجعل لايَدَع شيئا ممّا كان فى أيدِى أهل بيتِه من المظالم إلّا ردّها مَظلِمة مَظلِمة .

وروى ميمونُ بنُ مِهْرانَ ، قال : بعث إلىّ عمرُ بنُ عبد العزيز وإلى مكحول وأبى قِلابة فقال: ما تَرَوْن فى هذه الأموال الّتى أخذهـا أهلى من الناس ظُلْما ؟ فقال مكحول قولا ضعيفا كَرِهه عمر ، فقال : أرى أنْ تستأنف وتَدَع ما مضى ، فنظر إلىّ عمرُ كالمستغيث بى ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أحضر ولدك عبد الملك لننظرَ ما يقول . فحضر ، فقال : ما تقول يا عبد الملك ؟ فقال : ماذا أقول ؟ ألستَ تَعرِف مواضعها ! قال : بلى والله ، قال : فاُردُدْها ، فإن لم تفعل كنتَ شريكا لمن أخَذَها .

ورَوَى اُبن درستوَيه ، عن يعقوب بنِ سُفْيان ، عن جويرية بن أسماء ، قال : كان بيد عمرَ بنِ عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعته المعروفة بالسّهلة ، وكانت باليمـامة . وكانت أمراً عظيما لها غلّةعظيمة كثيرة ، إنّماعيشه وعيش أهله منها، فلمّا ولِىَ الخلافة قال لمزاحم مولاه — وكان فاضلا — : إنى قد عزمت أن أردّ السهلَة إلى بيت مال المسلمين ، فقال مزاحم : أتدرى كم ولدك ؟ إنّهم كذا وكذا ، قال : فذَرفتْ عيناه ، فجعل يَستدمِع ويمسح الدّمعة بأصبعه الوسطى ، ويقول : أَكِلُهم إلى الله ، أَكِلهم إلى الله ! فمضى مُزاحم فدخـــل على عبدِ الملك ابن عمر ، فقال له : ألا تعلم ما قد عزم عليه أبوك ! إنّه يريد أن يردَّ السّهلة ، قال : فما قلتَ

له ؟ قال : ذكرتُ له ولدَه فجعل يستدمع ويقول : أَكِلهم إلى الله . فقال عبد الملك : بئس وزيرُ الدّين أنتَ ! ثم وثب وانطلق إلى أبيه فقال للآذن : استأذنْ لى عليه ، فقال : إنّه قد وضع رأسه الساعة للقائلة ، فقال : استأذن لى عليه ؛ فقال : أما ترحمونه ! ليس له من الّليل والنهار إلّا هذه الساعة . قال : استأذن لى عليه لا أمّ لك ! فسمع عمرُ كلامَهما ، فقال : ائذن لعبد الملك ، فدخل فقال : على ماذا عزمتَ ؟ قال : أردّ السّهْلَة قال : فلا تؤخّر ذلك قم الآن . قال : فجعل عمرُ يرفع يديه ويقول : الحمد الله الّذى جعل لى من ذرّيتى مَنْ يعيننى على أمر دينى . قال : نعم يا بنىّ أصلّى الظهر ، ثمّ أصعد المنبر فأردّها علانيةً على رءوس الناس ، قال : ومَنْ لك أن تعيش إلى الظّهر ! ثمّ مَنْ لك أن تسلَم نيّتك إلى الظّهر إن عشت إليها ! فقام عمر فصَعِد المنبَر ، فخطب الناس ورد السّهلة .

* * *

قال : وكتب عمرُ بنُ الوليد بن عبد الملك إلى عمرَ بن عبد العزيز لما أخذ بنى مروان بردّ المظالم كتابا أغلَظَ له فيه ، من جُملته : إنّك أزْرَيْت على كلّ مَنْ كان قَبلك من الخلفاء وعبتَهم ، وسرتَ بغير سيرتهم بُغْضا لهم وشَنَآنا لمن بعدَهم من أولادهم ، وقطعتَ ما أمر الله به أن يُوصَل ، وعَمَدْتَ إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتَها بيت المال جَوْرا وعُدْوانا ، فاتّق الله يا بن عبد العزيز وراقبْه ، فإنّك خصَصْت أهلَ بيتك بالظلم والجور . والّذى خصّ محمدا صلّى الله عليه وآله بما خصّه به لقد ازددتَ من الله بُعداً بولايتك هذه الّتى زعمتَ أنّها عليك بلاء . فأقصر عن بعض ما صنعتَ ، واعلم أنك بعين جبّار عزيز وفى قبضته ، ولن يتركَك على ما أنت عليه .

قالوا : فكتب عمرُ جوابَه : أمّا بعد ، فقد قرأتُ كتابَك ، وسوف أجيبُك بنحو منه ، أمّا أوّل أمرك يابنَ الوليد فإنّ أمّك نُباتة أَمَة السّكون ، كانت تطوفُ فى أسواق حِمْص ، وتدخُل حوانيتها ، ثم اللهُ أعلم بها ؛ اشتراها ذُبيان بنُ ذبيان من فَىْء المسلمين ، فأهداها

لأبيك ، لحماتْ بك ، فبئس الحاملُ وبئس المحمول ! ثم نشأتَ فكنتَ جبّارا عنيدا . وتزعم أنّى من الظالمين لأنى حرمتُك وأهلَ بيتك فىءَ الله الذى هو حقّ القرابة والمساكين والأرامل ! وإنّ أظلم منّى وأترَكَ لعهد الله مَن استعملك صبيّا سفيها على جند المسلمين تَحكُم فيهم برأيك، ولم يكن له فى ذاك نيّة إلّا حبّ الوالد ولدَه ، فويلٌ لك وويلٌ لأبيك ! ما أكثر خصماءكما يومَ القيامة ! وإن أظلَمَ منّى وأترَكَ لعهد الله من استعمل الحجّاج بنَ يوسف على خُمْسَى العرب ، يسفك الدمَ الحرام ، ويأخذ المالَ الحرام . وإنّ أظلَمَ منّى وأترَكَ لعهد الله مَن استعمل قُرّة بن شَرِيك ، أعرابيّا جافيا على مصر ، وأذن له فى المَعازِف والخَمر والشّرب واللهو . وإن أظلَمَ منّى وأترَكَ لعهد الله من استعمل عثمانَ بن حيّانَ على الحجاز ، فينشد الأشعار على منبر رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ومَنْ جعل للعالية البربريّة سهما فى الخمس ؛ فرويداً يابن نباتة ، ولو التقت حَلْقَتا البطان[1] وردّ الفىء إلى أهله ، لتفرّغتُ لك ولأهل بيتك فوضعتُكم على المحجّة البيضاء ، فطالما تركتم الحقّ ، وأخذتم فى بُنَيّاتِ الطريق ! ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أعملَه ؛ بيع رقبتك ، وقسم ثمنك بين الأرامل واليتامى والمساكين ، فإنّ لكلّ فيك حقّا ، والسلام علينا ، ولا ينال سَلامُ الله الظالمين .

***

ورَوَى الأوزاعىّ قال : لمّا قطع عمرُ بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان مَن قَبْله يُجرُونه عليهم من أرزاق الخاصّة ، فتكلّم فى ذلك عَنْبسة بن سعيد ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إنّ لنا قرابةً ، فقال : مالى إنْ يتّسع لكم ، وأمّا هذا المال فحقّكم فيه كحقّ رجل بأقصى بَرْك الغِماد[2] ، ولا يمنعه من أخذه إلّا بعدُ مكانه . والله إنّى لأرى أنّ الأمور

(١) التقت حلقتا البطان : مثل يضرب للأمر العظيم .

(٢) برك الغماد : موضع بين مكة وزبيد .

لو أُستحالت حتى يُصبح أهلُ الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله .

ورَوَى الأوزاعيّ أيضا ، قال : قال عمر بنُ عبد العزيز يوما وقد بلغه عن بنى أميّة كلامٌ أغضبه : إنّ لله فى بنى أميّة يوما ـ أو قال : ذِبحاً ـ وايمُ الله لئن كان ذلك الذِّبح ـ أو قال ذلك اليوم ـ على يدى لأعذرنّ الله فيهم . قال : فلمّا بلغهم ذلك كفّوا ، وكانوا يَعلَمون صَرامَته ، وإنه إذا وقع فى أمرٍ مَضَى فيه .

ورَوَى إسماعيل بن أبى حكيم ، قال : قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوما لحاجبه : لا تُدخِلنّ علىّ اليومَ إلّا مَرْوانيّا . فلمّا اجتمعوا قال : يا بَنِى مَرْوان ، إنّكم قد أُعطيتمْ حظّا وشرَفا وأموالا ، إنّى لأحسب شطرَ أموال هذه الأمّة أو ثُلُثيها فى أيديكم ، فسكتوا ، فقال : ألا تُجيبونى ؟ فقال رجل منهم : فما بالك ؟ قال : إنى أريد أن أنتزِعها منكم ، فأردّها إلى بيت مال المسلمين . فقال رجل منهم : والله لا يكون ذلك حتّى يحال بين رءوسنا وأجسادِنا، والله لا نُكفِّر أسلافَنا ، ولا نُفقِر[1] أولادنا . فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا علىّ بمن أطلب هذا الحقّ له لأضرعتُ خُدودَكم ! قوموا عنّى .

وروَى مالك بن أنس ، قال : ذكر عمر بنُ عبد العزيز مَنْ كان قبله من المرْوانيّة فعابهم ، وعنده هشامُ بنُ عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّا والله نكره أن تعيب آباءنا ، وتضع شرَفَنا ؛ فقال عمر : وأىّ عيب أعيَبُ ممّا عابه القرآن !

ورَوَى نَوْفل بنُ الفرات ، قال : شكا بنو مَرْوانَ إلى عاتكة بنت مروانَ بن الحكَم عمرَ ، فقالوا : إنّه يعيب أسلافَنا ، ويأخذ أموالَنا . فذكرت ذلك له ـ وكانت عظيمةً عند بنى مَرْوان ـ فقال لها : يا عمّة ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وترك

---

(١) ب : « ونفقر » .

الناسَ على نهرٍ مَوْرود ، فولىَ ذلك النهرَ بعده رجلان لم يستخصّا أنفسَهما وأهلَهما منه بشيء ، ثم وليَه ثالثٌ فكرى منه ساقيةً ، ثم لم تزل الناس يُكرُون منه السّواقى حتّى تركوه يابساً لا قَطْرَة فيه ، وأيم الله لئن أبقانى الله لأسكُرنّ(١) تلك السواقى حتّى أعيد النّهر إلى مجراه الأوّل ؛ قالت : فلا يُسبّون إذاً عندك! قال : ومَنْ يسبّهم! إنّما يرفَع الرجل مَظلمته فأردّها عليه .

وروَى عبدُ الله بن محمد التيمىّ ، قال : كان بنو أميّة يُنزِلون عاتكة بنت مروان بن الحكم على أبوابِ قصورهم ، وكانت جليلَة الموضِع عندهم ، فلمّا ولىَ عمرُ قال : لا يلى إنزالَهَا أحدٌ غيرى ، فأدخَلوها على دابّتها إلى باب قبّته ، فأنزلها ، ثم طبّق لها وسادتَين ، إحداها على الأخرى ، ثم أنشأ يُمازِحها ـ ولم يكن من شأنه ولا من شأنِها المِزاح ـ فقال : أما رأيت الحرس الّذين على الباب ؟ فقالت : بلى ، وربّما رأيتهم عند من هو خير منك ! فلمّا رأى الغضب لا يتحلّل عنها ترك المِزاحَ وسألها أن تذكر حاجتَها ، فقالت : إنّ قرابَتك يشكونك ، ويزعمون أنّك أخذتَ منهم خيرغيرك ، قال : ما منعتُهم شيئا هوَ لهم ، ولا أخذتُ منهم حقّا يستحقّونه ! قالت : إنّى أخاف أن يُهيجوا عليك يوماً عصيبا(٢)، وقال: كلّ يوم أخافه ـ دون يوم القيامة ـ فلا وقانى الله شرّه . ثمّ دعا بدِينار وَمجمَرة وجلد فألقى الدّينار فى النّار ، وجعل يَنفخ حتى احمرّ ، ثم تناوله بشىء فأخرجه فوضعه على الجلد ، فنشّ وفتَر ، فقال : يا عمة ، أما تأوين لابن أخيك ، من مثل هذا ، فقامت فخرجت إلى بنى مروانَ فقالت : تزوّجون فى آل عمر بن الخطّاب ، فإذا نزَعوا إلى الشّبه(٣) جزعتم ! اصبروا له .

وروى وُهَيب بن الورد ، قال : اجتمع بنو مروانَ على باب عمر بن عبد العزيز ، فقالوا لولدٍ له : قل لأبيك يَأْذَن لنا ، فإن لم يأذن فأبلغ إليه عنّا رسالة ، فلم يأذن لهم ، وقال :

(١) سكر الساقية : سدها . (٢) د : « أن يهيجوا عليك غضبا يوما » .
(٣) كذا فى د ، وفى ا ، ب « السنة » .

فليقولوا ، فقالوا : قل له : إنّ من كان قبلك من الخلفاء كان يعطينا ، ويَعرِف لنا مواضعنا ، وإنّ أباك قد حرّمنا ما فى يديه . فدَخل إلى أبيه فأبلغه عنهم ، فقال : اخرج فقل لهم : إنى أخاف إن عصيتُ ربّى عذاب يوم عظيم .

وروى سعيدُ بنُ عمّار ، عن أسماء بنت عبيد ، قال : دخل عنبسة بنُ سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ مَنْ كان قَبْلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عَطايا منعتناها ، ولى عيال وضَيْعة ، فأْذن لى أخرج إلى ضيعتى ، وما يُصلح عيالى ! فقال عمر: إنّ أحبّكم إلينا من كفانا مؤُونته . فخرج عنبسة ، فلما صار إلى الباب ناداه : أباخالد! أبا خالد ! فرجع فقال : أكثِرْ ذكرَ الموت فإن كنتَ فى ضيق من العيش وسّعه عليك ، وإن كنتَ فى سعةٍ من العيش ضَيَّقه عليك .

وروى عمرُ بن علىّ بن مقدّم ، قال : قال ابنٌ صغيرٌ لسليمان بن عبد الملك لمزاحم : إنّ لى حاجةً إلى أمير المؤمنين عمر ؛ قال : فاستأذنت له ، فأدخله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِمَ أخذْت قطيعتى ؟ قال : معاذ الله أنْ آخذ قطيعةً ثبتتْ فى الإسلام ! قال : فهذا كتابى بها — وأخْرَج كتابا من كمه — فقرأه عمر وقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : كانت للمسلمين ، قال : فالمسلمون أولَى بها . قال : فاردُد علىّ كتابى ؛ قال : إنّك لو لم تأتنى به لم أسألكه ، فأمّا إذ جئتَنى به فلستُ أدَعك تطلب به ماليس لك بحقّ. فبكى ابن سليمان ، فقال مُزاحم: يا أمير المؤمنين ، ابنُ سليمانَ تَصنَع به هذا — قال : وذلك لأن سليمان عَهد إلى عمرَ ، وقدّمه على إخوته — فقال عمر : وَيْحك يامزاحم ! إنّى لأَجد له من اللَّوْط[1] ما أَجد لوَلدى ، ولكنّها نفسى أجادلُ عنها .

ورَوَى الأوزاعىّ ، قال : قال هشام بنُ عبدِ الملك ، وسعيد بن خالد بن عمر بن عثمان

(١) فى اللسان : « قد لاط حبه بقلبى ، أى لصق ». وفى حديث أبى البخترى : ماأزعم أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر ؛ ولكن أجد له من اللوط ما لاأجد لأحد بعد النبى صلى الله عليه وسلم » .

ابن عفّان لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، استأنِف العملَ برأيك فيما تحتَ يدِك ، وخلِّ بين مَن سبقك وبين ما وُلّوه عليهم كان ، أوْ لهم ، فإنّك مستكف أن تدخل فى خير ذلك وشرّه . قال : أنشدُكما الله الذى إليه تعودان ، لو أنّ رجلا هلك وترك بنينَ أصاغرَ وأكابرَ ، فغرّ الأكابرُ الأصاغرَ بقوّتهم ، فأكلُوا أموالهم، ثم بلغ الأصاغرُ الحُلُم فجاءوكما بهم وبما صنعوا فى أموالهم ما كنتما صانعين؟ قالا : كنا نردّ عليهم حقوقهم حتى يستوفوها. قال : فإنّى وجدتُ كثيرا ممن كان قَبْلِى من الوُلَاة غرّ الناس بسلطانه وقوته ، وآثر بأموالهم أتباعه وأهلَه ورَهطَه وخاصّته ، فلمّا وليت أتونى بذلك ، فلم يسعْنى إلّا الردّ على الضعيف من القوىّ ، وعلى الدنىء من الشريف . فقالا : يوفّق الله أمير المؤمنين .

* * *

الأصْلُ

وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلّهِ فِيهِ رِضًا، فَإِنَّ فِى الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ؛ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ ، وَلَـكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ . فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَاتَّهِمْ فِى ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ.

وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ .

وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَىْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعاً مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ؛ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ.

فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِىٌّ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ،

وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ ، فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلا خِدَاعَ فِيهِ .

ولاتَعْقِده عَقْداً تُجَوِّزُفيهِ الْعِلَلَ، ولاتُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَالتَّأْكِيدِوالتَّوْثِقَةِ، ولا يَدْعُوَنَّك ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فيهِ عَهْدُ اللهِ إِلَى طَلَبِ انفِساخِهِ بِغَيْرِ الحقّ ، فإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وفَضْلَ عاقِبَتِهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخافُ تَبِعَتَهُ ، وأَنْ تُحِيطَ بكَ مِنَ اللهِ طِلْبَةٌ لا تَسْتَقِيلُ فيها دُنْياكَ ولا آخِرَتَكَ .

***

الشَّرْحُ :

أمَرَه أن يقبل السِّلم والصلح إذا دُعِى إليه، لما فيه من دَعَة الجنود ، والراحةِ من الهمّ، والأمن للبلاد ، ولكن ينبغى أن يحذر بعد الصّلح من غائلة العدوّ وكيدِه ، فإنه ربما قارب بالصلح ليتغفّل ، أى يطلب غفلتك ، فخذ بالحزم ، واتّهِمْ حُسْنَ ظنك ، لاتثقْ ولا تسكنْ إلىحُسنِ ظنك بالعدوّ ، وكن كالطائر الحَذِر .

ثمّ أمَرَه بالوفاء بالعهود ؛ قال : واجعل نفسَك جُنّةً دون ما أعطيت ، أى ولو ذهبتْ نفسُك فلا تغدِر .

وقال الراوندىّ: الناس مبتدأ ، وأشدّ مبتدأ ثان، ومن تعظيم الوفاء خبرُه، وهذا المبتدأ الثانى مع خبره خبرُ المبتدأ الأول ، ومحلّ الجملة نَصْب لأنها خبرُ ليس ، ومحلّ ليس مع اسمه وخبره رَفع ، لأنه خبر ، فإنه وشىء اسمُ ليس ، ومن فرائض الله حال ، ولو تأخّرَ لكان صِفةً لشىء . والصواب أنّ « شىء » اسم ليس ، وجاز ذلك وإن كان نكرةً لاعتماده على النفى ، ولأن الجارّ والمجرور قبله فى موضع الحال كالصفة ، فتخصّص بذلك وقرُب من المعرفة ، والناسُ : مبتدأ ، وأشدّ : خبرُه ، وهذه الجملة المركبة من مبتدأ

وخبر فى موضع رَفْع لأنّها صفةُ « شىء » وأما خبر المبتدأ الذى هو « شىء » فمحذوف ، وتقديره « فى الوجود » كما حذف الخبر فى قولنـا : لا إله إلاّ الله ، أى فى الوجود . وليس يصحّ ما قال الراوَنْدىّ من أنّ « أشدّ » مبتدأ ثان ، و « من تعظيم الوفاء » خبرُه ، لأن حرف الجرّ إذا كان خبرًا لمبتدأ تعلق بمحذوف ، وهاهنا هو متعلّق بأشدّ نفسه ، فكيف يكون خبرا عنه ! وأيضا فإنّه لا يجوز أن يكون أشدّ من تعظيم الوفاء خبرا عن الناس ، كما زَعم الراوندىّ ، لأنّ ذلك كلامٌ غيرُ مفيـد ، ألا ترى أنّك إذا أردتَ أن تُخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذى هو « النـاس » لم يَقُم من ذلك صورةٌ محصّلة تفيدك شيئا ، بل يكون كلاما مضطربا !

ويمكن أيضاً أن يكون « من فرائض الله » فى موضع رَفع ، لأنه خبر المبتدأ، وقد قدّم عليه ، ويكون موضع « الناس » وما بعده رفـعٌ ، لأنه خبر المبتدأ الذى هو « شىء » كما قلناه أوّلا ، وليس يمتنع أيضا أن يكون : « من فرائض الله » منصوب الموضع، لأنه حال ، ويكون موضع « الناس أشدّ » رفعا ، لأنه خبر المبتدأ ، الذى هو « شىء » .

ثم قال له عليه السلام : وقد لزم المشركون مع شِرْكهم الوفاءَ بالعهود، وصار ذلك لهم شريعة وبينهم سنّة، فالإسلام أولى باللزوم والوفاء .

واستَوْبلوا : وجدوه وَبِيلا ، أى ثقيلا ، استوبلتُ البلدَ ، أىّ استَوْخَمته واستثقلْته ، ولم يوافق مِزاجَك .

ولا تخيسَنّ بعهدك ، أى لا تَغدِرنّ ، خاسَ فلانٌ بذمته ، أى غدَر ونَكَثَ .

قوله : « ولا تختلنّ عدوّك » ، أى لا تمكُرنّ به ، خَتَلته ، أى خدعتُه .

وقوله : « أفضاه بين عبـاده » ، جعله مشتركا بينهم ، لا يختصّ به فريق دون فريق .

قال : « ويستفيضون إلى جِوارِه » ، أى ينتشرون فى طلب حاجاتهم ومآربهم ، ساكنين إلى جواره ، فإلى ها هنا متعلقة بمحذوف مقدّر ، كقوله تعالى : ﴿ فى تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعَوْن ﴾(١) ، أى مرسلا . قال : « فلا إدْغال » ، أى لا إفساد ، والدَّغَل : الفساد . ولا مُدالسة ، أى لا خديعة ، يقال : فلان لا يوالس ولا يُدالس ، أى لا يخادع ولا يخون ، وأصل الدّلس الظلمة ، والتدليس فى البَيْع : كتمانُ عيبِ السِّلعة عن المشترى .

ثم نهاه عن أن يَعقِد عَقْدا يمكن فيه التأويلات والعلل وطلب المخارج . ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدوّ أن ينقضه معوِّلا على تأويل خفىّ أو فحوى قول ، أو يقول : إنما عنيت كذا ؛ ولم أعن ظاهر اللفظة ؛ فإن العقود إنما تُعقد على ما هو ظاهر فى الاستعمال متداول فى الاصطلاح والعُرْف لا على مافى الباطن .

وروى « انفساحه » بالحاء المهملة ، أى سعته .

***

[فصل فيما جاء فى الحذر من كيد العدوّ]

قد جاء فى الحذر من كيد العدو والنهى عن التفريط فى الرأى السكون إلى ظاهر السلم أشياء كثيرة، وكذا فى النهى عن الغدْر والنهى عن طلب تأويلات العُهود وفسخها بغير الحقّ.

فرّط عبدُ الله بن طاهر فى أيام أبيه فى أمرٍ أشرف فيه على العطب ، ونجا بعد لأىٍ(٢) فكتب إليه أبوه : أتانى يا بُنىّ من خبر تفريطك ما كان أكبر عندى من نعيك لو وَرَدَ ، لأنى لم أرجُ قط ألّا تموت ، وقد كنتُ أرجو ألّا تفتضح بترك الحزْم والتيقظ .

ورَوَى ابنُ الكلبىّ أنّ قيسَ بن زهير لمّا قتَل حذيفة بنَ بدر ومن معه بجَفْر الهباءة،

---

(١) سورة النمل ١٢ . (٢) بعد لأى ؛ بعد جهد .

خرج حتى لحق بالنَّمِر بنِ قاسط وقال : لا تنظرُ فى وجهى غَطَفانيّةٌ بعد اليوم ؛ فقال : يا معاشرَ النَّمِر ، أنا قيس بنُ زهير ، غريبٌ حَرِيب طريد شريد موتور ، فانظروا لِى امرأةً قد أدّبها الغِنَى وأذلّها الفقر . فزوّجوه بامرأةٍ منهم ، فقال لهم : إنّى لا أقيم فيكم حتى أخبرَكم بأخلاقى ، أنا فخور غيور أنِف ، ولستُ أفخر حتى أبتلَى ، ولا أغارُ حتّى أرَى ، ولا آنَف حتى أظلَمَ . فرضُوا أخلاقه ، فأقام فيهم حتّى وُلِد له ، ثمّ أراد أن يتحوّل عنهم ، فقال : يامعشرَ النَّمِر ، إنّ لكم حقّا علىّ فى مُصاهرَتى فيكم ، ومُقامى بين أظهُرِكم ، وإنّى موصيكم بخصالٍ آمرُكم بها ، وأنهاكم عن خصالٍ : عليكم بالأناة فإنّ بها تُدرَك الحاجة ، وتُنال الفُرصة ، وتسويد من لا تُعابُون بتسويده ، والوفاء بالعهود فإنّ به يعيشُ الناس ، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنْع ما تريدون منعَه قبل الإنعام ، وإجارة الجار على الدّهر ، وتنفيس البيوت عن منازل الأيامى ، وخَلْط الضَّيْف بالعيال . وأنهاكُم عن الغَدر ، فإنه عارُ الدهر ، وعن الرِّهان فإنّ به ثَكِلْتُ مالكاً أخى ، وعن البَغْى فإنّ به صُرِع زهيرٌ أبى ، وعن السَّرَف فى الدِّماء ؛ فإنّ قتلى أهلَ الهباءة أورثنى العار . ولا تُعطُوا فى الفُضول فتعجزُوا عن الحقوق ، وأنكحوا الأيامى الأكْفاء فإن لم تصيبوا بهنّ الأكفاءَ فخيرُ بيوتهنّ القبور . واُعلموا أنّى أصبحتُ ظالما ومظلوما ، ظلمنى بنو بدْر بقتلهم مالكا ، وظلمتهم بقتلِى مَنْ لا ذنب له . ثمّ رحل عنهم إلى غمار[1] فتنصّر بها ، وعَفّ عن المآكل حتّى أكل الحَنْظَل إلى أن مات .

* * *

الأَصْلُ :

إيّاكَ والدِّماءَ وسَفْكَها بِغَيْرِ حِلِّها ، فإنَّهُ لَيْسَ شَىءٌ أدْعَى لِنِقْمَةٍ ؛ ولا أعْظَمَ

---

(١) غمار : اسم واد بنجد .

لِتَبِعَةٍ ، وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ ؛ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ .

وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلَا عِنْدِى فِى قَتْلِ الْعَمْدِ ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَأٍ ، وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِى الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً ، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّىَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ .

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرْنا فى وصيّة قيس بن زهير آنفا النّهى عن الإسراف فى الدّماء ، وتلك وصيّة مبنيّةٌ على شريعة الجاهليّة مع حميّتها وتهالُكها على القتل والقتال ، ووصيَّة أمير المؤمنين عليه السلام مبنيّةٌ على الشريعة الإسلاميّة ، والنّهى عن القتل والعُدْوان الّذى لا يُسيغه الدّين ، وقد ورد فى الخبر المرفوع : « إنّ أوّل ما يقضى اللهُ به يوم القيامة بين العباد أمرُ الدّماء » . قال : إنّه ليس شىء أدعى إلى حلول النِّقم ، وزوال النِّعَم ، وانتقال الدُّول ، من سَفْك الدم الحرام ، وإنك إن ظننتَ أنّك تُقوِّى سلطانك بذلك ، فليس الأمرُ كما ظننتَ ، بل تضْعفه ، بل تُعدِمه بالكليّة .

ثمّ عرّفه أنّ قتل العَمْد يوجب القوَد وقال له : « قَوَد البَدَن » أى يجب عليك هَدْم صورتك كما هدمتَ صورة المقتول ، والمراد إرهابه بهذه اللّفظة أنّها أبلَغ من أن يقول له : « فإنّ فيه القوَد » .

ثم قال : إن قتلتَ خطأ أو شِبه عَمْدٍ كالضَّرب بالسّوط فعليك الدِّية . وقد اختلف

الفقهاء فى هذه المسألة ، فقال أبو حنيفة وأصحابُه : القتل على خمسة أوجه : عمْد ، وشبه عمْد ، وخطأ ، وما أُجرِىَ مَجرَى الخطأ ، وقتْل بسبب .

فالعَمْد : ما تعمّد به ضرب الإنسان بسلاح ، أو ما يجرى مجرى السّلاح ، كالمحدّد من الخشب وليطة(١) القَصَب ، والمَرْوة(٢) المحدّدة ، والنار ؛ وموجب ذلك المأثم والقوَد إلّا أن يعفوَ الأولياء ، ولا كفّارة فيه .

وشِبْه العمد أن يتعمّد الضرب بما ليس بسلاح ، ولا أجرِىَ مَجْرَى السّلاح ، كالحجَر العظيم ، والخشَبة العظيمة ، وموجب ذلك المأثم والكفّارة ، ولا قوَد فيه ، وفيه الدّية مغلّظة على العاقلة .

والخطأ على وجهين : خطأ فى القصد ، وهو أن يَرْمِىَ شخصا يظنّه صَيْدا ، فإذا هو آدمىّ . وخطأ فى الفِعل ، وهو أن يَرمِى غَرَضا فيصيب آدميّا ، وموجب النوعين جميعا الكفّارة والدّية على العاقلة ، ولا مَأْثم فيه .

وما أجرى مجرى الخطأ مِثل النائم يتقلّب على رَجُل فيقتله ، فحُكمه حكمُ الخطأ .

وأمّا القتل بسبب ، كحافر البئرِ وواضعُ الحجَر فى غير مِلكه ، وموجبه إذا تَلِف فيه إنسانٌ الدّيَة على العاقلة ، ولا كفّارة فيه .

فهذا قولُ أبى حنيفة ومَن تابَعه ؛ وقد خالَفه صاحباه أبو يوسف ومحمّد فى شِبْه العَمْد ، وقالا : إذا ضرَبه بحجر عظيم أو خشبةٍ غليظة فهو عمْد ؛ قال : وشبه العمْد أن يتعمّد ضربه بما لا يقتل به غالبا ، كالعصا الصغيرة ، والسّوط ؛ وبهذا القول قال الشافعىّ .

وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّ المؤدّب من الوُلاة إذا تَلِف تحت

---

(١) الليط : قشر القصب اللازق به .

(٢) المروة : حجر أبيض براق ؛ وفى الحديث : «قال له عدى بن حاتم : إذا أصاب أحدنا صيداً وليس معه سكين ، أيذبح بالمروة وشقة العصا » ؟

يده إنسان فى التأديب فعليه الدّية ، وقال لى قوم من فُقهاء الإماميّة : إنّ مذهبَنا أن لا ديةَ عليه ، وهو خلافُ ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

* * *

الأصْـلُ :

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ .

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ ؛ أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ ، فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾(١) .

وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا ، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .

وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ .

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ، فَتَمْلِكَ الِاخْتِيَارَ .
وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ .

---

(١) سورة الصف ٣ .

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ ، مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا ، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

قد اشتمل هذا الفصلُ على وصايا نحنُ شارِحوها ، منها قولُه عليه السلام : « إيّاك وما يُعجبك من نفسك ، والثقة بما يُعجبك منها » ؛ قد ورد فى الخبر : « ثلاثٌ مُهلِكات: شحٌّ مُطاع ، وهوًى متبَّع ، وإعجاب المرءِ بنفسه » ؛ وفى الخبر أيضا : « لا وَحشةَ أشدّ من العُجْب » ، وفى الخبر : « الناسُ لآدَم ، وآدمُ من تراب ، فما لابن آدم والفخر والعجب ! » . وفى الخبر : « الجارّ ثوبَه خُيَلاء لا يَنظُر الله إليه يومَ القيامة » ؛ وفى الخبر — وقد رأى أبا دُجانةَ يتبختَر : « إنّها لمِشيةٌ يُبغضها الله إلّا بين الصفّيْن » .

ومنها قولُه : « وحُبّ الإطراء » ، نَاظرَ المأمونُ محمد بنَ القاسم النُّوشَجانىّ المتكلّم ، فجعل يصدّقه ويُطرِيه ويستحسن قولَه ، فقال المأمون : يا محمّد ، أراكَ تنقادُ إلى ما تظنّ أنه يسرّنى قبل وجوب الحجّة لى عليك ، وتُطرِينى بما لستُ أحبّ أن أُطرَى به ، وتَستخذِى لى فى المقام الّذى ينبغى أن تكون فيه مقاوِما لى ، ومحتجّا علىّ ، ولو شئت أن أقسِر الأمورَ بفَضْل بيان ، وطُولِ لسان ، وأغتصِب الحجّة بقوّة الخلافة ، وأُبّهة الرّياسة لصدِّقت وإن كنت كاذبا ، وعَدلتُ وإن كنت جائرا ، وصُوِّبتُ وإن كنتُ مخطئا ،

لكنى لا أرضى إلّا بغَلَبَة الحجّة ، ودفع الشّبهة ، وإنّ أنقصَ الملوك عَقْلا ، وأسخَفَهم رأيا ، مَنْ رضىَ بقولهم : صَدَق الأمير .

وأثنَى رجلٌ على رجل ، فقال : الحمدُ لله الّذى سترنى عنك . وكان بعضُ الصّالحين يقول إذا أطراه إنسان : ليسألكَ(١) اللهُ عن حُسن ظنّك .

ومنهـا قولُه : « وإيّاك والمَنّ » ، قال الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾(٢) . وكان يقال : المَنّ محبّة للنفس ، مَفسَدة للصّنع .

ومنها نهيُه إياه عن التزّيد فى فعله ، قال عليه السلام : إنّه يَذهَب بنُور الحقّ ، وذلك لأنّه محض الكذب ، مثل أن يسدىَ ثلاثةَ أجزاء من الجميل فيدّعى فى المجالس والمحافل أنّه أسدَى عشرةً ، وإذا خالط الحقُّ الكذبَ أذهبَ نورَه .

ومنها نهيُـه إيّاه عن خُلف الوَعد ، قد مدح اللهُ نبيّـا من الأنبياء وهو إسماعيل بنُ إبراهيمَ عليه السلام بصِدْق الوعد . وكان يقال : وعد الكريم نَقْدوتَعْجيل ، ووعدُ اللئيم مَطْل وتَعطيل . وكتب بعض الكتّاب : وحقّ لمن أزهرَ بقولٍ ، أن يُثمِر بفِعْل . وقال أبو مقاتل الضّرير : قلتُ لأعرابىّ : قد أكثر الناسُ فى المواعيد ؛ فما قولُك فيهـا ؟ فقال : بئس الشىء ! الوعد مَشغلة للقلب الفارغ ، مَتعَبةٌ للبدن الخافض ، خيرُه غائب ، وشرّه حاضر . وفى الحديث المرفوع : « عِدَة المؤمن كأخذٍ باليد » ، فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فقال : « إنّه يوجب المقْت » ، واستَشهَدَ عليه بالآية . والمَقْت : البُغض .

ومنها نهيُه عن العَجَلة ؛ وكان يقال : أصاب متثبّت أو كاد ، وأخطأ عَجِلٌ أو كاد . وفى المَثَل : « ربَّ عَجَلةٍ تَهَب رَيْثا » ، وذمّها الله تعالى فقال : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾(٣) .

---

(١) فى د « لاساءك » . (٢) سورة البقرة ٢٦٤ . (٣) سورة الأنبياء ٣٧ .

ومنها نهيُه عن التّساقط فى الشيء الممكن عند حضوره ، وهذا عبارةٌ عن النهى عن الحِرْص والجَشَع ، قال الشّنْفَرَى :

وإنْ مُدّت الأيدِى إلى الزادِ لم أكنْ ‏ ‏ ‏ ‏ بأعجَلِهم إذْ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ

ومنها نهيه عن اللّجاجة فى الحاجة إذا تعذّرت ؛ كان يقال : من لاجّ اللهَ فقد جعَلَه خصما ، ومن كان الله خصمَه فهو مخصوم ، قال الغزّىّ :

دَنْها سماويّة تجرى على قَدَرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ لا تُفْسِدَنْها برأيٍ منك مَعكوسِ

ومنها نهيُه له عن الوَهْن فيها إذا اُستوضحت، أى وَضَحتْ وانكشفتْ ، ويُرْوَى : « واستُوضِحَتْ » فِعلُ ما لم يسمَّ فاعله ، والوَهْن فيها إهمالُها وتركُ انتهاز الفرصة فيها ، قال الشاعر:

فإذا أمكنتْ فبادرْ إليها ‏ ‏ ‏ ‏ حَذَرا من تَعذُّر الإمكانِ

ومنها نهيُه عن الاُستئثار ، وهذا هو اُلخلُق النبوىّ ، غنِم رسولُ صلى الله عليه وآله غنائمَ خَيْبر ، وكانت مِلءَ الأرض نعما ، فلمّا ركب راحلتَه وسار تَبِعه الناس يطلبون الغنائم وقَسْمَها ، وهو ساكتٌ لا يكلّمهم ، وقد أكثروا عليه إلحاحا وسؤالا ، فمرّ بشجرة فخطفت(١) رداءه ، فالتفت فقال : ردّوا علىّ ردائى ، فلو ملكت بعدد رَمْل تِهامةَ مَغنَمًا لقسمتُه بينكم عن آخره ثمّ لا تجدوننى بخيلا ولا جبانا ، ونَزلَ وقَسَم ذلك المالَ عن آخره عليهم كلّه ، لم يأخذ لنفسه منه وبَرَةً .

ومنهانهيُه له عن التّغابى ، وصورة ذلك أنّ الأمير يُوحَى إليه أن فلانا من خاصّته يَفعل كذا، ويَفعل كذا من الأمور المنكرة ويرتكبُها سرّا ، فيتغابَى عنه ويَتغافل ، نهاه عليه السلام عن ذلك وقال : إنّك مأخوذٌ منك لغيرك ، أى معاقَب؛ تقول : اللّهمّ خذ لى من فلان بحقّى ، أى اللّهمّ انتقم لى منه .

---

(١) د « فاختطفت » .

ومنها نهيُه إيّاه عن الغضب ، وعن الحُكم بما تقتضيه قوّته الغضبيّة حتّى يسكن غضبُه ، قد جاء فى الخبر المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » ، فإذا كان قد نُهِيَ أن يقضىَ القاضى وهو غضبان على غير صاحبِ الخصومة ، فبالأولى أن يُنهَى الأميرُ عن أن يَسطوَ على إنسان وهو غضبانُ عليه .

وكان لكسرى أنوشَرْوانَ صاحبٌ قد رتّبه ونَصّبه لهذا المعنى يقف على رأس المَلِك يومَ جلوسه ، فإذا غَضِب على إنسان وأمَر به قرَع سلسلة تاجه بقضيب فى يده وقال له : إنّما أنت بَشَر ، فارحم مَن فى الأرض يرْحَمْك مَنْ فى السماء .

* * *

الأصْلُ :

ومن هذا العهد وهو آخره :

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ ، مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مِن حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ؛ وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ ؛ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ(١) ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ [عَلَى(٢)] آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ .

* * *

الشّرْحُ :

رُوِىَ : « كلّ رَغيبة » ، والرغيبةُ ما يُرغَب فيه ؛ فأمّا الرّغبة فمصدرُ رَغِب فى كذا ، كأنّه قال : القادرُ على إعطاء كلّ سؤال ، أى إعطاء كلّ سائل ما سأله .

---

(١) فى د « وانا إليه راغبون » . (٢) من « د » .

ومعنى قوله : « من الإقامة على العُــذْر » ، أى أسأل الله أن يوفّقنى للإقامة على الاجتهاد ، وبَذْل الوُسْع فى الطاعة ، وذلك [لأنه(١)] إذا بذل جهدَه فقــد أَعذَر ، ثمّ فسّر اجتهاده فى ذلك فى رضا الخَلْق ، ولم يفسّر اجتهاده فى رضا الخالق ، لأنه معلوم ؛ فقال : هو حُسنُ الثّناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد .

فإن قلت : فقولُه « وتمام النّعمة » على ماذا تَعطفه ؟

قلت : هو معطوفٌ على « ما » من قوله « لما فيه » ، كأنّه قال : أسأل الله توفيق لذا ولتمام النّعمة ، أى ولتمامِ نعمته علىّ ، وتضاعف كرامته لدىّ ، وتوفيقه لهما هو توفيقه للأعمال الصالحة الّتى يستوجبهما بها .

* * *

[فصل فى ذكر بعض وصايا العرب]

وينبغى أن يذكر فى هذا الموضع وَصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصَوْا بهــا أولادَهم ورَهْطَهم ، فيها آدابٌ حسان ، وكلام فصيح ، وهى مناسبة لعهدِ أميرِ المؤمنين عليه السلام هذا ، ووصاياه المودعة فيه ، وإن كان كلامُ أميرِ المؤمنين عليــه السلام أجلّ وأعلى من أن يُناسِبَه كلام ، لأنّه قبَس من نور الــكلام الإلٰهىّ ، وفَرْع من دَوْحة المَنطِق النّبوىّ .

رَوى ابنُ الــكلبىّ قال: لمّا(٢) حضرت الوفاةُ أوسَ بنَ حارثة أخا الخَزْرج ، لم يكن له ولدٌ غير مالك بن الأوس ، وكان لأخيه الخزرج خمسة ، قيل له : كنّا نأمرك بأن تتزوّج فى شبابك فلم تفعل حتّى حضرَكَ الموت ، ولا ولدَ لك إلّا مالكٌ ! فقال : لم يهلِكْ هالكٌ ترَكَ مِثْل مالك ، وإن كان الخزرجُ ذا عَدَد ، وليس لمالك ولد ، فلعلّ الذى استخرج

(١) من د . (٢) أمالى القالى ١ : ٢٠ .

العَذْق من الجرِيمة (١) ، والنارَ من الوثيمة (٢) أن يجعل لمالكٍ نَسْلا ، ورجالا بُسْلا (٣) ، وكلّنا إلى الموت . يا مالك ، المنيّة ولا الدنيّة ، والعتاب قبل العقـاب ، والتجلّد لا التبلّد ، واُعلم أن القبر خيرٌ من الفقر ، ومَنْ لم يُعطِ قاعداً حُرِم قائما ، وشرّ الشرب الاُشتفاف وشرّ الطعم الاُقتفاف (٤) ، وذهاب البَصر ، خيرٌ من كثير من النّظر ؛ ومن كرم الـكريم الدّفع عن الحريم ، ومن قلّ ذَلّ ، وخيرُ الغِنَى القناعة ، وشرّ الفقر الُخضوعُ . الدهر صَرْفان : صَرْف رخاء ، وصرف بلاء ؛ واليوم يومان : يوم لَكَ ويومٌ عليك ، فإذا كان لك فلا تَبطَر ، وإذا كان عليك فاُصطبر ، وكلاهما سينْحَسِر (٥) وكيف بالسلامة ، لمن ليست له إقامة ، وحيّاك ربّك .

* * *

وأوصى (٦) الحارثُ بنُ كعب بنيه فقال : يا بنيّ ، قد أتت عليّ مائةٌ وستّون سـنةً ما صافحتْ يمينى يمينَ غادر ، ولا قنَعتُ لنفسى بخـلّة فاجر ، ولا صبوتُ بابنة عمّ ولا كَنّة (٧) ، ولا بحتُ لصديق بسرّ ، ولا طرحتُ عن مُومِسَة قناعا ، ولا بقِيَ على دين عيسى بنِ مريمَ — وقد رُوِى على دينِ شُعيب — من العرب غيرى وغير تميم بن مرّ بن أسد ابن خزيمة ، فموتوا على شريعتى ، واُحفظوا [علىّ] (٨) وصيّتى ، وإلهَـكم فاتّقوا ، يَـكفِـكم ما أهمّـكم ، ويصلح لـكم حالـكم ، وإيّاكم ومعصيته ، فيحلّ بكم الدّمار ، ويُوحِش منـكم الدّيار . كونوا جميعا ، ولا تفرّقوا فتـكونوا شِيَعا ، وبُزّوا قبـل أن تُبَزّوا (٩) ، فموت

---

(١) الجريمة : النواة ، والعذق : النخلة . (٢) الوثيمة : الصخرة .
(٣) بسل : جمع باسل ؛ وهو الشجاع. (٤) الاشتفاف : الامتصاص والاقتفاف : الأخذ بعجلة .
(٥) يعنى ينكشف .
(٦) الوصايا ١٢٣ ، ونسب هذه الوصية إلى مالك بن المنذر البجلى. قال : « وقد كان أصاب دماً فى قومه؛ فخرج هارباً بأهله حتى أتى بهم بنى هلال ، فلما احتضر أوصى بنيه ، وأمرهم أن يعطوا قومه النصف من حدثه الذى أحدثه فيهم .
(٧) الـكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٨) تكملة من د . (٩) بزه : سلبه .

فى عزّ ، خيرٌ من حياة فِى ذُلّ وعجز ، وكلّ ما هو كائن كائن ، وكلّ جمع إلى تباين ، والدهر صَرْفان : صرْف بلاء ، وصرف رخاء، واليوم يومان : يومُ حَبرة [١]، ويوم عَبْرة ، والناس رجلان : رجلٌ لك ، ورجلٌ عليك . زوّجوا النساء الأكفاء ، وإلّا فانتظروا بهنّ القضاء، وليكن أطيب طيبهنّ الماء ، وإيّاكم والوَرْهاء ، فإنّها أدوأ الدّاء ، وإنّ ولدها إلى أفن [٢] يكون . لا راحةَ لقاطع القرابة . وإذا اختلف القومُ أمكنوا عدوّهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضّل بالحسنة يَقِى السّيئة ، والمكافأة بالسّيئة دخول فيها ، وعمل السوء يُزيلُ النّعماء ، وقطيعة الرّحم تُورِث الهمّ ، وانتهاك الحرمة يُزيل النعمة ، وعقوق الوالدَين يُعقِب النّكَد ، ويُخرب البلد ، ويمحق العدد ، والإسراف فى النصيحة ، هو الفضيحة ، والحقد منعُ الرِّفْد ، ولزوم الخطيئة يُعقِب البلية ، وسوء الدّعة [٣] يقطّع أسبابَ المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ؛ يا بَنىّ إنّى قد أكلتُ مع أقوامٍ وشربتُ ، فذهبوا وغبرتُ ، وكأنّى بهم قد لحقتُ ، ثم قال :

أكلتُ شبابى فأفنيتُه ... وأبليْتُ بعد دُهورٍ دُهورَا
ثلاثةَ أهلِين صاحبتُهمْ ... فبادُوا وأصبحتُ شيخاً كبيرَا
قليلَ الطعام عسيرَ القيا ... مِ قد ترك الدهرُ خَطوِى قصيرَا
أبيتُ أُراعِى نجومَ السماء ... أقلّب أمرِى بُطونا ظُهورَا

* * *

وصّى أكثمُ بنُ صَيْفِىّ بنيه ورهطَه فقال : يا بَنِى تميم ، لا يفوتنّكم وَعْظى ، إن فاتكم الدهر بنفسى ، إنّ بين حَيْزومى وصدرى لكلاما لا أجدُ له مواقعَ إلاّ [٤] أسماعَكم ولا مقارّ إلاّ قلوبَكم ، فتلقوْه بأسماع مُصْغية ، وقلوب دواعية ، تحْمَدوا مَغَبَّته : الهوى

---

(١) الحبرة : السرور .   (٢) الأفن : الفساد .
(٣) الوصايا : « الرعة » .   (٤) فى د « غير » .

يَقْظان ، والعقل راقد، والشّهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفسُ مهملة، والروّية مقيَّدة، ومن جِهَة التوانى وترك الروّية يتلف الحَزْم ، ولن يَعدَم المُشاور مُرْشدًا ، والمستبدّ برأيه موقوف على مداحِض الزَّلَل ، ومن سَمّع سُمِّع به ، ومصارعُ الرجال تحتَ بُروق الطمع ، ولو اعتُبرتْ مواقِعُ المحن ما وُجدتْ إلّا فى مَقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرّشاد ، ومَن سلك الجَدَد [١] أمِن العثار ، ولن يَعْدم الحسودُ أن يُتعب قلبه ، ويُشغل فكرَه ، ويُورث غيظه ، ولا تجاوز مضرّته نفسه . يا بنى تميم ، الصبرُ على جرع الحلم أعذب من جنا ثمرِ الندامة ، ومن جَعل عِرْضه دون ماله استهدَفَ للذمّ ، وكَلْمُ اللسّان أنكَى من كَلْمِ السّنان ، والكلمة مرهونةٌ ما لم تَنجُم من الفم ؛ فإذا نجمتْ مزجت ، فهى أسدٌ محرَّب ، أو نار تَلَهَّب ، ورأيُ الناصح اللبيب دليلٌ لا يجوز ، ونفاذُ الرأى فى الحرب ، أجدَى من الطّعن والضرب .

* * *

وأوصى يزيدُ بنُ المهلّب ابنه مَخْلَدا حين استخلفه على جُرْجانَ ، فقال له : يا بُنَىّ ، قد استخلفتُك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحىّ من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر :

إذا كنتَ مرتادَ الرّجالِ لنفعهمْ ... فرِشْ واصطَنع عندَ الّذين بهمْ ترمِى

وانظر هذا الحىّ من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم، وانظر هذا الحىّ من تميم فأمطرهم [٢] ولا تَزْهَ لهم ، ولا تُدنِهم فيطمعوا ، ولا تُقصِهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحىّ من قيس فإنهم أكفاء قومك فى الجاهلية ، ومناصِفوهم المآثِر فى الإسلام ، ورضاهم منك البُشر . يا بنىّ ، إنّ لأبيك صنائع فلا تفسِدها ، فإنه كفى بالمرء نقصا أن يهدِم ما بنى أبوه ، وإياك والدّماء فإنه لا تقيّةَ معها ، وإيّاكَ وشَتْم الأعراض فإنّ الحرّ

---

(١) الجدد : الأرض المستوية . (٢) د « فانظرهم » .

لا يرضيه عن عِرضه عوض، وإيّاك وضربَ الأبْشار فإنه عارٌ باقٍ، ووِتْر مطلوب، واستعمل على النّجدة والفضل دونَ الهوى ، ولا تعزل إلاّ عن عَجْز أو خيانة . ولا يمنعك من اصطناع الرّجل أن يكون غيرُك قد سبقك إليه ، فإنّك إنما تصطنع الرجالَ لفَضْلها . وليكن صنيعُك عند مَنْ يكافئك عنه العشائر . احمل الناسَ على أحسن أدبك يكفوكَ أنفسهم . وإذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه ، وليكن رسولُك فيما بينى وبينك مَنْ يفقه عنّى وعنك ؛ فإنّ كتابَ الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سِرّه . وأستودعُك الله ، فلا بدّ للمودّع أن يسكت ، وللمشيِّع أن يرْجع . وما عفّ من المنطق وقلّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك .

* * *

وأوصى قيس بنُ عاصم المِنْقَرىّ بنيه ، فقال : يا بنىّ ، خذوا عنى فلا أحد أنصَحُ لكم منّى . إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم ، فسوِّدوا أكبرَكم ، فإنّ القوم إذا سوَّدوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سوّدوا أصغرهم أزرى ذلك بهم فى أكفائهم . وإيّاكم ومعصية الله وقطيعة الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وَضَعوا اتّضَع . وعليكم بهذا المال فأصلحوه ، فإنه مَنْبَهة للكريم ، وجُنّة لعِرْض اللئيم . وإيّاكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل ، وإن أحداً لم يسأل إلاّ ترك الكسب ، وإيّاكم والنِّياحة ، فإنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ينهىَ عنها ، وادفنونى فى ثيابى التى كنتُ أصلّى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفنى فقد كانت بينى وبينهم مشاحنات فى الجاهليّة والإسلام ، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بى عارا . وخذوا عنّى ثلاثَ خِصال : إيّاكم وكلّ عِرْق لئيم أن تُلابِسوه فإنه إن يسرُرْكم اليوم يسؤكم غداً ، واكظِموا الغيظ ، واحذروا بنىَّ أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائنَ آباءٌ لنا سَلفوا   فلَنْ تبيدَ وللآباء أبناء

قال ابن الكلبيّ : فيَحكى الناسُ هذا البيت سابقا للزبير ، وما هو إلّا لقيس ابن عاصم .

* * *

وأوصى عمرو بن كلثوم التَّغْلَبيّ[١] [بنيه][٢] فقال : يا بَنىّ ؛ إنّى قد بلغت من العمر مالم يبلغ أحدٌ من آبائى وأجدادى ، ولا بدّ من أمر مقتبِل ، وأن ينزل بى ما نزل بالآباء والأجداد والأمهات والأولاد ، فاحفظوا عنى ما أوصيكم به . إنّى والله ما عيّرت رجلا قطّ أمرا إلا عيّرنى مثله ؛ إنْ حقّا فحق ، وإنْ باطلا فباطل ، ومن سَبّ سُبّ ، فكُفّوا عن الشتم فإنه أسلم لأعْراضكم . وصلوا أرحامكم تعمُرْ دارُكم[٣] ، وأكرموا جاركم بحسن ثنائكم ، وزوّجوا بنات العمّ بنى العمّ فإن تعدّيتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ [عن][٤] الأكفاء . وأبعدوا بيوتَ النساء من بيوت الرجال ، فإنه أغَضّ للبصر ، وأعفّ للذكر ؛ ومتى كانت المعاينة واللّقاء ، ففى ذلك داءٌ من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغارُ لنفسه ، وقَلّ مَن انتهك حرمةً لغيره إلّا انتُهكت حرمتهُ . وامنعوا القريب من ظُلْم الغريب ، فإنك تُذِلُّ على قريبك ، ولا يَجْمُل بك ذلّ غريبك ، وإذا تنازعتم فى الدماء فلا يكن حقّكم الكِفاء ، فربّ رجل خيرٌ من ألف ، ووُدّ خير من خلف ، وإذا حُدّثتم فَعُوا ، وإذا حَدّثتم فأوْجزوا ، فإنّ مع الإكثار يكون الإهذار ، وموتٌ عاجل خيرٌ من ضَنًى آجل ، وما بكيتُ من زمان إلّا دهانى بعده زمان ، وربما شَجَانى[٥] من لم يكن أمرُه

---

(١) ب : « الثعلبى » تحريف .   (٢) تكملة من د .

(٣) فى د « دياركم » .   (٤) من د .

(٥) شجانى : أحزننى .

عَنانى ، وما عجبتُ من أحْدوثة إلّا رأيت بعدها أعجوبة. واعلموا أنّ أشجع القوم العَطوف، وخيرُ الموت تحت ظِلال السيوف ، ولا خير فيمن لا رويّة له عند الغضب ، ولا فيمن إذا عُوتب لم يُعتِب ، ومن الناس من لا يرجَى خيره ، ولا يخاف شرّه ، فبكوءه[1] خير من درّه ، وعقوقه خيرٌ من برّه، ولا تُبرحوا فى حبكم فإن من أبرَح فى حبٍّ آلَ ذلك إلى قبيح بغض ، وكم قد زارنى إنسان وزُرْته ، فانقلب الدّهر بنا فقبَرْته . واعلموا أنّ الحليم سليم ، وأن السفيه كليم ، إنى لم أمت ولكن هرِمت ، ودخلتْنى ذِلّة فسكتّ ، وضعف قلبى فأهترت[2] ، سلّمكم ربكم وحيّاكم !

* * *

ومن كتاب أرْدَشير بن بابَك إلى بنيه والملوك من بعده : رشاد الوالى خيرٌ للرعيّة من خصْب الزمان ، الملك والدِّين توءمان لا قوام لأحدها إلّا بصاحبه ، فالدِّين أسُّ المُلْك وعمادُه ، ثم صار المَلِكُ حارسَ الدّين، فلابدّ للمُلك من أسّه ، ولابدّ للدّين من حارسه، فأمّا مالا حارس له فضائع ، ومالا أسَّ له فمهدوم ، إنّ رأسَ ما أخاف عليكم مبادرة السّفلة إيّاكم إلى دراسة الدّين وتأويله والتفقّه فيه ، فتحملكم الثّقة بقوّة الملك على التّهاون بهم ، فتحدث فى الدّين رياساتٌ منتشِرات سرًّا فيمن قد وترتم وجَفَوْتم ، وحرمتم وأخفتم ، وصغرّتم من سِفْلة النّاس والرعيّة وحَشْو العامّة ، ثمّ لا تنشَب تلك الرّياسات أن تحدث خُرْقا فى المُلك ووَهْنا فى الدولة . وأعلموا أنّ سلطانكم إنّما هو على أجساد الرعيّة لا على قلوبها ، وإن غلبتم الناسَ على مافى أيديهم فلن تغلبوهم على مافى عقولهم وآرائهم ومكايدهم . وأعلموا أنّ العاقل المحروم سَالٌّ عليكم لسانه،وهو أقطعُ سَيْفيه ، وإن أشدّ مايضرّ بكم من لسانه ماصرف الحيلة فيه إلى الدّين، فكان للدنيا يحتج[3]، وللدين فيما يظهر يتعصّب ، فيكون

---

(١) بكأت الناقة بكوءاً : قل لبنها .

(٢) الهتر : ذهاب العقل .   (٣) ا : « يجنح » .

للدين بكاؤه ، وإليه دعاؤه ، ثمّ هو أوحد للتّابعين والمصدّقين والناصحين والمؤازرين ، لأنّ تعصّب(١) الناس موكّل بالملوك ، ورحمتهم ومحبّتهم موكّلة بالضّعفاء المغلوبين ، فاحذروا هذا المعنى كل الحذر .

واعلموا أنّه ليس ينبغي للمَلِك أن يعرّف للعبّاد والنسّاك بأن يكونوا أوْلَى بالدّين منه ، ولا أحْدَبَ عليه ولا أغضَبَ له . [ولا ينبغي له](٢) أن يخلِيَ النّسّاك والعبّاد من الأمر والنهي فى نُسْكهم ودينهم ، فإنّ خروج النسّاك وغيرهم من الأمر والنّهى عيبٌ على الملوك وعلى المملكة ، وثُلْمة بيّنة الضّرر على الملك وعلى مَنْ بعده.

واعلموا أنّه قد مضى قبلنا من أسلافنا ملوكٌ كان الملِك منهم يتعهّد الحماية بالتفتيش والجماعة بالتفضيل ، والفراغ بالإشغال ، كتعهّده جَسَده بقصّ فضول الشعر والظّفر وغَسْل الدّرن والغمر(٣) ومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن ، وقد كان من أولئك الملوك مَنْ صحّة ملكه أحبّ إليه من صحّة جسده ، فتتابعتْ تلك الأملاك بذلك كأنّهم ملك واحد ، وكأنّ أرواحَهم روحٌ واحدة ، يمكّن أوّلهم لآخرهم ، ويصدّق آخرهم أوّلهم، يجتمع أبناء أسلافهم ، ومواريث آرائهم ، وثمرات عقولهم عند الباقى منهم بعدهم ، وكأنّهم جلوسٌ معه يحدّثونه ويشاورونه ، حتّى كأنّ على رأس دارا بن دارا ما كان من غلبة الإسكندر الرّومى على ما غلب عليه من مُلْكه . وكان إفسادُه أمرنا ، وتفرقتُه جماعتَنا ، وتخريبُه عمران مملكتنا أبلغَ له فيما أراد من سَفْك دمائنا ، فلمّا أذن الله عزّ وجلّ فى جمع مملكتنا ، وإعادة أمرنا ، كان من بعثه إيانا ما كان . وبالاعتبار يُتّقَى العثار ، والتجارب الماضية دستورٌ يُرجَع إليه من الحوادث الآتية .

واعلموا أنّ طباع الملوك على غير طباع الرعيّة والسوقة : فإن الملِك يطيف به العزّ ، والأمن والسّرور والقُدْرة على ما يريد ، والأنَفَة والْجرْأة والعبث والبَطَر ، وكلّما ازداد

---

(١) فى د « بغض » . (٢) تكملة من د . (٣) ب : « والغمص » .

فى العُمر تنفسًا ، وفى المُلك سلامةً أُزداد من هذه الطبائع والأخلاق حتّى يُسلمه ذلك إلى سُكْر السّلطان الّذى هو أشدّ من سكر الشراب ، فينسى النكبات والعَثَرات ، والغِيَر والدوائر وفحش تسلُّط الأيام ، ولؤم غلبة الدهر ، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول . وعند حُسن الظنّ بالأيّام تحدثُ الغِيَر ، وتزول النّعَم ؛ وقد كان من أسلافنا وقُدَماء مُلوكنا مَنْ يذكِّرهُ عزّه الذلّ ، وأمْنُه الخوف ، وسرورُه الكآبة ، وقدرته المعْجزَة ، وذلك هو الرّجل الكامل قد جمع بهجة الملوك ، وفكرة السُّوقة ، ولا كمال إلّا فى جمعها .

واعلموا أنّكم ستُبلوْن على الملك بالأزواج والأولاد والقُرباء والوُزَراء والأخدان ، والأنصار والأعوان والمتقرّبين والنُّدماء والمُضحِكين ، وكلّ هؤلاء ـ إلّا قليلا ـ أن يأخذ لنفسه أحبُّ إليه من أن يعطى منها عمله ، وإنّما عمله سوقٌ ليومه ، وذخيرةٌ لغده ، فنصيحتُه للملوك فضلُ نصيحته لنفسه وغاية الصّلاح عنده صلاحُ نفسه ، وغاية الفساد عنده فسادُها ؛ يقيم للسلطان سوق المودّة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع ، إذا استوحش الملك من ثقاته أطبقتْ عليه ظُلم الجهالة . أخوَف ما يكون العامّة [آمن ما يكون الوزراء ، وآمن ما يكون العامة[1]] أخوف ما يكون الوزراء .

واعلموا أنّ كثيرا من وزاء الملوك من يُحاول استبقاء دولته وأيّامه بإيقاع الاضطراب والخَبْط فى أطراف مملكة الملك ، ليحتاج الملك إلى رأيه وتدبيره ؛ فإذا عرفتم هذا من وزير من وزرائكم فاُعزلوه فإنّه يُدخِل الوَهن والنقْص على الملك والرعيّة لصلاح حال نفسه ، ولا تقوم نفسُه بهذه النّفوس كلّها .

واعلموا أنّ بدء ذهاب الدّولة ينشأ من قِبَل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة ولا أعمالٍ معلومة ، فإذا نشأ الفراغ تولّد منه النّظر فى الأمور ، والفكر فى الفروع والأصول . فإذا نظروا فى ذلك نظروا فيه بطبائعَ مختلفةٍ ، فتختلف بهم المذاهب ، ويتولّد من اُختلاف مذاهبهم تعاديهم وتضاغُنهم ، وهم مع اُختلافهم هذا متّفقون ومجتمعون على بغض الملوك ، فكلّ صِنْف منهم إنّما يجرى إلى فَجيعةِ الملك بملكه ، ولكنّهم لا يجدون سُلّما إلى

(١) تكملة من د وبها يستقيم الكلام .

ذلك أوثقَ من الدّين والناموس ، ثمّ يتولّد مِن تَمادِيهم أنّ المَلِك لا يستطيع جمعَهم على هوًى واحد ، فإن انفرد باختصاص بعضِهم صارَ عدوًّ بقيّتهم ، وفى طباع العـامة اُستثقالُ الوُلاة ومَلالُهم ، والنَّفاسة (١) عليهم ، والحسد لهم ، وفى الرعيّـة المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود ، ويتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يَجبُن الملِك عن الإقدام عليهم ، فإنّ فى إقدام الملك على الرعيّة كلّها كافّة تغريراً بمُلكه . ويتولّد مِن جُبْن المَلِك عن الرعيّة استعجالهم عليه ، وهم أقوى عدوّ له وأخلقُه بالظَّفَر ، لأنّه حاضر مع الملك فى دار ملكه ، فمن أفضَى إليه الملكُ بعدى فلا يكونَنّ بإصلاح جسده أشدَّ اهتماما منه بهذه الحال ، ولا تكونَنّ لشىء من الأشياء أكره وأنكرُ لرأسٍ صار ذَنَبا ، وذَنَبٍ صار رأسا ، ويد مشغولة صارت فارغةً ، أو غنىٍّ صارَ فقيرا ، أو عامل مصروف ، أو أمير معزول .

واعلموا أنّ سياسة الملك وحراسته ألّا يكون اُبن الكاتب إلّا كاتبا ، وابن الجندىّ إلّا جندّيا ، وابن التاجر إلّا تاجرا ، وهكذا فى جميع الطبقات ، فإنّه يتولّد من تنقّل النّاسِ عن حالاتهم أن يلتمس كلّ امرئٍ منهم فوقَ مرتبته ، فإذا اُنتقل أو شَكَ أن يرى شيئاً أرفَع مما انتقل إليه ، فيَحسُدَ أو ينافسَ ، وفى ذلك من الضرر المتولّد ما لا خفاء به ، فإنْ عجز مَلكٌ منكم عن إصلاح رعيّته كما أوصَيْناه فلا يكون للقميص القَمِلِ أسرَع خلعا منه لِمَا لبسَ من قميص ذلك المُلْك .

واعلموا أنه ليس مَلكٌ إلّا وهو كثير الذّكْر لمن يلِى الأمرَ بعـده ، ومن فساد أمر الملك نشرُ ذِكره ولاةَ العهود ، فإنّ فى ذلك ضُروباً من الضّرر ، وأنّ ذلك دخولُ عداوةٍ بين الملك وولىّ عهدِه ، لأنّه تطمح عينُه إلى الملك ، ويصير له أحبابٌ وأخدان يمنّونه ذلك ، ويستبطئون موتَ الملك . ثم إنّ الملك يستوحش منه ، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدِهما ، ولكن لينظرْ الوالى منكم لله تعالى ثمّ لنفسه ثمّ للرعيّة ، ولْينتخبْ وليّا للعهد من بعده

---

(١) النفاسة : كراهة الخير لهم .

ولا يُعلمه ذلك ، ولا أحد من الخَلْق قريبا كان منه أو بعيدا ، ثم يكتب اسمَه فى أربع صحائف ، ويَختمها بخاتمه ، ويضَعُها عند أربعة نفرٍ من أعيان أهل المملكة ، ثمّ لا يكون منه فى سرّه وعلانيته أمرٌ يستدلّ به على ولىّ عهده من هؤلاء فى إدناء وتقريب يعرَف به، ولا فى إقصاء وإعراضٍ يُستَراب له . وليتّق ذلك فى اللّحظة والكلمة ، فإذا هَلَك الملك جُمعتْ تلك الصحائفُ إلى النسخة التى تكون فى خِزانة الملك ، فتفضّ جميعا، ثم ينوّه حينئذ باسم ذلك الرجل ، فيلقى الملك إذا لقيه بحَداثة عَهْده بحال السّوقة، ويلبسه إذا لبسه ببصر السوقة وسمْعِها ، فإنّ فى معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سُكْراً تُحدِثه عنده ولايةُ العهد ، ثم يلقاه الملك فيزيده سُكْراً إلى سكره ، فيَعمَى ويَصَمّ ، هذا مع ما لابدّ أن يلقاه أيّام ولاية العَهْد من حِيَل العُتاة، وبغى الكذّابين ، وترقيَة النّمامين ، وإيغار صدره، وإفسادِ قلبه على كثير من رعيّته ، وخواصِّ دولته ، وليس ذلك بمحمود ولا صالح .

واعلموا أنّه ليس للمَلِك أن يحْلِف ، لأنّه لا يقدر أحدٌ استكراهه ، وليس له أن يغضب لأنّه قادر ، والغضب لقاح الشرّ والندامة ، وليس له أن يَعبث ويَلعب ، لأنّ اللعِب والعَبَث من عمل الفُرّاغ ، وليس له أن يفرَغ لأنّ الفَرَاغ من أمرِ السّوقة ، وليس للمَلِك أن يَحْسُد أحَداً إلّا على حُسْن التدبير ، وليس له أن يَخافَ لأنه لا يدَ فوقَ يدِه .

واعلموا أنّكم لن تَقدِروا على أن تَختِموا أفواهَ الناس من الطّعن والإزْراء عليكم ، ولا قدرةَ لكم على أن تجعَلوا القبيحَ من أفعالِكم حَسَناً ؛ فاجتهدوا فى أن تَحسُن افعالُكم كلّها ، وألّا تجعلوا للعامّة إلى الطّعن عليكم سبيلا .

واعلموا أنّ لِباسَ المَلِك ومَطعَمه ومَشربه مقاربٌ للباس السّوقة ومطعمِهم ، وَليس

فضل المَلِكِ على السُّوقة إلّا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم ، فإنّ الملك إذا شاء أحسنَ ، وليس كذلك السُّوقة .

واعلموا أنّ لكلّ ملك بطانةً ، ولكلّ رجل من بِطانته بطانة ، ثمّ إنّ لكل امرئ من بطانة البطانة بطانة ، حتّى يجتمعَ من ذلك أهلُ المملكة ، فإذا أقام الملك بطانته على حال الصّواب فيهم ، أقامَ كلّ امرئ منهم بطانته على مِثلِ ذلك حتّى يجتمع على الصّلاح عامّة الرعيّة .

احذروا باباً واحداً طالما أمِنْتُه فضرّنى ، وحَذِرته فنفعنى . احذروا إفشاءَ السرّ بحضْرة الصِّغار من أهليكم وخَدمِكم ، فإنّه ليس يَصغُر واحدٌ منهم عن حَمْل ذلك السرّ كاملا ؛ لا يترك منه شيئاً حتّى يضعَه حيثُ تكرهون إما سقطا أو غشّا .

واعلموا أنّ فى الرعيّة صِنْفاً أتوا الملك من قِبَل النصّائح له ، والتمسوا إصلاحَ مَنازلهم بإفساد مَنازِل الناس ، فأولئك أعداء الناس وأعداء الملوك ، ومَنْ عَادى الملوكَ والنّاسَ كلّهم فقد عادى نفسَه .

واعلموا أنّ الدّهر حاملُكم على طبقات ؛ فمنها حال السّخاء حتّى يدنوَ أحدُكم من السّرف ، ومنها حال التبذير حتّى يدنوَ من البُخْل ، ومنها حالُ الأناة حتّى يدنوَ من البَلادة ، ومنها حالُ انتهاز الفُرْصة حتّى يدنوَ من الخِفّة ، ومنها حالُ الطّلاقة فى اللسان حتّى يدنوَ من الهَذَر ، ومنها حالُ الأخذ بحَكَمة (١) الصّمت حتّى يدنوَ من العىّ ، فالملِك منكم جديرٌ أن يبلُغ من كلّ طبقة فى محاسنها حَدّها ، فإذا وقف عليه ألجم نفسَه عمّا وراءَها .

واعلموا أن ابن الملِك وأخاه وابنَ عمّه يقول : كدت أن أكون ملِكا ، وبالحرىّ ألّا أموت حتّى أكون ملِكا ، فإذا قال ذلك قال ما لا يسرّ الملك ، وإن كتمه فالدّاء

---

(١) الحكمة فى الأصل : اللجام ؛ والكلام على الاستعارة .

فى كلّ مكتوم ، وإذا تمنّى ذلك جعل الفساد سُلّما إلى الصلاح ، ولم يكن الفساد سُلّما إلى صلاح قطّ . وقد رسمتُ لكم فى ذلك مِثالًا ، اجعلوا المُلك لا ينبغى إلّا لأبناء الملوك من بنات عمومتهم ، ولا يصلح من أولاد بنات العمّ إلا كامل غير سخيف العقل ، ولا عازبُ الرأى ، ولا ناقص الجوارح ، ولا مطعونٌ عليه فى الدّين ، فإنكم إذا فعلتم ذلك قلّ طلّاب الملك ، وإذا قلّ طلّابُه استراح كلّ امرئ إلى ما يليه ، ونزَع إلى حدٍّ يليه ، وعرف حاله ، ورضى معيشته ، واستطاب زمانه .

فقد ذكرنا وصايا قوم من العرب ، ووصايا أكثر ملوكِ الفُرْس وأعظمهم حكمةً لتُضَمّ إلى وصايا أميرِ المؤمنين فيحصلَ منها وصايا الدّين والدنيا ، فإنّ وصايا أميرِ المؤمنين عليه السلام ، الدّينُ عليها أغلب ، ووصايا هؤلاء الدّنيا عليها أغلَب ، فإذا أخذ من أخذ التوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سَعِد ، ولا سعيد إلّا مَن أسعده الله .

(٥٤)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخزاعيّ، وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا ـ وَإِنْ كَتَمْتُمَا ـ أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي ، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي ؛ وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ ، وَلَا لِحِرْصٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ .

وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هَذَا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ .

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ؛ فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا الْعَارُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ . والسلام .

* * *

الشَّـرْحُ :

[عمران بن الحصين]

هو عمران بنُ الُحصَين بن عبيد بن خَلَف بن عبد بن نُهْم بن سالم بن غاضرة بن سَلول ابن حُبْشِيّة بن سَلُول بن كعب بن عمرو الُخزاعىّ . يكنى أبا نُجَيْد بابنه نُجَيد بن عمران . أسلمَ هو وأبو هريرة عامَ خَيْبر ، وكان من فضلاء الصّحابة وفقهائهم ، يقول أهلُ البصرة عنه : إنّه كان يرى الحَفَظة ، وكانت تكلّمه حتّى اكتوَى .

وقال محمّد بن سِيرِين : أفضلُ من نزَل البصرةَ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله عمرانُ بن الُحصَين وأبو بَكْرة . واستقضاه عبد الله بن عامر بن كُرَيز على البصرة فعمِل له أيّاما ، ثم استعفاه فأعفاه ، ومات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين فى أيّام معاوية .

***

[أبو جعفر الإسكافىّ]

وأمّا أبو جعفر الإسكافىّ ــ وهو شيخنا محمّد بن عبد الله الإسكافىّ ــ عدّه قاضى القضاة فى الطّبقة السابعة من طبقات المُعتزِلة مع عباد بن سُلَيمان الصَّيْمَرىّ ، ومع زُرْقان ، ومع عيسى بن الهيثم الصوفىّ ، وجعل أوّل الطبقة ثُمامَة بن أشرس أبا معن ، ثم أبا عثمانَ الجاحظ ، ثم أبا موسى عيسى بن صُبَيح المردار ، ثم أبا عمران يونُس بن عمران ثمّ محمّد بن شبيب ، ثم محمّد بن إسماعيل بن العسكرىّ ، ثم عبد الكريم بن رَوْح العسكرىّ ، ثم أبا يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام ، ثمّ أبا الحسين الصالحىّ ،

ثم الجعفران : جعفر بن جرير وجعفر بن ميشّر ، ثم أبا عمران بن النقّاش ، ثمّ أبا سعيد أحمد ابن سعيد الأسدىّ ، ثم عبّاد بن سليمان ، ثم أبا جعفر الإسكافىّ هـذا . وقال : كان أبو جعفر فاضلا عالما ، وصنّف سبعين كتابا فى علم الكلام .

وهو الّذى نقض كتابَ «العثمانيّة» على أبى عثمان الجاحظ فى حياته ، ودخل الجاحظ الورّاقين ببغداد ، فقال : مَنْ هذا الغلام السّوادىّ الّذى بلغنى أنّه تعرّض لنقض كتابى ! وأبو جعفر جالسٌ ! فاختفى منه حتّى لم يَرَه .

وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل على قاعدة معتزِلة بغداد ، ويبالغ فى ذلك ، وكان عَلَوِىَّ الرأى ، محقّقا مُنْصفا ، قليلَ العَصبيّة .

* * *

ثم نعود إلى شرح ألفاظ الفصْل ومعانيه :

قوله عليه السلام : « لم أُرد الناس » ، أى لم أُرد الولايةَ عليهم حتّى أرادوا هم منّى ذلك .

قال : « ولم أبايعْهم حتى بايعونى » ، أى لم أمدُدْ يدى إليهم مدّ الطّلَب والحرْص على الأمر ، ولم أمدُدها إلّا بعد أن خاطَبُونى بالإمْرَةِ والخلافة ، وقالوا بألسنتهم : قد بايعناك ، فحينئذ مددتُ يدى إليهم .

قال : ولم يبايعنى العامّة والمسلمون لسلطانٍ غَصَبهم وقهرَهم على ذلك ، ولا لحرص حاضر ، أى مال موجود فرّقته عليهم .

ثم قسم عليهما الكلام ، فقال : إن كنتما بايَعْتُمانى طوعا عن رضا فقد وجب عليكما الرّجوع ، لأنه لا وجه لانتقاض تلك البيعة ، وإن كنتما بايعتُمانى مكرَهَيْن عليها فالإكراه

له صورةٌ ، وهى أن يجرّد السيف ويمدّ العنق ، ولم يكن قد وقع ذلك ، ولا يمكنكما أن تدّعياه ، وإن كنتما بايعتمانى لا عن رضاً ولا مكرهين بل كارهين ، وبين المُكْرَه والكاره فرقٌ بيّن ، فالأمور الشرعيّة إنما تُبنى على الظاهر ، وقد جعلتُما لى على أنفسكما السّبيل بإظهاركما الطاعة ، والدخول فيما دخل فيه الناس ، ولا اعتبار بما أسررْتما من كراهية ذلك . على أنه لو كان عندى ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون فى كراهية ذلك سواء ؛ فما الذى جعلكما أحقَّ المهاجرين كلّهم بالكتمان والتقيّة !

ثم قال : وقد كان امتناعكما عن البيعة فى مبدأ الأمر أجمل من دخولكما فيها ثم نكثها .

قال : وقد زعمتما أنّ الشبهة التى دخلت عليكما فى أمرى أنى قتلتُ عثمان ، وقد جعلتُ الحكَم بينى وبينكما من تخلّف عنّى وعنكما من أهل المدينة ، أى الجماعة التى لم تَنصُر عليّا ولا طلحة ، كمحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ، يعنى أنهم غيرُ متّهمين عليه ولا على طلحة والزبير ، فإذا حكموا لزم كلّ امرئ منّا بقدر ماتقتضيه الشهادات . ولاشبْهة أنهم لوحكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة علىّ عليه السلام من دم عثمان ، وبأن طلحة كان هو الجملة والتفصيل فى أمره وحصره وقتله ، وكان الزبير مساعداً له على ذلك ، وإن لم يكن مكاشفا مكاشفة طلحة .

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة ، وقال لهما : إنكما إنما تخافان العار فى رجوعكما وانصرافكما عن الحرب ، فإن لم ترجعا اجتمع عليكما العار والنار ؛ أما العار فلأنكما تهزمان وتفرّان عند اللّقاء فتعيّران بذلك ، وأيضا سيُكشف للنّاس أنكما كنتما على باطل فتعيّران بذلك ، وأما النار فإليها مصيرُ العُصاة إذا ماتوا على غير توبة واحتمال العار ، وحده أهوَنُ من احتماله واحتمال النارِ معه.

(٥٥)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا ، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلِقْنَا ، وَلَا بِالسَّعْيِ فِيهَا أُمِرْنَا ، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا ، وَقَدِ ابْتَلَانِي اللهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي ، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ ، فَعَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، وَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي ، وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي ، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ ، وَقَائِمُكُمْ قَاعِدَكُمْ .

فَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ، وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللهُ مِنْهُ بِعَاجِلِ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ ، وَتَقْطَعُ الدَّابِرَ ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللهِ أَلِيَّةً غَيْرَ فَاجِرَةٍ ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَوَامِعُ الْأَقْدَارِ لَا أَزَالُ بِبَاحَتِكَ ، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

***

الشرح :

قال عليه السلام : « إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها » ، أى جعلها طريقاً إلى الآخرة .

ومن الكلمات الحكمية : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وابتلى فيها أهلها أى اختبرهم ليعلم أيهم أحسنُ عملا ، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز ، والمراد ليعلم خلقه ،

أو ليعلم ملائكته ورُسُله ، فحذف المضاف ، وقد سبق ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدم ، قال : « ولسنا للدنيا خُلِقْنا » ، أى لم نخلق للدنيا فقط .

قال : « ولا بالسعى فيها أمرنا » ، أى لم نؤمر بالسعى فيها لها ، بل أُمِرْنا بالسعى فيها لغيرها .

ثم ذكر أنّ كلّ واحد منه ومن معاوية مُبتلًى بصاحبه ، وذلك كابتلاء آدم بإبليسَ وإبليسَ بآدم .

قال : «فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن » ، أى تعدّيت وظلمت ، و « على » ها هنا متعلّقة بمحذوف دلّ عليه الكلام ، تقديرُه مثابرا على طلب الدنيا أو مصرّا على طلب الدنيا ، وتأويل القرآن ما كان معاوية يموّه به على أهل الشام فيقول لهم : أنا وليّ عثمان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لوليّه سلطانا[١] ﴾.

ثم يعِدُهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى : ﴿ فلا يُسرِفْ فى القتْلِ إنّه كانَ مَنْصوراً[١] ﴾ .

قوله : « وعصبته أنت وأهل الشام » ، أى ألزمتنيه كما تلزم العصابة الرأس ، « وألّبْ عالمكم جاهلكم » ؛ أىّ حرّض .

والقياد : حبل تقاد به الدابّة .

قوله : واحذر أن يصيبك اللهُ منه بعاجل قارعة ، الضمير فى « منه » راجعٌ إلى الله تعالى ، « ومن » لابتداء الغاية .

---

(١) سورة الإسراء ٣٣ .

وقال الراونديّ : منه ، أى من البُهْتان الذى أتيته ، أى من أجله ، و « من » للتعليل، وهذا بعيد وخلاف الظاهر .

قوله : « تمسّ الأصل » ، أى تقطعه ، ومنه ماء ممسوس أى يقطع الغُلّة . ويقطَع الدابر أى العقب والنسل .

والأليّـة : اليمين . وباحة الدار : وَسَطها ، وكذلك ساحَتُها ، ورُوِى بناحيتك .

قوله : « بعاجل قارعة ، وجوامع الأقدار » ، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف[١] للتأكيد ، كقوله تعالى : ﴿ وإنه لحق اليقين[٢] ﴾ .

(١) د : « الصلة إلى الموصول » . (٢) سورة الحاقة ٥١ .

(٥٦)

الأصْـلُ :

ومن كلام له عليه السلام وصى به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام :

اتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ ، وَلَا تَأْمَنْهَا عَلَى حَالٍ .

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَتْ بِكَ الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً ، وَلِنَزَوَاتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً .

* * *

[شريح بن هانئ]

الشّـرْحُ :

هو شُرَيح بنُ هانئ بنِ يزيدَ بنِ نهيك بن دُرَيد بنِ سُفيان بن الضّباب ، وهو سَلَمة ابن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن كعب المَذْحِجىّ . كان هانئ يُكنَى فى الجاهليّة أبا الحكم ، لأنّه كان يَحْكم بينهم ، فكناه رسولُ الله صلّى الله عليه وآلهِ بأبى شُرَيح ، إذ وفد عليه . وابنه شُرَيح هذا من جِلّة أصحابِ علىّ عليه السلام، شَهِد معه المشاهد كلّها، وعاش حتّى قُتِل بسِجِسْتان فى زمن الحجّاج ، وشُرَيْح جاهلىّ إسلامىّ ، يكنَى أبا المِقْدام،

ذَكَرَ ذلك كلَّه أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ فى كتاب الاستيعاب(١) .

قولُه عليــه السلام : وخَفْ على نفسك الغَرورَ ، يعنى الشيطان ، فأمّا الغُرور بالضمّ فمصدر . والرادع : الـكافّ المانع . والنَّزَوات : الوَثَبات . والحَفِيظة : الغضب . والواقِم : فاعلٌ ، من وقَمْتُه أى رددتُه أقبحَ الردّ وقهرتُه . يقول عليــه السلام : إنْ لم تَردَع نفسَك عن كثير من شَهَواتِك أفضتْ بك إلى كثيرٍ من الضّرر ، ومثلُ هذا قولُ الشاعر :

فإنَّكَ إنْ أعطيتَ بطنَك سُؤْلَهـا   وفَرْجَك نالَا مُنتهَى الذَّمِّ أجمَعَا(٢)

---

(١) الاستيعاب ٦٠٧ .   (٢) البيت لحاتم ، وهو من شواهد المغنى ٣٣١ .

(٥٧)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي خَرَجْتُ عَنْ حَيِّي هَـذَا إِمَّا ظَالِماً وَإِمَّا مَظْلُوماً ، وَإِمَّا بَاغِياً وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ ، وَأَنَا أُذَكِّرُ اللهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي ، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً اسْتَعْتَبَنِي .

* * *

الشَّرْحُ :

ما أحسنَ هذا التقسيم وما أبلَغَه فى عطف القلوب عليه ، واستمالة النفوس إليه !

قال : لا يخلو حالى فى خُروجى من أحد أمرين : إمَّا أن أكون ظالما أو مظلوما ، وبدأ بالظّالم هَضْما لنفسه[١] ، ولئلّا يقول عدوه : بدأ بدعوَى كونه مظلوما ، فأعطَى عدوَّه من نفسه ما أراد .

قال : فليَنفِر المسلمون إلىّ فإنْ وجدونى مظلوما أعانونى ، وإن وجدونى ظالما نهَوْنى عن ظُلمى لأعتِبَ وأنيبَ إلى الحقّ . وهذا كلام حَسن ، ومرادُه عليه السلام يَحصل على كلا الوجهين ، لأنّه إنّما أراد أن يستنفرَهم ، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرَهم إليه على كل حال ، والحىّ : المنزل ، ولمّا هاهنا بمعنى إلّا ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[٢] فى قراءة من قرأها بالتّشديد .

---

(١) فى د : « وأراد بالظالم هدم نفسه » .
(٢) سورة الطارق ٤ .

(٥٨)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقصّ فيه ما جرى بينه وبين أهل صِفِّين :

وَكَانَ بَدْء أَمْرِنَا أَنَّا الْتَقَيْنَا بِالْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ ، وَدَعْوَتَنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ ، وَلَا نَسْتَزِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ وَلَا يَسْتَزِيدُونَنَا ، وَالْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ ، فَقُلْنَا : تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لَا يُدْرَكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ ، وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ فِي مَوَاضِعِهِ ، فَقَالُوا : بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ ، فَأَبَوْا، حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ ، وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا وَحَمِشَتْ(١) .

فَلَمَّا ضَرَّسَتْنَا وَإِيَّاهُمْ ، وَوَضَعَتْ مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا ، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، حَتَّى اسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ؛ وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمُ الْمَعْذِرَةُ ، فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّاكِسُ الَّذِي رَانَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السَّوْءِ عَلَى رَأْسِهِ .

* * *

(١) في د « وحميت » .

الشَّرْحُ :

رُوِى : « التقَيْنا والقوم » بالواو ، كما قال :

* قلتُ إذ أقبلتْ وزهرٌ تَهادَى *

ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلّف .

قوله : « والظاهر أن ربّنا واحد » ، كلامُ من لم يحكم لأهل صِفّين من جانب معاوية حُكْما قاطعا بالإسلام ، بل قال : ظاهرُهم الإسلام ، ولا خاف بيننا وبينهم فيه ، بل الخُلْف فى دَمِ عثمان .

قال عليه السلام : قلنا لهم : تعالوْا فلنُطفِئْ هذه النائرة الآن بوضع الحرب ، إلى أن تتمهّد قاعدتى فى الخلافة وتزول هذه الشوائبُ الّتى تكدِّر علىّ الأمر ، ويكون للنّاس جماعةٌ ترجع إليها ، وبعد ذلك أتمكّن من قَتَلَةِ عثمان بأعيانهم فأقتصّ منهم ، فأبَوْا إلّا المكابرَة والمغالبة والحرب .

قوله : « حتّى جَنَحتْ الحرب وركَدَت » ، جَنَحت : أقبلتْ ، ومنهُ : قد جَنَح الليل ، أى أقبل ، وركَدت : دامت وثبَتَت .

قوله : « ووَقَدتْ نِيرانُها »، أى التهبت.

قوله : « وحَمِشتْ » ، أى استعرَت وشَبّت . ورُوِى : « واستحشَمَت[1] » وهو أصحّ ؛ ومن رواها « حَمِستْ » بالسين المهملة أراد اشتدّت وصَلُبت .

قوله : « فلمّا ضَرّستْنا وإيّاهم » أى عضّتْنا بأضراسها ، ويقال : ضَرّسَهم الدهر ، أى اشتدّ عليهم .

---

(١) فى د « واستجرت » . والمعنى عليه يستقيم أيضا .

قال : لمّا اُشتدّت الحربعلينا وعليهم ، وأ كَلَتْ منّا ومنهم، عادوا إلى ما كنّا سألناهم اُبتداء ، وضَرَعوا إلينا فى رَفْع الحرب ، ورَفَعوا المصاحفَ يسألون النزولَ على حُكمِها ، وإغمادَ السّيف ، فأجبناهم إلى ذلك .

قوله : « وسارعْناهم إلى ما طلبوا » كلمةٌ فصيحة ، وهى تَعدِيةالفعلِ اللّازم، كأنّها لمّا كانت فى معنى المُسابقَة ، والمسابقة متعدّية عدّى المُسارعةَ .

قولُه : « حتّى استبانت » ، يقول : استمرَرْنا على كفّ الحرب ووضعِها ، إجابةً لسؤالهم، إلى أن اُستبانت عليهم حجّتنا، وبطلتْ معاذيرُهم وشُبُهتُهم فىالحرب وشَقّ العصا، فمن تمّ منهم على ذلك ، أى على اُنقيادهِ إلى الحقّ بعد ظهوره له ، فذاكَ الّذى خَلّصه اللهُ من الهلاكوعذابِ الآخرة ، ومن لَجّ منهم على ذلك وتَمادَى فىضلاله فهو الرّاكس ؛ قال قوم : الراكس هُنا بمعنَى المَرْكوس ، فهو مقلوب فاعل بمعنى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيةٍ ﴾ (١) أى مرضيّة ، وعندى أنّ اللّفظة على بابهـا ، يعنى أنّ من لجّ فقد رَكَس نفسَه ، فهوالرّاكس ، وهو المركوس ، يقـال : ركَسه وأركَسَه بمعنًى ، والكتابُ العزيز جاء بالهمز فقال : ﴿ وَاُللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ﴾ (٢) ، أى رَدّهم إلى كفرهم (٣) ؛ ويقول : ارتَكَس فلان فى أمرٍ كان نجا منه ، ورانَ على قلبه ، أى رانَ هو على قلبه ، كما قلنا فى الرّاكس ؛ ولا يجوز أن يكون الفاعلُ ــ وهو الله ــ محذوفا، لأنّ الفاعل لا يُحذَف، بل يجوز أن يكون الفاعلُ كالمحذوف ، وليس بمحذوف ، ويكون المصـدر وهو الرَّيْن ، ودَلّ الفعـل عليه كقوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا اُلآيَاتِ ﴾(٤) أى بدَالهم البـداء . ورَانَ بمعنى غَلَب وغَطّى ؛ ورُوِى « فهو الرّاكس الّذى رِينَ على قَلْبه » .

---

(١) القارعة ٧ .
(٢) سورة النساء ٨٨ .
(٣) فى د « كيدهم » .
(٤) سورة يوسف ٣٥ .

قال : وصارت دائرةُ السَّوْء على رأسه ، من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾(١) والدوائر : الدُّوَل .

قال :

* وإنّ على الباغى تدورُ الدوائر *

والدائرة أيضا : الهزيمة ، يقال : على مَن الدائرةُ منهما ، والدوائر أيضاً الدّواهى .

---

(١) سورة الفتح ٧ .

(٥٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَابْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ ، رَاجِياً ثَوَابَهُ ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا ، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ حِفْظُ نَفْسِكَ ، وَالِاحْتِسَابُ عَلَى الرَّعِيَّةِ بِجُهْدِكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ ؛ والسلام .

***

الشرح :

[الأسود بن قُطْبة]

لم أقف إلى الآنَ على نَسَب الأسودِ بن قُطْبة ، وقرأتُ فى كثير من النّسخ أنّه حارثىّ من بنى الحارث بن كعب ؛ ولم أتحقّق ذلك ، والّذى يَغلِب على ظنّى أنه الأسوَد بنُ زيد ابن قُطْبة بن غَنْم الأنْصارى من بنى عُبَيد بن عَدِىّ . ذَكَره أبو عمر بنُ عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " ، وقال : إنّ موسى بنَ عُقْبة عدّه فيمن شَهِدَ بَدْرا[١] .

---

(١) الاستيعاب ١ : ٩٠ (طبعة نهضة مصر) .

قوله عليه السلام : « إذا اختلف هَوَى الوالى منَعَه كثيرا من الحقّ » قولٌ صِدْق ، لأنّه مَتَى لم يكن الخصمان عند الوالى سواءً فى الحقّ جارَ وظَلَم .

ثم قال له : فإنّه ليس فى الجَوْر عِوضٌ من العَدْل ؛ وهذا أيضا حقّ ، وفى العدل كلّ العِوض مِن الجور .

ثمّ أمَرَه باجتناب ما ينكِر مِثله من غيره ، وقد تقدّم نحوُ هذا .

وقوله : « إلّا كانت فَرْغَتَه » كلمةٌ فصيحة ، وهى المرّة الواحدة من الفَرَاغ ، وقد رُوِىَ عن النبىّ صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله يُبغِضُ الصحيحَ الفارغ لا فى شُغْل الدنيا ولا فى شُغْل الآخرة » ، ومرادُ أميرِ المؤمنين عليه السلام ها هنا الفَرَاغُ من عمل الآخرة خاصّة .

قوله : « فإنّ الّذى يصل إليك من ذلك أفضلُ من الّذى يَصِل بك » ، معناه : فإنّ الّذى يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعيّة ، وحفظ نفسك من مَظالِمِهم والحَيْف عليهم ، أفضلُ من الّذى يصل بك من حِراسةِ دِمائِهم[1] وأعراضِهم وأموالِهم ؛ ولا شُبهة فى ذلك ، لأنَّ إحدى المنفعتين دائمة ، والأخرى منقطِعة ، والنفع الدائمُ أفضلُ من المنقطِع .

---

(١) ب : « دعاتهم » تصحيف ، صوابه فى ا ، د .

(٦٠)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش[١] :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ وَعُمَّالِ الْبِلَادِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى ، وَصَرْفِ الشَّذَى ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ وَإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَبًا إِلَى شِبَعِهِ[٢] ، فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَ سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَادَّتِهِمْ ، وَالتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا اسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ الْجَيْشِ ، فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَظَالِمَكُمْ ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إِلَّا بِاللهِ[٣] وَبِي ، أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ اللهِ . إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

رُوِيَ « عن مُضارّتهم » بالراء المشدّدة . وجُباة الخراج : الّذين يجمعونه ، جَبيتُ الماءَ في الحوض ، أي جمعتُه . والشّذَى : الضرب والشرّ ، تقول: لقد أشذَيْت وآذَيْت . وإلى ذمّتكم ، أي إلى اليهود والنّصارى الّذين بينكم[٤] ، قال عليه السلام: «من آذى ذِمّيّا فكأنّما[٥] آذاني» ،

(١) د « عملهم الجيش » .
(٢) مخطوطة النهج : « إلا إلى شبعه » .
(٣) د « بإذن الله » .
(٤) د « بذمتكم » .
(٥) د « فقد » .

وقال : إنما بذلوا الجِزْية لتكون دماؤهم كدمائنا ، وأموالهم كأموالنا ، ويسمّى هؤلاء ذِمّة ، أى أهل ذِمّة ، بحذف المضاف . والمَعَرّة : المَضَرّة ، قال : الجيش ممنوعٌ من أذَى من يمرّ به من المسلمين وأهل الذمّة إلّا من سدّ جَوْعة المضطرّ منهم خاصّة ، لأنّ المضطرّ تباح له الميتة فضلا عن غيرها .

ثمّ قال : فنكّلوا من تَناوَل ، ورُوِى « بمن تَناوَل » بالباء ، أى عاقِبوه . و « عن » فى قوله : « عن ظلمهم » ، يتعلّق بنكّلوا ، لأنّها فى معنَى « اردعوا » ؛ لأنّ النَّكالَ يُوجِب الرَّدْع .

ثمّ أمرهم أن يكفّوا أيدِىَ أحداثِهم وسفهائِهم عن مُنازَعة الجيش ومصادَمتِه ، والتعرّض لمنعه عمّا استثناه ، وهو سدّ الجوعة عند الاضطرار ، فإنّ ذلك لا يجوز فى الشرع ، وأيضا فإنّه يُفضِى إلى فتنة وهَرَج .

ثمّ قال : « وأنا بين أظهُرِ الجَيْش » ، أى أنا قريبٌ منكم ، وسائرٌ على إثْر الجيش ، فارفعوا إلىّ مظالمَكم وما عَراكم منهم على وجه الغَلَبَة والقَهْر ، فإنّى مغيِّرٌ ذلك ومنتصِفٌ لكم منهم .

(٦١)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعيّ وهو عامله على هيت ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به من جيش العدوّ طالبا للغارة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ ، وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ . وَإِنَّ تَعَاطِيَكَ الْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسيا ، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ الَّتِي وَلَّيْنَاكَ - لَيْسَ لَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا ، وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأْيٌ شَعَاعٌ ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْرًا لِمَنْ أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمَنْكِبِ ، وَلَا مَهِيبِ الْجَانِبِ ، وَلَا سَادٍّ ثُغْرَةً ، وَلَا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةً ، وَلَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ(١) ، وَلَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

[كميل بن زياد ونسبه]

هو كُمَيل بنُ زياد بنِ سهيل بن هَيْثم بنِ سَعْد بن مالك بن الحارث بن صهبان ابن سعد بن مالك بن النَّخَع بن عمرو بن وَعْلة بن خالد بن مالك بن أُدَد . كان من أصحاب عليّ عليه السلام وشيعتِه وخاصّته ، وقتله الحجّاج على المَذْهب فيمن قَتَل من الشّيعة . وكان كُمَيل بنُ زياد عاملَ عليّ عليه السلام على هِيتَ ، وكان ضعيفا ، يمرّ عليه سرايا معاوية تَنهبُ أطرافَ العِراق ولا يردّها ، ويحاول أن يجبُر ما عندَه من الضّعف بأن يُغير

(١) فى د « النصرة » .

على أطراف أعمال معاوية مثل قَرْقِيسِيا وما يَجرِى مَجرَاها من القُرَى التى على الفرات ، فأنكر عليه السلام ذلك مِن فِعْله ، وقال: إنّ من العجز الحاضرِ أن يُهمِل الوالِى ما وَلِيَه ، ويتكلّف ما ليس من تكليفه .

* * *

والمتَبَّر : الهالك ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ﴾[1] .

والمسالح : جمعُ مَسلَحة ، وهى المواضع الّتى يقام فيها طائفةٌ من الجند لحمايتها .

ورأىٌ شَعاع ، بالفتح ، أى متفرِّق .

ثم قال له : « قد صرتَ جِسْرا » أى يَعبُر عليكَ العدوّ كما يَعبُر الناسُ على الجُسور ، وكما أنّ الجسر لا يَمنَع من يَعبُر به ويمرّ عليه فكذاك أنت .

والثُّغْرة : الثُّلْمة . ومُجزٍ : كافٍ ومُغْنٍ ؛ والأصل « مُجزِئٌ » بالهمز ، فخفّف .

---

(١) سورة الأعراف ١٣٩ .

(٦٢)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشتر رحمه الله لمّا ولاه إمارتها :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ، وَمُهَيْمِناً عَلَى الْمُرْسَلِينَ ؛ فَلَمَّا مَضَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَوَاللهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ ، فَأَمْسَكْتُ بِيَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً ، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمْ ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، وَكَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ .

* * *

الشّـرْحُ :

المُهيمِن : الشاهد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ﴾ ، أى تشهد بإيمان مَنْ آمَن وكُفْر من كَفَر . وقيل : تشهد بصحّة نبوّة الأنبياء قبلك .

وقوله : « على المرسلين » ، يؤكّد صحّة هذا التفسير الثانى ، وأصل اللّفظة من « آمن غيره من الخوف » ، لأنّ الشاهد يؤمّن غيره من الخوْف بشهادته ، ثمّ تصرّفوا فيها فأبدلوا إحدَى همزتَى « مؤامن » ياء فصار « مُؤَيْمن » ، ثم قَلَبوا الهمزة هاءً كأرقْت وهَرَقْت فصار « مُهَيْمن » .

والرُّوع : الخلَد ؛ وفى الحديث : « إنّ رُوح القُدُس نَفَثَ فى رُوعى » ، قال: مايخطر لى ببال أنّ العرب تَعدِل بالأمر بعد وفاة محمّد صلى الله عليه وآله عن بنى هاشم ، ثمّ من بنى هاشم عنّى ؛ لأنّه كان المتيقّن بحكم الحال الحاضرة . وهذا الكلام يدلّ على بُطْلان دعوَى الإماميّة النصّ وخصوصا الجلىّ .

قال : « فما راعنى إلا انثيال الناس » ، تقول للشىء يفْجَؤك بغتَةً : ما راعنى إلّا كذا ، والرَّوْع بالفتح ؛ الفزَع ، كأنه يقول : ماأفزعنى شىء بعد ذلك السكون الذى كان عندى ، وتلك الثقة التى اطمأنَنْتُ إليها إلّا وقوعُ ما وقع من انثيال الناس ــ أى انصبابهم من كلّ وجه كما ينثاب التراب ــ على أبى بكر ، وهكذا لفظ الكتاب الذى كتبه للأشتر ، وإنما الناسُ يكتبونه الآن « إلى فلان » تذمّما من ذكر الاسم كما يكتبون فى أوّل الشِّقْشِقِيَّة : « أما والله لقد تقمّصها فلانٌ » ، واللفظ « أما والله لقد تقمّصها ابن أبى قُحافة » .

قوله : « فأمسكتُ يدى » ، أى امتنعتُ عن بيعته ، حتى رأيت راجعة الناس ، يعنى أهل الرّدة كمسيلمة ، وسَجاح وطُليحة بن خويلد ومانعى الزكاة ؛ وإن كان مانعو الزكاة قد اختلف فى أنهم أهل رِدّة أم لا .

ومحقُ الدِّين : إبطاله .

وزَهَق : خَرَج وزال . تنهنَه : سكَن ، وأصله الكفّ ، تقول : نهنهت السبُعَ فتَنَهْنَه ،

أى كَفّ عن حركته وإقدامه ، فكأنّ الدّين كان متحرّكا مضطربا فسكن وكف عن ذلك الاضطراب .

* * *

رَوَى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات اجتمعتْ أسدٌ وغطفانُ وطيّءٌ على طُلَيْحَة بن خُويلد إلا ما كان من خواصّ أقوام فى الطوائف الثلاث ، فاجتمعتْ أسد بِسَمِيراء ، وغَطَفان بجنوب طِيبة(١) وطيّءٌ فى حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من قيس بالأبرق(٢) من الرّبَذة ، وتأشّب(٣) إليهم ناس من بنى كنانة ، ولم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين : أقامت إحداهما بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القَصَّة ، وبعثوا وفوداً إلى أبى بكر يسألونه أن يقارّهم على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، فعزم الله لأبى بكر على الحق ، فقال : لو مَنَعونى عِقالا(٤) لجاهدتهم عليه . ورجع الوفودُ إلى قومهم فأخبروهم بقلةٍ من أهل المدينة ، فأطمعوهم فيها وعلم أبو بكر والمسلمون بذلك ، وقال لهم أبو بكر : أيّها المسلمون ، إنّ الأرض كافرة ، وقد رأى وفدُهم منكم قِلّة ، وإنكم لا تدرون أليْلًا تُؤتَوْن أم نهاراً ، وأدناهم منكم عَلَى بريد ، وقد كان القوم يأمُلون أن نقبل منهم ونُوادِعَهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذْنا إليهم ، فأعِدُّوا واستَعِدّوا . فخرج علىّ عليه السلام بنفسه ، وكان على نَقْبٍ من أنقاب المدينة ، وخرج الزّبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرُهم فكانوا على الأنقاب الثلاثة ، فلم يلبثوا إلّا قليلا حتى طرق القومُ المدينة غارةً مع الليل ، وخلّفوا بعضهم بذى حُسًى

---

(١) فى الأصول : « طمية » والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى .

(٢) فى الأصول : « الأزرق » ، والصواب ما أثبته من الطبرى .

(٣) تأشبوا إليهم : انضموا .

(٤) أراد بالعقال الحبل الذى يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى إبل الصدقة . وانظر نهاية ابن الأثير .

ليكونوا ردءا لهم ، فوافوا الأنقاب وعليها المسلمون ، فأرسلوا إلى أبى بكر بالخبر ، فأرسل إليهم أن الزموا مكانكم ، ففعلوا ، وخرج أبو بكر فى جمعٍ من أهل المدينة على النواضح ، فانتشر العدوّ بين أيديهم ، واتّبعهم المسلمون على النواضح حتى بلغوا ذا حُسًى ، فخرج عليهم الكمين بأنحاء(١) قد نفخوها ، وجعلوا فيها الحبال ، ثم دَهْدَهوها بأرْجُلهم فى وجوه الإبل ، فتدَهْده(٢) كلّ نِحْيٍ منها فى طِوَله(٣) فنفرتْ إبلُ المسلمين ، وهم عليها — ولا تنفر الإبلُ من شىء نفارَها من الأنحاء — فعاجت بهم لا يملكونها حتى دخلت بهم المدينة ، ولم يصرع منهم أحد ولم يُصَب ، فبات المسلمون تلك الليلة يتهيّئون ، ثم خرجوا على تعبية ، فما طلع الفجرُ إلّا وهم والقومُ على صعيد واحد ، فلم يَسمَعوا للمسلمين حِسًّا ولا همْسًا حتى وضعوا فيهم السيف ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم ، فما ذَرّ قرنُ الشمس إلا وقد وَلّوا الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم ، ورجعوا إلى المدينة ظافرين(٤) .

قلت : هذا هو الحديث الذى أشار عليه السلام إلى أنه نهض فيه أيام أبى بكر . وكأنه جوابٌ عن قول قائل : إنه عمل لأبى بكر ، وجاهد بين يدى أبى بكر ، فبيّن عليه السلام عذرَه فى ذلك ، وقال : إنه لم يكن كما ظنّه القائل ، ولكنه من باب دَفْع الضرر عن النفس وعن الدين ، فإنه واجبٌ سواء كان للنّاس إمام أو لمْ يكن .

* * *

[ذكر ما طعن به الشيعة فى إمامة أبى بكر والجواب عنها]

وينبغى حيث جرى ذكرُ أبى بكر فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن نذكر ما أورَده قاضى القُضاة فى «المْغنى» ، من المطاعن التى طُعن بها فيه وجواب قاضى القضاة

(١) الأنحاء : جمع نحى ، وهو الزق . (٢) دهدهوها : دفعوها .
(٣) الطول : الحبل يشدبه . (٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ (طبعة المعارف) مع تصرف واختصار .

عنها ، واعتراضُ المرتضى فى ”الشافى“ على قاضى القضاة ، ونذكُر ما عندنا فى ذلك ، ثم نذكر مطاعن أخرى لم يذكُرها قاضى القضاة .

* * *

[الطعنُ الأول]

قال قاضى القضاة بعد أن ذكر ما طعن به فيه فى أمر فَدَك ، وقد سبق القولُ فيه .

ومما طعِن به عليه قولهم : كيف يصلُح للإمامة من يُخبر عن نفسه أنّ له شيطانا يَعتريه ومن يحذِّر الناسَ نفسه ، ومن يقول : « أقيلونى » بعد دخوله فى الإمامة ، مع أنه لا يحلّ للإمام أن يقول : أقيلونى البَيْعة !

أجاب قاضى القضاة فقال : إنّ شيخنا أبا علىّ قال : لو كان ذلك نقصا فيه لكان قولُ الله فى آدمَ وحوّاء : ﴿ فوَسْوس لهما الشيطان ﴾[١] ، وقوله : ﴿ فأزَلّهما الشَّيْطَانُ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾[٣] ، يوجب النقص فى الأنبياء . وإذا لم يجب ذلك، فكذلك ما وصف به أبو بكر نفسَه ، وإنما أراد أنه عند الغضب يُشفِق من المعصية ويَحذَر منها ، ويخاف أن يكون الشيطان يعتريه فى تلك الحال فيُوَسْوِس إليه ، وذلك منه على طريق الزّجر لنفسه عن المعاصى ، وقد رُوى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه ترك مخاصمةَ الناس فى حقوقه إشفاقا من المعصية ، وكان يولّى ذلك عَقيلا ، فلما أسنَّ عَقيل كان يولّيها عبد الله بنَ جعفر . فأمّا ما رُوِى فى إقالة البَيْعة فهو خبرٌ ضعيف ، وإن صحّ فالمراد به التنبيه على أنه لا يبالى لأمر يَرجع إليه أن يُقيله الناسُ البيعة ، وإنما يضرّون بذلك أنفسهم ؛ وكأنه نبّه بذلك

---

(١) سورة الأعراف ٢٠ . (٢) سورة البقرة ٣٦ .

(٣) سورة الحج ٥٢ .

على أنه غير مكرِه لهم ، وأنه قد خلّاهم وما يريدون إلّا أن يَعرِض مايوجب خِلافه . وقد رُوِى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أقالَ عبدَ الله بنَ عمر البيعة حين استقاله ، والمراد بذلك أنه تركه وما يختار .

اعترض المرتضى رضى الله عنه فقال: أمّا قول أبى بكر : « وَلِيتُكم ولستُ بخَيْرِكم ، فإن اُستقمتُ فاتّبعونى ، وإن اُعوجَجْت فقوّمونى ، فإنّ لى شيطانا يَعترينى عنـد غضبى ، فإذا رأيتمونى مغضَبا فاُجتنبونى لا أؤثّر فى أشعاركم وأبشاركم » ، فإنه يدلّ على أنه لا يَصلُح للإمامة من وجهين : أحدُها أنّ هـذا صفة مَنْ ليس بمعصوم ، ولا يأمن الغَلَط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيّته له إذا وقع فى المعصية ، وقد بيّنا أنّ الإمام لابد أن يـكون معصوما موفّقا مسدَّدا ، والوجه الآخر أنّ هذه صفة مَنْ لا يملك نفسَه ، ولا يَضبط غضبه، ومَنْ هو فى نهاية الطّيش والحِدَّة والخُرْق والعَجَلة . ولا خِلافَ أنّ الإمام يجب أن يكون منزّها عن هذه الأوصاف ، غير حاصل عليها وليس يُشبِه قولُ أبى بكر ما تلاه من الآيات كلّها . لأنّ أبا بكر خبّر عن نفسه بطاعة الشيطان عنـد الغضب ، وأنّ عادته بذلك جارية ، وليس هذا بمنزلة من يُوسوس إليـه الشّيطان ولا يطيعُه ، ويزيّن له القبيح فلا يأتيه ، وليس وسوسة الشيطان بعيب على الموسوس له إذا لم يستزلّه ذلك عن الصواب ، بل هو زيادة فى التّـكليف ، ووجه يتضاعف معه الثواب ؛ وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قيل : معناه فى تلاوته ؛ وقيل : فى فـكرته ، على سبيل الخاطر ، وأىّ الأمرين كان ، فلا عار فى ذلك على النبىّ صلّى الله عليه وآله ولا نقص ، وإنما العار والنّقص على من يطيع الشيطان ويتّبع ما يدعو إليه . وليس لأحد أن يقول : هذا إن سَلِم لـكم فى جميع الآيات لم يَسلم فى قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ؛ لأنّه قد خبّر عن تأثير غوايته ووَسْوَسته بما كان منهما من الفعل . وذلك أنّ المعنى الصحيح فى هذه الآية أنّ آدم وحـوّاء كانا مندوبين إلى اجتناب الشّجرة وتركِ التّناول منها ، ولم يكن ذلك عليهما واجبا لازما ،

لأنّ الأنبياء لا يُخِلّون بالواجب ، فوسوس لهما الشيطان حتى تَنَاوَلا من الشجرة ، فتركا مندوبا إليه ، وحَرَما بذلك أنفسَهما الثّواب ، وسمّاه إزلالا ، لأنّه حطٌّ لهما عن درجة الثواب وفعل الأفضل ؛ وقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (١) لا ينافى هذا المعنى ، لأنّ المعصية قد يُسمّى بها من أخلّ بالواجب والندب معا . قوله : « فَغَوَى » أى خاب من حيث لم يستحقّ الثواب على ما نُدِب إليه . على أنّ صاحب الكتاب يقول : إنّ هذه المعصية من آدم كانت صغيرةً لا يستحقّ بها عقاباً ولا ذمّا ، فعلى مذهبه أيضا تكون المفارَقة بينه وبين أبى بكر ظاهرةً ، لأنّ أبا بكر خبّر عن نفسه أنّ الشيطان يعتريه حتّى يؤثّر فى الأشعار والأبْشار ، ويأتى ما يستحقّ به التقويم ، فأين هذا من ذَنْب صغيرٍ لا ذمّ ولا عقابَ عليه ، وهو يَجرِى من وجه من الوجوه مَجرى المباح ، لأنّه لا يؤثّر فى أحوالِ فاعله (٢) وحَطّ رتبته ؛ وليس يجوز أن يكون ذلك منه على سبيل الخَشْية والإشفاق على ما ظُنّ ، لأنّ مفهومَ خطابه يَقتضِى خلاف ذلك ، ألا ترى أنّه قال : « إنّ لى شيطاناً يعترينى » وهذا قولُ مَن قد عرَف عادته ، ولو كان على سبيل الإشفاق والخَوْف لَخرَج عن هذا المخْرَج ، ولكان يقول : فإنّى لا آمَنُ من كذا وإنّى لمشفِق منه . فأمّا تَرْك أميرِ المؤمنين عليه السلام مخاصَمةَ النّاس فى حقوقه فكأنّه إنّما كان تنزّها وتكرّما ؛ وأىّ نسبة بين ذلك وبين من صَرّح وشَهِد على نفسه بما لا يليق بالأئمّة ! وأمّا خبر استقالة البيعة وتضعيف صاحب الكتاب له فهو أبدا يضعّف ما لا يوافقه من غير حجّة يعتمِدها فى تضعيفه . وقوله : إنّه ما أُستقال على التّحقيق ، وإنّما نبّه على أنّه لا يبالى بخروج الأمر عنه ، وأنّه غير مُكرِهِهم عليه ؛ فبعيدٌ من الصواب ؛ لأنّ ظاهر قوله «أقيلونى» أمرٌ بالإقالة ، وأقلّ أحواله أن يكون عَرْضا لها وَبذْلا ، وكِلا الأمرين قبيح . ولو أراد ما ظنّه لكان له

---

(١) سورة طه ١٢١ . (٢) الشافى : « حال فاعله » .

فى غير هذا القول مندوحة ، ولكان يقول : إنّى ما أكرهتُكم ولا حَمَلْتُكم على مبايعتى ، وما كنتُ أبالى ألّا يكون هـذا الأمر فىّ ولا إلىّ ، وإنّ مفارقته لتسرّنى لولا ما ألزمَنيه الدخولُ فيه من التمسّك به ، ومتى عَدَلنا عن ظواهر الكلام بلادليل، جرّ ذلك علينا ما لا قِبَل لنا به . وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فإنّه لم يُقل ابْنَ عمر البَيْعة بعد دُخولها فيها وإنّما استعفاه من أن يُلزمه البَيْعة ابتداء فأعفاه قلّة فكر فيه ، وعلماً بأنّ إمامته لا تَثبتُ بمبايَعة من يُبايعه عليها ، فأين هـذا من استقالة بَيْعة قد تقدّمت واستقرّت [١] !

* * *

قلت : أمّا قولُ أبى بكر : « وَلِيتُكم ولستُ بخيركم » فقدصَدَق عند كثيرمن أصحابنا؛ لأنّ خيرهم علىّ بنُ أبى طالب عليه السلام، ومن لا يقول بذلك يقول بما قاله الحَسَن البَصْرىّ : واللهِ إنّه ليَعلَم أنّه خيرهم ، ولكنّ المؤمن يَهْضِم نفسَه . ولم يطعن المرتضى فيه بهذه اللّفظة لنُطيلَ القولَ فيها. وأمّا قولُ المرتضى عنه إنّه قال: « فإنّ لى شيطانا يعتَريني عند غضَبى»، فالمشهور فى الرّواية : « فإنّ لى شيطانا يعتريني » [٢] ، قال المفسّرون : أراد بالشّيطان الغضب وسمّاه شيطانا على طريق الاستعارة، وكذا ذكَرَه شيخُنا أبو الحسين فى "الغُرَر" . قال معاوية لإنسان غَضِب فى حَضْرته فتكلّم بما لا يُتكلّم بمثله فى حضرة الخلفاء : ارْبَعْ على ظَلْعك [٣] أيّها الإنسان ، فإنّما الغَضَب شيطان ، وإنّا لم نَقلْ إلّا خيراً .

وقد ذكر أبو جعفر محمّد بنُ جرير الطبرىّ فى "كتاب التاريخ الكبير" خطبَتَىْ أبى بكر عقيبَ بَيعته بالسّقيفة ، ونحن نذكُرها نَقْلا من كتابه ، أمّا الخطبة الأولى فهى :

---

(١) الشافى ٤١٥ ، ٤١٦ . (٢) أى من غير ذكر لفظ « عند الغضب » .
(٣) اربع على نفسك ؛ أى توقف .

أما بعد أيها الناس ، فإنى وَلِيتكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنْتُ فأعينونى، وإن أسأتُ فقوِّمونى ، لأنّ الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، الضعيفُ منكم قوىٌّ عندى حتى أُريحَ عليه حقّه، والقوىّ منكم ضعيفٌ عندى حتى آخذَ الحقّ منه ، لا يدَع قوم الجهاد فى سبيل الله إلّا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيعُ الفاحشةُ فى قوم إلّا عمّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعتُ اللهَ ورسوله ، فإذا عصيتُ اللهَ ورسوله فلا طاعةَ لى عليكم : قومُوا إلى صلاتكم رَحِمكم الله .

وأما الخُطبة الثانية فهى : أيها الناس إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلّفونى ما كان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يُطيقه (١) . إن الله اصطفى محمّدا صلّى الله عليه وآله على العالمين ، وعصَمه من الآفات ، وإنّما أنا متّبع ولستُ بمَتْبوع ، فإن استقمتُ فاتّبعونى ، وإن زُغْت فقوِّمونى ، وإنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قُبِض وليس أحد من هذه الأمّة يَطلُبه بمظلمة ضربة سَوْط فما دونها . ألَا وإن لى شيطانا يعترينى ، فإذا غضبتُ فاجتَنِبونى لا أؤثّر فى أشعاركم وأبشاركم . ألا وإنّكم تَغْدُون وتَرُوحون فى أجَلٍ قد غُيِّب عنكم عِلمُه ، فإن استطعتم ألّا يَمضِيَ هذا الأجلُ إلّا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله . فسابقوا فى مهَل آجالكم من قبل أن تُسلِمكم آجالُكم إلى انقطاع الأعمال ، فإنّ قوماً نَسُوا آجالَهم ، وجعلوا أعمالَهم لغيرهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالَهم . الجدّ الجدّ ! الوحَا الوحَا ! فإنّ وراءَكم طالبا حَثِيثاً ، أجلٌ (٢) مَرُّه سريع . احذَروا الموت ، واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولا تَغبِطُوا الأحياءَ إلّا بما يُغبَط به الأموات (٣) .

إن الله لا يقبَل من الأعمال إلّا ما يُراد به وجْهُه ، فأرِيدوا وجَه الله بأعمالكم، واعلموا

---

(١) الطبرى : « يطيق » .

(٢) الطبرى : « أجلا » . (٣) إلى هنا فى الطبرى نهاية الخبة ؛ وما بعدها من خطبة أخرى .

أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فلطاعةٍ أتيتُموها ، وحظّ ظفرتُم به ، وضرائبَ أدّيتموها ، وسلفٍ قدّمتموه من أيّامٍ فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم؛ فاعتبروا عباد الله بمن ماتَ منكم ، وتفكّروا فيمن كان قبلَكم ؛ أين كانوا أمس وأيْن هُم اليوم! أين الجبّارون؟ أين الّذين كان لهم ذكر القتال والغَلَبة فى مَواطِن الحرب ! قد تضعضَع بهم الدّهر، وصاروا رَميا ، قد تُرِكت عليهم القالات الخبيثات ، وإنّما الخبيثات للخَبيثين والخبيثون للخبيثات . وأين الملوكُ الّذين أثاروا الأرض وعمروها ! قد بَعُدوا بسّيِّء ذكرهم ، وبقىَ ذكرُهم وصارُوا كلا شيء . ألا إنّ الله قد أبقَى عليهم التّبِعات ، وقَطَع عنهم الشّهَوات ومضَوْا والأعمالُ أعمالُهم ، والدنيا دنيا غيرِهم ، وبقِينا خَلَفًا مِن بَعدِهم ، فإن نحن اعتَبرْنا بهم نجَوْنا ، وإن اغتررنا كنّا مِثلَهم . أين الوضّاء (١) الحسَنة وجُوهُهم ، المعجَبون بشَبابِهم ! صاروا تُرابا ، وصار ما فرّطوا فيه حسرةً عليهم ، أين الّذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحوائط، وجعلوا فيها العجائب ، وتركوها لِمَن خَلْفَهم ! فتلك مساكنُهم خاوية ، وهم فى ظُلَم القُبورِ ، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنهمْ من أَحَدٍ أَوْ تسمعُ لهم رِكْزاً﴾ (٢) . أين من تَعرِفون من آبائكم وإخوانكم ! قد انتهتْ بهم آجالُهم فوَردوا على ما قَدِموا عليه ، وأقاموا للشِّقوة وللسّعادة . ألا إنّ الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خَلقه سبب يُعطيه به خيرا ، ولا يَصرِف عنه به شرّا إلّا بِطاعتة واتّباع أمْرِه ، واُعلموا أنّكم عبادٌ مدينون ، وأنّ ما عندَه لا يُدرَك إلّا بتقواه وعبادته . ألا وإنّه لا خيرَ بخير بعدَه النّار ولا شرّ بشرّ بعدَه الجنّة (٣) .

فهذه خُطْبتا أبى بكر يومَ السّقيفة ، واليوم الّذى يليه ، إنّما قال : « إنّ لى شيطاناً يَعترِينى ، وأراد بالشّيطان الغضب ، ولم يُرِد أن له شيطاناً من مَرَدة الجنّ يَعترِيه إذا

---

(١) الوضاء : ذوو الوضاءة والحسن . (٢) سورة مريم : ٩٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٥

غضب فالزّيادة فيما ذكره المرتضى فى قوله : « إنّ لى شيطانا يَعتَرينى عند غضبى » ، تحريف لا محالة ، ولو كان له شيطان من الجنّ يعتادُه وينُوبُه لكان فى عِداد المصروعين من المجانين ، وما ادّعى أحدٌ على أبى بكر هذا لا مِن أوليائه ولا مِن أعدائه ؛ وإنّما ذكرنا خطبتِه على طولِها والمراد منها كلمةٌ واحدة ؛ لِمَا فيهـا من الفَصاحة والمَوعظة على عادتنـا فى الاعتناء بإيداع هذا الكتاب ما كان ذاهباً هذا المذهب ، وسالكا هذا السبيل .

فأمّا قولُ المرتَضى : « فهذه صفة من ليسَ بمَعْصوم » ، فالأمرُ كذلك والعصمةُ عندنا ليستْ شَرْطا فى الإمامة ولولم يدلّ على عدم اشتراطها ؛ إلا أنّه قال على المِنبر بحضـور الصحابة هذا القول ، وأقرّوه على الإمامة ـ لكَفَى فى عدم كون العِصْمة شرطا ، لأنّه قد حَصَل الإجماع على عدم اشتراط ذلك ، إذ لو كان شَرْطا لأنكر منكرٌ إمامتَه كما لو قال : إنّى لا أصبرُ عن شُرْب الخمْر وعن الزّنى .

فأمّا قولُه : « هذه صفة طائش لا يملِك نفسَه » ، فلَعَمْرى إنّ أبا بكر كان حديداً ، وقد ذكره عمرُ بذلك ، وذكَرَهُ غيرُه من الصّحابة بالحِدّة والسرعة ؛ ولكن لا بحيث أن تبطل به أهليّته للإمامة ؛ لأنّ الّذى يُبطل الإمامة من ذلك وما يخرج الإنسان عن العَقْل ، وأمّا ما هو دونَ ذلك فلا . وليس قوله : « فاجتنبونى لا أُوثِر فى أشعاركم وأبشاركم » محمول على ظاهره ، وإنّما أراد به المبالغة فى وصف القوّة الغضبيّة عنده ، وإلّا فمـا سمعنا ولا نقَل ناقلٌ من الشّيعة ولا من غير الشّيعة أنّ أبا بكر فى أيام رسول الله صلى الله عليـه وآله ولا فى الجاهليّة ولا فى أيّام خلافته احتدّ على إنسان فقام إليه فضرَبه بيَدِه ومزّق شَعره .

فأما ما حكاه قاضى القضاة عن الشّيخ أبى علىّ من تشبيه هذه اللّفظة بما ورد فى القرآن ؛ فهو على تقدير أن يكون أبو بكر عَنَى الشيطـانَ حقيقة . وما اعترض به المرتضى ثانيةً عليه غيرُ لازم ، لأنّ الله تعـالى قال : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ ، وتعقّب ذلك قبولها

وسوسته ، وأكلهما من الشجرة ، فكيف يقول المرتضى : ليس قول أبي بكر بمنزلة مَن وَسْوَس له الشيطان فلم يُطعه ! وكذلك قوله تعالى في قصّة موسى لما قتَل القبطىّ : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وكذلك قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾، وقوله: ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾، وما ذهب إليه المرتضى من التأويلات مبنىّ على مذهبه في العصمة الكلّية ، وهو مذهب يحتاج في نُصْرته إلى تكلّف شديد وتعسّف عظيم في تأويل الآيات ؛ على أنّه إذا سُلّم أنّ الشيطانَ ألقى في تلاوة الرسول صلّى الله عليه وآله ما ليسَ من القرآن حتّى ظنّه السامعون كلاماً من كلام الرسول ، فقد نَقَض دلالة التنفير المقتضية عنده في العِصْمة ، لأنّه لا تنفيرَ عنده أبلَغ من تمكين اللهِ الشيطانَ أن يَخلِط كلامَه بكلامه ، ورسوله يؤدّيه إلى المكلّفين حتّى يعتقدَ السامعون كلّهم أنّ الكلامين كلامٌ واحد .

وأمّا قوله : إن آدمَ كان مندوباً إلى ألّا يأكل من الشّجرة لا محرّم عليه أكلها ، ولفظة « عَصَى » إنما المراد بها خالف المندوب[1] ، ولفظة « غوَى » ؛ إنما المراد « خابَ » من حيث لم يستحقّ الثواب على اعتماد ما نُدِب إليه ؛ فقولٌ يدفعه ظاهر الآية ، لأنّ الصيغة صيغة النهى ، وهى قوله : ﴿ ولا تَقربا هذه الشجرة ﴾ والنهى عند المرتضى يقتضى التحريم لا محالة ، وليس الأمر الّذى قد يراد به النّدب ، وقد يراد به الوُجوب .

وأما قولُ شيخنا أبى علىّ : إنّ كلام أبى بكر خرج مخرج الإشفاق والحذَر من المعصية عند الغضب فجيّد .

واعتراض المرتضى عليه بأنه ليس ظاهر اللّفظ ذاك غيرُ لازم ، لأنّ هذه عادةُ العرب، يعبّرون عن الأمر بما هو منه بسَبَب وسبيل ، كقولهم : لا تَدْنُ من الأسَد فيأكُلك، فليس أنّهم قطعوا على الأكل عند الدنوّ ، وإنّما المراد الحذَر والخوف والتوقّع للأكل عند الدّنوّ .

---

(١) ا : « الندب » .

وأما الكلام فى قوله : « أقيلونى » ، فلو صحّ الخبرُ لم يكن فيه مطعن عليه ، لأنه إنما أراد فى اليوم الثانى اختبارَ حالهم فى البيعة التى وقعتْ فى اليوم الأول ليعلم وليَّه مِن عدوِّه منهم ؛ وقد روَى جميعُ أصحاب السِّيَر أنّ أميرَ المؤمنين خَطب فى اليوم الثانى من بيعته فقال: أيّها النّاس ؛ إنّكم بايعتمونى على السمع والطاعة ، وأنا أعرض اليوم عليكم ما دعوتمونى إليه أمس ، فإن أجبْتم قعدتُ لكم ، وإلّا فلا أجد على أحد . وليس بجيّد قولُ المرتضى : إنه لو كان يريدُ العرْض والبذْل لكان قد قال كذا وكذا ، فإنّ هذه مُضايقة منه شديدةٌ للألفاظ ، ولو شرَعْنا فى مِثل هذا لفسَد أكثرُ ما يتكلم به الناس . على أنّا لو سلمنا أنه استقالهم البَيْعة حقيقةً ، فلم قال المرتضى : إنّ ذلك لا يجوز ؟ أليس يجوز للقاضى أن يستقيل من القضاء بعد توليته[1] إيّاه ، ودخوله فيه ! فكذلك يجوز للإمام أن يستقيل من الإمامة إذا أنس من نفسه ضَعْفا عنها ، أو أنس من رعيّته نبْوةً عنه ، أو أحَسّ بفساد ينشأ فى الأرض من جهة ولايته على الناس ؛ ومَن يذهب إلى أن الإمامة تكون بالاختيار كيف يمنع من جواز استقالة الإمام وطلبه إلى الأمة أن يختاروا غيره لعذْر يعلمه من حال نفسه ! وإنما يمنع من ذلك المرتضى وأصحابه القائلون بأنّ الإمامة بالنصّ ، وإنّ الإمام محرَّم عليه ألّا يقوم بالإمامة ، لأنه مأمور بالقيام بها لتعينه خاصةً دون كلّ أحدٍ من المكلَّفين . وأصحاب الاختيار يقولون : إذا لم يكن زيد إماماً كان عمرٌو إماما عوضَه ، لأنهم لا يعتبرون الشروط التى يعتبرها الإمامية من العِصْمة ، وأنه أفضل أهل عصره وأكثرُهم ثوابا وأعلمهم وأشجعهم ، وغير ذلك من الشروط التى تقتضى تفرّده وتوحّده بالأمر ، على أنه إذا جاز عندهم أن يترك الإمام الإمامة فى الظاهر كما فعَله الحسن ، وكما فعَله غيرُه من الأئمة بعد الحسين عليه السلام للتّقيّة ، جاز للإمام

---

(١) كذا فى ا و د ، وفى ب : « توليه » .

على مذهب أصحاب الاختيار أن يترُكَ الإمامــة ظاهرا وباطناً لِعُذْر يَعلمه من حال نفسه أو حالِ رعيّته .

* * *

الطعن الثانى

قال قاضى القضاة بعد أنْ ذَكر قول عمرَ : « كانت بيعةُ أبى بَكْر فَلْتة » ــ وقد تقدّم منا القولُ فى ذلك فى أوّل هذا الـكتاب : ومما طعنوا به على(١) أبى بكر أنه قال عند موته : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله عن ثلاثة ، فذَكَر فى أحدها : ليتَنى كنتُ سألتُه : هل للأنصار فى هذا الأمر حقّ ؟ قالوا ، وذلك يدُلّ على شَكّه فى صحة بيعته ، وربما قالوا : قد رُوِى أنه قال فى مرَضه : ليتنى كنتُ تركتُ بيت فاطمة لم أَكْشِفه ، وليتنى فى ظُلّة بنى ساعِدة كنتُ : ضربتُ على [يَدِ](٢) أحد الرّجلين ، فكان هــو الأمير ، وكنتُ الوزير . قالوا : وذلك يدلّ عــلى ما رُوِى من إقدامه على بيت فاطمة عليها السلام عند اجتماع علىٍّ عليه السلام والزّبير وغيرهما فيــه ، ويدُلّ على أنه كان يرَى الفضل لغيره لا لنفسه .

قال قاضى القضاة : والجوابُ أنّ قوله : « ليتنى » لا يَدُلّ على الشكّ فيما تمنّاه ،وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنى كيف تُحيي الموتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنّ قَلْبِى ﴾(٣) أقوى من ذلك فى الشّبهة . ثمّ حمــل تمنّيه على أنه أراد سماع شىء مفصَّل ، أو أراد : ليتنى سألتُه عند الموت ، لِقُرب العهد ، لأنّ ما قَرُب عهدُه لا يُنسى ويـكونُ أردعَ للأنصار على ما حاولوه . ثم قال : على أنه ليس فى ظاهره أنه تمَنّى أن

---

(١) ب : « فى » . (٢) تكملة من كتاب الشافى .
(٣) سورة البقرة ٦٢ .

يسأل : هل لهم حقٌّ فى الإمامة أم لا ؟ لأنّ الإمامة قد يتعلق بها حقوقٌ سواها . ثم دَفع الرّواية المتعلقة ببيت فاطمة عليها السلام ، وقال : فأما تمنّيه أن يبايع غيرَه ؛ فلو ثبت لم يكن ذمّا لأنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فهو يتمنى خِلافه (١) .

***

اعترض المرتضى رحمه الله هذا الكلام فقال : ليس يجوز أن يقول أبو بكر : « ليتنى كنتُ سألتُ عن كذا » . إلا مع الشكّ والشبهة ، لأنّ مع العلم واليقين (٢) لا يجوز مِثلُ هذا القول ، هكذا يقتضى الظاهر ، فأمّا قولُ إبراهيم عليه السلام ، فإنما ساغ أن يُعدَل عن ظاهره لأنّ الشكّ لا يجوز على الأنبياء ، ويجوز على غيرهم ؛ على أنه عليه السلام قد نفى عن نفسه الشكَّ بقوله : ﴿ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قلبى ﴾ ، وقد قيل : إن نُمْرُوذَ قال له : إذا كنت تزعمُ أنّ لك ربًّا يُحيي الموتى فاسأله أن يُحيي لنا ميّتا إن كان على ذلك قادراً ، فإن لم تفعل ذلك قتلتُك ، فأراد بقوله : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قلبى ﴾ ، أى لآمَنَ توعُّدَ عدوّك لى بالقتل . وقد يجوز أن يكون طلب ذلك لقَوْمه وقد سألوه أن يَرغَب إلى الله تعالى فيه فقال : ليطمئن قلبى إلى إجابتك لى ، وإلى إزاحةِ عِلّة قومى ، ولم يرد : ليطمئن قلبى إلى أنك تقدِر على أن تُحيىَ المَوْتى ؛ لأنّ قلبه قد كان بذلك مطمئنا ؛ وأىّ شىء يريد أبو بكر من التفضيل أكثر من قوله : « إنّ هذا الأمر لا يَصلُح إلاّ لهذا الحىّ من قريش » ! وأىّ فرق بين ما يقال عندَ الموت وبين ما يقال قبله إذا كان محفوظا معلوما ، لم تُرفع كلمةٌ ولم تُنسَخ !

وبعد ، فظاهرُ الكلام لا يقتضى (٣) هذا التخصيصَ ، ونحن مع الإطلاق والظاهر . وأىّ حقّ يجوز أن يكون للأنصار فى الإمامة غير أن يتولاها رجل منهم حتى يجوز أن يكون الحقّ الذى تمنّى أن يَسأل عنه غير الإمامة ! وهل هذا إلاّ تعسّفٌ وتكلّفٌ !

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٤١٩ . (٢) الشافى : « التيقن » . (٣) ا : « يقضى » .

وأىّ شُبهة تبقى بعد قول أبى بكر : ليتنى كنتُ سألته : هل للأنصار فى هـذا الأمر حقّ فكنا لا ننازعه أهله ؟ ومعلومٌ أنّ التنازع لم يقع بينهم إلا فى الإمامة نفسها ، لا فى حَقٍّ آخر من حقوقها .

فأما قوله : إنّا قد بينا أنه لم يكن منه فى بيت فاطمة ما يُوجب أن يتمنى أنه لم يفعله ؛ فقد بينا فساد ما ظنّه فيما تقدم .

فأما قوله : إنّ من اشتدّ التكليفُ عليه قد يتمنّى خِلافه ؛ فليس بصحيح؛ لأنّ ولاية أبى بكر إذا كانت هى التى اقتضاها الدين ، والنظر للمسلمين فى تلك الحال وما عداها كان مفسدة ، ومؤدِّيا إلى الفتنة ، فالتمنّى لخلافها لا يكون إلّا قبيحا (١) .

***

قلت : أما قول قاضى القضاة : إنّ هذا التمنّى لا يقتضى الشكَّ فى أن الإمامة لا تكون إلاّ فى قريش ، كما أن قول إبراهيم : ﴿ ولَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ، لا يقتضى الشكّ فى أنه تعالى قادرٌ على ذلك فجيّد .

فأما قولُ المرتضى : إنما ساغَ أن يُعدَل عن الظاهر فى حقّ إبراهيم لأنه نبىٌّ معصوم لا يجوز عليه الشك ؛ فيقال له: وكذلك ينبغى أن يُعدَل عن ظاهر كلام أبى بكر، لأنه رجل مُسلم عاقل ، فحسنُ الظنِّ به يقتضى صيانة أفعاله وأقواله عن التناقض . قوله : إنّ إبراهيم قد نفى عن نفسه الشك بقوله : « بلى ولـكن ليطمئن قلبى » قلنا : إنّ أبا بكر قد نفى عن نفسه الشكّ بدَفع الأنصار عن الإمامة وإثباتها فى قرَيش خاصة ، فإن كانت لفظة « بلى » دافعةً لشك إبراهيم الذى يقتضيه قوله : ﴿وَلَـكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ، ففعل أبى بكر وقوله يومَ السَّقيفة

---

(١) الشافى ٤١٩ ، وفى د : « إلا نسخا » .

يَدفَع الشكّ الذى يقتضيه قوله : « ليتنى سألتُه » ، ولا فرق فى دفع الشكّ بين أن يتقدّم الدافعُ أو يتأخّر أو يُقارن .

ثم يقال للمرتضَى : ألستَ فى هذا الكتاب — وهو « الشافى » — بيّنت[1] أنّ قصة السَّقيفة لم يجرِ فيها ذِكرُ نصٍّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله بأن الأئمة من قريش ، وأنه لم يكن هناك إلّا احتجاج أبى بكر وعمرَ بأنّ قريشاً أهلُ النبى صلى الله عليه وآله وعشيرتُه ، وأنّ العرب لا تطيع غيرَ قريش ؛ وذكرتَ عن الزّهرىّ وغيره أن القول الصّادر عن أبى بكر : إن هذا الأمرَ لا يصلح إلا لهذا الحىِّ من قريش ، ليس نَصًّا مَرْوِيًّا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنما هو قولٌ قاله أبو بكر من تلقاء نفسه ، ورَوَيْت فى ذلك الروَايات ، ونقلت من الكتب من تاريخ الطبرىّ وغيره صورة الكلام والجدال الدائر بينه وبين الأنصار ! فإذا كان هذا قولك فلِمَ تنكرُ على أبى بكر قوله : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل للأنصار فى هذا الأمر حق ! لأنه لم يَسمع النصّ ولا رواه ولا روى له ؛ وإنما دفع الأنصارَ بنوع من الجدَل ؛ فلا جَرَم بقِىَ فى نفسه شىء من ذلك ، وقال عند موته : ليتنى كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله . وليس ذلك مما يقتضى شكَّه فى بَيْعته كما زعم الطاعن ، لأنه إنما يشكّ فى بيعته لو كان قال قائل أو ذَهب ذاهب إلى أنّ الإمامةَ ليست إلا فى الأنصار ، ولم يقل أحدٌ ذلك ، بل النزاع كان فى : هل الإمامة مقصورةٌ على قريش خاصةً ، أم هى فوضى بين الناس كلِّهم ؟ وإذا كانت الحالُ هذه لم يكن شاكًّا فى إمامته وبَيْعته بقوله : « ليتنى سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله : « هل للأنصار فى هذا حقّ ؟ » لأنَّ بَيْعته على كلا التقديرين تكون صحيحةً .

---

(١) فى د « أثبت » .

فأما قولُ قاضي القُضاة : لعله أراد حقّا للأنصار غير الإمامة نفسها ؛ فليس بجيّد ، والذى اعترضه به المرتضى جيّد ، فإن الكلام لايدُلّ إلا على الإمامة نفسها ، ولفظة المنازعة تؤكّد ذلك .

وأما حديث الهجوم على بيت فاطمة عليها السلام فقد تقدّم الكلام فيه ، والظاهرُ عندى صحة ما يَرْويه المرتضَى والشيعة ، ولكن لا كلّ ما يزعمونه ، بل كان بعض ذلك ، وحقٌّ لأبى بكر أن يندم ويتأسّف على ذلك ، وهذا يدلّ على قوة دينه وخوفه من الله تعالى، فهو بأن يكون منقبةً(١) له أولى من كونه طَعنا عليه .

فأمّا قولُ قاضي القُضاة : إنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فقد يتمنّى خلافه واعتراضُ المرتضَى عليه ، فكلام قاضي القضاة أصحّ وأصوَب ، لأنَّ أبا بكر ـ وإن كانت ولايتُه مصلحةً وولايةُ غيرِه مفسَدة ـ فإنَّه ما يتمنَّى أن يكون الإمامُ غيرَه ، مع استلزام ذلك للمفسَدة ، بل تمنَّى أن يلىَ الأمرَ غيرُه وتكون المصلحة بحالها ، ألا ترى أنّ خصالَ الكفّارة فى اليَمين كلّ واحدة منها مَصلَحة ، وما عَداها لا يقوم مَقامَها فى المصلحة ، وأحدُها يقومُ مَقامَ الأخرى فى المَصلَحة ! فأبو بكر تمنّى أن يَلىَ الأمرَ عُمر أو أبو عُبَيدة بشَرْطِ أن تكونَ المصلحة الدّينيّة الّتى تَحصُل من بَيعته حاصلةً من بَيْعة كلّ واحدٍ من الآخَرِين .

* * *

الطعن الثالث

قالوا : إنّه ولّى عمرَ الخلافة ، ولم يولّه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئاً

---

(١) منقبة ؛ أى مفخرة .

من أعمالِه البتّةَ إلّا ما ولّاه يومَ خَيبَر ، فرَجع منهزما وولّاه الصدقة ، فلمّا شكاه العبّاس عزَلَه .

أجاب قاضى القضاة بأنّ تركَه عليه السلام أن يولّيَه لا يَدُلّ عَلَى أنه لا يَصلُح لذلك، وتوليتُه إيّاه لا يَدُلّ على صَلاحيَته للإمامة ، فإنّه صلى الله عليه وآله قد وَلّى خالدَ بنَ الوليد وعمرو بنَ العاص ، ولم يدلّ ذلك على صَلاحيَتهما للإمامة ، وكذلك تركُه أن يولّى لا يَدُلّ على أنّه غيرُ صالح ، بل المعتبر بالصّفات الّتى تَصلُح للإمامة ، فإذا كَمَلتْ صَلَح لذلك ، وُلِّىَ من قبلُ أو لم يُوَلَّ ، وقد ثَبتَ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله ترَكَ أن يولِّىَ أمير المؤمنين عليه السلام أموراً كثيرةً ولم يُجبْ إلّا من يَصلُح لها ، وثبت أن أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولِّ الحسين عليه السلام ابنَه ، ولم يَمنَع ذلك من أن يَصلُح للإمامة . وحُكِىَ عن أبى علىّ إنَّ ذلك إنّما كان يَصحّ أن يتعلّق به لو ظَفِروا بتقصير من عمر فيما تولّاه ، فأمّا وأحواله معروفة فى قيامه بالأمر حينَ يَعجَز غيرُه ، فكيف يصحّ ما قالوه ! وبعد فهلّا دَلّ ما رُوِى من قوله : وإنْ تُولُّوا عمر تجدُوه قويّا فى أمرِ الله ، قويًّا فى بدنه على جواز ذلك ! وإن تَرَكَ النبى صلّى الله عليه وآله تَولِيته؛ لأنّ هذا القول أقوَى من الفِعل[1] .

اعتَرض المرتضَى رحمه الله فقال : قد عَلِمنا بالعادة أنْ من تَرشّحَ لكبَار الأمور لا بدّ من أن يُدرَّج إليها بصِغارِها ، لأنَّ من يريد بعضُ المُلوك تأهيلَه للأمر من بَعدِه لا بدّ من أن ينبّه عليه بكلّ قول وفعل يدلّ على ترشيحه لهذه المنزلة ، ويستكفيه من أمور ولاياته[2] مايعلَم عندَه أو يغلب على ظنّه صلاحُه لما يريدُه له . وإن من يرَى المَلِك مع حضوره وامتدادِ الزمان وتطاوُله لا يستكفيه شيئا من الولايات ، وَمتَى ولّاه عزَلَه؛ وإنما يولّى غيرَه ويَستكفى سواه ، لابدّ أن يَغلِب فى الظّن أنه ليس بأهلٍ للولاية ، وإن جوّزنا أنّه لم يولّه لأسبابٍ كثيرة سِوَى أنّه لا يَصلُح للولاية ، إلّا أنّ مع هذا التجويز لا بدّ أن

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٤١٩ .   (٢) الشافى : من أموره وولاياته » .

يَغلب على الظنّ بما ذكرناه . فأمّا خالد وعَمْرو فإنّما لم يَصلحا للإمامة لفقد شروط الإمامة فيهما ، وإن كانا يَصلُحان لما وَلِياه من الإمارة ، فترك الولاية مع امتداد الزّمان وتطاوُل الأيّام ، وجميع الشروط التى ذكرناها تقتضِى غَلَبة الظنّ لفقد الصّلاح ، والولاية لشىء[1] لا تدلّ على الصّلاح لغيره إذا كانت الشرائطُ فى القيام بذلك الغير معلوما فقدُها . وقد نجد الملك يولّى بعضَ أموره من لا يَصلح للمُلك بعده لظهور فقدِ الشرائط فيه ، ولا يجوز أن يكون بحضرته من يرشّحه للمُلك بعده، ثمّ لا يُولّيه على تطاول الزمان شيئا من الولايات. فبان الفرْق بين الولاية وتركها فيما ذكرناه .

فأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام وإن لم يتولّ جميع أمورِ النبيّ صلّى الله عليه وآله فى حياته ، فقد تولّى أكثرَها وأعظمَها وخَلَفَه فى المدينة ، وكان الأمير على الجيْش المبعوث إلى خَيْبَر ، وجَرَى الفتحُ على يديه بعد انهزامِ مَن انهزَم منها ، وكان المؤدّى عنه سورة براءة بعد عَزْل من عَزَل عنها وارتجاعها منه ؛ إلى غير ذلك من عظيم الولايات والمقامات بما يَطُول شرحُه ، ولو لم يكن إلّا أنّه لم يُولّ عليه واليًا قطّ لكفى .

فأمّا اعتراضُه بأنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يولّ الحسينَ فبعيدٌ عن الصواب ، لأنّ أيّام أميرِ المؤمنين عليه السلام لم تَطُلْ فيتمكّن فيها من مراداته ، وكانت على قِصرها منقسمةً بين قتال الأعداء ، لأنّه عليه السلام لمّا بُويع لم يَلبث أن خَرَج عليه أهلُ البصرة فاحتاج إلى قتالهم، ثم انكفأ من قتالهم إلى قتالِ أهلِ الشام ، وتعقّب ذلك قتالُ أهل النّهروان ، ولم تستقرّ به الدارُ ولا امتدّ به الزمان ، وهذا بخلاف أيّام النبيّ صلّى الله عليه وآله التى تطاولتْ وامتدّت ، على أنّه قد نَصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحسَن ، وإنّما تُطلَب الولايات لغَلَبة الظنّ بالصّلاح للإمامة .

فإن كان هناك وجهٌ يَقتضِى العلمَ بالصّلاح لما كان أولَى من طريق الظنّ، على أنّه

---

(١) الكافى للشىء .

لاخلاف بين المسلمين أنّ الحسينَ عليه السلام كان يَصلُح للإمامة وإن لم يُولِّه أبُوه الولايات ، وفى مِثل ذلك خلافٌ من حالِ عمرَ ، فافترق الأمران . فأمّا قوله : إنه لم يعثر على عمرَ بتقصير فى الولاية ، فمن سَلّم بذلك ! أو ليسَ يَعلَم أنّ مخالفتَه تُعَدّ تقصيرا كثيرا ، ولو لم يكن إلّا ما اتّفق عليه من خَطئِه فى الأحكام ورجوعِه من قولٍ إلى غيره ، واستفتائِه الناسَ فى الصغير والكبير ، وقوله : كلّ الناس أفقهُ من عمرَ ، لكان فيه كفاية . وليس كلّ النهوض بالإمامة يَرجع إلى حُسْن التدبير والسّياسة الدنياويّة وَرمّ الأعمال والاستظهار فى جِباية الأموال وتَمصِير الأمصار ووَضْع الأعشار ، بل حَظّ الإمامة من العِلم بالأحكام والفُتْيا بالحلال والحرام ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكَم والمتشابه أقوَى ، فمن قصّر فى هذا لم يَنفعْه أن يكون كامِلًا فى ذلك .

فأمّا قوله : فهلّا دلّ ما رُوِى من قوله عليه السلام : فإن « ولّيتُم عمرَ وجدتموه قويّا فى أمرِ الله قويًّا فى بَدَنه » ، فهذا لو ثبتَ لدَلّ ، وقد تقدّم القولُ[1] عليه . وأقوَى ما يُبطِله عدولُ أبى بكر عن ذكره ، والاحتجاجُ به لمّا أراد النصَّ على عمرَ ، فعُوتبَ على ذلك وقيل له : ما تقول لربّك إذْ وَلّيتَ علينا فَظّا غليظا ! فلو كان صحيحا لكان يَحتجّ به ويقول : وَليّتُ عليكم مَن شَهد النبيُّ صلّى الله عليه وآله بأنّه قوىّ فى أمرِ الله ، قوىٌّ فى بَدَنه . وقد قيل فى الطّعن على صحّة هذا الخبر : إنّ ظاهرَه يَقتضِى تفضيل عمرَ على أبى بكر ، والإجماع بخلافِ ذلك ، لأنّ القوّة فى الجسم فَضْل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[2] . وبعد ، فكيف يُعارض ما اعتمدْناه من عُدولِه عليه السلام عن ولايته — وهو أمرٌ معلومٌ — بهذا الخبرِ المردود المدفوع !

* * *

قلتُ : أمّا ما ادّعاه من عادة الملوك ، فالأمر بخلافه ، فإنّا قد وَقَفنا على سِيَر الأكاسِرة ومُلوك الرُّوم وغيرهم فما سَمِعنا أنّ أحد منهم رَشّح ولدَه

(١) فى د « الكلام » .

(٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

للمُلك بعدَه باستعماله على طَرَف من الأطراف ، ولا جَيْش من الجيوش ، وإنّما كانوا يثقِّفونهم بالآداب والفُروسيّة فى مَقارِّ مُلْكهم لا غير ، والحالُ فى ملوكِ الإسلام كذلك ، فقد سَمِعنا بالدولة الأمويّة ، ورأينا الدّولةَ العبّاسيّة ، فلم نَعرِف الدولةَ الّتى ادّعاها المرتضَى ، وإنّما قد يقع فى الأقلّ النادر شىء ممّا أشار إليه ، والأغلب الأكثرُ خلاف ذلك . على أنّ أصحابَنا لا يقولون إنّ عمرَ كان مرشَّحا للخلافة بعدَ رسول الله صلّى الله عليه وآلِه لِيقالَ لهم : فلو كان قد رَشَّحه للخلافة بعدَه لاستَكفاه كثيرا مِن أمورِه ؛ وإنّما عمرُ مرشَّح عندَهم فى أيّام أبى بكر للخلافة بعدَ أبى بكر ، وقد كان أبو بكر استَعمَله على القَضاء مدَّةَ خلافته ، بل كان هو الخليفة فى المعنى ، لأنه فوّض إليه أكثرَ التدبير ، فعَلَى هذا يكون قد سَلّمنا أنّ تركَ استعمالِ النبيِّ صلّى الله عليه وآله لعمرَ يَدُلّ على أنّه غيرُ مرشَّح فى نظره للخلافة بعدَه ، وكذلك نقول : ولا يَلزَم مِن ذلك ألّا يكون خليفةً بعد أبى بكر ، على أنّا لا نسلّم أنّه ما استعمَله ، فقد ذكر الواقدىُّ وابن إسحاق أنّه بعثه فى سَرِيّة فى سنة سبعٍ من الهجرة إلى الوادى المعروف ببُرَمة ـ بضم الباء وفتح الراء ـ وبها جمعٌ من هَوازِن ، فخرج ومعه دليلٌ من بنى هلال ، وكانوا يسيرون اللّيلَ ويكمُنون النّهار ، وأتى الخبرُ هَوازن فهرَبوا ، وجاء عُمَر محالّهم ، فلم يَلقَ منهم أحدا ، فانصرَف إلى المدينة .

ثم يُعارض المرتضَى بما ذكره قاضى القُضاة من تَرْك توليةِ علىّ ابنه الحسين عليهما السلام ، وقوله فى العُذْر عن ذلك : إنّ عليًّا عليه السلام كان ممنوًّا بحَرْب البُغاة والخوارج لا يدفع المُعارضَةَ ؛ لأنّ تلك الأيّام التى هى أيام حروبه مع هؤلاء هى الأيام الّتى كان ينبغى أن يولّى الحسين عليه السلام بعضَ الأمور فيها ، كاستعماله على جَيْش ينفذه سَرِيّة إلى بعض الجهات ، واستعماله على الكوفة بعد خروجه منها إلى حرب صِفين ، أو استعماله على القضاء ،

وليس اشتغاله بالحرب بمانع له عن ولاية ولده ، وقد كان مشتغلا بالحرب ، وهو يولّى بنى عمّه العبّاس الولايات والبلادَ الجليلة .

فأمّا قوله : على أنّه قد نصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحسَن ؛ فهذا يُغنِى عن توليته شيئاً من الأعمال ؛ فلقائل أن يَمنَع ما ذكره من حديث النصّ ، فإنّه أمرٌ تنفرد به الشِّيعة وأكثرُ أربابِ السِّيَر والتَّواريخ لا يَذكُرون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلامُ نَصّ على أحَدٍ . ثمّ إن ساغَ له ذلك ساغ لقاضى القضاة أن يقول : إنّ قولَ النبيّ صلّى الله عليه وآله : « اقتدوا باللّذَيْن مِن بعدى : أبى بكر وعمر » ؛ يغنى عن توليةِ عمرَ شيئاً من الولايات ، لأنَّ هذا القول آكَدُ من الولاية فى ترَشُّحه للخلافة .

فأمّا قوله : على أنّه لا خِلافَ بين المسلمين فى صَلاحِيَة الحسين للخلافة وإن لم يولّه أبوه الولايات ، وفى عمرَ خلافٌ ظاهرٌ بين المسلمين ؛ فلِقائلٍ أن يقول له : إجماعُ المسلمين على صلاحيةِ الحُسَين للخلافة لا يَدفَع المعارَضة ، بل يؤكِّدها ، لأنّه إذا كان المسلمون قد أجمَعوا على صَلاحِيَته للخلافة ولم يكن تَرْكُ تولِيَة أبيه إيّاه الولايات قادحاً فى صَلاحِيَته لها بعدَه ، جاز أيضا أن يكون تَرْكُ توليةِ رَسولِ الله صلّى الله عليه وآله عمر الولايات فى حَياته غيرَ قادحٍ فى صَلاحِيته للخلافة بعدَه .

ثمّ ما ذكره من تقصير عمرَ فى الخلافة بطريق اختلافِ أحكامِه ، ورجوعه إلى فتاوى العلماء ، فقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم لمّا تكلّمنا فى مطاعن الشِّيعة على عمرَ وأجَبْنا عنه .

وأمّا قوله : لا يُغنِى حُسْن التدبير والسّياسة ورمّ الأمور ، مع القُصور فى الفقه ، فأصحابُنا يذهبون إلى أنّه إذا تَساوَى اثنان فى خصال الإمامة إلّا أنّه كان أحدهما أعلَم والآخر

أسوس ، فإن الأسوس أولى بالإمامة ، لأنّ حاجةَ الإمامة إلى السّياسة وحُسْن التـــدبير آكَدُ من حاجتها إلى العِلْم والفِقْه .

وأمّا الخبر المَروِىّ فى عمرَ ــ وهو قولُه : وإنْ تُوَلُّوها عمرَ ــ فيجوز ألّا يكون أبو بكر سَمِعَه من رسول الله صلّى الله عليــه وآلِه ، ويكون الرّاوى له غيره ، ويجوز أن يكون سَمِعه وشَذّ عنــه أن يَحتجّ به على طَلحة لَمّا أنــكر استخلافَ عمرَ ، ويجوز ألّا يكون شَذَّ عنه وتَرَكَ الاحتِجاجَ به استغناءً عنه لعلمه أنّ طلحةَ لا يُعتَدّ بقوله عند الناس إذا عارض قوله . ولعلّه كَنَى عن هذا النصّ بقوله : إذا سألنى ربّى قلتُ له : استخلفتُ عليهمْ خيرَ أهلِك ؛ على أنّا مَتَى فتحْنا باب « هلّا احتجّ فلان بكذا » جَرّ علينا ما لا قِبَل لنا به . وقيل : هلا احتجّ علىّ عليه السلام على طلحةَ وعائشةَ والزبير بقول رسولِ الله صلّى الله عليه وآله : « مَن كنتُ مولاه فهذا علىٌّ مولاه » ، وهلّا احتجّ عليهم بقوله : « أنتَ منّى بمنزلةِ هارون من موسى » ، ولا يُمكن الشّيعة أن يعتذروا هاهنا بالتقيّة ، لأنَّ السّيوف كانت قد سُلّت من الفريقين ، ولم يكن مقام تَقِيّة .

وأمّا قولُه : هــذا الخبر لو صحّ لاقتضى أن يكون عمرُ أفضلَ من أبى بكر ، وهو خلافُ إجماعِ المسلمين ؛ فلقائل أن يقول : لم قلتَ إنّ المسلمين أجمعوا على أنّ أبا بكر أفضلُ من عمرَ ، مع أنّ كُتُبَ الكلام والتصانيف المصنَّفة فى المقالات مشحونةٌ بذكر الفِرْقة العُمَريّة ، وهم القائلون إنَّ عمر أفضــلُ من أبى بكر ، وهى طائفةٌ عظيمةٌ من المسلمين ، يقال : إنَّ عبدَ الله بن مسعود منهم ، وقد رأيتُ أنَّ جماعةً من الفقهاء يَذهبون إلى هذا ، ويُناظرون عليه ؛ على أنّه لا يدلّ الخبرُ على ما ذَكَرَه المرتضَى ، لأنّه وإن كان عمرُ أفضلَ منه باعتبار قوّة البدن ، فلا يدلّ على أنّــه أفضلُ منه مطلقا ، فمن الجائز أن يكون بإزاء هذه الخَصْلة خصالٌ كثيرة فى أبى بكر من خصالِ الخير يُفضَّل بها على عُمَر ،

ألا ترَى أنَّا نقول : أبو دُجانة أفضل من أبى بكر بجهاده بالسّيف فى مَقام الحرب، ولا يلزَم من ذلك أن يكون أفضل منه مطلقا ، لأنّ فى أبى بكر من خصال الفَضْل ما إذا قيس بهذه الخصْلة أربى عليها أضعافا مضاعفة .

* * *

الطعن الرابع

قالوا : إنّ أبا بكر كان فى جَيْش أسامة ، وإنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله كرّر حين موته الأمرَ بتنفيذ جيش أسامة، فتأخُّره يقتضى مخالفةَ الرسول صلى الله عليه وآله. فإن قلتم: إنّه لم يكن فى الجيش ،قيل لكم: لاشكّ أنّ عمرَ بنَ الخطّاب كان فى الجيش،وأنّه حَبَسه ومَنَعه من النّفوذ مع القوم . وهذا كالأوّل فى أنّه معصية ، وربّما قالوا : إنّه صلّى الله عليه وآله جَعَل هؤلاء القوم فى جيش أسامة ليَبْعُدوا بعدَ وفاته عن المدينة ، فلا يقع منهم توثّبٌ على الإمامة ، ولذلك لم يَجعل أمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك الجيش ، وجعل فيه أبا بكر وعمرَ وعثمانَ وغيرَهم ، وذلك من أوْكَد الدّلالة على أنّه لم يرد أن يُختاروا للإمامة (١) .

أجاب قاضى القُضاة بأنْ أنكَر أوّلا أن يكون أبو بكر فى جيش أُسامةَ ، وأحالَ على كُتُب المغازى ، ثم سلّم ذلك وقال : إنّ الأمرَ لا يقتَضى الفَوْرَ ، فلا يَلزَم من تأخّر أبى بكر عن النّفوذ أن يكون عاصياً . ثمّ قال : إنّ خطابه صلّى الله عليه وآله بتنفيذ الجيش يجب أن يكونَ متوجّها إلى القائم بعدَه ، لأنّه من خطاب الأئمّة ، وهذا يَقتضِى ألا يدخل المخاطَب بالتّنفيذ فى الجملة ؛ ثم قال ؛ وهذا يدلّ على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه ، لأنّه لو كان لأَقبَل بالخطاب عليه ، وخصّه بالأمر بالتنفيذ دونَ الجميع .

---

(١) الشافى ٤٢٠ .

ثمّ ذَكَر أنّ أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله لابدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة وبأن لا يعرض ما هو أهمّ منه ، لأنّه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ ، وإن أعقب ضرراً فى الدين، ثمّ قوى ذلك بأنّه لم يُنكر على أسامة تأخُّره ، وقوله : « لم أكن لأسأل عنك الرّكب » ؛ ثم قال : لو كان الإمامُ منصوصا عليه لجازَ أن يستردّ جيشَ أسامة أو بعضه لنُصْرته ، وكذلك إذا كان بالاختيار ؛ ثمّ حكى عن الشيخ أبى علىّ استدلاله على أنّ أبا بكر لم يكن فى جيش أسامةَ بأنّه ولّاه الصلاة فى مَرَضه ، مع تكريره أمرَ الجيش بالنّفوذ والخروج .

ثمّ ذكَر أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله إنّما يأمرُ بما يتعلّق بمصالح الدّنيا من الحروب ونحوها عن اجتهاده، وليس بواجب أن يكون ذلك عن وَحْى، كما يَجِب فى الأحكام الشرعيّة، وأنّ اجتهادَه يجوز أن يخالف بعد وفاته ، وإن لم يَجُزْ فى حياته ، لأنّ اجتهادَه فى الحياة أولى من اجتهاد غيره ، ثمّ ذَكَر أنّ العِلّة فى احتباس عمر عن الجيش حاجة أبى بكر إليه، وقيامُه بما لا يَقُوم به غيرُه ، وأنّ ذلك أحوَطُ للدّين من نفوذِه .

ثمّ ذَكَر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام حارَبَ معاويةَ بأمر الله تعالى وأمرِ رسوله، ومع هذا فقد ترك محاربته فى بعض الأوقات ، ولم يجب بذلك ألّا يكون ممتثِلا للأمر . وذَكَر توليتَه عليه السلام أبا موسى ، وتوليَة الرّسول صلّى الله عليه وآله خالدَ بنَ الوليد مع ما جرَى [١] منهما وأن ذلك يقتضِي الشّرط .

ثم ذكر أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضمّه جيشُ أسامةَ يجب تأخيرُه ليختار للإمامة أحدهم ، فإنّ ذلك أهمّ من نُفوذهم ، فإذا جازَ لهذه العِلّة التأخير قبل العَقْد جازَ التأخير بعدَه للمعاضَدة وغيرها ، وطعن فى قولِ مَن جَعَل إنّ إخراجَهم فى الجيش على جهة الإبعاد لهم عن المدينة بأن قال : إنّ بُعدَهم عن المدينة لا يمنَع من أن يُختاروا للإمامة ،

---

(١) فى د « ظهر » .

ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعا على موته لا محالة ، لأنّه لم يرد : نفذّوا جيْش أُسامةَ فى حياتى . ثمّ ذكر أنّ ولاية أسامةَ عليهما لا تقتضِى فضلَه وأنّهما دونَه ، وذكَر ولاية عَمرو بن العاص عليهما وإن لم يكونا دونَه فى الفضل ، وأنّ أحدا لم يُفضِّل أسامةَ عليهما .

ثم ذكر أنّ السبب فى كون عمرَ من جملة جيشِ أسامة أنّ عبد الله بن أبى رَبيعةَ المخزومىّ قال عند ولاية أسامة : تولّى علينا شابٌّ حَدَث ونحن مَشيَخة قُريش ! فقال عمر : يا رسولَ الله ، مُرْنى حتّى أضربَ عنقَه ، فقد طَعَن فى تأميرك إيّاه ؛ ثم قال : أنا أخرُج فى جيش أُسامةَ تواضُعا وتَعظيما لأمرِه عليه السلام .

اعترَض المرتضَى هذه الأجوبة ، فقال : أمّا كونُ أبى بكر فى جملة جيش أسامةَ فظاهر ، قد ذكره أصحاب السِّيَر والتّواريخ ، وقد روَى البَلاذُرِىّ فى تاريخه وهو معروفٌ بالثقة والضّبط ؛ وبرىءٌ من مُمالأة الشِّيعة ومقارَبتها ، أنّ أبا بكر وعمرَ معا كانا فى جيش أسامة ، والإنكار لما يَجرى هذا المجرَى لا يُغنِى شيئا ، وقد كان يَجب على من أحالَ بذلك على كتُب المغَازى فى الجملة أن يومئ إلى الكتاب المتضمِّن لذلك بعينه ليرجعَ إليه ؛ فأمّا خطابُه عليه السلام بالتّنفيذ للجَيْش فالمقصودُ به الفور دونَ التّراخى ، إمّا مِنْ حيث مُقتضَى الأمرِ على مذهب مَن يرَى ذلك لغةً ، وإمّا شرعا من حيثُ وجَدْنا جميع الأمّة من لدُن الصحابة إلى هذا الوقت يَحملون أوامِرَه على الفوْر[1] ، ويَطلُبون فى تَراخِيها الأدلّة . ثمّ لو لم يثبتْ كلّ ذلك لكان قولُ أسامةَ : لم أكن لأسألَ عنك الرّكْبَ ، أوضحَ دليل على أنّه عقل من الأمرِ الفوْرَ ، لأنّ سؤالَ الرّكب عنه عليه السلام بعدَ وفاته لا مَعنَى له .

(١) الشافى : « من حيث دل دليل الشرع عليه » .

وأمّا قولُ صاحب الكتاب : إنّه لم يُنكر على أسامةَ تأخّره فليس بشيء ، وأىّ إنكارٍ أبلغ من تكرارِه الأمر ، وتَردادِه القوْل فى حالٍ يُشغِل عن المهمّ ، ويقْطع الفِكْر إلّا فيها ! وقد كرّر الأمرَ على المأمور تارةً بتكرار الأمرِ ، وأخرى بغيرِه . وإذا سلّمنا أنّ أمرَه عليه السلام كان متوجّها إلى القائم بعدَه بالأمر لتنفيذ الجيش بعد الوَفاة لم يلزَم ما ذَكَره من خروج المخاطب بالتنفيذ عن الجملة ؛ وكيف يصحّ ذلك وهو من جملة الجيش ، والأمر متضمّن تنفيذ الجيش ! فلابدّ من نُفوذ كلٍّ من كان فى جملتِه ، لأنّ تأخّرَ بعضهم يَسلبُ النافذِين اسمَ الجيش على الإطلاق . أوَ ليس من مذهب صاحب الكتاب أنّ الأمرَ بالشيء أمرٌ بما لا يتمّ إلّا معه ! وقد اعتمدَ على هذا فى مَواضع كثيرة ، فإن كان خُرُوجُ الجيش ونفوذه لايتمّ إلّا بخروج أبى بكر ، فالأمر بخروج الجيش أمرٌ لأبى بكر بالنفوذ والخروج ، وكذلك لو أقبَل عليه على سَبيل التّخصيص ؛ وقال : نفّذوا جيشَ أسامةَ ، وكان هو من جملة الجيش ، فلابدّ أن يكون ذلك أمراً له بالخروج . واستدلاله على أنّه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه بعموم الأمر بالتّنفيذ ، ليس بصحيح ؛ لأنا قد بيّنا أنّ الخطاب إنّما توجّه إلى الحاضرِين ، ولم يتوجّهْ إلى الإمام بعدَه ؛ على أنّ هذا لازمٌ له ، لأنّ الإمامَ بعدَه لايكون إلّا واحدا، فلِمَ عَمّم الخطابَ ولم يفرِد به الواحدَ فيقول : لينفذ القائم مِن بعدِى بالأمرِ جيشَ أسامة ، فإنّ الحال لا يَختلف فى كون الإمام بعدَه واحدا بين أن يكون منصوصاً عليه أو مختارا .

وأمّا ما ادّعاه أنّ الشرط[1] فى أمرِه عليه السلام لهم بالنُّفوذ فباطل ، لأنّ إطلاقَ الأمر يَمْنع من إثبات الشرط ، وإنّما يَثبتُ من الشروط ما يَقتضِى الدليل إثباته من التّمكّن والقُدْرة ، لأنّ ذلك شرطٌ ثابت فى كلّ أمر ورد من حكيم ، والمصلحة بخلافِ ذلك ، لأنّ الحكيم لا يأمر بشَرْط المصلحة ، بل إطلاق الأمر منه يَقتضِى ثُبوتَ المصلحة وانتفاء المفْسَدة ، وليس كذلك التّمكُّن ، وما يجرِى مَجراه ، ولهذا لا يَشترط

---

(١) فى د « وأما ادعاؤه الشرط » .

أحدٌ فى أوامر اللهِ تعالى ورسوله صلّى الله عليــه وآله بالشّرائع المصلحةَ وانتفاء المفْسَدة . وشرَطوا فى ذلك التمــكّن ورفع التعذّر ، ولو كان الإمام منصوصا عليه بعَيْنه واُسمه لمَا جاز أن يستردّ جيش أسامةَ ؛ بخلاف ماظنّه ، ولا يَعزِل مَنْ ولّاه عليه السلام ولا يولّى من عزَله للعِلّة الّتى ذكرناها .

فأمّا استدلال أبى علىّ على أنّ أبا بكر لم يكن فى الجيش بحديث الصلاة ، فأوّل ما فيه أنه اعتراف بأن الأمر بتنفيذ الجيش كان فى الحياة دونَ بعدِ الوفاة ، وهذا ناقضٌ لمــا بَنى صاحبُ الــكتاب عليه أمرَه عليه السلام .

ثمّ إنّا قد بيّنا أنه عليه السلام لم يُولِّه الصلاةَ وذكَرْنا ما فى ذلك . ثمّ ما المانع من أن يولّيَه تلك الصلاة إن كان ولّاه إيّاهــا ، ثم يأمرُه بالنفوذ من بعد مع الجَيْش ! فإنّ الأمر بالصلاة فى تلك الحال لا يقتضى أمرَه بها على التأبيد .

وأمّــا ادّعاؤه أنّ النبىّ صلّى الله عليــه وآله يأمرُ بالحروب وما يتّصل بها عن اُجتهادٍ دون الوَحْى ، فمعاذَ الله أن يكون صحيحا ، لأنّ حروبَه عليه السلام لم تــكن ممّــا يختصّ بمَصالح أمور الدّنيا ، بل للدِّين فيها أقوى تعلّق ، لِما يعودُ على الإسلام وأهلِه بفُتوحه من العزّ والقوّة وعلوِّ الــكلمة . وليس يَجرى ذلك مَجرَى أكله وشُربه ونومِــه ؛ لأنّ ذلك لا تعلّق له بالدّين ، فيجوز أن يكون عن رأيه ، ولو جاز أن تــكونَ مَــغازيه وبعوثُه مع التعلّق القوىّ لها بالدّين عن اُجتهاد لجازَ ذلك فى الأحكام .

ثم لو كان ذلك عن اُجتهادٍ لمــا ساغَتْ مخالفتُه فيه بعدَ وفاته ، كما لا تَسوغ فى حياته . فــكل علّة تمنَع من أحدِ الأمرين هى مانعةٌ من الآخر . فأمّــا الاعتذار له عن حَبْس عمرَ عن الجيش بما ذَكَره فباطل ؛ لأنّا قدْ قلنا : إنّ ما يأمر به عليه السلامُ لا يسوغُ مخالفتُه مع الإمكان ، ولا مُراعاةَ لِما عَساه يَعرِض فيــه مِنْ رأى غيره ، وأىّ حاجة إلى عمرَ بعد تمامِ العَقْد ، واستقراره ورضــا الأمّــة به ، على طَريق [1] المخالف وإجماعها عليــه ، ولم يكن

(١) فى د : « مذهب » .

هناك فتنة ولا تَنازُع ولا اختلاف يحتاجُ فيه إلى مُشاوَرته وتدبيره ! وكلّ هذا تعلّلٌ باطل .

فأمّا محاربةُ أميرِ المؤمنين عليه السلام معاويةَ فإنّما كان مأمورا بها مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، وقد فعَل عليه السلام مِن ذلك ما وَجَب عليه لمّا تمكّن منه ، فأمّا مع التعذّر وفَقْدِ الأنصار فما كان مأمورا بها . وليس كذلك القولُ فى جيش أسامة ، لأنّ تأخّر من تأخّر عنه كان مع القدرة والتمكّن . فأمّا تولية أبى مُوسَى فلا نَدرِى كيف يُشبه ما نحنُ فيه ، لأنّه إنّما ولّاه بأن يرجع إلى كتاب الله تعالى فيَحكم فيه وفى خَصْمه بما يقتضيه ، وأبو موسى فعَل خلافَ ما جُعل إليه ، فلم يكن ممتثِلا لأمرِ من ولّاه ، وكذلك خالدُ ابن الوليد إنّما خالَفَ ما أَمَره به الرسولُ صلّى الله عليه وآله فتبرّأ من فعله ، وكلّ هذا لا يُشبِه أمره عليه السلام بتنفيذ جيشِ أسامةَ أمراً مطلقا ، وتأكيدُه ذلك وتكرارُه له ، فأمّا جيشُ أسامةَ فإنّه لم يضمّ من يَصلح للإمامة ، فيجوز تأخّرهم ليختار أحدهم على ماظنّه صاحبُ الكتاب . على أنّ ذلك لو صحّ أيضاً لم يكن عُذْرا فى التأخّر ؛ لأنّ مَنْ خرج فى الجيش يُمكِن أن يختار وإن كان بعيداً ، ولا يَمنَع بُعده من صحّة الاختيار ، وقد صَرّح صاحبُ الكتاب بذلك . ثمّ لو صَحّ هذا العُذْر لكان عُذْرا فى التأخّر قبلَ العَقْد ، فأمّا بعد إبرامِه فلا عُذرَ فيه ، والمُعاضدة الّتى ادّعاها قد بيّنّا ما فيها .

فأمّا ادّعاء[1] صاحب الكتاب رادّا على من جَعَل إخراجَ القوم فى الجيش ليتمّ أمرُ النصّ أن مَنْ أبْعَدهم لا يَمنَع أن يختاروا للإمامة فيدلّ على أنّه لم يتبيّن معنى هذا الطّعن على حقيقته ، لأنّ الطاعنَ به لا يقول إنّه أبْعدَهم لئلاّ يُختاروا للإمامة ، وإنّما يقول : إنّه أبْعدَهم حتّى يَنتصِب بعدَه فى الأرض مَن نصّ عليه ، ولا يكون هُناكَ من ينُازِعه ويخالفه .

---

(١) فى د : « قول » .

وأمّا قولُه : لم يكن قاطعا على مَوتِه فلا يضرّ تسليمه، أليس كان مُشفِقاً وخائفاً! وعلى الخائف أن يتحرّز ممّن يَخاف منه . فأمّا قولُه : فإنه لم يرِد : نفّذوا الجيشَ فى حَياتى فقد بيّنا ما فيه . فأمّا ولاية أسامةَ على من وُلِّىَ عليه ، فلا بدّ من اقتضائِها لفضْله على الجماعة فيما كان والياً فيه ، وقد دَلّلنا فيما تقدّم من الكتاب على أنّ ولايةَ المَفضُول على الفاضِل فيما كان أفضَل منه فيه قبيحة، فكذلك القولُ فى ولايةِ عَمرو بنِ العاص عليهما فيما تقدّم، والقولُ فى الأمرَين واحد .

وقوله : إنّ أحدا لم يَدّعِ فضلَ أسامةَ على أبى بكر وعمرَ ، فليس الأمرُ على ماظَنّه؛ لأن من ذهب إلى فسادِ إمامةِ المَفْضول لا بدّ من أن يُفضّل أسامة عليهما فيما كان والياً فيه ، فأمّا ادّعاؤه ما يذكُرُه من السّبب فى دخولِ عمرَ فى الجيش فما نعرفه ، ولا وقَفْنا عليه إلّا من كتابه ، ثمّ لو صحّ لم يُغنِ شيئا ، لأنّ عمرَ لو كان أفضل من أسامةَ لمَنَعه الرسولُ صلّى الله عليه وآله من الدّخول فى إمارته والمَسيرِ تحت لوائِه ، والتواضُع لا يَقتضى فعلَ القبيح(١) .

***

قلتُ : إنّ الكلامَ فى هذا الفصل قد تشعّب شُعَبا كثيرة ، والمُرتضَى رحمه الله لا يُورِد كلامَ قاضى القُضاة بنصّه ، وإنما يَختصِره ويورِدُه مبتورا ، ويُومِئُ إلى المعانى إيماءً لطيفا ، وغرضُه الإيجاز ، ولو أوردَ كلامَ قاضى القضاة بنصّه لكان أليَق ، وكان أبعَد عن الظِّنّة ، وأدفَعَ لقولِ قائلٍ من خصومه : إنّه يحرّف كلامَ قاضى القضاة ، ويذكُرُه على غير وَجْه ، ألا تَرَى أنّ من نَصَب نفسَه لاختصار كلامٍ فقد ضمن على نفسه أنّه قد فَهِم معانىَ ذلك الكلام حتى يصحّ منه اختصاره ؛ ومن الجائز أن يظنّ أنّه قد فَهِم

---

(١) الشافى ٤٢٠ ، ٤٢١ .

بعضَ المواضع ولم يكن قد فَهِمه على الحقيقة، فيختصر ما فى نفسه؛ لا ما فى تَصنيف ذلك الشخص، وأمّا من يُورِد كلامَ الناس بنصّه فقد استَراحَ من هذه التَّبِعة، وعَرَض عقلَ غيره وعقلَ نفسِه على الناظرين والسامعين.

ثم نقول: إنّ هذا الفصل ينقسم أقساما:

منها قولُ قاضى القُضاة: لا نُسلِّم أنّ أبا بكر كان فى جيش أسامة.

وأمّا قولُ المرتَضى: إنه قد ذكره أربابُ السِّيَر والتواريخ، وقولُه: إنّ البَلاذُرِىّ ذكره فى تاريخه، وقولُه: هلاَّ عَيّنَ قاضى القُضاة الكتابَ الّذى ذَكَر أنّه يتضمَّن عدمَ كونِ أبى بكرٍ فى ذلك الجيش! فإنّ الأمرَ عندى فى هذا الموضع مشتبِه، والتواريخ مختلِفة فى هذه القضيّة[١]، فنهم من يقول: إنّ أبا بكر كان فى جُملة الجيش، ومنهم من يقول: إنّه لم يكن، وما أشار إليه قاضى القُضاة بقوله فى كتب المغازِى لا ينتهى إلى أمر صحيح، ولم يكن ممّن يستحلُّ القول بالباطل فى دينه ولا فى رئاسته. ذَكَر الواقدىّ فى كتاب المغازِى أنّ أبا بكر لم يكن فى جيش أُسامة، وإنما كان عمرُ، وأبو عُبيدة، وسعدُ بنُ أبى وَقَّاص، وسعيدُ بنُ زيد بنِ عمرو بنِ نُفَيْل، وقَتادة بنُ النُّعمان، وسَلَمة بن أَسلَمَ، ورجالٌ كثيرٌ من المهاجرين، والأنصار، قال: وكان المنكرِ لإمارة أُسامةَ عيّاشُ بنُ أبى رَبيعة. وغيرُ الواقدىِّ يقول: عبدُ الله بنُ عَيَّاش؛ وقد قيل: عبدُ الله بنُ أبى ربيعة أخو عيَّاش.

وقال الواقدىّ: وجاء عمرُ بن الخطّاب فودَّع رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ليسيرَ مع أُسامة. وقال: وجاء أبو بكر فقال: يا رسول الله، أصبحتَ مُفيقا بحَمْد الله، واليومَ يومُ ابنةِ خارجة، فأْذَنْ لى، فأَذِن له، فذهب إلى منزله بالسُّنْح[٢] وسار أُسامة فى العسكر، وهذا تصريح بأنَّ أبا بكر لم يكن فى جيش أسامة.

---

(١) فى د: «القصة». (٢) السنح: إحدى محال المدينة؛ وكان بها منزل أبى بكر حين تزوج مليكة؛ وقيل حبيبة بنت خارجة (ياقوت).

وذكر موسى بنُ عُقْبة فى كتاب " المغازى " أنَّ أبا بكر لم يكن فى جيش أسامة وكثير من المحدِّثين يقولون : بل كان فى جيشه .

فأمّا أبو جعفر محمّد بنُ جَرير الطبرىّ فلم يذكر أنّه كان فى جيش أسامَة إلّا عمر .

وقال أبو جعفر : حدّثنى السُّدّىُّ بإسنادٍ ذَكَره أنَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ضَرَب قبل وفاته بَعْثا على أهل المدينة ومَن حولَهمْ وفيهم عمرُ بنُ الخطّاب ، وأمّرَ عليهم أسامَة ابنَ زيد ، فلم يجاوِزْ آخرُهم الخَنْدَق حتّى قُبِض رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فوقف أُسامةُ بالناس ثم قال لعمر : ارجِع إلى خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فاستأذِنْه يَأْذَن لى أرْجعْ بالناس ، فإنَّ معى وجوه الصّحابة ، ولا آمَن على خليفة رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وثِقَل رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وأثقال المسلمين أن يتخطّفهم المُشرِكون حولَ المدينة ؛ وقالت الأنصار لعمرَ سِرًّا : فإنْ أَبَى إلّا أن يَمضىَ فأَبلغه عنّا ، واطلُب إليه أن يولّى أمرَنا رجلا أقدمَ سِنّا من أسامة ، فخرج عمرُ بأمرِ أسامة فأَتَى أبا بكر فأخبَره بما قال أسامة ، فقال أبو بكر : لو تخطّفتْنى الكلابُ والذئابُ لم أردَّ قضاءً قضَى به رسولُ الله صلّى الله عليه وآله . قال : فإنَّ الأنصارَ أمَرونى أن أبلّغك أنّهم يَطلُبون إليك أن تولّىَ أمرَهم رجلا أقدَم سِنّا من أُسامة ، فوثَب أبو بكر ـ وكان جالسا ـ فأخذَ بلحيةِ عمرَ وقال : ثَكِلَتْك أمّك يابنَ الخطّاب ! أيَستعمِلُه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وتأمرُنى أن أنزِعه ! فخرج عمرُ إلى الناس ، فقالوا له : ما صنعتَ ؟ فقال : امضُوا ثَكِلَتْكم أمهاتُكم ! ما لقيتُ فى سبيلكم اليومَ من خليفةِ رسول الله صلّى الله عليه وآله ! ثمّ خرج أبو بكر حتّى أتاهم فأشخَصَهم[١] وشيّعهم ، وهو ماشٍ وأسامة راكب ، وعبد الرحمن ابن عوف يقودُ دابّةَ أبى بكر ، فقال له أسامةُ بنُ زيد : يا خليفةَ رسولِ الله ، لتركَبَنَّ أو لأنزِلَنّ ، فقال : والله لا تَنزِل ولا أركَب ، وما علىّ أن أغبِّرَ قدَمى فى سبيل الله ساعةً ،

---

(١) أشخصهم : بعث بهم .

فإنَّ للغازى بكلّ خُطْوة يَخطوها سبعمائة حسنة تُكتَب له ، وسبعمائة درجة تُرفَع له ، وسبعمائة خطيئة تُمحَى عنه ، حتّى إذا انتهَى قال لأسامة : إنْ رأيتَ أن تُعينَنى بعمرَ فافعل ، فأَذِن له ، ثم قال : أيّها النـاس ، قِفوا حتّى أوصيكم بعَشْر فاحفظوها عنّى : لا تخونُوا ولا تَغْدِروا ولا تَغُلّوا ولا تُمثّلوا ولا تَقتُلوا طفْلا صغيرا ، ولا شيخاً كبيرا ، ولا امرأةً ، ولا تَعقِروا نَخْلا ولا تُحرِّقوه ، ولا تَقطَعوا شجرةً مُثمِرة ، ولا تَذبحوا شاةً ولا بَعيراً ولا بقَرَةً إلا لمأكَلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسَهم للعبـادة فى الصّوامع ، فدعُوهم فيما فرّغوا أنفسَهم له ، وسوف تَقْدمون على أقوام يأتونكم بصِحافٍ فيها ألوانُ الطعام ، فلا تأكلوا من شىء حتّى تَذكُروا اسمَ الله عليـه ، وسوف تَلقَوْن أقواما قد حَصّوا[1] أوساطَ رءوسهم وتركُوا حولها مِثلَ العصائب ، فاخفِقُوهم[2] بالسّيوف خَفْقا ؛ أفناهم اللهُ بالطعن والطاعون ، سِيرُوا على اسم الله .

وأمّا قولُ الشيخ أبى علىّ فإنه يدلّ على أنّه لم يكن فى جيشِ أسامة ، أمرُه إيّاه بالصّلاة . وقولُ المرتضَى : هذا اعترافٌ بأنَّ الأمرَ بتنفيذ الجيش كان فى الحالِ دونَ ما بعدَ الوفاة ، وهذا يَنقُض ما بَنَى عليه قاضى القُضاة أمرَه ؛ فلِقائلٍ أن يقول : إنّه لا يَنقُض ما بناه ، لأنَّ قاضىَ القُضاة ما قال : إنَّ الأمرَ بتنفيذ الجيش ما كانَ إلّا بعـدَ الوفاة ، بل قال : إنّه أمْر ، والأمْر على التّراخى ، فلو نفذ الجيشُ فى الحال لجاز ، ولو تأخّر إلى بعد الوفاة لجاز .

فأمّا إنـكار المرتضَى أن تـكون صَلاةُ أبى بكر بالنّاس كانت عن أمرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه فقد ذكرْنا ما عندَنا فى هذا فيما تقدّم .

وأمّا قولُه : يجوز أنْ يكون أمَرَه بصلاةٍ واحدةٍ أو صلاتين ، ثمّ أمَرَه بالنّفوذ بعد

---

(١) حص شعره : حلقه . (٢) اخفقوهم : اضربوهم .

ذلك ، فهذا لعَمْرى جائزٌ . وقد يُمكِن أن يقال : إنّه لمّا خرج متحامِلًا من شدّة المرض فتأخّر أبو بكر عن مُقامِه ، وصلّى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بالنّاس ، أمَره بالنّفوذ مع الجيش ، وأسكتَ رسول الله صلّى الله عليه وآله فى أثْناء ذلك اليوم ، واستمرّ أبو بكر على الصّلاة بالناس ، إلى أن تُوفّىَ عليه السلام ، فقد جاء فى الحديث أنّه أسكت ، وأن أسامة دخل عليه فلم يَستطِع كلامَه لكنّه كانَ يرفَع يديه ويَضعُهما[1] عليه كالدّاعى له . ويُمكن أن يكونَ زمان هذه السّكتة قد امتدّ يوما أو يومين ، وهذا الموضعُ مِن المَواضع المشتَبِهة عندى .

ومنها قولُ قاضى القُضاة : إنّ الأمرَ على التّراخى ، فلَايلزَم من تأخُّر أبى بكر عن النّفوذ أن يكون عاصياً .

فأمّا قولُ المرتضَى : الأمرُ على الفَوْر إمّا لغةً عند من قال به ، أو شرْعا لإجماع الكلّ على أنّ الأوامر الشرعيّة على الفَوْر إلّا ما خرج بالدّليل ، فالظاهر فى هذا الموضع صحّة ما قاله المرتضَى ، لأنّ قرائنَ الأحوال عند من يقرأ السِّيَر ويَعرِف التواريخ تدلّ على أنّ الرسولَ صلّى الله عليه وآله كان يَحثُّهم على الخروج والمَسير ، وهذا هو الفوْر .

وأمّا قولُ المرتضى وقولُ أسامة: لم أكن لأسأل عنك الرّكْب ،فهو أوْضح دليل على أنه عقل من الأمر الفوْر ، لأنّ سؤال الرّكْب عنه بعد الوَفاة لا معنى له . فلقائلٍ أن يقولَ : إنّ ذلك لا يدلّ على الفوْر ، بل يَدُلّ على أنه مأمور فى الجملة بالنّفوذ والمَسير ، فإنّ التعجيل والتأخير[2] مفوّضان إلى رأيه ، فلمّا قال له النبيّ صلّى الله عليه وآلِه : لم تأخّرت عن المَسير ؟ قال : لم أكن لأسيرَ وأسألَ عنك الرّكْب ، إنى انتظرتُ عافيتك ، فإنى إذا سرتُ وأنت على هذه الحال لم يسكن لى قلب للجهاد ، بل أكون قَلِقا شديد الجزع ، أسأل

(١) فى د « ويحطهما » . (٢) فى د « والتأجيل » .

عنك الرُّكْبان ، وهذا الكلامُ لا يدلّ على أنه عَقَل من الأمر الفَوْر لا مَحَالة ، بل هو على أن يَدُلّ على التراخى أظهر ، وقولُ النبى صلّى الله عليه وآله : « لِمَ تأخّرت عن المَسِير ؟ » لا يَدُلّ على الفَوْر ؛ لأنه قد يقال مثل ذلك لمن يؤمر بالشىء على جهة التراخى إذا لم يكن سؤال إنكار .

وقول المرتضى : لأن سؤال الرَّكْب عنه بعدَ الوفاة لا مَعْنى له ، قولُ مَن قد توَهّم على قاضى القضاة أنه يقول : إنّ النبىّ صلى الله عليه وآله ما أمرهم بالنّفوذ إلّا بعد وفاتِه ، ولم يَقُل قاضى القضاة ذلك ، وإنما ادّعى أنّ الأمر على التراخى لا غير ، وكيف يُظَنّ بقاضى القضاة أنّه حَمَل كلام أسامةَ على سؤال الرّكب بعد الموت ! وهل كان أسامةُ يعلم الغيب فيقول ذاك ! وهل سأل أحدٌ عن حال أحد من المرضى بعد موته !

فأمّا قول المرتضى عَقِيبَ هذا الكلام : لا مَعنَى لقول قاضى القُضاة إنه لم ينكر على أسامة تأخّره ، فإن الإنكار قد وَقع بتكرار الأمر حالًا بعد حالٍ ، فلقائل أنْ يقول : إن قاضى القُضاة لم يجعل عدَم الإنكار على أسامة حجّة على كون الأمر على التراخى ، وإنما جعل ذلك دليلا على أنّ الأمر كان مَشْروطا بالمصلَحة ، ومَن تأمل كلام قاضى القُضاةِ الذى حكاه عنه المرتضى تحقق ذلك ، فلا يجوز للمرتضى أن ينتزعه من الوضع الذى أورده فيه، فيَجعَلَه فى موضع آخر .

ومنها قولُ قاضى القضاة : الأمرُ بتنفيذ الجيش يجب أن يكون متوجِّها إلى الخليفة بعده، والمخاطبُ لا يدخُل تحت الخطاب ، واعتراضُ المرتضى عليه بأن لفظة « الجيش » يدخل تحتها « أبو بكر » فلا بدّ من وجُوب النفوذ عليه ، لأنّ عدم نُفوذه يَسلب الجماعة اسم « الجيش » ؛ فليس بجيّد ، لأنّ لفظة « الجيش » لفظةٌ موضوعة لجماعة من النّاس قد أُعِدّت للحرب ، فإذا خرج منها واحدٌ أو اثنان لم يَزَل مسمّى الجيش عن الباقين ، والمرتضى

اعتقد أنَّ ذلك مِثل الماهِيّات المركّبة ، نحو العشرة إذا عُدِم منها واحد زال مسمى العَشَرة ، وليس الأمرُ كذلك ، يبين ذلك أنه لو قال بعضُ الملوك لمائة إنسان : أنتم جيشى ، ثم قال لواحد منهم : إذا متّ فأَعطِ كلّ واحدٍ من جيشى دِرْهما من خِزَانتى ، فقد جعلتك أميراً عليهم لم يكن له أن يأخذ لنفسه دِرْهما ، ويقول : أنا من جملة الجماعة الذين أطلق عليهم لَفْظة الجيش .

ومنها قولُ قاضى القضاة : هذه القضيّة تدلّ على أنه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه ؛ وأمّا قول المرتضى : فقد بينا أنَّ الخطاب إنما توجَّه إلى الحاضرين لا إلى القائم بالأمر بعده ، فلم نجد فى كلامه فى هذا الفصل بطوله ما بيّن فيه ذلك ، ولا أعلم على ماذا أحال ! ولو كان قد بيّن — على ما زَعَم — أن الخِطَاب متوجِّه إلى الحاضرين ، لكان الإشكالُ قائماً ، لأنه يقال له : إذا كان الإمام المنصوص عليه حاضراً عنده فلم وجّه الخطاب إلى الحاضرين ! ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول الملكُ للرعيّة : اقضوا بين هذين الشخصين والقاضى حاضرٌ عندَه ، إلّا إذا كان قد عَزَله عن القضاء فى تلك الواقعة عن الرعيّة !

فأمّا قول المرتضى : هــذا ينقلب عليــكم ، فليس ينقلب ؛ وإنما ينقلب لو كان يريد تنفيذ الجيش بعد موته فقط ، ولا يريدُه وهو حىّ ، فكان يجىء ما قاله المرتضى لينفذ القائم بالأمر بعدى جيش أسامة ، فأما إذا كان يريد نفوذ الجيش من حين ما أمر بنفوذه فقد سَقَط القَاب ، لأنَّ الخليفة حينئذ لم يكن قد تعيّن ، لأن الاختيار ما وقع بعد ، وعلى مَذهب المرتضى الإمام متعيِّن حاضر عنده نصبَ عَيْنه ، فافترق الوَصْفان .

* * *

ومنها قول قاضى القضاة : إن مخالفة أمره صلَّى الله عليــه وآله فى النفوذ مع الجيش أو فى إنفاذ الجيش لا يكون معصيةً ، وبيّن ذلك مِن وجوه :

أحدُها : أنّ أمره عليه السلام بذلك لابدّ أن يكون مشروطاً بالمصلحة ، وألا يعرض ما هو أهَمّ من نفوذ الجيش ، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ وإن أعقب ضرراً فى الدِّين ، فأما قول المرتضى: الأمر المطلق يدلّ على ثبوت المَصلحة ، ولا يجوز أن يَجعل الأمر المطلق، فقولٌ جيّد إذا اعترض به على الوَجْه الذى أورَدَه قاضى القضاة ، فأمّا إذا أورده أصحابُنا على وجهٍ آخر فإنه يندفع كلام المرتضى ، وذلك أنه يجوز تخصيصُ عمومات النصوص بالقياس الجلىّ عند كثير من أصحابنا ، على ما هو مذكورٌ فى أصول الفِقْه ، فلم لا يجوز لأبى بكر أن يَخصّ عموم قوله : « أنفذوا بعث أُسامة » لمصلحة غَلبتْ على ظنه فى عدم نفوذه نفسه ، ولمفسدة غلبت على نفسه[1] فى نفوذه نفسه مع البعث !

* * *

وثانيها : أنه عليه السلام كان يبعث السّرايا عن اجتهاد لا عَنْ وَحْى يحرم مخالفته . فأمّا قولُ المرتضى : إنّ للدين تعلقّا قويا بأمثال ذلك[2] ، وإنها ليست من الأمور الدّنياويّة المحضة نحو أكله وشربه ونومه ، فإنّه يعود على الإسلام بفتوحه عزٌّ وقوّةٌ وعُلُوٌّ كلمة فيقال له : وإذا أكل اللحم وقوى مِزاجُه بذلك ونام نوما طبيعيا يزول عنه به المرض والإعياء ، اقتضى ذلك أيضاً عزّ الإسلام وقوّتَه ، فقل إنّ ذلك أيضاً عن وَحْى .

ثم إنّ الذى يقتضيه فُتوحُه وغزَواته وحُروبه من العِزّ وعلوّ الكلمة لا ينافى كونَ تلك الغزَوات والحروب باجتهاده ، لأنه لا منافاة بين اجتهاده وبين عِزّ الدّين وعلوِّ كلمته بحرُوبه ، وأن الذى يُنافى اجتهاده بالرأى هو مثل فرائض الصلوات ومقادِير الزّكَوات ومناسِك الحجّ ، ونحو ذلك من الأحكام التى تُشعر بأنها مُتلقّاة مِن محض الوَحى ، وليس للرأى والاجتهاد فيها مدخل ، وقد خرج بهذا الكلام الجواب عن قوله :

---

(١) فى د « ظنه » .　　(٢) ا : « هذا » .

لو جاز أن تكون السرايا والحروب عن اجتهاده ، لجاز أن تكون الأحكامُ كلُّها عن اجتهاده . وأيضا فإنَّ الصحابة كانوا يراجعونه فى الحروب وآرائه التى يدبرها بها ويرجع عليه السلام إليهم فى كثير منها بعد أن قد رأى غيره ، وأما الأحكام فلم يكن يُراجِع فيها أصلا ، فكيف يُحمل أحدُ البابين على الآخر .

فأمّا قوله : لو كانت عن اجتهاد لوجب أن يحرم مخالفته فيها وهو حىٌّ ، لا فرق بين الحالين ؛ فلقائلٍ أن يقول : القياس يقتضِى ما ذكرت ، إلا أنه وقع الإجماعُ على أنَّه لو كان فى الأحكام أو فى الحرُوب والجهاد ما هو باُجتهادِه لما جازتْ مخالفتُه ، والعــدولُ عن مذهبه وهو حىٌّ لم يَختلف أحدٌ من المسلمين فى ذلك ، وأجازُوا مخالفَته بعد وفاتِه بتقدير أن أن يكون ما صار إليه عن اجتهاد ؛ والإجماعُ حُجة .

فأما قولُ قاضى القُضاة : لأنَّ اجتهادَه وهو حىٌّ أَولَى من اُجتهاد غيره ، فليس يكادُ يظهَر ، لأنَّ اجتهادَه ، وهو ميِّت أولى أيضاً من اجتهاد غيرِه ، ويَغلِب على ظَنِّى أنّهم فرَّقوا بين حالَتى الحياة والموتِ ، فإنَّ فى مخالفته وهو حىٌّ نوعاً من أَذًى له ، وأذاهُ محرَّم لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ﴾[1]، والأذى بعد الموت لا يكون ، فافترق الحالان .

* * *

وثالثُها : أنه لو كان الإمامُ منصوصا عليه لَجازَ أن يستردَّ جيش أُسامةَ أو بعضَه لنصرته ؛ فكذلك إذا كان بالاختيار ، وهذا قد منع منه المرتَضى ، وقال : إنه لا يجوز للمنصوص عليه ذلك ، ولا أنَّ يولِّى من عَزَله رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، ولا أن يَعزِل مَن ولَّاه رسولُ الله صلى الله عليه وآله .

* * *

(١) سورة الأحزاب ٥٣ .

ورابعُها : أنّه عليه السلام تَرَكَ حربَ معاويةَ فى بعض الحالات ، ولم يُوجِب ذلك أن يكون عاصياً ، فكذلك أبو بكر فى تركِ النّفوذ فى جيش أسامة .

فأما قول المرتضَى : إنّ عليًّا عليه السلام كان مأموراً بحرب معاويةَ مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، فإذا عَدِما لم يكن مأموراً بحربه ؛ فلقائلٍ أن يقول : وأبو بكر كان مأموراً بالنفوذ فى جيشِ أسامة مع التمكّن ووجودِ الأنصار ، وقد عُدِم التمكّن لمّا استُخلِف ، فإنَّه قد تحمَّل أعباءَ الإمامة ، وتَعذّر عليه الخروجُ عن المدينة ، الّتى هى دارُ الإمامة ، فلم يكن مأموراً والحالُ هذه بالنفوذ فى جيش أسامة .

فإن قلتَ : الإشكال عليكم إنّما هو من قِبَل الاستخلاف ، كيف جاز لأبى بكر أن يتأخّر عن المسير ؟ وكيف جاز له أن يَرجع إلى المدينة وهو مأمور بالمسير ؟ وهلَّا نفذ لوجهه ولم يَرجع ، وإن بلغه موتُ رسول الله صلَّى الله عليه وآله !

قلت : لعلّ أسامةَ أَذِن له ، فهو مأمورٌ بطاعته ، ولأنَّه رأى أُسامةَ وقد عاد باللّواء فعاد هو لأنَّه لم يكن يُمكِنه أن يسيرَ إلى الرُّوم وحدَه ، وأيضاً فإنَّ أصحابنا قالوا : إنَّ وِلايةَ أسامةَ بَطلت بموت النبىّ صلّى الله عليه وآله ، وعاد الأمرُ إلى رأى مَن ينصَّب للأمر ، قالوا : لأنَّ تصرُّف أسامة إنَّما كان من جهة النبىّ صلَّى الله عليه وآله ، ثمّ زال تَصرّف النبىّ صلَّى الله عليه وآله بموتِه ، فوَجَب أن يزول تَصرُّف أسامة ، لأنَّ تصرُّفَه تبعٌ لتَصرُّف الرسولِ صلَّى الله عليه وآله . قالوا : وذلك كالوَكيل تَبطُل وَكالته بموتِ المُوَكِّل ، قالوا : ويفارق الوصىّ لأنَّ ولايتَه لا تَثبتُ إلَّا بعد موت المُوصِى ، فهو كعَهْد الإمام إلى غيره لا يَثبت إلَّا بعد موتِ الإمام ، ثمّ فرَّع أصحابُنا على هذا الأصل مسألةً وهى : الحاكم هل ينعزل بموتِ الإمام أم لا ؟ قال قوم من أصحابنا : لا يَنعزل وبنَوْه على أن التّوَلّىَ من غيرِ جهةِ الإمام يجوز ، فجعَلوا الحاكم نائبا عن المسلمين أجمعين ، لا عن الإمام ،

وإن وقف تَصرّفه على اختياره ، وصار ذلك عندهم بمنزلة أن يختارَ المسلمون واحدا يحكم بينهم ، ثمّ يموت مَن رضىَ بذلك ، فإنّ تَصرّفه يَبقَى على ما كان عليه ، وقال قوم من أصحابنا : ينعزل ، وإنّ هذا النوع من التصرّف لا يُستفاد إلّا من جهة الإمام، ولا يقوم به غيرُه ، وإذا ثبت أنّ أسامةَ قد بطلتْ ولايتُه لم تبق تَبِعةٌ[1] على أبى بكر فى الرّجوع من بعض الطّريق إلى المدينة .

* * *

وخامسُها : أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام ولّى أبا موسى الحكمْ ، وولّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله خالدَ بنَ الوليد السّرِيّة إلى الغُمَيْصاء[2] ، وهذا الكلامُ إنّما ذكره قاضى القُضاة تتمّةً لقوله : إنّ أمرَه عليه السلام بنفوذ بعث أسامة كان مَشْروطا بالمصلحة ؛ قال : كما أنّ توليتَه عليه السلامُ أبا موسى كانت مشروطةً باتّباع القرآن، وكما أنّ تولية رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد كانت مشروطة بأن يعمَل بما أوصاه به ، فخالَفا ولم يَعْمَلا الحقّ ، فإذا كانت هذه الأوامرُ مشروطةً فكذلك أمرُه جيش أسامة بالنّفوذ كان مشروطا بالمَصلَحة وألّا يعرضَ ما يَقتضِى رجوع الجيش أو بعضه إلى المدينة ، وقد سبق القولُ فى كون الأمر مشروطا .

* * *

وسادسُها : أنّ أبا بكر كان محتاجا إلى مُقامِ عمرَ عنده ليعاضِدَه[3] ويقومَ فى تمهيد أمرِ الإمامة ما لا يقوم به غيرُه ، فكان ذلك أصلَح فى باب الدّين من مَسيرِه[4] مع الجيش، فجاز أن يَحبِسه عنده لذلك ؛ وهذا الوجه مختصّ بمن قال : إنّ أبا بكر لم يكن فى الجيش ، وإيضاح عذره فى حَبْس عمرَ عن النّفوذ[5] مع الجيش .

---

(١) ا : « شيء » .　　(٢) الغميصاء : موضع أوقع فيه خالد بن الوليد ببنى جذيمة .
(٣) بعدها فى ا : « ويعاونه » .　　(٤) ا : « سيره » .
(٥) ا : « التنفيذ » .

فأمّا قولُ المرتضَى فإن ذلك غيرُ جائز ، لأنّ مخالفَة النصّ حرام ، فقد قُلْنا : إنّ هـذا مبنيٌّ على مسألة تخصيص العمومات الواردةِ فى القرآن بالقياس .

وأمّا قوله : أىّ حاجة كانت لأبى بكر إلى عمرَ بعدَ وقوعِ البَيْعة ، ولم يكن هناكَ تَنازُع ولا اُختلاف ! فعجيب ، وهل كان لولا مُقامُ عُمَر وحضورُه فى تلك المقامات يتمّ لأبى بكر أمرٌ أو يَنتظِم له حال ! ولولا عمرُ لما بايَع علىٌّ ولا الزّبيرُ ، ولا أكثرُ الأنصار ، والأمر فى هذا أظهرَ من كلّ ظاهر .

* * *

وسابِعُها : أنّ من يَصلُح للإمامة ممّن ضَمّه جيشُ أسامَة يجب تأخّرهم ليُختارَ للإمامة أحدُهم ، فإنّ ذلك أهمّ من نفوذهم ، فإذا جاز لهـذه العِلّة التأخّر قبل العقد جاز التأخر بَعده للمعاضَدة وغيرها .

فأما قول المرتضَى : إنّ ذلك الجيش لم يَضُمّ مَن يَصلح للإمامة ، فبنـاءً على مَذْهبه فى أنّ كلّ من ليس بمعصوم لا يَصلُح للإمامة . فأمّا قولُه : ولو صحّ ذلك لم يكن عـذراً فى التأخّر ، لأنّ من خرج فى الجيش يُمكِن أن يختـار ولو كان بعيدا ، ولا يُمكِن بعده من صحّة الاُختيار ، فلقائل أن يقول : دارُ الهِجرة هى الّتى فيها أهلُ الحلّ والعَقْد ، وأقاربُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله والقُرّاء وأصحابُ السّقيفة ، فلا يجوز العدولُ عن الاُجتماع والمشاوَرة فيها إلى الاُختيار على البُعد ، وعلى جناح السَّفَر من غير مشارَكة مَن ذَكَرْنا من أعيان المسلمين .

فأمّا قوله : ولو صحّ هذا العقد لكان عذرا فى التأخّر قبل العَقْد ، فأمّا بعد إبرامه فلا عذرَ فيه ؛ فلِقائلٍ أن يقول : إذا أجزْتَ التأخّرَ قبل العقد لنوعٍ من المصلحة فأجز التأخّر بعد العَقْد لنوعٍ آخر من المصلحة ، وهو المعاضدة والمساعَدة .

هذه الوجوهُ السّبعةُ كلّها لبيان قوله : تأخّر أبى بكر أو عمر عن النّفوذ فى جيش أسامة ، وإن كان مأمورا بالنفوذ .

***

ثمّ نعود إلى تمام أقسام الفَصْل .

ومنها(١) قولُ قاضِي القُضاة : لا معنى لقول مَن قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قصَد إبعادهم عن المدينة ، لأن بُعْدَهم عنها لا يَمنعهم من أن يَختارُوا واحداً منهم للإمامة ، ولأنّه عليه السلام لم يكن قاطعا على موته لا محالة ، لأنّه لم يرِد : نفّذوا جيش أسامة فى حياته .

وقد اُعترضَ المرتَضى هذا فقال : إنّه لم يتبيّن معنى الطّعن ، لأنّ الطاعن لا يقول : إنهم أبعدِوا عن المدينة كى لا يَختارُوا واحداً للإمامة ، بل يقول : إنّما أُبعِدوا لينتصبَ بعدَ موته صلّى الله عليه وآله فى المدينة الشّخصُ الّذى نصّ عليه ، ولا يكون حاضراً بالمدينة من يخالفه ويُنازِعه ، وليس يضرّنا ألّا يكون صلّى الله عليه وآله قاطعاً على موته ، لأنّه وإن لم يكن قاطعا فهو لا محالة يُشفِق ويخَافُ من الموت ، وعلى الخائف أن يتَحرَّز مما يخاف منه ؛ وكلامُ المرتضَى فى هذا الموضع أظهَر من كلام قاضى القُضاة .

ومنها قولُ قاضىالقُضاة : إنّ ولايةَ أسامة عليهما لاتقتضى كونهما دونَه فىالفَضل ، كما أنّ عمرَو بنَ العاص لمّا وُلّىَ عليهما لم يقتَض كونَه أفضل منهما . وقداُعترض المرتضى هذا بأنّه(٢) يَقبحُ تقديمُ المفضول على الفاضل فيما هو أفضلُ منه ، وأنّ تقديم عمرو بن العاص عليهما فى الإمْرة يَقتضِي أن يكون أفضلَ منهما فيما يَرجع إلى الإمرة والسّياسة ، ولا يقتضى أفضليّته عليهما فى غير ذلك ، وكذلك القولُ فى أسامة .

(١) انظر ص ١٨٢ . (٢) د : « فإنه » .

ولقائل أن يقول : إنّ الملوك قد يؤمِّرون الأمراء على الجيوش لوجهين : أحدهما أن يَقصِد الملك بتأمير ذلك الشخص أن يَسُوسَ الجيشَ ويُدَبّره بفضل رأيه وشَيْخُوخته وقديم تجربتِهِ وما عُرِف من يُمْن نَقيبته فى الحرب وقَوْد العساكر ، والثانى أن يؤمِّر على الجيش غلاماً حَدَثا من غلمانه أو من ولدِه أو من أهلِه ، ويأمر الأكابر من الجيش أن يثقِّفوه ويعلّموه ، ويأمرُه أن يتدبّر بتدبيرهم ، ويرجع إلى رأيهم ؛ ويكونُ قصدُ الملك من ذلك تخريج ذلك الغلام وتمرينُه على الإمارة ، وأن يُثبِت له فى نفوس الناس منزلةً ، وأن يُرشِّحَه لجلائل[1] الأمور ومعاظم الشئون ، ففى الوجه الأوّل يَقبُح تقديم المَفضول على الفاضل ؛ وفى الوجه الثانى لا يَقبُح ، فلِم لا يجوز أن يكون تأمير أُسامةَ عليهما من قَبيل الوجهِ الثانى ؟ والحالُ يَشهَد لذلك ، لأنّ أسامةَ كان غلاماً لم يَبلُغ ثمانىَ عشرة سنةً حين قُبِض النبىّ صلى الله عليه وآله ، فمن أين حصل له من تجربة الحرب ومُمارسة الوقائع وقَوْد الجيش ما يَكُون به أعرفَ بالإمرة من أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وسعدِ بن أبى وَقّاص وغيرهم !

ومنها قولُ قاضى القُضاة : إنّ السبب فى كون عمرَ فى الجيش أنّه أنكر على عبد الله ابن عيّاش بن أبى رَبيعة تسَخُّطه إمْرة أسامة ، وقال : أنا أَخرُجُ فى جيش أسامة ؛ فخرج من تلقاء نفسِه تعظيما لأمر رسولِ الله صلى الله عليه وآله . وقد اُعترَضه المرتضِى فقال : هذا شىء لم نَسمعْه من راوٍ ، ولا قرأناه فى كتاب ؛ وصَدَق المرتضَى فيما قال ، فإنّ هذا حديثٌ غريب لا يُعرَف .

وأمّا قولُ عمرَ : دَعْنى أضربْ عُنقَه فقد نافَقَ ؛ فمنقولٌ مشهورٌ لامحالة ، وإنّما الغريب الّذى لم يُعرَف كونُ عمرَ خرج من تلقاء نفسِه فى الجيْش مُراغمةً لعبد الله بن عيّاش ابن أبى ربيعة ، حيث أنكَر ما أَنكَر ؛ ولعلّ قاضى القُضاة سمعه من راوٍ أو نقَلَه من كتاب ، إلّا أنّا نحن ما وقفنا على ذلك .

(١) ب : « بجلائل » ، وما أثبته من ا ، د . (٢) ا : « سخطه » .

الطعن الخامس

قالوا : إنّه صلّى الله عليه وآله لم يُوَلِّ أبا بكر الأعمال ووَلّى غيرَه ، ولمّا ولّاه الحجّ بالناس وقراءةَ سُورة براءةَ على النّاس ، عزَلَه عن ذلك كلّه . وجعَلَ الأمرَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : « لا يؤدّى عنّى إلا أنا أو رجل منّى » ، حتّى يَرجِعَ أبو بكر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله .

أجابَ قاضى القُضاة فقال : لو سلَّمنا أنّه لم يُولّه ، لَمَا دلّ ذلك على نقص ، ولا عَلَى أنّه لم يَصلُح للإمارة والإمامة ، بل لو قيل : إنّه لم يُوَلّه لحاجته إليه بحضرته ، وإنّ ذلك رفعةٌ له لكان أقربَ ، لا سيّما ، وقد رُوِى عنه ما يدلّ على أنهما وَزيراه ، وأنّه كان صلى الله عليه وآله محتاجا إليهما وإلى رأيهما ، فلذلك لم يولّهما ، ولو كان للعمل على تركه فضل لكان عمرُو بنُ العاص وخالدُ بن الوليد وغيرُهما أفضلَ من أكابر الصّحابة ؛ لأنّه عليه السلام ولّاهما وقدّمهما ، وقد قدّمنا أن توليته هى بحَسَب الصّلاح ، وقد يولّى المفضولُ على الفاضل تارةً والفاضلُ أخرى ، وربّما وُلّىَ الواحدُ لاستغنائه عنه بحضرته ، وربّما ولّاه لاتّصالٍ بينه وبين من يُولّى عليه ، إلى غير ذلك . ثمّ ادّعى أنّه ولّى أبا بكر على الموسم والحجّ قد ثبتتْ بلا خلاف بين أهل الأخبار ولم يَصحّ أنّه عزَله ، ولا يدلّ رجوعُ أبى بكر إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله مستفهِما عن القِصّة على العَزْل ؛ ثمّ جعل إنكار من أنكَر حجّ أبى بكر فى تلك السنة بالناس ؛ كإنكار عَبّاد وطبقته أخذ أمير المؤمنين عليه السلامُ سورة براءة من أبى بكر . وحكى عن أبى علىّ أنّ المعنى كان فى أَخْذ السُّورة من أبى بكر أنّ من عادة العرب أنّ سيّدا من سادات قبائلهم إذا عقد عقد القوم ، فإنّ ذلك العقد لا ينحلّ إلّا أن يُحلّه هو أو بعضُ سادات قومه ، فلما كان هذا عادتَهم وأراد النبيُّ صلّى الله عليه وآله أن يَنبِذ[1] إليهم عقدَهم ، وينقض ما كان بينه وبينهم، عَلِم

(١) نبذ العقد : نقضه .

أنه لا ينحلّ ذلك إلّا به أو بسيّد من سادات رَهْطه، فَعَدَل عن أبى بكر إلى أمير المؤمنين المقرَّب فى النَّسب . ثمّ ادَّعى أنَّه صلَّى الله عليه وآله ولّى أبا بكر فى مرَضه الصَّلاة ، وذلك أشرفُ الولايات ، وقال فى ذلك : يأبَى الله ورسولُه والمسلمُون إلّا أبا بكر .

ثمّ اعترَض نفسه بصلاتِه عليه السلام خلفَ عبد الرَّحمن بنِ عوف : وأجاب بأنَّه صلَّى الله عليه وآله إنما صلَّى خلفَه ، لا أنَّه ولّاه الصلاة وقدّمه فيها . قال : وإنّما قدّم عبد الرحمن عند غَيْبة النبيّ صلّى الله عليه وآله فصَلَّى بغير أمره ، وقد ضاق الوقتُ ، فجاء النبيّ صلّى الله عليه وآله فصلَّى خلْفه[1] .

اعترض المرتضى فقال : قد بيّنا أنَّ تركه صلَّى الله عليه وآله الولاية لبعض أصحابه مع حضوره وإمكان ولايته والعدول عنه إلى غيره ، مع تطاوُل الزمان وامتدادِه ، لا بدّ من أن تَقتضىَ غَلَبةَ الظنّ بأنّه لا يَصلُح للولاية ، فأمّا ادّعاؤه أنّه لم يولّه لافتقاره إليه بحضرته وحاجته إلى تدبيره ورأيِه ، فقد بيّنا أنَّه عليه السلام ما كان يَفتقر إلى رأى أحدٍ لكمالِه ورُجْحانه على كلّ أحد ، وإنّما كان يُشاوِر أصحابَه على سبيل التّعليم لهم والتأديب ، أو لغير ذلك ممّا قد ذُكِر . وبَعْد ، فكيف استمرّت هذه الحاجة ، واتّصلت منه إليهما حتى لم يستغنِ فى زمانٍ من الأزمان عن حضورهما فيولّيهما ! وهل هذا إلّا قدْحٌ فى رأى رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله ونسبتِه إلى أنَّه كان ممّن يَحتاج إلى أن يلقّن ويوقف على كلّ شىء ، وقد نزّهه اللهُ تعالى عن ذلك ! فأمّا ادّعاؤه أنّ الرواية قد وردتْ بأنهما وَزيراه فقد كان يجب أن يصحّحَ ذلك قبل أن يَعتمده ويَحتجّ به ؟ فإنّا ندفعه منه أشدّ دفع . فأمّا ولاية عَمرو بن العاص وخالدِ بن الوليد فقد تكلّمنا عليها من قَبْلُ ، وبيّنا أنّ ولايتَهما تدُلّ على صلاحهما لِما وُلّياه ، ولا تَدُلّ على صلاحهما للإمامة ، لأنّ شرائط الإمامة لم تتكامل فيهما ، وبيّنا أيضا أنّ ولايةَ المَفضول على الفاضل لا تجوز ، فأمّا تعظيمه

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٤٢١ .

وإكباره قولَ مَن يَذهب إلى أنّ أبا بكر عُزِل عن أداء السُّورة والموسِم جميعا ، وجمعه بين ذلك فى البعد وبين إنكار عبّاد أن يكون أميرُ المؤمنين عليه السلام ارتجع سورة براءة من أبى بكر ؛ فأوّل مافيه أنّا لا ننكر أن يكون أكثرُ الأخبار واردة بأنّ أبا بكر حَجّ بالناس فى تلك السّنة ؛ إلّا أنّه قد رَوَى قومٌ من أصحابنا خلافَ ذلك ، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان أميرَ المَوسم فى تلك السنة ، وأنّ عَزْلَ الرجل كان عن الأمْرَين معاً . واستكبار ذلك . وفيه خلافٌ لا مَعنَى له ، فأمّا ماحكاه عن عَبّاد فإنّا لا نعرفه ، ومانظنّ أحدا يَذهَب إلى مِثله ، وليس يُمكِنه بإزاء ذلك جَحْد مذهب أصحابنا الذى حكيناه ، وليس عبّاد لو صحّت الروايةُ عنه بإزاء من ذكرناه ، فهو مليءٌ بالجهالات ودَفْع الضَّرورات . وبعد ، فلو سلّمنا أنّ ولايةَ الموسِم لم تُفسَخ لكان الكلامُ باقيا ، لأنه إذا كان ماولى مع تطاوُل الزّمان إلّا هذه الولاية ، ثمّ سُلِب شَطرها ، والأفخم الأعظم منها ، فليس ذلك إلّا تنبيها على ما ذكرناه .

فأمّا ما حكاه عن أبى علىّ من أنّ عادةَ العرب ألّا يحلّ ما عَقَده الرئيسُ منهم إلا هو أو المتقدّم من رَهْطه ؛ فَمعاذَ الله أن يُجرِى النبىّ صلى الله عليه وآله سُنّته وأحكامه على عادات الجاهليّة ، وقد بيّن عليه السلام لمّا رَجَع إليه أبو بكر يسأله عن أخذ السُّورة منه الحال ، فقال : إنّه أُوحِيَ إلىّ ألّا يؤدّىَ عنّى إلا أنا أو رَجلٌ منّى ، ولم يذكرْ ما أدّعاه أبو علىّ ؛ على أنّ هذه العادَة قد كان يَعرِفها النبىّ صلى الله عليه وآله قبلَ بَعثِه أبا بكر بسُورة براءة ، فما بالُه لم يَعتمِدْها فى الابتداء ويبعث من يجوز أن يحلّ عقدَه من قومِه !

فأمّا ادّعاؤه ولايةَ أبى بكر الصّلاةَ فقد ذكرْنا فيما تقدّم أنّه لم يُولِّه إيّاها . فأمّا فَصْلُه بين صلاتِه خلف عبد الرحمن وبين صلاة أبى بكر بالناس ، فليس بشىء ، لأنّا إذا كنّا قد دَللنا على أن الرسولَ صلى الله عليه وآله ما قدّم أبا بكر إلى الصّلاة ، فقد

أُستوَى الأمران . وبعد ؛ فأيّ فَرق بين أن يُصلّي خلفَه وبين أن يولّيَه ويقدِّمَه ، ونحن نعلم أنّ صلاته خَلفه إقرارٌ لولايته ورضاً بها ، فقد عادَ الأمرُ إلى أنّ عبدَ الرحمن كأنّه قد صلّى بأمره وإذنه ! على أنّ قصّة عبد الرحمن أوكدُ ، لأنّه قد أُعترَف بأنَّ الرسولَ صلّى خلفَه ، ولم يصلّ خلف أبي بكر ، وإنْ ذهب كثيرٌ من الناس إلى أنّه قدّمه وأَمَره بالصّلاة قبل خروجه إلى المسجد وتَحامُله .

ثم سأل المرتضى رحمه الله نفسَه ؛ فقال : إنْ قيل : ليس يَخلُو النبيُّ صلى الله عليه وآله من أن يكون سَلَّم فى الابتداء سورةَ بَرَاءةَ إلى أبي بكر بأمر الله أو باُجتهاده ورأيه ؛ فإن كان بأمرِ الله تعالى ، فكيف يجوزُ أن يَرتجعَ منه السّورة قبلَ وقتِ الأداء ، وعندَكم أنّه لا يجوز نَسخُ الشيء قبلَ تَقَضّي وقت فِعله ! وإن كان باُجتهادِه صلّى الله عليه وآله ، فعندَكم أنه لا يجوز أن يَجتهد فيما يجرى هذا المَجرَى !

وأجابَ فقال : إنّه ما سَلَّم السورةَ إلى أبي بكر إلّا بإذنه تعالى ، إلّا أنه لم يأمُرْه بأدائها ، ولا كلّفه قراءتَها على أهل الموسم ، لأنّ أحدا لم يُمكنه أن يَنقُل عنه عليه السلام فى ذلك لفظ الأمر والتّكليف ، فكأنّه سلّم سورةَ براءة إليه لتقرأ على أهل الموسم ، ولم يُصرِّح بذكر القارىء المُبلِّغ لها فى الحال ؛ ولو نُقِل عنه تصريحٌ لجاز أنْ يكون مشروطاً بشَرْط لم يَظهَر .

فإن قيل : فأيّ فائدة فى دَفْع السورة إلى أبي بكر وهو لا يريد أن يؤدِّيَها ، ثمّ ارتجاعها منه ؟ وهلّا دُفعتْ فى الابتداء إلى أميرِ المؤمنين عليه السلام !

قيل : الفائدة فى ذلك ظهورُ فضل أميرِ المؤمنين عليه السلام ومَرتبتِه ، وأنّ الرجلَ الّذى نُزِعت السُورة عنه لا يَصلُح لِما يصلُح له ، وهذا غَرضٌ قويٌّ فى وُقوع الأمر على ما وَقَع عليه(١) .

---

(٢) الشافى ٤٢١ ، ٤٢٢ .

قلت : قد ذكرْنا فيما تقدّم القولَ فى تولية الملك بعض أصحابه ، وتركِ تولية بعضهم ، وكيفية الحال فى ذلك ؛ على أنه قد رَوَى أصحابُ المغازى أنه أمَّر أبا بكر فى شعبان من سنة سبع على سَرِيّة بعثها إلى نَجْد فلقوا جمْعاً من هَوازن فبيّتوهم(١) ؛ فروَى إياسُ بنُ سَلَمة عن أبيه ؛ قال : كُنت فى ذلك البعث ، فقتلتُ بيدى سبعةً منهم ، وكان شعارُنا : « أَمِتْ أَمِتْ » ، وقُتِل من أصحابِ النبيّ صلى الله عليه وآله قومٌ ، وجُرح أبو بكر وارتُثّ(٢) وعاد إلى المدينة ؛ على أن أُمَرَاء السَّرايا الذين كان يبعثهم صلّى الله عليه وآله كانوا قوما مشهورين بالشجاعة ولقاء الحروب ، كمحمد بنِ مسلمة ، وأبى دُجَانة ، وزيد بن حارثة ونحوهم ، ولم يكن أبو بكر مشهوراً بالشجاعة ولقاء الحروب ، ولم يكن جَبانا ولا خوّارا(٣) وإنما كان رجلا مجتمعَ القلب عاقلا ، ذا رأى وحُسْن تدبير ، وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يَترُكُ بعثه فى السرايا ، لأنّ غيره أنفع منه فيها ، ولا يدلّ ذلك على أنه لا يصلحُ للإمامة ، وأنّ الإمامة لا تحتاج أن يكونَ صاحبُها من المشهورين بالشجاعة ، وإنما يحتاج إلى ثبات القلب ، وألّا يكون هَلِعاً طائرَ(٤) الجَنَان . وكيف يقول المرتضى : إنه صلّى الله عليه وآله لم يكن محتاجاً إلى رأى أحد ، وقد نقل الناسُ كلّهم رجوعَه من رأى إلى رأى عند المَشورة ، نحو ما جرى يومَ بدر من تغيّر المنزل لما أشار عليه الُحبابُ بنُ المنذر ، ونحو ما جرى يوم الخنْدق من فَسْخ رأيه فى دفع ثُلثِ تمر المدينة إلى عُيَيْنة بن حِصْن ليَرجِع بالأحزاب عنهم ، لأجل ما رآه سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عُبادة من الحرب ، والعدول عن الصّلح ، ونحو ما جرى فى تلقيح النخل بالمدينة وغير ذلك ! فأمّا ولايةُ أبى بكر الموسمَ فأكثرُ الأخبار على ذلك ، ولم يَروِ عزلَه عن الموسم إلّا قومٌ من الشيعة .

---

(١) بيتوهم ؛ أى دبروا أمرهم .
(٢) ارتث ، على البناء للمجهول : حمل من المعركة رثيثاً ؛ أى جريحاً وبه رمق .
(٣) الخوار : الضعيف . (٤) الهلع : أفحش الجزع .

وأمّا ماأنكره المرتضى من حال عبّاد بن سليمان ودفعه أن يكون على أخذ براءة من أبى بكر واستغرابه ذلك عجب ، فإنّ قول عبّاد قد ذهب إليه كثيرٌ من الناس ، وروَوْا أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لم يدفع براءة إلى أبى بكر ، وأنه بعد أن نفذ أبو بكر بالحجيج أتبعه عليّا ومعه تسعُ آياتٍ من براءة ، وقد أمره أن يقرأها على الناس ويؤذنهم بنقض العهد وقطع الدنيّة ، فانصرف أبو بكر إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فأعاده على الحجيج ، وقال له : أنت الأمير ، وعلىّ المبلّغ ، فإنه لا يبلّغ عنّى إلا أنا أو رجلٌ منى ، ولم ينكر عبّاد أمر براءة بالكليّة ، وإنما أنكر أن يكون النبىّ صلى الله عليه وآله دفعها إلى أبى بكر ثم انتزعها منه ، وطائفةٌ عظيمة من المحدّثين يروُون ما ذكرناه ، وإن كان الأكثر الأظهرُ أنه دفعها إليه ثم أتبعه بعلىّ عليه السلام فانتزعها منه ؛ والمقصود أنّ المرتضى قد تعجّب مما لا يُتعجّب من مثله ، فظنّ أن عبّادا أنكر حديث براءة بالكلّية ، وقد وقفتُ أنا على ما ذكره عبّاد فى هذه القضية فى كتابه المعروف بكتاب "الأبواب" ، وهو الكتابُ الذى نقضه شيخُنا أبو هاشم ، فأمّا عذر شيخنا أبى علىّ ، وقوله : إن عادة العرب ذلك ، واعتراض المرتضى عليه ، فالذى قاله المرتضى أصحّ وأظهر ، وما نُسب إلى عادة العرب غيرُ معروف ، وإنما هو تأويلٌ تأوّل به متعصبو أبى بكر لانتزاع براءة منه ، وليس بشىء . ولستُ أقول ما قاله المرتضى من أنّ غرض رسولِ الله صلى الله عليه وآله إظهارُ أنّ أبا بكر لا يصلح للأداء عنه ، بل أقول : فعل ذلك لمصلحة رآها ، ولعلّ السبب فى ذلك أن عليّا عليه السلام من بنى عبد مناف وهم جمرةُ قريش بمكّة ، وعلىّ أيضا شجاع لا يُقام له(١) ، وقد حصل فى صُدورِ قريش منه الهيبة الشديدة والمخافة العظيمة ، فإذا حصل مِثل هذا الشجاع البطل وحوله من بنى عمه وهم أهلُ العزّة والقوّة والحميّة ،

(١) ب : « لا يقال » تحريف .

كان أدعى إلى نجاته من قريش ، وسلامة نفسه وبلوغ الغرض من نَبْذ العهد على يده ؟ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله فى عمرة الحُدَيبِيَة بعث عثمان بن عفان إلى مكة يطلب منهم الإذن له فى الدخول ، وإنما بعثه لأنه من بنى عبد مناف ، ولم يكن بنو عبد مناف – وخصوصاً بنى عبد شمس – ليمكِّنوا من قتْله ، ولذلك حمله بنو سعيد ابن العاص على بعير يوم دَخَل مكة وأحدَقُوا به مُسْتلئمين[١] بالسلاح ، وقالوا له : أقبل وأدْبِر ، ولا تَخَفْ أحداً ، بنو سعيد أعزّة الحَرَم . وأما القول فى تولية رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر الصّلاة ، فقد تقدّم ، وما رامه قاضى القضاة من الفَرْق بين صلاة أبى بكر بالناس وصلاة عبد الرحمن بهم ، مع كون رسول الله صلى الله عليه وآله صلّى خلفه ضعيفٌ ، وكلام المرتضى أقوى منه . فأما السؤال الذى سأله المرتضى من نفسه فقوىّ ، والجواب الصحيحُ أن بعث براءة مع أبى بكر كان باجتهاد من الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يكن عن وَحْى ولا من جملة الشرائع التى تُتَلَقّى عن جَبرائيل عليه السلام ، فلم يقبُح نَسخُ ذلك قبلَ تقضّى وقت فعله ، وجواب المرتضى ليس بقوىّ ، لأنه من البعيد أن يُسلِّم سورة براءة إلى أبى بكر ولا يقال له : ماذا تصنع بها ؟ بل يقال : خذْ هذه معك لا غير . والقولُ بأن الكلام مشروطٌ بشرط لم يظهر خلاف الظاهر ، وفتح هذا الباب يُفسِد كثيرا من القواعد .

***

الطعنُ السادس

إن أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة ، فقد قال فى الكَلالة[٢] : أقول

---

(١) المستلئم : لابس اللأمة .

(٢) الكلالة : من لا ولد له ولا والد ، وما لم يكن من النسب لى .

فيها برأيى ، فإن يكنْ صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى[١] ، ولم يعرف ميراثَ الجد ، ومن حالُه هذه لا يَصلُح للإمامة .

أجاب قاضى القضاة بأن الإمام لا يجب أن يعلم جميع الأحكام ، وأنَّ القَدْر الذى يَحتاج إليه هو القَدْر الذى يحتاج إليه الحاكمُ ، وأنّ القول بالرأى هو الواجبُ فيما لا نَصّ فيه ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بالرأى فى مسائل كثيرة .

اعترض المرتضى فقال : قد دللنا على أنّ الإمام لابدّ أن يكون عالما بجميع الشرعيّات ، وفرّقنا بينه وبين الحاكم ، ودللنا على فساد الرأى والاجتهاد . وأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فلم يقل قطُّ بالرأى ، وما يُروَى من خبر بيع أمّهات الأولاد غيرُ صحيح ، ولو صح لجاز أن يكون أراد بالرأى الرجوع إلى النصوص والأدلة ، ولا شُبهة عندنا أنّ قوله كان واحدا فى الحالين[٢] ، وإن ظهر فى أحدها خلاف مذهبه للتقيّة[٣] .

* * *

قلتُ : هذا الطعن مبنىٌّ على أمرين : أحدُها هل من شرط الإمامة أن يعلم الإمامُ كلّ الأحكام الشرعية أم لا ؟ وهذا مذكورٌ فى كتبنا الكلامية ؛ والثانى هو القولُ فى الاجتهاد والرأى حق أم لا ؟ وهذا مذكور فى كتبنا الأصولية .

* * *

الطعنُ السابع

قصّة خالدِ بنِ الوليد وقتلِه مالكَ بن نُوَيْرة ومضاجَعتِه امرأته من ليلته ، وأنّ أبا بكر

---

(١) الشافى : فمنى ومن الشيطان ، ونحو قوله وقد سئل عن قوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، فلم يعرف معناه ، والأب : المرعى فى اللغة ، لا يذهب على أحد له أدنى أنس بالعربية ، ونحو ميراث الجدة وأنه لم يعرف الحكم فيه ، ونظائر ذلك كثيرة معروفة . (٢) ب : « القولين » .
(٣) انظر الشافى ٤٢٢ .

تَرْكَ إقامةَ الحدّ عليه ، وزعم أنّه سيفٌ من سيوف الله سَلّه الله على أعـدائه ، مع أنّ الله تعـالى قد أَوجَب القوَد وحَدّ الزّنا عموما ، وأنّ عمرَ نبّهه وقال له : اقتُله ، فإنه قَتَل مُسلِما .

أجاب قاضِي القُضاة فقال : إنّ شيخنا أبا علىّ قال: إنّ الرِّدّة ظهرتْ من مالكِ بن نُوَيْرة، لأنّه جاء فى الأخبار أنه ردّ صدقاتِ قومِه عليهم لَمّـا بلغه موتُ رسول الله صلى الله عليه وآله كما فعَلَه سائرُ أهل الرّدّة فاستحقّ القتل . فإن قال قائل : فقد كان يصلِّى ، قيل له: وكذلك سائرُ أهل الرّدة ، وإنما كَفَروا بالامتناع من الزكاة، واعتقادِهم إسقاط وجوبها دونَ غيره. فإن قيل : فلِمَ أنـكَرَ عُمر ؟ قيل : كان الأمرُ إلى أبى بكر ، فلا وجهَ لإنـكار عمرَ ، وقد يجوز أن يَعلَم أبو بكر من الحال ما يَخفَى على عمر . فإن قيل : فمـا معنى ما رُوِى عن أبى بكر من أنّ خالدا تأوّل فأخطأ ، قيل : أراد عجَلته عليه بالقَتْل ، وقد كان الواجب عندَه على خالد أن يتَوقّف للشّبهـة . واستدلّ أبو علىّ على رِدته بأنّ أخاه متمِّم ابنَ نُويرة لمّا أنشد عمرَ مَرثِيَّته أخاه قال له : وَدِدتُ أنّى أقولُ الشعر فأرثى أخى زَيْدا بمثل ما رَثيتَ به أخاك ! فقال متمّم : لو قُتِل أخى على مِثل ما قُتِل عليـه أخوك ما رَثَيْتُـهُ ، فقال عمر : ما عزّانى أحدٌ بمِثل تعزِيَتك ، فدَلّ هـذا على أنّ مالـكا لم يُقتَل على الإسلام كما قُتِل زيد .

وأجاب عن تَزْويج خالدٍ بامرأته بأنّه إذا قُتِـل على الردّة فى دار الـكُفْر جاز تزويج امرأتِه عند كثيرٍ من أهـل العلم ، وإن كان لا يجوز أن يَطَأَهـا إلّا بعد الاستبراء .

وحكَى عن أبى علىّ أنه إنّما قتَله لأنّه ذَكَر رسول الله صـلى الله عليه وآله فقال : «صاحبك» ، وأوهَم بذلك أنّه ليس بصاحبٍ له ، وكان عندَه أنّ ذلك ردّة وعلم عند المشاهَدة

القَصد، وهو أميرُ القوم ، فجاز أن يَقتُله وإن كان الأوْلى ألّا يَستَعجِل، وأن يكشف الأمرَ في رِدّته حتّى يتّضح ، فلهذا لم يقتُله أبو بكر به . فأمّا وطؤه لامرأته فلم يَثبُت ، فلا يصحّ أن يُجعل طَعناً فيه [١] .

اعتَرض المرتضَى فقال : أمّامنع خالدٍ في قتل مالك بنِ نُوَيرَة واستباحةِ امرأته وأموالِهِ لنسبتِه إيّاه إلى ردّة لم تظهَر منه ، بل كان الظاهرُ خلافَها من الإسلام ، فعظيم . ويجرى مجراه في العِظم تغافُل من تَغافَل عن أمرِه ، ولم يُقِم فيه حُكمَ الله تعالى ، وأقرّه على الخطأ الّذى شَهِد هو به على نفسه ، ويَجرِى مجراها مَن أمكَنَه أن يَعلَم الحال فأهمَلها ولم يتصفّح ما رُوِى من الأخبار في هذا الباب وتعصّب لأسلافهِ ومذهبه . وكيف يجوز عند خصومِنا على مالك وأصحابِهِ جَحْد الزّكاة مع المقام على الصّلاة ، وهما جميعاً في قَرَن [٢] ! لأنّ العِلم الضروريّ بأنّهما من دينه عليه السلام وشريعتِه على حدّ واحد ، وهل نسبةُ مالكٍ إلى الرّدّة مع ما ذكرناه إلّا قدحٌ في الأصول ونقضٌ لما تضمّنَتْه من أن الزكاة معلومةٌ ضرورةً من دينه عليه السلام . وأعجبُ من كلّ عجيب قولُه : وكذلك سائر أهل الرّدة ، يعنى أنّهم كانوا يصلّون ويَجحَدون الزّكاة ، لأنّا قد بيّنا أنّ ذلك مستحيلٌ غيرُ ممكِن ! وكيف يصحّ ذلك ، وقد رَوَى جميعُ أهل النّقل أن أبا بكر لمّا وَصّى الجيشَ الّذين أنفذَهم بأن يؤذّنوا ويُقيموا ، فإن أذّن القومُ كأذانهم وإقامتِهم كفّوا عنهم، وإن لم يَفعَلوا أغارُوا عليهم، فجعل أمارةَ الإسلام والبراءةَ من الرّدة الأذان والإقامة ! وكيف يُطلِق في سائر أهل الرّدة ما أطلَقه من أنّهم كانوا يصلّون ، وقد علِمنا أنّ أصحابَ مُسَيلِمة وطُلَيحة وغيرِهما ممّن كان ادّعى النبوّة وخَلَع الشّريعة ما كانوا يَرَوْن الصلاة ولا شيأ ممّا جاءت به شريعتُنا . وقصّة مالك معروفةٌ عند من تأمّل كتبَ السِّيَر والنَّقْل ، لأنه كان على صَدَقات قومِه بنى

---

(١) نقله الشافى في المرتضى ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) القرن : الحبل ؛ والكلام على الاستعارة .

يَرْبوع والياً من قِبَل رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ولمّا بلغته وفاةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه أَمسَك عن أخذ الصدقة من قومه وقال لهم : تربّصوا بهـا حتّى يقومَ قائمٌ بعدَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، ونَنظرَ ما يكون من أمرِه ، وقد صرّح بذلك فى شعره حيث يقول :

وقال رجالٌ سَدّد اليــومَ مالكٌ ... وقال رجالٌ مالكٌ لم يسَــدّدِ

فقلت : دَعونى لا أبَا لأبيكُمْ ... فَلم أُخطِ رأياً فى القُام ولا النّدِى

وقلت : خذوا أموالَكم غيرَ خائف ... ولا ناظرٍ فيما يجىء به غَدِى

فدونَكُموها إنّما هى مالُكُمْ ... مصوّرة أخلاقهـا لم تجـدّدِ

سأجعلُ نَفْسى دونَ ما تَحْذَرونه ... وأُرهِنُكم يوماً بما قُلتُـه يَدِى

فإن قامَ بالأمر المجدّد قائمٌ ... أَطعْنا وقلنا : الدّينُ دِينُ محمّدِ

فصرّح كما ترَى أنّه استبقى الصدقَة فى أيدى قومِه رِفقًا بهم وتقرُّبا إليهم ، إلى أن يقومَ بالأمر مَنْ يدفعُ ذلك إليه . وقد رَوَى جماعةٌ من أهل السِّيَر ، وذكره الطبرىّ فى تاريخه ؛ أنّ مالكا نَهَى قومَه عن الأجتماع على مَنْع الصدقات وفرّقهم ، وقال : يا بنى يَرْبوع ، إنّا كنّا قد عصَيْنا أمراءنا إذ دَعَونا إلى هذا الدّين ، وبطّأنا الناسَ عنه ، فلم نُفلِح ولم نَنْجَح ، وإنّى قد نظرتُ فى هذا الأمر فوجدتُ الأمرَ يتأتّى لهؤلاء القوم بغير سياسة ، وإذا أمر لا يسوسُه الناس ؛ فإيّاكم ومُعاداة قـومٍ يُصنَع لهم فتفرّقوا على ذلك إلى أموالهم ، ورجع مالكٌ إلى منزله ، فلمّا قدِم خالدٌ البُطاح بَثّ السرايا وأَمرَهم بداعية الإسلام وأن يأتُوه بكلّ من لم يُجب ، وأمَرَهم إن أُمتَنَع أن يقاتلوه ، فجاءتْه الخيلُ بمالك بن نُوَيرة فى نفرٍ من بـنى يرْبوع ؛ واختلفَ السريّةُ فى أمرهم ، وفى السريّة أبو قتـادة الحارثُ بن ربعىّ ، فـكان ممّن شهد أنّـهم أذّنوا وأقاموا وصَلّوا ، فلما اختلفوا فيهم

أمرَ بِهِم خالد فحُبِسُوا وكانت ليلةً باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالدٌ منادياً يُنادِى: «أدفئوا أسرَاءكم »[٢] ، فظَنّوا أنّهم أمِرُوا بقتْلِهم ، لأنّ هذه اللّفظة تُستعمل فى لغة كِنانةَ للقَتْل، فقتلَ ضِرَارُ بنُ الأَزْوَر مالكا ، وتزوّج خالدٌ زوجتَه أمّ تميم بنت المِنْهال[٣].

وفى خبر آخرَ أنّ السريّة التى بعث بها خالدٌ لمّا غشيت القوم تحتَ اللّيل راعُوهم ، فأخَـذَ القومُ السلاح ! قال : فقلنا : إنا المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون ، قلنا : فما بالُ السِّلاح معكم ! قلنا : فضعوا السلاح ؛ فلمّا وَضَعوا السلاح رَبَطوا أُسارى فأتَوْا بهم خالدا . فحدّث أبو قَتادَةَ خالدَ بن الوليد أنّ القوم نادَوْا بالإسلام ، وأنّ لهم أمانا ، فلم يلتَفِت خالدٌ إلى قولهم وأمرَ بقتْلِهم ، وقسم سَبْيَهم ، وحَلَف أبو قتادة ألّا يسير تحت لواء خالد فى جيش أبداً ، وركِب فرسَه شاذًّا إلى أبى بكر ، فأخبرَه الخبر ، وقال له : إنى نَهَيْتُ خالدا عن قتله ، فلم يَقبَل قَوْلى ، وأخذ بشهادة الأعراب الّذين غرضُهم الغنائم ، وإنّ عمر لمّا سمع ذلك تكلّم فيه عند أبى بكر فأكثر وقال : إنّ القصاص قد وَجَب عليه . ولمّا أقبل خالدُ ابنُ الوليد قافلا دَخَل المسجدَ وعليه قَباءٌ له عليه صَدَأ الحديد ، مُعْتجرا[٤] بعمامة له قد غَرَز فى عمامته أسهُما ، فلمّا دخل المسجدَ قام إليه عمرُ فنَزَع الأسهم عن رأسه فحَطّمها ، ثمّ قال له : فا عدوَّ نَفْسِه ، أعدَوْتَ على امرئٍ مُسلم فقتلته ، ثمّ نَزَوْتَ على امرأته ! واللهِ لنَرْجُمَنَّك بأحجارك . وخالدٌ لا يكلِّمه ، ولا يظنُّ إلا أنّ رأىَ أبى بكر مثلُ رأيه حتّى دخل إلى أبى بكر واُعتذر إليه بعُذره وتجاوز عنه ، فخرج خالدٌ وعمرُ جالسٌ فى المسجد فقال : هَلُم إلىَّ يا بن أمِّ شَمْلة ! فعَرَف عمرُ أن أبا بكر قد رَضِىَ عنه فلم يكلِّمه ، ودخل بيته[٥] .

وقد رُوِى أيضا أنّ عمر لمّا وُلِّىَ جَمَع من عشيرةِ مالكِ بنِ نُوَيْرة مَنْ وَجَد منهم

---

(١) ب : « ادفو » ، صوابه فى د والطبرى . (٢) الطبرى : « أسراءكم » .
(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨ (المعارف) ، مع تصرف واختصار .
(٤) اعتجر العمامة : لبسها . (٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩ . ٢٨٠ .

واُسترجَعَ ما وَجَد عند المسلمين من أموالهم وأولادِهم ونسائهم ، فردّ ذلك عليهم جميعا مع نَصيبه كان منهم . وقيل : إنّه ارتجع بعض نسائهم من نَواحى دِمَشقَ ، وبعضهنّ حوامل ، فردّهن على أزواجهنّ . فالأمر ظاهرٌ فى خطأ خالد ، وخطأ من تجاوَزَ عنه . وقول صاحب الكتاب : إنّه يجوز أن يَخفَى عن عُمرَ ما يظهر لأبى بكر ليس بشىء؛ لأنّ الأمرَ فى قصّة خالد لم يكن مشتبها ، بل كان مُشاهَدا معلوما لكلّ من حَضَره ؛ وما تأوّل به فى القتْل لا يعُذَر لأجله ، وما رأيْنا أبا بكر حَكَم فيه بحكم التأوّل ولا غيره ، ولا تلافَى خطأه وزَلَله ، وكونه سَيْفا من سُيوف الله على ما ادّعاه لا يسقط عنه الأحكام، ويبرّئه من الآثام . وأمّا قول متمّم : لو قُتِل أخِى على ما قُتِل عليه أخوك لما رَثَيْتُه ، لا يدلّ على أنّه كان مرتدّا ، فكيف يَظُنّ عاقلٌ أنّ متمّما يعترف بردّة أخيه وهو يطالب أبا بكر بدَمِه والاقتصاص من قاتليه ، وردّ سبيه ، وأنه أراد فى الجملة التقرّب إلى عمرَ بتقريظ أخيه ! ثمّ لو كان ظاهر هذا القول كباطنه لكان إنّما يقصد تفضيل قِتْلةِ زَيْد على قِتْلة مالك ، والحال فى ذلك أظهر ، لأنّ زيدا قُتِل فى بعث المسلمين ذابّا عن وجُوههم ، ومالكٌ قُتِل على شُبْهة ، وبين الأمرين فرْق .

وأمّا قولُه فى النبىّ صلّى الله عليه وآله: « صاحُبك» فقد قال أهل العلم: إنّه أراد القرشيّة لأنّ خالدا قرشىّ . وبعد ، فليس فى ظاهر إضافته إليه دلالة على نفيه له عن نفسه ، ولو كان علم من مَقصِده الاُستخفاف والإهانة على ما ادّعاه صاحبُ الكتاب لوَجَب أن يعتَذِر خالدٌ بذلك عند أبى بكر وعمرَ ويَعتذر به أبو بكر لمّا طالبه عمرُ بقتْله ، فإنّ عمرَ ما كان يَمْنع من قتل قادحٍ فى نبوّة النبىّ صلى الله عليه وآله ، وإنْ كان الأمر على ذلك فأىّ معنى لقول أبى بكر : تأوّل فأخطأ ! وإنّما تأوّل فأصاب إن كان الأمر على ما ذكر [1] .

***

(١) الشافى ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

قلت : أمّا تعجّب المرتضى من كون قوم منعوا الزكاة وأقاموا على الصلاة ودعْواه أنّ هذا غير ممكن ولا صحيح ، فالعجب منــه كيف يُنْكر وقوع ذلك ، وكيف ينكر إمكانه ! أما الإمكان فلأنه لا ملازمةَ بين العبادتين إلاّ من كونهما مقترنَتيْن في بعض المواضع في القرآن ، وذلك لا يُوجب تلازمهما في الوجود ، أو من قوله : إنّ الناس يَعلَمون كون الزكاة واجبة في دين الإسلام ضرورة ، كما تعلمون كون الصلاة في دين الإسلام ضرورة ، وهذا لا يمنع اعتقادهم سُقوط وجوب الزكاة لشبهة دخلت عليهم . فإنهم قالوا : إن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾(١) قالوا : فوصف الصــدقة المفروضة بأنها صدقة من شأنها أن يطهّر رسول الله صلى الله عليه وآله الناسَ ويزكّيهم بأخذِها منهم ، ثم عقب ذلك بأنْ فرض عليه مع أخْذ الزكاة منهم أن يصلّيَ عليهم صلاةً تكون سكنا لهم . قالوا : وهذه الصّفات لا تتحقق في غيره؛ لأن غيره لا يطهّر الناسَ ويزكّيهم بأخذ الصدقة ، ولا إذا صلى على الناس كانت صلاته سَكَنا لهم ، فلم يجب علينا دفعُ الزكاة إلى غيره . وهذه الشبهة لا تنافي كون الزكاة معلوما وجوبُها ضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله ، لأنهم ما جَحدوا وجوبها ، ولكنهم قالوا : إنه وجوبٌ مشروط ؛ وليس يُعلَم بالضرورة انتفاء كونها مشروطة ، وإنما يُعلَم ذلك بنظر وتأويل ، فقد بان أنّ ما ادّعاه من الضرورة ليس بدالّ على أنه لا يمكن أحد اعتقاد نفي وجوب الزكاة بعد موت الرسول ، ولو عرضَت مِثل هذه الشبهة في صلاة لصحّ لذاهِب أن يَذهب إلى أنها قد سقطت عن الناس ؛ فأمّا الوقوع فهو المعلوم ضرورة بالتواتر ، كالعِلم بأن أبا بكر وَلِي الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ضرورة بطريق التواتُر ، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر في كُتب التواريخ

---

(١) سورة التوبة ١٠٣ .

فإنها تشتمل من ذلك على ما يشفى ويكفى . وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى التاريخ الكبير بإسنادٍ ذكره : إنّ أبا بكر أقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجيهه أسامة فى جيشه إلى حيث قُتِل أبوه زيد بن حارثة لم يحدث شيئًا ، وجاءته وفود العرب مرتدّين يُقِرّون بالصلاة ويمنعون الصدقة ، فلم يقبل منهم وردّهم ، وأقام حتى قدم أسامة بعد أربعين يوما من شُخوصه ، ويقال : بعد سبعين يوما(١) .

وروى أبو جعفر قال : امتنعت العربُ قاطبة من أداء الزّكاة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله إلّا قريشا وثقيفا(٢) .

وروى أبو جعفر ، عن السّرىّ(٣) عن شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عُرْوة ، عن أبيه ، قال : ارتدّت العربُ ومنعت الزّكاة إلّا قريشا وثقيفا ، فأما هوازن فقدّمتْ رِجْلا وأخّرتْ أخرى ، أمسكوا الصدقة(٤) .

وروى أبو جعفر ، قال : لما منعت العربُ الزّكاة كان أبو بكر ينتظر قدوم أسامة بالجيش ، فلم يحارب أحدًا قبل قدومه إلا عَبْسا وذُبْيان ، فإنه قاتلهم قبل رجوع أسامة(٥) .

وروى أبو جعفر ؛ قال : قدمتْ وفودٌ من قبائل العرب المدينه ، فنزلوا على وجوه الناس بها ، ويحمّلونهم إلى أبى بكر أن يقيموا الصّلاة وألّا يُؤتوا الزّكاة ، فعزم اللهُ لأبى بكر على الحقّ ، وقال : لو منعونى عِقال بعيرٍ لجاهدتُهم عليه(٦) .

وروى أبو جعفر شِعْرا للخطيل(٧) بن أوْس ، أخى الحُطَيْئة فى معنى منْع الزّكاة، وأن

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٧٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٢ . (٣) ب : « السدى » ؛ صوابه فى ا ، د وتاريخ الطبرى .
(٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٢ . (٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٣ .
(٦) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ . والعقال : الحبل الذى كان يعقل به البعير الذى كان يؤخذ فى الصدقة
(٧) فى الأصول : « الخطل » ، وصوابه من تاريخ الطبرى .

أبا بكر رَدّ سؤال العرب ولم يُجِبْهم من جُملته :

أطَعْنَا رسولَ الله إذْ كان بيننــا   فيالَعِباد الله ما لأبى بَكْرِ ! [١]

أيُورِثها بَكرًا إذا ماتَ بعــدَه   وتلك لعَمرُ الله قاصمــةُ الظَّهر

فهلَّا رَدَدْتُم وفدنا بإجابةٍ   وهلاّ حسِبْتم منه راغيةَ البَــكْر

فإنّ الذى ســالوكُم فمنعــتمُ   لَكالتمر أو أحْلَى لحلف بنى فِهرْ [٢]

وروى أبو جعفر قال : لما قَدِمت العربُ المدينة على أبى بكر فكلّموه فى إسقاط الزكاة، نزلوا على وجوه الناس بالمدينة فلم يبق أحدٌ إلّا وأنزل عليه ناساً منهم ، إلا العباس ابن عبد المطلب ، ثم اجتمع إلى أبى بكر المسلمون ، نخوّفوه بأس العَرَب واجتماعَها . قال ضِرار بنُ الأزور : فما رأيتُ أحداً — ليس رسول الله — أملأَ بحَرْب شَعْواء من أبى بكر فجعلنا [٣] نخوّفه [٤] ونروّعه، وكأنما إنما نخبره بماله لا ماعليه، واجتمعت كلمةالمسلمين على إجابة العرب إلى ما طلبتْ ، وأبى أبو بكر أن يفعَل إلاّ ما كان يَفعله رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأن يأخذ إلا ما كان يأخذُ ، ثم أجّلهم يوماً وليلة ، ثم أمرَهم بالانصراف ، وطاروا إلى عشائرهم [٥] .

وروى أبو جعفر ، قال : كان رسول الله صلّى عليه وسلم بعث عمرو بن العاص إلى عُمان قبل موته ، فماتَ وهو بعُمان ، فأقبل قافلًا إلى المدينة، فوجد العرب قد منعت الزكاة ، فنزل فى بنى عامر على قُرّة بن هبيرة ، وقرّة يقدِّم رِجْلًا ويؤخّر أخرى ، وعلى ذلك بنو عامر كلّهم إلا الخواصّ . ثم قَدِم المدينة ، فأطافت به قريش ، فأخبرهم أن العساكر مُعسكِرة حولهم ، فتفرّق المسلمون ، وتحلّقوا حَلقا ، وأقبل عمر بن الخطاب ، فمرّ بحَلْقة

---

(١) أورد صاحب الأغانى البيت الأول والثانى (٢ : ١٥٧ — طبعة دار الكتب) ونسبهما إلى الحطيئة.
(٢) الطبرى ٣ : ٢٤٦ ، وفيه : « أو أحلى إلى من التمر » .
(٣) ب : « يجعلنا » ، وصوابه من الطبرى ، د . (٤) الطبرى : « نخبره » .
(٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٨ .

وهم يتحدثون فيما سمعوا من عمرو ، وفى تلك الحلقة علىٌّ وعثمانُ وطلحةُ والزبير وعبد الرحمن ابنُ عوف وسعد ، فلما دنا عمرُ منهم سكتوا ، فقال : فى أىّ شىء أنتم ؟ فلم يُخبروه ؛ فقال : ما أعلمنى بالذى خلوتم عليه ! فغضب طلحةُ وقال : الله يابن الخطاب ! إنك لتعلم الغيب ! فقال : لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكنْ أظنّ قلتم : ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألّا يقرّوا بهذا الأمر . قالوا : صدقت ، فقال : فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوفُ منّى عليكم من العرب [1] .

قال أبو جعفر : وحدّثنى السرىّ ، قال : حدّثنا شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : نزل عمرو بن العاص بمُنصرَفه من عُمَانَ بعد وفاة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم بقُرّة بن هبيرة بن سَلَمة بن يَسِير ، وحولَه عساكرُ من أفنائهم ، فذبح له ، وأكرم منزلته ، فلمّا أراد الرّحلة خلاَ به وقال : يا هذا ؛ إنّ العرب لا تَطِيب لكم أنفسا بالإتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فستَسْمع وتُطيع ، وإن أبيتم فإنها تجتمع عليكم ؛ فقال عمرو : أتُوعِدنا بالعرب وتخوّفنا بها ! موعدُنا حِفْشُ أمّك ، أما والله لأوطئنّه عليك الخيل ، وقدم على أبى بكر والمسلمين فأخبرَهم [2] .

وروَى أبو جعفر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد فرّق عمّاله فى بنى تميم على قَبْض الصدقات فجعل الزِّبرِقانَ بنَ بدر على عَوْف والرِّباب ، وقيس بن عاصم على مُقاعِس والبطون ، وصَفْوان بن صَفْوان وسَبْرة بن عمرو على بنى عمرو ، ومالك بنُ نُوَيرة على بنى حنظلة ، فلمّا تُوُفّى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم ضرَب صفوانُ إلى أبى بكر حين وقَع إليه الخبرُ بموت النبىّ صلّى الله عليه وسلم بصَدقات بنى عمر ، وبما وَلِىَ منها ، وما ولى سَبْرة ، وأقام سَبْرة فى قومه لحدَثٍ إن نابَ ، وأطرَق قيسُ بنُ عاصم ينظُرما الزِّبرقان صانع ؟ فكان له عدوا وقال وهو ينتظره وينتظر ما يصنع : ويلى عليه ! ما أدرى ما أصنع إن أنا

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ . (٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٥٩ .

بايعتُ أبا بكر وأتيته بصَدَقات قومى خلّفنى فيهم فساءنى عندهم ، وإن رددتُها عليهم فليأتينّ أبا بكر فيسوءنى عندَه ، ثمّ عزم قيسٌ على قسمتِها فى مُقاعِس والبُطون، ففعل وعزّم الزّبرقان على الوَفاء ، فأتبع صَفْوان بصدَقات عَوْف والرّباب حتّى قَدِم بها المدينة وقال شعرا يُمرِّض فيه بقَيْس بن عاصم ، ومن جملته :

وفيتُ بأذْوَادِ الرّسول وقد أبَتْ سُعاةٌ فلم يَرْدُدْ بِعيراً أميرُهَا

فلمّا أرسل أبو بكر إلى قيسٍ العلاء بنَ الحضْرمىّ أخرَج الصدقة ، فأتاه بها وقَدِم معه إلى المدينة (١) .

وفى تاريخ أبى جعفر الطّبرىّ من هذا الكثير الواسع ، وكذلك فى تاريخ غيره من التواريخ ، وهذا أمرٌ معلوم بالاضطرار ، لا يجوزُ لأحد أن يُخالِف فيه .

فأمّا قوله: كيف يصحّ ذلك، وقد قال لهم أبو بكر: إذا أذّنوا وأقاموا كأذانكم وإقامتكم، فكفّوا عنهم ، فجعل أمارةَ الإسلام والبراءة من الرّدّة الأذان والإقامة ، فإنّه قد أسقط بعضَ الخبر ؛ قال أبو جعفر الطبرىّ فى كتابه : كانت وصيّته لهم : إذا نزَلتم فأذِّنوا وأقيموا، فإن أذَّن القومُ وأقاموا فكُفّوا عنهم، فإن لم يَفعلوا فلا شىء إلّا الغارة، ثمّ اقتلوهم كلّ قتلة ؛ الحرْق فما سواه ، وإن أجابوا داعيةَ الإسلام فاسألوهم ، فإنْ أقرّوا بالزّكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبَوْا فلا شىءَ إلّا الغارة ، ولا كَلِمة(٢) .

فأما قوله : وكيف يُطلق قاضى القضاة فى سائر أهلِ الرّدّة ما أطلقه من أنّهم كانوا يصلّون ومن جملتهم أصحابُ مُسيلمة وطلحة ! فإنّما أراد قاضى القضاة بأهل الرّدّة هاهنا مانِعِى الزّكاة لا غير ، ولم يُرِد مَن جَحَد الإسلام بالكلّية .

فأمّا قصّة مالكِ بن نُوَيرة وخالدِ بنِ الوليد فإنّها مشتبهة عندى ، ولا غرْوَ فقد اشتَبهتْ على الصّحابة، وذلك أنّ مَنْ حضرها من العَرَب اختلفوا فى حال القوم: هل كان

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ . (٢) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩ .

عليهم شِعارُ الإسلام أولا ؟ واُختلف أبو بكر وعمرُ فى خالدٍ مع شدّة اتفاقهما ، فأما الشِّعر الذى رواه المرتضَى لمالكِ بنِ نُوَيرَة فهو معروف إلّا البيتَ الأخير ، فإنه غـيرُ معروف ، وعليه عُمدة المرتضَى فى هذا المقام ، وما ذَكَره بعدُ من قصّة القوم صحيح كلُّه مُطابِق لما فى التواريخ إلّا مُوَيْضعاتٍ يسيرة :

منها قولُه : إنّ مالكا نَهى قومَه عن الاُجتماع على مَنْع الصدقات ، فإنّ ذلك غيرُ منقول وإنّما المنقولُ أنه نَهى قومَه عن الاجتماع فى موضع واحد ، وأمرَهم أن يتفرّقوا فى مِياهِهم ؛ ذَكَر ذلك الطبرىّ ولم يذكر نَهْيَه إيّاهم عن الاُجتماع على مَنْع الصدقة ، وقال الطبرىّ : إنّ مالكا تردّد فى أمرِه : هل يَحمِل الصّدقات أم لا ؟ فجاءه خالد وهو متحيِّر سبِح .

ومنها أنّ الطبرىّ ذَكَر أنّ ضِرار بنَ الأزْوَر قتَل مالكا عن غيرِ أمرِ خالد ، وأنّ خالدا لمّا سَمِع الواعيةَ خرج وقد فرَغوا منهم ، فقال : إذا أراد اللهُ أمراً أصابه ؛ قال الطبرىّ : وغَضِب أبو قتادة لذلك ، وقال لخالد : هذا عَمَلُك ! وفارَقه وأتَى أبا بكر فأخبرَه فغَضِب عليه أبو بكر حتّى كلّمه فيه عُمَر ، فلم يَرْضَ إلّا أن يَرْجع إلى خالد ، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة[1] .

ومنها أنّ الطبرىّ رَوَى أنّ خالدا لمّا تزوّج أمّ تميم بنتَ المِنهال امرأةَ مالك لم يَدخُل بها وترَكها حتى تقضىَ طُهرَها ، ولم يَذكُر المرتضَى ذلك .

ومنها أنّ الطبرىّ رَوَى أنّ متمِّما لمّا قدِم المدينةَ طَلب إلى أبى بكر فى سَبْيِهم ، فكتب له بردّ السَّبْى ؛ والمُرتضَى ذَكَر أنّه لم يَرِد إلّا فى خلافة عمرَ .

فأمّا قولُ المرتضَى : إنّ قولَ متمِّم: لو قُتِل أخى على مِثل ما قُتِل عليه أخوك لما رَثَيْتُه،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨ .

لا يدلّ علی ردّته ، فصحيح ، ولا رَيْب أنّه قصد تقريظَ زَيْد بن الخطّاب وأن يُرضِيَ عمرُ أخاه بذلك . ونعِمّا قال المرتضى ! إنّ بين القِتْلَتين فرقا ظاهرا ، وإليه أشارَ متمّم لا محالةَ .

فأمّا قولُ مالك : صاحبُك، يعنى النبيَّ صلى الله عليه وآله ، فقد رَوَى هذه اللفظة الطبريُّ فى التاريخ ، قال : كان خالدٌ يَعتذِر عن قَتْله ، فيقول : إنّه قال له وهو يراجعُه : ما إخالُ صاحبَكم إلّا قال كذا وكذا ، فقال له خالد : أوَ ما تعدّه لك صاحبا[1] ! وهذه لَعمرى كلمةٌ جافِية ؛ وإن كان لها مَخرَج فى التأويل ، إلّا أنّه مُستكْرَه ، وقرائنُ الأحوال يَعرِفها مَن شاهدَها وسَمِعها ، فإذا كان خالدٌ قد كان يَعتذِر بذلك ، فقد أندفعَ قولُ المرتضَى : هلّا اعتذَر بذلك ! ولستُ أنزّه خالدا عن الخطأ ، وأعلم أنّه كان جبّارا فاتِكاً لا يُراقِب الدّين فيما يَحمله عليه الغضب وهوَى نفسه ، ولقد وَقَع منه فى حياةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله مع بنى جذيمة بالغُمَيْصاء أعظمُ ممّا وَقَع منه فى حقّ مالِك بن نُوَيرة ، وعَفا عنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله بعدَ أن غَضِب عليه مُدّة وأَعرَض عنه ، وذلك العفوُ هو الّذى أطمَعه حتى فَعَل ببنى يَرْبوع ما فَعَل بالبُطاح .

***

الطعن الثامن

قولُهم : إنّ مما يُؤثَر فى حاله وحالِ عمَر دَفنَهما معَ رسول الله صلى الله عليه وآله فى بَيْتِه ، وقد منع الله تعالى الكلّ من ذلك فى حال حياتِه ـ فكيف بعدَ المَمات ـ بقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾[2] .

أجاب قاضى القضاة بأن الموضِعَ كان مِلْكا لعائشة ، وهى حُجْرتها التى كانت

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٨٠ . (٢) سورة الأحزاب ٥٣ .

معروفةً بها ، والحجَرُ كلُّها كانت أملاكاً لأزواج النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وقد نطق القرآنُ بذلك فى قولِه : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾(١) ، وذكر أنّ عمرَ استأذَنَ عائشةَ فى أن يُدفَن فى ذلك الموضع ، وحتّى قال : إن لم تأذَنْ لى فادفِنونى فى البَقيع ، وعلى هذا الوجهِ يُحمَل ما رُوِى عن الحَسَن عليه السلام أنه لمّا مات أوصَى أن يُدفَن إلى جَنْب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، وإن لم يترك ففى البَقيع ، فلمّا كان مِن مَروانَ وسعيد بن العاص ما كان دُفِن بالبَقيع . وإنما أوصَى بذلك بإذْن عائشةَ ؛ ويجوز أن يكون علم من عائشة أنّها جعلتْ الموضعَ فى حُكم الوَقْف ، فاستباحوا ذلك لهذا الوجه ؛ قال : وفى دَفْنه عليه السلام فى ذلك الموضع ما يدلّ على فَضْل أبى بكر ؛ لأنّه عليه السلام لمّا مات اُختلفوا فى موضع دَفْنه ؛ وكَثُر القولُ حتّى رَوَى أبو بكر عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال ما يدلّ على أنّ الأنبياء إذا ماتوا دُفِنوا حيث ماتوا ، فزال الخلافُ فى ذلك(٢) .

اعترضَ المرتضَى فقال : لا يخلو موضعُ قبر النبيّ صلّى الله عليه وآله من أن يكون باقياً على مِلْكه عليه السلام ، أو يكون انتقل فى حياته إلى عائشةَ على ما ادّعاه ؛ فإن كان الأوّل لم يخلُ أن يكونَ ميراثاً بعدَه أو صدقة ؛ فإن كان ميراثاً فما كان يحلّ لأبى بكر ولا لعمَر من بعده أن يأمرا بدفنهما فيه إلّا بعد إرضاء الوَرَثة الّذين هم على مَذْهَبنا فاطمة وجماعةُ الأزواج ، وعلى مذهبهم هؤلاء والعبّاس ، ولم نَجِد واحداً منهما خاطبَ أحداً من هؤلاء الوَرَثة على ابتياع هذا المكان ولا استنزله عنه بثمن ولا غيره . وإن كان صدقة فقد كان يَجب أن يُرْضى عنه جماعةَ المسلمين ويبتاعَه منهم ؛ هذا إن جاز الابتياع لما يَجرِى هذا المجرى ، وإن كان انتقل فى حياته فقد كان يَجب أن يظهر سبب انتقاله والحجّة فيه ، فإنّ فاطمة عليها السلام لم يَقنَع منها فى انتقال فَدَك إلى مِلْكها بقوْلها ، ولا بشهادة من

---

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ . (٢) نقله المرتضى فى الشافى ٤٢٤ .

شَهِدَها. فأمّا تعلّقه بإضافة البيوت إليهنّ فى قوله : ﴿ وقَرْن فى بيُوتِكُنّ ﴾ ؛ فمن ضعيف الشُّبهة؛ لأنّا قد بيّنا فيما مضى من هــذا الكتاب أن هذه الإضافة لا تقتضِي الملك ، وإنما تقتضِي السُّكْنى، والعادة فى استعمال هذه اللفظة فيما ذكرْناه ظاهرة، قال تعالى: ﴿لا تُخْرِجُوهُنّ من بيُوتِهن ﴾[1]؛ ولم يُرِد اللهُ تعالى إلاّ حيث يسكنّ وينزلن دُون حيث يملكن وما أشبهه، وأظرف من كل شىء تقدّم قولُه : إنّ الحسن عليه السلام استأذن عائشة فى أن يُدفن فى البيت حتّى مَنَعه مروانُ وسعيدُ بن العاص ؛ لأنّ هذه مكابرة منه ظاهرة ، فإنّ المانع للحَسَن عليه السلام من ذلك لم يكن إلاّ عائشة ، ولعلّ من ذِكْره من مروان وسعيــد وغيرهما أعانها واتّبَع فى ذلك أمرَها ، وروى أنها خرجت فى ذلك اليوم على بغل حتى قال ابن عباس : يوماً على بَغْل ويوماً على جمل ! فكيف تأذن عائشة فى ذلك ، وهى مالكةُ الموضع على قولهم ، ويمنع منه مروان وغيره ممّن لا ملكَ له فى الموضع ولا شَرِكة ولا يد ! وهذا من قبيح[2] ما يرتكب . وأىّ فضل لأبى بكر فى روايته عن النبىّ صلّى الله عليه وآله حديث الدّفن ! وعملهم بقوله إنْ صحّ فمن مذهب صاحب الكتاب وأصحابه العمــل بخبر الواحد العَدْل فى أحكام الدّين العظيمة ، فكيف لا يعمل بقول أبى بكر فى الدفن وهم يَعملون بقول مَن هُو دونه فيما هو أعظم من ذلك[3] !

***

قلت : أمّا أبو بكر ؛ فإنه لا يلحقه بدَفْنِه مع الرّسول صلّى الله عليه وآله ذمٌّ ؛ لأنه ما دَفَن نفسَه ، وإنما دفنه الناسُ وهو ميّت ، فإن كان ذلك خطأً فالإثم والذّمّ لاحقان بمن فعل به ذلك ، ولم يَثْبُت عنه بأنّه أوصَى أن يُدفن مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وإنّما قد يُمكن أن يتوجّه هذا الطعن إلى عمر ، لأنه سأل عائشة أن يُدفَن فى الحُجْرة مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وأبى بكر . والقولُ عندى مشتبه فى أمر حُجَر الأزواج:

(١) سورة الطلاق ١ . (٢) الشافى : « أقبح » . (٣) الشافى ٤٢٤ .

هل كانت على مِلْك رسولِ الله صلى الله عليه وآله إلى أن تُوفّى، أم مَلَكَها نساؤه ؟ والذى تنطِقُ به التواريخُ أنّه لمّا خرج من قُباء ودخَلَ المدينة وسكَن منزل أبى أيّوب ، اختطّ المسجد واختَطّ حُجَر نسائه وبناته ، وهذا يدلّ على أنّه كان المالك للمواضع ، وأمّا خروجُها عن ملكه إلى الأزواج والبنات فممّا لم أقِفْ عليه . ويجوز أن تكونَ الصحابةُ قدفهمت من قرائن الأحوال وممّا شاهدوه منه عليه السلام ؛ أنّه قد أقرّ كلّ بيت منها فى يدِ زوجةٍ من الزّوجات على سبيل الهبة والعَطيّة ، وإن لم يُنقل عنه فى ذلك صيغةُ لفظ مُعيّن ، والقولُ فى بيتِ فاطمةَ عليها السلام كذلك ، لأنّ فاطمة عليها السلام لم تكن تملك مالًا ، وعلىّ عليه السلام بَعْلُها كان فقيراً فى حياةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله حتى إنه كان يَستَقى الماء ليَهُود بيَدِه ، يَسقِى بساتينَهم لقُوتٍ يدفعونَه إليه ، فمن أين كان له ما يبتاعُ به حُجرةً يَسكُن فيها هو وزوجتهُ[1] ! والقولُ فى كثيرٍ من الزّوجات كذلك أنّهنّ كنّ فقيراتٍ مُدْقِعات ، نحو صفيّة بنت حُيَى بن أَخْطب ، وجُوَيْرِية بنت الحارث ، وميمونة ، وغيرهنّ ، فلا وجه يُمكِن أن يتملّك منه هؤلاء النّسوة والبنتُ الحُجَر ؛ إلّا أن يكون رسولُ الله صلى الله عليه وآله وَهبها لهنّ ؛ هذا إن ثبتَ أنها خرجتْ عن مِلْكيّته عليه السلام ، وإلّا فهى باقيةٌ على مِلْكيّته باستصحاب الحال . والقولُ فى حُجْرة زينبَ بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله كذلك ، لأنّه أقدَمَها من مكّة مفارقةً لبعلِها أبى العاص بنِ الرّبيع ، فأسكنها بالمدينة فى حُجْرة منفردة خاليةٍ عن بَعْل ، فلابدّ أن تكون تلك الحجرةُ بمقتضى ما يتغلّب على الظنّ ملكا له عليه السلام ، فيُستدام الحكم بملكه لها إلى أن نجد دليلا يَنْقُلنا عن ذلك . وأمّا رقيّة وأمّ كُلْثوم زوجتا عثمانَ، فإن كان مُثْرِيا ذا مال فيجوز أن يكون ابتاع حُجْرَةً سكنت فيها الأولى منهما ، ثمّ الثانيةُ بعدَها .

---

(١) ب : « زوجة » .

فأمّا احتجاجُ قاضي القضاة بقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ ؛ فاعتراضُ المرتضى عليه قويّ ، لأنّ هذه الإضافة إنما تقتضي التّخصيص فقط لا التّمليك ، كما قال: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾[١] ؛ ويجوز أن يكون أبو بكر لمّا رَوَى قوله : « نحن لا نورث » ترَك الحِجَر في أيدي الزّوجات والبنت على سبيل الإقطاع لهنّ لا التمليك ، أي أباحهنّ السُّكْنى لا التصرّف في رقاب الأرض والأبنية والآلات ، لما رأى في ذلك من المصلحة ، ولأنّه كان من التهجّن القبيح إخراجُهنّ من البُيوت ، وليس كذلك فدك ؛ فإنها قرية كبيرة ذاتُ نخل كثير خارجة عن المدينة ، ولم تسكن فاطمة متصرّفة فيها من قِبَل نفسها ولا بوكيلها ، ولا رأتْها قطّ ، فلا تُشبِه حالُها حالَ الحُجَر . وأيضاً لإباحة هذه الحجر وتزارة أثمانهنّ ، فإنها كانت مبنيّة من طين قصيرة الجدران ، فلعلّ أبا بكر والصّحابة استحقَروها ، فأقرّوا النّساء فيها وعوّضوا المسلمين عنها بالشيء اليسير ممّا يقتضي الحساب أن يكون من سهم الأزواج والبنت عند قسْمة الفَيْء .

وأمّا القولُ في الحسَن وما جرَى من عائشة وبني أميّة فقد تقدّم ؛ وكذلك القولُ في الخبر المَروِيّ في دَفْن الرسول صلّى الله عليه وآله ، فكان أبو المظفّر هبة الله بن الموسوىّ صدر المخزن المعمور ، كان في أيّام الناصر لدين الله إذا حادثته حديث وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ورواية أبي بكر ما رواه من قوله عليه السلام : « الأنبياء يُدفنون حيث يمُوتون » ، يحلف أنّ أبا بكر افتعل هذا الحديث في الحال والوقت ، ليُدفن النبيّ صلى الله عليه وآله في حُجرة ابنته ، ثم يُدفَن هو معه عند موته ، علما منه أنه لم يبق من عمره إلّا مثل ظِمْء[٢] الحمار ، وأنّه إذا دُفن النبيّ صلى الله عليه وآله في حُجرة ابنته فإن ابنته تدْفِنه لا محالة في حُجْرتها عند بَعْلها ، وأنّ دَفْن النبيّ صلى الله عليه وآله في موضع

(١) سورة الطلاق ١ .

(٢) يقال : ما بقى منه إلا ظمء الحمار ؛ أى شيء يسير لأنه ليس شيء أقصر ظمئاً منه .

آخرَ فربّما لا يتهيّأ له أن يُدفَن عنده ، فرأى أنّ هــذا الفوزَ بهذا الشّرف العظيم ، وهذا المكان الجليل ، ممّا لا يَقتضِي حسن التّدبير فوته ، وإن انتهاز الفرصة فيــه واجب ، فرَوَى لهم الخبرَ ، فلا يُمكنهم بعدَ روايته ألّا يعمَلوا به ، لاسيّما وقد صار هو الخليفة ، وإليه السلطان والنفع والضّرر ، وأدرَكَ ما كان فى نفسه ، ثمّ نَسَج عمرُ على منواله ، فرَغِب إلى عائشةَ فى مثل ذلك ، وقد كان يُكرِمها ويقدِّمها على سائر الزّوجات فى العطاء وغيره ، فأجابته إلى ذلك ، وكان مُطاعاً فى حياته وبعد مماته ، وكان يقول : واعجباً للحَسَن وطمَعِه فى أن يُدفَن فى حُجْرة عائشــة ! والله لو كان أبوه الخليفةَ يومئذ لما تهيّأ له ذلك ، ولا تمّ لبُغض عائشةَ لهم ، وحسد الناس إيّاهم ، وتمالؤ بنى أميّة وغيرهم من قريش عليهم ! ولهذا قالوا : يُدفَن عثمانُ فى حَشّ كوكب[1] ، ويُدفَن الحسَن فى حُجْرة رسول الله صلّى الله عليــه وسلم ، فكيف والخليفةُ معاويةُ والأمراء بالمدينة بنو أميّة ، وعائشةُ صاحبةُ الموضع ، والناصرُ لبنى هاشم قليــل ، والشانئ كثير .

وأنا أستغفر اللهَ ممّا كان أبوالمظفّر يَحلِف عليه ، وأَعلَم وأظنّ ظنّا شبيها بالعلم أنّ أبا بكر ما رَوَى إلّا ما سَمِــع ، وأنّه كان أتقى لله من ذلك .

***

الطعن التاسع

قولُهم : إنّه نصّ على عمرَ بالخلافة ؛ فخالَف رسول الله صلّى الله عليه وآله على زَعْمه ، لأنّه كان يزعُم هو ومن قال بقوله أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله لم يستخلِف .

---

(١) حش كوكب : موضع بالمدينة .

والجواب أن كونه لم يستخلف لا يدلّ على تحريم الاستخلاف ، كما أنه من لم يركب الفيل لا يدلّ على تحريم رُكوب الفيل . فإن قالوا : ركوبُ الفيل فيــه منفعة ولا مضرّة فيه ولم يردْ نصّ بتحريمه ، فوجب أن يحسن . قيل لهم : والاستخلاف مصلحة ، ولا مضرّة فيه ؛ وقد أجمع المسلمون أنه طريق إلى الإمامة ، فوجب كونه طريقاً إليها ، وقد رُوى عن عمر أنه قال : إن أستخلِف فقد استخلف من هو خير منّى - يعنى أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خيرٌ منى - يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله . فأما الاجتماع المشار إليه فهو أنّ الصحابة أجمعوا على أنّ عمرَ إمامٌ بنصّ أبى بكر عليــه ، وأنفذوا أحكامه ، وانقادوا إليه لأجل نصّ أبى بكر لا لشىء سواه ، فلو لم يكن ذلك طريقا إلى الإمامة لما أطبقوا عليه . وقد اختلف الشيخان أبو علىّ وأبو هاشم فى أن نصّ الإمام على إمامٍ بعده : هل يكفى فى انعقاد إمامته ؟ فقال أبو علىٍّ : لا يكفى ، بل لا بدّ من أن يرضى به أربعــةٌ حتى يجرى عهده إليه مجرى عقد الواحد برضا أربعة ؛ فإذا قارنه رضا أربعة صار بذلك إماما ، ويقول فى بيعة عمر : إن أبا بكر أحضر جماعة من الصحابة لما نصّ عليه ، ورجع إلى رضاهم بذلك ، وقال أبو هاشم : بل يكفى نصّه عليه ، ولا يُراعى فى ذلك رضا غيره به ، ولو ثبت أنّ أبا بكر فعله لكان على طريق التّبع للنصّ ، لا أنه يؤثر فى إمامته مع العهد ؛ ولعل أبا بكر إن كان فعل ذلك فقد استطاب به نفوسهم ، ولهذا لم يؤثر فيه كراهية طلحة حين قال : ولّيت علينا فَظًّا غليظا . ويبين ذلك أنه لم ينقل استئناف العقد من الصحابة لعمر بعد موت أبى بكر ولا اجتماع جماعة لعقد البيْعة له ، والرضا به ، فدلّ على أنهم اكتفوا بعهد أبى بكر إليه .

***

الطعن العاشر

قولهم : إنه سمّى نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لاستخلافه إياه بعد موته ، مع اعترافه أنه لم يستخلفه .

والجواب أن الصحابة سمته خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته ، والاستخلاف على الصّلاة عند الموت له مزيّة على الاستخلاف على الصلاة حال الحياة ، لأن حال الموت هى الحال التى تكون فيها العهودُ والوصايا وما يهتم به الإنسان من أمور الدّنيا والدين ، لأنها حالُ المُفارقة . وأيضا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما استخلف أحدا على الصّلاة بالمدينة وهو حاضر ، وإنما كان يستخلف على الصلاة قوما أيّام غَيْبته عن المدينة ، فلم يحصل الاستخلاف المطلق على الصلاة بالناس كلهم ، وهو صلى الله عليه وآله حاضرٌ بين الناس حيّ إلّا لأبى بكر ، وهذه مزيّةٌ ظاهرة على سائر الاستخلافات فى أمر الصلاة ، فلذلك سمّوه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله .

وبعد ، فإذا ثبت أنّ الإجماع على كون الاختيار طريقا[1] إلى الإمامة وحجّة ، وثبت أن قوما من أفاضل الصحابة اختاروه للخلافة ، فقد ثبت أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لا فرق بين أن ينصّ الرسولُ صلى الله عليه وآله على شخص معين ، وبين أن يشير إلى قوم فيقول : مَن اختار هؤلاء القوم فهو الإمام ؛ فى أنّ كلّ واحد منهما يصح أن يُطلق عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله[2] .

* * *

(١) ا : « سبيلا » .

الطعن الحادى عشر

قولهم : إنه حرق الفُجاءة السُّلَمِىّ بالنار ، وقد نهى النبىُّ صلى الله عليه وآله أن يُحرق أحد بالنار .

والجواب أن الفُجاءة جاء إلى أبى بكر كما ذكر أصحابُ التواريخ فطلب منه سلاحا يتقوّى به على الجهاد فى أهل الردّة ، فأعطاه ، فلما خرج قطع الطريق ونهب أموال المسلمين وأهل الرّدّة جميعا ، وقتل كلَّ من وَجَد ، كما فعلت الخوارجُ حيث خرجتْ ، فلما ظفّر به أبو بكر رأى حَرْقه بالنار إرهابا لأمثاله من أهل الفساد ، ويجوز للإمام أن يخصّ النصّ العام بالقياس الجلِىّ عندنا[١] .

***

الطعن الثانى عشر

قولهم : إنه تكلم فى الصلاة قبل التسليم ، فقال : لا يفعلنّ خالد ما أمرته ؛ قالوا : ولذلك جازَ عند أبى حنيفة أن يخرج الإنسانُ من الصلاة بالكلام وغيره من مفسدات الصلاة من دون تسليم ، وبهذا احتجّ أبو حنيفة .

والجواب أن هذا من الأخبار التى تتفرّد بها الإمامية ، ولم تثبت ؛ وأما أبو حنيفة فلم يذهب إلى ما ذَهب إليه لأجل هذا الحديث ، وإنما احتجّ بأن التسليم خطاب آدمىّ ، وليس هو من الصلاة وأذكارها ، ولا من أركانها ، بل هو ضدّها ، ولذلك يبطلها قبل التمام ، ولذلك لا يسلّم المسبوق تبعاً لسلام الإمام، بل يقوم من غير تسليم ؛ فدلَّ على أنه ضدّ للصلاة وجميع الأضداد بالنسبة إلى رَفْع الضّدّ على وتيرة واحدة ، ولذلك استوى الكلّ فى

---

(١) الجلى : الواضح .

الإبطال قبل التمام ، فيستوى الكلّ فى الانتهاء بعد التمام . وما يذكره القوم من سبب كلام أبى بكر فى الصلاة أمرٌ بعيد ، ولو كان أبو بكر يريد ذلك لأمر خالدا أن يفعل ذلك الفعل بالشخص المعروف وهو نائم ليلاً فى بيته ، ولا يعلم أحد مَن الفاعل .

* * *

الطعن الثالث عشر

قولهم : إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو عَلَى الشام يأمره أن يقتل سعد بن عُبادة ، فكمن له هو وآخرُ معه ليلا ، فلما مرّ بهما رَمَيَاه فقتلاه ، وهتف صاحبُ خالد فى ظلام الليل بعد أن ألقيَا سعدا فى بئر هناك فيها ماء بيتين :

نحن قتلْنا سيد الخز　　　رج سعد بن عُبادهْ

ورمَيْناه بسهمين　　　ن فلم تُخْطِ فؤاده

يوهم أنّ ذلك شعر الجنّ ، وأن الجنّ قتلتْ سعدا ، فلما أصبح الناس فقدوا سعدا ، وقد سمع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه ، فوجدوه بعد ثلاثة أيام فى تلك البئر ، وقد اخضرّ ، فقالو : هذا مَسيس الجن ؛ وقال شيطانُ الطاق لسائل سأله : ما منع عليا أن يُخاصم أبا بكر فى الخلافة ؟ فقال : يابن أخى ، خاف أن تقتله الجنّ .

والجواب، أما أنا فلاأعتقد أنّ الجن قتلتْ سعدا ، ولاأنّ هذا شعرُ الجنّ،ولا أرتاب أن البشر قتلوه ، وأنّ هذا الشعر شعر البشر ، ولكن لم يثبت عندى أن أبا بكر أمَرَ خالدا، ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه ليرضيَ بذلك أبا بكر — وحاشاه — فيكون الإثم على

خالد ، وأبو بكر برىء من إثمه ؛ وما ذلك من أفعال خالد ببعيد .

***

الطعن الرابع عشر

قولُهم : إنّه لمّا اُستخلف قطَعَ لنفسه على بيت المال أُجرةً كلّ يوم ثلاثة دراهم ، قالوا: وذلك لا يجوز ، لأنّ مَصارِف أموالِ بيتِ المسلمين لم يُذكَر فيها أُجرةٌ للإمام .

والجواب أنّه تعالى جعَلَ فى جملة مصرف أموالِ الصّدقات العامِلين عليها، وأبو بكر من العاملين . واُعلم أنّ الإماميّة لو أنصفتْ لرأتْ أنّ هذا الطّعن بأن يكونَ من مَناقب أبى بكر أولَى من أن يكون من مَساوِيه (١) ومَثالِبه ، ولـكنّ العَصَبيّة لا حِيلة فيها.

***

الطن الخامس عشر

قولُهم: إنّه لمّا اُستخلف صَرَخ منادِيه فى المدينة : من كان عنده شىء من كلامِ الله فليأتِنا به ؛ فإنا عازِمون على جَمْع القرآن ، ولا يأتِنا بشىء منه إلّا ومعه شاهدَا عَدْل ؛ قالوا: وهذا خطأٌ ، لأنّ القرآن قد بان بفصاحتِه عن فصاحة البَشَر ، فأىّ حاجةٍ إلى شاهدَىْ عَدْل !

والجواب، أنّ المرتضَى ومَن تابَعَه من الشِّيعة لا يصحّ لهم هذا الطعن؛ لأنّ القرآن عندهم ليس مُعجزا بفَصاحتِه ، على أنّ من جعل معجزتَه للفصاحة لم يقُل : إنّ كلّ آية من القرآن هى مُعجِزة فى الفصاحة ، وأبو بكر إنّما طَلَب كلّ آية من القرآن لا السّورة بتمامِها وكمالِها الّتى يتحقّق الإعجاز من طريق الفَصاحة فيها . وأيضـا فإنّه لو أحضَر إنسانٌ آيةً أو آيتين ولم يكن معه شاهد ، فربّمـا تَختلف العربُ : هل هذه فى الفصاحة بالغةٌ

---

(١) ا : « عيوبه » .

مبلَغ الإعجاز الكلّيّ ، أم هي ثابتةٌ من كلام العرب بثبوته ؛ غيرَ بالغة إلى حدّ الإعجاز ؟ فكان يلتبسُ الأمرُ ويَقع النّزاع ، فاستَظهَر أبو بكر بطلب الشّهود تأكيدا ، لأنّه إذا انضمّت الشهادةُ إلى الفصاحة الظاهرة ثبَتَ أنّ ذلك الكلامَ من القرآن .

* * *

الأصلُ :

ومن هذا الكتاب :

إِنِّي وَاللهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طِلَاعُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا اسْتَوْحَشْتُ ؛ وَإِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ ، وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي ، وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي . وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللهِ لَمُشْتَاقٌ ، وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ ؛ وَلَكِنَّنِي آسَى أَنْ يَلِيَ هٰذِهِ الْأُمَّةَ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلًا ، وَعِبَادَهُ خَوَلًا ، وَالصَّالِحِينَ حَرْبًا ، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبًا ؛ فَإِنَّ مِنْهُمُ الَّذِي شَرِبَ فِيكُمُ الْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدًّا فِي الْإِسْلَامِ . وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ الرَّضَائِخُ ؛ فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ وَتَأْنِيبَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدِ انْتَقَصَتْ ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدِ افْتُتِحَتْ ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تُزْوَى ، وَإِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى !

انْفِرُوا رَحِمَكُمُ اللهُ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَثَّاقَلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِالْخَسْفِ ، وَتَبُوءُوا بِالذُّلِّ ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ الْأَخَسَّ ؛ وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُ وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ ؛ وَالسَّلَامُ .

الشَّرح :

طِلاع الأرض : ملؤُها ، ومنـه قولُ عمر : لو أنّ لى طِلاعَ الأرض ذهبا لافتديتُ به من هَوْل المُطَّلَع .

وآسَى : أحزَن .

وأكثرت تأليبَكم : تَحرِيضَكم وإغراءكم به . والتأنيب : أشدّ اللّوم .

وونَيْتم : ضَعُفتم وفَترتم . وتَمالِكُكم تزوَى ، أى تُقبَض .

ولا تثّاقلوا ، بالتّشديد ، أصلُه « تَتَثاقلوا » . وتقرّوا بالخسف : تَعترفوا بالضَّيم وتَصبروا له . وتبوءوا بالذلّ : تَرجِعوا به . والأرِق : الّذى لا ينام . ومِثلُ قولِه عليه السلام : « من نام لم يُنَم عنه » قولُ الشاعر :

لله دَرُّكَ ما أردتَ بثـائرٍ حرّانَ ليس عن التِّراتِ براقدِ(١)

أسهرْتَه ثم اضطجَعْتَ ولم يَنَمْ حَنَقا عليك وكيف نَوْمُ الحاقدِ !

فأمّا الذى رُضِخت له على الإسلام الرّضائخ ، فمعاوية ؛ والرّضِيخة : شىء قليلٌ يُعطاه الإنسان يُصانَع به عن شىء(٢) يُطلَب منه كالأجر ، وذلك لأنّه من المؤلَّفة قلوبُهم الّذين رَغِبوا فى الإسلام والطاعة بجِمالٍ وشاء دُفِعَتْ إليهم ، وهم قومٌ معروفون كمعاوية وأخيه يزيد ، وأبيهما أبى سُفيْان ، وحكيم بن حِزام ، وسُهَيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ابن المغيرة ، وحُوَيْطِب بن عبد العزّى ، والأخنَس بن شَرِيق ، وصَفْوان بن أميّة ، وعمير بن وهب الجُمَحىّ ، وعُيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وعبّاس بن مِرْداس وغيرهم . وكان إسلام هؤلاء للطّمع والأغراض الدنياوية ، ولم يكن عن أصل ولا عن يقين وعلم .

---

(١) التراث : جمع ترة ؛ وهى الأخذ بالثأر . (٢) فى د « أمر » .

وقال الراوندىّ : عَنَى بقوله: «رُضِخَت لهم الرضائخ » عمرَو بنَ العاص، وليس بصحيح، لأنّ عمرا لم يُسلِم بعد الفَتْح، وأصحاب الرضائخ كلّهم أسلَموا بعدالفتح، صُونِعوا على الإسلام بغنائم حُنَين . ولَعَمرى إن إسلام عَمْرو كان مدخولا أيضا ؛ إلّا أنّه لم يكن عن رَضِيخة ، وإنّما كان لمعنًى آخر. فأما الذى شَرِب الحرام ، وجُلِد فى حدّ الإسلام ، فقدقال الراوندىّ : هو المغيرةُ بنُ شُعْبة ، وأخطأ فيما قال ، لأنّ المغيرة إنّما اتُّهِم بالزنا ولم يُحَدّ ولم يَجرِ للمغيرة ذكرٌ فى شُرب الخمر ، وقد تقدّم خبرُ المغيرة مُستوفًى ، وأيضا فإنّ المغيرة لم يَشهد صِفّين مع معاوية ولا مع علىّ عليه السلام ، وما للراوَندىّ ولهذا ! إنّما يَعرِف هـذا الفنّ أربابُه .
والّذى عَناه علىّ عليه السلام الوليدُ بنُ عُقْبة بن أبى مُعَيط ، وكان أشدّ الناس عليه وأبلَغَهم تحريضا لمعاوية وأهل الشام على حَرْبه .

* * *

[أخبار الوليد بن عُقْبة]

ونحن نذكر خبرَ الوليد وشُرْبه الخمْـر منقولا من كتاب «الأغانى» لأبى الفَرَج علىّ بن الحسين الأصفهانىّ؛ قال أبو الفرج: كان سبب إمارة الوليدِبن عُقْبة الكوفةَ لعثمانَ ما حدّثنى به أحمدُ بنُ عبد العزيز الجوهرىّ ، قال : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدّثنى عبد العزيز بن محمّد بن حكيم ، عن خالد بنِ سعيد بنِ عمرِو بن سعيد ، عن أبيه، قال: لم يكن يَجلِس مع عثمان على سريره إلّا العباس بن عبد المطّلب ، وأبو سُفْيان بن حرب ، والحَكَم ابن أبى العاص ، والوليد بن عقبة ، ولم يكن سريرُه يَسَع إلّا عثمان وواحـدا منهم ، فأقبل الوليدُ يوما فجلس ، فجاء الحَكَم بن أبى العاص فأومأ عثمانُ إلى الوليـد ، فرَحل له عن مجلسه ، فلمّا قام الحكم قال الوليد : واللهِ يا أميرَ المؤمنين لقد تَلجْلَج فى صـدرى بَيْتان قلتُهما حين رأيتُك آثرتَ ابنَ عمّك على ابن أمّك ــ وكان الحَكَم عمّ عثمان، والوليد أخاه

لأمّه ـ فقال عثمان : إن الحكَم شيخُ قريش ؛ فما البيتان ؟ فقال :

رأيتُ لعمِّ المرءِ زُلفَى قرابةٍ ... دُوَيْنَ أخيه حادثاً لم يكن قِدْما

فأمّلتُ عمرا أن يَشِبّ وخالدا ... لكَيْ يدعُوانى يومَ نائبةٍ عمّا

يعنى عَمراً وخالداً ابنَىْ عثمانَ . قال : فرقّ له عثمان وقال : قد ولّيتك الكوفة ، فأخرَجه إليها [1] .

قال أبو الفرَج : وأخبرَنى أحمد بنُ عبدالعزيز ، قال : حدّثنى عمرُ بن شبّة ، قال : حدّثنى بعضُ أصحابنا ، عن ابن [2] دَأب قال : لمّا ولّى عثمانُ الوليدَ بنَ عقبة الكوفة قدِمها وعليها سعدُ بن أبى وقّاص ، فأُخبِر بقدُومه ولم يَعلَم أنّه قد أُمِّر ، فقال : وما صنع ؟ قالوا : وقفَ فى السّوق فهو يحدّث الناس هناك ، ولسنا ننكر شيئا من أمرِه ، فلم يَلبَث أن جاءه نصفَ النهار ، فاستأذن على سعد ، فأذِن له ، فسلّم عليه بالإمْرة ، وجلس معه ، فقال له سعد : ما أقدَمَك يا أبا وهب ؟ قال : أحببتُ زِيارتَك ؛ قال : وعلى ذاك ، أجئتَ بريدا ؟ قال : أنا أرزَن من ذلك ، ولكنّ القومَ احتاجوا إلى عَملهم فسرّحونى إليه ، وقد استعملنى أميرُ المؤمنين على الكوفة . فسكَتَ سعدٌ طويلا ، ثم قال : لا والله ما أدرِى أصلَحتَ بعدَنا أم فسَدْنا بعدَك ! ثم قال :

كِلينِى وجُرّينى ضَباعُ وأبشِرى ... بلَحْمِ امرِئٍ لم يَشهَد اليومَ ناصرُهْ

فقال الوليد : أما والله لَأنا أقوَلُ للشعر منك ، وأروَى له ، ولو شئتُ لأجبتُك ، ولكنّى أدَعُ ذاكَ لما تعلَم . نَعَم واللهِ لقد أُمِرتُ بمحاسَبتك ، والنّظرِ فى أمر عُمّالك . ثمّ بعث إلى عمّال سعد فحبَسهم وضيّق عليهم ، فكتَبوا إلى سعد يستغيثون به ، فكلّمه فيهم فقال له : أوَ للمعروف عندَك مَوْضع ؟ قال : نعم ، فخلّى سبيلهم [3] .

(١) الأغانى ٤ : ١٧٤ (ساسى) . وفى د « فأخرج » .

(٢) فى د « عن زاذان » .

(٣) الأغانى ٤ : ١٧٥ ، ١٧٦ (ساسى) .

قال أحمد(١) : وحدّثني عمرُ ، عن أبي بكر الباهليّ ، عن هُشَيم ، عن العوّام ابن حَوْشَب . قال : لمّا قدم الوليدُ على سعد قال له سعد : واللهِ ما أدري كِسْتَ بعدَنا أم حمقْنا بعدَك ! فقال : لا تجزَعَنّ يا أبا إسحاق ، فإنّه المُلْك يتغدّاه قوم ويتعشّاه آخَرون . فقال سعد : أراكم واللهِ ستجعلونه مُلْكا(٢) .

قال أبو الفرَج : وحدّثنا أحمد قال : حدّثني عمر قال : حدّثني هارون بنُ معروف ، عن ضَمْرة بن ربيعة ، عن ابن شَوْذَب قال : صلّى الوليدُ بأهل الكوفة الغداةَ أربَعَ رَكَعات ، ثمّ التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ فقال عبدُ الله بنُ مسعود : ما زِلْنا معك في زيادةٍ منذ اليوم(٣) .

قال أبو الفرَج : وحدّثني أحمد قال : حدّثنا عمر ، قال : حدّثنا محمّد بن حُمَيد ، قال : حدّثنا جَريرٌ ، عن الأجْلح ، عن الشَّعْبيّ قال : قال الحُطَيئة يذكر الوليد :

شهِدَ الحطيئةُ يوم يَلقَى ربَّهُ أنّ الوليدَ أحقُّ بالغَدْرِ(٤)
نادَى وقد تَمّتْ صلاتُهمُ أأزيدُكُمْ ـ سُكْراً ـ ولم يَدْرِ(٥)
فأبَوْا أبا وَهْب ولو أَذِنوا لَقَرنْتَ بين الشَّفْع والوَتْرِ(٦)
كَفُّوا عنانَك إذْ جَرَيتَ ولو تَرَكُوا عنانَكَ لم تَزَلْ تَجرِي(٧)

---

(١) هو أحمد بن عبد العزيز الجوهري .
(٢) الأغاني ٤ : ١٧٦ .
(٣) الأغاني ٤ : ١٧٦ . (٤) الأغاني ٤ : ١٧٦ وفي د « حين يذكر ربه » .
(٥) الديوان : « أأزيدكم ثملا » .
(٦) الديوان . « ليزيدهم خيرا ولو قبلوا » .
(٧) الديوان : « خلعوا عنانك » ؛ وبعده :

ورأوْا شمائلَ ماجدٍ أنِفٍ يعطى على الميسور والعُسْرِ
فُزِّعت مكذوباً عليكَ ولم تُردَد إلى عُذرٍ وَلَا فقرِ

وقال الُحطيئة أيضاً :

تَــكَلّمَ فى الصلاة وزادَ فيها علانِيَــةً وأعلَنَ بالنِّفَاقِ(١)

وَمَجّ الخمرَ فى سَنَنِ المصلّى ونادَى والجميــعُ إلى افتراقِ

أزيدُكُمُ على أن تحمَدونى فما لكمُ ومالى مِنْ خَلاقِ!(٢)

قال أبو الفرَج : وأخبرَنا محمدُ بنُ خلف وكيع قال : حدّثنا حمّاد بن إسحاق ، قال : حدّثنى أبى قال : قال أبو عُبيــدة وهشامُ بنُ الــكلبىّ والأصمعىّ : كان الوليدُ زانياً يَشرَب الخمر ، فشَرِب بالــكوفة وقام ليصلّىَ بهم الصبحَ فى المسجد الجامع ، فصلّى بهمْ أربعَ رَكَعات ثمّ التفت إليهم فقال : أزيدُكمْ ؟ وتقَيّأ فى المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوتَه فى الصّلاة :

عَلِقَ القلْبُ الرّبابَا بعد ما شابَتْ وشابَا

فشَخص أهلُ الــكوفة إلى عثمان فأخبروه بخبره ، وشَهِدوا عليــه بشُرْب الخمر ، فأُتِى به ، فأَمَر رجلا من المسلمين أن يَضربه الحدّ ، فلمّا دنا منه قال : نشَدْتُكَ الله وقرابتى من أمير المؤمنين ! فترَكه ، فخاف علىّ بن أبى طالب عليه السلام أن يُعطّل الحدّ ، فقام إليه فحدّه بيدِه ، فقال الوليد : نشَدْتُكَ الله والقرابة ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : اسكُت أبا وَهْب ، فإنّما هلك بنو إسرائيل لتَعطيلهم الحدود ؛ فلمّا ضرَبَه وفرغ منه قال : لتدعونى قريش بعدها جَلّادا . قال إسحاق : وحدّثنى مصعبُ بنُ الزّبير قال : قال الوليدُ بعد ما شَهِدُوا عليه فجُلد : اللهم إنهم قد شهدوا علىَّ بزُور ، فلا تُرضهم عن أمير ، ولا تُرضِ عنهم أميراً ، قال : وقد عكس الحطيئة أبياته فجعلها مَدْحا للوليد :

شَهِدَ الحطيئةُ حين يلقى ربّه أنّ الوليــد أحقّ بالعُــذْرِ

---

(١) ملحق ديوانه ١١٩ ، وفيه : « وجاهر بالنفاق » .

(٢) الأغانى ٤ : ١٧٦ .

كفُّوا عنانَك إذ جريتَ ولوْ ... تركوا عنانَك لم تزَلْ تجرِى

ورأوا شمائلَ ماجدٍ أنِفٍ ... يُعطى على المَيْسور والعُسْرِ

فنزعتَ مكذوباً عليك ولمْ ... تَنزَع على طمعٍ ولا ذُعْرِ[(١)]

قال أبو الفرج : ونسختُ من كتاب هارون بن الزّبّاب بخطّه ، عن عمرَ بن شبّة ؛ قال : شهد رجلٌ عند أبى العجّاج — وكان على قضاء البصرة — على رَجل من المَعْيطيّين بشهادة ، وكان الشاهد سَكران ، فقال المشهود عليه ، وهو المَعْيطىّ : أعزّك الله أيّها القاضى ، إنَّه لا يُحسِن من السُّكرِ أن يقرأ شيئاً من القرآن ، فقال الشاهد : بلى أُحسِن ، قال : فاقرأ ، فقال :

عَلِق القلبُ الرّبابا ... بعد ما شابتْ وشابا

يَمجُن[(٢)] بذلك ، ويَحكِى ما قاله الوليدُ فى الصلاة ، وكان أبو العَجّاج أحمق ، فظنّ أنّ هذا الكلام من القرآن ، فجعل يقول : صدَقَ اللهُ ورسولُه ، ويلكم ، كم تعلمون ولا تَعْملون![(٣)]

قال أبو الفرج : وأخبرَنى أحمدُ بن عبد العزيز ، قال : حدّثنا عمرُ بن شبّة ، عن المَدائنىّ ، عن مبارك بن سلّام ، عن فُطْر بن خليفة ، عن أبى الضّحى ، قال : كان ناسٌ من أهل الكوفة يتطلّبون عَثْرة الوليد بن عقبة ، منهم أبو زَيْنب الأزْدىّ ، وأبو مورّع ، فجاءا يوما ولم يَحضرِ الوليدُ الصّلاة ، فسألا عنه ، فتلطّفا حتّى عَلِما أنّه يَشرَب ، فاقتحما الدارَ فوجَدَاه يقىء ، فاحتَمَلاه وهو سكرانُ حتّى وضعاه على سريره ، وأخَذَا خاتمه من يده ، فأفاقَ ، فافتقد خاتمه ، فسأل عنه أهلَه ، فقالوا : لا ندرى ، وقد رأينا رجلين دَخَلا عليك

---

(١) الأغانى ٤ : ١٧٦ ، ١٧٧ .
(٢) يمجن : يقول قولا لا يدرى ما عاقبته ؛ ومنه الماجن ؛ وفى الأغانى : «وإنما تماجن» .
(٣) الأغانى ٤ : ١٧٧ ١٧٨ .

فاحتملاك فوضعاك على سريرك . فقال : صفوهما لى ، فقالوا : أحدهما آدم[1] طُوالٌ حَسَن الوجه ، والآخر عريض مَرْبوع عليه خَميصة[2] ، فقال : هذا أبو زينب ، وهذا أبو مورّع؛

قال : ولقِىَ أبو زينب وصاحبه عبدَ الله بن حُبيْش الأسدىّ وعَلْقمة بن يزيد البَكرىّ وغيرَهما ، فأخبروهم ، فقالوا : اشخصوا إلى أميرِ المؤمنين فأعلموه ، وقال بعضهم : إنه لا يَقبَل قولكم فى أخيه ، فشَخَصوا إليه ، فقالوا : إنّا جئناك فى أمر ، ونحن مُخرجوه إليك من أعناقنا ، وقد قيل : إنّك لا تقبله ، قال : وما هو ؟ قالوا : رأينا الوَليدَ وهو سَكرانُ من خمْرٍ شَرِبَها ، وهذا خاتمُه أخذْناه من يَدِه وهو لا يَعقِل . فأرسَل عثمان إلى علىّ عليه السلام فأخبره ، فقال : أَرَى أن تُشخِصه ، فإذا شهدوا عليه بمحضر منه حَدَدْته . فكتب عثمانُ إلى الوليد ، فقدِم عليه ، فشَهِد عليه أبو زينب وأبو مورّع وجُندَب الأزدىّ وسعد ابن مالك الأشعرىّ ، فقال عثمانُ لعلىّ عليه السلام: قم يا أبا الحَسَن فاجْلِده، فقال علىّ عليه السلام للحَسَن ابنه : قم فاضرِبْه ؛ فقال الحسن : مالك ولهذا ، يكفيك غيرك ؛ فقال علىّ لعبد الله بن جعفر : قم فاضرِبه ، فضَرَبه بمِخْصرة[3] فيها سَيْر له رأسان ، فلما بلغ أربعين قال : حَسْبُك .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنا عمر قال : حدّثنى المدائنىّ عن الوقاصى ، عن الزّهرىّ قال : خرج رَهْطٌ من أهل الكوفة إلى عثمانَ فى أمر الوليد ، فقال : أكلما غَضِب رجل على أميرِه رماه بالباطل ! لئن أصبحتُ لكم لأنكّلنّ بكم ، فاستجاروا بعائشةَ ، وأصبح عثمانُ فسمعَ من حُجْرتها صوتاً وكلاما فيه بعضُ الغِلْظة ، فقال : أما يجد فُسّاقُ العراق ومُرّاقها ملجأً إلّا بيت عائشة ! فسمعتْ، فرفعتْ نعلَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وقالت : تركتَ سنّة صاحب هذا النعل . وتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد ، فمن قائل : قد أحسنتْ ، ومن قائل : ما للنساء ولهذا ! حتّى تخاصموا

---

(١) الآدم : الأسمر . (٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

(٣) المخصرة : ما اختصره الإنسان بيده فأمسكه من عصا أو مقرعة أو عكازة وما أشبهها .

وتَضَارَبوا بالنّعال، ودخل رهطٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عثمانَ فقالوا له: اتّق الله ولا تُعطّل الحدود، واعزل أخاكَ عنهم؛ ففعل(١).

قال أبو الفرج: حدّثنا أحمد قال: حدّثني عمر، عن المدائنيّ، عن أبي محمد النّاجي، عن مطر الورّاق، قال: قَدِم رجلٌ من أهل الكوفة إلى المدينة فقال لعثمان: إنّي صلّيتُ صلاة الغداة خلْف الوليد، فالتفت في الصّلاة إلى الناس، فقال: أأزيدكُمْ، فإني أجدُ اليومَ نشاطا؟ وشممْنا منه رائحةَ الخمر، فضَرَب عثمانُ الرّجلَ؛ فقال الناس: عطّلت الحدود، وضَربت الشهود(٢).

قال أبو الفرج: وحدّثنا أحمد، قال: حدثنا عمر قال: حدّثنا أبو بكر الباهليّ، عن بعض من حدّثه قال: لمّا شُهِد على الوليد عند عثمانَ بشُرب الخمر كَتَب إليه يأمره بالشّخوص، فخرج وخرج معه قومٌ يعذِرونه، منهم عَدِيّ بن حاتم الطائيّ، فنزل الوليدُ يوماً يَسوقُ بهم، فارتجز وقال:

لا تَحسبنّا قد نسينا الأحقافْ(٣) والنَّشَواتِ من مُعتّقٍ صافْ

* وعَزْف قَيْناتٍ علينا عُزّافْ *

فقال عديّ: فأين تذهب بنا إذَن! فأقم(٤).

قال أبو الفرج: وقد رَوَى أحمد عن عمرَ، عن رجاله، عن الشَّعبيّ، عن جُندَب الأزديّ، قال: كنتُ فيمن شَهِد على الوليد عند عثمان، فلمّا استَتْمَمْنا عليه الشهادة حبَسَه عثمان. ثم ذكر باقي الخبر وضرْبَ عليّ عليه السلام إيّاه، وقولَ الحسن ابنه: «مالك ولهذا»، وزاد فيه، وقال عليّ عليه السلام: لست إذنْ مُسلِما؛ أو قال: من المسلمين.

---

(١) الأغاني ٤ : ١٧٨. (٢) الأغاني ٤ : ١٧٨.
(٣) الأغاني: «الإيجاف»؛ وهو ضرب من السير.
(٤) الأغاني ٤ : ١٧٨، ١٧٩. (٥) الأغاني ٤ : ١٧٩.

قال أبو الفرج : وأخبرَنى أحمد ، عن عمرَ عن رجاله، أنّ الشهادة لمّا تمّت قال عثمان لعلىّ عليه السلام : دونَكَ ابنَ عمّك فأَقِم عليه الحدّ . فأمر علىّ عليه السلام أُبنَه الحسن عليه السلام ، فلم يفعل ، فقال : يكفيك غيرُك ! فقال علىّ عليه السلام : بل ضعفتَ ووَهَنْتَ وعجَزْتَ ؛ قم ياعبدَ الله بنَ جعفر فاجلِدْه ، فقامَ فجلَدَه ، وعلىّ عليه السلام يعدّ حتّى بلغ أربعين ، فقال له علىّ عليه السلام : أمسِكْ حَسْبُك ، جلَد رسولُ الله صلى الله عليه وآله أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ؛ وكَمّلها عُمر ثمانين ؛ وكلٌّ سنّة(١) .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد ، عن عمر ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد ابن سعيد ، قال : وأخبرَنى بذلك أيضاً إبراهيمُ بنُ محمد بن أيّوب ، عن عبد الله بن مسلم ، قالوا جميعا : لما ضرَب عثمانُ الوليدَ الحدّ ، قال : إنّك لتضرِبنى اليومَ بشهادة قومٍ ليقتُلُنّك عاماً قابلا(٢) .

قال أبو الفرج : وحدثنى أحمد بنُ عبدِ العزيز الجوهرىّ ، عن عمر بنِ شبّة ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد بن سعيد . وأخبرَنى أيضاً إبراهيمُ ، عن عبد الله ، قالوا جميعا : كان أبو زُبَيد الطائىّ نديمـا للوَليد بن عُقْبة أيّامَ ولايتِه الكوفة ، فلمّا شَهِدوا عليه بالسّكر من الخمْر خرج عن الكوفة مَعْزولا ، فقال أبو زُبَيْد يتذكّر أيّامَه ونِدامته :

من يرَى العيرَ أن تمشى على ظهـ ـر المَرَوْرَى حُداتُهنّ عِجالُ !
ناعجاتٍ والبيتُ بيتُ أبى وهـ ـب خلاءٌ تَحنُّ فيه الشَّمالُ
يعرِفُ الجاهلُ المضلَّلُ أنّ الـ ـدَّهرَ فيه النَّكراءُ والزِلْزالُ
ليت شعرى كذاكم العهدُ أم كا نوا أناساً كمَن يَزولُ فزالوا !

---

(١) الأغانى ٤ : ١٧٩ . (٢) الأغانى ٤ : ١٧٩ .

(٣) ابن أروى ، هو الوليد بن عقبة ؛ وأروى هى أم عثمان بن عفان .

بعد ما تعلمين يا أمّ عمرٍو كان فيهمْ عزٌّ لنا وجمــالُ
ووجــوهٌ تودُّنا مشرقاتٌ ونوالٌ إذا أُريد النّوالُ
أصبح البيتُ قــد تَبدّل بالحْىّ وجوهاً كأنهــا الأقيال(١)
كلّ شىء يحتالُ فيه الرجالُ غير أنْ ليس للمنايا احتيالُ
ولعمرُ الإله لو كان للسيـ ـف مضاءٌ وللسان مقال(٢)
ما تناسَيْتُك الصفــاءَ ولا الودَّ ولا حال دونك الإشغــال
ولحرّمت لحمــك المتعضّى ضَلّةً ضلّ حِلْمُهُم ما اغتالوا(٣)
قولهم شُرْبك الحرام وقد كا ن شرابٌ سوى الحرام حلالُ
وأبى ظاهرُ العداوة والشّنْـ آنِ إلا مقال ما لا يُقــال
من رجالٍ تقارضوا مُنْكراتٍ لِينَالوا الذى أَرادُوا فنــالوا
غير ما طالبين ذَحْلا ولـكن مالَ دهرٌ على أناسٍ فمالوا
من يَخُنْكَ الصفاء أو يتبدّلْ أو يزُلْ مِثلَ ما يزول الظِّلاَلُ
فاعلمنْ أننى أخوكَ أخو الودّ حياتى حتى تزول الجبــالُ
ليس يُخْلى عليكَ يوماً بمــال أبداً ما أقلّ نعــلاً قِبَالُ(٤)
ولك النصرُ باللسان وبالكف إذا كانَ لليدين مصــالُ(٥)

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمد قال : حدّثنى عمرُ قال : لمـا قدم الوليد بنُ عُقبة الـكوفة قدم عليه أبو زُبَيد فأنزله دار عَقِيل بن أبى طالب على باب المسجد ، وهى التى

---

(١) الأقيال : الملوك الحميريون . وفى الأغانى : « الأقتال » جمع قتل ؛ وهو العدو .
(٢) الأغانى : « مصال » ، يقال : صال على قرنه ، وإذا وثب عليه واستطال .
(٣) المتعضى : المتقطع والمتفرق . (٤) قبال النعل : زمام بين الإصبع والتى تليها .
(٥) الأغانى ٤ : ١٧٩ ، ١٨٠ .

تُعرف بدار القِبْطى ، فكان مما احتجّ به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يخرج إليه من داره وهو نصرانىّ يخترق المسجد فيجعله طريقا (١) .

قال أبو الفرج : وأخبرنى محمد بن العباس اليزيدىّ قال : حدثنى عمى عبيد الله ، عن ابن حبيب عن ابن الأعرابىّ ، أنّ أبا زُبيد وفد على الوليد حين استعمله عثمان على الكوفة ، فأنزله الوليد دار عَقِيل بن أبى طالب عند باب المسجد ، واستوْهَبها منه ، فوَهبها له ، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة ، لأنّ أبا زبيد كان يَخرُج من داره حتى يشقّ المسجد إلى الوليد فيسمُرَ عنده ، ويشرب معه ، ويخرُج فيشقّ المسجد وهو سكران ، فذاك نبّههم عليه . قال : وقد كان عثمان ولّى الوليدَ صدقاتِ بنى تغْلب ، فبلغه عنه شعرٌ فيه خلاعة ، فعزَله . قال : فلما ولّاه الكوفة اختصّ أبا زبيد الطائى وقرّبه ، ومدحه أبو زُبيد بشعر كثير ، وقد كان الوليد استعمل الربيع بن مرىّ بن أوْس بن حارثة بن لأم الطائى على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجدبت الجزيرة ؛ وكان أبو زبيد فى بنى تَغلب نازلا ، فخرج بإبلهم ليُرعيهم ، فأبى عليهم الربيع بن مرىّ ومنعهم ، وقال لأبى زُبيد : إن شئت أُرْعيتك وَحْدك فعلت ؛ فأتى أبو زُبَيد إلى الوليد فشكاه ، فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام ، إلى القصور الحمر من الحيرة ، وجعلها له حِمًى ، وأخذها من الربيع ابن مرىّ ، فقال أبو زبيد يمدحُ الوليد ، والشِّعر يدلّ على أن الحمى كان بيد مرىّ بن أوس ، لا بيد الربيع ابنه ، وهكذا هو فى رواية عمر بن شبة :

لعمرُ أبيك يا بن أبى مُرىٍّ لغيرُك من أباح لنا الديارا (٢)
أباح لنا أبارِق ذات َقورٍ ونَرعى القفَّ منها والقفارا (٣)

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٠ . (٢) الأغانى : « لها الديارا » .
(٣) الأبارق : جمع الأبرق ، وهو الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة . والقف ما يبس من البقول وتناثر حبه وورقه ؛ ترعاه الإبل وتسمن عليه .

بحمد الله ثمّ فتى قريشٍ أبى وهب غدتْ بُدْنا غِزارا(١)

أباح لنا ولا نحمى عليكم إذا ما كنتم سنةً جزارا

قال : يقول : إذا أجدبتم فإنا لا نحميها عليكم ، وإذا كنتم أسأتم وحميتموها علينا

فتى طالتْ يداه إلى المعالى وطَحْطحت المجذَّمة القِصَارا(٢)

قال : ومن شعر أبى زُبيد فيه يذكر نصره له على مرىّ بن أوْس بن حارثة :

يا ليت شعرى بأنباء أنَبّؤها قد كان يعنَى بها صَدْرى وتقديرى

عن امرئ ما يزدْه الله من شرَف أفرَحْ به ومرىّ غيرُ مسرور

إن الوليد له عندى وحقّ له ودّ الخليل ونصح غير مذخور

لقد دعانى وأدْنانى وأظهرَنى على الأعادى بنصرٍ غير تغرير

وشذّبَ القومَ عنّى غير مكترثٍ حتى تناهوْا على رغْم وتَصْغير

نفسى فداء أبى وهْب وقلّ له يا أمَّ عمرو فحُلّى اليوم أو سِيرى(٣)

وقال أبو زُبَيْد يمدح الوليد ويتألّم لفراقه حين عُزِل عن الكوفة :

لعَمْرى لئِنْ أمْسى الوليد ببلدة سواى لقد أمسيتُ للدهر معورا(٤)

خلا أن رزق الله غادٍ ورائحٌ وإنى له راجٍ وإنْ سار أشهرا

وكان هو الحصن الذى ليس مسلمى إذا أنا بالنَّكْراء هيّجتُ معشرا

إذا صادَفُوا دونى الوليد فإنما يرَوْن بوادِى ذى حماس مُزَعْفرا(٥)

---

(١) غزاراً : جمع غزيرة ؛ وهى من الإبل الكثيرة اللبن .

(٢) طحطح الرجل ماله : فرقه . (٣) الأغانى ٤ : ١٨٠ .

(٤) المعور : الذى لا حافظ له .

(٥) ذو حماس : موضع تلقاء عرعر ، أو مأسدة . والمزعفر : الأسد الورد ، وبعده فى الأغانى :

خضيبَ بنانٍ ما يزالُ براكبٍ يخبُّ وضاحِى جلدهِ قد تقشَّرا

وهى طويلة يصفُ فيها الأسد[١] .

قال أبو الفرج : وحدثنا أحمد بن عبد العزيز قال : حدثنا عمر عن رجاله، عن الوليد قال: لما فتح رسول الله صلّى الله عليه وآله مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم ، فيدعو لهم بالبركة ، ويمسح يده على رءوسهم ، فجىء بى إليه وأنا مخلَّق ، فلم يمسَّنى ، وما منعه إلا أنّ أمى خَلَّقَتْنى بخَلوق ، فلم يمسّنى من أجل الخلوق[٢] .

قال أبو الفرج: وحدثنى إسحاق بن بنان الأنماطىّ ، عن حُنيش بن ميسر ، عن عبدالله ابن موسى ، عن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام : أنا أحدّ منك سِنانا ، وأبسط منك لسانا ، وأملأ للكتيبة ؛ فقال علىّ عليه السلام : اسكُت يا فاسق ، فنزل القرآن فيهما : ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾[٣] .

قال أبو الفرج : وحدثنى أحمد بن عبد العزيز ، عن عمر بن شبّة ، عن محمد ابن حاتم ، عن يونس بن عمر ، عن شَيْبان ، عن يونس ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الذينَ آمنوا إنْ جاءكُم فَاسقٌ بنبَإٍ فتبيَّنوا ﴾[٤] . قال: هو الوليد بنُ عقْبة، بعثه النبىّ صلى الله عليه وآله مُصدِّقا إلى بنى المصطلق ، فلما رأوه أقبلوا نحوه ، فهابهم ، فرجع إلى النبىّ صلَّى الله عليه وآله فقال له : إنهم ارتدّوا عن الإسلام ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فعلم علمهم ، وأمره أن يتثبّت ، وقال له : انطلق ولا تعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلا ، وأنفذ عيونه نحوهم ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمع أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى الرسولِ صلّى الله عليه وآله فأخبره ، فنزلت هذه الآية[٥] .

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٢ . (٢) الأغانى ٤ : ١٨٢ .
(٣) سورة السجدة : ١٨ . (٤) سورة الحجرات ٦ .
(٥) الأغانى ٤ : ١٨٢ .

قلت : قد لَمَحَ ابنُ عبد البرّ صاحبُ كتاب " الاستيعاب " فى هذا الموضع نكتةً حَسَنة ، فقال فى حديث الخلوق : هذا حديثٌ مضطرب منكر ، لا يصحّ ، وليس يمكن أن يكون مَن بَعَثه النبيّ صلى الله عليه وآله مُصدّقا صبيًّا يومَ الفتْح ؛ قال : ويدلّ أيضا على فَسادِه أنّ الزبير بنَ بكّار وغيرَه من أهل العلم بالسِّيَر والأخبار ذكَروا أنّ الوليدَ وأخاه عُمارة ابنىْ عُقْبة بن أبى مُعَيْط خرَجَا من مكّة ليردّا أختَهما أمّ كلثوم عن الهِجْرة ، وكانت هِجرتُها فى الهُدْنة التى بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين أهل مكّة ، ومَنْ كان غلاما مُخلَّقا بالخلوق يومَ الفتح ليس يجىء منه مِثلُ هذا . قال : ولا خلافَ بين أهل العِلم بتأويل القرآن أنّ قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أُنزلت فى الوليد لمّا بَعَثه رسولُ الله صلى الله عليه وآله مُصدقا ، فكَذَب على بَنى المُصْطلق وقال : إنّهم ارتدّوا وامتنَعوا من أداء الصَدَقة . قال أبو عمر : وفيه وفى علىٍّ عليه السلام نَزَل : ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ﴾[1] ؛ فى قصّتهما المشهورة . قال : ومن كان صبيا يومَ الفتح لا يجىء منه مِثلُ هذا ، فوجب أن يُنظَر فى حديث الخلوق ، فإنّه رواية جعفر بن برقان ، عن ثابت ، عن الحجّاج ، عن أبى موسى الهَمْدانىّ ؛ وأبو موسى مجهولٌ لا يصحّ حديثه .

***

ثمّ نعود إلى كتاب أبى الفرَج الأصبهانىّ ؛ قال أبو الفرج : وأخبرَنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن عمَر بن شبّة ، عن عبد الله بن موسى ، عن نعيم بن حكيم ، عن أبى مريم ، عن علىّ عليه السلام ، أنّ امرأةَ الوليد بنِ عُقْبة جاءتْ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله تَشتكى إليه الوليدَ ، وقالت : إنّه يَضرِبها ، فقال لها : ارجعى إليه وقولى له : إنّ رسولَ الله قد أجارَنى ، فانطلقتْ ، فمكثتْ ساعةً ، ثم رجعتْ فقالت : إنّه

(١) سورة السجدة ١٨ .

ما أَقلَع عنِّى ، فقطع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هُدْبةً[١] من ثَوْبه وقال : اذهبى بها إليه وقولى له : إنّ رسولَ الله قد أجارَنى ، فانطلقتْ فمكثتْ ساعةً ثم رجعتْ فقالت : مازادنى إلّا ضَرْبا ، فرفع رسولُ الله صلّى الله عليه وآله يدَه ثم قال : « اللهمّ عليكَ بالوليد» مرّتين أو ثلاثا[٢] .

قال أبو الفرج : واختصّ الوليد لما كان واليا بالكوفة ساحراً كاد يَفتِن الناسَ ، كان يُرِيه كتيبتين تقتَتِلان فتَحمِل إحداهما على الأخرى فتَهزِمها ، ثم يقول له أيَسُرّكَ أن أُرِيكَ المنهزمةَ تغلبِ الغالبة فتهزمها ؟ فيقول : نعم ، فجاء جُندُبُ الأزدىّ مشتمِلا على سيفه ، فقال : أفرِجوا لى ، فأفرَجوا فضرَبه حتى قتله ، فحبسه الوليدُ قليلا ثم تركه[٣] .

قال أبو الفرج : وروى أحمدُ عن عمر ، عن رجاله ، أن جُندُبا لمّا قتل الساحرَ حَبَسه الوليدُ ، فقال له دينار بن دينار : فيم حبستَ هذا ، وقد قتَل من أعلَن بالسحر فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثمّ مضى إليه فأخرَجَه من الحبس ، فأرسل الوليدَ إلى دينار ابن دينار فقتله[٤] .

قال أبو الفرج : حدّثنى عمّى الحسن بن محمد قال : حدّثنى الخراز ، عن المدائنىّ ، عن علىّ بن مجاهد ، عن محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رُومان ، عن الزّهرىّ وغيره ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا انصرف عن غَزاة بنى المُصطلق نزل رجلٌ من المسلمين فساق بالقوم ورَجَز ، ثم آخر فساق بهم ورَجَز ، ثم بدا لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يُواسِىَ أصحابه ، فنزل فساقَ بهم ورَجَز ، وجعل يقول فيما يقول :

جُندَبٌ وما جُندَبُ والأقطع زيدُ الخيرْ

---

(١) الاستيعاب . (٢) الأغانى ٤ : ١٨٣ .
(٣) الأغانى ٤ : ١٨٣ . (٤) الأغانى ٤ : ١٨٣ .

فدنا منه أصحابُه فقالوا : يا رسول الله ، ما ينفعُنا سيرنا مخافة أن تنهشك دابّة ، أو تُصيبك نَكْبة . فركِب ودَنَوا منه وقالوا : قلتَ قولا لا ندرى ماهو ؟ قال : وماذاك ؟ قالوا : كنتَ تقول : جُندَب وما جُنْدَب ، والأقْطَع زيد الخير .

فقال : رجلان يكونان فى هذه الأمة يَضرِب أحدُهما ضربة يفرُق بين الحقّ والباطل ، وتُقطَع يدُ الآخر فى سبيل الله ، ثم يُتبِع الله آخرَ جسده بأوّله ، وكان زيد ، هو زيدُ بنُ صُوحان ، وقطِعتْ يدُه فى سبيل الله يوم جَلولاء ، وقُتِلَ يومَ الجمل مع علىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ وأمّا جندَب هذا فدخَل على الوليد بن عُقْبة وعنده ساحر يقال له : أبو شَيْبان ، يأخذ أعينَ الناس ، فيُخرج مصارينَ بطنِهم ثم يَرُدّها ، فجاء مِنْ خَلْفه فضرَبه فقتَله ، وقال :

العنْ وليداً وأبا شَيْبانْ وابنَ حُبَيشٍ راكبَ الشّيطانْ
* رسولَ فرعونَ إلى هامانْ (١) *

قال أبو الفرج : وقد رُوى أنّ هذا الساحر كان يدخُل عند الوليد فى جَوْف بقرة حيّة ، ثم يخرُج منها ؛ فرآه جُندَب فذهب إلى بيته ، فاشتمل على سيف ، فلمّا دخل الساحرُ فى البقرة قال جندب : ﴿أَفَتَأْتونَ السِّحرَ وأنتم تُبصِرونَ﴾ (٢) ، ثم ضرب وَسَط البقرة فقطَعها وقطع الساحرَ معها ، فذُعِر الناس ، فسجَنه الوليدُ ، وكتب بأمرِه إلى عثمان (٣) .

***

قال أبو الفرج : فرَوى أحمدُ بن عبد العزيز ، عن حجّاج بن نصير ، عن قرّة ، عن

(١) الأغانى ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ . (٢) سورة الأنبياء ٣ .
(٣) الأغانى ٤ : ١٨٤ .

محمّد بن سيرين ، قال : انطلق جُنْدَب بن كعب الأزديّ قاتل الساحر بالكوفة إلى السجن، وعلى السّجن رجلٌ نصْرانيٌّ من قِبَل الوليد ، وكان يَرَى جندب بن كعب يقومُ بالليل ويُصبح صائماً ، فوكّل بالسّجن رجلا، ثم خرج فسأل الناس عن أفضل أهل الكوفة؛ فقالوا: الأشعث بن قيس ، فاستضافه ، فجعل يراه ينام الليل ثم يُصبح فيدعو بغدائه ، فخرج من عنده وسأل : أيُّ أهلِ الكوفة أفضل ؟ قالوا : جرير بنُ عبدِ الله ، فذهب إليه فوجَده ينام الليلَ ثمّ يُصبح فيدعو بغدائه ، فاستقبل القبلة، وقال : ربّي ربّ جُندَب ، وديني دِينُ جُندَب . ثمّ أسلم (١) .

قال أبو الفرج : فلمّا نزع عثمانُ الوليدَ عن الكوفة أمّر عليها سعيدَ بنَ العاص ، فلمّا قدِمَها قال : اغسلوا هذا المنبر ، فإنّ الوليد كان رجلا نجسا ، فلم يَصْعده حتّى غُسِل. قال أبو الفرج : وكان الوليدُ أسَنّ من سعيدِ بنِ العاص ، وأسْخَى نَفْساً ، وألينَ جانبا، وأرضى عندَهم ، فقال بعضُ شعرائهم :

وجاءنا مِن بعدِه سعيدُ(٢) يَنقُص فى الصاع ولا يَزيدُ

وقال آخر منهم :

فَرَرْتُ من الوليدِ إلى سعيدٍ كأهل الحِجْر إذْ فَزِعوا فباروا
يَلينا من قريشٍ كلّ عامٍ أميرٌ مُحدَثٌ أو مستشارُ
لنا نارٌ تحرّقنا فنخشَى وليس لهم ولا يخشون نارُ(٣)

قال أبو الفرج : وحدّثنا أحمد، قال : حدّثنا عمرُ ، عن المدائنيّ، قال : قَدِم الوليدُ بنُ

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٣ . (٢) أول الرجز فى الأغانى :

* يا وَيْلَنَا قَدْ ذهَبَ الوليدُ *

(٣) الأغانى ٤ : ١٨٤ .

عقبة الكوفة فى أيّام معاوية زائرا للمغيرة بن شعبة ، فأتاه أشرافُ الكوفة فسلّموا عليه .
وقالوا : والله مارأينا بعدَكَ مثلَك ؛ فقال : أخَيْراً أم شرّا ! قالوا : بل خيراً ، قال : ولكنّى ما رأيتُ بعدَكم شرّا منكم . فأعادوا الثناءَ عليه ، فقال : بعض ما تأتُون به ! فوالله إنّ بُغضَكم لتَلَف ، وإن حبَّكم لصَلَف[1] .

قال أبوالفرج : وَرَوَى عمرُ بنُ شبّة ؛ أنّ قَبيصة بن جابر كان ممّن كثَّر[2] على الوليد ، فقال معاويةُ يوما والوليدُ وقبيصةُ عنده : يا قبيصة ، ماكان شأنُك وشأنُ الوليد ؟ قال : خيرٌ يا أميرَ المؤمنين ، إنّه فى أوّل الأمر وَصَل الرّحم ، وأحسَن الكلام ، فلا تسألْ عن شُكرٍ وحُسن ثَناء ، ثم غضِب على الناس وغَضِبوا عليه ، وكنّا معهم ، فإما ظالمون فنستغفر الله ، وإمّا مظلومون فيَغفِر الله له ؛ فخُذ فى غير هذا يا أميرَ المؤمنين ، فإنّ الحديث يُنسِى القديمَ . قال معاوية : ما أعلمُه إلّا قد أحسَن السِّيرة ، وبَسَط الخير ، وقبَض الشرّ . قال : فأنت يا أميرَ المؤمنين اليومَ أقدرُ على ذلك فافعله ، فقال : اسْكُتْ لا سَكَتَّ ، فسكَتَ وسكَتَ القومُ ، فقال معاوية بعد يسير : مالك لا تتكلّم يا قبيصة ؟ قال : نهيتَنى عمّا كنتُ أحبّ فسكتّ عمّا لا أُحِبّ .

قال أبو الفرج : ومات الوليدُ بنُ عقبةَ فُوَيق الرّقة ، ومات أبو زُبَيد هناك ، فدُفِنا جميعا فى موضع واحد ، فقال فى ذلك أشجَعُ السُّلَمىّ وقد مرّ بقبرَيهما :

مَررتُ على عظام أبى زُبَيدٍ … وقد لاحتْ بِبلقعةٍ صَلُودِ
فكان له الوليدُ نديمَ صِدْقٍ … فنادَمَ قبرُه قبرَ الوليد
وما أدرِى بمن تَبْدو المنايا … بِحَمْزَةَ أم بأشْجَعَ أم يزيدِ !

قيل : هم إخوته ، وقيل : نُدَماؤه[3] .

قال أبو الفرج : وحدّثنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن محمد بن زكريّا الغِلابىّ ،

---

(١) الأغانى ٤ : ١٨٤ . (٢) كذا فى ا ، د ، وفى ب : « كبر » . (٣) الأغانى ٤ : ١٨٥ .

عن عبد الله بن الضّحاك ، عن هشام بن محمد ، عن أبيه ، قال : وفَد الوليدُ بنُ عقبة ـ وكان جواداً ـ إلى معاوية ، فقيل له : هـذا الوليدُ بنُ عقبة بالباب ، فقال : والله ليرْجعنّ مغيظاً غيرَ مُعطًى ، فإنّه الآن قـد أتانا يقول : عليّ دينٌ وعليّ كذا ، ائْذَن له ، فأذن له ، فسأله وتحدّث معه ، ثم قال له معاوية : أما والله إن كنّا لنُحِبّ إتيانَ مالك بالوادى ، ولقد كان يُعجب أميرَ المؤمنين ، فإن رأيتَ أن تَهبَه ليزيدَ فافعل ، قال : هو ليزيدَ ، ثمّ خرج وجعل يختلف إلى معـاوية ، فقال له يوما : انظُر يا أميرَ المؤمنين فى شأنى ، فإنّ علىّ مؤونة ، وقد أرهقنى دَيْن ، فقال له : ألا تَستحيي لنفسك وحَسَبك ، تأخذ ما تأْخُـذُه فتَبذُره ، ثم لا تنفكّ تَشـكُو دَيْناً ! فقال الوليد : أفعل ، ثمّ انطلق من مكانه، فسارَ إلى الجزيرة، وقال يخاطب معاوية :

فإذا سئلتَ تقول : « لا »   وإذا سألتَ تقول : هـاتِ
تأبىَ فعـالَ الخـير لا   تُروِى وأنتَ على الفُراتِ
أفـلا تَميلُ إلى « نَعَمْ »   أو تَرْكِ « لا » حتى المماتِ !

وبلغ معاويةَ شُخُوصُه إلى الجزيرة فخافه ، وكتب إليه : أقبِل ، فكَتَب :

أَعِفّ وأستعفِى كما قـد أمرتَنِى   فَأَعْطِ سِوَاىَ مابدَا لكَ وابْخَلِ
سأحدُو رِكابى عنـك إنّ عَزِيمتى   إذا نابَنِى أمرٌ كسلّةِ مُنصُلِ
وإنّى امرؤ للنّأى مِنّى تَطرُّبٌ   وليس شَبَا قُفْلٍ علىّ بمُقفَلِ

ثمّ رحل إلى الحجاز ، فبعث إليه معاوية بجائزة(١) .

***

وأمّا أبو عمر بنُ عبدالبرّ فإنّه ذَكَر فى " الاستيعاب " فى باب الوليد، قال: إنّ له أخبارا فيها شَناعة تَقطَع على سوء حاله ، وقُبح أفعاله ؛ غفَرَ الله لنا وله ؛ فلقد كان من رجال قُرَيش

(١) الأغانى ٤ : ١٨٧ .

ظَرْفا وحِلْما وشَجاعةً وجُوداً وأَدَبا ، وكان من الشّعراء المطبوعين . قال : وكان الأصمعىّ وأبو عُبيدة وابنُ الكَلْبىّ وغيرهم يقولون : إنّه كان فاسقاً شِرِّيب خَمْر ، وكان شاعرا كريما . قال : وأخبارُه فى شُربِه الخمرَ ومنادَمَتِه أبا زُبَيد الطائىّ كثيرةٌ مشهورة ، ويَسمُج بنا ذِكرُها ، ولكنّا نذكر منها طَرَفا . ثمّ ذَكَر ما ذكره أبو الفرَج فى الأغانى ، وقال : إنّ خَبَر الصلاة وهو سكْران ، وقوله : « أأزيدكم ؟ » خبرٌ مشهورٌ رَوَتْه الثّقات من نَقَلَة الحديث .

قال أبو عمَر بنُ عبدِ البَرّ : وقد ذكر الطّبرىّ فى روايةٍ أنّه تغضّب عليه قومٌ من أهل الكوفة حَسَدا وبَغْيا ، وشهدوا عليه بشُرب الخمر ، وقال : إنّ عثمانَ قال له : يا أخى اصْبِر ، فإن الله يأجُرُك ويَبوءُ القومُ بإثمِك .

قال أبو عمر : هذا الحديث لا يَصِحّ عند أهل الأخبار ونَقَلَةِ الحديث ، ولا لَه عند أهل العِلم أصل ؛ والصحيحُ ثبوتُ الشهادةِ عليه عندَ عثمان ، وجلْدُه الحدّ ، وأنّ عليّا هو الّذى جَلَده . قال : ولم يَجلِده بيَدِه ، وإنّما أمَر بجَلْده ، فنُسِب الجَلْدُ إليه .

قال أبو عمر : ولم يَروِ الوليدُ من السنّة ما يحتاج فيها إليه ، ولكنّ حارثةَ بنَ مضرّب رَوَى عنه أنّه قال : « ما كانت نبوّة إلّا كان بعدَها مُلك »(١) .

---

(١) الاستيعاب ١٥٥٢ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) .

(٦٣)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعريّ وهو عامله على الكوفة ، وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ : أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَارْفَعْ ذَيْلَكَ ، وَاشْدُدْ مِئْزَرَكَ ، وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ ، وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ ، وَايْمُ اللهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِعْدَتِكَ ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ ، كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو ، وَلَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى ، يُرْكَبُ جَمَلُهَا ، وَيُذَلَّ صَعْبُهَا ، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا . فَاعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ ، وَلَا فِي نَجَاةٍ ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَائِمٌ حَتَّى لَا يُقَالُ: أَيْنَ فُلَانٌ ! وَاللهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ وَمَا يُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ ! وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

المراد بقوله : « قولٌ هوَ لك وعليك » ، أنّ أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة : إنّ عليّا إمامُ هُدًى ، وبَيْعته صحيحة ، إلّا أنّه لايجوز القِتال معه لأهل القِبْلة ، وهذا القولُ بعضُه حقّ ، وبعضه باطل .

وقوله : « فارفَع ذَيْلك » ، أى شمِّر للنهوض معى واللحاقِ بى ، لِتشهدَ حربَ أهلِ البصرة ، وكذلك قوله : « واُشددْ مِئزرَك » ، وكلتاهما كنايتان عن الجِدّ والتشمير فى الأمر .

قال : « واخرج من جُحْرك » ، أمرٌ له بالخروج من منزلهِ للّحاق به ، وهى كِنايةٌ فيها غَضٌّ من أبى موسى واُستهانةٌ به لأنّه لو أراد إعظامَه لقال : واخرج من خِيسِك[1] ، أو من غِيلِك[2] كما يقال للأسد ، ولكنّه جعله ثعلبا أو ضبّا .

قال : « واندُب مَنْ معك » ، أى ، واندُب رعيّتك من أهل الكوفة إلى الخروج معى واللّحاق بى .

ثم قال : « وإن تحقّقت فانفذ » أى أَمرُك مبنىٌّ على الشكّ ، وكلامك فى طاعتى كالمتناقض ، فإن حقّقتَ لزومَ طاعتى لك فانفذ ، أى سرْ حتى تَقدم علىّ ، وإن أقمتَ على الشكّ فاُعتزِل العمَل ، فقد عزلتُكَ .

قوله : « وأيم الله لتُؤتَيَنّ » معناه إن أقمتَ على الشكّ والاُسترابة وتثبيطِ أهل الكوفة عن الخروج إلىّ وقولِك لهم : لا يحلّ لكم سَلّ السيف لا مع علىّ ولا مع طلحة ، والزَموا بيوتكم ، واكسروا سيوفكم ، ليأتينّكم . وأنتم فى منازلكم بالكوفة أهلُ البصرة مع طلحة، ونأتينّكم نحن بأهل المدينة والحجاز ، فيجتمع عليكم سيفان من أمامكم ومن خلفِكم ، فتكون ذلك الداهيةُ الكبرى الّتى لا شَواةَ لها .

قوله : « ولا تترك حتى يخلط زُبْدُك بخاثِرك » تقول للرجل إذا ضربتَه حتى أثخنته : لقد ضربتُه حتّى خلطتُ زُبْدَه بخاثِره ، وكذلك حتّى خلطتُ ذائبه بجامدِه ، والخاثِر : اللّبن الغليظ ، والزُّبد خلاصة اللبن وصَفوته ، فإذا أثخنتَ الإنسانَ ضَرْبا كنتَ كأنّك

---

(١) الخيس : معرس الأسد (٢) الغيل : الشجر الكثير الملتف .

خلطتَ ما رَقّ ولَطُف من أخلاطه بما كَثُف وغَلُظ منها ، وهذا مَثَل ، ومعناه لتَفسُدَنّ حالُك ولتُخَلِّطَنّ ، وليضربنّ ما هو الآن منتظمٌ من أمرك .

قوله : « وحتى تُعْجَل عن قِعْدَتك » ، القِعْدة بالكسر هيئة القعود كالجلسة والرِّكْبة أى وليعجلنّك الأمرُ عن هيئة قعودك ، يصف شدّة الأمر وصعوبته .

قوله : « وتحذر مَنْ أمامك كحذرك من خَلفَك » ، يعنى يأتيك مِن خلفك إن أقمتَ على مَنْع الناس عن الحرب معنا ومعهم أهل البصرة وأهل المدينة ، فتكون كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ منكم ﴾[1] .

قوله : « وما هى بالهُوَيْنَى التى ترجو »، الهُوَيْنَى تصغير « الهونى » التى هى أنثى « أَهْوَن » ، أى ليست هذه الداهية والجائحة التى أذكُرها لك بالشىء الهيّن الذى ترجو اندفاعَه وسهولته .

ثم قال : بل هى الداهية الكبرى ستفعل لا محالة إن استمررتَ على ما أنت عليه ، وكَنَى عن قوله : « ستفعل لا محالة » بقوله : « يركب جملها » وما بعده ، وذلك لأنّها إذا رُكب جملُها ، وذلّل صعبُها وسهل وعْرُها فقد فعلت ، أى لا تقل: هذا أمرٌ أعظمٌ صعبُ المرام ، أى قصد الجيوش من كلا الجانبين الكوفة ، فإنه إن دام الأمرُ على ما أشرتَ إلى أهل الكوفة من التخاذُل والجلوس فى البيوت ، وقولك لهم : « كن عبد الله المقتول » لنقعنّ بموجب ما ذكرته لك ، وليرتكبنّ أهل الحجاز وأهل البصرة هذا الأمرَ المستصعب ، لأنّا نحن نطلب أن نَملك الكوفة ، وأهلُ البصرة كذلك ، فيجتمع عليها الفريقان .

ثم عاد إلى أمره بالخروج إليه فقال له : « فاعقِل عَقْلك ، واملِك أمرَك ، وخذ نصيبَك

---

(١) سورة الأحزاب ١٠ .

وحَظّك » ، أى من الطاعة ، واتّباع الإمام الّذى لَزِمتْك بيعته ، فإن كرهتَ ذلك ، فتنحّ عن العمل فقد عزلتُك . وابعُد عنّا لا فى رحْبٍ، أى لا فى سَعَة ، وهذا ضدّ قولهم : مَرْحبا .

ثم قال : فجديرٌ أن تكفى ما كُلِّفته من حضور الحرْب وأنت نائم ، أى لست معدودا عندنا ولا عندَ الناس من الرّجال الّذين تَفتقر الحروب والتّدبيرات إليهم ، فسيُغنى اللهُ عنك ولا يقال : أين فلان ؟

ثم أَقسَم أنّه لحقّ ، أى أنّى فى حرب هؤلاء لعَلَى حقّ ، وإن من أطاعنى مع إمام مُحِقّ ليس يُبالى ما صنَع الملحدون ، وهــذا إشارةٌ إلى قولِ النبىّ صلّى الله عليه وآله : « اللهمّ أدِرِ الحقّ معه حيثما دارَ » .

(٦٤)

الأَصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتابه* :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَاذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَالْيَوْمَ أَنَّا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرْهاً ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَرْباً.

وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ ، فَلَا عَلَيْكَ ، وَلَا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ .

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي جَمْعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدِ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ   بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ .

فَإِنَّكَ وَاللهِ مَا عَلِمْتَ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ : إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا فِي مَعْدِنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ !

(*) بقية شرح هذه الرسالة فى الجزء الثامن عشر .

وقَرِيبٌ ما أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمامٍ وأخْوالٍ ! حَمَلَتْهُمُ الشَّقاوَةُ وتَمَنِّى الْباطل، عَلَى الْجحُودِ بِمُحَمَّدٍ صلّى الله عليهِ وآلهِ ، فَصُرِعُوا مَصارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً ، ولَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً ، بِوقْعِ سُيُوفٍ ما خَلاَ مِنها الْوَغَى ، ولَمْ تُماشِّها الْهُوَيْنى .

وقَدْ أَكْثَرْتَ فى قَتَلةِ عُثْمانَ ؛ فادْخُلْ فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ ، ثُمّ حاكِمِ الْقَوْمَ إِلَىَّ، أَحْمِلْكَ وإِيَّاهُمْ عَلَى كِتاب اللهِ تعالى، وأَمّا تِلْكَ الَّتى تُرِيدُ ؛ فإنَّها خُدْعَةُ الصَّبِىِّ عَنِ اللَّبَنِ فى أوَّلِ الْفِصالِ ، والسَّلامُ لأهْلِه .

***

الشَّرْح :

[كتاب معاوية إلى على]

أمّا الكتاب الذى كتبه إليه معاوية ، وهذا الكتاب جوابه ، فهو :

من معاوية بن أبى سَفيان ، إلى علىّ بن أبى طالب :

أما بعد ، فإنّا بنى عبد مناف لم نزل نَنْزِعُ من قَلِيب واحد ، ونجرى فى حَلْبة واحدة، ليس لبَعْضنا على بعض فضل ، ولا لقائمنا على قاعدنا فخر ؛ كلمتنا مؤتلفة ، وألفَتُنا جامعة ، ودارُنا واحدة ، يجمعنا كرم العِرْق، ويَحوينا شرَفُ النِّجار ، ويحنو قويُّنا على ضعيفنا ، ويواسى غنيُّنا فقيرَنا ، قد خَلصَتْ قلوبُنا من دَغَل الحسد ، وطهُرتْ أنفسُنا من خُبْث النيّة ، فلم نزل كذلك حتى كان منك ما كان من الإدهان فى أمر ابن عمّك ، والحسد له ، ونُصرة الناس عليه ، حتى قُتِل بمشهدٍ منك ؛ لا تدفع عنه بلسان ولا يد . فلَيْتك

أظهرت نصره ، حيث أسررت خبره ، فكنت كالمتعلق بين الناس بعذرٍ[1] وإن ضعف ، والمتبرِّئ من دمه بدَفع وإن وَهن ، ولكنَّك جلستَ فى دارك تدُسّ إليه الدَّواهى ، وترسِل إليه الأفاعى ؛ حتى إذا قضيتَ وَطَرَك منه ، أظهرتَ شماتة ، وأبديت طلاقة ، وحسرت للأمر عن ساعدك ، وشمّرت عن ساقك ، ودَعوت الناس إلى نفسك ، وأكْرهت أعيان المسلمين على بَيعتك ، ثم كان منك بعد ما كان؛ من قتلك شَيْخَى المسلمين أبى محمد طلحة وأبى عبد الله الزّبير ، وهما من الموعُودين بالجنّة ، والمبشَّر قاتل أحدِهما بالنَّار فى الآخرة ، هذا إلى تشريدك بأمّ المؤمنين عائشة وإحلالها محلّ الهون ، مبتذَلةً بين أيدى الأعراب وفَسَقة أهل الكوفة ، فمن بين مشهِّر لها ، وبين شامِت بها ، وبين ساخر منها . تُرى ابنَ عمّك كان بهذه لو رآهُ راضيا ، أم كان يكون عليك ساخطا ، ولك عنه زاجراً ! أن تؤذىَ أهله وتُشرِّد بحليلته ، وتسفك دماء أهل ملّته . ثم تركك دار الهجرة التى قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عنها : «إنّ المدينة لتنفى خَبثها كما ينفى الكيرُ[2] خبثَ الحديد» ، فلعمْرى لقد صَحّ وعدُه وصدق قوله ، ولقد نَفَتْ خَبَثَها ، وطردتْ عنها من ليس بأهل أن يستوطِنها ، فأقمت بين المِصرَين ، وبَعُدْت عن بركة الحرمَيْن ، ورضيتَ بالكوفة بدلا من المدينة ، وبمجاورة الخورْنق والحيرة عوضا عن مجاورة خاتم النبوّة ، ومن قبل ذلك ما عبْتَ خليفتىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أيام حياتهما ، فقعدتَ عنهما وألّبتَ عليهما ، وامتنعتَ من بيعتهما ، ورُمتَ أمراً لم يرك الله تعالى له أهلا ، ورقيت سُلّماً وعراً ، وحاولت مقاما دحْضا ، وادّعيت ما لم تجد عليه ناصراً ؛ ولعمرى لو وَليتَها حينئذ لما ازدادت إلاّ فسادا واضطرابا ، ولا أعقبتْ ولايتكها إلا انتشارا وارتدادا ؛ لإنك الشامخ بأنفه ، الذاهب بنفسه ، المستطيلُ على الناس بلسانه ويده ؛ وها أنا سائرٌ إليك فى جمع

---

(١) ا : « بعدوّ » .

(٢) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

من المهاجرين والأنصار تحفهم سيوفٌ شاميَّة ، ورماحٌ قَحْطَانيّة ، حتى يحاكموك إلى الله . فانظر لنفسك وللمسلمين ، وادفع إليّ قَتلةَ عثمان ؛ فإنهم خاصّتك وخلصاؤك والمحدقون بك ، فإن أبيتَ إلّا سلوكَ سبيل اللّجاج ، والإصرار على الغيّ والضلال ، فاعلم أنّ هـذه الآية إنما نزلتْ فيك وفى أهل العراق معك : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[1] .

* * *

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل ومعانيه ، قال عليه السلام : لعمرى إنّا كنا بَيْتاً واحدا فى الجاهلية ، لأنا بنو عبد مناف ، إلّا أن الفرقة بيننا وبينكم حَصلتْ منذ بعث اللهُ محمداً صلى الله عليه وآله ، فإنّا آمنا وكفرتم ، ثم تأكّدت الفُرقة اليومَ بأنّا استقمنا على منهاج الحقّ وفتنتم .

ثم قال : « وما أسلم مَنْ أسلَمَ منكم إلا كَرْهاً » ، كأبى سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وغيرهم من بنى عبد شمس .

قال : « وبعد أن كان أنْفُ الإسلام محارباً لرسول الله صلى الله عليه وآله » أى فى أوّل الإسلام ، يقال : كان ذلك فى أنْف دولة بنى فلان ، أى فى أوّلها ، وأنْف كلّ شىء أوّله وطرَفه ، وكان أبو سُفْيانَ وأهله من بنى عبد شمس أشدَّ الناس عَلَى رسولِ الله صلى الله عليه وآله فى أوّل الهجرة ، إلى أن فتح مكة ، ثم أجابه عن قوله : « قتلتَ طلحة والزبير ، وشرّدت بعائشة ، ونزلتَ بين المصريْن » بكلام مختصر أعرض فيه عنه

---

(١) سورة النحل ١١٢ .

هَواناً به ، فقال : هذا أمرٌ غبتَ عنه ، فليس عليك كان العدوان الذى تَزْعُم ، ولا العذرُ إليك لو وجب علىّ العذرُ عنه .

فأما الجواب المفصّل فأن يقال : إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكْثِهما ، ولو استقاما على الطريقة لسلِما ، ومن قتله الحقُّ فدمه هَدَر ، وأما كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغيرُ مدفوع ؛ ولكن العيب يَحدُث ، وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادميْن على ما صَنعا ، وكذلك نقول نحن ؛ فإن الأخبار كثرت بذلك ، فهما من أهل الجنّة لتوبتهما ؛ ولولا توبتُهما لكانا هالكيْن كما هلك غيرُهما ، فإن الله تعالى لا يحابى أحدا فى الطاعة والتقوى ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ[1] ﴾ .

وأما الوعد لهما بالجنّة فمشروط بسلامة العاقبة ، والكلام فى سلامتهما ، وإذا ثبتتْ توبتهما فقد صحّ الوعد لهما وتحقق ؛ وقوله : « بشِّر قاتل ابن صفية بالنار » ، فقد اختُلف فيه ، فقال قومٌ من أرباب السِّيَر وعلماء الحديث : هو كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام غيرَ مرفوع ، وقوم منهم جعلوه مرفوعا ، وعلى كلّ حال فهو حقّ ، لأن ابن جُرموز قتله مولّياً خارجا من الصفّ ، مفارقا للحرب ؛ فقد قتله على توبةٍ وإنابةٍ ورجوع من الباطل ، وقاتلُ مَنْ هذه حاله فاسقٌ مستحقّ للنار ؛ وأما أمّ المؤمنين عائشة فقد صحّت توبتها ، والأخبارُ الواردة فى توبتها أكثر من الأخبار الواردة فى توبة طلحة والزبير ، لأنها عاشتْ زمانا طويلا ، وهما لم يبقيا ، والذى جَرَى لها كان خطأ منها ، فأىّ ذنب لأمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك! ولو أقامت فى منزلها لم تُبتذَل بين الأعراب وأهل الكوفة ؛ على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرَمها وصانها وعظّم من شأنها ، ومَنْ أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة . ولو كانت فعلتْ بعمر ما فعلتْ به ، وشقّت عصا الأمة عليه ، ثم ظفر بها ، لقتلها ومزّقها إرَباً إرَباً ، ولكنّ عليّا كان حليما كريما .

---

(١) سورة الأنفال ٤٢ .

وأمّا قوله : « لو عاش رسول الله صلّى الله عليه وسلم فبربّك هل كان يرضى لك أن تؤذى حليلته ! » فلعلىّ عليه السلام أن يقلب الكلام عليه ، فيقول : أفتراه لو عاش أكان يرضى لحليلته أن تؤذى أخاه ووصيّه ! وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لك يابن أبى سفيان أن تنازع عليا الخلافة وتفرق جماعة هذه الأمّة ! وأيضا أتراه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزبير أن يبايعا ، ثم ينكثا لا لسبب ، بل قالا : جئنا نطلبُ الدراهم ، فقد قيل لنا : إنّ بالبصرة أموالًا كثيرة ! هذا كلام يقوله مثلهما !

فأما قوله : « تركتَ دار الهجرة » ، فلا عيبَ عليه إذا انتقضتْ عليه أطرافُ الإسلام بالبَغْى والفَساد أن يَخرُج من المدينة إليها ، ويهذّب أهلها؛ وليس كلُّ من خَرَج من المدينة كان خَبَثاً ، فقد خَرَج عنها عمرُ مراراً إلى الشام . ثمّ لعلىّ عليه السلام أن يقلِب عليه الكلامَ فيقول له : وأنتَ يامعاوية؛ قد نَفَتْك المدينةُ أيضا عنها ، فأنت إذاً خبث ، وكذلك طلحة والزبيرُ وعائشةُ الذين تتعصّب لهم وتحتجُّ على النّاس بهم ، وقد خرج عن المدينة الصّالحون ، كابن مسعود وأبى ذَرّ وغيرهما ، وماتوا فى بلادٍ نائيةٍ عنها .

وأمّا قوله : « بعدتَ عن حُرْمة الحرمين ، ومجاوَرة قبرِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم » ، فكلام إقناعىٌّ ضَعيف ، والواجب على الإمام أن يقدّم الأهمّ فالأهمّ من مصالح الإسلام ، وتقديم قتال أهل البَغْى على المقام بين الحرمين أولَى . فأمّا ما ذَكَره من خِذْلانه عثمان وشماتتِه به ودعائه الناسَ بعد قتلِه إلى نفسه وإكراهه طلحةَ والزّبير وغيرهما على بَيْعته فكلّه دَعوى والأمر بخلافها ، ومن نَظَر كتب السِّير عرَف أنّه قد بَهتَه وادّعى عليه ما لم يَقَع منه .

وأمّا قوله : « التويتَ على أبى بكر وعمر ، وقعدت عنهما ، وحاولتَ الخلافة بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم » ، فإنّ عليًّا عليه السلام لم يكن يَجحَد ذلك ولا يُنكِره ، ولا رَيْب

أنّه كان يَدّعى الأمر بعد وَفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله لنفسه على الجُمْلة ، إمّا لنصٍّ كما تقوله الشيعة، أو لأمرٍ آخَرَ كما يقوله أصحابُنا . فأمّا قوله: « لو وليَتْها حينئذ لَفسد الأمر واضطَرب الإسلام» ، فهذا علمُ غَيْب لا يعلمه إلا الله ، ولعلّه لو وليها حينئذ لاستقام الأمرُ وصَلَح الإسلام وتمهّد ، فإنّه ما وقع الاضطراب عند ولايته بعدَ عثمان إلّا لأنّ أمرَه هانَ عندَهم بتأخّره عن الخلافة ، وتقدّم غيره عليه ، فصغُر شأنه فى النفوس ، وقرّر من تقدّمه فى قلوب الناس أنّه لا يَصلُح لها كلّ الصلاحية ، والناسُ على ما يحصُل فى نفوسهم ، ولو كان وَليَها ابتداءً وهو على تلك الحالة التى كان عليها أيّام حياة رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وتلك المنزلة الرفيعة والاختصاص الّذى كان له ، لكان الأمرُ غيرَ الّذى رأيناه عند ولايته بعد عثمان . وأمّا قوله : « لأنّك الشامخُ بأنفه ، الذاهبُ بنفسه » ، فقد أسرف فى وصفه بما وَصفه به ، ولا شكّ أنّ عليّا عليه السلام كان عندَه زَهْو لكن لا هكذا ، وكان عليه السلام مع زَهْوه ألطف الناس خُلُقا .

* * *

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظه عليه السلام ؛ قوله : « وذكرت أنّك زائرِى فى جَمْع من المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعَت الهجرةُ يوم أُسِر أخوك » هذا الكلامُ تكذيبٌ له فى قوله : « فى جمعٍ من المهاجرين والأنصار » ، أى ليس معك مهاجر لأنّ أكثر مَن معك ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وآله هم أبناء الطُّلَقاء ، ومن أسلَم بعد الفتح ، وقد قال النبىّ صلى الله عليه وآله :« لا هِجرةَ بعد الفَتْح » .

وعبّر عن يوم الفَتْح بعبارة حَسَنة فيها تقريع لمعاوية وأهلِه بالكفر ، وأنّهم ليسوا من ذوى السّوابق ، فقال : « قد انقطعتْ الهجرةُ يومَ أُسِر أخوك » ، يعنى يزيد بن أبى سُفيان أُسِرَ يوم الفتْح فى باب الخَنْدَمة ، وكان خَرَج فى نفرمن قريش يُحارِبون ويَمنَعون

من دخول مكّة ، فقُتِل منهم قومٌ وأُسِر يزيدُ بنُ أبى سفيان ، أَسرَه خالدُ بنُ الوليد ، فخلّصه أبوسُفْيان منه ، وأدخَلَه دارَه ؛ فأَمِن لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « من دخل دارَ أبى سُفْيانَ فهو آمِن » .

***

[ذكر الخبر عن فتح مكّة]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع ملخّصَ ما ذَكَره الواقدىّ فى كتاب " المغازِى " فى فتح مكّة ، فإن الموضع يقتضيه ؛ لقوله عليــه السلام : « ما أسلم مسلمُــكم إلا كَرْها » ، وقوله : « يومَ أُسِر أخوك » .

قال محمد بن عمر الواقدىّ فى كتاب " المَغَازى " :

كان رسولُ الله صلّى الله عليــه وسلّم قد هادن قريشاً فى عام الحُدَيْبيَة عشر سنين ، وجعل خزاعة داخلةً معه ، وجعلت قريشٌ بنى بكر بن عبد مناة من كنانة داخلةً معهم ، وكان بين بنى بكر وبين خُزاعة تِراتٌ فى الجاهليّة ودماء ، وقد كانت خُزاعةُ من قبلُ حالفتْ عبدَ المطّلب بن هاشم ، وكان معها كتابٌ منه ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله يَعرِف ذلك ، فلمّا تمّ صُلح الحُدَيْبيَة وأمِن الناسُ ، سَمِــع غلامٌ من خُزاعة إنسانًا من بنى كنانة يقال له : أَنَس بن زُنيم الدّؤلىّ[١] يُنشِد هجاءً له فى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فضربه فشجّه ، فخرج أنس إلى قومه فأراهم شجّته فثار بينهم الشرّ ، وتذاكروا أحقادَهم القديمة ، والقوم مجاورون بمــكّة ، فاستنجدتْ بكر بن عبد مناة[٢] قُرَيْشا على خُزاعة ، فمن قريشٍ مَنْ كره ذلك وقال: لاأنقض عهدَ محمّد ، ومنهم من خفّ إليه . وكان أبوسُفْيان أحدَ من كَرِه ذلك ، وكان صَفْوان بن أميّة وحُوَيْطب بن عبد العزّى ومُــكْرَز بن حَفْص

(١) ا « الديلى » .   (٢) ب : « مناف » ، وصوابه فى ا ، د .

ممّن أعان بنى بكر ، ودَسّوا إليهم الرجالَ بالسلاح سرّا ، وبيّتوا خُزاعة ليلا ، فأوقعوا بهم ، فقتلوا منهم عشرين رجلا ، فلمّا أصبحوا عاتبوا قريشاً ، فجحدتْ قريشٌ أنّها أعانت بكرا ، وكذّبت فى ذلك ، وتبرّأ أبو سُفْيانَ وقوم من قريش مما جَرَى ، وشَخَص قومٌ من خُزاعةَ إلى المدينة مستصرِخِين برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فدَخَلوا عليه وهو فى المسجد ، فقامَ عمرو بن سالم الخزاعىّ فأنشده :

لا هُمَّ إنّى ناشِدٌ محمّدا ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدَا[١]
لكنتَ والداً وكنّا وَلَدا[٢] ... ثمّتَ أسلَمْنا ولم نَنزع يَدَا
إنّ قريشاً أخلفوك المَوْعِدَا ... ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا
همْ بيّتونا بالوَتير هُجَّدا[٣] ... نتلو القرآنَ رُكّعا وسُجَّدا
وَزَعموا أن لستَ تَدْعُو أحدَا ... وهمْ أذلّ وأقلّ عَددَا
فانصُرْ هَداكَ اللهُ نَصراً أيِّدا[٤] ... وادْعُ عباد الله يأتُوا مَدَدا[٥]
فى فيلقٍ كالبَحْر يَجرى مُزْبِدا[٦] ... فيهمْ رسولُ الله قد تجرّدا
* قرمٌ لقَومٍ من قُروم أصيَدَا *

ثمّ ذَكَروا له ما أثار الشرَّ ، وقالوا له : إنّ أَنَس بنَ زُنَيم هجاكَ ، وإنّ صَفْوان ابن أميّة وفلانا وفلانا دَسّوا إلينا رجالَ قريش مُستنصرين ، فبيّتونا بمنزلنا بالوَتير فقتّلونا ، وجئناكَ مستصرخين بك ، فزَعموا أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قام مُغضَبا يجرُّ رداءه ويقول : « لا نُصِرْتُ إن لم أنصُرْ خُزاعةَ فيما أنصُرُ منه نفسى ! » .

---

(١) فى الأصول : « الأملدا » وصوابه من ابن هشام ٤ : ١٠ . والأتلد : القديم .
(٢) ابن هشام : « قد كنتم ولدا » . (٣) الوتير : اسم ماء بعينه .
(٤) أيداً : قوياً ؛ وفى ب : « أبداً » ؛ والصواب ما فى ا وابن هشام .
(٥) المدد : العون . (٦) الفيلق : العسكر .

قلتُ : فصادَفَ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله إيثارا وحُبّا لنقض العهد ، لأنه كان يريد أن يفتح مكّة وهمّ بها فى عام الحُدَيْبية فصُدّ ، ثمّ همّ بها فى عُمْرة القضيّة ، ثم وقف لأجل العهد والميثاق الّذى كان عَقَده معهم ، فلمّا جرى ما جرَى على خُزاعة اُغتنَمَها .

قال الواقدىّ : فكتب إلى جميع الناس فى أقطار الحجاز وغيرها يأمُرهم أن يكونوا بالمدينة فى رمضان من سنة ثمانٍ للهجرة ، فوافَتْه الوُفُود والقبائل من كلّ جهة ، فخرج من المدينة بالناس يوم الأربعاء لعشرٍ خَلَوْن من رمضانَ فى عشرةِ آلاف ، فكان المهاجرُون سبعمائة ، ومعهم من الخيل ثلثمائة فرسٍ ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مُزَيْنَةُ ألفاً ، فيها من الخيل مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ، فيها من الخيل ثلاثون فرسا ، وكانت جُهَيْنةُ ثمانمائة معها خمسون فرسا ، ومن سائر الناس تمامُ عشرة آلاف ، وهم بنو ضَمْرة وبنو غِفار وأشجَع وبنو سُلَيم وبنو كَعْب بن عمرو وغيرهم . وعَقَد للمهاجرين ، ثلاثة ألوية : لواء مع علىّ ، ولواء مع الزبير ، ولواء مع سعد ابن أبى وقّاص ، وكانت الرّاياتُ فى الأنصار وغيرهم ، وكتم عن الناس الخبر ، فلم يعلم به إلّا خواصّه ، وأمّا قريش بمكّة فندِمتْ على ما صنعتْ بخُزاعة ، وعرَفَت أنّ ذلك انقضاء ما بينهم وبين النبىّ صلى الله عليه وسلّم من العهد ، ومَشَى الحارثُ بنُ هشام وعبدُ الله بنُ أبى ربيعة إلى أبى سُفْيان فقالا له : إنّ هذا أمرٌ لابدّ له أن يُصلَح ، والله إن لم يُصلَح لا يَرُوعكم إلّا محمّدٌ فى أصحابه . وقال أبو سُفْيان : قد رأتْ هندٌ بنتُ عُتْبة رؤيا كرِهَتْها وأفظَعَتْها ، وخفتُ من شرّها ، قالوا : ما رأت ؟ قال : رأت كأن دماً أقبل من الحَجُون يَسيل حتى وقف بالخَنْدَمة مَلِيّا ، ثمّ كأنّ ذلك الدم لم يكن ؛ فكَرِه القومُ ذلك وقالوا : هذا شرّ .

قال الواقدىّ : فلمّا رأى أبو سُفْيانَ ما رأى من الشرّ قال : هذا واللهِ أمرٌ لم أشهده

ولم أَغِب عنه ، لا يُحمَل هذا إلّا علىّ ، ولا والله ماشُوورت ولا هُوّنت[1] حيث بلغنى ، والله ليَغزُونا محمدٌ إنْ صَدَق ظنى وهــو صادق ، ومالى بُدّ أن آتىَ محمّدا فأكلّمه أن يزيد فى الهُدْنة ، ويجدّد العهد قبل أن يَبلُغه هذا الأمر . قالت قريش : قد والله أصبتَ ؛ وندمتْ قريشٌ على ما صنعتْ بخُزاعة وعرفت أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله لا بدّ أن يغزُوَها ؛ فخرج أبو سُفْيانَ وخَرَج معه مولًى له على راحلتين ، وأسرَعَ السيرَ وهو يرى أنّه أوّل من خرج من مكّة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدىّ : وقد رُوِىَ الخبر على وجهٍ آخر ، وهو أنّه لمّا قَدِم رَكْبُ خُزاعةَ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأخبَروه بمن قُتل منهم ، قال لهم : بمن تُهْمتكم وطلبتكم ؟ قالوا : بنو بكر بن عبدِ مَناة ، قال : كلّها ؟ قالوا : لا، ولكن تهمتنا بنو نُفاثة قَصْرةً[2]، ورأسهم نَوْفل بن معاوية النُّفاثىّ ؛ فقال : هــذا بطنٌ من بكر ، فأنا باعث إلى أهل مكة فسائلُهم عن هذا الأمر ، ومخيّرُهم فى خصال . فبعثَ إليهم ضَمْرة يُخيّرهم بين إحدى خلال ثلاث : بين أن يَدُوا خُزاعةَ ، أو يَبرءوا من حِلْف نُفاثة ، أو ينبذ إليهم على سواء . فأتاهم ضَمْرة فخيّرهم بين الخلال الثلاث ، فقال قُرَيظة بن عبد عمرو الأعمى : أمّا أنْ نَدِىَ قتلى خُزاعة ، فإنا إنْ وَدَيْناهم لم يَبْق لنا سَبَد ولا لَبَد[3] ، وأمّا أن نبرأ من حلف نُفاثَة ، فإنه ليس قبيلة تحجّ هــذا البيت أشدّ تعظيما له من نُفاثة ، وهم حُلَفاؤنا فــلا نبرأ من حِلْفهم ، ولكنّا نَنْبِذ إليه على سواء . فعاد ضَمْرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وندمتْ قريشٌ أن ردّتْ ضَمْرة بما ردّتَه به .

قال الواقدىّ : وقد رُوِى غيرُ ذلك ؛ رُوِى أنّ قريشاً لمّا ندمتْ على قتــل خُزاعة وقالت : محمد غازينا ، قال لهم عبدُ الله بن سعد بن أبى سَرْح ـ وهــو يومئذ كافر مرتدّ

---

(١) ب . « هويت » ، وأثبت ما فى ا ، د . (٢) قصرة : أى هم دون غيرهم .

(٣) يقال : ما له سبد ولا لبد ؛ أى لا قليل ولا كثير .

عندهم ـ: إنّ عندى رأياً ؛ إنّ محمدا ليس يَغْزوكم حتّى يُعذِر إليكم ويُخيّركم فى خصال كلّها أهوَن عليكم من غزْوه ، قالوا : ما هى؟ قال : يرسل إليكم أن تَدُوا قَتْلَى خُزاعة ، أو تبْرَءوا من حِلْف من نَقَض العهد وهم بنو نُفاثة ، أو ينبذ إليكم العهد . فقال القومُ : أحْرِ بما قال ابنُ أبى سَرْح أن يكون ! فقال سُهَيل بنُ عمرو : ما خَصْلة أيسر علينا من أن نبرأ من حلف نُفاثة ، فقال شَيْبة بنُ عثمانَ العَبْدَرِىّ : حُطْتَ أخوالك (١) خُزاعة ، وغضبت لهم ! قال سهيل : وأىّ قريش لم تَلِد خُزاعة ! قال شيبة : لا ، ولكن نَدِى قَتلى خُزاعة فهو أهونُ علينا . فقال قُرَيظة بنُ عبد عمرو : لا والله لا نَدِيهم ولا نَبرَأ عن نُفاثة أبرّ العرَب بنا ، وأعمرهُم لبَيْت ربّنا ، ولكنْ نَنْبذ إليهم على سواء . فقال أبو سُفْيان : ما هذا بشىء ، وما الرأىُ إلا جَحْد هذا الأمر أن تكون قريش دخلتْ فى نَقْض العهد ، أو قطع مدّة ، فإن قطعه قومٌ بغير هَوًى منّا ولا مَشُورة فما علينا ! قالوا : هذا هو الرأى ، لا رأى إلّا الجحْد لكلّ ما كان من ذلك ؛ فقال : أنا أقسم أنّى لم أشْهَد ولم أُوَامر ، وأنا صادق ؛ لقد كرهتُ ما صَنَعتم ، وعرفتُ أن سيكون له يوم غماس (٢) ، قالت قريش لأبى سُفْيان : فاُخرج أنتَ بذلك ؛ فخرج .

قال الواقدىّ : وحدثنى عبد الله بن عامر الأسلمىّ ، عن عطاء بن أبى مروان ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعائشة صبيحة الليلة التى أُوقعتْ فيها نُفاثة وقُرَيش بخُزاعة بالوتير : يا عائشة لقد حَدث الليلة فى خُزاعة أمر ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشا تجترئ على نَقْض العهد بينك وبينهم ! أينقضون وقد أفناهم السيف! فقال: العهد لأمر يريدُه الله بهم ، فقالت : خيرٌ أم شرٌّ يا رسول الله ؟ فقال : خير .

قال الواقدىّ : وحدّثنى عبدُ الحميد بن جعفر ، قال : حدّثنى عمْران بن أبى أنس ، عن ابن عباس ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهو يَجُرّ طَرَف رِدائه ويقول :

---

(١) ب : « إخوانك » ، وما أثبته من ا ، د . (٢) يوم غموس ، أى شديد .

« لا نُصِرتُ إن لم أنصر بنى كَعب ـ يعنى خزاعة ـ فيما أنصرُ منه نفسى ! » .

قال الواقدىّ : وحدثنى حرام بن هشام ، عن أبيه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لَكأنكم بأبى سُفْيان قدجاءكم يقول: جدِّد العهد وزِدْ فى الهدنة وهوراجع بِسخْطه. وقال لبنى خُزاعة عمرُو بن سالم وأصحابه : ارجعوا وتفرّقوا فى الأوْدية ، وقام فدخل على عائشة وهو مُغضَب ، فدعا بماء، فدخل يغتسل؛ قالت عائشة : فأسمعُه يقول وهو يصُبّ الماء على رِجليه : « لا نُصِرْت إن لم أنصُرْ بنى كَعب » !

قال الواقدىّ : فأمّا أبو سفيان فخرج من مكة وهو متخوّف أن يكون عمرو بن سالم وَرَهْطه من خُزاعة سَبقوه إلى المدينة ، وكان القوم لمّا رَجعوا من المدينةوأتوا الأبواء تفرّقوا كما أوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهبت طائفةٌ إلى الساحل تعارض الطريق ، ولزم بُدَيل بن أمّ أصرَم الطريق فى نفر معه ، فلقيَهم أبو سُفيان ، فلما رآهم أشفق أن يكونوا لقُوا محمدا صلى الله عليه وسلم بل كان اليقينُ عنده ، فقال للقوم : منذُ كم عهدكم بيثرب ؟ قالوا : لا عهد لنا بها ، فعرَف أنهم كتموه ، فقال : أما معكم من تمرْ يثرب شىء تُطعِموناه ، فإن لتمر يثرب فَضْلا على تمر تِهامة ؟ قالوا : لا ، ثم أبت نفسه أن تقرّ ، فقال : يا بُدَيل ، هل جئت محمدا ؟ قال : لا ولكنى سرتُ فى بلاد خُزاعة من هذا الساحل فى قتيل كان بينهم حتى أصلحتُ بينهم . قال : يقول أبو سفيان : إنك ـ والله ماعلمتُ ـ برٌّ واصل . فلما راحَ بُدَيل وأصحابه جاء أبو سفيان إلى أبعار إبلهم ففتّها فإذا فيها النوى ، ووجد فى منزلهم نوى من تمر عجوة كأنه ألسنة العصافير ، فقال : أحلف بالله لقد جاء القومُ محمّدا . وأقبَل حتّى قَدِم المدينَة ، فدخل على النبىّ صلّى الله عليه وآله ، فقال : يا محمّد ، إنّى كنت غائبا فى صُلح الُحديْبية ، فاُشدُد العهدَ وزِدْنا فى المدّة ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : ولذلك قدمتَ يا أبا سُفْيان ! قال : نعم، قال : فهل كان قِبَلكم حَدَث؟

فقال : مَعاذ الله ! فقال رسولُ الله : فنحن على مَوثِقنا وصُلْحنا يومَ الحُدَيْبية لا نغيّر ولا نبدّل . فقام مِن عندِه فدخل على ابنته أمّ حبيبة ، فلمّا ذهب ليجلسَ على فِراش رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم طَوَتْه دونَه ، فقال : أرغِبتِ بهذا الفراش عنّى ، أم رغبتِ بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراشُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأنت امروٌ نَجسٌ مُشرِك. قال : يا بنيّة ، لقد أصابَكِ بعدى شرّ ، فقالت : إنّ الله هدانى للإسلام ، وأنتَ يا أبتِ سيّدُ قريش وكبيرها، كيف يَخفى عنك فضلُ الإسلام ، وتَعبُد حَجَراً لا يَسمَع ولا يُبصر ! فقال : يا عجبا ! وهذا منكِ أيضا ! أأترك ما كان يَعبُد آبائى وأتّبع دينَ محمّد ! ثم قام من عندِها فلقِىَ أبا بكر ، فكلّمه ، وقال: تُكلِّم أنتَ محمّدا ، وتجير أنت بين الناس . فقال : أبو بكر : جوارِى جوارُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلّم ، ثم لقِىَ عمرَ فكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر ، فقال عمر : والله لو وجدتُ السِّنَّوْرَ تقاتِلكم لأعنتُها عليكم . قال أبو سُفْيان : جُزِيت من ذِى رَحِم شرّا ! ثم دخل على عثمانَ بنِ عَفّان فقال له : إنه ليس فى القوم أحدٌ أمسّ بى رَحِماً منك ، فزِدْنى المدنة وجَدِّد العهدَ ، فإنّ صاحبك لا يردّ عليك أبدا ؛ والله ما رأيتُ رجلا قطّ أشدّ إكراماً لصاحب من محمّد لأصحابه ، فقال عثمان : جِوارِى جوارُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فجاء أبو سُفْيان حتّى دخل على فاطمةَ بنتِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكلّمها ، وقال : أجيرِى بين الناس ، فقالت : إنّما أنا امرأة ، قال : إنّ جِوارَكِ جائز ، وقد أجارت أختُكِ أبا العاص بنَ الرّبيع ، فأجازَ محمّد ذلك . فقالت فاطمة : ذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ وأبتْ عليه ، فقال : مُرِى أحدَ هذين ابنيك يُجيرُ بين الناس ، قالت : إنّهما صبيّان ، وليس يجيرُ الصبىُّ . فلمّا أبت عليه أتى عليّا عليه السلام فقال : يا أبا حسَن ، أجِرْ بين الناس وكلِّم محمّداً ليزيدَ فى المُدّة ، فقال علىّ عليه السلام : وَيْحك يا أبا سُفْيان ! إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قد عَزَم

ألّا يفعل ، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلّمه فى شىء يكرهه ، قال أبو سُفيان : فما الرأىُ عندك فتشير لأمرى ، فإنّه قد ضاقَ علىّ ؟ فمرنى بأمرٍ ترَى أنّه نافعى ، قال علىّ عليه السلام : والله ما أجد لك شيئاً مِثل أن تقومَ فتُجيرَ بين الناس ، فإنك سيّدُ كِنانة ، قال : أترى ذلك مغْنيا عنّى شيئاً ؟ قال علىّ : إنّى لا أظنّ ذلك واللهِ ، ولكنّى لا أجدُ لكَ غيرَه . فقام أبو سُفْيانَ بين ظَهْرَى الناس فصاح : ألا إنّى قد أجرتُ بينَ الناس ، ولا أظنّ محمّدا[1] يحقِرنى . ثمّ دخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال : يا محمّد ماأظنّ أن تردّ جوارِى ! فقال عليه السلام : أنت تقول ذلك يا أبا سُفْيان ! ويقال: إنّه لمّا صاح لم يأت النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وركب راحلَته وانطلَق إلى مكّة . ويُروَى أنه أيضا أتَى سعدَ بنَ عُبادةَ فكلّمه فى ذلك : وقال : يا أبا ثابت ، قد عرفتَ الذى كان بينى وبينَك ، وإنّى كنتُ لك فى حَرَمِنا جاراً ، وكنتَ لى بيثربَ مِثلَ ذلك ، وأنتَ سيّدُ هذه المَدَرَة ، فأجِرْ بين الناس ، وزِدْنى فى المُدّة . فقال سعد : جوارِى جوارُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ما يجيرُ أحدٌ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ فلمّا انطلق أبو سُفْيان إلى مكّة، وقد كان طالتْ غيبتُه عن قريش وأبطأ ، فاتّهموه وقالوا : نراه قد صَبَأ واتّبع محمّدا سِرّا، وكَتَم إسلامَه ؛ فلمّا دخل على هندٍ ليلا قالت : قد احتُبستَ حتّى اتُّهمك قومُك ، فإن كنتَ جئتَهم بنُجْح فأنت الرجل. وقد كان دنا منها ليَغْشاها ، فأخبرَها الخبر وقال: لم أجد إلّا ما قال لى علىّ ، فضَربتْ برِجلها فى صدورِه وقالت : قُبِّحتَ من رسولِ قَوْم !

قال الواقدىّ : فحدّثنى عبدُ الله بنُ عثمانَ ، عن أبى سليمان ، عن أبيه ، قال : لمّا أصبح أبو سُفْيان حَلَق رأسَه عند الصَّنَمين : أساف ونائلة ، وذَبح لهما ، وجعل يمسح بالدمّ رءوسَهما ، ويقول : لا أفارق عبادَتَكما حتّى أموت على ما ماتَ عليه أبى . قال: فعَل ذلك ليبرِّئ نفسَه ممّا اتّهمتْه قريش به .

---

(١) د : « يجيرنى » .

قال الواقدىّ : وقالت قريش لأبى سُفْيان : ما صنعتَ ؟ وما وراءك ؟ وهل جئتَنا بكتاب من محمد وزيادةٍ فى المُدّة ؟ فإنّا لا نأمن من أن يَغزُونا ، فقال : واللهِ لقد أَبَى علىّ ، ولقد كلّمت عليه أصحابَه فما قَدَرتُ على شىء منهم ، ورَمَوْنى بكلمةٍ منهم واحدة ، إلّا أنّ عليّا قال لمّا ضاقت بىَ الأمور : أنت سيّد كِنانة ، فأَجِرْ بين الناس ، فناديتُ بالجِوار ، ثمّ دخلتُ على محمد فقلت : إنى قد أجرتُ بين الناس ، وما أظنّ محمدا يردّ جِوارى ، فقال محمد : أنتَ تقول ذاك يا أبا سُفْيان ! لم يَزِد على ذلك ، قالوا : ما زاد علىّ على أن يَلعَب بك تلعّبا ؛ قال : فوالله ما وجدتُ غيرَ ذلك .

قال الواقدىّ : فحدّثنى محمد بن عبد الله ، عن الزّهرىّ ، عن محمد بن جُبَير بن مُطعِم ، قال : لمّا خرج أبو سُفْيان عن المدينة قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : جَهّزينا وأخفِى أمرَك . وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : اللهمّ خُذْ عن قريش الأخبارَ والعيونَ حتى نأتيَهم بَغتةً ؛ ورُوِى أنه قال : اللّهمّ خُذْ على أبصارهم فلا يَرَوْنى إلّا بغتة ، ولا يَسمَعون بى إلّا فجأة . قال : وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم الأنْقابَ وجعل عليها الرجالَ ، ومَنعَ مَنْ يخرج من المدينة ، فدخل أبو بكر على عائشةَ وهى تجهِّز رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، تعمَل له قَمْحا سَوِيقا ودَقيقا ، وتمْرا ، فقال لها : أهَمَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بغزْوٍ ؟ قالت : لا أدرى ؛ قال : إن كان هَمّ بسَفَرٍ فآذِنينا نتهيّأْ له ؛ قالت : لاأدرى لعلّه أراد بنى سُلَيم ، لعلّه أراد ثَقيفا أو هَوازِنَ ! فاستعْجَمَت[1] عليه ، فدَخَل على رسولِ الله صلى الله عليه وآله فقال : يارسولَ الله ، أردتَ سَفَرا ؟ قال : نعم ، قال : أفأتجهّز ؟ قال : نعم ، قال : وأين تريد ؟ قال : قريشا ، وأَخْفِ ذلكَ يا أبا بكر ، وأمَر رسولُ الله صلى الله عليه وآله الناسَ فتجهّزوا ، وطَوَى عنهم الوجهَ الّذى يريد ، وقال له أبو بكر : يا رسولَ الله ، أوَ ليسَ بيننا وبينهم مدّة ؟ فقال : إنّهم غَدَروا ونقَضوا العهد ،

(١) يقال: استعجم عليه ؛ إذا سكت ولم يحر جواباً .

فأنا غازيهم ، فاطوِ ما ذكرتُ لك ، فكان الناسُ بين ظانٍّ يظُنّ أنّه يريد سُلَيما ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد هَوازِنَ ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد ثَقِيفا ، وظانٍّ يَظُنّ أنه يريد الشامَ ، وبعَثَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله أبا قَتادةَ بن رِبْعِىّ فى نفر إلى بطنٍ ليظنّ الناسُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قدّم أمامه أولئك الرجالَ لتوجّهه إلى تلك الجهة ، ولتذهب بذلك الأخبارُ .

قال الواقدىّ : حدّثنى المنذر بنُ سعد ، عن يزيدَ بن رُومان ، قال : لمّا أجمَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله المسيرَ إلى قريش ، وعَلِم بذلك مَن عَلِم من الناس ، كتب حاطبُ ابنُ أبى بَلْتَعَة إلى قريش يُخبِرهم بالّذى أجمَعَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى أمرهم ، وأعطى الكتابَ امرأةً من مُزَينة ، وجعلَ لها على ذلك جُعْلا على أن تُبلّغه قريشا ، فجعلتْ الكتابَ فى رأسها ، ثم فَتَلَتْ عليه قُرونَها وخرجتْ به ، وأتى الخبرُ إلى النبىّ صلى الله عليه وآله من السّماء بما صَنَع حاطب ، فبعَثَ عليًّا عليه السلام والزّبيرَ فقال : أدرِكا امرأةً من مُزَينة قد كَتَب معها حاطبٌ كتابا يُحذّر قريشا ، فخرَجا وأدرَكاها بذى الحُلَيْفة ، فاستنزلاها والتَمَسَا الكتابَ فى رَحْلها فلم يَجدا شيئاً ، فقالا لها : نَحلِف بالله ما كَذَب رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم ولا كَذَبنا ، ولتُخرِجِنّ الكتاب أو لنَكْشِفَنَّكِ . فلمّا رأت منهما الجدّ حلّت قُرونَها ، واستخرجَتِ الكتابَ فدفعتْه إليهما ، فأقبَلَا به إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فدعا حاطباً وقال له : ما حمَلَك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، والله إنّى لَمُسلِم مؤمنٌ بالله ورسوله ، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ ، ولكنّى كنتُ امرأً ليس لى فى القوم أصْل ولا عَشيرة ، وكان لى بين أظهُرِهم أهلٌ ووَلَد ، فصانعتُهم. فقال عمر : قاتلك الله ! ترى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يأخُذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذّرهم ! دَعْنى يا رسولَ الله أضرب عُنُقه ، فإنّه قد نافَق ، فقال رسولُ الله صلى الله

عليه وآله : وما يدريك يا عمر لعلّ الله قد اطّلع على أهلِ بَدْر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غَفرتُ لكم ! قال الواقديّ : فلما خرج رسولُ الله صلّى الله عليه وآله من المدينة بالألْوِية المعقودة والرّايات بعدَ العصر من يوم الأربعاء لعشرٍ خلوْنَ من شهر رمضانَ لم يحلّ عقده حتّى انتهى إلى الصَّلصل⁽¹⁾ ، والمسلمون يَقُودون الخيلَ ، وقد امتَطوا الإبل ، وقدّم أمامَه الزبير بن العوّام فى مائتين ؛ قال : فلمّا كان بالبَيْداء نظر إلى عَنانِ السّماء ، فقال : إنّى لأرَى السحابَ تستهِلّ⁽²⁾ بنصرِ بنى كعب ـ يعنى خُزاعة .

قال الواقديّ : وجاء كعبُ بنُ مالك لِيَعلَم أىّ جهةٍ يقصد ؟ فبَرَكَ بين يديه على رُكبتيه ، ثمّ أنشده :

قَضَينا من تِهامَةَ كلّ نَحْب⁽3⁾ ... وخيبرَ ثمّ أحمَيْنَا السُّيوفَا
فسائِلْها ولو نَطقَتْ لقالت ... قَواضِبُهنّ دَوْسا أو ثَقِيفا
فلستُ بحاضِر إن لم تَرَوْها ... بساحةِ دارِكم منها ألوفا
فننتزِع الخِيام ببَطْنِ وَجٍّ ... ونَتْرُك دُورَكم منها خُلُوفا

قال : فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ولم يَزِد على ذلك ، فجعل الناسُ يقولون : والله ما بَيَّنَ لكَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئاً ، فلم تزَل الناسُ كذلك حتّى نزلوا بمَرّ الظَّهْران .

قال الواقديّ : وخرج العبّاس بنُ عبدِ المطّلب ومَخرَمة بنُ نَوْفل من مكّة يَطلُبان رسولَ الله صلى الله عليه وآله ظَنًّا منهما أنّه بالمدينة يريدان الإسلام ، فلَقِياه بالسُّقيا .

---

(1) صلصل : بنواحى المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح . ياقوت .

(2) استهل السحاب ؛ إذا كثر انصبابه . (3) النحب : النذر .

قال الواقديّ : فلمّا كانت الليلة الّتى أصبحَ فيها بالجُحْفة رَأَى فيها أبو بكر فى مَنامِه أنّ النبيّ صلى الله عليــه وآله وأصحابَه قد دنَوْا من مَــكّة فخرجتْ عليهم كَلْبة تَهِرّ[١] فلما دَنَوا منها استلقَتْ على قفاها ، وإذا أَطْباؤها[٢] تَشخُب لبنا . فقصَّها على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ذهب كَلَبهم ، وأَقبَل دَرُّهم ، وهم سائلونا بأرحامِهم ، وأنتم لاقُون بعضَهم ، فإن لقيتمْ أبا سُفْيانَ فلا تقتلوه .

قال الواقديّ : وإلى أن وَصَل مَرّ الظَّهْران لم يَبلُغ قريشاً حرفٌ واحد من حاله ، فلمّا نزل بمَرّ الظَّهْران أمر أصحابه أن يُوقِدوا النار ، فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وأجمعتْ قريشٌ أن يَبعثُوا أبا سُفْيان يتجسّس لهم الأخبار ، فخرج هو وحكيمُ بنُ حزام وبُدَيل بنُ وَرْقاء . قال: وقد كان العبّاس بنُ عبد المطّلب قال : واسوء صَباح قُرَيش! والله إنْ دَخَلها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله عَنْوَةً إنّه لهلاكُ قريش آخرَ الدهر ؛ قال العبّاس: فأخذتُ بغلة رسول الله صلّى الله عليه وآله الشّهباء فركبتها ، وقلتُ : ألتمس حطّابا أو إنسانا أبعثه إلى قريش فيَلقَوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قبلَ أن يدخُلها عليهم عَنْوةً ؛ فوالله إنّى لفى الأراك لَيْلا أبتغى ذلك إذ سمعتُ كلاما يقول: والله إنْ رأيتُ كالّليلة نارا ، قال: يقول بُدَيل بنُ وَرْقاء : إنّها نيرانُ خُزاعةَ جاشها[٣] الحرب . قال: يقول أبوسفيان : خُزاعة أذلّ من أن تـكون هذه نيرانُها وعسكرُها ؛ فعرفتُ صوته ، فقلتُ: أبا حَنْظلة! فعرَف صوتى، فقال: لبّيك أبا الفضْل! فقلتُ: ويْحَك! هذا رسولُ الله فى عشرة آلاف ، وهو مصبِّحكم ؛ فقال: بأبى وأمّى ، فهل من حيلة ! فقلت: نَعَم ، تركَب عَجُزَ هذه البغلة ، فأذهب بك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فإنّه إن ظَفِر بك دونَ ذلك ليقتلنّك ؛ قال : والله أنا أرى ذلك ، فرَكِب خَلْفى ، ورَحَل

---

(١) تهر : تنبح .
(٢) الأطباء : حلمات الضرع من ذات الخف والظلف والحافر .
(٣) جاشها الحرب : أفزعها .

بُدَيل وحكيم فتوجّهت به فلمّا مررتُ به على نار من نيران المسلمين قالوا : من هـذا ؟ فإذا رأوْنى قالوا : عمّ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم على بَغْلة رسولِ الله ، حتّى مررتُ بنـار عمرَ بن الخطّاب ، فلمّـا رآنى قال : من هذا ؟ قلت : العبّـاس ، فذهب ينظُر فرأى أبا سُفْيان خَلْفى ، فقال : أبو سُفْيان عدوّ الله ! الحمدُ لله الّذى أمكَن منك بغير عَهْد ولا عَقْد ! ثمّ خرج يشتدّ نحو رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ورَكَضتِ البغلة حتّى اجتمعنا جميعا على باب قُبّة رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ، فدخلتُ ودخلَ عمرُ بنُ الخطّاب على أثرى ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا أبو سُفْيان عدوّ الله قد أمـكَن الله منه بغير عَقْد ولا عهْـد ، فدعْنى أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إنّى قد أجَرْته ، ثمّ لزمتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم فقلتُ : والله لا يُناجيه الليلة أحدٌ دونى ، فلمّا أكثرَ عمرُ فيـه قلت : مهلا يا عمر ! فإنّه لو كان رجلا من عدىّ بن كعب ما قلت هذا ، ولـكنّه أحدُ بنى عبدِ مناف . فقـال عمر : مَهْـلا يا أبا الفَضْـل ، فوالله لإسلامُك كان أحبّ إلىّ من إسلام الخطّـاب ــ أو قال : من إسلام رجلٍ من وَلَد الخطّاب ــ لو أسلم ؛ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : اذهب به فقد أجرْناه ؛ فلْيَبِتْ عندكَ حتّى تغدوَ به علينا إذا أصبحتَ . فلمّـا أصبحتُ غدوتُ به ، فلما رآه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله قال : وَيْحك يا أبا سُفْيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله ! قال : بأبى أنتَ ما أحلمَك وأكرمك وأعظم عَفوكَ ! قد كان يَقع فى نفسى أن لو كان مـعَ الله إله آخر لأغنى ؛ قال : يا أبا سُفْيان ألم يأنِ لكَ أن تعلم أنى رسول الله ! قال : بأبى أنتَ ما أحلمَك وأكرمَك وأعظمَ عفوَكَ ! أمّا هذه فوالله إنّ فى النّفس منها لشيئاً بعدُ ، قال العبّاس : فقلتُ وَيْحك ! تشهّد وقل لا إله إلّا الله محمّد رسول الله قبل أن تُقتَل . فتَشهّد . وقال العبّاس : يا رسولَ الله ، إنّك قد عرفت أبا سُفْيان وفيه الشّرف والفَخْر ، فاجعل له شيئاً ، فقال : مَنْ دخل دارَ أبى سُفْيان فهو آمن ، ومن أغلق دارَه فهو آمن ، ثم قال : خذْه فاحبسه بمَضيق الوادى إلى خَطْم الجبل

حتّى تمرّ عليه جُنُود الله فيراها . قال العبّاس : فعدلتُ به فى مَضيق الوادى إلى خَطْم الجبل فحبستُه هناك ، فقال : أغدراً يا بنى هاشم ! فقلتُ له : إنّ أهل النّبوة لا يَغدِرون ، وإنّما حبستُك لحاجةٍ ؛ قال : فهلّا بدأتَ بها أوّلا فأعْلَمْتَنيها ، فكان أفرخَ لرُوعى ! ثمّ مرّت به القبائل على قادَتِها ، والكتائبُ على راياتها ، فكان أوّل من مرّ به خالدُ بن الوليد فى بنى سُلَيم ، وهم ألف ، ولهم لواءان يَحمِل أحدَهما العبّاسُ بنُ مرْداس والآخر خُفَاف بن نُدْبة ، وراية يَحمِلها المقداد ، فقال أبو سُفْيان ، يا أبا الفَضْل ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء بنو سُلَيم ، وعليهم خالدُ بنُ الوليد ، قال : الغلام ؟ قال : نعم ، فلمّا حاذى خالد العباسَ وأبا سُفْيان كبّر ثلاثاً وكبّروا معه ، ثمّ مضوا . ومرّ على أثره الزّبير بنُ العوّام فى خمسمائة ، فيهم جماعةٌ من المهاجرين وقومٌ من أفْناء الناس ، ومعه رايةٌ سوداء ، فلمّا حاذاهما كبّر ثلاثا وكبّر أصحابُه فقال . من هذا ؟ قال : هذا الزبير ، قال : ابن أختك ! قال: نعم ؛ قال : ثمّ مرّت به بنو غِفار فى ثلثمائة يحمِل رايتهم أبو ذرّ — ويقال: إيماء بن رحضة — فلمّا حاذوهما كبّروا ثلاثا ، قال : يا أبا الفَضْل : مَنْ هؤلاء ؟ قال : بنو غِفار ؛ قال : مالى ولبنى غِفار ! ثمّ مَرّت به أسلم فى أربعمائة يَحمِل لواءها يزيدُ بن الخصيب ، ولواء آخر مع ناجية بن الأعجم ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثاً ، فسأل عنهم فقال: هؤلاء أسلَم ، فقال : مالى ولأسلم ! ما كان بيننا وبينهم تِرَة قطّ ، ثم مرّت بنو كعب بن عمرو بن خُزاعةَ فى خمسمائة يَحمل رايتَهم بشرُ بنُ سُفْيان ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : كعب بن عمرو ، قال: نعم حلفاء محمّد ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثا . ثمّ مرت مُزَينة فى ألفٍ فيها ثلاثةُ ألوِية مع النّعمان ابن مقرِّن ، وبلال بن الحارث ، وعبد الله بن عمرو ، فلمّا حاذوهما كبّروا ، قال : من هؤلاء ؟ قال: مُزَينة، قال: يا أبا الفَضْل، مالى ولمُزَينة ،قد جاءتنى تُقَعقع من شواهقها[1] .

---

(١) الشواهق : الجبال .

ثمّ مرّت جُهَينة فى ثمانمائة ، فيها أربعة ألْوِية مع معبد بن خالد ، وسوَيْد بن صخر ، ورافع بن مُكَيث ، وعبد الله بن بدر ، فلمّا حاذَوْه كبّروا ثلاثا فسأل عنهم ، فقيل : جُهَينة . ثمّ مرّت بنو كنانة وبنو ليث وضَمْرة وسعد بنُ أبى بكر فى مائتين ، يَحمِل لواءهم أبو واقد اللّيثى ، فلمّا حاذوه كبّروا ثلاثا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر . قال : نعم أهلُ شؤم هؤلاء الّذين غَزَانا محمّد لأجلهم ! أما واللهِ ما شُوورت فيهم ، ولا علمتُه ، ولقد كنت له كارها حيث بلغنى ، ولكنّه أمرٌ حُمّ[1] ، قال العبّاس ، لقد خارَ الله لك فى غزو محمّد إيّاكم ، ودخلتم فى الإسلام كافّة ، ثمّ مرّت آشجعُ ـ وهم آخرُ من مرّ به قبل أن تأتىَ كتيبةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثة يحمل لواءهم معقل بنُ سِنان ، ولواء آخر مع نعيم بن مَسْعود فكبّروا ـ قال : من هؤلاء ؟ قال : أشجَع ، فقال : هؤلاء كانوا أشدَّ العرب على محمّد ، قال العبّاس : نعم ؛ ولكنّ الله أدخَل الإسلام قلوبَهم ؛ وذلك من فضل الله . فسكت وقال : أمَا مرّ محمد بعدُ ؟ قال : لا ، ولو رأيتَ الكتيبةَ الّتى هو فيها لرأيت الحديدَ والخيلَ والرّجال ، وما ليس لأحدٍ به طاقة ، فلمّا طلعت كتيبةُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله الخضْراء طَلَع سوادٌ شديد وغُبْرة من سنابك الخيل ، وجعل الناسُ يمرّون ، كلّ ذلك يقول : أما مرّ محمّد بعدُ ؟ فيقول العبّاس : لا ، حتّى مرّ رسول الله صلّى الله عليه وآله يسيرُ على ناقته القَصْوى بين أبى بكر وأُسَيْد بن حُضَير ، وهو يحدّثهما ، وقال له العبّاس : هذا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فى كَتيبته الخضْراء ، فانظر ، قال : وكان فى تلك الكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار ، وفيها الألولية والرّايات ، وكلّهم منغمسون فى الحديد لا يُرَى منهم إلّا الحدق ، ولعمر بن الخطّاب فيها زَجَل[2] وعليه الحديد ، وصوتُه عال ، وهو يزَعُها ، فقال : يا أبا الفضل ، من هذا المتكلّم ! قال : هذا

---

(١) حُمّ ، أى وقع .

(٢) زجل ، أى صوت .

عمرُ بن الخطّاب؛ قال: لقد أَمِر أمرُ بنى عَدِىّ بعدَ قلّة وذِلّة ! فقال : إنّ الله يرفع من يشاء بما يشاء ، وإنّ عمرَ ممّن رفعه الإسلام ، وكان فى الكتيبة ألفا دارع ، وراية رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم مع سعد بن عُبادة ، وهو أمام الكتيبة ، فلمّا حاذاها سعد نادَى : يا أبا سُفْيان :

اليومَ يومُ المَلحَمهْ ‏ ‏ ‏ ‏ اليومَ تُسْبَى الحُرُمَهْ

اليومَ أذلّ الله قريشا ، فلمّا حاذاها رسولُ الله صلى الله عليه وآله ناداه أبو سُفْيان : يا رسولَ الله ، أمَرت بقتل قومك ؟ إنّ سعدا قال :

اليومَ يوم الملحمهْ ‏ ‏ ‏ ‏ اليومَ تُسْبَى الحُرُمَهْ

اليومَ أذلّ الله قريشا ، وإنى أَنشُدك اللهَ فى قومِك فأنتَ أبرُّ الناس ، وأرحَم الناس ، وأوصل الناس . فقال عثمانُ بن عفان وعبدُ الرحمن بنُ عوف : يا رسولَ الله ، إنّا لا نأمنُ سعــدا أن يكون له فى قريش صَوْلة ، فوقف رسولُ الله صلى الله عليه وآله وناداه ، يا أبا سُفْيان ، بل اليومَ يومُ الرَّحمة ، اليومَ أعزّ الله قريشا ، وأرسل إلى سعدٍ فعزَلَه عن اللّواء . واُختُلِف فيمن دَفَع إليه اللّواءَ فقيل : دَفَعه إلى علىّ بنِ أبى طالب عليه السلام ، فذهب به حتّى دخل مكّة ، فغرَزَه عند الرّكن — وهو قول ضِرار بنِ الخطّاب الفِهْرى — وقيل : دَفَعه إلى قيس بن سَعْد بن عُبادة — ورأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أنّه لم يُخرجه عن سعد حيث دَفَعه إلى ولدِه ، فذهب به حتّى غرَزَه بالحجون ؛ قال : وقال أبو سفيان للعبّاس : ما رأيت مثل هذه الكتيبة قطّ ، ولا أخبرنيه مخبر ، سبحان الله ! ما لأحد بهــؤلاء طاقة ولا يدان ! لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عبــاس عظيما ، قال : فقلت : وَيْحك ! إنّه ليس بملْك ، وإنّما النّبُوّة ؛ قال : نعم .

قال الواقدىّ : قال العبّاس : فقلت له : اُنجُ وَيْحك ، فأدرِك قومَك قبل أن يدخل

عليهم ؛ فخرج أبو سُفْيانَ حتّى دخل من كَداء وهو يُنادِي: مَن دخَل دارَ أبى سُفيان فهو آمِن ، ومن أَغلَق عليه بابَه فهو آمن، حتّى انتهى إلى هند بنتِ عُتْبة ، فقالت: ما وراءك ؟ قال: هذا محمّد فى عَشْرة آلافٍ ، عليهم الحديد، وقد جَعَل لى أنّه من دَخَل دارى فهو آمِن ، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمِن ، ومَن ألقَى سلاحَه فهو آمن ، فقالت : قبّحك الله من رسول قوم ! وجَعلتْ تقول : وَيْحكم ! اقتلوا وافدَكم قبّحه الله مِن وافد قوم! فيقول أبو سُفيان: وَيْحكم ! لا تغرّنّكم هذه من أنفسكم ، فإنّى رأيتُ ما لم ترَوْا : الرجالَ ، والكُراعَ ، والسّلاح ، ليس لأحد بهذا طاقة ، محمّد فى عَشْرة آلاف ، فأسلموا تَسلموا . وقال المبرّد فى «الكامل» : أمسكتْ هند برأس أبى سُفْيان وقالت : بئس طليعةُ القوم! والله ما خدشت خدشا ، يا أهلَ مكّة ، عليكم الحَميت الدّسم فاقتلوه . قال : الحَميت : الزّق المزفّت .

قال الواقدىّ :وخرج أهلُ مكّة إلى ذى طُوًى ينظُرون إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، وانضوَى إلى صَفْوان بن أميّة وعِكْرمة بن أبى جهل وسُهَيل بن عمرو ناسٌ من أهل مكّة ومن بنى بَكر وهُذَيل ، فلَبِسوا السلاحَ ، وأقسموا لا يدخل محمّد مكّة عَنْوةً أبدا . وكان رجلٌ من بنى الدّؤَل يقال له : حماس بنُ قيس بنِ خالد الدّؤَلىّ لمّا سَمِع برسول الله صلّى الله عليه وآله جَلَس يُصلِح سلاحَه ، فقالت له امرأته : لِمَ تُعِدّ السّلاح ؟ قال : لمحمّد وأصحابه، وإنى لأرجو أن أُخدِمَك منهم خادما ، فإنّك إليه محتاجة ، قالت : وَيحك لا تفعل ! لا تُقاتل محمّدا ، والله ليضلّنّ هذا عنك لو رأيت محمّدا وأصحابه ؛ قال : سترَيْن ، وأقبل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وهو على ناقته القصواء معتجراً (١) ببُرْد حِبَرة ، وعليه عمامةٌ سوداء ، ورايته سوداء ، ولواؤه أسود ، حتّى وقف بذى طُوًى ، وتوسّط الناسَ، وإن عُثْنونه ليمسّ واسطة الرّحل ، أو يَقرُب منه تواضُعا لله حيث رَأَى ما رَأَى من الفَتْح وكثرة المسلمين ، وقال : لا عيش إلّا عيشُ الآخرة .

(١) معتجراً : لابساً .

وجعلت الخيلُ تعجّ بذى طُوًى فى كل وَجْه ، ثم ثابَتْ وسكَنَتْ ، والتَفت رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى أُسَيْد بن حُضَير ، فقال : كيف قال حسّان بنُ ثابت ؟ قال : فأنْشَده :

عَدِمْنــا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْها   تُثِير النَّقْع مَوعدُها كَدَاءُ (١)
تَظَلّ جيــادُنا متمطّراتٍ   تُلَطِّمُهنّ بالخُمُرِ النّســاءُ(٢)

فتبسّم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وحَمِد الله ، وأمرَ الزبيرَ بنَ العوّام أن يدخُل من كَدَاء ، وأمر خالدَ بنَ الوليد أن يدخُل من اللِّيط ، وأَمَرَ قَيس بنَ سعد أن يَدخُل من كُدَّى ، ودخل هو صلّى الله عليه وآله من أذاخر .

قال الواقدىّ : وحدّثنى مروان بنُ محمّد ، عن عيسى بن عميلة الفزارىّ ، قال : دخل رسولُ الله صلّى الله عليه وآله مكّة بين الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصْن .

قال الواقدىّ : ورَوَى عيسى بنُ مَعْمَر ، عن عَبَّاد بنِ عبدالله ، عن أسماءَ بنتِ أبى بكر ، قالت : صعد أبو قُحافة بصغْرى بناتِه وٱسمها قريبة ، وهو يومئذٍ أعمى ، وهى تَقُودُه حتّى ظهرتْ به إلى أبى قُبيس ، فلمّا أشرفَتْ به قال : يا بُنَيّة ، ماذا تَرَيْن ؟ قالت : أَرَى سواداً مجتمعا مقبلا كثيرا ! قال : يا بُنَيّة ، تلك الخيل ، فانظرى ماذا تَرَيْن ؟ قالت : أَرَى رجلا يَسعى بين ذلك السواد مُقبِلا ومدبرا ، قال : ذاك الوازع ، فانظرى ماذا تَرَيْن ؟ قالت : قد تفرّق السواد ، قال : قد تفرّق الجَيْش ، البيتَ البيتَ ؟ قالت : فنزلت الجارية به وهى تُرْعب لمــا ترى ، فقال : يا بُنيّة ، لا تخافى ، فوالله إن أخاكِ عتيقا لأثرُ أصحاب محمّد عند محمّد ؟ قالت : وعليها طَوْق من فضّة ، فاختَلَسَه بعضُ من دخل ،

---

(١) ديوانه ٥ والنقع : الغبار .
(٢) متمطرات : مسرعات . والخمر : جمع خمار .

فلمّا دخل رسولُ الله صلى الله عليه وآله مكّة جعل أبو بكر يُنادِي : أَنشدُكم الله أيّها الناس طَوْقَ أُختي ؛ فلم يردّ أحد عليه ، فقال : يا أُخَيّة احتسبي طَوْقَكِ ، فإنّ الأمانة في الناس قليل .

قال الواقديّ : ونَهَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن الحرب ، وأَمرَ بقتل ستّة رجال وأربع نسوة : عِكْرمة بن أبي جهل ، وهبّار بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، ومقيَس بن صُبابة الليثي ، والحُوَيْرث بن نفيل ، وعبد الله بن هلال بن خَطَل الأدرميّ ، وهند بنت عُتْبة ، وسارّة مولاةٌ لبني هاشم ، وقَيْنتَيْن لابن خَطَل : قريبا وقريبة ، ويقال : قريناً وأرنب .

قال الواقديّ . ودخلت الجنودُ كلُّها ، فلم تلقَ حَرْبا إلّا خالد بن الوليد فإنّه وَجَد جَمْعا من قريش وأحابيشها قد جمعوا له ، فيهم صَفْوان بن أميّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، فمنعوه الدّخول ، وشَهَروا السلاح ، ورمَوْه بالنّبل ، وقالوا : لا تدخلها عَنْوَةً أبداً ؛ فصاح خالد في أصحابه ، وقاتَلَهم ، فقُتِل من قريش أربعةٌ وعشرون ، ومن هذيل أربعةٌ ، وانهزموا أقبحَ انهزام حتّى قُتلوا بالحَزْورة ، وهم مُوَلّون من كلّ وجه ، وانطلقتْ طائفةٌ منهم فوق رءوس الجبال ، واتّبعهم المسلمون ، وجعل أبو سُفيان بن حرب وحكيم بن حزام يناديان : يا معشرَ قريش ، عَلَام تقتُلون أنفسَكم ؟ من دخل دارَه فهو آمن ، ومَن أغلَق عليه بابه فهو آمن ، ومن وضع السّلاحَ فهو آمن ، فجعل النّاسُ يقتحِمون الدّور ويُغلقون عليهم الأبواب ، ويَطرَحون السّلاح في الطّرق حتى يأخذه المسلمون .

قال الواقديّ : وأشْرَف رسولُ الله صلى الله عليه وآله من على ثَنِيّة أذاخر ، فنظر إلى البارقَة ، فقال : ما هذه البارقة ؟ ألم أنه عن القتال ؟ قيل : يارسولَ الله ، خالدُ بنّ الوليد

قُوتِل ، ولو لم يُقاتَل ما قاتَلَ ؟ فقال : قضاء الله خير ، وأقبل ابن خطل مدجّجا فى الحديد على فرس ذَنوب[١] بيَدِه قَناة يقول : لا والله لا يدْخُلها عَنْوة حتى يرى ضَرْبا كأفواه المزاد ، فلمّا انتهى إلى الخَنْدَمة ورأى القتال دخَله رُعْب حتى ما يَستمسِك من الرِّعدة ، ومرّ هاربا حتى انتهى إلى الكعبة،فدخل بين أستارها بعد أن طرح سلاحَه وترك فرسَه ، وأقبَل حماس بن خالد الدؤلىّ منهزما حتى أتى بيْتَه فدَقّه ، ففتحتْ له امرأتُه فدخل ، وقد ذهبتْ رُوحُه ، فقالت : أين الخادم الّتى وعدتَنى؟ مازلتُ مُنتظِرتك منذُ اليوم ، تَسخر به، فقال : دعى هذا وأغلِقى الباب ، فإنّه من أغلَق بابَه فهو آمن ، قالت : وَيْحك ! ألم أنهك عن قتال محمّد ! وقلت لك : إنّى ما رأيته يقاتلكم مرّة إلّا وظَهَر عليكم ، وما بابُنا ؟ قال : إنّه لا يفتح على أحدٍ بابَه ، ثم أنْشَدها[٢] :

إنك لو شَهِدْتنا بالخَنْدَمَهْ ... إذ فرّ صَفْوانُ وفرّ عِكْرِمهْ
وأبو يزيد كالعجوز المُؤْتِمهْ ... وضَرَبْنا هُمْ بالسّيوف المُسلمهْ[٣]
لهم زئيرٌ خلفنا وغَمْغمهْ ... لم تنطق فى اللّوم أدنى كلمهْ[٤]

قال الواقدىّ : وحدثنى قُدامة بن موسى ، عن بشير مولى المازنيّين ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كنتُ ممن لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، فدخلت معه يوم الفتح من أذاخر ، فلما أشرف نظر إلى بيوت مكة ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ونظر إلى موضع قُبّة بالأبطح تُجَاه شعب بنى هاشم حيث حُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاث

---

(١) ذنوب . وافر الذنب بالتحريك .
(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٢٧ .
(٣) المؤتمة : التى قتل زوجها فبقى لها أولاد أيتام ، والمسلمة ، أراد المسلين ، وبعده فى ابن هشام :

يَقْطَعْنَ كلّ ساعدٍ وجُمْجُمَهْ ... ضَرْباً فلا يسمع إلّا غمغمهْ

(٤) ابن هشام : « لهم نهيت » .

سنين ؛ وقال : يا جابر ، إنّ منزلنا اليومَ حيث تقاسمتْ علينا قريش فى كُفْرها ؛ قال جابر : فذكرتُ كلاما كنتُ أسمعه فى المدينة قبل ذلك ، كان يقول : منزلُنا غداً إن شاء الله إذا فتح علينا مكّة فى الخَيْف حيث تقاسموا على الكُفْر .

قال الواقدىّ : وكانت قبّته يومئذ بالأَدَم ضُرِبت له بالحَجون ، فأقبل حتى انتهى إليها ومعه أمّ سَلَمة وميمونة .

قال الواقدىّ : وحدثنى معاوية بن عبد الله بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبى رافع ، قال : قيل للنبىّ صلّى الله عليه وآله : ألا تنزل مَنزِلك من الشِّعب ؟ قال : وهل ترك لنا عَقيل من منزل ! وكان عَقيل قد باع منزل رسول الله صلّى الله عليه وآله ومنازل إخوته من الرجال والنّساء بمكّة ، فقيل لرسول الله صلّى الله عليه وآله : فانزل فى بعض بيوت مكّة من غير منازلك . فأبى وقال : لا أدخُل البيوت ؛ فلم يزل مضطرباً بالحَجون لم يدخل بيتا ، وكان يأتى إلى المسجد من الحَجون ، قال : وكذلك فعل فى عُمرة القضيّة وفى حجّته .

قال الواقدىّ : وكانت أمّ هانئ بنتُ أبى طالب تحت هُبيرة بن أبى وَهْب المخزومى فلما كان يوم الفتح دخل عليها حَموان لها : عبدُ الله بنُ أبى ربيعة والحارث بن هشام المخزوميّان ، فاستجارا بها ، وقالا : نحن فى جِوارك ؛ فقالت : نعم أنتما فى جوارى . قالت أمّ هانئ : فهما عندى إذ دخل علىّ فارسٌ مدجّج فى الحديد ولا أعرفه ، فقلت له : أنا بنت عمّ رسول الله ، فأسفر عن وجهه ، فإذا علىٌّ أخى ، فاعتنقته ، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما ، فقلتُ : أخى من بين الناس تصنع بى هذا ؟ فألقيتُ عليهما ثوْبا ، فقال : أتُجيرين المشركين ! فحلْت دونهما ، وقلت : لا والله وابتدئْ بى قبلهما ؛ قالت : فخرج ولم يكدْ ، فأغلقتُ عليهما بيتا ، وقلت : لا تخافا ، وذهبتُ إلى خِباء رسولِ الله صلّى الله

عليه وآله بالبطحاء فلم أجده ، ووجدتُ فيه فاطمة ، فقلت لها : ما لقيتُ من ابن أمي عليّ ! أجرت حَمْوَين لى من المشركين ، فتفلّتَ عليهما ليقتلهما ، قالت : وكانت أشدَّ عليَّ من زوجها ، وقالت : لِمَ تُجيرين المشركين ! وَطَلع رسولالله صلى الله عليه وسلم وعليه الغُبار ، فقال : مرحباً بفاخِتة ــ وهو اسمُ أم هانئ ــ فقلتُ : ماذا لقيت من ابن أمي عليّ ما كدتُ أفلت منه ! أجرت حَمْوَين لى من المشركين ، فتفلّت عليهما ليقتلهما ، فقال : ما كان ذلك له ، قد أَجَرْنا من أجرتِ وَأَمَّنَّا من أمّنْت ، ثم أمر فاطمةَ فَسَكَبت له غُسْلا فاغتسَل ، ثمّ صلى ثمانى رَكعات فى ثوب واحد ملتحفا به وقت الضُّحى؛ قالت : فرجعتُ إليهما وأخبرتُهما ، وقلت : إن شئتما فأقيما ، وإن شئتما فارجعا إلى منازلكما ، فأقاما عندى فى منزلى يومين ؛ ثم انصرفا إلى منازلهما .

وأتى آتٍ إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : إنّ الحارث بن هشام وعبدالله ابن أبى ربيعة جالسان فى ناديهما متفضّلان فى المُلاء المزَعْفر ، فقال : لا سبيل إليهما ، قد أجرناها .

قال الواقدىّ : ومكث رسول الله صلى الله عليه وآله فى قبّة ساعةً من النهار ، ثمّ دعا براحلته بعد أن اغتسل وصلى ، فأدنيت إلى باب القبة ، وخرج وعليه السلاح والمِغفر على رأسه ، وقد صُفّ له الناس ، فركبها والخيلُ تمعج[1] ما بين الخندمة إلى الحَجون ، ثم مرّ وأبو بكر إلى جانبه على راحلةٍ أخرى يسير وُيحادِثه ، وإذا بنـاتُ أبى أُحَيحة سعيد بن العاص بالبطحاء حذاء منزل أبى أحيحة ، وقد نَشَرن شعورهنّ ، فلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبى بكر ، فتبسم وأنشده قولَ حسّان :

---

(١) تمعج : تسرع .

تظَلّ جيادُنا متمَطِّراتٍ تُلطّمهنّ بالُخمُرِ النّساءُ

فلما انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته ، فاستلم الركن بِمِحْجنه ، وكبّر. فكبّر المسلمون لتكبيره ، وعجّوا بالتكبير حتى ارتجّت مكة ، وجَعل رسول الله صلى الله عليه وآله يشير إليهم أن اسكتوا ، والمشركون فوق الجبال ينظرون ، ثم طاف بالبيت على راحلته ، ومحمد بن مَسلمة آخذٌ بزمامها ، وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما مرصوصة بالرّصاص ، وكان هُبَلُ أعظَمَها ، وهو تجاه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينْحَرون ويذبحون الذبائح ، فجعل كلّما يمرّ بصنم منها يشير بقضيب فى يده ويقول : ﴿ جاءَ الحقّ وزَهقَ الباطلُ إنّ الباطلَ كان زَهوقا ﴾ ؛ فيقع الصنم لوجهه ، ثم أمرَ بهُبَل فكُسر وهو واقف عليه ، فقال الزبير لأبى سفيان : يا أبا سُفيان ، قد كُسر هُبَل ، أما إنك قد كنت منه يوم أحُد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال : دع هذا عنك يابن العوّام ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان .

قال الواقدىّ : ثم انصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فجلس ناحيةً من المسجد وأرسل بلالًا إلى عثمان بن طلحة يأتيه بالمِفتاح، مفتاح الكعبة ، فقال عثمان : نعم، فخرج إلى أمّه وهى بنت شَيبة ، فقال لها والمفتاح عندها يومئذ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد طلب المفتاح ، فقالت : أعيذُكَ بالله أن يكون الذى يذهب مأثرة قومه على يده ! فقال : فو الله لتأتينّى به أو ليأتينّك غيرى فيأخذه منك ، فأدخلته فى حُجْزتها ، وقالت : أىّ رجل يدخِل يده ها هنا ! فبينما هما على ذلك وهو يكلّمها إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر فى الدّار ، وعمر رافع صوته حين رأى عثمان أبطأ : يا عثمان اخرج ، فقالت أمّه: خذ المفتاحَ، فلأن تأخذَه أنت أحبُّ إلىّ من أن يأخذه تيم وعدىّ ، فأخذه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما تناوَله بَسَط العباس بنُ عبد المطلب يدَه وقال: يا رسول الله ، بأبى أنت! اجمع لنا بين السِّقاية والحجابة ؛ فقال : إنما أُعطيكم ما ترضوْن فيه، ولا أعطيكم ما ترزَءون منه،

قالوا : وكان عثمانُ بنُ طلحة قد قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وآله مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص مسلما قبل الفتح .

قال الواقدىّ : وبعَثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة ، وأمره أن يفْتح البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالا إلا صورة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخا كبيراً يستقسم بالأزلام(١) .

قال الواقدىّ : وقد روى أنه أمره بمحو الصور كلّها لم يستثن ، فترك عمر صورة إبراهيم، فقال لعمر : ألم آمُرْك ألّا تدَع فيها صورةً ! فقال عمر : كانت صورة إبراهيم ، قال : فامحُها، وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام !

قال : ومحا صورة مريم . قال : وقد رُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وآله محا الصُّور بيده ، رَوَى ذلك ابن أبى ذئب ، عن عبد الرحمن بن مِهران ، عن عُمَير مولى ابن عباس ، عن أسامة بن زيد ، قال : دخلتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله الكعبة ، فرأى فيها صوراً ، فأمرنى أن آتيَه فى الدّلو بماء ، فجعل يُبَلُّ به الثوب، ويضرب به الصّور ويقول: « قاتل الله قوماً يصوِّرون ما لا يخلقون ! » .

قال الواقدىّ : وأمَرَ رسول الله صلّى الله عليه وآله بالكعبة فأُغلِقت عليه ، ومعه فيها أُسامة بن زيد ، وبلال بن رَباح ، وعثمانُ بنُ طلحة ، فمكث فيها ما شاء الله ، وخالد بنُ الوليد واقف على الباب يَذُبّ الناس عنه ، حتّى خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فوَقَف وأخَذَ بعِضادَتَى(٢) الباب ، وأشرَف على الناس وفى يده المفتاح ، ثم جعله فى كُمّه ، وأهلُ مكّة قيامٌ تحته ، وبعضُهم جلوس قد ليطَ بهم ؛ فقال الحمد لله الّذى

---

(١) الأزلام : القداح . (٢) عضادتا الباب : جانباه .

صدَقَ وعدَه، ونصَرَ عَبْدَه ، وهَزَم الأحزابَ وحدَه ، ماذا تقولون ؟ وماذا تَظنّون ؟قالوا : نقول خيرا ، ونظنّ شرًّا ! أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ كريم ، وقد قدرتَ ، فقال : إنّى أقول كما قال أخي يوسف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ألا إنّ كل رِباً فى الجاهليّة أو دَمٍ أو مأثُرةٍ فهو تحتَ قدَمَىّ هاتين إلّا سِدانة الكَعْبة وسقاية الحاجّ . ألا وفى قَتيلِ شِبْه العَمْد ؛ قتيلِ العصا والسّوط الديةُ مغلّظة مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادُها . إنّ الله قد أذهبَ نخوَةَ الجاهليّة وتكبّرها بآبائها ، كلكم لآدم ، وآدمُ من تُراب . وأكرَمُكم عند الله أتقاكُم . ألا إنّ الله حرّم مكّة يومَ خَلق السموات والأرض ، فهى حرام بحَرَمِ الله ، لم تَحِلَّ لأحد كان قبلُ ، ولا تحلّ لأحد يأتى بَعدِى ، وما أحِلّت لى إلّا ساعة من النّهار ـ قال : يقصدها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيَدِه هكذا ـ لا ينفّر صَيدُها ، ولا يُعضَد عِضاهُها ، ولا تحلّ لقطتُها إلّا لمنشِد ، ولا يُختلَى خلاها . فقال العباس : إلا الإذْخِر يارسول الله ، فإنّه لابدّ منه للقبور والبيوت ، فسكَت رسولُ الله صلى الله عليه وآله ساعةً ثمّ قال إلّا الإذخر ، فإنّه حلال ، ولا وصيّة لوارث ، والوَلَد للفِراش ، وللعاهِر الحجَر ، ولا يحلّ لامرأةٍ أن تعطىَ مِن مالِها إلّا بإذنِ زَوْجها، والمسلمُ أخو المسلِم ، والمسلمون إخوة ، يدٌ واحدةٌ على مَن سِواهم ، تتكافأُ دِماؤهم ، يَسعَى بذِمّتِهم أدناهم ، ويردّ عليهم أقصاهم ، ولا يُقتَل مسلم بكافر ، ولا ذو عَهْد فى عَهْده ، ولا يَتوارَث أهلُ ملّتين مختلفتين ، ولا تُنكَح المرأةُ على عمّتها ولا على خالتها ، والبيّنة على من أدّعى ، واليمين على من أنكَر ، ولا تسافر امرأةٌ مسيرة ثلاث إلّا مع ذى مَحرَم ، ولا صلاةَ بعد العصر ، ولا بعدَ الصُّبح ، وأنهاكم عن صيام يومين : يومِ الأضحَى ويومِ الفِطْر . ثم قال : ادعُوا لى عثمانَ بنَ طلحة ، فجاء وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله قال له يوما بمكّة قبل الهجرة ومع عثمانَ المِفتاح : لعلّك ستَرى هذا المفتاحَ بيَدى يوما أضعُه حيث شئت ؛ فقال عثمان : لقد هلَكتْ قريش إذاً وذَلّت ! فقال عليه السلام : بل عمرتْ وعزّت ؛ قال عثمان : فلمّا دعانى يومئذ والمِفتاح بيَدِه ذكرتُ قولَه حين قال ؛ فاستقبلتُه

بِبِشر ، فاستقبَلَنى بِمِثله ، ثم قال : خذوهـا يابنى أبى طلحة خالدة تالدة ، لا يَنزِعها منكم إلّا ظالم . يا عثمان ، إنّ الله استأمَنكم على بيته ، فكُلوا بالمعروف ؛ قال عثمان : فلما وَلّيت نادانى فرجعتُ ، فقال : ألم يكن الّذى قلتُ لك ! يعنى ما كان قالَه بمكّة من قبلُ ، فقلتُ : بلى أشهَد أنّك رسولُ الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله يومئذ بِرَفْع السلاح ، وقال : إلّا خُزاعة عن بنى بكر إلى صلاة العصر . فخبطوهم بالسّيف ساعةً ، وهى الساعةُ الّتى أُحِلّت لرسول الله صلى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وقد كان نوفل بن معاوية الدُّؤلىّ من بنى بكر استأمن رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه ، فأمّنه ، وكانت خُزاعة تطلُبه بدماء من قتلتْ بكر وقريش منها بالوتير ، وقد كانت خُزاعةُ قالت أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وآله : إن أنسَ بن زُنَيم هجاك ، فهدَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله دَمَه ، فلمّا فتح مكّة هرب والْتحق بالجبال ، وقد كان قَبْل أن يفتح رسولُ الله صلى الله عليه وآله مكّة قال شعرا يَعتذِر فيه إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، من جُملتِه :

أنتَ الّذى تُهدَى معدٌّ بأمرِه ... بكَ اللهُ يَهدِيها وقال لها اُرْشُدِى
فما حملتْ من ناقةٍ فوقَ كورِها ... أبرَّ وأوفى ذِمّة من محمّدِ
أَحَثَّ على خيرٍ وأوسَعَ نائلا ... إذا راحَ يهتزُّ اهتزازَ المهنّدِ
وأكسَى لبُرد الخالِ قبل ابتذالِه ... وأعطى لرأس السابق المتجرِّدِ
تَعلّم رسولَ الله أنّك مُدرِكى ... وأنَّ وَعيداً منكَ كالأخْذ باليَدِ
تعلّم رسولَ الله أنك قادرٌ ... على كلّ حىّ من تِهام ومُنجِدِ
ونُبِّى رسولُ الله أنّى هجوتُه ... فلا رفعتْ سَوْطى إلىَّ إذَنْ يدى
سوَى أنّنى قد قلتُ يا وَيْح فتيةٍ ... أصيبوا بنَحْس يومَ طلق وأسعُدِ !

أصـــابهمُ من لم يكن لدمائهمْ   كِفاءً فعزّت عَـبْرَتى وتلدُّدِى
ذُؤَيبا وكُلثوما وسلمى تَتابعوا   جميعـا فإلّا تدمَع العينُ أَكْمَدِ
على أنّ سلمىَ ليس منهمْ كمثلِه   وإخوتِه وهلْ مُلوكٌ كأعْبُـدِ !
فإنّى لا عرْضا خَرَقتُ ولا دماً   هَرَقتُ ففـكّر عالم الحقّ واقصِدِ

قال الواقدىّ : وكانت كلمته هذه قد بلغتْ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قبل أن يفتَح مكّة ، فنَهنَهتْ عنـه ، وكلّمه يوم الفتح نَوفلُ بنُ معاوية الدُّؤَلىّ ، فقال : يا رسولَ الله ، أنت أَولَى الناس بالعَفْو ، ومَنْ منّا لم يعادِك ولمْ يؤذك ، ونحنُ فى جاهليّة لا ندرى ما نأخذ وما نَدَع ، حتّى هدانا الله بك ، وأنقَذَنا بيُمْنِك من الهَلَـكة ، وقد كَذَب عليه الركب ، وكثّروا فى أمره عندَك ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : دَعِ الركبَ عنك ، إنّا لم نجد بتِهامة أحداً من ذَوِى رَحِمٍ ولا بعيد الرّحم كان أبرَّ بنا من خُزاعة ، فاسكُت يا نوفل ؛ فلمّا سكت قال رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله : قد عفوتُ عنه فقال نوفل : فداكَ أبى وأمّى .

قال الواقدىّ : وجاءت الظُّهر ، فأمَرَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بلالا أن يؤذّن فوقَ ظَهرِ الـكعبة وقريش فى رءوس الجبـال ، ومنهم من قد تغَيّب وسَتَر وجهه خوفا من أن يُقتلوا ، ومنهم من يَطلب الأمان ، ومنهم من قـد أُمِّن . فلمّا أذّن بلال وبلغ إلى قوله : « أشهد أن محمّدا رسولُ الله» ، صلّى الله عليه وآلِه رَفَـع صوتَه كأشدِّ ما يكون ؛ قال: تقول جُوَيْرِية بنت أبى جَهْل : قد لَعَمْرِى رُفِع لك ذِكْرُكَ ، فأمّا الصلاة فسنصلّى ، ولـكنْ والله لا نحبّ مَنْ قَتَل الأحبّة أبدا ، ولقد كان جاء أبى الّذى جاء محمّدا من النبوّة ؛ فردّها ولم يُرِدْ خلاف قومه .

وقال خالدُ بن سعيدِ بنِ العـاص : الحمد لله الّذى أكرم أبى فلم يُدرِك هذا اليوم ؛

وقال الحارث بنُ هشام : واثُكْلاه ! ليتَني مِتّ قبلَ هذا اليوم قبل أن أَسمع بلالا ينهق فوقَ الكعبة ! وقال الحكمُ بنُ أبي العاص : هذا والله الحدَث العظيم ، أن يَصيح عبدُ بني جُمَح ، يَصيحُ بما يَصيحُ به على بيت أبي طلحة ؛ وقال سُهَيل بنُ عمرو ، إن كان هذا سُخْطا من الله تعالى فسيغيّره ، وإن كان لله رضاً فسيقرّه ؛ وقال أبو سُفْيان: أمّا أنا فلا أقول شيئاً ، لو قلتُ شيئاً لأخبرتْه هذه الحصباء ، قال : فأتى جبرائيلُ عليه السلام رسولَ الله صلّى الله عليه وآله فأخبَرَه مقالة القوم .

قال الواقديّ : فكان سهيلُ بنُ عمرو يحدّث فيقول ؛ لمّا دخل محمّد مكّة انقمعتُ فدخلتُ بيتي وأَغلقتُه عليّ ، وقلتُ لابني عبدِ الله بنِ سُهَيل : اذهبْ فاطلب لي جواراً من محمّد ، فإنّي لا آمن أن أُقتَل، وجعلتُ أتذكّر أثَري عنده وعند أصحابه فلا أرَى أسوأ أثراً منّي ، فإنّي لقيتُه يوم الحُدَيْبية بما لم يَلقه أحدٌ به ، وكنتُ الّذي كاتَبه ، مع حضوري بدْرا وأُحُدا ، وكلّما تحرّكتْ قريش كنتُ فيها، فذهب عبدُ الله بنُ سُهَيل إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ، أبي تؤمّنه ؟ قال : نعم ، هو آمن بأمان الله ، فلْيَظهر ، ثم التفت إلى من حَوْله فقال : من لقي سُهَيل بن عمرو فلا يُشدَّنَّ النظر إليه . ثم قال : قل له : فلْيَخْرج ، فلَعَمري إنّ سهيلا له عقلٌ وشَرَف ، وما مثلُ سُهَيل جَهِل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضَع فيه إن لم يكن له تتابع ، فخرج عبدُ الله إلى أبيه فأخبَرَه بمقالةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فقال سهيل : كان واللهِ بَرّا صغيرا وكبيرا ، وكان سُهَيل يُقْبِل ويُدبِر غيرَ خائف ، وخرج إلى خَيْبَر مع النبيّ صلّى الله عليه وآلِه وهو على شِرْكه حتى أسلَم بالجِعْرانة .

تم الجزء السابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

ويليه الجزء الثامن عشر

فهرس الكتب*

(*) وهى الكتب الواردة فى نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

(*) وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثامن عشر

دار الجيل
بيروت

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان

يشتمل هذا الجزء على بقية المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده ، ثم على طائفة من مختار حِكَمه ومواعظه ، وأجوبة مسائله ، والكلام القصير الخارج فى سائر أغراضه .

وقد روجع على الجزء الثالث من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ؛ وهى النسخة التى رمزت لها بالحرف (ا) . وأصل هذا الجزء مكتوب بخط نسخ حديث واضح ، يبدو أنه كتب فى القرن الثانى عشر ؛ ويكاد يكون خاليا من الشكل والضبط ؛ حتى فيما جاء فيه من أصل كلام الإمام . ويبدأ من الشرح ببقيّة الكلام على فتح مكة ؛ إلّا أن بآخره نقصا يبدأ فى أثناء الكلام على شرح قول أمير المؤمنين : « الإعجاب يمنع من الازدياد » ، إلى آخر الجزء . ويقع فى ٥٦ ورقة ، مسطرتها ٢٩ سطرا ، وفى كل سطر ١٥ كلمة تقريبا ، ولا يوجد فيه ذكر لاسم ناسخه ولا تاريخ نسخه .

كما روجع أيضا على الجزء الثانى من المجلد الأخير من مخطوطة دار الكتب برقم ١٨٦٨– أدب ، وهى التى رمزت لها بالحرف (د) ، وسبق وصفها فى مقدمة الجزء السادس عشر ، وعلى النسخة المطبوعة على الحجر فى طهران سنة ١٣٧١هـ ؛ وهى التى رمزت لها بالحرف(ب).

وأسأل الله أن يوفّق ويعين .

٢٤ رمضان سنة ١٣٨٢ هـ
١٨ فبراير سنة ١٩٦٣ م

محمد أبو الفضل إبراهيم



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ ـ ٦٥٦)

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



بسم الله الرحمن الرحيم

[ذكر بقيّة الخبر عن فتح مكة]

قال الواقدىّ : وهرب هبيرةُ بن أبى وَهْب وعبدُ الله بن الزِّبعرَى جميعا حتّى انتهيا إلى نَجْران فلم يأمنا الخوف حتى دخلا حِصْن نَجْران ؛ فقيل : ما شأنكما ؟ قالا : أمّا قريش فقد قُتِلت ودخل محمد مكة ، ونحن والله نرى أن محمدا سائر إلى حصنكم هذا ، فجعلت بلْحارث بن كعب يُصلحون ما رثّ من حصنهم ، وجمعوا ماشيتَهم ؛ فأرسل حسان بن ثابت إلى ابن الزِّبعرَى :

لا تعدمَنْ رجلًا أحلّك بُغْضُهُ ... نجرانَ فى عيشٍ أحَذَّ ذميمِ (٢)

بليَتْ قناتُك فى الحرُوب فألفيتْ ... جوفاءَ ذات معايبٍ ووُصومِ (٣)

غضب الإله على الزِّبَعْرى وابنهِ ... بعذابِ سوءٍ فى الحياة مقيمِ

فلما جاء ابنَ الزِّبَعْرَى شعرُ حسان تهيّأ للخروج ، فقال هبيرة بن وهب : أين تريد يابن عمّ ؟ قال له : أريد والله محمدا ، قال : أتريد أن تتبعه ؟ قال : أى والله ، قال هُبيرة : ياليت أنّى كنتُ رافقتُ غيرَك ، والله ما ظننتُ أنّك تتْبع محمّدا أبدا . قال ابن الزِّبعْرَى : هو ذاك ، فعَلى أىّ شىء أقيمُ مع بنى الحارث بنِ كعب وأترُك ابنَ عمّى وخيرَ الناس وأبرَّهم ، وبين قومى ودارى ! فانحدر ابنُ الزّبَعرَى حتّى جاء رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم

---

(١) د : « لطفك اللهم لإتمامه بالخير » . (٢) ديوانه ٣٦٠ .

(٣) الوصوم : العيوب ؛ جمع وصم ، ورواية الديوان : « خمانة جوفاء ذات وصوم » .

وهو جالس فى أصحابه ، فلمّا نظر إليه قال : هذا ابنُ الزِّبَعْرَى ومعه وجهٌ فيه نورُ الإسلام ، فلمّا وقف على رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : السّلامُ عليك يا رسولَ الله ، شهدتُ أن لا إله إلّا الله ، وأنّك عبدُه ورسوله ، والحمد لله الّذى هَدانى للإســلام ، لقد عاديتُك وأَجْلَبْتُ عليك ، وركِبتُ الفرس والبعيرَ ، ومَشَيتُ على قدمى فى عَداوتِك ، ثم هربتُ منك إلى نجرانَ ، وأنا أريدُ ألّا أقرب الإســلامَ أبدا ؛ ثم أرادَنى اللهُ منه بخير ، فألقاه فى قلبى ، وحبّبه إلىّ ، وذكرت ما كنتُ فيــه من الضّلال واتّباع ما لا ينفع ذا عقل ؛ من حَجَرٍ يُعْبَد ، ويُذبَح له لا يدرى من عَبَده ومن لا يَعبُده . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : الحمدُ لله الّذى هداك للإسلام ، احمَدِ الله ، إنّ الإسلام يَجُبُّ ما كان قبْلَه .

وأقامَ هُبيرة بنَجْرانَ ، وأسلمتْ أمُّ هانئ ، فقال هُبيرة حين بلغه إسلامها يومَ الفتح يؤنّبها شِعرا من جُملته[1] :

وإن كنتِ قد تابعتِ دينَ محمّدٍ وقطّعتِ الأرحامَ منكِ حِبالَهــا[2]
فــكونى على أعلى سَحُوقٍ بهَضْبَةٍ[3] مُلَملِمة غبراءَ يَبْسٍ بِلالُهــا[4]

فأقام بنَجرانَ حتّى مات مُشركا .

قال الواقدىّ: وهرب حُوَيْطِب بنُ عبدالعُزّى فدخل حائطا[5] بمكّة ، وجاء أبو ذَرّ لحاجته، فدخل الحائط فرآه ، فهَرَب حُوَيطب ، فقال أبو ذَرّ : تعالَ فأنتَ آمِن ، فرجع إليه فقال : أنت آمن ؟ فاذهب حيثُ شئتَ ، وإن شئتَ أدخلتُك على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وإن شئتَ فإلى منزِلك . قال : وهل من سبيل إلى منزلى ألفَى فأُقتَل قبل أن أصِلَ إلى منزلى،

---

(١) من قصيدة له فى ابن هشام ٤ : ٤٢ ؛ وأولها :

أشَاقَتْكَ هِنْدٌ أَمْ أَتَاكَ سُؤالُها كذاكَ النَّوَى أَسبابُها وانفِتالُها

(٢) ابن هشام : « وعطفت الأرحام منك حبالها ».
(٣) كذا فى ا ، وفى ب « سخوف » ؛ وفى د : « سجوف » . وفى ابن هشام : « سحيق » .
(٤) الململة : المستديرة ، والغبراء : التى علاها الغبار . واليبس : المكان اليابس .
(٥) الحائط هنا : البستان .

أو يدخل علىّ منزلى فأقتَل ! قال: فأنا أبلُغ معك منزلَك ، فبلغ معه منزله، ثمّ جعل يُنادى عَلَى بابه : إنّ حُوَيْطِبا آمِن فلا يهيَّج. ثم انصَرَف إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخبرَه فقال : أوَ ليس قد أمنّا الناس كلَّهم إلّا من أمَرْتَ بقتلِه !

قال الواقدىّ : وهرب عكرمةُ بن أبى جهل إلى اليمن حتى ركب البحر ، قال : وجاءت زوجته أمّ حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فى نِسوةٍ منهنّ هند بنت عُتبة ـ وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر بقتلِها ـ والبَغُوم[1] بنت المعذّل الكِنانيّة امرأة صفوان بن أميّة ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام ، وهند بنت عتبة بن الحجاج أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورسول الله صلّى الله عليه وآله بالأبطح ، فأسلَمْن ، ولما دخلنَ عليه دخَلْن وعنده زَوْجتاه وابنته فاطمة ونساء من نساء بنى عبد المطّلب وسألنَ أن يُبايعهنّ ، فقال : إنى لا أُصافح النّساء ـ ويقال : إنه وَضع على يده ثوباً فمسَحْنَ عليه ، ويقال : كان يؤتَى بقَدَح من ماء فيدخِل يدَه فيه ثم يرفعُه إليهنّ ، فيُدخلن أيديهنّ فيه ـ فقالت أمّ حكيم امرأة عِكرمة : يا رسول الله ، إنّ عِكْرمة هرَبَ منك إلى اليمن ، خاف أن تقتُله ، فأمِّنه ، فقال : هو آمن . فخرجتْ أمّ حكيم فى طلبه ، ومعها غلامٌ لها رُومىّ ، فراوَدَها عن نفسها ، فجعلتْ تمنّيه حتى قدِمتْ به على حىّ ، فاستغاثتْ بهم عليه ، فأوثَقُوه رباطا ، وأدركَتْ عِكْرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تِهامة ، فركب البحر ، فهاج بهم ، فجعل نُوتىُّ السفينة يقول له : أن أخلص ، قال : أىّ شىء أقول ؟ قال : قل لا إله إلا الله ، قال عكرمة : ما هَرَبتُ إلّا من هذا ، فجاءت أمّ حكيم على هذا من الأمر ، فجعلتْ تُلِحّ عليه وتقول : يا بن عمّ ، جئتُك مِن عند خير الناس ، وأوصَل الناس ، وأبرِّ الناس ، لا تُهلِك نفسك ، فوقف لها حتى أدركَتْه، فقالت : إنّى قد استأمَنتُ لك رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فأمّنك ، قال :

---

(١) ا ، ب : « البعوم » . د : «النعوم»، تحريف ، والصواب ما أثبته ، وانظر القاموس .

أنتِ فعلتِ ؟ قالت : نعم أنا كلّمتُه ، فأمّنك ، فرجع معها ، فقالتْ : ما لقيت من غلامِك الرّوميّ ! وأخبرتْه خَبرَه ، فقتَله عكرمةُ ، فلما دنا من مكّة قال رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم لأصحابه : يأتيكم عِكرمة بنُ أبى جهل مؤمِنا ، فلا تَسُبّوا أباه ، فإنّ سبّ الميتّ يؤذى الحىّ . ولا يبلُغ الميّت . فلما وَصل عِكرمة ودَخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وثب إليه صلى الله عليه وسلم وليس عليه رداء فرحا به ، ثم جلس فوق عِكرمة بين يديه ومعه زوجته منقّبة ، فقال : يا محمد ، إن هـذه أخبرتْنى أنك أمّنتَنى ؛ فقال : صدقت ، أنت آمِن ، فقال عكرمة : فإلامَ تَدْعُو ؟ فقال : إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّى رسولُ الله ، وأن تقيمَ الصلاة ، وتؤتى الزّكاة . . وعدّ خصال الإسلام ، فقال عِكْرمة : ما دعوتَ إلاّ إلى حقّ ، وإلى حَسن جميل ، ولقد كنتَ فينـا مِن قبل أنْ تدعوَ إلى ما دعوتَ إليه ، وأنت أصدقُنا حديثاً ، وأعظَمُنا برّا . ثم قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسولُ الله ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : لا تسألنى اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيْتُكَه ، قال : فإنى أسألك أن تغفرَ لى كلّ عداوة عادَيْتُكَها أو مَسيرٍ أوضَعْتُ فيه ، أو مُقامٍ لقيتُك فيه ، أو كلام قُلتُه فى وجهك ، أو أنت غائبٌ عنه . فقال : اللهمّ اغفر له كلّ عداوة عادانيها ، وكلّ مَسير سار فيه إلىّ يريد بذلك إطفـاء نُورك ، واغفر له ما نالَ منى ومن عِرْضى ؛ فى وَجهى أو أنا غائبٌ عنه . فقال عِكْرمة : رضيتُ بذلك يا رسول الله ، ثم قال : أما والله لا أدَع نفقةً كنت أنفِقُها فى صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقتُ ضعفها فى سبيل الإسلام وفى سبيـل الله ، ولأجتهدنّ فى القتال بين يديك حتى أُقتلَ شهيدا ؛ قال : فردّ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله امرأته بذلك النّكاح الأول .

قال الواقدىّ : وأما صَفْوان بن أميّة فهرب حتى أتى الشّعبة ، وجعل يقول لغلامه

يسار ـ وليس معه غيرُه : وَيْحك! اُنظر من ترَى ! فقال : هذا عُمَير بن وهب ؛ قال صفوان : ما أصنع بعُمير ؟ والله ما جاء إلّا يريد قَتْلى ، قد ظاهَرَ محمدا علىَّ ، فلحِقه ، فقال صفوان : يا عُمَير ، مالك ؟ ما كفاك ما صنعتَ ، حمّلتنى دَيْنَك وعيالك ، ثم جئتَ تريد قَتْلى ! فقال : يا أبا وهب ، جُعِلتُ فِداك ! جئتُك من عند خير الناس ، وأبرّ الناس وأوصل الناس ، وقد كان عميرٌ قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله : يا رسول الله ، سيّد قومى صفوان بن أميّة خرج هارباً ليقذف نفسه فى البحر ؛ خاف ألّا تؤمِّنَه ، فأمِّنه فداكَ أبى وأمى ! فقال : قد أمّنته ، فخرج فى أثره ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنك صفوان : لا والله حتى تأتِيَنى بعلامةٍ أعرفُها ، فرَجَع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره وقال : يا رسول الله ، جئته وهو يريدُ أنْ يَقْتل نفسه فقال : لا أرجع إلّا بعلامة أعرِفها ، فقال : خذ عمامتى ، فرجع عمير إليه بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهى البرْدُ الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله مَكّة معتجراً به، برد حِبرة أحمر ـ فخرج عمير فى طلبه الثانية[1] حتى جاءه بالبُرْد فقال : يا أبا وَهب ، جئتُك من عند خير الناس وأوصل الناس وأبرّ الناس وأحلم الناس ، مجدُه مجدُك ، وعِزّه عِزّك ، ومُلكه مُلكك ، ابنُ أبيك وأمّك ، أذكِّرك الله فى نفسك ، فقال : أخافُ أن أقتَل ؛ قال : فإنه دَعاك إلى الإسلام فإن رضيتَ وإلّا سيّرك شهرين فهو أوفى الناس وأبرّهُم ، وقد بعث إليك ببردِه الذى دخل به معتجرا ، أتعرِفه ؟ قال : نعم ، فأخرجه ، فقال : نعم هو هو ، فرجع صفوانُ حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجَده يصلّى العصر بالناس ، فقال : كم يصلّون ؟ قالوا : خمس صلوات فى اليوم والليلة قال : أمحمدٌ يصلّى بهم ؟ قالوا : نعم ، فلما سلّم من صلاته صاح صفْوان : يا محمد ، إن عميرَ

(١) ا ، ب : « ثابته » ؛ وأثبت ما فى د .

ابن وهب جاءنى ببُرْدك ، وزَعَم أنّك دعوتنى إلى القدوم إليك ، فإن رضيت أمرا ، وإلّا سيرتَنى شهرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : انزل أبا وهب ، فقال : لا والله أو تبيّنَ لى ؛ قال : بل سِرْ أربعة أشهر . فنزل صفوانُ وخرج معه إلى حُنَين وهو كافر ، وأرسل إليه يستعير أدْراعه — وكانت مائة دِرْع — فقال : أطوعاً أم كَرْها ؟ فقال عليه السلام : بل طَوْعا عاريّةً مؤدّاة ، فأعاره إيّاها ، ثم أعادها إليه بعد انقضاء حُنين والطائف ، فلما كان رسول الله صلّى الله عليه وآله بالجِعْرَانة يسير فى غنائم هوازن ينظر إليها ، فنظر صفوان إلى شِعب هناك مملوء نَعَما وشاءً ورعاءً ، فأدَام النظر إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يَرْمُقه ، فقال: أباوهب : يعجبك هذا الشِّعب ! قال : نعم ، قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبيّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

قال الواقدىّ : فأمّا عبدُ الله بن سَعْد بن أبى سَرْح فكان قد أسلم ، وكان يَكتُب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى ، فربّما أملى عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله « سميعٌ عليم » فيكتُب « عزيزٌ حكيم » ونحو ذلك ، ويقرأ على رسول الله صلى الله عليه آله فيقول : كذلك الله ، ويقرأ ، فافتتن ؛ وقال : والله ما يَدْرِى ما يقول : ! إنى لأكتب له ما شئتُ فلا يُنكر ، وإنّه ليوحَى إلىّ كما يوحَى إلى محمّد ، وخرج هارباً من المدينة إلى مكّة مرتدّا ، فأهْدَر رسول الله دمَه ، وأمر بقَتْله يوم الفتح ، فلمّا كان يومئذ جاء إلى عثمان — وكان أخاه من الرّضاعة — فقال : يا أخى ، إنّى قد أجَرْتك فاحتَبِسْنى ها هنا واُذهبْ إلى محمّد فكلّمه فىّ ، فإن محمدا إنْ رآنى ضَرَبَ عُنُق ، إنّ جُرْمى أعظم الُجرْم ، وقد جئتُ تائبا ؛ فقال عثمان : قم فاذهب معى إليه ، قال : كلاّ ، والله إنه إنْ رآنى ضرَبَ عنق ولم يناظرْنى ، قد أهدَرَ دمى وأصحابُه يطلبُوننى فى كلّ موضع ، فقال عثمان : انطلق معى فإنّه لا يقتلك إن شاء الله — فلم يُرَعْ رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بعثمانَ

آخذا بيدِ عبدِ الله بن سعد واقفيْن بين يديه ، فقال عثمان : يا رسولَ الله ، هـذا أخى من الرّضاعة ، إنّ أمّــه كانت تحملنى وتمشّيه وترضعنى وتفطمه وتُلْطِفنى وتتركه ، فهَبْـه لى . فأعرض رسولُ الله صلى الله عليه وآله عنه ، وجعل عثمانُ كلّما أعرض رسولُ الله عنــه أستقبَلَه بوجهه،وأعادَ عليه هذا الـكلام ، وإنّما أعْرض عليه السّلام عنه إرادةً لأن يقوم رجلٌ فيضربَ عنُقَه ، فلمّا رأى ألّا يقوم أحدٌ وعثمان قد أُنـكَبَّ عليه يقبّــل رأسَه ويقول : يارسول اللهِ ، بايِعْه فِدَاكَ أبى وأمّى على الإسلام ! فقال رسول الله صــلى الله عليه وآله : نَعَمْ ، فبايعه .

قال الواقدىّ : قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك للمسلمين : ما مَنَعَــكم أن يقومَ منـكم واحدٌ إلى هذا الـكلب فيقتله ــ أو قال: الفاسق ! فقال عبّــاد بن بشْر : والّذى بعثَك بالحقّ ، إنى لأتْبَـع طرفَك من كلّ ناحية ، رجاء أن تشيرَ إلىّ فأضرِبَ عنقه . ويقال: إنّ أبا البشير هو الّذى قال هذا ؛ ويقال : بل قاله عمرُ بنُ الخطّاب ، فقال عليــه السلام : إنّى لا أقتلُ بالإشارة ؛ وقيل : إنّه قال : إنّ النبيّ لا يكون له خائنةُ الأعين .

قال الواقدىّ : فجعل عبدُ الله بنُ سعد يفرّ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله كلّـما رآه ، فقال له عثمان : بأبى أنتَ وأمّى ! لو ترى ابنَ أمّ عبدٍ يفرّ منك كلّما رآك ! فتبسّم رسولُ الله صلى الله عليــه وآله ؛ فقال : أو لم أبايِعْه وأؤمّنه ؟ قال : بلى ، ولـكنّه يتذكّر عُظْم جُرْمه فى الإسلام ، فقال: إنّ الإسلام يَجُبُّ ما قَبْلَه .

قال الواقدىّ : وأمّا الُحوَيرث بنُ مَعْبد ــ وهو من وَلَد قصىّ بن كلاب ــ فإنّه كان يؤذِى رسولَ الله صلى الله عليه وآله بمكّة ، فأهدَرَ دمَه ، فبينما هــو فى منزله يوم الفتح وقد أغلق عليه بابه ، جاء علىٌّ عليه السلام يَسأل عنـــه ، فقيل له : هو فى البادية ، وأخبر الُحوَيرث أنه جاء يطلبُه وتَنحّى علىٌّ عليـــه السلام عن بابه ، فخرج الُحوَيْرث يريد أن

يَهرب من بيتٍ إلى بيتٍ آخر ، فتلقّاه علي عليه السلام فضرَب عنقه .

قال الواقديّ : وأمّا هبّار بنُ الأسود ، فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمر أن يُحرِقَه بالنّار ، ثم قال : إنّما يعذّب بالنار رَبُّ النار ، اقطعوا يدَيْه ورجليه إن قدَرْتم عليه ، ثمّ اقتُلوه ، وكان جُرمُه أن نَخَس زينبَ بنتَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله لما هاجرتْ ، وضرَبَ ظهرها بالرّمح وهى حُبْلَى ، فأسقطتْ ، فلم يقدرِ المسلمون عليه يومَ الفتح ، فلمّا رجع رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة طَلَع هَبّار بنُ الأسود قائلا : أشهَدُ أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنّ محمدا رسول الله ، فقبل النبي صلى الله عليه وآله إسلامه ، فخرجتْ سَلْمَى مولاةُ النبيّ صلّى الله عليه وآله فقالت : لا أنعم الله بك عَيْنا ! أنتَ الّذى فعلت وفعلت ! فقال رسولُ صلّى الله عليه وآله وهبّار يعتذِر إليه : إن الإسلام محا ذلك . ونَهَى عن التّعرض له .

قال الواقديّ : قال ابن عبّاس رضى الله عنه : رأيتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله وهَبّار يَعتذِر إليه وهو يُطأطئ رأسَه استحياءً ممّا يَعتذِر هبّار ويقول له : قد عفوتُ عنك !

قال الواقديّ : وأما ابن خَطَل فإنّه خرج حتّى دخل بين أستارِ الكعبة ، فأخرَجه أبو برْزة الأسلَميّ منها ، فضرَبَ عنقَه بين الرُّكْن والمقام ـ ويقال : بل قتَله عمّار بن ياسر ، وقيل : سعدُ بن حُريث المخزوميّ ، وقيل : شُرَيك بن عَبدة العَجْلانيّ ؛ والأثبتُ أنّه أبو برْزة ـ قال : وكان جُرْمه أنّه أسلَمَ وهاجَر إلى المدينة وبعَثَه رسولُ الله صلى الله عليه وآله ساعياً[1] ، وبعث معه رجلا من خُزاعةَ فقتَله ، وساق ما أَخَذ من مال الصّدقة، ورَجَع إلى مكّة ، فقالت له قريش : ماجاء بك ؟ قال : لم أَجِد دِينا خيْراً من دِينكم ، وكانت له قَيْنتان : إحداها قرينى ، والأخرى قرينة ـ أو أرنب ، وكان ابن خَطَل يقول

(١) ساعيا : أى جابيا للزكاة .

الشّعرَ يهجُو به رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ويغنّيان به ، ويَدخُل عليه المشركون بيتَه فيَشرَبون عنده الخمر ، ويَسمَعون الغِناء بهجاء رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

قال الواقدىّ : وأما مِقْيس بن صُبابة فإنّ أمّه سهميّة ، وكان يومَ الفتح عنـد أخوالِه بنى سَهْم ، فاصطَبَح الخمرَ ذلك اليوم فى ندامَى له ، وخرج ثَمِلًا يتغنّى ويتمثّل بأبياتٍ منها :

دَعِينى أَصطبِحْ يا بَكْرُ إنّى ... رأيتُ الموتَ نَقَّبَ عن هِشامِ
ونقّب عن أبيكِ أبى يَزيدٍ ... أخِى القَيْنات والشَّربِ الكِرامِ
يخبّرنا ابنُ كَبْشَةَ أنْ سنَحْيَا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ !
إذا ما الرأسُ زالَ بمنكِبَيه ... فقد شَبِعَ الأنيسُ من الطَّعامِ
أتقتُلُنى إذا ما كنتُ حيًّا ... وتُحيينى إذا رَمَّت عِظامِى !

فلقيَه نُمَيلة بنُ عبد الله اللّيثىّ وهو من رَهْطه ، فضَرَبه بالسيف حتّى قتَله ، فقالت أختُه ترثيه :

لَعَمرى لقد أخزَى نميلةَ رهْطُه ... وفَجّع أصناف النساء بمقيسِ
فللّه عَيْناَ مَن رَأى مِثلَ مِقيسٍ ... إذا النُّفَساء أصبحتْ لم تخرّس[1]

وكان جُرْم مِقْيَس مِن قِبَل أنّ أخاه هاشم بن صُبابة أسلَم وشَهِدَ المُرَيْسِيعَ مع رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فقتَله رجلٌ من رَهْط عُبادَة بن الصّامت ـ وقيل : مِن بنى عمرو ابن عَوْف وهو لا يعرفه ـ فظنّه من المشركين ، فقضَى له رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بالدّيَة على العاقلة ، فقدِم مِقْيَس أخوه المدينةَ فأخذ دِيَته ، وأسلَم ، ثمّ عدا على قاتِل أخِيه ، فقتَله ، وهَرَب مرتدًا كافرا يهجُو رسولَ الله صلّى الله عليه وآله بالشّعر ، فأهدَرَ دَمه .

(١) يقال : خرست المرأة تخريساً ؛ إذا أطعمت فى ولادتها ؛ والبيت فى اللسان (خرس) .

قال الواقديّ : فأما سارّة مولاةُ بني هاشم ـ وكانت مغنيّةً نوّاحة بمكّة ، وكانت قد قَدِمَتْ على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله المدينَة تَطلُب أن يَصِلَها ، وشكَتْ إليه الحاجةَ وذلك بعدَ بَدْر وأُحُد ـ فقال لها : أما كانَ لكِ في غِنائكِ ونِياحِكِ ما يُغنيك ! قالت : يا محمّد ، إنّ قريشا منذ قُتِل مَن قُتِل منهم ببَدْر تركوا استماعَ الغِناء ، فوَصَلها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، وأوقَر لها بعيراً طعاماً ، فرجعتْ إلى قُرَيش وهي على دِينها ، وكانت يُلقَى عليها هِجاءُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فتُغنّي به ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ الفتح أن تُقتَل ، فقُتِلت ، وأما قَيْنتا ابن خَطَل فقَتَل يومَ الفتح إحداها ، وهي أرنب ، أو قرينة ، وأمّا قريني فاستؤمن لها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، فأمّنها وعاشت حتّى ماتت في أيام عثمان .

قال الواقديّ : وقد رُوِي أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله أَمَر بقتْل وَحْشِيّ يومَ الفَتْح ، فهَرَب إلى الطائف ، فلم يزل بها مقيما حتّى قَدِم مع وفد الطائف على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فدخل عليه فقال : أشهَد أن لا إله إلّا الله ، وأنّك رسولُ الله ، فقال : أوحشيّ ؟ قال : نعم ، قال : اجلس وحدِّثْني كيف قتلتَ حمزة ؟ فلمّا أخبَرَه قال : قم وغَيِّبْ عنّي وجهَك ، فكان إذا رآه توَارَى عنه .

قال الواقديّ : وحدّثني ابن أبي ذئب ومَعمَر عن الزُّهرِيّ ، عن أبي سَلَمة بنِ عبدِ الرحمن بن عوف ، عن أبي عَمرو بن عَدِيّ بن أبي الحمراء ، قال : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول بعد فَراغه من أمر الفَتْح وهو يريد الخروجَ من مكّة : أمَا واللهِ إنّكِ لخيرُ أرضِ الله ، وأحبُّ بلادِ الله إليّ ، ولولا أنّ أهلَكِ أخرجوني ما خرجتُ .

* * *

وزاد محمّد بن إسحاق في كتاب " المغازي " أنّ هند بنت عُتْبة جاءت إلى رسولالله

صلّى الله عليه وآله مع نساء قريش متنكِّرة متنقّبة لحدَثها الذى كان فى الإسلام ، وماصنعتْ بحمزة حين جدعته وبقرت بطنَه عن كبده ؛ فهى تخاف أن يأخذها رسول الله صلّى الله عليه وآله بحدَثها ذلك ، فلمّا دنَتْ منه ، وقال حين بايعنه على ألّا يُشرِكن بالله شيئا قلن : نعم ؛ قال : ولا يَسرِقْن ، فقالت هند : والله أنا كنت لأصيب من مال أبى سُفيان الهَنَة والهُنَيْهة فما أعلم أحَلالٌ ذلك أم لا ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : وأنّكِ لهند ! قالت ، نعم ، أنا هند ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فاعفُ عمّا سَلَف عفا الله عنك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ولا يزنينَ ، فقالت هند : وهل تزنى الحرّة ! فقال : لا ، ولا يقتُلْنَ أولادَهُنَّ ، فقالت هند : قد لَعَمْرى ربّيناهم صغارا وقتلتَهم كبارا ببَدْر ، فأنت وهم أعرَفُ . فضَحِك عمرُ بنُ الخطّاب من قولها حتى أسْفَرتْ نَواجذه ، قال : ولا يأتين ببهتْان [يَفْتَرِينَه ُ[1]] ، فقالت هند : إنّ إتيان البُهتْان لقَبِيح ، فقال : ولا يَعْصِينك فى معروف ؛ فقالت : ما جلسْنا هذه الجلسة ونحن نريد أن نعصِيَك .

قال محمد بن إسحاق : ومِن جيّد شعرِ عبدِ الله بن الزِّبعرَى الذى اعتذَرَ به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين قدمَ عليه :

مَنَع الرُّقادَ بلابلٌ وهُمومُ ... فالليلُ ممتدُّ الرِّواق بَهيمُ[2]
ممّا أتانى أنّ أحمدَ لامَنِى ... فيه ، فبتّ كأننى محمومُ
ياخيرَ من حملَتْ على أوْصالِها ... عَيرانَةٌ سُرُحِ اليَدَيْنِ سَعُومُ[3]

---

(١) من د .
(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٩ . البلابل : الوساوس المختلطة . والبهيم : الذى لا ضياء فيه . وفى ابن هشام : « والليل معتلج الرواق » .
(٣) العيرانة : الناقة التى تشبه العير (حمار الوحش) فى شدته ونشاطه . سرح اليدين : خفيفتهما . وسعوم : سريعة . وفى ابن هشام : « غشوم » .

إنّى لمعتذرٌ إليـــكَ من الّذى … أسدَيْتَ إذْ أنا فى الضلال أهيمُ[1]
أيّامَ[2] تأمُرُنى بأغْوَى خُطّةٍ … سَهْمٌ ، وتأمُرنى بــه مخزومُ
وأمــدُّ أسبابَ الرّدى ويقودُنى … أمرُ الغُواة وأمرُهم مشئوم
فاليومَ آمنَ بالنبىّ محمــدٍ … قلبى ، ومُخطِىء هــذه محرومُ
مضت العداوةُ وانقضَت أسبابُها … ودَعَتْ أَواصرُ بيننا وحُــلومُ[3].
فاغفر فِدًى لك والدىَّ كلاهُما … زَللى ، فإنــك رَاحِمٌ مرْحُوم
وعليك مِن عَلَم المَليكِ عَلامةٌ … نورٌ أغرُّ وخاتَمٌ مختــومُ
أعطاكَ بعد محبَّــةٍ برهَانَهُ … شرفاً وبُرْهــان الإلـٰه عظيم
ولقد شَهِدْتُ بأنّ دينَك صادقٌ … برٌّ وشأنُــك فى العبــاد جسيمُ
والله يَشهد أنّ أحمــدَ مصطفًى … متقبَّــلٌ فى الصالحين كريمُ
فرعٌ عَــلا بنيانُــه مِن هاشِمٍ … دَوْح تمــكّنَ فى العُلا وأُرومُ[4]

قال الواقدىّ : وفى يوم الفتْح سَمَّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله أهلَ مكة الذين دخلها عليهم الطُّلَقاء ، لمنّــه عليهم بعد أن أظفرَهُ الله بهم ، فصاروا أرقّاء له . وقد قيــل له يوم الفتح : قد أمــكنك الله تعالى فخذ ما شئت من أقمارٍ على غصون — يعنُون النّساء ؛ فقال عليه السلام : يأبَى ذلك إطعامُهم الضيف ، وإكرامُهم البيت ، ووَجْؤهم مناحرَ الهَدْى .

***

ثم نعود إلى تفسير مابقى من ألفاظ الفصل[5]؛ قوله : « فإن كان فيك تَجَلٌ فاسترِفه »

---

(١) أسديت : صنعت . (٢) فى د : «أيام » .

(٣) الحلوم : جمع حلم ؛ وهو العقل . (٤) ابن هشام :

قرمٌ عَلَا بنيانُــهُ من هاشمٍ … فرعٌ تمــكّنَ فى الذُّرا وأُرومُ

قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها » .

(٥) انظر ص ٢٥٠ من الجزء السابع عشر من هذا الكتاب

أى كن ذا رَفاهِية ، ولا تُرهِقَنّ نفسك بالعجل ، فلا بدّ من لِقاء بعضنا بعضا ، فأىّ حاجة بك إلى أن تعجل ! ثم فسّر ذلك فقال : إن أَزُرْكَ فى بلادكَ ، أى إن غَزَوتك فى بلادِكَ فخليق أن يكون الله بعثنى للانتقام منك ، وإن زُرْتَنى ـ أى إنْ غزَوتنى فى بلادى وأقبلتَ بجموعك إلىّ .

كنتم . كما قال أخو بنى[1] أسد؛ كنت أسمعُ قديما أنّ هذا البيت من شِعْر بشر بن أبى خازم الأسَدىّ ؛ والآن فقد تصفّحتُ شعره فلم أجدْه ، ولا وقفتُ بعدُ على قائله ، وإن وَقَفْتُ فيما يُستقبل من الزّمان عليه ألحقته .

وريحٌ حاصِب ، تَحمل الحصْباء ، وهى صِغارُ الحصَى ، وإذا كانت بين أغْوار ـ وهى ما سَفُل من الأرض وكانت مع ذلك ريح صَيف ـ كانت أعظمَ مشقّة ، وأشدّ ضَرَرا على مَن تُلاقيه . وجُلْمود ، يمكن أن يكون عَطْفا على « حاصِب » ، ويمكن أن يكون عطْفا على « أغْوار » ، أى بين غَوْرٍ من الأرض وحَرَّةٍ ، وذلك أشدّ لأذاها لما تكسِبُه الحرّة من لَفْح السَّموم ووَهجِها . والوجه الأوّل ألْيَق .

وأعضضْته أى جَعلته مَعضوضا برءوس أهلك ، وأكثر ما يأتى « أفعَلْته » أن تجعله « فاعلا » ، وهى ها هنا من المقلوب ، أى أعضَضْت رءوس أهلك به ، كقوله : « قد قطع الحبل بالمرْوَد » .

وجدُّه عُتبة بن ربيعة ، وخاله الوليدُ بنُ عتبة ، وأخوه حَنظلة بن أبى سفيان ، قتلهم علىّ عليه السلام يوم بدر .

والأغلَفَ القلب : الذى لا بصيرة له ، كأنّ قلبه فى غِلاف ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾[2] .

---

(١) وهو قوله :

مُسْتَقْبِلين رِيَاحَ الصَّيْفِ تضربُهُمْ   بحاصب بينَ أغوارٍ وجلمُودِ

(٢) سورة البقرة ٨٨ .

والمقارِب العقل ، بالكسر : الذى ليس عَقْله بجيّد ؛ والعامّة تقول فيما هذا شأنه : مقارَب ، بفتح الراء .

ثم قال : الأولى أن يقال هذه الكلمة لك .

ونشدتُ الضّالّة : طَلبتُها ، وأنشدتها : عرّفتها ، أى طلبتَ ما ليس لك .

والسائمة : المال الراعي ؛ والكلامُ خارجٌ مخرج الاستعارة .

فإن قلت : كلّ هذا الكلام يطابق بعضه بعضا إلاّ قوله : « فما أبعد قولك من فِعلك » وكيف استبعد عليه السلام ذلك ولا بُعْدَ بينهما ، لأنه يَطْلُب الخلافة قولا وفعلا ! فأىّ بُعد بين قوله وفعله !

قلت : لأنّ فعله البَغْى ، والخروج على الإمام الذى ثبتت إمامتُه وصحّت ، وتفريق جماعةِ المُسلمين ، وشقّ العَصا ، هــذا مع الأمور الّتى كانت تَظهر عليه وتقتضى الفسق ؛ من لبس الحرير ، والمَنسوج بالذهب ، وما كان يتعاطاه فى حياةِ عثمان من المنكرات التى لم تثْبت توبته منها ، فهذا فعلُه .

وأما قوله ؛ فزعمه [1] أنه أميرُ المؤمنين ، وخليفةُ المسلمين ، وهذا القولُ بعيد من ذلك الفعل جدا .

و « ما» فى قوله : «وقريب ما أشبهت» مصدرية ، أى وقريب شبهك بأعمام وأخوال.

وقد ذكرنا من قُتِل من بنى أميّة فى حرُوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تقدّم ، وإليهم الإشارة بالأعمام والأخوال ، لأن أخوال معاوية من بنى عبد شمس ، كما أنّ أعمامه من بنى عبد شمس .

قوله: «ولم تماشها الهوينى » أى لم تصحبها، يصفها بالسرعة والمضىّ فى الرءوس الأعناق

---

(١) ا : « لزعمه » .

وأمّا قوله : « ادخُل فيما دَخَل فيه الناسُ وحاكِم القومَ » ، فهى الحجّة الّتى يَحتجّ بها أصحابُنا له فى أنّه لم يُسلِّم قَتلة عثمانَ إلى معاوية ، وهى حُجّة صحيحة ، لأنّ الإمام يجب أن يُطاع ، ثمّ يتحاكَم إليه أولياء الدّم والمتّهَمون ، فإنْ حَكَم بالحقّ استُديمت حكومتُه ، وإلّا فَسق وبَطَلت [إمامَتُه[1]] .

قوله : « فأمّا تلك الّتى تُريدها » ؛ قيل : إنّه يريد[2] التعلّق بهذه الشّبهة ، وهى قتَلة عثمان ، وقيل : أراد به ما كان معاوية يكرّر طلبَه من أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو أن يقرّه على الشّام وحدَه ، ولا يكلّفه البَيْعة ، قال : إنّ ذلك كمُخادَعة الصبىّ فى أوّل فِطامه عن اللّبَن بما تَصنَعه النّساء له مما يكرِّه إليه الثّدىَ ويُسليه عنه ، ويُرغّبه فى التعوّض بغيره ، وكتابُ معاويةَ الّذى ذكرناه لم يتضمّن حديثَ الشام .

(١) من د .   (٢) فى د « يعنى » .

(٦٥)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضا :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ، فَلَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَاقْتِحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِيبِ ؛ مِن انْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَابْتِزَازِكَ لِمَا قَدِ اخْتُزِنَ دُونَكَ ؛ فِرَارًا مِنَ الْحَقِّ ، وَجُحُودًا لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَمُلِئَ بِهِ صَدْرُكَ؛ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ !

فَاحْذَرِ الشُّبْهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلَابِيبَهَا ، وَأَعْشَتِ الْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا . وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السِّلْمِ ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا عَنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي الدَّهَاسِ ، وَالْخَابِطِ فِي الدِّيمَاسِ ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ الْمَرَامِ ، نَازِحَةِ الْأَعْلَامِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنُوقُ ، وَيُحَاذَى بِهَا الْعَيُّوقُ ؛ وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي صَدَرًا أَوْ وِرْدًا ، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْدًا أَوْ عَهْدًا ! فَمِنَ الْآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ وَانْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللَّهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، وَمُنِعْتَ أَمْرًا هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ ، وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

آنَ لك وأَنَى لَكَ بمعنًى ، أى قَرُب وحانَ ، تقول : آنَ لك أن تَفعَل كذا يَئِين أيْناً ، وقال :

ألَم يأنِ أن لى تُجْلَ عَنِّى عَمايَتِى ... وأقصُر عن لَيلَى ، بَلَى قد أَنَى لِيَا

فَجَمع بين اللّغتين ، و « أَنّى » مقلوبة عن « آن » ؛ ومِمّا يجرى مَجرَى المَثَل قولهم لمن يُرُونه شيئاً شديدا يُبصره ولا يشكّ فيه : قد رأيته لمحاً باصِرا ، قالوا : أى نظرا بتَحْدِيق شديد ، ومَخرَجه مَخرَج رجـل لابنٍ وتامِرٍ ، أى ذو لبَن وتَمْر ، فمعـنى « باصِر » ذو بَصَر ؛ يقول عليه السلام لمعاوية : قد حانَ لك أن تَنتفِع بما تَعلَمه من معاينة الأمورِ والأحوالِ وتتحقّقه يقينا بقَلْبك ؛ كما يتحقّق ذو اللّمح الباصر ما يُبصِره بحاسّة بصرِه ، وأراد ببَيان الأمور هاهنا معايَنَتها ، وهو ما يعرفه ضرورة من استحقاق علىّ عليه السلام للخلافة دونَه ، وبراءتِه من كلّ شُبْهة يَنسُبها إليه .

ثم قال له : « فقد سلكتَ » ، أى اتّبعتَ طرائق أبى سُفْيان أبيكَ وعُتْبة جَدِّك وأمثالِهما مِن أهلِك ذَوِى الكُفْر والشّقاق .

والأباطيل : جمعُ باطل على غير قياس ، كأنهم جَمعوا إبطيلا .

والاقتحام : إلقاء النّفس فى الأمْر من غير رَوِيّة .

والمَيْن الكَذِب . والغُرور بالضم المصدَر وبالفَتح الاسم .

وانتحلْتُ القصيدة ، أى ادّعيتها كَذِبا .

قال: « ما قد علا عنك » ، أى أنتَ دونَ الخلافة ، ولستَ من أهلِها والابتزاز : الاستِلاب .

قال : «لما قد اُخترن دونَك » ، يعنى التسمّى بإمرة المؤمنين .

ثمّ قال : « فِرارا من الحقّ » ، أى فعلتَ ذلك كلّه هَرَبا من التمسّك بالحقّ والدّين ، وحبًّا للكُفْر والشّقاق والتغلّب .

قال : « وجُحُودا لما هو ألزَم » ، يعنى فرض طاعةِ علىٍّ عليه السلام، لأنّه قد وَعاها سَمْعُه ؛ لا رَيْب فى ذلك ، إمّا بالنّص فى أيّام رسول الله صـــلى الله عليه وآله كما تَذكُره الشّيعة ـ فقد كان معاوية حاضراً يومَ الغَدير لأنّه حجّ معهم حجّة الوَداع ، وقد كان أيضا حاضراً يومَ تَبُوك حين قال له بمَحضَر من الناس كافّة : «أنت منّى بمنزِلة هَارُون مِن موسى » ، وقد سُمِع غيرُ ذلك ـ وإمّا بالبَيْعة كما نَذكره نحن فإنّه قد اتّصل به خبرُها ، وتواترَ عندَه وُقوعُها ، فصار وقوعُها عنده معلوما بالضّرورة كعِلمِه بأنّ فى الدّنيا بلدا اُسمها مِصر ، وإن كان ما رآها .

والظاهر من كلام أميرِ المؤمنين عليه السّلام أنّه يريد المعنى الأوّل ! ونحن نخرِّجه على وَجْهٍ لا يَلزمَ منه ما تقوله الشّيعة، فنقول : لنَفرض أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله مانصّ عليه بالخلافة بعدَه ، أليس يَعلَم معاوية وغيرُه من الصّحابة أنه لو قال له فى ألف مقام: «أنا حَرْبٌ لمن حارَبْتَ وسِلْمٌ لمن سالَمْتَ » ، ونحو ذلك من قوله : « اللّهمّ عادِ من عادَاه ، ووالِ مَن وَالاه » ، وقوله : « حربُك حَرْبى وسِلْمُك سِلْمى » ، وقوله : « أنت مع الحقّ والحقّ معك » ، وقوله : « هذا منّى وأنا منه » ، وقوله: « هذا أخِى » ، وقوله:«يحبُّ اللهَ ورسوله ، ويحبّه اللهُ ورسولُه »، وقولُه: «اللّهمّ ائتنِى بأحبّ خَلقِك إليك»، وقوله: « إنّه ولىّ كلّ مؤمن[ومؤمنة[1]] بعدى » ، وقوله : فى كلام قاله: « خاصِف النّعل » ، وقوله : « لا يحبّه إلّا مؤمن، ولا يُبغضه إلا مُنافِق » ، وقوله :« إنّ الجنّة لتشتاق إلى أربعة»،وجعله أوّلهم ؛ وقوله لعمّار : « تقتلُك الفئة الباغية » ، وقوله : « ستقاتل النا ِكثين والقاسِطين

(١) من د .

والمارِقين بعدِى » ، إلى غير ذلك ممّا يَطولُ تَعدادُه جدّا ، ويحتاج إلى كتابٍ مفرد يُوضَع له، أفما كان ينبغى لمعاويةَ أن يفكّر فى هذا ويتأمّله ، ويَخشَى اللهَ ويتّقيه ! فلعلّه عليه السلام إلى هذا أشار بقوله : « وجُحوداً لما هو ألزَم لك من لحَمِك ودَمِك ممّا قد وَعاه سَمْعُك ، ومُلِئ به صَدْرُك » .

قولُه : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقّ إِلَّا الضَّلال ! ﴾[1] كلمةٌ من الكلام الإلهىّ المقدّس .

قال : « وبعد البَيان إلَّا اللّبس » ، يقال : لَبَسْت عليه الأمرَ لَبْسا ، أى خَلطتُه ، والمضارع يَلبِس بالكسر .

قال : « فاحذَر الشبهة واشتمالها » على اللُّبْسة بالضمّ ، يقال فى الأمر لُبْسة أى اشتباه وليس بواضح ؛ ويجوز أن يكون « اشتمال » مصدراً مُضافا إلى معاوية ، أى احذَر الشّبهة واحذر اشتمالَك إيّاها على اللّبسة ، أى ادّراعَك بها وتقمُّصَك بها على ما فيها من الإبهام والاشتباه ؛ ويجوز أن يكون مصدراً مضافا إلى ضمير الشّبهة فقط ، أى احذر الشّبهة واحتواءَها على اللّبسة التى فيها .

وتقول : أغدَفَت المرأةُ قِناعَها ، أى أرسلتْه على وجهها ، وأغدَف الليلُ، أى أرخى سُدولَه ، وأصلُ الكلمة التّغطِيَة .

والجلابيب : جمع جِلْباب ، وهو الثّوب .

قال : « وأغْشَت الأبصارَ ظُلْمَتُها » : أى أكسبتْها العَشَى وهو ظلمة العين . وروى « وأغشتْ » بالغين المعجمة « ظلمتَها» بالنّصب ، أى جعلت الفتنة ظُلمتَها غِشاء للأبصار .

والأفَانِين : الأساليب المختلِفة .

قوله : « ضعفت قُواها عن السّلْم » ، أى عن الإسلام ، أى لا تَصدُر تِلكَ الأفانينُ

---

(١) سورة يونس : ٣٢ .

المختلطة عن مُسلِم ، وكان كَتَب إليه يَطْلُب منه أن يفرده بالشام ، وأن يولّيَه العهدَ من بعدِه ، وألّا يكلّفه الحضورَ عنده . وقرأ أبو عمرو : ﴿ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[1] ؛ وقال : ليس المعنىّ بهذا الصّلح ، بل الإسلام والإيمان لا غير ، ومعنى « ضَعُفتْ قُواها » ، أى ليس لتلك الطّلبات والدّعاوَى والشُّبُهات التّى تَضمّنها كتابُك من القوّة ما يَقتضِى أن يكون المتمسّك به مُسلِما ، لأنّه كلامٌ لا يقولُه إلّا مَنْ هو ؛ إمّا كافرٌ مُنافق أو فاسق ، والكافر ليس بمسلِم ، والفاسق أيضا لتس بمُسلِم ـ على قول أصحابِنا ـ ولا كافر .

ثم قال : « وأساطير لم يَحْكِها منكَ عِلْم ولا حِلْم » ، الأساطير : الأباطيل ، واحدها أُسطورَة بالضم وإسْطارَة بالكسر والألف . وحَوْكُ الكلام : صَنْعتُه ونَظْمُه . والحِلْم : العَقْل ، يقول له : ما صدر هذا الكلام والهُجْر الفاسد عن عالم ولا عاقل .

ومن رَواها « الدِّهاس » بالكسر فهو جمع دَهْس ، ومَنْ قرأها بالفتح فهو مُفرَد ، يقول ؛ هذا دَهْس ودَهاس بالفتح ، مثل لَبْث ولَبَاث للمكان السّهل الّذى لا يَبلُغ أن يكون رملا ، وليس هو بتراب ولا طِين .

والدِّيماس بالكَسْر : السَّرَب المُظلِم تحتَ الأرض ، وفى حديث المَسيح: « إنّه سَبْط الشّعر ، كثيرُ خِيلان الوَجْه ، كأنّه خَرَج من دِيماس» ، يعنى فى نَضْرَته وكثرةِ ماء وَجْهه كأنّه خرج من كِنّ ؛ لأنه قال فى وصفِه : كأنّ رأسَه يَقطُر ماء ، وكان للحجّاج سِجنٌ اسمه الدِّيماس لظُلْمته ، وأصله من دَمَس الظلام يَدمُس أىّ اشتدّ ، وليل دامِسٌ وداموس ، أى مُظلِم : وجاءنا فلانٌ بأمور دُمْس ، أى مُظلِمة عظيمة ، يقول له : أنت فى كتابِك هذا كالخائض فى تِلكَ الأرض الرِّخْوة ، وتقوم وتقع ولا تتخلّص ، وكالخابط فى اللّيل المُظلِم يَعثُر ويَنهَض ولا يهتَدِى الطريق .

---

(١) سورة البقرة ٢٠٨ وانظر تفسير القرطبي ٣ : ٢٣ .

والمَرْقَبة : الموضعُ العالى. والأعلام : جمع عَلَم ، وهو ما يُهتَدى به فى الطّرقات من المَنار ، يقول له : سَمَتْ همّتك إلى دَعوَى الخلافة ، وهى منك كالمرقَبة التى لا تُرام بتعدٍّ على من يَطلُبها ، وليس فيها أعلامٌ تَهدِى إلى سلوك طريقِها ، أى الطرقُ إليها غامضة ، كالجبَل الأملسِ الّذى ليس فيه دَرَج ومَراقٍ يُسلَك منها إلى ذِروَته .

والأنوق على « فَعُول » بالفتح كأكُول وشَرُوب : طائر ، وهو الرَّخمة . وفى المثل: « أعزّ من بَيْضِ الأنوق »؛ لأنها تُحرزه ولا يكاد أحدٌ يَظفَر به ، وذلك لأنّ أوكارَها فى رءوس الجبال والأماكن الصّعبة البعيدة .

والعَيّوق : كوكب معروف فوق زُحَل فى العُلوّ ، وهذه أمثالٌ ضَرَبها فى بُعدِ معاوية عن الخلافة .

ثم قال : « حاشَ لله أن أولِّيَك شيئاً من أمور المسلمين بَعدِى » ، أى مَعاذَ الله ، والأصلُ إثبات الألف فى « حاشا » ، وإنما اتّبع فيها المصحف .

والوِرْد والصَّدَر: الدّخول والخروجُ ، وأصلُه، فى الإبل والماء . ويَنهَدإليك عبادالله، أى يَنهَض. وأُرتِجَتْ عليك الأمورُ : أُغلِقت .

وهذا الكتابُ هو جواب كتاب وَصَل من معاوية إليه عليه السلام بعد قَتْل علىّ عليه السلام الخوارجَ ، وفيه تلويحٌ بما كان يقوله من قبْل : إنّ رسول الله وَعَدنى بقتالِ طائفةٍ أخرى غيرِ أصحابِ الجَمَل وصِفّين ، وإنّه سمّاهم المارِقين ، فلمّا واقَعهم عليه السلام بالنَّهرَوان وقتَلهم كلّهم بيوم واحد وهم عَشَرة آلافِ فارسٍ أحَبّ أن يذكّر معاوية بما كان يقول من قبلُ ، ويَعِدُ به أصحابَه وخواصّه ، فقال له : قد آن لك أن تَنتفِع بما عايَنت وشاهَدْتَ معاينة ومُشاهَدةً ، من صدق القول الّذى كنتُ أقولُه للنّاس ويَبلغك فتَستهزئُ به .

(٦٦)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبدالله بن العباس ، وقد تقدم ذكره بخلاف هذه الرواية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَفْرَحُ بِالشَّىْءِ الَّذِى لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّىْءِ الَّذِى لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِى نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ بُلُوغُ لَذَّةٍ ، أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ ؛ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ ، وَإِحْيَاءُ حَقٍّ .
وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ ، وَأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الفَصْل قد تقدّم شرحُ نظيره ، وليس فى ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تَفسِير ، ولكنّا سنَذكُر مِن كلام الحكماء والصالحين كلماتٍ تُناسبه .

[نبذ من كلام الحكماء]

فمن كلام بعضهم : ما قُدِّر لك أتاك ، وما لم يُقدَّر لك تَعدَّاك ، فعَلام تَفْرح بما لم يكن بدٌّ من وصُوله إليك ، وعلام تحزَن بما لم يكن ليقدم عليك !

ومن كلامهم : الدنيا تقبل إقبالالطالب ، وتدبِر إدبار الهارب ، وتَصِل وصالَ المتهالك، وتُفارق فراقَ المُبغض الفارك ، فخيرُها يَسير ، وعيشُها قصير ، وإقبالها خدعة ، وإدبارُها

فَجْعة ، ولذّاتها فانية ، وتَبِعاتها باقية ، فاغتَنِمْ غفلة الزّمان ، وانتهزْ فرصَة الإمكان ، وخذ من نفسِك لنفسِك ، وتزوّد من يَوْمِك لغَدِك قبـل نَفادِ المُدّة ، وزوال القُدْرَة ؛ فلـكلّ امرئٍ من دنياه ما ينفعُه على عمارة أُخْراه .

ومن كلامهم : من نَـكَد الدّنيا أنّها لا تَبقى على حالة ، ولا تَخلُو من استحالة ، تُصلِح جانبا بإفسادِ جانب ، وتسرّ صاحبا بمساءةِ صاحب ؛ فالسّكون فيها خَطَر ، والثّقة إليها غَرَر ، والالتجاء إليها مُحال ، والاعتماد عليها ضلال .

ومن كلامهم : لا تَبتهجنّ لنفسك بمـا أدركتَ من لذّاتها الجسْمانيّة ، وابتهج لها بمـا تناله من لذّاتها العقليّة . ومن القول بالحقّ ، والعمل بالحقّ ، فإنّ اللذّاتِ الحسّيّة خيالٌ ينفد ، والمعارفَ العقليّة باقيةٌ بقاء الأبد .

(٦٧)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ ، فَأَفْتِ الْمُسْتَفْتِيَ ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ ، وَذَاكِرِ[1] الْعَالِمَ ، وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ .

وَلَا تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا ، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا .

وَانْظُرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللهِ فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ وَالْمَجَاعَةِ ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ الْمَفَاقِرِ وَالْخَلَّاتِ ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا .

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾[2] فَالْعَاكِفُ : الْمُقِيمُ بِهِ ، وَالْبَادِي : الَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ ؛ وَالسَّلَامُ .

* * *

(١) في د « وذكر » . (٢) سورة الحج ٢٥ .

الشَّرْحُ :

قد تقدّم ذكر قُثَمَ ونسبه . أَمَره أن يقيمَ للنّاس حجّهم ، وأن يذكّرهم بأيّام الله ، وهى أيّام الإنعام ، وأيّام الانتقام ، لتَحصُل الرغبة والرّهبة .

واجلس لهم العَصْرين : الغَداةَ والعَشىّ .

ثم قَسّم له ثمرةَ جلوسِه لهم ثلاثة أقسام : إمّا أن يفتىَ مُسْتفتيا من العامّة فى بعض الأحكام ، وإمّا أن يعلّم متعلّما يطلُب الفِقْه ، وإمّا أن يُذاكر[1] عالما ويُباحِثه ويُفاوِضه ، ولم يَذكُر السّياسة والأمورَ السّلطانيّة لأنّ غَرضه متعلّق بالحَجيج ، وهم أضيافه ، يقيمون ليالى يسيرةً ويقفِلون ؛ وإنّما يذكر السّياسة وما يتعلّق بها فيما يَرجع إلى أهل مَكّة ، ومن يدخل تحت ولايته دائما ، ثمّ نهاه عن توسّط السُّفَراء والحُجّاب بينه وبينهم ، بل ينبغى أن يكون سفيرَه لسانُه ، وحاجبَه وجهُه ، ورُوِى « ولا يكن إلّا لسانُك سفيراً لك إلى الناس » بجعْل «لسانك» اسم كان مثل قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾[2] ، والرواية الأولى هى المشهورة ، وهو أن يكون « سفيرا » اسم كان ، و « لك » خبرُها ، ولا يصحّ ما قاله الراوندىّ : إنّ خبرَها « إلى الناس » ، لأنّ « إلى » هاهنا متعلّقة بنَفْس «سَفير» ، فلا يجوز أن تكون الخبر عن «سفير» ، تقول : سفرتُ إلى بنى فلان فى الصّلح ، وإذا تعلّق حرفُ الجرّ بالكلمة صار كالشىء الواحد .

ثم قال : فإنّها إن ذِيدت أى طُرِدَتْ ودُفعت .

كان أبو عبّاد ثابتُ بن يحيى كاتبُ المأمون إذا سئل الحاجَةَ يشتمُ السائل ، ويسطُو عليه ويُخجِله ، ويُبَكّتُه ساعةً ثمّ يأمر له بها ؛ فيقوم وقد صارت إليه ، وهو يذمّه ويلعنه قال علىّ بنُ جَبَلة العَكَوّك :

---

(١) فى د « يذكر » .   (٢) سورة النمل ٥٦ .

لعَنَ اللهُ أبا عَبّـــادَ لعناً يتـــوالَى
يُوسع السائلَ شتماً ثمّ يُعطيــه السّؤالا

وكان الناسُ يَقِفون لأبى عَبّاد وقتَ رُكوبه ، فيتقدّم الواحدُ منهم إليه بقصّته ليناوله إيّاها ، فيركُله برِجْله بالرّكاب ، ويَضربِه بسَوْطه ، ويطير غضباً ، ثمّ لا ينزل عن فرسه حتّى يقضىَ حاجَتَه ، ويأمُر له بطَلِبته ، فينصرف الرجلُ بها وهو ذامٌّ له ساخطٌ عليــه ؛ فقال فيه دِعْبل :

أوْلَى الأُمــور بضَيْعةٍ وفسادِ مُلْكٌ يدبِّرُه أبو عَبّادِ[1]
متعمِّدٌ بدواتِــه جُلساءَه[2] فمضرَّجٌ ومخضَّبٌ بمــدادِ
وكأنّــه من دَيْرِ هِزْقلَ مُفلتٌ حرب يَجُرُّ سَلاسِل الأقيــادِ[3]
فاشدُدْ أمــيرَ المؤمنين صِفــادَه بأشدّ منــه فى يدِ الحــدّادِ

وقال فيه بعضُ الشّعراء :

قــل للخليفة يابنَ عمّ محمّدٍ قَيّــدْ وزيرَكَ إنّــه رَكّالُ
فلسوْطه بين الرءوس مَسالكٌ ولرِجْــله بين الصّدور مجــالُ

والمفاقر : الحاجات ؛ يقال : سدّ الله مَفاقره ، أى أغنَى الله فقْره ، ثمّ أمرَه أن يأمر أهلَ مكّة ألّا يأخذوا من أحَــد من الحجيجِ أجرة مَسكَن ، واحتجّ على ذلك بالآية ، وأصحاب أبى حَنيفة يتمسّــكون بها فى امتناع بَيْـع دُور مكّة وإجارتها ، وهــذا بناء على أنّ

---

(١) ديوانه ٧١ ، وروايته : « أمر يدبره أبو عباد » وبعده هناك :

خِرِقٌ عَـلَى جُلَسَائِهِ فـكَأَنّـهُمْ حَضَرُوا للحمةٍ ويوم جــلادِ

(٢) الديوان : « يسطو على كتابه بدواته » .

(٣) الديوان : « حرد » ودير هزقل : مجتمع المجانين كان .

المسجدَ الحرام هو مكّة كلّها ، والشافعىّ يرَى خلافَ ذلك ، ويقول : إنّه الكعبة ، ولا يمنع من بَيْع دُورِ مَكّة ولا إجارتها ، ويَحتجّ بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾[1] ، وأصحاب أبى حنيفة يقولون : إنّها إضافة اختصاص لا إضافة تمليك ، كما تقول : جلّ الدّابة ، وقرأ « سَواء » بالنصب على أن يكون أحد مفعولى « جعلْنا » أى جعلناه مُستوِياً فيه العاكف والباد ، ومن قرأ بالرفع جعل الجملة هى[2] المفعول الثانى .

(١) الحج ٤ . (٢) فى د « على » .

(٦٨)

الأصْلُ :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسى رحمه الله قبل أيام خلافته:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ[1] الْحَيَّةِ ، لَيِّنٌ مَسُّهَا ، قَاتِلٌ سَمُّهَا ، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا ، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا ، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا ، وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ إِلَى مَحْذُورٍ ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ ؛ وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

[سلمان الفارسى وخبر إسلامه]

سَلْمان ، رجلٌ من فارِسَ من رَامَهُرْمُز ؛ وقيل : بل من أصبهانَ ، من قريةٍ يقال لها جَيّ ، وهو معدودٌ من مَوالِي رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ؛ وكُنيتُه أبو عبد الله ، وكان إذا قيل : ابنُ مَن أنتَ ؟ يقول : أنا سَلْمان ، ابنُ الإسلام ، أنا مِن بنى آدم .

وقد رُوِى أنه قد تَداوَله أربابٌ كثيرة ، بضعةَ عشرَ رَبّا ؛ من واحد إلى آخَر حتّى أفضَى إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله[2] .

وَرَوَى أبو عمَر بنُ عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " أنّ سَلْمان أَتَى رسولَ الله

---

(١) فى د « كمثل » .

(٢) الاستيعاب ٦٣٤ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) ، وبعدها هناك : « ومن الله عليه بالإسلام » .

صلّى الله عليه وآله بصَدَقة ، فقال : هــذه صدقةٌ عليك وعلى أصحابك ، فلم يَقْبَلْها ، وقال : إنه لا تَحِلّ لنا الصدقة ، فرفَعها ، ثم جاءمن الغَدِ بمِثلِها وقال: هَدِيّة هذه، فقال لأصحابه : كلوا.

واُشتراه من أربابِه ، وهم قومٌ يهَود بدَراهِمَ ، وعلى أن يَغرِس لهم من النّخيل كذا وكذا ، ويعمَل فيها حتى تُدرِك ، فغَرَس رسولُ اللهصلى الله عليه وآله ذلك النخلَ كلّه بيَدِه إلّا نخلةً واحدة غَرَسَها عمرُ بنُ الخطّاب ، فأطعَم النّخل كلَّه إلّا تلك النخلة ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليــه وآله : « مَن غرَسها » ؟ قيل : عمر ؛ فقَلَعها وغرَسَها رسول الله صلّى الله عليه وآله بيَدِه فأطعَمَت (١) .

قال أبو عمر : وكان سَلمانُ يَسِفُّ (٢) الخُوص وهو أميرٌ على المدائن ويَبيعه ويأكل منه : ويقول : لا أُحِبّ أن آكُلَ إلّا من عَمَل يدى ، وكانَ قد تعلّم سَفّ الخُوصِ من المَدِينة .

وأوّل مَشاهِده الخَندَق ، وهو الّذِى أشار بحفْره، فقال أبو سُفْيان وأصحابُه لمّا رأَوْه : هذه مَكيدَة ما كانت العرب تَكيدها .

قال أبو عمر : وقد رُوِى أنّ سَلْمان شَهِد بَدْر وأُحُدا، وهو عبدٌ يومَئذ ؛ والأكثر أنّ أوْل مَشاهِدِه الخَنْدق ، ولم يَفُتْه بعد ذلك مَشهَد .

قال : وكان سَلْمان خَيِّرا ، فاضِلا ، حَبْرا ، عالما ، زاهدا ، متقشّفا .

قال : وذَكَر هشامُ بنُ حَسّان عن الحسَن البَصْرىّ ، قال : كان عَطاءُ سَلمانَ خمسةَ آلاف ، وكان إذا خرج عطاؤه تَصدّق به ، ويأكُلُ من عَمَل يده ، وكانت له عَباءةٌ يَفرِش بعضَها ويَلبَس بعضها .

---

(١) بعدها فى الاستيعاب : « من عامها » .

(٢) يسف الخوص ، أى ينسجه ،وفى اللسان : « وفى حديث أبى ذر، قالت له امرأة : مافى بيتك سفة ولا هفة ؛ السفة : مايسف من الخوص كالزبيل ونحوه » .

قال : وقد ذكر ابن وَهْب وابنُ نافع أنّ سَلمان لم يكن له بيت، إنّما كان يَستظِلّ بالجُدُر والشَّجَر ، وأنّ رجلا قال له : ألا أبنِى لك بيتا تَسكُن فيه ؟ قال : لا حاجة لى فى ذلك ؛ فما زال به الرجلُ حتّى قال له : أنا أعرفُ البَيْتَ الّذى يوافِقُك ؛ قال : فصِفْه لى ، قال : أبنِى لك بَيْتا إذا أنتَ قمتَ فيه أصابَ رأسَك سَقْفُه ، وإن أنتَ مَدَدتَ فيه رِجْلَيْك أصابَهما [الجِدار (١)] ؟ قال : نَعمْ ، فبَنَى له .

قال أبو عمر : وقد رُوِى عن رَسولِ اللهصلى الله عليه وآله من وجوه أنّه قال : «لو كان الدّين فى الثّريّا لَنَاله سَلْمان » ، وفى روايةٍ أخرى « لَنَاله رجل من فارِس » .

قال : وقد رَوينْا عن عائشةَ قالت : كان لسَلْمان مَجلسٌ مِنْ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ينفرد به باللّيل حتّى كاد يَغلِبنا على رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

قال : وقد رُوِى من حديثِ ابن بُرَيْدة ، عن أبيه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : « أمرَنى ربى بحُبّ أربعـة ، وأخبَرنى أنّه يحبّهم : علىّ ، وأبو ذرّ ، والمِقْداد ، وسَلْمان » .

قال : ورَوَى قتادة عن أبى هُرَيرة ، قال : « سَلْمان صاحبُ الكِتابيْن » يَعنى الإنجيلَ والقرآن .

وقد روَى الأعمش ، عن عَمْرو بن مرّة ، عن أبى البَخْترِىّ ، عن علىّ عليه السلام أنّه سُئِل عن سَلْمان فقال : عَلِم العِلْمَ الأوّل ، والعِلْمَ الآخِر ، ذاكَ بحرٌ لا يُنزَف ، وهو منّا أهلَ البَيْت .

قال : وفى روايةِ زَاذانَ ، عن علىٍّ عليه السلام : سَلمانُ الفارسىّ كلُقمانَ الحكيم .

قال : وقال فيه كَعْب الأحبار : سَلْمانُ حُشِىَ عِلْما وحِكْمة .

---

(١) من « د » .

قال: وفي الحديث المَرْوِيّ أنّ أبا سُفْيان مرّ على سَلْمان وصُهَيب وبلال في نفرٍ من المسلمين فقالوا: ما أخذتِ السيوفُ من عُنُق عدوّ الله مأخَذَها — وأبو سُفْيان يَسمَع قولَهم — فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لِشَيْخِ قريشٍ وسيّدِها ! وأتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وأخبَره فقال : يا أبا بكر ، لعلّك أغضبتَهم ! لئن كنتَ أغضبتَهم لقد أغضبتَ الله ، فأتاهم أبو بكر ، فقال أبو بكر : يا إخوتاه ، لعلّي أغضبتُكم ! قالوا : لا يا أبا بكر ، يَغفِر الله لك .

قال : وآخَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بينَه وبين أبي الدّرداء لمّا آخَى بين المسلمين .

قال : ولِسلمانَ فضائلُ جَمّة ، وأخبارٌ حسان ؛ وتوفّي في آخرِ خلافةِ عُثمانَ سنة خمس وثلاثين ؛ وقيل : توفّي في أوّل سنة ستّ وثلاثين . وقال قوم : توفِّيَ في خلافة عمرَ ، والأوّل أكثر .

* * *

وأمّا حديثُ إسلام سَلمانَ فقد ذَكره كثيرٌ من المحدّثين[1] ورَوَوْه عنه ، قال : كنتُ ابن دِهْقانٍ[2] قَرْية جَيّ من أصبهان ، وبلغ من حُبّ أبي لي أنْ حبَسَني في البيت كما تُحبَس الجارية ، فاجتهدتُ في المجوسيّة حتّى صرتُ قَطَن[3] بيت النار ، فأرسَلَني أبي يوماً إلى ضَيْعة له ، فمررتُ بكَنيسةِ النصارى ، فدخلتُ عليهم ، فأعجبتْني صلاتُهم ، فقلت : دينُ هؤلاء خير من ديني ؛ فسألتُهم : أين أصلُ هذا الدّين ؟ قالوا : بالشام ، فهربْتُ من والدي حتّى قدِمتُ الشام ، فدخلتُ على الأُسْقُفّ[4] فجعلتُ أخدُمه وأتعلّم منه ، حتّى حضرَتْه الوَفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ تُوصي بي ؟ فقال : قد هَلَك الناس وترَكوا دينَهم إلّا رجلا بالمَوْصل فالحقْ به ، فلمّا قَضَى نَحْبَه لحقتُ بذلك الرّجل

(١) وقد ذكر خبر إسلامه أيضا ابن هشام ؛ أورده في السيرة ١ : ٢٣٣ — ٢٤٢ .

(٢) الدهقان : شيخ القرية في بلاد فارس .

(٣) قطن النار : خادمها .

(٤) الأسقف : من وظائف النصرانية ، وهو فوق القسيس ودون المطران .

فلم يَلبَث إلّا قليلا حتى حضرته الوفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ تُوصِى بى؟ فقال : ما أعلم رجلا بقى على الطّريقة المستقيمة إلّا رجلا بنَصيبين ، فلحقتُ بصاحب نَصيبينَ . قالوا : وتلك الصَّوْمَعة اليومَ باقية ، وهى الّتى تعبّد فيها سَلْمان قبلَ الإسلام . قال : ثمّ احتُضِر صاحب نَصيبين ، فبعثنى إلى رجل بعَمُّوريّةَ من أرض الروم ، فأتيته وأقمتُ عنده ، واكتسبتُ بُقَيْراتٍ وغُنَيْمات ، فلما نزَل به الموت قلتُ له : بمَن تُوصِى بى ؟ فقال : قد ترك النـاسُ دينَهم ، وما بقىَ أحـدٌ منهم على الحقّ ؛ وقد أظلّ زمانُ نبىّ مبعوث بدِينِ إبراهـيمَ ، يَخرُج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حَرّتين ، لها نخـل ، قلت : فما علامَتُه ؟ قال : يأكل الهديّة ، ولا يأكل الصّدقة ، بين كتفيَه خاتَمُ النبوّة .

قال : ومر بى رَكب من كلْب ، فخرجتُ معهم ، فلمّـا بلغوا بى وادى القُرى ظَلَمونى وباعونى من يهودىّ ، فكنتُ أعمل له فى زَرْعه ونخله ، فبينْـا أنا عنده إذ قدِم ابن عمٍّ له ، فابتاعنى منه ، وحملنى إلى المدينـة ، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فعرفتُهـا ، وبعث اللهُ محمـدا بمكّة ، ولا أعلم بشىء من أمره ، فبينا أنا فى رأس نخلة إذ أقبلَ ابنُ عمٍّ لسيّدى ، فقال : قاتل الله بنى قَيْـلة ، قد اجتمعوا على رَجُلٍ بقُبـاءَ قدم عليهمْ من مَـكّة ، يزعمون أنه نبىّ ؛ قال : فأخذَنى القُرّ والانتفاض ، ونزلتُ عن[1] النّخـلة ، وجعلتُ أستقصى فى السّؤال ، فما كلّمنى سيدى بكلمة ، بل قال : أَقبِلْ على شأنِك ، ودَعْ ما لا يَعْنِيك . فلمّا أمسَيْت أخذتُ شيئاً كان عندى من التمر ، وأتيتُ به النبىّ صلّى الله عليـه وآله فقلت له : بلغنى أنك رجلٌ صالح ، وأن لك أصحاباً غُرَباء ذَوى حاجة ، وهـذا شىء عندى للصدقة ، فرأيتكم أحقّ به مِن غيركم ، فقال عليه السلام لأصحابه : كلوا ، وأمسك فلم يأكل ؛ فقلت فى نفسى : هذه واحدة ، وانصرفتُ ، فلما كان من الغد أخذتُ ما كان بقىَ عندى وأتيته به ، فقلت له : إنى رأيتُك لا تأكل الصدقة ، وهذه هديّة ،

(١) ب « من » .

فقال : كلوا وأكل معهم ، فقلتُ إنه لهوَ ، فأكببت عليه أقبّله وأبكى ؛ فقال : مالك ؟ فقصَصْت عليه القصّة ؛ فأعجبه ، ثم قال : يا سَلْمان ، كاتِبْ صاحِبك ، فكاتبته على ثلثمائة نخلة وأربعين أوقية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار : « أعينوا أخاكم » ، فأعانونى بالنخل حتى جمعت ثلثمائة ودية ، فوضعها رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ، فصحّت كلّها ، وأتاه مالٌ من بعض المَغازى ، فأعطانى منه ، وقال : أدِّ كتابَتك ، فأدّيت وعَتَقت .

وكان سَلْمان مِن شيعة علىّ عليه السلام وخاصّته ، وتَزْعُم الإماميّة أنه أحدُ الأربعة الّذين حَلَقوا رءوسهم وأتوه متقلّدى سيوفِهم فى خبر يَطُول ؛ وليس هذا موضع ذكره ، وأصحابنا لا يخالفونهم فى أن سلمان كان من الشّيعة ، وإنما يخالفونهم فى أمرٍ أزيد من ذلك ؛ وما يذكره المحدثون من قوله للمسلمين يوم السقيفة : كرديد ونكرديد محمولٌ عند أصحابنا على أن المراد صنعتمْ شيئاً وما صنعتم ، أى استخلفتم خليفةً ونعم ما فعلتم ، إلا أنكم عدَلْتم عن أهل البيت ، فلو كان الخليفة منهم كان أولى ؛ والإمامية تقول : معناه : « أسلمتم وما أسلمتم » ، واللفظة المذكورة فى الفارسية لا تُعطى هذا المعنى ، وإنما تدلّ على الفعل والعمل لا غير ، ويدل على صحّة قول أصحابنا أن سلمان عمل لعمر على المدائن ، فلو كان ما تنسبه الإماميَّة إليه حقّا لم يعمل له .

***

فأما ألفاظ الفَصْل ومعانيه فظاهرة ، ومما يُناسِب مضمونه قول بعض الحكماء : تعَزّ عن الشىء إذا مُنِعْتَه ، بقلّة صحبتِه لك إذا أُعْطِيتَه .

وكان يقال : الهالك على الدنيا رجلان : رجلٌ نافس فى عِزِّها ، ورجلٌ أَنِفَ مِن ذُلِّها .

ومرّ بعض الزهّاد بباب دارٍ وأهلُها يبكون مَيْتاً لهم ؛ فقال : واعجبا لقومٍ مسافرين ! يبكون مسافرا قد بلغ مَنزله !

وكان يقال : يابن آدم ، لا تأسف على مَفْقود لا يردُّه عليك الفَوْت ، ولا تَفْرَح بمَوْجود لا يتركُه عليك الموت .

لقي عالمٌ من العُلَماء راهبا فقال : أيُّها الراهب ، كيف ترى الدنيا ؟ قال : تُخْلِق الأبدان ، وتجدّد الآمال ، وتُباعِد الأمنيّة ، وتقرّب المنيّة ؛ قال : فما حالُ أهلها ؟ قال : مَن ظفر بها نَصَب ، ومن فاتَتْه أَسف ؛ قال : فكيف الغِنَى عنها ؟ قال: بقطع الرّجاء منها ؛ قال : فأيّ الأصحاب أبَرّ وأوفى ؟ قال : العمل الصالح ؛ قال : فأيّهم أضرّ وأنكى ؟ قال : النفسُ والهوى ؛ قال : فكيف المخرج ؟ قال : في سلوك المَنهج ، قال : وبماذا أسلكه ؟ قال : بأن تخلع لِباس الشّهوات الفانية ، وتعمل للدّار الباقية .

(٦٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمداني :

وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَانْتَصِحْهُ ، وَأَحِلَّ حَلَالَهُ ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ ، وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ ، وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا ، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضًا ، وَآخِرَهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا ، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ .

وَعَظِّمِ اسْمَ اللهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ ، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَا تَتَمَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ .

وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ ، وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ ، وَاحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ وَاعْتَذَرَ مِنْهُ . وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنِبَالِ الْقَوْمِ ، وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا ، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا .

وَاكْظِمِ الْغَيْظَ ، وَاحْلُمْ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ الْعَاقِبَةُ ، وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا اللهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تُضَيِّعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللهِ عِنْدَكَ ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ .

وَاحْــذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ ، وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ ، فَإِنَّ الصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ .

وَاسْكُنِ الْأَمْصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرْ مَنَازِلَ الْغَفْلَةِ وَالْجَفَاءِ ، وَقِلَّةِ الْأَعْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَاقصِرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ .

وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ ، وَمَعَارِيضُ الْفِتَنِ . وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ .

وَلَا تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ . وَأَطِعِ اللهَ فِي جُمَلِ أُمُورِكَ ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا . وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرْهَا ، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا ، إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا ، وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا .

وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا . وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ الْفُسَّاقِ ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ .

وَوَقِّرِ اللهَ ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ ، وَاحْذَرِ الْغَضَبَ ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ ؛ وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

[الحارث الأعور ونسبه]

هو الحارث الأعور صاحبُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهو الحارث بنُ عبد الله ابن كعب بن أسد بن نَخْلة بن حَرث بن سَبْع بن صَعْب بن معاوية الهَمْدانيّ ، كان أحد

الفقهاء ، له قولٌ في الفُتْيا ، وكان صاحب عليّ عليه السلام ، وإليه تنسب الشِّيعة الخطاب الذي خاطبه به في قوله عليه السلام :

ياحارِ هَمْدان من يمتْ يَرَنِي ... مِنْ مؤمنٍ أو منافقٍ قِبَلَا

وهي أبياتٌ مشهورة قد ذكرْناها فيما تقدّم .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جليلة الموقع :

منها قوله : « وتمسّكْ بِحَبْل القرآن » ، جاء في الخبر المرفوع لما ذكر الثَّقَلَيْن فقال : أحدهما كتابُ الله ، حبل ممدود من السماء إلى الأرض طرَفٌ بيد الله وطرف بأيديكم » .

ومنها قوله :«انتصحْه» أي عُدَّه ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه .

ومنها قوله : « وأحِلَّ حلاله وحَرِّم حرامه » ، أي احكم بين الناس في الحلال والحرام بما نصّ عليه القرآن .

ومنها قوله : « وصدِّق بما سلف من الحق » أي صدِّق بما تضمَّنه القرآن من أيام الله وَمَثُلاته في الأمم السالفة لما عصوْا وكذّبوا .

ومنها قوله : « واعتبر بما مضى من الدّنيا لما بقي منها » ، وفي المثل : إذا شئت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك ، وقال الشاعر :

وما نحنُ إلّا مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلًا بعدهمْ ثمّ نرحَلُ(١)

ويناسب قوله : «وآخرُها لاحقٌ بأولها ، وكلها حائل مُفارق » قوله أيضا عليه السلام

---

(١) في د « وترحلوا » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

فى غير هذا الفصل الماضى : « للمقيم عِبرة ، والميت للحىّ عِظة ، وليس لأمس عـودة ، ولا المرء من غدٍ على ثقة ، الأول للأوسط رائد ، والأوسط للأخير قائد ؛ وكلٌّ بكلّ لاحق ، والكلُّ للكلِّ مُفارق » .

ومنها قوله : «وعَظِّم اسم الله أن تذكره إلّا على حَقّ » ، قال الله سبحانه: ﴿ ولا تجعلوا اللهَ عُرضةً لأيمانكُمْ ﴾[1] ، وقد نهى عن الحلف بالله فى الكذب والصدق ، أمّا فى أحدهما فحرّم وأما فى الآخر فمكروه، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى فى لغْوِ القول والهزء والعبث.

ومنها قوله : «وأكثر ذكر الموت ومابعد الموت» ، جاء فى الخبر المرفوع : « أكثِرُوا ذكر هاذم[2] اللذّات » ، وما بعد الموت : العقابُ والثوابُ فى القبر وفى الآخرة .

ومنها قوله : « ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق » ، هذه كلمةٌ شريفة عظيمة القدْر ، أى لا تتمنّ المـوتَ إلا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدّيك إلى الجنة ، وتُنقِذك من النار ؛ وهذا هو معنى قوله تعالى لليهود : ﴿ إنْ زعمتمْ أنكم أوْلياءُ للهِ مِنْ دُونِ الناس فتمنَّوُا الموتَ إنْ كُنتُمْ صادِقينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَه أبداً بِمـا قدّمتْ أيديهمْ والله عليمٌ بالظّالمين ﴾[3] .

ومنها قوله : « واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ، ويكرهه لعامـة المسلمين ، واحذر كل عمل يُعمل فى الستر ، ويُستحيا منـه فى العلانية ، واحذر كل عمل إذا سُئل عنه صاحبه أنكره واعتذر منه » ، وهـذه الوصايا الثلاث متقاربةٌ فى المعنى ، ويشملها معنى قول الشاعر :

لا تنهَ عن خُلُق وتأتىَ مثلهُ عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ[4]

---

(١) سورة البقرة . (٢) هاذم اللذات ، من الهذم وهو القطع .

(٣) سورة الجمعة ٦ ، ٧ . (٤) لأبى الأسود الدؤلى من قصيدته الميمية ، أوردها صاحب الخزانة فى ٣ : ٦١٨ .

وقال الله تعالى حاكياً عن نبيٍّ من أنبيائه : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾[1] .

ومن كلام الجُنَيد الصوفىّ : لِيَكُن عَمَلُك من وراء سترك كعَمَلك من وراء الزّجاج الصافى . وفى المثل وهو منسوبٌ إلى علىّ عليه السلام : إيّاك وما يُعتذرُ منه .

ومنها قوله : « ولا تجعل عِرْضك غرَضا لنبال القوم » ، قال الشاعر :

لا تستثِرْ أبداً ما لا تقومُ له ولا تَهيجنّ من عِرِّيسِهِ الأَسَدَا[2]

إنّ الزنّابيرَ إنْ حرّكتها سَفَهاً مِن كورها أوجعتْ مِن لَسْعِها الجَسَدا

وقال :

مَقالةُ السُّوء إلى أهلها أسرعُ من مُنْحَدرٍ سائِل

ومَنْ دَعَا الناسَ إلى ذَمّه ذَمُّوه بالحقّ وبالباطِل

ومنها قوله : « ولا تُحَدِّث الناسَ بكلّ ما سمعتَ ، فكفى بذلك كَذِبا » ، قد نهى أن يحدّث الإنسان بكلِّ ما رأى من العَجائب فَضْلا عمّا سَمِع ، لأنّ الحديثَ الغريبَ المعجبَ تُسارِع النفسُ إلى تكذيبه ، وإلى أن تقوم الدّلالة على صِدْقه قد فَرَط من سوء الظنّ فيه ما فرط .

ويقال : إنّ بعض العَلويّة قال فى حَضْرة عَضُد الدولة ببغداد : عندنا فى الكُوفة نَبِقٌ وَزْنُ كلّ نَبِقةٍ مثقالان . فاستطرَف الملك ذلك ، وكاد يكذّبه الحاضرون ، فلمّا قام ذكر ذلك لأبيه ، فأرسَل حَماماً كان عنده فى الحال إلى الكوفة يأمر وكلاءه بإرسالِ مائة حامةٍ ، فى رجلى كلّ واحدة نبقتان من ذلك النَّبق ، فجاء النّبق فى بُكْرة الغَدِ وحُمل إلى عَضُد الدّولة ، فاستحسَنه وصدّقه حينئذ ، ثم قال له : لَعَمرى لقد صدَقت ،

---

(١) هود ٨٨ (٢) العريسة : مأوى الأسد .

ولـكن لا تحدّث فيما بعدُ بكلّ ما رأيتَ من الغرائب ، فليس كلّ وقت يتهيّأ لك إرسال الحمام .

وكان يقال : الناس يَـكتُبون أحسنَ ما يَسمعون ، ويَحفَظون أحسنَ ما يَـكتبون ، ويتحدّثون بأحسن ما يَحفَظون ؛ والأصدق نوع تحت جنْس الأحْسن .

ومنها قوله : «ولا تردّ على الناس كلّ ما حدّثوك ، فـكفى بذلك جهْلا» ، من الجهْل المبادرة بإنـكار ما يَسمَعه ، وقال ابنُ سينافى آخر "الإشارات" : إيّاك أن يكون تـكيّسك وتبرّؤك من العامّة ، هو أن تَنبرى منـكِراً لـكلّ شىء ، فلذلك عَجْز وطَيْش ، وليس الخرْق فى تـكذيبك ما لم يَستبِنْ لك بعد جليّته دون الخرق فى تصديقك بما لم تَقُم بين يدَيْك بيّنةٌ ، بل عليك الاعتصام بحبْـل التوقّف وإن أزْعَجك استنـكار ما يُوعيه سَمْعك ممّا لم يبرهن على استحالته لك ، فالصواب أن تسرّح أمثالَ ذلك إلى بُقْعة الإمكان ، ما لم يَذُدك عنها قائمُ البرْهان .

ومنها قوله : « واكظم الغَيْظ » قد مَدَح الله تعالى ذلك فقال : ﴿ وَالْـكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ (١) ، ورُوِى أن عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدم إليه صَحْفة فيها طعام حارّ ، فعجل فصبّها على رأسه ووجهه ، فغَضِب ، فقال له : ﴿والـكاظمين الغيظ﴾ ؛ قال : قد كظَمْت ، قال : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوتُ ، قال ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) ، قال : أنت حرّ لوجه الله ، وقد نَحَلتُك ضَيْعتى الفلانيّة .

ومنها قوله : « واحلُم عند الغضَب » ، هذه مُناسَبة الأولى ، وقد تقدّم منّا قولٌ كثيرٌ فى الحِلْم وفضله ؛ وكذلك القول فى قوله عليه السلام : « وتجاوَزْ عند القدرة » ، وكان يقال : القدْرة تذهب الحفيظة .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٤ .

ومنها قوله : « واصفحْ مع الدّولة تكنْ لكَ العاقبة » ؛ هذه كانت شيمةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشيمة علىّ عليه السلام ؛ أمّا شيمةُ رسول الله صلى الله عليه وآله فظفِرَ بمشركى مكّة وعفا عنهم ، كما سبق القولُ فيه فى عام الفتْح ؛ وأمّا علىّ عليه السلام فَظفِرَ بأصحاب الجمل وقد شقّوا عصا الإسلام عليه ، وطَعَنوا فيه وفى خلافتِه ، فعفا عنهم ، مع علمه بأنّهم يُفسدون عليه أمره فيما بعد ، ويَصيرون إلى معاوية ، إمّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم ، وهذا أعظمُ من الصّفح عن أهل مكّة ، لأنّ أهل مكّة لم يَبقَ لهم لمّا فُتِحت فئةٌ يتحيّزون إليها ، ويُفسِدون الدّين عندها .

ومنها قوله : « واُستَصلِح كلّ نعمةٍ أنعمها الله عليك » معنى اُستَصلِحْها اُستَدِمْها، لأنّه إذا استدامها فقد أصلَحها ، فإنّ بقاءَها صلاحٌ لها ، واستدامتها بالشكر .

ومنها قوله : « ولا تضيّعنّ نعمة من نعم الله عندكَ » ، أى واسِ النّاسَ منها ، وأحْسِن إليهم ، واُجعل بعضها لنَفْسك وبعضها للصّدقة والإيثار ، فإنّك إن لم تفعلْ ذلك تكنْ قد أضَعْتَها .

ومنها قوله : « وليُرَ عليك أثرُ النّعمة » قد أَمر بأنْ يُظهر الإنسان على نفسه آثارَ نعمةِ الله عليه ، وقال سبحانه : ﴿ وأمّا بنعمةِ رَبِّكَ فحدِّثْ ﴾[1] . وقال الرشيد لجعفر : قمْ بنا لنمضى إلى منزل الأصمعىّ ، فمضيا إليه خِفْية ومعهما خادمٌ معه ألفُ دينار ليَدْفَع ذلك إليه ، فدَخَلا دارَه فوجدا كساءً جَرْداءَ ، وباريّة[2] سَمْلاء ، وحصيرا مقطوعا ، وخباءً قديمة ، وأباريق من خزف ، ودَواةً من زُجاج ، ودَفاترَ عليها التراب وحيطانًا مملوءةً من نَسْج العناكِب ، فوَجَم الرشيدُ ، وسأله مسائلَ غَثّةً لم تكن من غرَضه ، وإنّما قطع بها خَجَله ؛ وقال الرشيد لجعفر : ألّا ترى إلى نفْس هذا المهين ، قد بَرْرناه بأكثر

---

(١) الضحى ١١ . (٢) البارية : الحصيرة .

من خمسين ألفَ دينار وهذه حالُـه ، لم تَظهر عليه آثارُ نعمتنا ! واللهِ لا دفعتُ إليه شيئاً ، وخرج ولم يُعطِه .

ومنها قوله : « واعلم أنّ أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة من نفسه وأهله وماله » ، أى أفضلهم إنفاقا فى البرّ والخير من مالِه ، وهى التّقدمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ﴾(١) ، فأمّا النفس والأهل ، فإنّ تقدمتهما فى الجهاد ، وقد تكون التّقدمة فى النّفس بأن يَشفع شفاعةً حسنةً أو يحضر عند السّلطان بكلام طيّب ، وثناءٍ حَسَن ، وأن يُصلِح بين المتخاصِمَين ، ونحو ذلك . والتّقدمة فى الأهل أن يحجّ بوَلَده وزَوْجته ويكلّفهما المشاقّ فى طاعة الله ، وأن يؤدّب ولده إن أذنَب ، وأن يقيمَ عليه الحدّ ، ونحو ذلك .

ومنهاقوله : « وما تُقدمْ من خير يَبقَ لك ذُخْره وما تؤخره يكنْ لغيرك خيرُه » ،وقد سبق مثلُ هذا ، وأنّ ما يتركُه الإنسانُ بعده فقد حُرِم نفعه ، وكأنّما كان يكدَح لغيره ، وذلك من الشّقاوة وقلة التوفيق .

ومنها قولُه : « واحذر صحابَة من يَفِيلُ رأيه » الصَّحابة بفتح الصاد ، مَصدَر صحبت والصَّحابة بالفتح أيضا جمعُ صاحب ، والمرادُ ها هُنا الأوّل ، وفالَ رأيُه : فَسَد؛ وهذا المعنى قد تكرّر ، وقال طَرَفة :

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قَرِينِهِ فإنّ القَرِينَ بالمُقارن يَقتدِى

ومنها قوله : « واسكُن الأمْصار العظام » ، قد قيل : لا تسكن إلا فى مصرٍ فيه سوقٌ قائمة ، ونهرٌ جارٍ ، وطبيبٌ حاذق ، وسلطانٌ عادل ، فأما مَنازل الغَفْلة والجفاء ، فمِثلُ قُرَى السّواد الصغار ، فإنّ أهلها لا نُورَ فيهم ، ولا ضوءَ عليهم ، وإنما هم كالدّوابّ

---

(١) سورة البقرة ١١٠ .

والأنعام ، هَمُّهم الحَرْث والفِلاحة ، ولا يفقهون شيئاً أصْلًا ، فمجاوَرَتهم تُعمِى القلب ، وتُظلِم الحِسّ ، وإذا لم يَجِـد الإنسانُ مَن يُعينه على طاعةِ الله وعلى تَعلُّم العِـلم قصَّر فيهما .

ومنها قوله : « واُقصر رأيَك على ما يَعْنيك » ؛ كان يقال : مرن دَخَل فيما لا يَعْنيه فاتَه ما يَعْنيه .

ومنها نَهيهُ إيّاه عن القُعود فى الأسْواق ؛ قد جاء فى المَثَل : السُّـوق محلّ الفُسوق . وجاء فى الخبر المرفوع : « الأسواقُ مَواطنُ إبليس وجندِه » ، وذلك لأنّها قلّما تخلو عن الأيْمان الـكاذبة ، والبيُوع الفاسدة ، وهى أيضا مَجمَع النّساء المُومِسات ، وفجّار الرجال ، وفيها اُجتماعُ أرباب الأهواء والبدَع ، فلا يخلُو أن يَتجادَل اثنان منهم فى المذاهب والنِّحَل فيُفضِى إلى الفِتَن .

ومنها قوله:« واُنظر إلى من فُضِّلْتَ عليه »؛ كان يقال : انظُرْ إلى مَن دُونَك ، ولا تَنظرْ إلى مَنْ فَوْقَك . وقد بيّن عليـه السلام السرّ فيه فقال : إنّ ذلك من أبواب الشّـكر ، وصَدَق عليه السلام ، لأنّك إذا رأيتَ جاهلا وأنتَ عالم ، أو عالمًا وأنت أعلَمُ منه ، أو فقيراً وأنتَ أغْـنَى [منه][1] ؛ أو مُبتَـلًى بسَقَم وأنتَ مُعافًى عنه ، كان ذلك باعثا وداعِياً لك إلى الشـكر .

ومنها نَهيُه عن السّفر يومَ الجمعة ، ينبغى أن يـكون هذا النهىُ عن السَّفَر يومَ الجمعة قبلَ الصلاة ، وأمّا بعدَ الصلاة ، فـلا بأس به ، واستَثْـنَى فقال : إلّا فاصلا فى سبيل الله ، أى شاخِصاً إلى الجهاد .

قال : « أو فى أمرٍ تُعذَر به » ، أى لضرورة دَعَتْك إلى ذلك .

---

(١) تكملة من ا .

وقد وَرَد نهيٌ كثيرٌ عن السّفر يومَ الجمعة قبل أداء الفرض ، على أنّ من الناس من كَرِه ذلك بعد الصّلاة أيضا ، وهو قولٌ شاذّ .

ومنها قولُه : «وأطعِ اللهَ فى جُمَل أمورك»، أى فى جُمْلَتِها ، وفيها كلّها ، وليس يَعنِى فى جُمْلَتها دونَ تفاصيلها . قال : «فإنّ طاعةَ الله فاضلةٌ على غيرها»، وصَدَق عليه السلام ، لأنّها توجب السعادةَ الدائمة ، والخلاصَ من الشّقاء الدائم ، ولا أفضلَ ممّا يؤدّى إلى ذلك .

ومنها قوله: « وخادِعْ نَفسَك فى العبادة »؛ أمَرَه أن يتلطّف بنفسه فى النّوافل ، وأن يُخادِعها ولا يقْهرَها فتَملَّ وتَضجَر وتترُك[1] ، بل يَأخذ عفوَها ، ويتوخّى أوقات النشاط ، وانْشراحَ الصّدر للعبادة .

قال : فأمّا الفرائض فحُكمُها غيرُ هذا الحكم ، عليك أن تقوم بها ؛ كرِهَتْها النفسُ أو لم تَكرَهْها . ثمّ أمَرَه أن يقوم بالفريضة فى وقتِها ، ولا يؤخّرها عنه فتصيرَ قضاءً .

ومنها قولُه : « وإيّاك أن يَنزِل بك المنون وأنتَ آبِقٌ من ربّك فى طَلب الدّنيا »؛ هذه وصيّة شريفة جدّا ، جَعَل طالبَ الدّنيا المُعرِضَ عن الله عند موْته كالعَبْد الآبِق يقدم به على موْلاه أسيراً مكتوفاً ناكِسَ الرأس ، فما ظنّك به حينئذ !

ومنهاقولُه: « وإيّاك ومصاحَبَة الفُسّاق ، فإنّ الشرّ بالشرّ مُلحَق » ؛ يقول : إنّ الطباع يَنزِع بعضُها إلى بعض ، فلا تَصحَبنّ الفُسّاق فإنّه يَنزِع بك ما فيك من طَبْع الشرّ إلى مساعَدَتِهم على الفُسوق والمَعصِية ، وما هو إلّا كالنّار تَقوَى بالنار ، فإذا لم تُجاوِرْها وتُمازِجْها نارٌ كانت إلى الانطِفاء والخمُود أقرب .

---

(١) : « وتزل » .

ورُوِى « مُلحِق » بكسر الحاء ، وقد جاء ذلك فى الخبر النبوىّ « فإن عذابَك بالكفّار مُلحِق » بالكسر .

ومنها قولُه : « وأحِبّ أحبّاءه » ، قد جاء فى الخبر : « لا يَكمُل إيمانُ امرئٍ حتّى يُحبّ مَن أحَبّ الله ، ويُبغض من أبغَض الله » .

ومنها قولُه : « واحذَر الغَضَب » ، قد تقدّم لنا كلامٌ طويل فى الغَضَب . وقال إنسانٌ للنّبيّ صلّى الله عليه وآله : أَوصِنى ؛ قال : « لا تَغْضَب » ، فقال : زِدْنى ؛ فقال : « لا تغضب » ؛ قال : زِدْنى ؛ قال : « لا أجدُ لك مَزيداً » ، وإنّما جعلَه عليه السلام جُنْدا عظيما من جُنودِ إبليس ، لأنَّه أصلُ الظّلم والقَتْل وإفسادِ كلّ أمرٍ صالح ، وهو إحدى القوّتين المشئومَتَيْن اللّتين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان ، وهما مَنبَع الشرّ : الغَضَب والشَّهْوَة .

(٧٠)

الأصلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حُنيف الأنصارى وهو عامله على المدينة ، فى معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ ، فَكَفَى لَهُمْ غَيًّا ، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِيًا فِرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ ؛ فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا ، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا ، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أُسْوَةٌ ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ ، فَبُعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا ! إِنَّهُمْ وَاللهِ لَمْ يَفِرُّوا مِنْ جَوْرٍ ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ اللهُ لَنَا صَعْبَهُ ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ ، إِنْ شَاءَ اللهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

الشّرحُ :

قد تقدّم نسبُ سَهْل بن حُنيف وأخيه عثمانَ فيما مضى .

ويتسلّلون : يَخرُجون إلى معاويةَ هاربين فى خِفْية واستتار .

قال : « فلا تأسَفْ » أى لا تحزن . والغَيّ : الضلال .

قال : « ولك منهم شافيا » ، أى يكفيك فى الانتقام منهم وشفاءِ النّفس من عقوبَتِهم أنّهم يتسلّلون إلى معاوية .

قال: ارض لمن غاب عنك غَيْبَته ، فذاك ذَنْبٌ عِقابُـهُ فيه .

والإيضاع : الإسراع . وَضَعَ البعيرُ أى أسرَعَ ، وأَوْضَعَه صاحبُه ، قال :

رَأَى بَرْقاً فَأَوْضَعَ فوقَ بَـكْرٍ فلا يَكُ ما أَسالَ ولا أَعاما

ومُهْطِعون : مُسرعون[1] أيضا ، والأَثَرَة : الاستئثار ، يقول : قد عَرَفوا أنّى لا أقيم إلّا بالسّويّة ، وأنّى لا أنفّل قوما على قومٍ ، ولا أُعطِى على الأحْساب والأنْساب كما فعل غيرى ، فتَرَكونى وهَرَبوا إلى مَنْ يَستأثِر ويُؤْثِر .

قال : « فبُعْدا لهم وسُحْقا » ، دعا عليهم بالبُعْد والهلاك .

ورُوِى أنّهم لم « يَنفروا » بالنّون ، من نَفَرَ ؛ ثم ذكر أنّه راجٍ من الله أن يذلّلَ له صَعْبَ هذا الأمر ، ويُسهِّل له حَزْنه ؛ والحَزْن ، ما غَلُظ من الأرض ، وضِدّه السَّهْل .

(١) ل ا : « مهطعين : مسرعين » .

(٧١)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدىّ وقد كان استعمله على بعض النواحى ، فخان الأمانة فى بعض ما ولاه من أعماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِـعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدَعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا ، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَادًا ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ ؛ وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشِسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ . وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يُنَفَّذَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جِبَايَةٍ ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ .

* * *

قال الرضى رضى الله عنه :

الْمُنْذِرُ [بن الجارود][1] هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّهُ لَنَظَّارٌ فِي عِطْفَيْهِ ، مُخْتَالٌ فِي بُرْدَيْهِ ، تَفَّالٌ فِي شِرَاكَيْهِ .

* * *

(١) من ا

الشَّرح :

[ذكر المنذر وأبيه الجارود]

هو المُنذِر بنُ الجارود . واسم الجارود بِشْرُ بنُ خُنَيس بن المعلّى ؛ وهو الحارثُ بنُ زَيد بن حارثة بن معاوية بنِ ثعلبة بن جَذِيمة بنِ عَوْف بن أنمار بن عَمْرو بن وديعة بن لُكَيْز ابن أفصى بن عبد القَيْس بن أفصى بن دُعْمِيّ بن جَدِيلة بن أَسَد بن رَبيعة بن نزار بن معَدّ ابن عَدْنان ، بيتُهم بيتُ الشّرف فى عَبْد القيس ، وإنّما سُمّى الجارودُ لبَيْتٍ قاله بعضُ الشُعراء فيه فى آخره :

* كما جردَ الجارودُ بكر بنَ وائل * (١)

ووفد الجارودُ على النبيّ صلى الله عليه وآله فى سنة تسع ، وقيل : فى سنة عشرٍ .

وذكر أبو عمرَ بنُ عبدِ البرّ فى كتاب «الاستيعاب»(٢) أنه كان نصرانيّا فأسلم وحَسُن إسلامُه ، وكان قد وَفَد مع المُنذِر بنِ ساوَى فى جماعةٍ من عبدِ القَيْس ، وقال :

شهدتُ بأنّ اللهَ حقٌّ وسامَحَتْ بَنَاتُ فؤادى بالشّهادة والنَّهْض

فأبلِغْ رسولَ الله منّى رسالةً بأنّى حَنِيفٌ حيثُ كنتُ من الأرْضِ

قال : وقد اُختُلِف فى نسبه اُختلافا كثيرا ، فقيل : بِشْر بن المعلّى بن خُنَيس ؛ وقيل : بِشْر بن خُنَيس بن المعلّى ، وقيل : بِشْر بن عَمْرو بن العَلاء ، وقيل : بِشْر بنُ عمرو بن المعلّى ، وكنيته أبو عتّاب ، ويكنى أيضاً أبا المُنذِر .

وسَكَن الجارودُ البَصْرة ، وقُتِل بأرض فارسَ ؛ وقيل : بل قُتِل بنهاوَنْد مع النّعمان ابن مُقرّن . وقيل : إنّ عثمان بنَ العاص بعثَ الجاورد فى بَعْثٍ نحو ساحل فارس ، فقتِل

---

(١) صدره :

* وَدُسْنَاهُمُ بالخَيْلِ مِنْ كُلِّ جانبٍ *

(١) الاستيعاب (نهضة مصر) ٢٦٢ — ٢٦٤ .

بموضع يُعرف بعقبة الجارود ، وكان قبلَ ذلك يُعرف بعقبة الطين ؛ فلمّا قتل الجارودُ فيه عرّفه الناسُ بعقبة الجارود ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين .

وقد روى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أحاديث ورُوِىَ عنه ، وأمّه دريكة بنت رُوَيم الشّيبانية .

وقال أبو عُبَيدة معمر بنُ المثنّى فى كتاب "التّاج" : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله أكرم الجارود وعبدَ القيس حين وَفَدا إليه، وقال للأنصار : « قوموا إلى إخوانكم ، وأشبه الناس بكم » ؛ قال : لأنهم أصحاب نَخْل ، كما أنّ الأوْس والخزْرج أصحابُ نخل ، ومسكنهم البَحْرين واليمامة . قال أبو عبيدة : وقال عمرُ بنُ الخطّاب : لولا أنّى سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول : إنّ هذا الأمر لا يكون إلّا فى قريش لما عدلتُ بالخلافة عن الجارود ابن بشر بن المعلّى ، ولا تُخالجنى فى ذلك الأمور .

قال أبو عبيدة : ولعبد القيس ستّ خصال فاقت بها على العرَب ؛ منها : أسوَدُ العرَب بَيْتاً ، وأشرَفُهم رَهْطا الجارود هو ووَلَدُهُ .

ومنها أشجَع العرَب حكيمُ بنُ جَبَلة ، قُطِعتْ رجله يومَ الجمل ، فأخَذَها بيَدِه وزَحَف على قاتله فضرَبَه بها حتى قتَله ، وهو يقول :

يا نفسُ لا تُراعى   إن قُطعتْ كُراعى

* إنّ معى ذِراعى *

فلا يُعرَف فى العرب أحدٌ صنَع صَنيعه .

ومنها أعبَدُ العرَب هَرِم بن حَيّان صاحب أوَيْس القرَنىّ .

ومنها أجود العرَب عبدُ الله بن سواد بن همّام ، غزا السِّنْد فى أربعة آلاف ، ففتحها وأطْعم الجيش كلّه ذاهبا وقافلا ، فبلغه أنّ رجلا من الجيش مَرِض، فاشتهى خَبيصا ،

فأمر باتّخاذ الخبيص لأربعة آلاف إنسان ، فأطعمهم حتّى فضل ، وتقدّم إليهم ألّا يُوقد أحدٌ منهم ناراً لطعام في عَسكره مع ناره .

ومنها أخطب العرب مَصقلة بن رقبة ، به يُضرَب المَثَل فيقال : أخطبُ من مَصْقلة .

ومنها أهْدَى العرب في الجاهليّة وأبعدُهُم مغاراً وأثَراً في الأرض في عَدْوه ، وهو دُعَيْمِيص[1] الرّمل كان يُعرَف بالنجوم هدايةً ، وكان أهدى من القَطا ، يدفن بيضَ النّعام في الرّمل مملوءاً ماءً ثم يعود إليه فيستخرجه .

فأمّا المُنذر بن الجارُود فكان شريفاً ، وابنُه الحكم بن المُنذر يتلوه في الشّرف ، والمنذر غيرُ معدود في الصّحابة ، ولا رأى رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، ولا وُلِد له في أيّامه ، وكان تائهاً معجَباً بنفسه ، وفي الحكم ابنِه يقول الراجز :

يا حَكَمَ بنَ المنذرِ بنِ الجارُودْ   أنتَ الجوادُ ابنُ الجوادِ المحمودْ

* سُرادقُ المجدِ عليك ممدودْ *

وكان يقال : أطوعُ الناسِ في قومه الجارُودُ بن بِشْر بن المعلّى ، لمّا قُبِض رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فارتدّت العرب ، خطَب قومَه فقال : أيّها الناس ، إن كان محمّد قد مات فإنّ الله حيٌّ لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، ومن ذهب له في هذه الفتنة دينارٌ أو درهم أو بقرةٌ أو شاة فعليّ مثلاه ، فما خالَفَه من عبد القيس أحد .

***

قوله عليه السلام : « إنّ صلاح أبيك غرّني منك » ، قد ذكرنا حال الجارود وصحبته وصلاحه ، وكثيرا ما يغترّ الإنسان بحال الآباء فيظنّ أن الأبناء على مناهجهم ، فلا يكون والأمرُ كذلك ﴿ يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّت ويُخْرِجُ الميِّت من الحيّ ﴾ .

قوله : « فيما رُقِّيَ » بالتشديد ، أي فيما رفع إليّ ؛ وأصله أن يكون الإنسان في موضع عالٍ

---

(١) ب : دعميص » ، وانظر القاموس .

فيرق إليهشيء ، وكأنّ العلوّ ها هنا هو علوّ المرتبة بين الإمام والأمير، ونحوه قولهم: تعال باعتبار علوّ رُتبةالآمر على المأمور. واللّام فى «لهواك» متعلّقة بمحذوف دلّ عليه «انقيادا»، ولا يتعلّق بنفس « انقياد » لأنّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر .

والعتاد : العُدّة .

قوله : « وتصل عشيرتك »، كان فيما رُقِّىَ إليه عنه أنه يقتطع المال ويُفيضه على رَهْطه وقومِه ويُخرِج بعضه فى لذّاته ومآربه .

قوله « لَجمل أهلِكَ »، العرَب تَضرِب بالجَمَل المَثَل فى الهوان قال:

لقد عَظُم البعيرُ بغَير لُبٍّ ولَمْ يَستغن بالعِظَم البعيرُ[1]
يُصرِّفه الصبىّ بكلّ وجهٍ ويحبسه على الخَسْف الجريرُ
وتَضرِبه الوليدةُ بالهراوَى فلا غـيَرٌ لديهِ ولا نـكيرُ

فأمّا شِسْع النَّعْـل فضَرْب المثل بها فى الاستهانة مشهور ، لابتذالها ووطئها الأقدام فى التراب .

ثم ذكر أنّه من كان بصفته فليس بأهلٍ لـكذا ولا كذا ، إلى أن قال :«أو يشرك فى أمانة »؟ وقد جَعَل الله تعالى البلاد والرعايا أمانةً فى ذمّة الإمام، فإذا استعمل العمّال على البلاد والرعايا فقد شرَكهم فى تلك الأمانة .

قال : « أو يؤ من على جباية » ، أى على اُستِجْباء الخراج وجمعه ، وهذه الرّواية الّتى سمعناها ، ومن الناس من يَرْويها « على خيانة » وهكذا رواها الراوندىّ ، ولم يرو الرواية الصّحيحة التى ذكرناها نحن ؛ وقال يكون « على » متعلّقة بمحـذوف ، أو « بيؤمن » نفسها ، وهو بعيدٌ ومتـكلّف .

(١) للعباس بن مرداس السلمى ، ديوان الحماسة ٤١٩ — بشرح المرزوقى .

ثم أمَره أن يُقبل إليه ، وهذه كناية عن العَزْل .

فأمّا الكلمات الّتى ذكرها الرضىّ عنــه عليه السلام فى أمر المُنذِر فهى دالّة على أنّه نَسَبَه إلى التِّيه والعُجْب، فقال: «نظّار فى عِطْفيه»، أى جانبيه ، ينظر تارةً هكذا وتارة هكذا ، ينظُر لنفسه ، ويَستحسِن هَيْئَته ولِبْسته ، وينظر هل عنده نَقْص فى ذلك أو عَيْب فيستدركُه بإزالته ، كما يفعل أربابُ الزّهْو ومن يدّعى لنفسه الحسن والملاحة .

قال : « مُختالٌ فى بُرْدَيْه : يمشى الُخيلاء عُجْبا » قال محمّد بنُ واسع لابن له وقد رآه يختال فى بردٍ له : أُدنُ ، فدنا فقــال : من أين جاءَتْك هذه الُخيَلاء وَيلْك ! أمّا أُمّك فأَمَة ابتَعتُها بمائتى درهم ، وأمّا أبوك فلا أكثَرَ الله فى النّاس أمثاله .

قوله : «تفّال فى شِراكيه» ، الشِّراك : السَّيْر الّذى يكون فى النّعل على ظَهْر القدم .

والتّفْل بالسكون : مصدر تَفَل أى بَصَق ، والتَّفَل محركا البُصاقُ نفسه ، وإنّما يفعله المعُجِب والتّائه فى شِراكَيْه ليذهب عنهما الغُبــار والوسخ ، يَتْفُل فيهما ويمسَحهما ليعودا كالجديدين .

(٧٢)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رضى الله عنه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَابِقٍ أَجَلَكَ ، وَلَا مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم شرحُ مثل هذا الكلام ، وهذا معنًى مطروق ، قد قال الناس فيه فأكثروا ،
قال الشاعر :

قد يُرزَقُ العاجزُ الضعيفُ وما ... شَدَّ بكُورٍ رَحْلا ولا قَتَبا[1]

ويُحرَمُ المرءُ ذو الجلادة والرّأى ومن لا يزال مُغْـتَرِبا

ومن جيّد ما قيل فى هذا المعنى قول أبى يعقوب الخُرَيمى[2] :

هل الدهرُ إلّا صَرفُه ونوائبُـهْ ... وسَرّاء عيشٍ زائل ومصائبُـهْ

يقولُ الفَتَى ثَمَّرْتُ مالى وإنّما ... لوارِثِه ما ثمّر المـالَ كاسِبُهْ

---

(١) من أبيات نسبها صاحب الأغانى (١٥ : ٢١ — ساسى) إلى ابن عبدل الأسدى برواية مخالفة .

(٢) ب : « الخرمى » تحريف .

يُحَاسِبُ فيه نفسَه في حياتِهِ ... ويتركه نَهْباً لمن لا يحاسِبهْ
فكُلْه وأطعِمْهُ وخالِسْهُ وارثا ... شَحِيحاً ودهراً تعتريك نوائبُهْ
أرى المال والإنسان للدّهر نُهبةً ... فلا البخلُ مبقيه ولا الجود خاربُهْ
لكلِّ امرئٍ رزق وللرزق جالب ... وليسَ يفوتُ المرءَ ما خطَّ كاتبُهْ
يخيبُ الفتى من حَيثُ يُرْزَقُ غيره ... ويُعْطى الفتى مِنْ حَيثُ يُحرَمُ صاحِبُهْ
يُساق إلى ذا رِزقُه وهو وَادِعٌ ... ويُحرَمُ هذا الرزقَ وهو يغالِبُهْ
وإنّك لا تدري: أرزقُك في الذي ... تطالِبُه أم في الذي لا تطالبُهْ!
تناسَ ذنوب الأقربينَ فإنه ... لكل حميم راكبٌ هو راكبُهْ
له هفوات في الرّخاء يشوبُها ... بنصرة يومٍ لا توارَى كَوَاكِبُهْ
تراه غُدُوًّا ما أمِنْتَ وتتّقى ... بجبهته يوم الوَغَى مَنْ يحاربُهْ
لكلّ امرئٍ إخوان بؤس ونعمة ... وأعظمهمْ في النائبات أقاربُهْ

(٧٣)

الأصـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى كِتَابِكَ ، لَمُوَهِّنٌ رَأْيِي ، وَمُخَطِّئٌ فِرَاسَتِي ، وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ ، وَتُرَاجِعُنِي السُّطُورَ ، كَالْمُسْتَثْقِلِ النَّائِمِ تُكَذِّبُهُ أَحْلَامُهُ ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ ؛ لَا يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ ، وَلَسْتَ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ .

وَأُقْسِمُ بِاللهِ أَنَّهُ لَوْلَا بَعْضُ الِاسْتِبْقَاءِ ، لَوَصَلَتْ مِنِّي إِلَيْكَ قَوَارِعُ تَقْرَعُ الْعَظْمَ ، وَتَنْهَسُ اللَّحْمَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

روى « نوازع » جمع نازعة ، أى جاذبة قالعة ، وروى « تهلس اللحم » و « تلهس » بتقديم اللام ، وتهلس بكسر اللام : تذيبه حتى يصير كبدن به الهُلاس ، وهو السلّ ؛ وأمّا تلهس فهو بمعنى تلحس ، أبدلت الحاء هاء ؛ وهو عن لحست كذا بلسانى بالكسر ، ألحسه ، أى تأتى على اللحم حتى تلحسه لحسا ، لأن الشيء إنما يلحس إذا ذهب وبقى أثره ، وأما « يَنْهَس » وهى الرواية المشهورة ، فمعناه يعترق .

وتأذَن بفتح الذال، أى تسمع .

قوله عليه السلام « إنى لموهِّن رأيى » بالتشديد؛ أي إنى لائم نفسى ، ومستضعف رأيى فى أن جعلتك نظيرا ، أكتُب وتجيبنى ، وتكتب وأجيبك ؛ وإنما كان ينبغى أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانِك .

***

فإن قلت : فما معنى قوله : « على التردد ؟ » .

قلت : ليس معناه التوقّف ، بل معناه الترداد والتكرار ؛ أى أنا لائم نفسى على أنى أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عمّا تكتبه .

***

ثم قال : وإنك فى مناظرتى ومقاومتى بالأمور التى تحاولها ، والكتب التى تكتبها كالنائم يرى أحلاما كاذبة ، أو كمن قام مقاما بين يدى سلطان ، أو بين قوم عقلاء ليعتذر عن أمر ، أو ليخطب بأمر فى نفسه ، قد بهظه مقامه ذلك ؛ أى أثقله فهو لا يدرى : هل ينطق بكلام هو له ، أم عليه ! فيتحيّر ويتبلّد ، ويدركه العِيُّ والحَصَر .

قال : وإن كنتَ لستَ بذلك الرّجل فإنك شبيه به ؛ أمّا تشبيهه بالنائم ثم ذى الأحلام، فإن معاوية لو رأى فى المنام فى حياة رسولِ الله صلى الله عليه وآله أنه خليفةٌ يخاطب بإمرة المؤمنين ، ويحارب عليا على الخلافة ، ويقوم فى المسلمين مقامَ رسول الله صلّى الله عليه وآله لما طلب لذلك المنام تأويلا ولا تعبيرا ، ولعدّه من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام ؛ وكيف وأنّى له أن يخطر هذا بباله ، وهو أبعد الخلق منه ! وهذا كما يخطر للنفّاط [(١)] أن يكون ملكاً ، ولا تنظرنّ إلى نسبه فى المناقب [(٢)] ، بل انظر إلى أن

(١) النفاط : مستخرج النفط ؛ وهو الزيت .

(٢) حاشية ب : « قوله ولا تنظرن فى المناقب » ؛ قال فى القاموس: « النقاب ، بالكسر : الرجل العلامة والبطن ، ومنه : « فرخان فى نقاب » يضر للمتشابهين ؛ فعلى هذا يريد بالناقبة المشابهة بالنسب .

الإمامة هى نبّوة مختصرة ، وأن الطليق المعدود من المؤلفة قلوبهم المكذّب بقلبه وإن أقرّ بلسانه ، الناقص المنزلة عند المسلمين ، القاعد فى أخريات الصفّ ؛ إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين ، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه ويملكها ويسمه الناس وسمها ، ويكون للمؤمنين أميرا ، ويصير هو الحاكم فى رقاب أولئك العظماء من أهل الدّين والفضْل ! وهذا أعجب من العَجب ، أن يجاهد النبيّ صلّى الله عليه وآله قوماً بسيفه ولسانه ثلاثا وعشرين سنة ، ويلعنهم ويبعدهم عنه ، وينزل القرآن بذمهم ولعنهم ، والبراءة منهم ، فلما تمهدّت له الدولة ، وغلب الدّين على الدّنيا ، وصارت شريعة دينية محكمة ، مات فشيّد دينه الصالحون من أصحابه ، وأوسعوا رقعة ملّته ، وعظم قدرُها فى النفوس ، فتسلمها منهم أولئك الأعداء الذين جاهدهم النبيّ صلّى الله عليه وآله فملكوها وحكموا فيها ، وقتلوا الصُّلحاء والأبرار وأقارب نبيّهم الذين يظهرون طاعته ، وآلت تلك الحركة الأولى وذلك الاجتهاد السابق إلى أن كان ثمرته لهم ؛ فليته كان يبعث فيرى معاوية الطّليق وابنه ، ومرْوان وابنه خلفاء فى مقامه ، يحكمون على المسلمين ، فوضح أنّ معاوية فيما راجعه ويكاتبه به ؛ كصاحب الأحلام .

وأما تشبيهه إياه بالقائم مقاما قد بهظه؛ فلأن الحجج والشّبه والمعاذير التى يذكرها معاوية فى كتبه أوهن من نسج العنكبوت ، فهو حالما يكتب كالقائم ذلك المقام يخبط خبط العشواء ، ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من النّاس أنه سفَه وباطل .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « لولا بعض الاستبقاء » ؟ وهل كانت الحال تقتضى أن يستبقى ! وما تلك القوارع التى أشار إليها ؟

= يعنى أن معاوية وإن كان فى النسب له بعض المشابهة بنسبه عليه السلام من حيث القرشية والقرابة ولكنه . إذا نظرت إلى أن الإمامة هى نبوة مختصرة لا يصلح لها إلا من اجتمعت فيه فضائل من النبوة ومناقب تضارعها وسوابق تتلوها ، وأما الطلقاء وأبناء الطلقاء فليس لهم أن يتعرضوا لأن يكونوا من أدنى موالى أربابها » .

قلت : قد قيل : إنّ النبي صلى الله عليه وآله فَوّض إليه أمرَ نسائه بعد موته ، وجعل إليه أن يقطع عصمة أيّتهن شاء إذا رأى ذلك ، وله من الصحابة جماعةٌ يشهدون له بذلك ، فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أمّ حبيبة ، ويبيح نكاحها الرّجال عقوبة لها ولمعاوية أخيها ، فإنها كانت تُبغض عليا كما يُبغضه أخوها ، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه ، وهذا قول الإماميّة ، وقد رووا عن رجالهم أنه عليه السلام تهدّد عائشة بضربٍ من ذلك ، وأما نحن فلا نصدّق هذا الخبر ، ونفسّر كلامه على معنى آخر ، وهو أنه قد كان معه من الصّحابة قوم كثيرون سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله يلعن معاوية بعد إسلامه ، ويقول : إنّه منافق كافر ، وإنّه من أهل النار ، والأخبار فى ذلك مشهورة ؛ فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك ، ويسمعهم قولهم ملافظةً ومشافهة لفعل ، ولكنه رأى العدول عن ذلك ، مصلحةً لأمر يعلمه هو عليه السلام ، ولو فعل ذلك لانتهسَ لحمه ، وإنما أبقى عليه .

وقلت لأبى زيد البصرىّ : لِمَ أبقَى عليه ؟ فقال : والله ما أبقَى عليه مراعاة له ، ولا رفقاً به ، ولكنه خاف أن يفعل كفعله ، فيقول لعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسْر بن أبى أرطاة وأبى الأعور وأمثالهم : ارووا أنتم عن النبى صلى الله عليه وآله أنّ عليًّا عليه السلام منافق من أهل النار ، ثم يُحمل ذلك إلى أهل العراق ؛ فلهذا السبب أبقَى عليه .

(٧٤)

الأَصْـلُ :

ومن حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن - ونقل من خط هشام ابن الكلبيّ :

هَـذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلًا ، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَتَرَكَهُ ، وَأَنَّهُمْ أَنْصَارٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ ، وَلَا لِغَضَبِ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْماً ، وَلَا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً، عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَسَفِيهُهُمْ وَعَالِمُهُمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ ، إِنَّ عَهْدَ اللهِ كَانَ مَسْئُولًا .

وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

***

الشَّـرْحُ :

الحِلْف : العهد ، أى ومن كتاب حِلْف ؛ فحذف المضاف . واليمن : كلّ مَن ولده قحطان ؛ نحو حِمْيَر ، وعكّ ، وجُذام ، وكِنْدة ، والأزد ، وغيرهم .

وربيعة ، هو ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان ؛ وهم بكْر وتغلِب ، وعبد القيس .

وهشام ، هو هشام بن محمّد بن السائب الكلبيّ ، نسّابة ابن نسّابة ؛ عالم بأيّام العرب وأخبارها ، وأبوه أعلم منه ، وهو يروى عن أبيه .

والحاضر : ساكنو الحضَر : والبادى : ساكنو البادية ؛ واللفظ لفظ المفرد والمعنى الجمع .

قوله : « إنهم على كتاب الله » حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف ، أى مجتمعون .

قوله : « لا يشترونَ بهِ ثمناً قليلاً » ، أى لا يتعوّضون عنه بالثمن ، فسمّى التعوّض اشتراء ؛ والأصل هوأن يشترى الشيء بالثمن لاالثمن بالشيء ، لكنه من باب اتّساع العرب ، وهو من ألفاظ القرآن العزيز (١) .

وأنّهم يدٌ واحدة ، أى لا خلف بينهم .

قوله : « لمعتبة عاتب » ، أى لا يؤثّر فى هذا العهد والحلف ، ولا ينقضه أن يعتب أحد منهم على بعضهم ؛ لأنه استجداه فلم يُجدِه ، أو طلب منه أمرا فلم يقم به ، ولا لأنّ أحداً منهم غضب من أمرٍ صدر من صاحبه ، ولا لأنّ عزيزاً منهم استذلّ ذليلا منهم ، ولا لأن إنساناً منهم سبّ أو هجا بعضهم ، فإنّ أمثال هذه الأمور يتعذّر ارتفاعها بين الناس ؛ ولو كانت تنقض الحِلْف لما كان حلف أصلا .

واعلم أنه قد ورد فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ حِلْف كان فى الجاهليّة فلا يزيده الإسلام إلّا شدة » ؛ ولا حلْف فى الإسلام ، لكن فِعْل أمير المؤمنين عليه السلام أولى بالاتّباع من خبر الواحد ؛ وقد تحالفت العرب فى الإسلام مرارا ، ومن أراد الوقوف على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ .

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

(٧٥)

الأصْـلُ :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة فى أول ما بويع له بالخلافة ـ ذكره الواقدىّ فى كتاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِى سُفْيَانَ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِى فِيكُمْ ، وَإِعْرَاضِى عَنْكُمْ ، حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا دَفْعَ لَهُ ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ ، فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ ، وَأَقْبِلْ إِلَىَّ فِى وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ . وَالسَّلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبنى أميّة جميعا . قال : « وقد علمت إعذارى فيكم » ، أى كونى ذا عذرٍ لو لُمْتُكُمْ أو ذممتكم ـ يعنى فى أيّام عثمان .

ثم قال : « وإعراضى عنكم » أى مع كونى ذا عذر لو فعلت ذلك فلم أفعله ، بل أعرضت عن إساءتكم إلىّ وضربت عنكم صفحا . حتى كان ما لا بدّ منه ـ يعنى قتل عثمان وما جرى من الرَّجَبَة بالمدينة .

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له : والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أدبر ذلك الزمان ، وأقبل زمان آخر ، فبايع وأَقدِم ؛ فلم يبايع ولا قدم ، وكيف يبايع

وعينه طامحة إلى الملك والرّياسة منذ أمّره عمر على الشام ؛ وكان عالىَ الهمّة ، توّاقاً إلى معالى الأمور ، وكيف يطيع عليًّا والمحرّضون له على حَرْبه عدد الحصا ! ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة لكفى ، وكيف يسمع قوله :

فوالله ما هندٌ بأمّك إن مضى النّهارُ ولم يثأر بعثمان ثائرُ
أيَقتل عبدُ القوم سيّدَ أهله ولم تقتْلوه ، ليت أمّك عاقرُ
ومن عجبٍ أنْ بتّ بالشام وادعاً قريرا وقد دارت عليه الدوائرُ !

ويطيع عليًّا ، ويبايع له ، ويُقدم عليه ، ويسلّم نفسه إليه ، وهو نازل بالشام فى وسط قَحْطان ودونه منهم حَرَّة لا ترام ؛ وهم أطوع له من نعله ، والأمر قد أمكنه الشروع فيه ؛ وتالله لو سمع هذا التحريضُ أجبنُ الناس وأضعفهُم نفسا وأنقصهُم همّة لحرّكه وشحَذَ من عزمه ؛ فكيف معاوية ، وقد أيقظ الوليدُ بشِعره من لا ينام !

(٧٦)

الأصْلُ :

ومن وصية له عليه السلام لعبدالله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة :

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ ، وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ .

***

الشَّرْحُ :

روى : « وحلمك » . والقرب من الله ، هو القرب من ثوابه ؛ ولا شبهة أن ما قرّب من الثواب باعدَ من العقاب ، وبالعكس لتنافيهما .

فأما وصيّته له أن يَسَع الناس بوجهه ومجلسه وحكمه ، فقد تقدّم شرح مثله ، وكذلك القول فى الغضب :

وطَيْرة من الشيطان : بفتح الطاء وسكون الياء ، أى خفّة وطيش قال الكميت :

وحِلْمُك عِزٌّ إذا ما حَلُمْتَ   وَطَيرتُك الصَّابُ والحنظلُ[1]

---

(١) الصحاح ٤ : ٧٢٨ .

(٧٧)

الأصل

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس أيضا لما بعثه للاحتجاج على الخوارج :

لا تُخاصِمْهُمْ بالْقُرْآنَ فإنّ الْقُرْآنَ حَمّالٌ ذُو وُجُوهٍ ، تَقُولُ وَيقُولونَ ... ولَـكِنْ حاجِجْهُمْ بالسُّنَّةِ ، فَإنّهم لَنْ يَجِدُوا عَنها مَحِيصاً .

***

الشرح

هـذا الـكلام لا نظير له فى شرفه وعلوّ معناه ، وذلك أنّ القرآن كثير الاشتباه ، فيه مواضع يُظنّ فى الظاهر أنها متناقضة متنافية ، نحو قوله : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ﴾(١) وقوله : ﴿إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢) ، ونحو قوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فأغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾(٣) وقـوله : ﴿فَأَمّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾(٤) ، ونحو ذلك ، وهـو كثير جدًّا ؛ وأما السنة فليست كذلك ، وذلك لأنّ الصحابة كانت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وتستوضح منـه الأحـكام فى الوقائع ، وما عساه يشتبه عليهم من كلامهم ؛ يراجعونه فيه ؛ ولم يـكونوا يراجعونه فى القرآن إلا فيما قلّ ؛ بل كانوا يأخذونه منه تلقّفاً ، وأكثرهم لا يفهم معنـاه ،

---

(١) سورة الأنعام ١٠٣ . (٢) سورة القيامة ٢٣ .
(٣) سورة يس ٩ . (٤) سورة فصلت ١٧ .

لا لأنه غير مفهوم ؛ بل لأنهم ما كانوا يتعاطوْن فهمه ؛ إما إجلالا له أو لرسول الله أن يسألوه عنه ، أو يجرونه مجرى الأسماء الشريفة التى إنما يراد منها بركتُها لا الإحاطة بمعناها؛ فلذلك كثر الاختلاف فى القرآن . وأيضا فإن ناسخه ومنسوخه أكثرُ من ناسخ السنّة ومنسوخها ؛ وقد كان فى الصحابة مَنْ يسأل الرّسول عن كلمة فى القرآن يفسرها له تفسيراً موجَزاً ، فلا يحصل له كلّ الفهم ، لما أنزلت آية الْكَلالَةَ[1]، وقال فى آخرها : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾[2] ، سأله عمر عن الكلالة ماهو ؟ فقال له : يكفيك آية الصيف ، لم يزد على ذلك ، فلم يراجعه عمر وانصرف عنه ، فلم يفهم مراده ، وبقى عمر على ذلك إلى أن مات ، وكان يقول بعد ذلك : اللهم مهما بَيّنْتَ ، فإنّ عمر لم يتبيّن، يشير إلى قوله: ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ وكانوا فى السنّة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة ، فلذلك أوصاه علىّ عليه السلام أن يحاجَّهم بالسنة لا بالقرآن .

فإن قلت : فهل حاجّهم بوصيّته ؟

قلت : لا ، بل حاجّهم بالقرآن ، مثل قوله : ﴿ فابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهلِهَا ﴾[3] ومثل قوله فى صيد المحرم : ﴿ يَحْكُمُ به ذوا عَدْلٍ مِنكم ﴾[4] ؛ ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب ، وإنما رجع باحتجاجه نفر منهم .

فإن قلت : فما هى السنّة التى أمره أن يحاجّهم بها ؟

قلت : كان لأمير المؤمنين عليه السلام فى ذلك غرض صحيح ، وإليه أشار ، وحوله كان يطوف ويحوم ، وذلك أنه أراد أن يقول لهم : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « علىّ مع الحقّ والحقّ مع علىّ يدور معه حيثما دار » ، وقوله : « اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، ونحو ذلك من الأخبار التى

(١) يريد قوله تعالى فى آخر آية من سورة النساء : « يسألونك عن الكلالة » الخ .
(٢) سورة النساء ١٢ . (٣) سورة النساء ٣٥ .
(٤) سورة المائدة ٩٥ .

كانت الصحابة قد سمعتها من فَلْقِ فيه صلوات الله عليه ، وقد بقى ممن سمعها جماعة تقوم الحجّة وتثبت بنقلهم ، ولو احتجّ بها على الخوارج فى أنه لا يحلّ مخالفته والعدول عنه بحالٍ لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين فى محاجّتهم ، وأغراض أخرى أرفع وأعلى منهم ؛ فلم يقع الأمر بموجب ما أراد ، وقُضى عليهم بالحرْب ؛ حتى أكلتهم عن آخرهم ، وكان أمر الله مفعولا .

(٧٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعريَّ عن كتاب كتبه إليه من المكان الذى اتعدوا فيه للحكومة ـ وذكر هذا الكتاب سعيد ابن يحيى الأموى فى كتاب المغازى :

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا ، وَنَطَقُوا بِالْهَوَى ؛ وَإِنِّى نَزَلْتُ مِنْ هَـذَا الْأَمْرِ مَنْزِلًا مُعْجِباً ؛ اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَأَنَا أُدَاوِى مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَعُودَ عَلَقاً يَعُودُ ، وَلَيْسَ رَجُلٌ ـ فَاعْلَمْ ـ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأُلْفَتِهَا مِنِّى ، أَبْتَغِى بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ ، وَكَرَمَ الْمَآبِ .

وَسَأَفِى بِالَّذِى وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِى ، وَإِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِى عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الشَّقِىَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِىَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ ، وَإِنِّى لَأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْرًا قَدْ أَصْلَحَهُ اللهُ ، فَدَعْ عَنْكَ مَا لَا تَعْرِفُ ، فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ السُّوءِ ، وَالسَّلَامُ .

***

الشرح :

روى : « ونطقوا مع الهوى » ، أى مائلين مع الهوى .

وروى : « وأنا أدارى » بالراء ، من المداراة ، وهى الملاينة والمساهلة .

وروى: « نفع ما أولى » باللام ؛ يقول : أوليته معروفا .

وروى: « إن قال قائل بباطل ويفسد أمرا [قد أصلَحَه الله [١]] » .

واعلم أنّ هذا الكتاب كتاب مَنْ شكّ فى أبى موسى واستوحش منه ؛ ومن قد نقل عنه إلى أبى موسى كلاماً إمّا صدقا وإمّا كذباً . [وقد نَقَل عن أبى موسى إليه كلاماً إمّا صدقا أيضاً وإمّا كذباً [٢]] ، قال عليه السلام : إنّ النـاس قد تغيّر كثير منهم عن حظّهم من الآخرة ، فمالوا مع الدنيا . وإنّى نزلت من هذا الأمر منزلا معجِبا ، بكسر الجيم، أى يعجب مَنْ رآه ، أى يجعله متعجّبا منه .

وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونُصّاره من أهل العراق ؛ فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديدا جدّا . والمنزل والنّزول هاهنا مجاز واستعارة ، والمعنى أنّى حصلت فى هذا الأمر الذى حصلت فيه على حال معجبة لمن تأمّلها ؛ لأنّى حصلت بين قوم كلّ واحـد منهم مستبدّ برأى يخالف فيه رأىَ صاحبه ؛ فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر ؛ وإن حكمت عليهم برأى أراه أنا خالفوه وعصوْه ، ومن لا يطاع فلا رأى له ، وأنا معهم كالطبيب الذى يداوى قَرْحاً ، أى جراحة قد قاربت الاندمال ولم تندمِلْ بعدُ ؛ فهو يخاف أن يعود عَلَقاً ، أى دماً .

ثم قال له : ليس أحد ــ فاعلم ــ أحرَصَ على ألفة الأمّة وضمّ نشر المسلمين .

وأدخل قوله : « فاعلم » بين اسم ليس وخبرها فصاحة ، ويجوز رفع «أحرص» بجعله صفةً لاسم « ليس » ؛ ويكون الخبر محذوفا ــ أى ليس فى الوجود رجل .

وتقول : قد وأيتُ وأياً ، أى وعدت وعداً ، قال له: أمّا أنا فسوف أفى بما وعدت وما استقرّ بينى وبينك؛ وإن كنت أنت قد تغيّرت عن صالح ما فارقتنى عليه .

---

(١) من د . (٢) من د .

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون قوله : « وإن تغيّرت » من جملة قوله فيما بعد « فإنّ الشقىّ » كما تقول : إن خالفتنى فإنّ الشقىّ من يخالف الحق .

قلت : نعم ؛ والأوّل أحسن ؛ لأنه أدخلُ فى مدْح أمير المؤمنين عليه السلام كأنه يقول : « أنا أفى وإن كنتَ لا تفى ، والإيجاب يحسّنه السلْب الواقع فى مقابلته :

* والضّدّ يظهر حسنَه الضّدُّ *

ثمّ قال : « وإنى لأعْبَد » أى آنَف ، من عبِد بالكسر أى أنِف ، وفسّروا قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[1] بذلك ، يقول : إنّى لآنف من أن يقول غيرى قولا باطلا ، فكيف لا آنف أنا من ذلك لنفسى ! ثم تختلف الرّوايات فى اللفظة بعدها كما ذكرنا .

ثم قال : « فدَعْ عنك ما لا تعرف » أى لا تبْن أمرك إلّا على اليقين والعلم القطعىّ ، ولا تُصْغِ إلى أقوال الوشاة ونَقَلَة الحديث ؛ فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيرا ، فلا تصدِّق ما عساه يبلِّغك عنّى شرار الناس ؛ فإنّهم سِراع إلى أقاويل السوء ؛ ولقد أحسن القائل فيهم:

إنْ يَسْمَعُوا الخيْرَ يُخفُوه وإنْ سَمِعُوا شرًّا أذاعوا وإن لم يسمعوا كَذَبُوا

ونحو قول الآخر :

إنْ يَسْمَعُوا ريبةً طَارُوا بها فَرَحاً وإن ذُكِرْتُ بخيرٍ عندهمْ دَفَنُوا[2]

---

(١) سورة الزخرف ٨١ .
(٢) لقعنب بن أم صاحب ، مختارات ابن الشجرى ١ : ٧

(٧٩)

الأصلُ :

ومن كتاب كتبه عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ .

* * *

الشرحُ :

أى منعوا الناس الحق فاشترى النـاس الحق منهم بالرّشا والأموال ، أى لم يضعوا الأمور مواضعَها ، ولا ولّوا الولايات مستحقّيها ، وكانت أمورهم الدينية والدنياوية تجرى على وَفْق الهوى والغرض الفاسد ، فاشترى الناس منهم الميراث والحقوق كما تُشترى السلع بالمـال .

ثم قال : « وأخذوهم بالباطل فاقتدوه » ، أى حملوهم على الباطل فجاء الخلَف من بعد السلف، فاقتدَوا بآبائهم وأسلافهم فى ارتـكاب ذلك الباطل ظنًّا أنّه حق لما قد ألفوه ونشئوا وربّوا عليه .

وروى « فاستروْه » بالسين المهملة أى اختاروه ، يقال استريتُ خيار المال ، أى اخترته ويكون الضمير عائدا إلى « الظلَمة » لا إلى « الناس » ، أى منعوا الناس حقّهم من المال واختاروه لأنفسهم واستأثروا به .



بابُ
الحِكَم وَالمواعِظ



باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه

ويدخل فى ذلك المختـار من أجوبة مسائله والـكلام القصير الخارج من سائر أغراضه

* * *

الشَّرْحُ :

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالرّوح من البدن ، والسواد من العين ؛ وهو الدرّة المكنونة التى سائر الـكتاب صدَفها ؛ وربما وقع فيه تـكرار لبعض ما تقدّم يسير جدًّا ؛ وسبب ذلك طول الـكتاب وبعد أطرافه عن الذهن ، وإذا كان الرضىّ رحمه الله قد سَها فـكرّر فى مواضع كثيرة فى ” نهج البلاغة “ على اختصاره كنّا نحن فى تـكرار يسير فى كتابنا الطويل أعذر .

(١)

الأصل :

كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ ؛ لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ ، وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ .

* * *

الشرح :

ابن اللّبون : ولد النّاقة الذّكر إذا استكمل السّنة الثانية ودخل فى الثالثة ؛ ولا يقال للأنثى : ابنة اللّبون ؛ وذلك لأنّ أمّهما فى الأغلب ترضع غيرهما ، فتكون ذات لبَن ، واللّبون من الإبل والشاة : ذات اللّبَن ، غزيرة كانت أو بكيئة[1] ، فإذا أرادوا الغزيرة قالوا : لَبِنَة ، ويقال : ابن لَبُون وابن اللّبون ، منكّرا أو معرّفا ، قال الشاعر :

وابن اللّبُونِ إذَا ما لُزَّ فى قرَنٍ لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ القناعِيسِ[2]

وابن اللّبون لا يكون قد كمل وقوىَ ظهره على أن يركب ، وليس بأنثى ذات ضرع فيُحلب وهو مطّرح لا يُنتفع به .

وأيّام الفتنة هى أيّام الخصومة والحرب بين رئيسيْن ضالّين يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير ، وفتنة مروان والضّحّاك ، وفتنة الحجّاج وابن الأشعث ونحو ذلك ، فأما إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجمل وصِفّين ونحوهما بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسلّ السّيف والنهى عن المنكر وبذل النفس فى إعزاز الدين وإظهار الحق .

---

(١) البكيئة : قليلة اللبن .   (٢) لجرير ، ديوانه ٣٢٣ . القرن : الحبل . والقناعيس : الشداد .

قال عليه السلام : آخمِل نفسك أيام الفتنة ، وكن ضعيفا مغموراً بين النّاس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء .

وقوله : « فيركَبَ » « فيُحلبَ » ، منصوبان لأنهما جواب النفى ، وفى الكلام محذوف تقديره : « له » ؛ وهو يستحق الرفع ، لأنه خبر المبتدأ ، مثل قولك : لا إله إلّا الله ، تقديره « لنا » ، أو « فى الوجود » .

(٢)

الأَصْلُ :

أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ اسْتَشْعَرَ الطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول فى الطمع : قوله عليه السلام « أزرى بنفسه » ، أى قصّر بها . مَن استشعر الطمع ، أى جعله شعاره أى لازمه .

وفى الحديث المرفوع : « إن الصّفا الزّلزال الذى لا تَثبت عليه أقدام العلماء الطمع » .

وفى الحديث أنه قال للأنصار : « إنّكم لتكثُرون عند الفزَع وتقلّون عند الطمع » أى عند طمع الرزق .

وكان يقال : أكثر مصارع الألباب تحت ظلال الطمع .

وقال بعضهم : العبيد ثلاثة : عبد رقّ ، وعبد شَهْوة ، وعبد طمع .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغِنَى ، فقال : « اليأس عمّا فى أيدى الناس ، ومَنْ مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً » .

وقال أبو الأسوَد :

البَسْ عدوّكَ فى رِفْقٍ وفى دَعَـةٍ   طوبَى لذى إربةٍ للدّهر لبّـاسِ
ولا تغرّنْك أحقَادٌ مزمّلةٌ   قد يُركَب الدَّبِر الدامى بأحلاسِ
واستغنِ عن كلّ ذى قُربى وذى رَحِمٍ   إن الغَنِىّ الذى استغنى عن الناسِ

قال عمر : ما الخمر صِرْفاً بأذهبَ لعقول الرّجال من الطمع .

وفى الحديث المرفوع : « الطمع الفقر الحاضر » .

قال الشاعر :

رأيت مخيلةً فطمِعْت فيهـا   وفى الطَّمَع المذلّةُ للرّقـابِ

الفصل الثانى فى الشكوى : قال عليه السلام : « من كشف للناس ضرّه » أى شكى إليهم بؤسه وفقره ، « فقد رضى بالذل » .

كان يقال : لا تشكوَنّ إلى أحدٍ ، فإنّه إن كان عدوًّا سرّه ، وإن كان صديقا ساءه وليست مسرّة العدوّ ولا مساءة الصديق بمحمودة .

سمع الأحنف رجلًا يقول : لم أنمِ الليلة من وجع ضِرْسى ؛ فجعل يكثر ، فقال : يا هذا لِمَ تكثر ؟ فوالله لقد ذهبتْ عينى منذ ثلاثين سنة فما شكوت ذلك إلى أحـد ، ولا أعلمت بها أحدا .

الفصل الثالث فى حفظ اللسان : قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ فى ذلك ، وكان يقال : حفظ اللسان راحة الإنسان ، وكان يقال : ربّ كلمة سفكت دماً ، وأورثت ندما .

وفى الأمثال العاميّة ، قال اللسان للرأس : كيف أنت ؟ قال : بخير لو تركتَنى .

وفى وصيه المهلّب لولده ، يا بَنِىّ تباذلوا تحابّوا ، فإن بنى الأعيان يختلفون فكيف ببنى العَلاّت ، إنّ البرّ ينسأ فى الأجل ، ويزيد فى العـدد ، وإنّ القطيعة تورِث القلّة ، وتعقب

النار بعد الذلّة . اتقوا زلة اللسان فإن الرجل تزلّ رجله فينتعِش ، ويزلّ لسانه فيهلك ، وعليكم فى الحرْب بالمكيدة ، فإنها أبلغ من النّجْدة ، وإن القتال إذا وقع وقع القضاء ، فإن ظفر الرجل ذو الكيد والحزم سعد ، وإن ظُفِر به لم يقولوا : فَرَّط .

وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه ‌ ‌ ‌ وليس يموتُ المرء من عثرة الرجل

(٣)

الأصْـلُ :

الْبُخْلُ عَارٌ ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِنَ عَنْ حَاجَتِهِ ، وَالْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول فى البخْل . وقد تقدّم لنا كلام مقنع فى ذلك .

ومن كلام بعض الحكماء فى ذلك : ما أقلّ مَنْ يحمده الطالب ، وتستقلّ به العشائر ، ويرضى عنه السائل ، وما زالت أمّ الكرم نَزُورا وأمّ اللؤم ذلولًا . وأكثر الواجدين مَنْ لا يجود ، وأكثر الأجواد من لا يَجِد .

وما أحسن قول القائل : كفى حزناً أنّ الجواد مقتّر عليه ، ولا معروف عند بخيل .

وكان يقال : البخل مهانة ، والجود مهابة .

ومن أحسن ما نقل من جُود عبد الله المأمون أنّ عمر بن مسعدة كاتبه مات فى سنة سبع عشرة ومائتين ، وخلّف تركة جليلة ، فبعث أخاه أبا إسحاق المعتصم وجماعة معه من الكتّاب ليحصروا مبلغها ، فجاء المعتصم إليه وهو فى مجلس الخلافة ، ومعه الكتّاب ، فقال: ما رأيتم ؟ فقال المعتصم معظّما لما رآه : وجدنا عَيْناً ، وصامتا ، وضياعا ، قيمة ذلك أجمع ثمانية آلاف ألف دينار ـ ومدّ صوته ـ فقال المأمون : إنّا لله ! والله ما كنت أرضاها

لتابع من أتباعه ليوقّر هذا على مخلّفيه ! فخجل المعتصم حتى ظهر خجلُه للحاضرين.

* * *

الفصل الثانى فى الجبن ، وقد تقدم قولنا فى فضل الشجاعة .

وقال هشام بن عبد الملك لمسلمة أخيه : يا أبا سعيد ، هل دخلك ذُعْر فى حرب قطّ شهدتَها ؟ قال : ما سلمت فى ذلك عن ذعر ينبّه على حيلة ، ولا غشيَنى ذعر سلَبنى رأيى ، فقال له هشام : هذه والله البَسالة ، قال أبو دُلَامة ، وكان جَبانا :

إنّى أعوذ برَوْح أن يقدّمَنِى ... إلى القتال فتشقى بى بنو أسدِ
إنّ المهلّب حُبَّ الموت أورثَكُمْ ... ولم أرث رغبةً فى الموتِ عن أحدِ

قال المنصور لأبى دُلامة فى حرب إبراهيم : تقدّم ويلك ! قال : يا أميرَ المؤمنين؛شهدت مع مَرْوان بن محمد أربعة عساكر كلّها انهزمت وكسِرت ؛ وإنى أعيذك بالله أن يكون عسكرك الخامس .

* * *

الفصل الثالث فى الفقر . وقد تقدّم القول فيه أيضا .

ومثل قوله : « الفقر يخرس الفَطِن عن حاجته » قول الشاعر :

سَأُعْمِلُ نَصَّ العيس حتى يكفّنى ... غِنَى المال يوماً أو غنَى الحَدَثَانِ
فللمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرَى لها ... على الحرّ بالإقلال وَسْمُ هَوانِ
متى يتكلّمْ يُلْغَ حُكْمُ كلامِه ... وإن لم يقُلْ قالوا عديم بيانِ
كأن الغِنَى عن أهله بورك الْغِنَى ... بغير لسان ناطقٌ بلسانِ

ومثل قوله عليه السلام : « والمقلّ غَريب فى بلدته » قول خَلف الأحمر :

لا تظنّنى أنّ الغريب هو النّا ... ئِى ولكنّما الغريب المقلُّ

وكان يقال : مالُك نورُك ، فإن أردت أن تنكسف ففرّقه وأتلفه .

قيل للإسكندر : لم حفظت الفلاسفة المالَ مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا ؟ قال : لئلّا تحوجهم الدّنيا إلى أن يقوموا مقاما لا يستحقونه .

وقال بعض الزهّاد : ابدأ برغيفيْك فاحرُزْهُمَا ثم تعبّد .

وقال الحسن عليه السلام : مَنْ زعم أنّه لا يحبّ المال فهو عندى كاذِب ، فإن علمت صدقه فهو عندى أحمق .

(٤)

الأصل :

الْعَجْزُ آفَةٌ ، وَالصَّبْرُ شَجَاعَةٌ ، وَالزُّهْدُ ثَرْوَةٌ ، وَالْوَرَعُ جُنَّةٌ ، وَنِعْمَ الْقَرِينُ الرِّضَا .

* * *

الشرح :

فهذه فصول خمسة :

الفصل الأول : قوله عليه السلام « العجز آفة » ، وهذا حقّ لأن الآفة هى النقص أو ما أوجب النقص ، والعجز كذلك .

وكان يقال : العجز المفرط ترك التأهّب للمعاد .

وقالوا : العجز عجزان ، أحدها عجز التقصير وقد أمكن الأمر ، والثانى الجدّ فى طلبه وقد فات .

وقالوا : العجز نائم ، والحزم يقظان .

* * *

الفصل الثانى فى الصبر والشجاعة : قد تقدّم قولنا فى الصبر .

وكان يقال : الصبر مرّ ، لا يتجرّعه إلّا حرّ .

وكان يقال : إنّ للأزمان المحمودة والمذمومة أعماراً وآجالا كأعمار الناس وآجالهم ؛ فاصبروا لزمانِ السوء حتى يفنى عمره ، ويأتى أجله .

وكان يقال : إذا تضيّفتك نازلةٌ فاقرِها الصبر عليها ، وأكرم مثواها لديك بالتوكّلِ

والاحتساب لترحل عنك ، وقد أبقتْ عليك أكثر مما سلَبَتْ منك ، ولا تنسَها عند رخائك ، فإنّ تذكُّرك لها أوقات الرّخاء يبعد السوء عن فعلك ، وينفى القساوة عن قلبك ويوزعك حَمْد الله وتقواه .

* * *

الفصل الثالث : قوله : « والزهد ثروة » ، وهذا حقّ ، لأن الثروة ما استغنى به الإنسان عن النّاس ، ولا غناء عنهم كالزُّهد فى دنياهم ؛ فالزّهد على الحقيقة هو الغِنَى الأكبر .

وروى أنّ عليا عليه السلام قال لعمر بن الخطاب أوّل ما ولى الخلافة : إنْ سرّكَ أن تلحق بصاحبيك فقصّر الأمل ؛ وكُلْ دون الشّبع ، وارقع القميص ، واخصف النّعْل ، واستغنِ عن الناس بفقرك تلحق بهما .

وقف ملك على سقراط وهو فى المشرفة قد أسند ظهره إلى جُبّ كان يأوى إليه ، فقال له : سل حاجتَك ، فقال : حاجتى أن تتنحّى عنى ، فقد منعنى ظلك المرفق بالشمس، فسأله عن الجبّ ، قال : آوى إليه ، قال : فإن انكسر الجبّ لم ينكسر المكان .

وكان يقال : الزّهد فى الدنيا هو الزهد فى المحمدة والرياسة ، لا فى المطعم والمشرب ، وعندالعارفين : الزهد تَرْك كل شىء يشغلك عن الله .

وكان يقال : العالم إذا لم يكن زاهدا لكان عقوبة لأهل زمانه ، لأنهم يقولون: لولا أنّ علمه لم يصوّب عنده الزهد لزَهِد ، فهم يقتدون بزهده فى الزهد .

* * *

الفصل الرابع : قوله : « والورعُ جُنّة » ؛ كان يقال : لاعصمة كعصمة الورع والعبادة ؛ أمّا الورع فيعصمك من المعاصى ، وأمّا العبادة فتعصمك من خصمك ؛ فإنّ عدوّك لو رآك قائما تصلّى وقد دخل ليقتلك لصدّ عنك وهابك .

وقال رجل من بنى هلال لبنيه : يا بَنِىّ أظهروا النُّسُكَ فإن الناس إن رأوْا مِنْ أحدٍ منكم بخلا ، قالوا : مقتصد لا يحبّ الإسراف ، وإن رأوْا عِيًّا ، قالوا : مُتَوَقٍّ يكره الكلام ، وإن رأوْا جُبْناً قالوا : متحرّج يكره الإقدام على الشبهات .

***

الفصل الخامس : قوله : « ونعم القرينُ الرضا » ، قد سبق منا قول مقنِـع فى الرضا .

وقال أبو عمرو بن العلاء : دفعت إلى أرض مجدبة بها نفرٌ من الأعراب ، فقلت لبعضهم : ما أرضكم هذه ؟ قال : كما ترى ، لا زرع ولا ضَرْع ، قلت : فكيف تعيشون ؟ قالوا : نحترش[1] الضِّباب ، ونصيد الدّواب ، قلت : فكيف صبركم على ذلك ؟ قالوا : يا هذا ، سلْ خالقَ الخلْق ؛ هل سويت ؟ فقال : بل رضيتُ .

وكان يقال : مَنْ سخِط القضاء طاحَ ، ومن رضى به استراح .

وكان يقال : عليك بالرّضا ، ولو قُلِّبْتَ على جَمْر الغَضا .

وفى الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى : « من لم يرض بقضائى فليتخذ رَبًّا سوائى » .

(١) فى اللسان : « حرش الضب يحرشه حرشاً ، واحترشه وتحرش وتحرش به : أتى قفا جحره فقعقع بعصاه عليه وأتلج طرفها فى جحره فإذا سمع الصوت حسبه دابة تريد أن تدخل عليه فجاء يزحل على رجليه وعجزه مقاتلا ويضرب بذنبه فناهزه الرجل فأخذ بذنبه فضبب عليه — أى شد القبض — فلم يقدر أن يفيصه — أى يفلت منه » .

(٥)

الأصْـلُ :

العِلْمُ وِرَاثةٌ كَرِيمَةٌ ، والآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ ، والفِـكْرُ مِرْآةٌ صافِيَةٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

إنما قال : « العلم وراثة » لأنّ كلّ عالم من البشر إنمـا يكتسب علمه من أستاذٍ يهذّبه وموقِّف يعلمه ؛ فكأنه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المـال عن أبيه ، وقد سبق منا كلام شافٍ فى العلم والأدب .

وكان يقال: عطيّة العالم شبيهة بمواهب الله عزّ وجلّ ، لأنها لاتنفد عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها .

وكان يقال : الفضائل العلميّة تشبه النخل ، بطىء الثمرة ، بعيد الفساد .

وكان يقال : ينبغى للعالم ألّا يترفّع على الجاهل ، وأن يتطامَنَ له بمقـدار ما رفعه الله عليه ، وينقله من الشكّ إلى اليقين ، ومن الحـيرة إلى التبيين ، لأن مكالحته قسوة والصبر عليه وإرشاده سياسة .

ومثاله قول بعض الحـكماء : الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمـنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة ، ويعذره بنقصه فيما فرَط منـه ولا يعذر نفسه فى التأخّر عن هدايته .

وكان يقال : العلم فى الأرض بمنزلة الشمس فى الفَلَك ، لولا الشمس لأظلم الجوّ ، ولولا العلم لأظلم أهلُ الأرض .

وكان يقال : لا حُلّة أجمل من حلة الأدب ، لأنّ حُلل الثياب تبلى ، وحلل الآدب تبقى ، وحُلل الثياب قد يغتصبها الغاصب ، ويسرِقها السارق ، وحُلل الآداب باقية مع جوهر النفس .

وكان يقال : الفكرة الصحيحة إصطرلابٌ روحانى .

وقال أوس بن حجر يرثى :

إنّ الذى جَمَع السَّماحة والنّـجْدَةَ والحزْم والنُّهَى جمعا[1]

الألمعىّ الذى يظن بك الظنّ كأن قد رأى وقد سمعا

ومن كلام الحكماء : النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن يخمدُها ألّا تجد حطباً ، وكذلك العلم لا يُفْنِيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه .

قيل لبعضهم : أىّ العلوم أفضل ؟ قال : ما العامّة فيه أزهد .

وقال أفلاطون : مَنْ جهل الشىء ولم يسأل عنه جمع على نفسه فضيحتين .

وكان يقال : ثلاثة لا تجربة معهن : أدب يزين ، ومجانبة الرّيبة ، وكف الأذى .

وكان يقال : عليكم بالأدب ؛ فإنه صاحبٌ فى السَفر ، ومؤنس فى الوحدة ، وجمال فى المحفِل ، وسبب إلى طلب الحاجة .

وكان عبد الملك أديبا فاضلا ، ولا يجالس إلا أديبا .

وروى الهيثم بن عدىّ عن مِسعر بن كدام ، قال : حدّثنى سعيد بن خالد الجَدَلىّ ،

---

(١) ديوانه ٢٦ .

قال : لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مُصعب دَعا الناس يعرضهم على فرائضهم ، فحضرنا بين يديه ، فقال : من القوم ؟ قلنا : جَديلة ، فقال : جَديلةُ عَدْوان ؟ قلنا : نعم ، فأنشده :

عَذِيرَ الحىّ من عَدْوا ... نَ كانُوا حَيَّةَ الأرْضِ(١)
بغَى بعضُهمُ بعضاً ... فلم يَرعوا على بعضِ
ومنهمْ كانت السَّادا ... تُ والموفُون بالقَرْضِ
ومنهمْ حَكَمٌ يقضِى : ... فلا يُنقَضُ ما يقضى
ومنهمْ مَنْ يجيز النّا ... س بالسنّة والفرض

ثم أقبل على رجل منّا وسيم جَسيم قدّمناه أمامنا ، فقال : أيكم يقول هذا الشعر ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : يقوله ذو الإصبع ، فتركنى وأقبل على ذلك الرجل الجسيم ، فقال : ماكان اسم ذى الإصبع ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : اسمه حُرثان ، فتركنى وأقبل عليه ، فقال له : ولم سمّى ذَا الإصبع ؟ قال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : نهشته حيّة فى إصبعه ، فأقبل عليه وتركنى ، فقال : مِن أيّكم كان ؟ فقال : لا أدرى ، فقلت أنا من خلفه : من بنى تاج الّذين يقول الشاعر فيهم :

فأمّا بنو تاج فلا تذكرنّهم ... ولا تتبعنْ عيناكَ مَنْ كان هالكا

فأقبل على الجسيم ، فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة درهم ، فأقبل علىّ ، وقال : وكم عطاؤك أنت ؟ قلت : أربعمائة ، فقال : يا أبا الزّعيزعة ، حط من عطاء هذا ثلثمائة ، وزدْها فى عطاء هذا ، فرحت وعطائى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة(٢) :

وأنشد منشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم :

---

(١) يقال للرجل الصعب المنيع : حية الأرض .

(٢) الخبر في الأغانى ٣ : ٩١ ، ٩٢ .

أظلومُ إنَّ مُصابكم رَجُلًا أهدى السَّلام تحيةً ظُلْمُ(١)

فقال شخص: رجل هو خبر «إنّ»، ووافقه على ذلك قوم وخالفه آخرون، فقال الواثق: من بقى من علماء النحويين؟ قالوا: أبو عثمان المازنىّ بالبصرة، فأمر بإشخاصه إلى سُرَّ مَنْ رَأَى بعد إزاحة علّته، قال أبو عثمان: فأشخصت، فلما أدخلت عليه قال: ممّن الرجل؟ قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم مازن قيس، أم مازن اليمن؟ قلت: مِنْ مازن ربيعة، قال: باسمك؟ بالباء؟ - يريد: «ما اسمك» لأنَّ لغة مازن ربيعة هكذا، يبدلون الميم باء والباء ميما - فقلت: مكر أى «بكر»، فضحك وقال: اجلس واطمئنّ، فجلست فسألنى عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر إنّ؟ فقلت: «ظلم» قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أنّ البيت إن لم يجعل «ظلم» خبر «إنّ» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة! فلما كررت القول عليه فهم، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: ألك ولدٌ؟ قلت: بنيّة، قال: فما قالت لك حين ودّعتها؟ قلت: ما قالت بنت الأعشى:

تقولُ ابنتِى حينَ جَدّ الرّحيلُ أرانا سواءً ومن قد يَتِمْ(٢)

أبانا فلا رِمْتَ مِنْ عندنا فإنّا بخيرٍ إذا لم تَرِمْ

أبانا إذا أضمرتْك البلا دُ نُجْفَى وتُقْطع منّا الرحِمْ

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير:

ثِقِى بالله ليس له شريكٌ ومِنْ عند الخليفة بالنّجاحِ(٣)

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى، ثم أمر لى بألف دينار وكسوة، وردنى إلى البصرة(٤).

---

(١) نسبه ابن خلكان والحريرى فى درة الغواص ٤٣ إلى العرجى، ونسبه البغدادى فى الخزانة ١: ٣١٧ إلى الحارث بن خالد المخزومى.

(٢) ديوانه ٣٣. (٣) ديوانه ٣٦.

(٤) الخبر فى طبقات الزبيدى ٩٣، ٩٤.

(٦)

الأصْلُ

وَصَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ ، وَالِاحْتِمَالُ قَبْرُ الْعُيُوبِ.

ورُوِيَ أَنَّهُ قَالَ فِى الْعِبَارَةِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضاً : الْمُسَالَمَةُ خَبْءُ الْعُيُوبِ.

* * *

الشَّرْحُ

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله : « صدر العاقل صندوق سرّه » ، قد ذكرنا فيما تقدم طرَفا صالحا فى كتمان السر .

وكان يقال : لا تُنكِحْ خاطبَ سرّك .

قال معاوية للنجّار العذرىّ : ابغِ لى محدّثا ، قال : معى يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، أستريح منك إليه ، ومنه إليك ، وأجعله كتوما ، فإنّ الرجل إذا اتّخذ جليسا ألقى إليه عُجَره وبُجَره .

وقال بعض الأعراب : لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك .

وقالوا : إذا كان سرّ الملك عند اثنين دخلت على الملك الشّبهة ، واتّسعت على الرّجُلين المعاذير ؛ فإن عاقبهما عند شياعه ، عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتّهمهما اتهم بريئا

بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجّة عليه .

الفصل الثانى : قوله : « البشاشة حبالة المودّة » ، قد قلنا فى البِشْر والبشاشة فيما سبق قولا مقنعا .

وكان يقال : البِشْر دالّ على السخاء من ممدوحك ، وعلى الوُدّ من صديقك دلالةَ النَّوْر على الثّمرَ[1] .

وكان يقال : ثلاث تُبين لك الودّ فى صدر أخيك : تلقاه ببشرك ، وتبدؤه بالسّلام ، وتوسّع له فى المجلس .

وقال الشاعر :

لا تدخلنّك ضَجْرَةٌ من سائلٍ ... فلَخيرُ دهرِك أن تُرى مسئولَا
لا تجبهنْ بالردّ وجهَ مؤمّلٍ ... قد رام غيرُك أن يُرَى مأمولا
تلقَى الكريم فتستدلّ ببشره ... وترى العُبوس على اللئيم دليلَا
واعلم بأنّك عن قليلٍ صائرٌ ... خَبَرا فكن خَبَرًا يروق جميلا

وقال البحترىّ :

لو أنّ كفّك لم تَجُدْ لمؤمِّلٍ ... لكفاه عاجلُ بشركَ المتهلّلِ[2]
ولو أنّ مجدَك لم يكن متقادماً ... أغناك آخر سُودَدٍ عن أوّلِ
أدركت ما فات الكهولَ من الحجا ... مِن عُنْفوان شبابك المستقبِلِ
فإذا أَمرت فما يقال لك اتّئدْ ... وإذا حكمتَ فما يقال لك : اعدلِ

الفصل الثالث : قوله : « الاحتمال قبر العيوب » ، أى إذا احتملت صاحبك وحلمت

(١) فى د : « دلالة النور على القمر » .
(٢) ديوانه ٢ : ٢١٨ .

عنه ستَرَ هذا الخلق الحسَن منك عيوبَك ، كما يستر القبرُ الميّت ، وهذا مثلُ قولهم فى الجود : كلّ عيبٍ فالكرمُ يغطّيه .

فأما الخَبْء فمصدر خبأته أخبؤه ، والمعنى فى الروايتين واحد ، وقد ذكرْنا فى فضل الاحتمال والمسالمة فيما تقدّم أشياء صالحة .

ومن كلامه عليه السلام : وجدت الاحتمال أنصرَ لى من الرجال .

ومن كلامه : مَنْ سالم النّاس سلم منهم ، ومن حارب الناس حاربوه ؛ فإنّ العثرة للكاثر .

وكان يقال : العاقل خادم الأحمق أبدا ، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرّب إليه بدًّا ؛ وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدًّا .

وأسمع رجل يزيدَ بن عمر بن هُبيرة فأعرض عنه ، فقال الرجل : إيّاك أعنى ، قال : وعنك أُعرض .

وقال الشاعر :

إذا نطقَ السفيهُ فلا تجِبْهُ　　　فخيرٌ من إجابته السُّكُوتُ
سكتّ عن السفيه فظنّ أنى　　　عَيِيتُ عن الجواب وما عَيِيتُ

(٧)

الأَصْلُ :

مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاخِطُ عَلَيْهِ ، والصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ ، وَأَعْمَالُ الْعِبَادِ فِى عَاجِلِهِمْ نَصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِى آجِلِهِمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله « من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه » . قال بعض الفضلاء لرجل كان يرضى عن نفسه ويدّعي التميز على الناس بالعلم : عليك بقوم تروقهم بزبرجك ، وتروعهم بزخرفك ، فإنك لا تعدم عزًّا ، ولا تفقد غمرا ، لا يبلغ مسبارُها غورَك ، ولا تستغرق أقدارُها طورَك .

وقال الشاعر :

أرَى كلَّ كل إنسان يرَى عَيْبَ غيرِه ويعمَى عن العيب الّذى هوَ فيهِ
وما خيرُ مَنْ تخفَى عليه عيوبُه ويبدو له العيبُ الّذى بأخيهِ

وقال بعضهم : دخلت على ابن منارة وبين يديه كتاب قد صنّفه ، فقلت : ما هذا ؟ قال : كتاب عملته مدخَلاً إلى التّورية ، فقلت : إنّ الناس ينكرون هذا ، فلو قطعت الوقت بغيره [1] ! قال : النّاس جُهّال ، وأنتَ ضدّهم ؟ قال : نعم ، قلت :

---

(١) فى د : « بغير هذا » .

فينبغى أنْ يكونَ ضدُّهم جاهلاً عنــدهم ، قال : كذاكَ هو ! قلت : فقد بقيتَ أنتَ جاهلا بإجماع الناس ، والناس جهّـال بقولك وحدَك ؛ ومثل هــذا المعنى قول الشاعر :

إذا كنتَ تقضِى أنّ عقــلك كاملٌ　　وأنّ بنى حَوّاء غــيرَكَ جاهلُ
وأن مفيضَ العلم صـــدرُكَ كلّه　　فمن ذا الّذِى يدرِى بأنّك عاقــل !

***

الفصل الثانى : « الصدقة دواء منجح » ، قد جاء فى الصّدقة فضل كثير، وذكرنا بعض ذلك فيما تقدم . وفى الحديث المرفوع : « تاجروا الله بالصدقة تربحوا » ؛ وقيل : الصدقة صَدَاق الجنّة .

وقيل للشِّبلىّ : ما يجب فى مائتى درهم ؟ فقال : أمّا من جهة الشَّرْع فخمسة دراهم، وأما من جهة الإخلاص فالكُلّ .

وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله أنه سئل فقيل : أىّ الصدقة أفضل ؟ فقال: «أن تعطىَ وأنت صحيح شحيح، تأمُل البقاء ، وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلت : لفلان كذا ولفلان كذا» .

ومثل قوله عليــه السلام : « الصدقة دواء منجح » ، قول النّبىّ صلى الله عليــه وآله : « داووا مرْضاكم بالصدقة » .

***

الفصل الثالث : قوله : « أعمال العباد فى عاجلهم نصب أعينهم فى آجلهم »، هــذا من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ

لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا[1] ﴾ . وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[2] .

ومن كلام بعضهم : إنما تَقدَم على ما قدّمت ، ولست تقدَم على ما تركت ؛ فآثِر ما تلقاه غدا على ما لا تراه أبدا .

ومن حكمة أفلاطون : اكتم حسنَ صنيعك عن أعين البَشَر ؛ فإنّ له ممن بيده ملكوت السماء أعيناً ترمُقه فتجازِى عليه .

---

(١) سورة آل عمران ٣٠ . (٢) سورة الزلزلة ٧ ، ٨ .

(٨)

الأَصْلُ :

اعْجَبُوا لِهَـذَا الإِنْسانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ ، ويَتَـكَلَّمُ بلَحْمٍ ، ويَسْمَعُ بِعَظْمٍ ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا كلام محمول بعضه على ظاهره ، لما تدعو إليه الضّرورة من مخاطبة العامّة بما يفهمونه والعدول عمّا لا تقبله عقولهم ، ولا تَعِيهِ قلوبُهم .

أما الإبصار ؛ فقد اختلف فيه ، فقيل : إنه بخروج شعاع من العين يتّصل بالمرئىّ . وقيل : إن القوة المبصرة التى فى العين تلاقى بذاتها المرئيات فتبصرها . وقال قوم : بل بتكيف الهواء بالشعاع البصرىّ من غير خروج، فيصير الهواء باعتبار تكيّفه بالشّعاع به آلة العين فى الإدراك .

وقال المحقّقون من الحكماء : إنّ الإدراك البَصرِىّ هو بانطباع أشباح المرئيات فى الرطوبة الجلْدّية من العين عند توسط الهواء الشفاف المضىء ، كما تنطبع الصورة فى المرآة . قالوا : ولو كانت المرآة ذات قوّة مبصرة لأدركت الصُّوَر المنطبعة فيها ؛ وعلى جميع الأقوال فلا بدّ من إثبات القوة المبصرة فى الرطوبة الجلْدية ، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارته عليه السلام بقوله : « ينظر بشَحْم » .

وأما الكلام فحلّه اللسان عند قوم . وقال قوم : ليس اللّسان آلة ضرورية فى الكلام لأنّ من يقطع لسانه من أصله يتكلّم ، وأما إذا قطع رأسه لم يتكلّم . قالوا : وإنما الكلام

باللَّهوات ، وعلى كلا القولين فلابدّ أن تكون آلة الكلام لحما ، وإليه وقعت إشارة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وليس هذه البنية المخصوصة شرطا فى الكلام على الإطلاق لجواز وجوده فى الشَّجَر والجماد عند أصحابنا ؛ وإنما هى شرط فى كلام الإنسان ، ولذا قال أمير المؤمنين : « اعجبوا لهذا الإنسان » .

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق ، وإنما هو بالقوّة المودَعَة فى العصب المفروش فى الصّماخ كالغشاء ، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل فى ثُقْب الأذن المنتهى إلى الصِّماخ بعد تعويجات فيه جعلت لتجرى مجرى البراعة المصوّتة ، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصَب الحامل للقوّة السامعة حصل الإدراك . وبالجملة فلابدّ من عَظْم؛ لأنّ الحامل اللحم والعَصَب إنما هو العظْم .

وأما التَّنفُّس فلا ريبَ أنه من خَرْم ؛ لأنه من الأنف ، وإن كان قد يمكن لو سدّ الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو خَرْم أيضاً ، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحارّ عن القلْب وإدخال النّسيم البارد إليه ، فجعلت الرئة كالمرْوحة تنبسط وتنقبض ، فيدخل الهواء بها ويخرج من قَصَبتها النافذة إلى المنخرين .

(٩)

الأصْـلُ ::

إذا أَقْبَلَتِ الدُّنيـا على قَوْمٍ أعارَتْهُمْ مَحاسِنَ غَيْرِهِمْ ، وإذا أدْبَرَتْ عَنْهُمْ سَلَبَتْهُمْ مَحاسِنَ أنفُسِهِمْ .

* * *

الشَّـرْحُ :

كان الرّشيد أيّام كان حسنَ الرأى فى جعفر بن يحيى ، يحلف بالله أنّ جعفراً أفصحُ من قُسِّ بن ساعدة ، وأشجعُ من عامر بن الطفَيل ، وأكتبُ من عبد الحميد بن يحي ، وأسْوَس من عمر بن الخطـاب ، وأحسنُ من مُصعب بن الزبير – وكان جعفر ليس بحَسَن الصورة ، وكان طويل الوجْه جدا – وأنْصح له من الحجاج لعبد الملك ، وأسْمَحُ من عبد الله بن جعفر ، وأعفّ من يوسف بن يعقوب ؛ فلمـا تغيّر رأيه فيه أنـكر محاسنه الحقيقية التى لا يختلف اثنان أنها فيه ، نحو كياسته وسماحته . ولم يكن أحد يجسُر أن يردّ على جعفر قولا ولا رأيا ، فيقال : إنّ أوّل ما ظهر من تغيّر الرشيد له أنه كلم الفضل بن الربيع بشىء فردّه عليه الفضل ، ولم تجرِ عادته من قبل أن يفتح فاه فى وجهه ، فأنـكر سليمان بن أبى جعفر ذلك على الفضْل ، فغضب الرشيـد لإنـكار سليمان ، وقال : ما دخولك بين أخى ومولاى ؟ كالرّاضى بمـا كان من الفضل ، ثم تـكلّم جعفر بشىء قاله للفضل ، فقال الفضل : اشهد عليه يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر : فضّ الله فاك يا جاهل ! إذا كان أمير المؤمنـين الشاهد ، فمن الحاكم المشهود عنده ؟ فضحك الرشيد، وقال : يا فَضْل ، لاتمارِ جعفرا ؛ فإنك لا تقع منه موقعا .

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قاله عليه السلام فى العلوم والفضائل والخصائص النفسانية ، دَعْ حديث الدنيا والسلطان والرياسة ، فإن المحظوظ من علم أو من فضيلة تضاف إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفنّ ؛ مثاله حظّ علىّ عليه السلام من الشجاعة ، ومن الأمثال الحكْميّة قلّ أن ترى مثلا شاردا أو كلمة حكمية إلا وتضيفها الناس إليه ، وكذلك ما يدّعى العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال حتى يقال : إنه حمل على سبعين ألفا فهزمهم ، وقتل الجنّ فى البئر ، وفتل الطوق الحديد فى عُنق خالد بن الوليد . وكذلك حظّ عنترة بن شداد فى الشجاعة ، يُذْكَر له من الأخبار ما لم يكن ، وكذلك ما اشتهر به أبو نُواس فى وصف الخمر ، يضاف إليه من الشعر فى هذا الفنّ ما لم يكن قاله ، وكذلك جود حاتم وعبدالله بن جعفر ونحو ذلك ؛ وبالعكس من لا حظّ له ينفى عنه ما هو حقيقة له ، فقد رأينا كثيرا من الشعر الجيّد يُنفَى عن قائله استحقارا له ، لأنه خامل الذكر ، وينسب إلى غيره ، بل رأينا كتباً مصنفة فى فنون من العلوم خَمَل ذكر مصنفّيها ونسبت إلى غيرهم من ذوى النّباهة والصِّيت ، وكل ذلك منسوب إلى الجدّ والإقبال .

(١٠)

الأصْـلُ :

خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ .

***

الشَّرح :

وقد روى : « خَنُّوا » بالخاء المعجمة ، من الخنين ؛ وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء . وإلى تتعلق بمحذوف ، أى حنُّوا شوقاً إليكم .

وقد ورد فى الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما تقدم .

وفى الخبر المرفوع : « إذا وسعتم النّاس ببسط الوجوه ، وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، فكأنما وسعتموهم بالمال » .

وقال أبو الدرداء : إنّا لنهَشّ فى وجوه أقوام وإنّ قلوبنا لتَقليهم .

وقال محمد بن الفضل الهاشمىّ لأبيه : لِمَ تجلسُ إلى فلان وقد عرفتَ عداوته ؟ قال : أُخْبِى ناراً ، وأقدح عن ودّ .

وقال المهاجر بن عبد الله :

وإنى لأُقصى المرءَ من غير بغضةٍ ... وأدنى أخا البغضاء منّى على عَمدِ
ليُحدِث وُدًّا بعد بغضاء أو أرَى ... له مصرَعاً يُردِى به الله مَنْ يُرْدِى

وقال عِقال بن شبّة التميمىّ : كنتُ رِدْف أبى ، فلقيه جرير بن الخطَفى على بَغلَة ،

فحيّاه أبى وألطفه ، فلمّا مضى قلت له : أبَعْدَ أن قال لنا ما قال ! قال : يا بنىّ أفأوسّع جرحى !

وقال محمد بن الحنفيّة عليه السلام : قد يُدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه .

وقال الحسن عليه السلام : حُسْن السؤال نصف العلم ، ومداراة الناس نصف العقل ، والقصد فى المعيشة نصف المؤونة .

وامتدح ابن شهاب شاعراً فأعطاه ؛ وقال : إنّ من ابتغاء الخير اتّقاء الشرّ .

وقال الشاعر :

وأنزَلَنِى طولُ النّوى دار غربةٍ ... متَى شئت لاقيتُ امرأ لا أشاكِلُهُ

أخا ثقــةٍ حتى يقال سجيّة ... ولو كان ذا عَقْل لـكنت أعاقلُهُ

وفى الحديث المرفوع : « للمسلم على المسلم ستّ : يسلّم عليه إذا لقيَه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويُشَمّته إذا عطس ، ويعودُه إذا مرض ، ويحبّ له ما يحبُّ لنفسه ، ويشيّع جنازته إذا مات » .

ووقف صلى الله عليه وآله على عجوز ، فجعل يسألها ويتحفّاها ، وقال : « إنّ حُسن العهد من الإيمان ، إنّها كانت تأتينا أيّامَ خديجة » .

(١١)

الأَصْـلُ :

إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ .

***

الشَّـرْحُ :

قد أخذت أنا هذا المعنى ، فقلت فى قطعة لى :

إنّ الأمانىّ أكسابُ الجهول فلَا ... تقنعْ بها واركب الأهوالَ والخطَرا
واجعل من العقل جهلًا واطّرِح نظراً ... فى الموبقاتِ ولا تستشعِر الحـذَرا
وإن قدرتَ على الأعـداء منتصراً ... فاشـكر بعفوك عن أعدائك الظَّفَرا

وقد تقدّم لنا كلام طويل فى الحِلْم والصفح والعفو .

ونحن نذكر هاهنـا زيادة على ذلك : شَجَر بين أبى مسلم وبين صاحب مَرْو كلامٌ أرْبَى فيه صاحب مَرْوَ عليه ، وأغلظ له فى القول ، فاحتمله أبو مسلم ، وندم صاحب مَرْو ، وقام بين يدىْ أبى مسلم معتذراً ، وكان قال له فى جمـلة ما قال : يا لَقِيط ! فقال أبو مسلم : مَهْ ! لسان سبقَ ، ووهم أخطأ ، والغضب شيطان وأنا جرّأتُك علىّ باحتمالك قديما ؛ فإن كنتَ للذنب معتذرا ، فقد شاركتك فيـه ، وإن كنت مغلوبا فالعفو يسعُك . فقال صاحب مَرْو : أيّها الأمير ، إنّ عظَم ذنبي يمنعنى من الهـدوء . فقال أبو مسلم : ياعجبـا ! أقابلك بإحسان ، وأنت مسيء ، ثم أقابلك بإساءة وأنت محسن ! فقـال : الآن وثقت بعفوك .

وأذنب بعضُ كتّاب المأمون ذنباً ، وتقدّم إليه ليحتجّ لنفسه ، فقال : يا هـذا ، قِفْ

مكانَك؛ فإنما هو عُذْر أو يمين ، فقد وهبتهما لك ، وقد تـكرّر منك ذلك ، فلا تزال تسيء ونحسن ، وتذنب ونغفر ؛ حتى يكون العفو هو الذى يصلحك !

وكان يقال : أحسن أفعال القادر العفو ، وأقبحها الانتقام .

وكان يقال : ظَفَرُ الـكريم عفو ؛ وعفو[1] اللئيم عقوبة .

وكان يقال : ربّ ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به ، ولا يجاوز به حدّ الارتفاع إلى الإيقاع .

وكان يقال : ما عفا عن الذّنْب من قُرّع به .

ومن الحلم الذى يتضمّن كِبْراً مستحسنا ؛ ماروى أنّ مُصعب بن الزبير لمّا ولى العراق عرض النّاس ليدفع إليهم أرزاقهم ، فنادى مناديه : أين عمرو بن جُرموز ؟ فقيل له : أيّها الأمير ؛ إنه أبعد فى الأرض ؛ قال : أوَ ظَنّ الأحمق أنى أقتله بأبى عبد الله ! قولوا له : فليظهر آمنا ، وليأخذ عطاءه مسلّما .

وأكثر رجل من سبّ الأحنف وهـو لا يجيبه ، فقال الرّجل : ويلى عليه ! والله ما منعه من جوابى إلا هوانى عنده !

وقال لَقِيط بن زرارة :

فقل لبنى سعدٍ ومالى ومالكمْ　　ترِقّون منّى ما استطعتم وأعتقُ
أغرّكُمُ أنّى بأحسنِ شيمـة　　بصيرٌ وأنّى بالفواحش أخْرَقُ !
وأنّك قـد سابَبْتَنِى فقهرتنِى　　هنيئاً مريئاً أنت بالفحش أحذَقُ

وقال المأمون لإبراهيم بن المهدىّ لمـا ظفرَ به : إنّى قد شاورت فى أمرك ؛ فأشير علىّ بقتلك ؛ إلّا أنى وجدت قدرَك فوق ذنبك ؛ فـكرهت قتلك للازم حرمتك . فقال إبراهيم : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّ المشير أشار بمـا تقتضيه السياسة ، وتوجيه العادة ؛ إلا أنك أبيت أن

---

(١) من د : « وظفر » .

تطلب النّصر إلا من حيث عُوِّدته من العفو ؛ فإن قتلتَ فلك نظراء ؛ وإن عفوت فلا نظير لك . قال : قد عفوت ، فاذهب آمنا .

ضلّ الأعشى فى طريقه ، فأصبح بأبيات علقمة بن عُلَاثة ، فقال قائده ، وقد نظر إلى قباب الأدْم : واسوء صباحاه يا أبا بصير ! هذه والله أبيات علقمة ؛ فخرج فتيان الحىّ ، فقبضوا على الأعشى ، فأتوا به علقمة ، فمثَل بين يديه ، فقال : الحمد لله الذى أظفرنِى بك من غير ذمّة ولا عَقْد ؛ قال الأعشى : أو تدرى لم ذلك جُعلت فداك ! قال : نعم ، لأنتقم اليوم منك بتقوالك علىّ الباطل مع إحسانى إليك ؛ قال : لا والله ، ولكن أظفرك الله بى ليبلُوَ قَدْرَ حلمِك فىّ . فأطرَقَ علقمة ، فاندفع الأعشى فقال :

أعَلْقَمَ قد صَيّرَتْنِى الأمورُ ... إليْكَ وما كان بِى مَنْكَصُ[1]

كساكم عُلاثَةُ أثوابَهُ ... وورّثكم حِلمَه الأحوصُ

فهبْ لِىَ نفسى فدتك النُّفُوسُ ... فلا زلت تَنمِى ولا تنقصُ

فقال : قد فعلت ؛ أما والله لو قلت فىّ بعض ما قلتَه فى عامر بن عمر ، لأغنيتك طول حياتك ، ولو قلت فى عامر بعض ما قلته فىّ ما أذاقك بَرْد الحياة .

قال معاوية لخالد بن مَعمر السّدوسىّ : على ماذا أحببت عليًّا ؟ قال : على ثلاث : حلمه إذا غضب ، وصدقه إذا قال ، ووفاؤه إذا وَعَد .

---

(١) ديوانه ٢٣١ .

(١٢)

الأصْل :

أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيات فيما تقدم . وفى الحديث المرفوع أنّ النبى صلى الله عليه وآله بكَى لما قُتِل جعفر بمؤتة ، وقال : « المرء كثير بأخيه » .

وقال جعفر بن محمد عليه السلام : لكلّ شىء حِلْيَة وحِلْيَةُ الرجل أودّاؤه .

وأنشد ابن الأعرابىّ :

لَعَمْرُكَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ولكنَّ إخوان الصّفاء الذخائرُ

وكان أبو أيّوب السّختيانىّ[1] يقول : إذا بلغنى موت أخ كان لى ؛ فكأنما سقط عضوٌ منى .

وكان يقال : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنَى عنه ، وطبقة كالدّواء يُحتاج إليه عند المرض ، وطبقة كالداء لا يُحتاج إليه أبدا .

وكان يقال : صاحبك كرقعة فى قميصك ، فانظر بما ترقع قميصك !

---

(١) ب : « السجستانى » ، والصواب ماأثبته من ا .

وكان يونس بن عبيد يقول : اثنان ما فى الأرض أقلّ منهما ، ولا يزْدادان إلّا قلة : درهم يوضع فى حقّ ، وأخ يُسكَن إليه فى الله .

وقال الشاعر :

أخاكَ أخاكَ إنّ مَنْ لا أخا لَهُ ... كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاحِ
وإنّ ابن عمّ المرء فاعلم جَناحُهُ ... وهلْ ينهض البازِى بغير جَناحِ ؟

وقال آخر :

ولن تنفكّ تُحسَد أو تُعادَى ... فأكثِرْ ما استطعت من الصّديقِ
وبغضك[1] للتّقىّ أقل ضُرًّا ... وأسلمُ من مودّة ذى الفسوقِ[1]

وأوصى بعضهم ابنَه ، فقال : يا بُنىّ ، إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرّجال فاصحب مَن إذا صحبته زانك ، وإذا خدمتَه صانك ، وإذا عرضت لك مؤُنة أعانك ؛ وإن قلت صدّق قولك ، وإنْ صُلْتَ شدّ صوْلك ؛ وإن مددت يدك لأمر مدّها ، وإن بدت لك[2] عَوْرة سدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن سألتَه أعطاك ، وإن سكتّ ابتداك ، وإن نزلتْ بك ملمّة واساك ؛ من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تحتار[3] عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق .

ومن الشعر المنسوب إلى علىٍّ عليه السلام :

إنّ أخاك الحقّ مَنْ كان معكْ ... ومن يضرّ نفسه لينفَعكْ
ومن إذا رَيْبُ الزّمانِ صدَعَكْ ... شتّت فيك شملَه ليَجْمَعَكْ

---

(١) فى د « وبغضاء التقى » وهو وجه أيضا . (٢) ا : « عنك » .
(٣) فى د « ولا تختلف » .

ومن الشعر المنسوب إليه عليه السلام أيضاً :

أخوكَ الّذى إن أجرضَتْكَ ملمّةٌ — من الدّهْرِ لم يبرح لها الدّهرَ واجمَا
وليس أخوكَ بالّذى إن تشعّبتْ — عليـكَ أمورٌ ظَلّ يلحاكَ لائمـا

وقال بعض الحكماء : ينبغى للإنسان أن يوكِّل بنفسه كالئيْن : أحدهما يكلؤه من أمامه، والآخر يكلَؤه من ورائه ؛ وهما عقله الصحيح ، وأخوه النصيح ؛ فإنّ عقله وإن صحّ فلن يبصّره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه فى المرآة ، ويخفى عليه ما خلفه ، وأما أخوه النصيح فيبصّره ما خلفْه وما أمامه أيضاً

وكتب ظريف إلى صديق له : إنى غير محمود على الانقياد إليك ، لأنى صادقتك من جوهر نفسى ، والنفس يتبع بعضها بعضا .

وفى الحديث المرفوع : « إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعلِّمه » .

وقال الأحنف: خير الإخوان من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْكَ وُدًّا ، وإن احتجت إليه لم ينقصك .

وقال أعشى باهلة يرثى المنتشر بن وهب :

إمّاسَلَكْتَسبيلًا كنتَسالكها — فاذهب فلا يُبْعدَنْكَ الله منتشرُ(١)
مَنْ ليس فى خيره شرٌّ ينكّده — على الصّديق ولا فى صفوِهِ كَدَرُ

وقال آخر يرثى صديقاً له :

أخٌ طالمَا سَرّنِى ذكرُه — وأصبحت أَشْجَى لدى ذكرِهِ
وقد كنتُ أغـدُو إلى قصرِه — فأصبَحْتُ أغـدو إلى قبرِهِ
وكنتُ أرانى غنيًّا بِهِ — عن النّاس لو مُدّ فى عمرِهِ
إذا جئتُه طالباً حاجـةً — فأمرِى يجوزُ على أمرِه

رأى بعض الحكماء مصطحبيْن لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : صديقان ، قال : فما بال أحدهما غنيا والآخر فقيرا !

(١) الكامل ٤ : ٦٦ .

(١٣)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام فى الذين اعتزلوا القتال معه :

خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ .

***

الشَّـرْحُ :

قد سبق ذكر هؤلاء فيما تقــدّم ، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيــل ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ، وأنس بن مالك ؛ وجماعة غيرهم .

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين فى " الغرر " أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لـمـا دعاهم إلى القتال معه ، واعتذروا بما اعتذروا به ، قال لهم : أتنـكرون هذه البيعة ؟ قالوا : لا ، لـكنّا لا نقاتل ؛ فقال : إذا بايعتم فقد قاتلتم ؛ قال : فسلِموا بذلك من الذّم ؛ لأن إمامهم رضىَ عنهم .

ومعنى قوله : « خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل » ، أى خذلونى ولم يحاربوا معى معاوية ؛ وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف فى هؤلاء ، وإلى هـذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافىّ .

(١٤)

الأصل :

إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنَفِّرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ الشُّكْرِ .

* * *

الشرح :

قد سبق القول فى الشكر ، ونحن نذكر ها هنا زيادة على ذلك .

قال بعضهم : ما شيّبتنى السّنون ، بل شكرى مَنْ احتاج أن أشكره .

وقالوا : العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .

وقالوا : من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره .

ومن جيّد ما قيل فى الشكر قول أبى نواس :

قدْ قلتُ للعبّاس معتذرا ... من ضعف شُكْرِيهِ ومعترفا[1]

أنت امرؤٌ حمّلْتَنى نِعَماً[2] ... أوْهتْ قُوَى شكرى فقد ضعفا

فإليك منّى اليومَ معذرةً[3] ... جاءتك بالتّصريح منكشفا

لا تُسْدِيَنّ إلىّ عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال البحترىّ :

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً ... فلا نلتُ نُعْمَى بعدها توجب الشُّكْرا[4]

(١) ديوانه ٧١ . (٢) الديوان . « جللتنى » .

(٣) الديوان : « قبل اليوم تقدمة » .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٦ .

وقال أيضاً :

سأجهدُ فى شكرِى النعماك إنّنى ... أرَى الكُفْرَ للنّعماءِ ضرباً من الكفرِ

وقال ابن أبى طاهر :

شكرت عليّا برّه وبلاءه ... فقصّر بى شُكْرى وإنى لجاهدُ

وما أنَا من شكرِى عليًّا بواحدٍ ... ولكنّه فى الفضْلِ والجودِ واحدُ

وقال أبو الفتح البستى :

لا تظنّنّ بى وبِرُّكَ حَيٌّ ... أنّ شكرى وشكرَ غيرِى مَواتُ

أنا أرضٌ وراحتاك سحابٌ ... والأيادى وبْلٌ وشكرى نَباتُ

وقال أيضاً :

وخرّ لما أوليت شكرىَ ساجدا ... ومثلُ الذى أوليتَ يعبدُه الشكرُ

البحترىّ :

أراك بعين المكتسى ورق الغِنَى ... بآلائك اللّاتِى يعدّدها الشُّكرُ

ويعجبنى فقرِى إليك ولم يكُنْ ... ليعجبَنى لولا محبّتُك الفقْرُ

آخر :

بدأتَ بمعروفٍ وثنّيت بالرضا ... وثلّثت بالحسنى وربّعت بالكرَمْ

وباشرتَ أمرِى واعتنيتَ بحاجتى ... وأخّرت «لا» عنّى وقدّمت لى «نعَمْ»

وصدّقتَ لى ظنى، وأنجزتَ موعدى ... وطبتَ به نفساً ولم تتبع النَّدَمْ

فإن نحن كافأنا بشكر فواجبٌ ... وإن نحنُ قصّرنا فما الودّ متّهمْ

(١٥)

الأصْلُ :

مَنْ ضَيَّعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ .

***

الشَّرْحُ :

إنّ الإنسان قد ينصره مَنْ لا يرجو نصره وإن أهمله أقربوه وخذلوه ، فقد تقوم به الأجانب من الناس ، وقد وجدنا ذلك فى حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ضيّعه أهلُه ورهطه من قريش وخذلوه ، وتمالئوا عليه ، فقام بنصره الأوس والخزرج ، وهم أبعد الناس نسباً منه ، لأنه من عدنان وهم من قحطان ، وكلّ واحد من الفريقين لا يحبّ الآخر حتى تحبّ الأرض الدم . وقامت ربيعة بنصر علىّ عليه السلام فى صِفّين ، وهم أعداء مُضَر الذين هم أهله ورهطه ، وقامت اليمن بنصر معاوية فى صِفّين ، وهم أعداء مُضَر ، وقامت الخراسانية وهم عَجَم بنصر الدولة العباسية ، وهى دولة العرب . وإذا تأملت السِّيَر وجدت هذا كثيرا شائعا .

(١٦)

الأصلُ :

مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ .

* * *

الشَّرحُ :

هذه الكلمة قالها علىٌّ عليه السلام لسعد بنِ أبى وَقّاص ومحمّدِ بنِ مَسلَمَةَ وعبدِ الله ابنِ عمرَ لمّا امتَنعوا من الخروج معه لحربِ أصحابِ الجَمَل ، ونظيرُها أو قريبٌ منها قولُ أبى الطيّب :

فَما كلُّ فعّالٍ يُجازَى بفِعلِه ولا كلُّ قوّال لدىَّ يُجابُ[1]
ورُبَّ كلامٍ مَرّ فوق مَسامِعى كما طَنَّ فى لَفْحِ الهَجِير ذُبابُ

(١) لم أجدهما فى ديوانه .

(١٧)

الأَصْلُ :

تَذِلُّ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ، حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ .

* * *

الشَّرْحُ :

إذا تأمّلتَ أحوالَ العالَم وجدت صِدقَ هذه الكلمة ظاهرا ، ولو شئنا أن نذكُر الكثيرَ من ذلك لذكرْنا ما يَحتاج فى تقييده بالكتابة إلى مِثْل حَجْم كِتابنا هذا ، ولكنّا نذكر لمحاً ونُكَتاً وأطرافا ودُرَرا من القول .

فَرَش مروانُ بنُ محمّد ـ وقد لقِىَ عبدَ الله بنَ علىّ ـ أنطاعا وبَسَط عليها المالَ، وقال: مَنْ جاءنى برأسٍ فله مائةُ درهم ، فعجزت الحَفَظة والحُرّاس عن حمايته ، واُشتغلتْ طائفةٌ من الجُند بِنَهْبه ، وتهافَتَ الجيشُ عليه لينتهبوه ، فغشيَهم عبدُ الله بنُ علىّ بعساكره ، فقتَل منهم ما لا يُحصَى ، وهُزِم الباقون .

وكَسَرَ إبراهيمُ بنُ عبدِ الله بنِ الحسن بن الحسن جيشَ أبى جعفر المنصور بباخَمْرَى وأمرَ أصحابه باتّباعهم ، فحال بينهم وبين أصحاب أبى جعفر ماءُ ضَحْضاح ، فكَرِه إبراهيمُ وجيشُه خوضَ ذلك الماء ، وكان واسعا ، فأمرَ صاحبَ لوائه أنْ يتعرّج باللّواء على مسنّاةٍ[1] كانت على ذلك الماء يابسة ، فسَلَكها صاحبُ اللّواء وهى تفضى بانعراج واُنعكاس إلى الأرض اليبس ، فلمّا رأى عسكرُ أبى جعفر أنّ لواءَ القوم قد تراجَعَ

---

(١) المسناة : ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء .

القهقرى ظنوهم منهزمين ، فعطفوا عليهم ، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة ، وجاء سهمٌ غَرْبٌ(١) فأصابَ إبراهيمَ فقتله .

وقد دبّرتْ من قبلُ قريشٌ فى حماية العِير بأن نفرتْ على الصّعْب والذّلول لِتدفعَ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله عن اللّطيمة(٢) ، فكان هلاكُها فى تدبيرِها .

وكُسِرت الأنصارُ يومَ أُحُد بأن أخرَجت النبيّ صلى الله عليه وآله عن المدينة ظنًّا منها أن الظفر والنُّصْرَة كانت بذلك ، وكان سببُ عَطَبها وظفر قريشٍ بهـا ، ولو أقامت بين جُدْران المدينة لم تَظفرْ قريشٌ منها بشىء .

ودَبّرَ أبو مسلم الدّولة الهاشمّية ، وقام بها حتّى كان حَتْفُه فى تدبيره .

وكذلك جرَى لأبى عبدِ الله المحتسِب مع عبدِ الله المهدىّ بالمغرب .

ودبّر أبو القاسم بن المسلمة رئيسُ الرؤساء فى إخراج البَساسِيرِىّ عن العراق حتّى كان هلاكُه على يدِه ، وكذلك أيضا انعكس عليه تدبيرُه فى إزالة الدّولة البُوَيْهِيّة من الدّولة السّلْجوقِيّة ظنّا منه أنّه يَدفَع الشرّ ، بغير الشّرّ فدَفَع الشرّ بما هو شرٌّ منه .

وأمثالُ هذا ونظائرُه أكثرُ من أن تُحصَى .

---

(١) سهم غرب : لايدرى راميه .

(٢) اللطيمة : قافلة تحمل العطور .

(١٨)

الأصْـلُ :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُول صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ : غيِّرُوا الشَّيْبَ ، وَلاَ تَشَبَّهُوا بالْيَهُود ؛ فقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّما قالَ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ ذلِكَ والدِّينُ قُلٌّ ، فأَمَّا الآن وقَدِ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ ، فامْرُؤٌ وما اختارَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

اليهودُ لا تَخضِب ، وكان النبيّ صلى الله عليـه وآله أمر أصحابه بالخِضاب ليـكونوا فى مَرْأى العين شَبابا فيَجْبنَ المشركون عنهم حال الحرْب ، فإنّ الشيـخَ مَظِنّة الضَّعف .

قال علىٌّ عليه السلام : « كان ذلك والإسلامُ قُلّ » ، أى قليل ؛ وأمّا الآن وقد اتّسع نطاقُه وضَرَب بجِرانه فقد سَقط ذلك الأمرُ وصار الخضاب مُباحاً غيرَ مندوب .

والنِّطاق : ثوبٌ تلبَسه المرأةُ لبسةً مخصوصة ليس بصُدرةٍ ولا سروايلَ ، وسُمِّيتْ أسماء بنتُ أبى بكر ذات النِّطاقين لأنها قَطَعتْ من ثوبها ذلك قطعةً شَدّت بها سُفرة لهـا حملها أبو بكر معه حين خرج من مكة مـع النبيّ صلى الله عليه وآله يومَ الهِجْرة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « لقد أبدَلهـا اللهُ بها نِطاقين فى الجَنّة » ، وكان نفر الشام يُنادون عبد الله ابنهـا حين حَصَره الحجّاج بمـكة يشتمونه كما زَعموا : يا بن ذاتِ النِّطاقين ، فيضحك عبدُ الله منهم ، وقال لابن أبى عَتيق : ألا تسمـع ! يظنّونه ذَمًّا ثم يقول :

* وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[1] *

واستعارَ أميرُ المؤمنين عليه السلام هذه اللفظة لسَعة رُقْعة الإسلام ، وكذلك استعار قوله : « وضَرَب بجرانه » ، أى أقام وثبَت ، وذلك لأن البعير إذا ضَرَب بجرانه الأرض - وجرانه مُقدَّم عنقه - فقد استناخ وبَرَك .

وامرؤ مبتدَأ وإن كان نكِرَةً ، كقولهم : « شرٌّ أهرَّ ذا ناب » ، لحصول الفائدة ، والواو بمعنى « مع » ، وهى وما بعدها الخبر ، وما مصدريّة ، أى امرؤ مع اختياره .

* * *

[نبذ مما قيل فى الشيب والخضاب]

فأمّا القول فى الخضاب فقد رَوَى قومٌ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بدا شيبٌ يسيرٌ فى لحيته ، فغيّره بالخضاب ، خَضَب بالحنّاء والكَتَم ، وقال قومٌ : لم يَشِبْ أصلا .

ورُوِى أنّ عائشة قالت : ما كان الله ليَشِينه بالشيب ، فقيل : أَوَشَيْنٌ هو يا أمّ المؤمنين ! قالت : كلّكم يكرهه . وأما أبو بكر فصحّ الخبر عنه بذلك ، وكذلك أمير المؤمنين ، وقيل : إنه لم يخضب . وقُتِل الحسينُ عليه السلام يومَ الطَّفّ وهو مخضوب . وفى الحديث المرفوع رواهُ عقبة بنُ عامر : « عليكم بالحنّاء ، فإنه خِضاب الإسلام ، إنه يصفّى البَصَر ويَذهِب بالصُّداع ، ويزيد فى الباه ، وإيّاكم والسواد ، فإنه من سَوّد ، سَوّد الله وجهه يومَ القيامة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « عليكم بالخضاب ، فإنه أهيَبُ لعدوّكم وأعجَبُ إلى نسائكم » .

---

(١) لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* وَعَيَّرَها الْوَاشُون أَنِّى أُحِبُّهَا *

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٢١ .

ويقال فى أبواب الكناية للمختضب ، هو يسوّد وجه النذير ، لأنّ النذير الشّيب ؛ قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرِ ﴾(١) : إنه الشيب .

وكان عبدالرحمن بنُ الأسود أبيض الرأس واللّحية، فأصبح ذات يوم وقد حمّرها؛ وقال: إنّ عائشة أرسلتْ إلىّ البارحة جاريتها فأقسمتْ علىّ لأغيّرن، وقالت : إنّ أبا بكر كان يَصْبغ.

وروى قيسُ بن أبى حازم قال : كان أبو بكر يخرُج إلينا وكأنّ لحيته ضِرامُ عرْفَج .

وعن أبى عامر الأنصارىّ : رأيتُ أبا بكر يغيّر بالحنّاء والكَتَم ، ورأيت عمر لا يغيّر شيئاً من شَيْبه ، وقال : إنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : «من شاب شَيبةً فى الإسلام كانت له نوراً يومَ القيامة» ، ولا أحبّ أن أغيّر نُورى .

وكان أنسُ بنُ مالك يَخضِب ويُنشِد :

نُسوِّد أعلاها وتأبَى أصولُها ... وليس إلى رَدّ الشّباب سبيلُ

ورُوى أنّ عبد المطّلب وَفد على سيف بن ذى يزَن ، فقال له : لو خضبتَ ! فلما عاد إلى مكّة خضب ، فقالت له امرأته نُتَيْلة أمّ العبّاس وضرار : ما أحسنَ هذا الخضاب لو دام ! فقال :

فلو دامَ لى هذا الخضابُ حَمِدْتُهُ ... وكان بَديلًا من خليلٍ قد انصَرَمْ

تمتعتُ منه والحياةُ قصيرةٌ ... ولابدّ من موتٍ نُتيلةُ أو هَرَمْ

وموتٍ جهيزٍ عاجلٍ لا شَوَى له ... أحبُّ إلينا من مقالِكُمُ حَكَمْ

قال : يعنى أنّه صار شيخاً ، فصار حَكَما بين الناس ، من قوله :

لا تَغبِط المرءَ أن يقال له ... أضحى فلانٌ لسنّه حَكَمَا

---

(١) سورة فاطر ٣٥ .

وقال أسماء بنُ خارجةَ لجاريته : اخضِبيني ، فقالت حتى متى أرقِّعك ! فقال :

عيَّرتْني خَلَقا أبليتُ جِدّتَه ... وهلْ رأيتِ جديداً لم يَعُد خَلَقَا!

وأمّا من يَروِى أنّ عليّا عليه السلام ما خَضَب ، فيحتجّ بقوله ، وقد قيل له : لو غيّرتَ شيبَك يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال : الخضاب زينة ، ونحن فى مصيبة — يعنى برسول الله صلّى الله عليه وآله .

وسُئِل الحسنُ عليه السلام عن الخضاب ، فقال : هو جَزَعٌ قبيح . وقال محمود الورّاق :

يا خاضبَ الشَّيْب الّذى ... فى كلِّ ثالثــةٍ يعودُ

إنّ الخضابَ إذا مَضَى ... فــكأنه شَيبٌ جــديدُ

فدَعِ المشيبَ وما يُرِيدُ ... فلن تعــودَ كما تُرِيدُ

وقد رَوَى قومٌ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله كَراهيةَ الخضاب ، وأنّه قال: لو استقْبلتم الشيبَ بالتّواضع لـكان خيرا لـكم .

قال الشاعر :

وصَبغتُ ما صَبَغ الزمانُ فلم يَدُمْ ... صَبْغى ودامت صِبْغة الأيّامِ

وقال آخر :

يأيّها الرجــلُ المغيّر شَيبَه ... كيما تُعَــدّ به من الشّبّــانِ

أَقصِر فلو سوّدت كلّ حمامةٍ ... بيضاءَ ما عُدّت من الغِرْبانِ

ويقولون فى ديوان عَرْض الجَيْش ببَغْدادَ لمن يَخضِب إذا ذَكروا حِليتــه : مستعار ، وهى كنايةٌ لطيفــة . وأنا أستحسِن قول البُحْترىّ : خَضَبتُ بالمقراض : كناية عن قصّ الشعر الأبيض ، فجعل ذلك خِضابه عِوَضا عن الصَّبغ ، والأبياتُ هذه :

لابسٌ من شبيبةٍ أم ناضِ ... ومليحٌ من شيبةٍ أم راضِ (١)

---

(١) ديوانه ٢ : ٧٢ ، من قصيد يمدح فيها ابن الفياض .

وإذا ما امتَعَضتُ مِن وَلعِ الشَّيـ ب برأسى لم يَثْنِ ذاكَ امتِعاضِى
ليس يَرضى عن الزّمان امرُؤ فيـ ـه إلّا عن غَفْلَةٍ أو تَغاضِى
والبَواقِ مِن اللّيـالى وإن خا لَفْنَ شيئا شَبيهةٌ بالمَوَاضِى[1]
وأبَتْ تَرْكِىَ الغُديّاتِ والآ صالِ حتّى خَضبتُ بالمِقْراضِ
ودواءُ المَشيبِ كالبَخْصِ فى عَيْنِى فقل فيـه فى العيونِ المِراضِ
طال حُزْنى على الشّباب وما بَيَّضَ مِن لونِ صِبْغهِ الفَضْفاضِ
فهل الحـادثاتُ يابنَ عُوَيْفٍ تارِكاتى ولُبسَ هـذا البَياضِ !

---

(١) الديوان : « فشبهات » .

(١٩)

الأصْـلُ

مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ .

* * *

الشَّـرحُ

قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ فى الأمل ، ونذكر ها هنا زيادةً على ذلك :

قال الحسن عليـــه السلام : لو رأيتَ الأجلَ ومَسيرَه ، لنسيتَ الأملَ وغرورَه ، ويُقدِّر المقدِّرون والقضاءُ يَضحَك .

ورَوَى أبو سَعيد الُخدْرِىّ أنّ أسامةَ بنَ زيد اشتَرى وَليــدةً بمائة دينار إلى شهر ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله :« ألا تَعجَبون من أُسامةَ يَشترِى إلى شَهْرٍ ! إنّ أسامةَ لطويلُ الأَمَل ».

أبو عثمان النَّهدىّ : قد بلغتُ نحوا من ثلاثين ومائةَ ســنةٍ فما من شىء إلّا قد عرفتُ فيه النقصَ إلّا أَمَلى ، فإنّه كما كان .

قال الشاعر :

أَراكَ تَزِيدُكَ الأيّامُ حِرْصاً ... على الدّنيا كأنّك لا تَموتُ

فهلْ لكَ غايةٌ إن صرتَ يوما ... إليها قلتُ حَسْبى قد رَضيتُ !

وقال آخر :

مَنْ تَمَنَّى المُنَى فأَغرَقَ فيها ... ماتَ من قبلِ أنْ يَنالَ مُناهُ

ليس فى مالِ مَن تَتابَع فى اللّذّاتِ فضــلٌ عن نفسِه لِسِواهُ

(٢٠)

الأَصْلُ :

أَقِيلُوا ذَوِى الْمُرُوآتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللهِ يَرْفَعُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

[نبذ مما قيل فى المروءة]

قد رُوِيَتْ هذه الكلمة مرفوعة ، ذكر ذلك ابنُ قُتيبة فى " عيون الأخبار " وأحسَن ما قيل فى المُروءة قولُهم : اللذّة تركُ المروءة ، والمروءةُ تركُ اللذّة .

وفى الحديث أنّ رجلا قام إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال : يا رسولَ الله ، ألستُ أفضلَ قومى ! فقال : إن كان لك عَقْل فلك فَضْل ، وإن كان لك خُلُق فلكَ مُروءة ، وإن كان لك مال فلَكَ حَسَب ، وإن كان لك تُقًى فلك دِين .

وسئل الحسَن عن المروءة فقال : جاء فى الحديث المرفوع : « إنّ الله تعالى يحبّ معالىَ الأمورِ ويكرَه سَفْسافَها » .

وكان يقال : من مُروءة الرجلِ جلوسُه ببابِ داره .

وقال الحسن : لا دِين إلّا بمُروءة .

وقيل لابن هُبيرة : ما المُروءة ؟ فقال : إصلاحُ المال ، والرَّزانةُ فى المجلس ، والغَدَاء والعَشاء بالفِناء .

وجاء أيضا فى الحديث المرفوع : « حَسَبُ الرجُل مالُه ، وكَرَمُه دِينُه ، ومُرُوءته خُلُقُه » . وكان يقال : ليس من المروءة كثرةُ الالتفات فى الطّريق .

ويقال : سُرعة المَشْى تذهب بمُروءة الرجل .

وقال معاوية لعمرو : ما ألذّ الأشياء ؟ قال : مُرْ فِتْيانَ قُرَيش أن يقوموا ؛ فلمّا قاموا قال : إسقاطُ المرُوءة .

وكان عُروةُ بنُ الزّبير يقول لبَنيه : يا بَنِيّ الْعَبوا ، فإنّ المروءة لا تكون إلّا بعد اللّعِب . وقيل للأحنف : ما المرُوءة ؟ قال : العِفّة والحِرْفة ، تَعفّ عمّا حَرّم الله ، وتحترِف فيما أحَلّ الله .

وقال محمّد بن عمران التيميّ : لا أشدّ من المروءة ، وهى ألّا تعمل فى السرّ شيئا تَستحيِي منه فى العَلانيَة . وسئل النّظام عن المرُوءة ، فأنشد بيتَ زُهَير :

السترُ دونَ الفاحشاتِ ولا يَلقاكَ دُونَ الخيْرِ من سِتْرِ (١)

وقال عُمر : تعلموا العربيّة فإنّها تزيدُ فى المرُوءة ، وتعلّموا النَّسَب فرُبَّ رَحِمٍ مجهولةٍ قد وُصلتْ به .

وقال ميمونُ بنُ مِهْران : أوّلُ المرُوءة طَلاقةُ الوَجْه ، والثانى التودُّد إلى الناس ، والثالثُ قضاءُ الحوائج .

وقال مَسلَمة بنُ عبدِ المَلِك : مُروءتان ظاهِرَتان : الرِّياش والفصاحة .

وكان يقال : تُعرَف مُروءةُ الرّجل بكثرة دُيونه .

وكان يقال : العقل يأمُرُك بالأنفع ، والمرُوءة تأمرك بالأجمَل .

(١) ديوانه ٩٥ .

لامَ معاويةُ يزيدَ ابنَه على سَماعِ الغِناء وحُبِّ القِيان ، وقال له : أسقَطْتَ مروءتَك ، فقال يزيد : أتكلّم بلساني كلمةً ؟ قال : نعم ، وبلسانِ أبي سفيانَ بن حَرْب وهند بنتِ عُتْبة مع لسانك ، قال : والله لقد حدّثني عمرو بنُ العاص ـ واستَشهَد على ذلك ابنَه عبدَ الله بصدقه ـ أنّ أبا سفيانَ كان يَخلَع على المغنِّي الفاضل والمضاعف من ثِيابه ، ولقد حدّثني أنّ جاريَتَيْ عبد الله بن جُدعان غنّتاه يوما فأَطرَبتاه ، فجَعَل يَخلع عليهما أثوابَه ثوبا ثوْبا حتى تجرَّد تجرُّد العَيْر ، ولقد كان هو وعفّان ابنُ أبي العاص ربّما حَمَلا جاريةَ العاص بن وائل على أعناقِهما ، فمرّا بها على الأبطح وجِلّة قريش ينظرون إليهما ؛ مرّةً على ظهر أبيك ، ومرّةً على ظَهْر عَفّان ، فما الّذي تنكر منّي ! فقال معاوية : اسكُت لَحاكَ الله ! واللهِ ما أحدٌ أَلحَقَ بأبيك هذا إلا ليغرُّكَ ويَفضَحَك ، وإن كان أبو سفيان ما علمتَ لَثقيلُ الحِلْم ، يَقْظان الرأى ، عازِبُ الهوَى ، طويلُ الأَناة ، بعيدُ القعْر ، وما سوّدتْه قريشٌ إلّا لفضْله .

(٢١)

الأصلُ :

قُرِنَتْ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ ، وَالْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، فَانْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ .

* * *

الشرحُ :

فى المَثَل : مَنْ أقْدَم لم يَنْدَم ، وقال الشاعر :

ليس للحاجات إلّا من له وجهٌ وَقاحُ
ولسانٌ طِرْمِذِىٌّ(١) وغُـدُوٌّ ورَواحُ
فعليه السعىُ فيها وعلى الله النّجاحُ

وكان يقال : الفرصة ما إذا حاولْتَه فأَخطأَك نفعُه ، لم يَصِلْ إليك ضرّه .

ومن كلام ابن المقفع : انتهز الفرصةَ فى إحراز المآثر ، واغتنِم الإمكان باصطناع الخير ، ولا تنتظر ما تُعامل فتُجازَى عنه بمثله ، فإنّك إن عُوملتَ بمكروه واشتغلت بِرَصد المكافأة عنه قصّر العُمر بكَ عن اكتساب فائدة ، واقتناء مَنْقَبة ، وتصرّمَتْ أيّامُـك بين تعدٍّ عليك ، وانتظارٍ للظَّفَر بإدراك الثأرِ من خَصْمك ، ولا عيشةَ فى الحياة أكثرُ من ذلك .

كانت العربُ إذا أوفدَتْ وافدا قالت له : إيّاك والهَيْبة ؛ فإنها خَيْبة ؛ ولا تَبِتْ عند ذَنَب الأمر وبِتْ عند رأسه .

---

(١) طرمذى : يتمدح بما ليس فيه .

(٢٢)

الأصْـلُ :

لَنَا حَقٌّ فإنْ أُعْطِيناهُ وإلَّا رَكِبْنا أَعْجازَ الإبلِ ، وإنْ طَالَ السُّرَى .

* * *

قالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى : وهَذَا القَولُ منْ لَطِيفِ الْكلامِ وفَصِيحِهِ ، ومَعْنَاهُ أنَّا إنْ لَمْ نُعْطَ حَقَّنا كُنَّا أَذِلَّاءَ ، وذلِكَ أنَّ الرَّدِيفَ يَرْكَبُ عَجُزَ الْبَعِيرِ ، كالْعَبْدِ والأسِيرِ ومنْ يَجْرِي مَجْرَاهما .

* * *

الشَّـرْحُ :

هـذا الفصلُ قد ذكره أبو عبيد الهروىّ فى " الجمع بين الغريبين " وصورته : إنّ لنا حقاً إن نعطَـه نأخُذْه ، وإنْ نُمنَعه نركب أعجاز الإبل ، وإن طال السُّرَى . قال قد فسرّوه على وجهين : أحدُهما أنّ راكبَ عَجزِ البعـير يلحقه مشقة وضرر ، فأراد : أنّا إذا مُنِعْنا حَقَّنا صَبرنا على المَشَقّة والمَضرّة ، كما يَصبر راكب عجُز البعير ؛ وهـذا التفسير قريبٌ مما فسّره الرضىّ . والوجه الثانى أنّ راكب عجزِ البعير إنما يكون إذا كان غيرُه قد رَكِب على ظَهْر البعير ، وراكبُ ظهر البعير متقدّم على راكب عَجزِ البعير ، فأراد أنّا إذا مُنِعْنا حَقَّنا تأخَّرْنا وتقدَّمَ غيرُنا علينا ، فكُنّا كالراكبِ رَديفا لِغَيره ، وأكد المعنى على كلا التفسيرين[١] بقوله : « وإنْ طـالَ السُّرَى » ، لأنه إذا طال السرى كانت المَشَقّة

(١) فى د : « التقديرين » .

على راكب عجُز البعير أعظم ، وكان الصبر على تأخّر راكب عجُزِ البعير عن الراكب على ظهره أشدّ وأصعب .

وهذا الكلام تزعم الإماميّة أنه قاله يومَ السّقيفة أو فى تلك الأيام ، ويذهَب أصحابُنا إلى أنّه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماعِ الجماعة لاختيار واحد من السّتّة ، وأكثر أرباب السِّير ينقُلونه على هذا الوجه .

(٢٣)

الأَصْلُ :

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسَبُهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام حَثٌّ وحَضٌّ وتحريض على العبادة ، وقد تقدّم أمثالُه[١] ، وسيأتى له نظائرُ كثيرة ، وهو مِثلُ قولِ النبيّ صلى الله عليه وآله : « يا فاطمة بنتَ محمّد ، إنى لا أُغنى عنك من الله شيئاً ، يا عبّاس بنَ عبد المطلب ، إنى لا أُغنى عَنكَ من الله شيئاً ، ﴿ إنّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم ﴾[٢] .

---

(١) فى د « مثله » . (٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٢٤)

الأصْـلُ :

مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ .

***

الشَّـرْحُ :

قد جاء فى هذا المعنى آثارٌ كثيرة ، وأخبارٌ جميلة . كان العتّابىّ قد أَمْلَق ، فجاء فوقَف بباب المأمون يسترزق الله على يديه ، فوافى يَحيى بن أكثم ، فعرض له العتّابى ، فقال له : إن رأيتَ أيّها القاضى أن تُعلم أمير المؤمنين مَكانى فافعل ، فقال : لست بحاجب ؛ قال : قد علمتُ ، ولكنك ذو فضل ، وذو الفَضْل مِعوان ، فقال : سلكتَ بى غيرَ طريق ؛ قال : إنّ الله أتحفَك منه بجاهٍ ونعمة ، وهو مقبل عليك بالزّيادة إن شكرتَ ، وبالتغيير إنْ كفرت ، وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك ، لأنّى أدْعوك إلى ما فيه ازدياد نعمَتِك ، وأنت تأبى علىّ ، ولكلّ شىء زكاة ، وزكاة الجاه رِفْد المستعين . فدخل يحيى فأخبر المأمون به ، فأحضَره وحادثه ولاطَفه ووَصَله .

(٢٥)

الأصْلُ :

يَابْنَ آدَمَ ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام تخويف وتحذير من الاستدراج ؛ قال سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١] ؛ وذلك لأن العبد بغروره يعتقد أنّ موالاة النِّعَم عليه وهو عاص من باب الرِّضا عنه ، ولا يعلم أنه استدراج له ونقمةٌ عليه .

فإن قلت : كيف يصحّ القول بالاستدراج على أُصولكم فى العدل ؟ أليس معنى الاستدراج إيهام العبد أنه سبحانه غيرُ ساخط فعله ومعصيته ! فهل هذا الاستدراج إلّا مفسدةٌ وسببٌ إلى الإصرار على القبيح !

قلت : إذا كان المكلَّف عالماً بقبح القبيح ، أو متمكّنا من العِلْم بقُبْحه ثم رأى النِّعَم تتوالى عليه وهو مُصِرٌّ على المعصية ، كان تَرَادُف تلك النِّعَم كالمنبِّه له على وجوب الحذَر ، مِثالُ ذلك مَن هو فى خِدْمة مَلِك ، وهو عونُ ذلك الملك فى دَوْلته ، ويعلم أنّ المَلِك قد عرف حالَه ، ثم يرى نِعَم الملك مترادفةً إليه ، فإنه يجب بمقتضى الاحتياط أن يشتدّ حَذَرُه ، لأنه يقول : ليست حالى مع المَلِك حالُ من يستحقّ هذه النعم ، وما هذه إلّا مَكِيدة وتحتها غائلة ، فيجب إذَنْ عليه أن يَحْذَر .

---

(٢) سورة الأعراف ١٨٢ .

(٢٦)

الأَصْلُ :

مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قال زُهيرُ بنُ أبى سُلمَى :

وَمَهما تكن عند امرىءٍ مِنْ خليقةٍ   وإن خالَها تَخفَى على الناس تُعلَمِ (١)

وقال آخر :

تخبِّرنى العَيْنانِ ما القلبُ كاتمٌ   وما جنّ بالبَغْضاء والنظرِ الشَّزْرِ

وقال آخر :

وفى عينيكَ ترجمةٌ أراها   تَدُلّ على الضّغائن والحقُود
وأخلاقٌ عهدتُ اللِّين فيها   غَدَتْ وكأنّها زُبَرُ الحديدِ
وقد عاهَدْتَنى بخلافِ هذا   وقال الله : « أَوْفُوا بالعُقُودِ »

وكان يقال : العين والوجه واللّسان أصحاب أخبار على القلب ، وقالوا : القلوب كالمرايا المتقابِلة ؛ إذا ارتسمَتْ فى إحداهنّ صورةٌ ظهرتْ فى الأخرى .

---

(١) ديوانه : ٢٥٧ .

(٢٧)

الأصْلُ :

امْشِ بِدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ .

* * *

الشَّرْحُ :

يقول : مهما وجدتَ سبيلًا إلى الصّبر على أمرٍ من الأمور الّتى قد دُفعت إليها ، وفيها مشَقّة عليك ، وضرر لاحِقٌ بك ، فاصبر ولا تلتمسْ طريقاً إلى تغيير ما دفعت إليه أن تَسلُكها بالعُنْف ، ومُراغَمة الوقت ، ومعاناة الأَقْضية والأَقدار ؛ ومِثال ذلك من يَعرِض له مَرَض ما يُمكنه أن يَحتمِله ويدافع الوقت ، فإنّه يجب عليه ألّا يَطرَح جانبَه إلى الأرض ، ويَخلُد إلى النوم على الفِراش ، ليعالج ذلك المرض قوّة وقهرا ؛ فربما أفضَى به مقاهرة ذلك المَرَض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيرا مُعضِلا .

(٢٨)

الأصْـلُ :

أَفْضَلُ الزُّهْدِ إِخْفَاءُ الزُّهْدِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

إنما كان كذلك لأنّ الجهْر بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلَّ أن يَسلم من مخالطه الرّياء ، وقد تقدّم لنا فى الرياء أقوالٌ مُقنِعة .

رأى المنصورُ رجلا واقفاً ببابه ، فقال : مثل هـذا الدرهمَ بين عينيك وأنتَ واقفٌ ببابنا ! فقال الربيع : نعم ، لأنّه ضرِب على غير السِّـكّة .

شاعر :

معشرٌ أثبتَ الصـلاةَ عليهمْ   لِجِبـاهٍ يشقُّـها المِحرابُ
عَمَرُوا مَوْضع التصنُّـعِ منهمْ   ومكانُ الإخلاص منهمْ خَرابُ

(٣٩)

الأصل :

إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلْتَقَى !

* * *

الشرح :

هـذا ظاهر ، لأنه إذا كان كلّما جاء ففي إدبار ، والموتُ كلّما جاء ففي إقبال ، فيا سُرْعانَ ما يَلتَقيان ! وذلك لأنّ إدبارَه هو توجُّهه إلى الموت ، وإقبال الموت هو توجّه الموت إلى نحوه ، فقد حُقّ إذَن الالتقاء سريعا ، ومثالُ ذلك سفينتان بدِجْلة أو غيرها ، تَصعَد إحداها ، والأخرى تَنحدِر نحوَها ، فلا رَيْب أنّ الالتقاء يكون وَشيكا .

(٣٠)

الأَصْلُ :

الْحَذَرَ الْحَذَرَ ، فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم هذا المعنى وهو الاستدراج الذى ذكَرْناه آنِفاً.

(٣١)

الأَصْـلُ :

وَسُئِلَ عليه السلام عن الإيمان فقال : الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى الصَّبْرِ ، وَالْيَقِينِ ، وَالْعَدْلِ ، وَالْجِهَادِ .

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الشَّوْقِ ، وَالشَّفَقِ ، وَالزُّهْدِ ، وَالتَّرَقُّبِ ؛ فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنِ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ .

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى تَبْصِرَةِ الْفِطْنَةِ ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبْرَةِ ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ ، تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، عَرَفَ الْعِبْرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبْرَةَ ، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ .

وَالْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ ، وَزَهْرَةِ الْحُكْمِ ، وَرَسَاخَةِ الْحِلْمِ ، فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْحِلْمِ ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدًا .

وَالْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَوَاطِنِ ، وَشَنَآنِ الْفَاسِقِينَ ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ ، وَمَنْ شَنِئَ الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلّٰهِ غَضِبَ اللّٰهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى التَّعَمُّقِ ، وَالتَّنَازُعِ ، وَالزَّيْغِ ، وَالشِّقَاقِ ؛ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى الْحَقِّ ، وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ ،

وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ ، وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ .

وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى التَّمَادِى ، وَالْهَوْلِ ، وَالتَّرَدُّدِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ ؛ فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَنًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَمَنْ تَرَدَّدَ فِى الرَّيْبِ ، وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ ، وَمَنِ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا .

* * *

قَالَ الرَّضِىّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَبَعْدَ هَذَا كَلَامٌ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الْإِطَالَةِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فِى هَذَا الْكِتَابِ .

* * *

الشَّرْحُ :

من هذا الفصل أخذتِ الصّوفيّةُ وأصحابُ الطريقة والحقيقةِ كثيرا من فنونهم فى علومهم ؛ ومن تأمّل كلامَ سهل بنِ عبدِ الله التُّستَرِىّ وكلامَ الجُنيد والسّرىّ وغيرهم رأى هذه الكلمات فى فَرْش كلامِهم تَلُوح كالكواكب الزاهرة وكلّ المقامات والأحوال المذكورة فى هذا الفصل قد تقدّم قولُنا فيها .

* * *

[نُبَذٌ وحكايات مما وقع بين يدى الملوك]

ونذكر هاهنا الصدق فى المواطن ، وبين يدَى الملوك، ومن يَغضَب لله ، ويَنهَى عن المنكر ، ويقوم بالحقّ ولا يُبالى بالسلطان ولا يُراقبه .

دخل عمرُ بنُ عبد العزيز على سليمانَ بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه ـ وهو يومئذ وليُّ عهدِه ـ قد عقد له من بعده ، فجاء إنسانٌ يَطلُب ميراثا من بعض نساء الخلفاء ، فقال سليمان : ما إخال النساء يرِثْن فى العَقار شيئا ، فقال عمر بنُ عبد العزيز : سبحان الله! وأين كتابُ الله ! فقال سليمان : يا غلام ، اذهَب فأْتِنى بسِجِلّ عبد الملك الّذى كُتب فى ذلك ، فقال له عمر : لكأنّك أرسلتَ إلىّ المصحف ! فقال أيّوب بن سليمان: والله ليُوشِكَنّ الرجل يتكلّم بمِثل هذا عندَ أميرِ المومنين . فلا يشعر حتّى يفارقه رأسُه ؛ فقال عمر : إذا أَفضَى الأمرُ إليك وإلى أمثالك كان ما يَدخُل على الإسلام أشدّ ممّا يخشى عليكم من هذا القَوْل ، ثمّ قام فخرج .

وروَى إبراهيمُ بنُ هشام بن يحيى ، قال : حدّثنى أبى ، عن جدّى، قال : كان عمرُ بنُ عبد العزيز يَنهَى سليمانَ بنَ عبد الملك عن قَتْل الحَرُوريّة ، ويقول : ضَمِّنْهم الحبوس حتّى يُحدثوا توبةً ، فَأُتِىَ سليمان بحَرُورِىّ مستقتل ، وعنده عمرُ بنُ عبد العزيز ، فقال سليمان للحَرُورىّ : ماذا تقول ؟ قال : ما أقول يا فاسق يابن الفاسق ! فقال سليمان لعمر : ما ترَى يا أبا حفص ؟ فسَكَت ، فقال : أقسمتُ عليك لتخبرنّى ماذا ترى عليه ! فقال : أَرَى أن تَشتُمه كما شتَمك ، وتَشتُم أباه كما شتَم أباك ، فقال سليمان : ليس إلّا ! قال : ليس إلّا ؛ فلم يرجع سليمان إلى قوله ، وأمَر بضَرْب عنق الحرورىّ .

وروَى ابنُ قتيبة فى كتاب ,, عيون الأخبار " قال : بينما المنصور يطوف ليلا بالبَيْت سَمِع قائلا يقول : اللّهمّ إليك أشكو ظهورَ البَغْى والفساد ، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطّمع . فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد ، وأرسَل إلى الرجل يدعوه ، فصلّى ركعتين ، واستَلَم الرُّكْن ، وأقبل على المنصور فسلّم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الّذى سمعتُك تقوله من ظُهور البَغْى والفساد فى الأرض ، وما يَحول بين الحقّ

وأهله من الطمع ؟ فو الله لقد حشوتَ مسامعى ما أرْمضنى (١) فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ أمَّنتنى على نفسى أنبأتُك بالأمور من أصولهـا ، وإلاّ احتجزتُ منك ، واقتصرتُ على نفسى فلى فيها شاغل ؛ قال : أنت آمنٌ على نفسك ، فقل ؛ فقال : إنّ الذى دخله الطمع حتّى حال بينـه وبين إصلاح ما ظَهر من البَغْى والفساد لأنت ، قال : وَيْحك ! وكيف يَدخُلنى الطمع والصّفراء والبيضاء فى قَبْضَتى ، والحُلو والحامض عندى ! قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دَخَلَكَ ! إنّ الله عزّ وجلّ استرعاك المسلمين وأموالهم، فأغفلتَ أمورهم ، واهتممتَ بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حُجُبا من الجصّ والآجُرّ ، وأبوابا من الحديد ، وحَجَبةً معهم السلاح ، ثمّ سجنتَ نفسك فيها منهم ، وبَعثت عمّالك فى جباية الأموال وجمعِها ، فقوّيتَهم بالسّلاح والرجال والكُراع ، وأمَرْت بألّا يدخُل عليك إلاّ فلان وفلان ، نفرٌ سمّيتَهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم والمَلْهوف ، ولا الجائع والفقير ، ولا الضعيف والعارى ، ولا أحد ممن له فى هذا المال حقّ ، فـما زال هؤلاء النفرُ الذين استخلصتَهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيّتك ، وأمرت ألّا يُحجَبوا عنك ، يجبون الأموال ويَجْمعونها ويَحجُبونها ، وقالوا : هذا رجل قد خان الله ، فما لنا لا نخونه ، وقد سَخَّرنا ! فائتمروا على ألاّ يصل إليك مِن أخبار الناس شىء إلّا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرهم إلّا بغّضوه (٢) عندك وبغَوْه الغَوائل ، حتى تسقُط منزلتُه ويَصْغر قدرُه . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناسُ وهابوهم ، وكان أوّل من صانَعهُم عمّالك بالهدايا والأموال ليقْوَوْا بها على ظلْم رعيّتك ، ثمّ فعل ذلك ذَوو القدرة والثروة من رعيّتك لينالوا به ظلم مَن دونَهم ، فامتلأتْ بلاد الله بالطّمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سُلْطنتك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حِيلَ بينه وبين دخول

(١) ب : « أمرضى » ؛ والصواب ماأثبته من ا ، د وعيون الأخبار .
(٢) عيون الأخبار : « قصبوه » أى عابوه .

دارِكَ ، وإن أراد رَفْع قصّته إليك عند ظهورك وجدك وقد نُهيتَ عن ذلك ، ووقفت للنّاس رَجلا ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء المتظلم إليه أرسَلوا إلى صاحب المظالم ألاّ يرفع إليك قصّته ، ولا يكشف لك حاله ؛ فيجيبهم خوفاً منك ، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه ، ويلوذ به ، ويستغيثُ إليه وهو يدفعه ، ويعتلّ عليه ؛ وإذا أجهِد وأُحرِج ، وظهرت أنت لبعض شأنك صَرَخ بين يديك ، فيُضرب ضربا مبرّحا ليكون نكالا لغيره ، وأنت تَنظُر ولا تُنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا !

ولقد كنتُ أيّام شبيبتى أسافر إلى الصّين فقدِمْتُها مرّة وقد أصيب مَلِكُها بسَمْعه ، فبَكَى بكاء شديدا ، فحداه[1] جلساؤه على الصّبر ، فقال: أما إنّى لست أبكي للبليّة النازلة ، ولكن أبكي للمَظلوم بالباب يَصرُخ فلا أسمعُ صوتَه ! ثمّ قال : أمّا إذْ ذهب سمعى فإنّ بصرى لم يذهب ، نادُوا فى الناس ألّا يلبسَ ثوبا أحمرَ إلّا مظلوم[2] ، ثمّ كان يركَب الفيل طرَفَىْ نهاره يَنظُر هل يرى مظلوما ! فهذا مُشرك بالله غلبتْ رأفتُه بالمشركين على شُحّ نفسه ، وأنتَ مؤمنٌ بالله من أهل بيتِ نبيّه لا تَغلِبُك رأفتُك بالمسلمين على شُحّ نفسِك ! فإن كنتَ إنما تَجمع المال لوَلَدك فقد أراك الله تعالى عِبَرا فى الطِّفل يَسقُط من بطن أمّه، ماله على الأرض مال ، وما من مال يومئذ إلّا ودونه يدٌ شَحيحة تَحويه ؛ فلا يزال الله يَلطُف بذلك الطِّفْل حتّى تَعظُم رغبةُ النّاس إليه ، ولستَ بالّذى تُعطِى ، ولكنّ الله يُعطى من يشاء ما يشاء . وإن قلتَ : إنّما أجمع المال لتشييد السلطان ، فقد أراك اللهُ عِبَرًا فى بنى أميّة ، ما أغنَى عنهم ما جَمعوا من الذّهب والفضة ، وأعَدُّوا من الرجال والسّلاح والكُراع حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلتَ : أجمع المالَ لطلب غاية هى أجسَم من الغاية الّتى أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنتَ فيه إلّا منزلةٌ لا تُدرَك إلّا بخلاف ما أنت عليه ؛ انظرْ هل تعاقِب من عصاك بأشدّ من القَتْل ؟ قال : لا ، قال : فإنّ المَلِك الّذى خَوّلك ما خَوّلك

(١) عيون الأخبار : « فحثه » .   (٢) د : « متظلم » .

لا يُعاقِب مَن عصاه بالقتل ، بالخلود فى العذاب الأليم ! وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبَك ، وعملَتْه جوَارحُك ، ونظر إليه بَصرُك ، واجترحتْه يداكَ ومشتْ إليه رجْلاكَ . وانظر هل يُغنِى عنك ما شححتَ عليه من أمرِ الدنيا إذا انتزَعَه من يَدِك ودعاكَ إلى الحساب على ما مَنَحك !

فبكى المنصورُ وقال : ليتنى لم أُخلَقْ ! وَيْحك ! فكيف أحتالُ لنفسى ؟ قال : إنّ للناس أعلاما يَفزَعون إليهم فى دِينهم ، ويرْضَوْن بقوْلهم ، فاجعلْهم بِطانَتك يُرشِدُوك ، وشاوِرْهم فى أمرِكَ يُسدِّدوك ؛ قال : قد بعثتُ إليهم فهرَبوا مِنّى ؛ قال : نعم ، خافوا أن تحمِلهم على طريقِك ، ولكن افتحْ بابَك ، وسَهِّل حِجابَك ، وانظر المظلومَ ، واقمع الظالم ، وخذ الفَىْء والصَّدقات ممّا حلّ وطاب ، واقسِمه بالحقّ والعدل على أهله ، وأنا الضّامن عنهم أنْ يأتوك ويُسعِدوك على صَلاحِ الأمّة .

وجاء المؤذِّنون فسلّموا عليه ، ونادَوا بالصّلاة ، فقام وصلَّى ، وعاد إلى مجلسه ، فطُلب الرّجل فلم يُوجَد (١) .

وروَى ابنُ قُتَيبَة أيضا فى الكتاب المذكور أنّ عَمرو بنَ عُبيد قال للمنصور : إنّ الله أعطاكَ الدّنيا بأسْرِها ، فاشترِ نفسَكَ منه ببعضها ، واذكر ليلةً تتمخّض لكَ صبيحتُها عن يوم القيامة — قال : يعنى ليلةَ موتِه — فوَجَم المنصورُ ، فقال الربيع : حَسْبُك ، فقد غممتَ أميرَ المؤمنين ، فقال عَمرو بنُ عبيد : إنّ هـذا صَحِبَك عشرين سنةً لم يَرَ عليه أن ينصَحَك يوما واحدا ، ولم يَعمَل وراء بابك بشىء ممّا فى كتاب الله ولا فى سنّة نبيّه ! قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلتُ لك : خاتَمِى فى يَدِك فهلمّ أنت وأصحابك فاكفِنى ، فقال عمرو : دَعْنا بعدْلك نَسْخُ بأنفسنا بعوْنك ، وببابِك مَظالِم كثيرة (٢) ، فارْدُدها نَعلم أنّك صادق (٢) .

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ٣٣٣ — ٣٣٧ . (٢) عيون الأخبار : « ألف مظلمة » .

وقال ابن قتيبة فى الكتاب المذكور : وقد قام أعرابىّ بين يدىْ سليمانَ بن عبد الملك بنحوِ هذا ، قال له : إنّى مكلّمك يا أميرَ المؤمنين بكلام [فيه بعض الغلظة](١) فاحتمِله إن كرهتَه ، فإنّ وراءه ما تحبّ ، قال : قل ، قال : إنّى سأُطلِق لسانى بما خَرِسَتْ عنه الألسُن من عِظَتك تأديةً لِحَقِّ الله . إنَّك قد تكنّفك رجالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسِهم ، فابتاعوا دُنْياهم بدِينهم ، فهم حربُ الآخرة ، سِلْمُ الدّنيا ، فلا تأمَنْهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنّهم لم يألوا الأمانة تَضييعاً ، والأمّة خَسْفا ، وأنت مسئول عما اجترَحوا ، وليسوا مسئولين عمّا اجترَحْتَ ، فلا تُصلِح دُنياهمْ بفسادِ آخرَتك . فإنّ أعظمَ النّاس غَبْنا مَن باعَ آخرتَه بدُنْيا غيرِه . قال : فقال سليمان : أمّا أنت يا أعرابىّ ، فإنّك قد سَلَلتَ علينا عاجلًا لسانَك ، وهو أقطَعُ سَيْفَيْك ؛ فقال : أجَل ، لقد سللتُه ، ولكن لك لا عليك(٢) .

(٣٢)

الأَصْــلُ :

فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ .

***

الشَّــرْحُ :

قد نظمتُ أنا هذا اللّفظ والمعنى ، فقلتُ فى جملةِ أبياتٍ لى :

خيرُ البضائِع للإنسان مَكرُمَةٌ ... تَنْمِى وتَزْكو إذا بارَتْ بَضائِعُهُ

فالخيرُ خَيْرٌ وخيرٌ منــه فاعِلُه ... والشرّ شرٌّ وشرٌّ منه صانِعُهُ

فإن قلتَ : كيف يكون فاعلُ الخير خيرا من الخير ، وفاعلُ الشرّ شرّا من الشرّ ، مع أنّ فاعل الخير إنّما كان ممدوحا لأجل الخير ، وفاعل الشرّ إنما كان مذموما لأجل الشرّ ، فإذا كان الخير والشرّ هما سَبَبَا المَدْح والذّمّ — وهما الأصل فى ذلك — فكيف يكون فاعلاهما خيراً وشرّاً منهما ؟

قلت : لأنّ الخير والشرّ ليسا عبارة عن ذات حيّة قادرة ، وإنّما هما فعلان ، أو فعل وعدم فعل ، أو عَدَمان ، فلو قطع النظر عن الذّات الحيّة القادرة الّتى يَصدُران عنها ، لمـا انتَفَع أحدٌ بهما ولا استضرّ ، فالنّفع والضّرر إنّما حَصَلا من الحىّ الموصوف بهما لا منهما على انفرادهما ، فلذلك كان فاعلُ الخَيْر خيرا من الخــير ، وفاعلُ الشرّ شرّا من الشرّ .

(٣٣)

الأصلُ :

كُنْ سَمْحًا ، وَلَا تَكُنْ مُبَذِّرًا ، وَكُنْ مُقَدِّرًا ؛ وَلَا تَكُنْ مُقَتِّرًا .

* * *

الشَّرْحُ :

كلُّ كلامٍ جاء فى هذا فهو مأخوذٌ من قوله سبحانَه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾(١) .

ونحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾(٢) .

---

(١) سورة الإسراء ٢٧ . (٢) سورة الإسراء ٢٩ .

(٣٤)

الأصْـلُ :

أَشْرَفُ الْغِنَى ، تَرْكُ الْمُنَى .

***

الشَّـرْحُ :

قد سبق منا قولٌ كثيرٌ فى المُنى ، ونذكر ها هنا ما لم نذكرْه هناك .

سئل عُبيدُ الله بنُ أبى بكر : أىّ شىء أدوَم متاعا ؟ فقال : المُنَى .

وقال بلال بن أبى بُرْدة : ما يَسُرّنى بنصيبى من المُنى حُمْرُ النَّعم .

وكان يقال : الأمانىّ للنّفس كالرَّوْنَق للبَصَر .

ومن كلام بعضِ الحُكَماء : الأمانىّ تُعمِى أعيُنَ البصائر ، والحظّ يأتى من لا يأتيه ، وربّما كان الطمع وِعاءً حشوُه المَتالف ، وسائقا يدعو إلى الندامة ، وأَشقَى الناس بالسّلطان صاحبُه ؛ كما أنّ أقربَ الأشياء إلى النّار أسرَعُها إحْراقا ، ولا يُدْرِكُ الغِنَى بالسّلطان إلّا نفسٌ خائفة ، وجسمٌ تَعِب ، ودِينٌ منكَتم ، وإن كان البحرُ كَدِرَ الماء ، فهوَ بَعيدُ الهَوَاء .

(٣٥)

الأَصْـلُ :

مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ ، قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هـذا المعنى كثيرٌ واسع ، ولنقتصرْ ها هنا فيـه على حكاية ذكرها المبرّد في " الكامل " .

* * *

[في مجلس قتيبة بن مسلم الباهليّ]

قال : لما فتح قتيبةُ بنُ مُسلم سَمَرْقَند أَفضى(١) إلى أثاث لم يُرَ مِثله(٢) ، وإلى آلاتٍ لم يُرَ مِثلها ، فأراد أن يُرِيَ الناس عظيمَ ما أنعمَ الله به عليه ، ويعرّفهم أقدار القوم الذين ظهر عليهم ، فأمر بدارٍ ففُرِشت وفي صحنها قدُور يُرْتَقى إليها بالسلالم ، فإذا الُحضَين ابنُ المُنذِر بن الحارث بن وَعْلة الرّقاشي قد أقْبَل والناسُ جلوسٌ على مراتبهم ، والُحضَين شيخٌ كبير ، فلما رآه عبدُالله بن مُسلم قال لأخيه قُتَيبة : ائذَنْ لي في معاتبَته ؛ قال: لا تردّه لأنه خبيثُ الجواب ؛ فأبى عبدُ الله إلّا أن يأذن له ــ وكان عبد الله يضعّف ، وقد كان تسوّر حائطا إلى امرأةٍ قبل ذلك ــ فأقبل على الُحضين ، فقال : أمن الباب دخلتَ يا أبا ساسان ؟

---

(١) أفضى ؛ أي اتسع وصار عريضا . (٢) الكامل : « مثلها » .

قال : أَجَلْ ، أسَنَّ عمُّك عن تَسوُّر الحيطان . قال : أرأيتَ هذه القُدور ؟ قال : هى أعظم من أَلّا تُرَى ؛ قال : ما أحسب بكر بن وائل رأى مثلها ، قال : أجَلْ ، ولا غَيلان ، ولو كان رآها سمّى شَبْعان ، ولم يسمَّ غَيْلان ، قال له عبدُ الله : يا أبا ساسان أتعرف الذى يقول :

عُزِلْنا وأُمِّرْنا وبكرُ بنُ وائلٍ　　تَجُرّ خُصاها تبتَغى مَن تُحالِفُهْ (١)

قال : أَجَل أعرفه ، وأعرِف الذى يقول :

بأَدْنَى العَزْم قادَ بَنى قُشَيرٍ　　ومن كانت له أَسرَى كلابِ
وخَيْبة من يخيبُ عَلَى غَنىٍّ　　وباهلة بن يَعْصُرَ والرِّكابِ

يريد : ياخيبةَ من يَخيب . قال : أفتعرف الذى يقول :

كأنّ فِقاحَ الأَزْد حول ابن مِسمعٍ　　إذا عرِقتْ أفواهُ بكر بن وائلِ

قال : نَعم أعرفه وأعِرف الذى يقول :

قومٌ قتيبةُ أمُّهم وأبوهمُ　　لولا قتيبةُ أصبَحوا فى مَجْهل

قال : أما الشِّعر فأراك تَرْويه ، فهل تَقْرأ من القرآن شيئاً ؟ قال : أقرأ منه الأكثر الأطْيَب : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسان حينٌ مِنَ الدَّهْر لم يكُنْ شيئاً مذكوراً ﴾ (٢) فأغضبه ، فقال : والله لقد بلغنى أنّ امرأة الحضين حُمِلت إليه وهى حُبلى من غيره .

---

(١) هو حارثة بن بدر — رغبة الآمل .

(٢) سورة الإنسان ١ .

قال : فما تحرّكَ الشيخُ عن هيئته الأولى ، ثم قال على رِسْله ، وما يكون ! تلد غلاما على فراشى ، فيقال : فلانُ ابنُ الحضين ، كما يقال : عبدُ الله بنُ مسلم . فأقبل قتيبةُ على عبد الله وقال : لا يبعد الله غيرك !

قلت : هو الحضين بالضاد المعجمة ، وليس فى العرب من اسمُه « الحضين » بالضاد المعجمة غيرُه[1] .

---

(١) الكامل ٣ : ١٣ ، ١٤ ؛ قال أبو العباس : « الحضين بن المنذرين بن الحارث بن وعلة . وكان الحضين بيده لواء على بن أبى طالب رحمه الله على ربيعة ؛ وله يقول القائل :

لِمَنْ رايةٌ سوداءُ يخفق ظِلُّها إذا قيلَ قدّمْها حُضَيْنُ تقدّما .

(٣٦)

الأصل :

مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ ، أَسَاءَ الْعَمَلَ .

***

الشرح :

قد تقدّم منّا كلامٌ في الأمل .

وقيل لبعض الصالحين : ألك حاجةٌ إلى بغداد ؟ قال : ما أحبّ أن أبسط أملي حتى تذهب إلى بغداد وتعود .

وقال أبو عثمان النّهديّ : قد أتت عليّ ثلاثون ومائة سنةً ؛ ما من شيء إلّا وأجد فيه النّقص إلا أملي ، فإني وجدته كما هو أو يزيد .

(٣٧)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجّلوا له واشتدوا بين يديه :

مَا هَذَا الَّذِى صَنَعْتُمُوهُ ؟ فقَالُوا : خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا ؛ فقَالَ : وَاللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ ، وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِى دُنْيَاكُمْ ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِى أُخْرَاكُمْ ؛ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ ، وَأَرْبَحَ الدَّعَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ !

* * *

الشَّـرْحُ :

اشتدُّوا بين يديه : أسرَعوا شيئاً ، فنهاهم عن ذلك وقال : إنكم تشقّون به على أنفسكم لما فيه من تعَب الأبدان . وتَشْقَوْن به فى آخرتكم : تخضعون للولاة ، كما زعمتم أنه خُلُق وعادةٌ لكم ؛ خضوعا تطلُبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها ، وكلّ خضوع وتذلُّل لغير الله فهو معصية .

ثمّ ذكر أنّ الخسران المبين مَشقّة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة والرِّبح البين دعةٌ عاجلة يتبعها الأمانُ من النار .

(٣٨)

الأصْـلُ :

قال عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام :

يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً وَأَرْبَعاً ؛ لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ : إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ، وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمْقُ ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْعُجْبُ ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ .

يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْأَحْمَقِ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْبَخِيلِ ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْفَاجِرِ ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الْكَذَّابِ ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ الْبَعِيدَ ، وَيُبَعِّدُ عَلَيْكَ الْقَرِيبَ .

***

الشّـرحُ :

هذا الفصل يتضمّن ذِكرَ العقلِ والُحمق، والعُجب وحُسن الُخلُق، والبُخل والفُجور، والكَذِب ، وقد تقدّم كلامُنا فى هــذه الخصال أجمَع ، وقد أخذتُ قولَه عليه السلام : « إيّاك ومصادقةَ الأحمقِ فإنّه يريد أن ينفعَك فيضرّك » فقلتُ فى أبياتٍ لى :

حَيَاتَكَ لا تَصْحَبَنّ الجهولَ   فلا خيرَ فى صُحبةِ الْأَخْرَقِ
يَظُنّ أخو الجهل أن الضّلا   لَ عينُ الرّشاد فلا يتّقِى
ويَـكسَب صاحبَـه حُمقَه   فيَسرِق منه ولا يُسرَق[1]
وأُقسِم أنّ العــدوّ اللبيـ   بَ خيرٌ مِن المشفِق الأحمَقِ

---

(١) فى البيت إقواء .

(٣٩)

الأصْـلُ :

لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضَرَّتْ بِالفَرَائِضِ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا الـكلام يُمـكن أن يُحمَل على حقيقته ، ويمكن أن يُحمَل على مَجازه ، فإنْ حُمِل على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثيرٌ من الفقهاء ، وهو مَذهَب الإماميّة ، وهو أنّه لا يصحّ التنفّل ممّن عليه قضاء فريضة فاتتْه لا فى الصـلاة ولا فى غيرها ؛ فأمّا الحجّ فمُتّفَق عليـه بين المسلمين أنّه لا يصحّ الابتداء بنَفْله ، وإذا نوى نيّـة النَّفل ، ولم يكن قد حَجّ حَجّة الإسـلام وقع حَجُّه فرضاً ، فأمّا نوافل الزّكاة فما عرفتُ أحدا قال : إنه لا يثاب المتصدّق بها ، وإن كان لم يؤدّ الزكاة الواجبة . وأمّا إذا حُمِل على مَجازه ، فإنّ معناه يجب الابتداء بالأهمّ وتقديمُه على ما ليس بأهمّ ، فتدخُل هذه الـكلمة فى الآداب السلطانيّـة والإخوانيّـة ، نحوَ أن تقول لمن تُوصِيه : لا تبـدأ بخِدمة حاجبِ المَـلِك قبل أن تَبـدأ بخِدمة وَلَد المَـلِك ، فإنّك إنّما تروم القُرْبة للمَلِك بالخِدمة ، ولا قربة إليه فى تأخير خِدْمة ولَدِه وتقديم خدمةِ غلامِه ؛ وحَمْلُ الـكلمة على حقيقتها أولَى ، لأنّ اهتمام أميرِ المؤمنين عليه السلام بالأمور الدينيّة والشرعيّة فى وصاياه ومنثور كلامِه أعظمُ .

(٤٠)

الأصْـلُ :

لِسَانُ العاقِلِ وَرَاءَ قَلبِه ، وَقَلْبُ ٱلأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ .

* * *

قالَ الرضيُّ رَحمهُ اللهُ تعالى :

وَهذا مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْعَجِيبةِ الشَّرِيفَةِ ، والمُرَادُ بِه أَنَّ العاقِلَ لا يُطْلِقُ لِسَانَهُ إلا بعد مُشاوَرَة الرَّوِيَّةِ ، ومُؤَامَرَةِ ٱلفِكْرَةِ ، والأَحْمَقُ تَسْبِقُ حَذَفاتُ لسانِهِ ، وَفَلَتاتُ كَلامِهِ ، مُرَاجَعَةَ فِكْرِهِ ، وَمُماخَضَةَ رَأْيِهِ ، فَكَأَنَّ لِسانَ ٱلعاقِلِ تابِعٌ لِقَلْبِهِ ، وَكَأَنَّ قَلْبَ الأَحْمَق تابعٌ للسانه .

قالَ : وقَدْ رُوِيَ عنهُ عليهِ السَّلامُ هَذَا المَعْنَى بلفْظٍ آخَرَ ، وهُو قَوْلُهُ : « قَلْبُ ٱلأَحْمَقِ فى فِيهِ ، ولِسَانُ العَاقِلِ فى قَلْبِهِ » وَمَعْناهُما واحِدٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى العَقل والحُمق ، ونذكر هاهنا زِيادات أخرى .

* * *

[أقوال وحكايات حول الحمق]

قالوا : كلّ شىء يَعِزّ إذا قَلّ ، والعقل كلّما كان أكثرَ كان أعزّ وأغلى .

وكان عبدُ الملك يقول : أنا للعاقل المدبِر أرجَى منّى للأحمَق المُقبِل .

قيل لبعضهم : ما جِماعُ العَقل ؟ فقال : ما رأيتُـه مجتمِعا فى أحد فأَصِفَه ، وما لا يوجد كاملا فلا حدّ له .

وقال الزُّهرى : إذا أنـكرتَ عقلكَ فاقدَحه بعاقل .

وقيل : عَظمت المئونة فى عاقل متجاهل ، وجاهل متعاقل .

وقيل : الأحمق يتحفظ من كل شىء إلّا من نفسه .

وقيل لبعضهم : العقل أفضلُ أم الَجدّ ؟ فقال : العقل مِن الَجدِّ .

وخطب رجلان إلى ديماووس الحـكيم ابنته ، وكان أحدُهما فقيرا والآخر غنيا ، فزوجها من الفقير ، فسأله الإسكندر عن ذلك ، فقـال : لأنّ الغنىّ كان أحمق ، فـكنت أخاف عليه الفقر ، والفقير كان عاقلا ، فرجوتُ له الغنى .

وقال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والأحمق لا يوافق العاقل ، ولا أحمق كالعُود المستقيم الذى ينطبق على المستقيم ؛ فأمـا المعوجّ فإنه لا ينطبق على المعوجّ ولا على المستقيم .

وقال بعضهم : لأنْ أزاول أحمقَ أحبُّ إلىّ مِن أن أزاول نصف أحمق — أعنى الجـاهل المتعاقل .

* * *

واعلم أن أخبار الحمق ونوادِرهم كثيرة ، إلا أنا نذكر منها ها هنا ما يليق بكتابنا ، فإنه كتاب نزهناه عن الخلاعة والفُحْش إجلالا لمنصِب أمير المؤمنين .

قال هشام بنُ عبدِ الملك يوما لأصحـابه : إنّ حمْقَ الرّجل يُعْرَف بخصال أربع : طولِ لِحيته ، وبشاعةِ كُنْيته ، ونَقْشِ خاتمه ، وإفراط نَهمته . فدخل عليه شيخٌ طويلُ العُثْنون ، فقال هشام : أمّا هذا فقد جاء بواحدة ، فانظروا أين هو من الباقى ؟ قالوا له : ما كُنيةُ الشيخ ؟ قال : أبو الياقوت ، فسألوه عن نقش خاتمه ، فإذا هو :

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[1] فقيل له : أىّ الطعام تَشتهِى؟ قال : الدُّبّاء[2] بالزيت ؛ فقال هِشام : إنّ صاحبكم قد كَمَل .

وسَمِع عمرُ بنُ عبدِ العزيز رجلا يُنادِى آخَرَ : يا أبا العُمَرَين ؛ فقال : لو كان له عقلٌ لكَفاه أحدُهما .

وأرسَل ابنٌ لعجل بن لجيم[3] فرساً له فى حَلْبة ، فجاء سابقا ، فقيل له : سَمِّه باسمٍ يُعرَف به ، فقام ففقأ عَيْنَه وقال : قد سمّيتُه الأعوَر ، فقال شاعر يَهجُوه :

رمتْنى بنو عِجْلٍ بـداءِ أبيهـمُ ... وأىّ عبادِ الله أنْوَكُ مِن عِجْلِ !
أليسَ أبوهمْ عارَ عَيْنَ جَـوادِه ... فأضحَتْ به الأمثالُ تُضرَب بالجهلِ

وقال أبو كعب القاصّ فى قصصه : إنّ النبىّ صلّى الله عليه وآله قال فى كَبِد حمزةَ ما علمتم ، فادعوا اللهَ أن يُطعِمنا من كَبِد حمزة !

وقال مرّة فى قَصصه : اسم الذئب الّذى أكَلَ يوسفَ كذا وكذا ، فقيل له : إنّ يوسف لم يأكلْه الذئب ؟ فقال : فهذا اسمُ الذئب الّذى لم يأكل يوسفَ .

ودخل كَعبُ البَقَرِ الهاشمىّ على محمد بن عبدِ الله بنِ طاهر يعزّيه فى أخيه ، فقال له : أعظَمَ الله مُصيبةَ الأمير ! فقال الأمير : أمّا فيك فقد فَعَل ، واللهِ لقد همَمتُ أن أحلِقَ لحيتَك ؛ فقال : إنما هى لِحية الله ولِحيةُ الأمير فليفعلْ ما أَحَبَّ .

وكان عامرُ بن كُرَيز أبو عبد الله بن عامر ، مِن حَمْقَى قريش ، نظر إلى عبد الله وهو يَخطُب والناسُ يَستحسِنون كلامَه ، فقال لإنسانٍ إلى جانِبه : أنا أخرجتُه من هذا ـ وأشار إلى مَتاعه .

---

(١) سورة يوسف ١٨ . (٢) الدباء : القرع .
(٣) ورد الإسم محرفاً فى ا ، ب . وأصلحته من د ، والعقد ٦ : ١٥٦ .

ومن حَمقَى قُريش العـاصُ بنُ هشام المخزومىّ ، وكان أبو لهب قامَرَه فقمَرَه ماله ثم دارَه ، ثمّ قليلَه وكثيرَه وأهلَه ونفسَه ، فاتّخذه عبدا ، وأسلَمه قَيْنا ، فلمّا كان يومُ بَدْر بعث به بَدِيلا عن نفسه ، فقُتِل ببدر ، قتَلَه عمرُ بنُ الخطّاب ، وكان ابن عمّ أمّه .

ومِنَ الحَمْقى الأحوص بنُ جعفر بنِ عمرو بن حُرَيث ، قال له يوما مجالسوه : ما بالُ وجهِك أصفر ! أتشتـكى شيئاً ؟ فرجع إلى أهله، وقال : يابنى الخَبِيثة ، أنا شاكٍ ولاتُعلمونى! اطرَحوا علىّ الثيابَ وابعثوا إلىّ الطبيب .

ومِن حَمقَى بنى عجل حسّان بن الغَضْبان من أهل الـكُوفة ، ورِث نصفَ دار أبيه ، فقال : أريد أن أبيعَ حِصّتى من الدار ، وأشترىَ بالثمن النصفَ الباقى ، فتصيرَ الدّار كلّـها لى .

ومِن حَمْقَى قريش بكّار بنُ عبدِ الملك بنِ مروان ، وكان أبوه ينهاه أن يُجالسَ خالدَ ابنَ يزيدَ بنِ معاوية لِما يَعرِف من حُمقه ، فجلس يوما إلى خالد ، فقال خالد يعبث به : هذا والله المردّد فى بنى عبدِ مَناف ، فقال بكّار : أجَلْ ، أنا والله كما قال الأول :

* مردَّدٌ فى بنى اللَّخْناء ترديدا *

وطارَ لِبـكّار هذا بازى ، فقال لصاحب الشُّرطة : أغلِق أبوابَ دِمَشق لئـلّا يَخرج البازىّ .

ومِن حَمْقَى قُريشٍ معاوية بنُ مروانَ بنِ الحَكَم ، بينا هو واقفٌ ببابِ دمشق ينتظر أخاه عبدَ الملك على باب طحّان ، وحِمارُ الطّحّان يدور بالرّحا وفى عنقه جُلْجُل ، فقال للطّحانِ : لم جعلتَ فى عنقِ هـذا الحمار جُلجُلا ؟ فقال : ربّما أدركتْنى نَعْسة أو سآمةٌ ، فإذا لم أسمَع صوتَ الجُلجُل علمتُ أنّه قد نام ، فصِحتُ به ، فقال : أرأيتَه إن قام وحرّك رأسَه ، ما عِلْمُك به أنّه قائم ؟ فقال : ومَن لِحمارى بمِثل عَقْل الأمير !

وقال معاوية لِحَميه وقد دَخَل بأبنته تلك اللّيلةَ فافتضّها : لقد ملأتْنا ابنتُك البارحة دماً ؛ فقال : إنّها من نِسوةٍ يَخبأن ذلك لأزواجهنّ .

ومن حَمقَى قريش سليمانُ بنُ يزيدَ بنِ عبد الملك ، قال يوما : لعن اللهُ الوليدَ أخي ! فلقد كان فاجرا ، أرادني على الفاحشة ، فقال له قائل مِن أهلِه ، اسكُت وَيْحَك ، فوالله إن كان هَمّ لقد فَعَل !

وخطب سعيدُ بنُ العاص عائشة ابنةَ عثمانَ ، فقالت : هو أحمق ، لا أتزوّجه أبدا ، له بِرْذَوْنان لونُهما واحد عند الناس ، ويَحمِل مؤنةَ اثنين .

وممّن كان يُحمَّق من قريش عُتبةُ بنُ أبي سُفيانَ بنِ حرب وعبدُ الله بنُ معاوية ابنِ أبي سُفيان وعبدُ الله بنُ قيس بنِ مَخرَمة بن المطّلب وسهلُ بنُ عمرو أخو سُهَيل ابن عمرو بن العاص . وكان عبدُ الملك بنُ مروانَ يقول : أحمقُ بيتٍ في قريشٍ آلُ قيسِ ابن مَخرَمة .

ومن القبائل المشهورة بالحُمْق الأزْد ، كتب مَسلَمة بنُ عبد الملك إلى يزيدَ ابن المهلّب لمّا خرج عليهم : إنّك لستَ بصاحبِ هذا الأمر ، إنّ صاحبَه مغمورٌ موتور ، وأنت مشهور غير موتور . فقام إليه رجل من الأزْد ، فقال : قدّم ابنك مَخلَدا حتى يُقتل فتصير موتورا .

وقام رجل من الأزْد إلى عُبيد الله بنِ زياد فقال : أصلَح اللهُ الأمير ! إنّ امرأتي هلكتْ ، وقد أردت أن أتزوّج أمّها ، وهذا عَرِيفي فأعِنّي في الصّداقِ ، فقال : في كم أنتَ من العطاء؟ فقال : في سَبعِمائة ؛ فقال : حُطّوا من عَطائه أربعمائة ، يكفيك ثلاثمائة .

ومَدَح رجلٌ منهم المهلّب فقال :

نعم أميرُ الرّفقــة المهلّبْ . أبيَضُ وَضّاح كتَيْس الحُلّبْ

فقال المهلّب : حَسْبُكَ يرحمك الله !

وكان عبدُ الملك بنُ هلالٍ عندَه زِنْبيل[١] مملوءٌ حصاً للتسبيح ، فكان يسبّح بواحدة واحدة ، فإذا ملّ طرح اثنتين اثنتين ، ثم ثلاثا ثلاثا ، فإذا ازداد ملالُه قبَض قبضةً وقال: سبحانَ اللهِ عدَدك ! فإذا ضَجِر أخذ بعُرَا الزّنبيل وقلَبه ، وقال : سبحان الله بعدَدِ هذا .

ودخَل قومٌ منزلَ الخُرَيْمِيّ لبعض الأمر ، فجاء وقتُ صلاة الظهر ، فسألوه عن القِبْلة ، فقال : إنما تركتُها منذ شهر .

وحَكَى بعضُهم ، قال : رأيت أعرابياً يبكي ، فسألتُه عن سبب بكائه ، فقال : بلغني أنّ جالوتَ قتل مظلوما .

وَصَف بعضُهم أحمقَ ، فقال : يَسمَع غير ما يقال ، ويَحفَظ غيرَ ما يَسمَع ، ويكتُب غيرَ ما يَحفَظ ، ويُحدّث بغير ما يكتُب .

قال المأمونُ لثمامة : ما جَهْد البَلاء يا أبا مَعْن ؟ قال : عالمٌ يَجرِي عليه حُكْم جاهل . قال : من أين قلتَ هذا ؟ قال : حبسَني الرشيدُ عند مسرور الكبير ، فضيّق عليّ أنفاسي ، فسمعتُه يوما يقرأ: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذَّبِينَ ﴾[٢] بفتح الذال ؛ فقلت له : لا تقل أيها الأمير هكذا ، قل : ﴿ للمكذِّبين ﴾ ؛ وكسرتُ له الذال ، لأنّ المكذّبين هم الأنبياء ، فقال: قد كان يقال لي عنك : إنك قَدَرِيّ ، فلا نجوتُ إن نجوتَ الليلةَ منّي ! فعاينتُ منه تلك الليلة الموتَ من شدّة ما عذّبني .

قال أعرابيّ لابنه : يا بنيّ كن سَبُعا خالصا ، أو ذئبا حائسا[٣] ، أو كلْبا حارِسا ، ولا تكن أحمقَ ناقصا .

---

(١) الزنبيل ، بالكسر وقد يفتح : القفة أو الجراب أو الوعاء .

(٢) سورة المرسلات ١٩ . (٣) يقال ؛ يحوس الذئب الغنم ؛ أي يتخللها ويفرقها .

وكان يقال : لولا ظُلْمة الخطأ ما أشرَق نورُ الصّواب .

وقال أبو سعيد السِّيرافىّ : رأيتُ متكلِّما ببغدادَ بلغ به نقصُه فى العربيّة أنّه قال فى مجلس مشهور : إنّ العبد « مضطَرّ » بفتح الطاء ، والله « مضطِرّ » بكسرها ؛ وزعم أنّ من قال : « الله مضطَرّ عبد إلى كذا » ، بالفتح كافر ، فانظر أين بلغ به جهلُه ، وإلى أىّ رَذِيلة أدّاه نقصُه !

وصف بعضُهم إنسانا أحمقَ ، فقال : والله للحِكْمة أزلّ عن قلبه من السداد عن الأديم الدَّهين .

مرّ عمرُ بنُ الخطّاب على رُماةٍ غرَض ، فسمِع بعضَهم يقول : أخطيْتَ وأسبْتَ ؛ فقال له : مَهْ ، فإن سُوء اللّحن شرّ من سُوء الرّماية .

تضجّر عمرُ بنُ عبد العزيز من كلام رجلٍ بين يديه ، فقال له صاحبُ شُرْطتِه : قم فقد أوذِيتَ أميرَ المؤمنين ! فقال عمر : والله إنّك لأشدّ أذًى لى بكلامِك هذا منه .

ومن حَمْقَى العرب وجُهلائهم كلابُ بنُ صعصعة ، خرج إخوتُه يشترون خَيْلا ، فخرج معهم ، فجاء بعِجْل يقوده ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : فرسٌ اشتريته ؛ قالوا : ياماثق[1] ؛ هذه بقرة ، أما ترى قرْنيْها ! فرجع إلى منزله فقطَع قرْنَيها ، ثم قادها ، فقال لهم : قد أعدْتُها فرسا كما تريدون ، فأولادُه يُدْعَوْن بنى فارس البَقَرة .

وكان شَذرة بن الزِّبرِقان بن بَدْر من الحمْقى ، جاء يومَ الجمعة إلى المسجد الجامع فأخَذ بعِضادَتَى[2] الباب ، ثمّ رفع صوتَه : سلامٌ عليكم ، أيَلِج شَذرة ؟ فقيل له : هذا يومٌ لا يُستأذَن فيه ، فقال : أوَ يَلِج مِثلى على قوْم ولم يُعرَف له مكانُه .

---

(١) المائق : الأحمق .

(٢) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .

واستعمل معاويةُ عامـلا من كَلْب ، فخَطَب يوما ، فذكَرَ المجوسَ ، فقال : لعَنَهم الله ! يَنـكِحون أمّهاتِهم ، والله لو أُعطِيتُ عشرةَ آلافِ دِرْهم ما نـكحتُ أمّى ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : قبّحه الله ! أترونه لو زادوه فَعَل ! وعزَله .

وشرَدَ بعيرٌ لهَبَنّقة ـ واسمـه يزيدُ بن شَرْوان ـ فجعل يُنادِى : لمن أتى به بَعيرَان ، فقيل له : كيف تَبذُل وَيْلك بَعيرَيْن فى بَعير ! فقال لحلاوةِ الوِجْدان .

وسُرِقَ من أعرابىٍّ حمارٌ ، فقيل له : أسُرِق حمارُك ؟ قال : نَعم ، وأحمَدُ اللهَ ، فقيل له : على ماذا تَحمَده ؟ قال : كيف ! لم أكن عليه .

وخَطَب وكيعُ بنُ أبى سود[1] بخُراسانَ ، فقال : إنّ الله خَلَق السّموات والأرضَ فى ستّة أشهر ، فقيل له : إنّها ستّة أيّام ، فقال : واللهِ لقد قلتُها وأنا أستَقِلّها !

وأُجرِيَتْ خيلٌ فطَلَع فيها فَرَسٌ سابقٌ ، فجعل رجلٌ من النّظّارة يـكبّر ويَثِب من الفرَح ، فقال له رجل إلى جانبه : يافتى ، أهذا الفرس السابق لك ؟ قال : لا ولـكنّ اللّجامَ لى .

وقيل لأبى السّفّاح الأعرابىّ عند موته : أَوْصِ ، فقال : إنّا الـكرام يوم طِخْفة[2] ، قالوا : قلْ خيراً يا أبا السّفاح ، قال : إن أحبّت امرأتى فأعطُوها بعيراً ، قالوا : قل خيرا ، قال : إذا مات غلامى فهو حُرّ .

وقيل لرجل عند موته : قل لا إلـه إلا الله ، فأعرَض ، فأعادُوا عليه مرارا ، فقال لهم : أخبرونى عن أبى طالب ، قالَها عند موته ؟ قالوا : وما أنتَ وأبو طالب ! فقـال : أَرغَب بنفسى عن ذلك الشريف .

---

(١) ب : « أسود » تصحيف صوابه فى د .

(٢) طخفة : موضع فى طريق البصرة إلى مكة ؛ ويوم طخفة من أيامهم ، لبنى يربوع على المنذر بن ماء السماء

وقيل لآخَرَ عند موته : ألا تُوصِى ؟ فقال : أنا مغفورٌ لى ، قالوا : قل : إن شاء الله ، قال : قد شاءَ الله ذلك ، قالوا : يا هذا لا تدَع الوصيّة ، فقال : لابنَىْ أخيه ، يابْنَىْ حريثٍ ، ارفعا وسادِى ، واحتَفِظا بالحلّة الجِياد[1] ، فإنّما حَوْلَكما الأعادى .

وقيل : لمعلّم ابن معلّم : مالَكَ أحمَق ؟ فقال : لو لم أكن أحمقَ ؛ لكنتُ ولدَ زِناً .

(٤١)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام لبعض أصحابه فى علة اعتلها :

جَعَلَ اللهُ مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ وَيَحُتُّهَا حَتَّ الْأَوْرَاقِ ، وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ .

* * *

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وأقولُ : صدَق عليه السلام ، إنَّ المرَض لا أَجرَ فيه ، لأنه من قَبيلِ ما يُستَحَقُّ عليه العِوَضُ ؛ لأنَّ العِوَض يُستحَقُّ على ما كان فى مُقابَلة فِعْل الله تعالى بالعَبد من الآلام والأمراض وما يَجرى مَجرَى ذلك ، والأجرُ والثوابُ يُستَحَقَّان على ما كانَ فى مُقابِلِ فِعْل العبد ، فبيْنَهما فَرقٌ قد بيَّنَهُ عليه السلام كما يَقتَضيه عِلمُه الثَّاقِبُ ورأْيُهُ الصَّائب .

* * *

الشَّـرْحُ :

ينبغى أن يُحْمل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الفصل على تأويلٍ يُطابق ما تدلّ عليه العقول وألّا يُحْمل على ظاهرِه ، وذلك لأنّ المرض إذا استحقّ عليه الإنسان

العوض لم يَجُزْ أن يقال : إنّ العِوَض يَحُطّ السّيئات بنفسه ، لا على قول أصحابنا ، ولا على قول الإماميّة ، أمّا الإماميّة فإنهم مُرْجئة ، لا يَذْهَبون إلى التحابُطِ ، وأما أصحابُنا فإنّهم لا تَحابط عندهم إلا فى الثّواب والعقاب ؛ فأمّا العقاب والعِوَض فلا تَحابُط بينهما ، لأن التّحابُط بين الثواب والعقاب ، إنما كان باعتبار التنافى بينهما من حيثُ كان أحدُهما يتضمّن الإجلال والإعظام ، والآخر يتضمن الاستخفاف والإهانة ، ومحالٌ أن يكون الإنسان الواحد مُهاناً معظّما فى حالٍ واحدة ؛ ولما كان العِوَض لا يتضمّن إجلالا وإعظاما ، وإنما هو نفعٌ خالص فقط ، لم يكن منافيا للعِقاب ، وجاز أن يجتمع للإنسان الواحد فى الوقت الواحد كونه مستحقاً للعقاب والعوَض ، إمّا بأن يوفَّر العوض عليه فى دار الدنيا ، وإمّا بأن يوصَل إليه فى الآخرة قبل عِقابه ، إن لم يمنع الإجماع من ذلك فى حقّ الكافر ، وإمّا أن يُخفَّف عليه بعضُ عقابه ، ويجعل ذلك بدلا من العوَض الذى كان سبيله أن يُوَصل إليه . وإذا ثبت ذلك وَجَب أن يُجعل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على تأويل صحيح ، وهو الذى أراده عليه السلام ، لأنه كان أعرَف الناس بهذه المعانى ، ومنه تَعلّم المتكلّمون علم الكلام ، وهو أن المرض والألم يَحُطّ الله تعالى عن الإنسان المبتلَى به ما يستحقّه من العقاب على معاصيه السالِفة تفضُّلا منه سبحانه ، فلما كان إسقاط العقاب متعقّبا للمرض، وواقعا بعده بلا فَصْل ، جاز أن يُطلق اللفظ بأنّ المرض يَحُطّ السيئات ويحتّها حتّ الوَرَق ، كما جاز أن يُطْلق اللفظ بأنّ الجماع يُحبل المرأة ، وبأن سَقْىَ البَذْر الماء ينبته ، إن كان الولد والزرع عند المتكلمين وقعا من الله تعالى على سبيل الاختيار ، لا على الإيجاب ؛ ولكنه أجرى العادة ؛ وأن يفعل ذلك عقيب الجماع وعقيب سَقى البَذْر الماء .

فإن قلت : أيجوز أن يقال : إنّ الله تعالى يمرض الإنسان المستحقّ للعقاب ، ويكون إنما أمرضه ليُسقط عنه العقاب لا غير ؟

---

(١) ا : « يحط عنه السيئات » .

قلت : لا ، لأنه قادر على أن يُسقِط عنه العقاب ابتداء ، ولا يجوز إنزال الألم إلا حيث لا يمكن اقتناص العِوَض المجزى به إليه إلا بطريق الألم ، وإلا كان فعلُ الألم عَبَثا، ألا ترى أنه لا يجوز أن يستحق زيدٌ على عمرٍو ألف درهم فيضربَه ويقول : إنما أضربُه لأجعل ما يناله من ألم الضرب مُسقِطا لما أستحقّه من الدراهم عليه ؟ وتذمّه العقلاء ويسفّهونه ، ويقولون له فهلّا وهبتَها له ، وأسقطتها عنه من غير حاجة إلى أن تضربه وتؤلمه ! والبحثُ المستقصى فى هذه المسائل مذكور فى كتبي الكلاميّة ، فليرجَع إليها . وأيضا فإن الآلام قد تنزل بالأنبياء وليسوا ذَوِى ذُنوب ومَعاصٍ ليقال : إنّها تحطها عنهم .

فأمّا قوله عليه السلام : « وإنما الأجرُ فى القَوْل . . . » إلى آخر الفَصْل ، فإنه عليه السلام قَسَم أسباب الثواب أقساما ؛ فقال : لمّا كان المَرَض لا يقتضى الثواب لأنه ليس فعل المكلّف — وإنما يستحق المكلف الثواب على ما كان من فِعله — وَجَب أن يبيّن ما الذى يستحق به المكلّف الثواب ، والذى يستحق المكلف به ذلك أن يفعل فعلا إما مِنْ أفعال الجوارح ؛ وإما من أفعال القلوب ، فأفعال الجوارح إما قول باللسان أو عمل ببعض الجوارح وعبّر عن سائر الجوارح — عدا اللسان — بالأيدى والأقدام ، لأن أكثر ما يُفعل بها ، وإن كان قد يُفْعل بغيرها نحو مجامعَة الرجل زوجته إذا قُصِدبه تحصينها وتحصينه عن الزنا ، ونحو أن يُنحِّىَ حَجراً ثقيلا برأسه عن صَدْر إنسانٍ قد يَقتُله ، وغير ذلك ، وأمّا أفعال القلوب فهى العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم ، فعبّر عليه السلام عن جميع ذلك بقوله : « بصدق النية والسريرة الصالحة ، واكتفى بذلك عن تعديد هذه الأجناس .

فإن قلت : فإنّ الإنسان قد يستحق الثواب على ألّا يفعل القبيح ، وهذا يخرم الحصر الذى حصره أمير المؤمنين ؟

قلت : يجوز أن يكون يذهب مذهب أبى علىّ فى أن القادر بقدرةٍ لا يخلو عن الأخذ والتَّرك .

(٤٢)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام فى ذكر خباب :

رَحِمَ اللهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرَتِّ ! فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً ، وَهَاجَرَ طَائِعاً ، وَعَاشَ مُجَاهِدًا . طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَقَنِعَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِيَ عَنِ اللهِ !

***

الشَّرْحُ :

[خبّاب بن الأرتّ]

هو خبّاب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيدِ مَناة ابن تميم ، يكنى أبا عبد الله ـ وقيل : أبا محمد وقيل : أبا يحيى ـ أصابه سَبْىٌ فبيع بمكة[(١)] .

وكانت أمّه خَتّانة ، وخَبّاب من فقراء المسلمين وخيارهم ، وكان به مرض ، وكان فى الجاهليّة قيْنا حدادا يَعْمل السيوف ، وهو قديمُ الإسلام ؛ قيل إنه كان سادس ستة ، وشهد بَدْرا وما بعدها مِن المشاهد ، وهو معدودٌ فى المعذّبين فى الله ؛ سأله عمرُ بن الخطاب

(١) الاستيعاب : « كان قينا يعمل السيوف فى الجاهلية ، فأصابه سباء فبيع بمكة ، فاشترته أم أنمار بنت سباع الخزاعية » .

أيام خلافته : ما لقيت من أهل مكة ؟ فقال : انظُر إلى ظهرى ؛ فنظر فقال : ما رأيت كاليوم ظَهْرَ رَجل ! فقال خبّاب : أوقَدُوا لى نارا وسُحِبت[1] عليها ، فما أطفأها إلّا وَدَكُ ظَهْرِى .

وجاء خبّاب إلى عمر ، فجعل يقول : ادنُهْ ، ادنُهْ ، ثم قال له : ما أحدٌ أحقّ بهذا المجلس منك ؛ إلّا أن يكون عمّارَ بنَ ياسر . نزل خبّابٌ إلى الكوفة ، ومات بها فى سنة سبع وثلاثين ، وقيل : سنة تسع وثلاثين ، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين علىٍّ عليه السلام صِفّين ونَهْرَوانَ ، وصلّى عليه علىٌّ عليه السلام ، وكانت سنُّه يومَ مات ثلاثا وسبعين سنة ، ودُفِن بظَهْرِ الكوفة[2] .

وهو أوّل من دُفِن بظَهْرِ الكوفة ، وعبدُ الله بن خبّاب هو الذى قتلته الخوارج ، فاحتجّ علىّ عليه السلام به وطلبهم بدَمِه ، وقد تقدّم ذكرُ ذلك .

---

(١) ب : « وسخنت » ، وأثبت ما فى ا ، د ، والاستيعاب .
(٢) انظر ترجمة خباب فى الاستيعاب ١ : ٤٣٨ .

(٤٣)

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ ، لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » .

* * *

الشَّرْحُ :

جَمّاتها بالفتح : جمعُ جَمّة ، وهى المكان يجتمع فيه الماء وهذه استعارة ، والخَيْشوم : أقصى الأَنْف .

ومرادُه عليه السلام من هـذا الفصل إذكار الناس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو : « لا يُبغِضك مؤمن ، ولا يحبك منافق » ؛ وهى كلمةُ حقّ ، وذلك لأنّ الإيمان وبغضَه عليه السلام لا يَجتمعان ، لأن بغضه كبيرة ، وصاحب الكبيرة عنـدنا لا يسمّى مؤمنا ، وأمّا المنافق فهو الذى يُظهر الإسلامَ ويُبْطن الكفر ، والكافرُ بعقيدته لا يحبّ عليّاً عليه السلام ، لأن المراد من الخبر المحبّة الدّينيّة ، ومن لا يعتقد الإسـلام لا يحبّ أحداً من أهل الإسلام ، لإسلامه وجهاده فى الدّين ، فقد بان أنّ الكلمة حقّ ؛ وهذا الخبر مَرْوِىٌّ فى الصحاح بغير هـذا اللفظ : « لا يحبُّك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلّا منافق » ، وقد فسرناه فيما سبق .

(٤٤)

الأَصْلُ :

سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

***

الشَّرْحُ :

هـذا حقّ ، لأن الإنسان إذا وقع منه القبيح ثمّ ساءه ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كَفَّرَتْ توبته معصيتَه ، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب ، وحصل له ثوابُ التوبة ، وأمّا من فعل واجبا واستحقّ به ثوابا ثم خامره الإعجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه ، والتِّيه على الناس بعبادته واجتهاده ، فإنه يكون قد أَحْبط ثواب عِبادته بما شَفَعها من القبيح الذى أتاه ، وهو العُجْب والتِّيه والإدلال على الله تعـالى ، فيعود لا مُثابا ولا مُعاقبا ، لأنه يتـكافأ الاستحقاقان .

ولا ريب أنّ من حَصَل له ثواب التوبة ، وسَقط عنه عقاب المَعصية ؛ خيرٌ ممن خرج من الأمْرَين كَفافا[١] لا عليه ولا له .

---

(١) الـكفاف من الشيء ، مثله .

(٤٥)

الأَصْلُ :

قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ،وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم الكلامُ فى كلّ هذه الشِّيم والخصال ، ثم نقول ها هنا : إنّ كِبَر الهمّة خُلق مختصٌّ بالإنسان فقط ، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك ، وإنما يتجرّأ كلّ نوع منها الفعل بقدر ما فى طبعه، وعلوّ الهمة حالٌ متوسِّطة محمودة بين حالتين طرفى رذيلتين، وهما الندح ، وتسميه الحكماء التفتُّح ـ وصغر الهمة ـ وتسميه الناس الدّناءة ، فالتفتّح تأهل الإنسان لما لا يستحقه ، وصِغر الهمة تركه لما يستحقه لضعفٍ فى نفسه ، فهذان مَذْمومان ، والعدالة وهى الوَسَط بينهما محمودة ، وهى علوّ الهمة ، وينبغى أن يعلم أن المتفتح جاهلٌ أحمق ، وصغيرُ الهمة ليس بجاهل ولا أحمق ، ولكنه دنىء ضعيف قاصر ، وإذا أردت التحقيق ، فالكبير الهمّة من لا يرضى بالهمم الحيوانيّة ، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند رعاية بطنه وفرجه ؛ بل يجتهد فى معرفة صانع العالم ومصنوعاته ، وفى اكتساب المكارم الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه فى الدّنيا ، ومجاوريه فى الآخرة . ولذلك قيل : مَن عظُمتْ همّته لم يرض بقُنْية مستردّة ، وحياةٍ مستعارة ، فإن أمكنك

أن تقتنى قنية مؤبّدة ، وحياة مخلدة ، فافعل غير مكترث بقلّة مَن يَصحبك ويعينك على ذلك فإنه كما قيل :

* إذا عظم المطلوب قل المُساعد *

وكما قيل :

* طرقُ العلاء قليلة الإيناس *

وأما الكلام فى الصدق والمروءة والشجاعة والأَنَفَة والعفّة والغيرة ، فقد تقدّم كثيرٌ منه ، وسيأتى ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(٤٦)

الأصْـلُ :

الظَّفَرُ بِالْحَزمِ وَالْحَزْمُ بِإجَالَةِ الرَّأْيِ ، وَالرَّأْيُ بِتَحْصِينِ الْأَسْرَارِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى كتمان السرّ وإذاعته .

وقال الحكماء : السرّ ضربان : أحدُهمـا ما يُلقَى إلى الإنسان من حديثٍ ليُستكتَم ، وذلك إمّا لفظا كقول القائل : أكتُم ما أقولُه لك ، وإمّا حالا وهو أن يَجْهر[1] بالقول حال انفراد صاحبه ، أو يخفّض صوتَه حيثُ يُخاطبه ، أو يُخفيه عن مُجالِسيه ؛ ولهذا قيل : إذا حدّثك إنسانٌ والتَفَتَ إليه فهو أمانة .

والضرب الثانى نوعان : أحدُهما أن يكون حديثاً فى نفسك تَستقبح إشاعتَه ، والثانى أن يكون أمرا تُريد أن تفعلَه .

وإلى الأوّل أشارَ النبيّ صلّى الله عليه وآله بقوله: « مَن أتى منكم شيئاً من هذه القاذُورات فليستَتِر بستْر الله عزّ وجلّ » ، وإلى الثانى أشار من قال : « مِنَ الوَهَن والضعْفِ إعلانُ الأمر قبل إحكامه » ، وكتمانُ الضّرب الأوّل من الوَفاء ، وهو مخصوص بعوامّ الناس ، وكتمان الضّرب الثانى من المُروءة والحَزْم ؛ والنوع الثانى من نَوْعيه أخصّ بالملوك وأصحاب السياسات .

قالوا : وإذاعة السرّ من قلّة الصبر ، وضِيق الصّدر ، ويُوصَف به ضَعَفة الرّجال

(١) ب : « يحدث » .

والنّساء والصّبيان . والسبب فى أنّه يَصعُب كِتمانُ السرّ أنّ للإنسان قوّتين : إحدَاهما آخِذةٌ ، والأخرَى مُعطِيَة ، وكل واحدةٍ منهما تتشوّق إلى فعلِها الخاصّ بها ، ولولا أنّ الله تعالى وَكّل المعطية بإظهار ما عندها لما أتاك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوّد ، فعَلَى الإنسان أن يُمسِك هـــذه القوّة ولا يُطلِقها إلّا حيث يَجِب إطلاقُها ، فإنها إنْ لم تُزَمّ وتُخطَم ؛ تقحّمتْ بصاحبها فى كلّ مَهلَــكة .

(٤٧)

الأصل

احْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ .

***

الشرح :

ليس يعنى بالجوع والشِّبَع ما يتعارَفُه الناس ، وإنما المراد : احْذروا صَوْلة الكريم إذا ضِيمَ ، وامتُهِن ، واحذَرُوا صَوْلة اللئيم إذا أُكرِم . ومِثل المعنى الأوّل قولُ الشاعر :

لا يصبِر الحرّ تحتَ ضَيْمٍ ... وإنّما يَصبِر الحمارُ

ومِثلُ المعنى الثانى قولُ أبى الطيّب :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ ... وإن أنتَ أكرمْتَ اللئيم تمرّدَا[1]

(١) ديوانه ١ : ٢٨٨ .

(٤٨)

الأصـــلُ :

قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

***

الشَّـــرْحُ :

هذا مِثلُ قولهم : من لانَ استمالَ ، ومن قسا نفّر ، وما استُعبِد الُحرّ بِمِثل الإحسان إليه . وقال الشاعر :

وإنّى لوَحْشِىٌّ إذا ما زَجَرْتَـنى ... وإنّى إذا أَلّفتنى لألوفُ

فأمّا قولُ عُمارةَ بن عقيل :

تبحّثتمُ سُخْطى فـكدّر بحثُـكمْ ... نَخِيلةَ نفس كان صفواً ضميرُها[1]

ولم يُلبِث التخشينُ نفساً كريمةً ... على قومِها أن يَستمرّ مريرُها

وما النفسُ إلّا نطفة بقرارةٍ ... إذا لم تـكدّر كان صفواً غديرِها

فيكاد يُخالِف قولَ أمير المؤمنين عليه السلام فى الأصل ، لأنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام جَعَل أصلَ طبيعة القلوب التوحّش ، وإنّما تُستَمال لأمرٍ خارج[2] ، وهو التألّف والإحسان؛ وعُمارة جَعَل أصلَ طبيعة النّفس الصفو والسلامة ، وإنّما تتـكدّر وتَجمَح لأمرٍ خارج[2] ، وهو الإساءة والإيحاش .

---

(١) الـكامل للمبرد ١ : ٢٩ . (٢) ا : « من خارج » .

(٤٩)

الأصْـلُ :

عَيْبُكَ مَسْتو رٌ ما أَسْعَدَكَ جَدُّكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد قال الناسُ فى الجدّ فأكثروا ، وإلى الآن لم يتحقّق معناه ؛ ومن كلام بعضِهم : إذا أقبـل البَخْت باضَت الدَّجاجة على الوَتَد ، وإذا أدبَر البَخْت أسعِرَ الهـاونُ فى الشّمس .

ومن كلام الحكماء : إنّ السعادةَ لتَلحظ الحجَر فيُدعَى رَبّا .

وقال أبو حيّان : نوادر ابن الجصّاص الدالّة على تغفّله وبَلَهِه كثيرة جـدّا ، قد صُنّف فيها الكُتُب . مِنْ جملتها أنّـه سمع إنسانا يُنشِد نَسيباً فيه ذِكرُ هِند ، فأنكر ذلك ، وقال : لا تذكروا حماةَ النبيّ صلّى الله عليه وآله إلّا بخيرٍ ، وأشياء عجيبة أظرَف من هذا . وكانت سعادتُـه تُضرَب بها الأمثال ، وكثرةُ أمواله التى لم يَجتمِع لقارونَ مِثلها . قال أبو حيّان : فكان الناسُ يَعجَبون من ذلك ، حتّى أنّ جماعةً من شيوخ بَغـداد كانوا يقولون : إنّ ابنَ الجصّاص أعقَلُ الناس ، وأحزَم الناس ، وإنّـه هو الّذى ألحَم الحالَ بين المُعتضِد وبين خمارَوَيْه بنِ أحمـدَ بنِ طُولُون ، وسَفَر بينهما سِفارةً عجيبة ، وبَلَغ من الجهتَين أحسنَ مَبلَغ ؛ وخَطَب قَطرَ النَّدَى بنت خمارويْـه للمعتضِد ، وجهّزها من مصرَ

على أجمَل وَجْه وأعلى ترتيب ، ولـكنّه كان يَقصِد أن يتغافَل ويَتجاهَل ويُظهِر البَلَه والنّقص ، يَستبقى بذلك مالَـه ، ويَحرُس به نِعمتَه ، ويَدفَع عنــه عينَ الـكمال ، وحَسَد الأعداء .

قال أبو حيّان : قلتُ لأبى غسّانَ البَصْرىّ : أظنّ ماقاله هؤلاء صحيحا ، فإنّ المتضِد مع حَزْمه وعقلِه وكمالِه وإصابةِ رأيه ما اُختاره للسِّفارة والصّلح إلّا والمرجوُّ منه فيما يأتيه ويستقبِلُه من أيّامه نظير ما قد شُوهِد منه فيما مَضَى من زمانه ؛ وهل كان يجوز أن يصلُح أمرٌ قد تَفاقَم فسادُه وتَعاظَم واشتدّ برسالةِ أحمَقَ ، وسِفارةِ أخرَق ! فقال أبو غسّان : إنّ الجَدّ يَنسَخ حالَ الأخرق ، ويستُر عَيْبَ الأحمَق ، ويَذُبّ عن عِرض المتلطِّخ ، ويقرِّب الصوابَ بمنطقه ، والصحّةَ برأيه ، والنجاحَ بسَعْيه ؛ والجَد يستخدم العقلاء لصاحبــه ، ويَستعمِل آراءَهم وأفـكارَهم فى مَطالِبه ، وابنُ الجصّاص على ماقيل وروى وحدّث وحكى ، ولـكنْ جَدّه كفاه غائلَةَ الحُمْق ، وحَماه عَواقبَ الخُرْق ، ولو عرفت خَبْط العاقل وتعسّفه وسوءَ تأتّيه وانقطاعه إذا فارقه الجدّ ، لعَلِمت أنّ الجاهلَ قد يصيب بجَهله مالا يُصيبُ العالِم بعِلْمه مع حِرْمانه .

قال أبو حيّان : فقلت له : فما الجَدّ ؟ وما هذا المعنى الّذى علقتْ عليه هذه الأحكامُ[1] كلّـها ؟ فقال : ليس لى عنه عبــارة معيّنة ، ولـكن لى به عِلمٌ شافٍ ، استفدتُه بالاعتبار والتّجربة والسّماع العريض من الصّغير والـكبير ، ولهذا[2] سُمِـع من امرأةٍ من الأعراب تُرقِص ابناً لها فتقول له : رزَقَك الله جَدًّا يَخدمُك عليــه ذوُو العقُول ، ولا رَزَقك عَقْلا تَخدُم به ذوى الجدُود .

---

(١) د : « الأحوال » .   (٢) ا : « وقد سمع » .

(٥٠)

الأصل :

أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقوبَةِ .

***

الشرح :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنِع فى العَفْو والحِلْم .

وقال الأحنف : ما شىء أشدّ اتّصالا بشىء من الحِلْم بالعِزّ .

وقالت الحُكماء : ينبغى للإنسان إذا عاقَبَ من يستحقّ العقوبة ، ألّا يكون سَبُعا فى انتقامه ، وألّا يعاقِب حتّى يزول سلطانُ غَضَبه ، لئلا يُقدِم على ما لا يجوز ، ولذلك جَرَتْ سُنّة السلطان بحَبْس المُجرم حتّى يَنْظُر فى جُرْمه ، ويُعيدَ النّظر فيه .

وأُتِى الإسكندرُ بمُذْنِبٍ فصَفَح عنه ؛ فقال له بعضُ جلسائه : لو كنتُ إياك أيُّها المَلك لقتلتُه ؛ قال : فإذا لم تكن إيّاى ولا كنتُ إيّاك لم يُقتَل .

وانتَهى إليه أنّ بعضَ أصحابه يَعيبه ، فقيل له : أيّها المَلِك، لو نَهَكْتَه عقوبةً ! فقال: يكون حينئذٍ أبسَطَ لِسانًا وعُذْرا فى اجتنابى .

وقالت الحكماء أيضاً : لذّة العَفْوِ أطيَبُ من لَذّة التّشفّى والانْتقام ، لأنّ لذّة العَفْو يَشفَعها حميدُ العاقبة ، ولذّة الانتقام يَلحَقها ألمُ النّدم . وقالوا : العقوبة ألأَمُ حالات ذِى القُدْرة وأدْناها ، وهى طَرَفٌ من الجَزَع ، ومَنْ رَضِىَ ألّا يكون بَينَه وبين الظالم إلّا سِترٌ رقيقٌ فلينتَصِف .

(٥١)

الأصل :

السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً ، فَإِذَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ .

* * *

الشرح :

يُعجبنى فى هذا المعنى قولُ ابنِ حَيُّوس :

إنِّى دعوتُ نَدَى الكِرامِ فلم يُجِبْ ... فلَأَشْكُرَنَّ نَدًى أَجَابَ وما دُعِى

ومن العجائِب والعَجائبُ جَمَّةٌ ... شكرٌ بَطِىءٌ عن نَدَى المتسرِّعِ

وقال آخَر :

ما اعتاضَ باذِلُ وجهِهِ بسؤالِه ... عِوَضًا ولو نَالَ الغِنَى بسؤالِ

وإذا النَّوالُ إلى السؤالِ قَرَنْتَهُ ... رَجَحَ السؤالُ وخَفَّ كلُّ نَوالِ

(٥٢)

الأصْـلُ :

لا غِـنَى كالعَقْلِ ، ولا فَقْرَ كالجهْـلِ ، ولا مِيرَاثَ كالأَدَبِ ، ولا ظَهِيرَ كالمُشَاوَرَةِ .

***

الشَّـرْحُ :

رَوَى أبو العبّاس في "الكامل" عن أبي عبـد الله عليه السلام أنه قال : خمسٌ من لم يكنّ فيه لم يـكن فيه كثيرُ مستمتَع : العقلُ ، والدّينُ ، والأدب ، والحيـاء ، وحُسن الُخلق .

وقال أيضا : لم يُقسم بين الناس شيء أقلّ من خمس : اليقين ، والقناعة ، والصبر ، والشـكر ، والخامسة الّتي يكمُل بها هذا كلّـه العقل .

وعنه عليه السلام : أوّل ما خَلَق الله العقل ، قال له : أقبل ، فأقبل ؛ ثم قال له : أدْبر ، فأدبر ، فقال : ما خلقتُ خلقا أحبَّ إليّ منك ، لك الثواب ، وعليك العقاب .

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وآله : إن الله ليُبغِض الضعيف الذى لا زَبْرَ له ، قال : الزَّبْر : العقل .

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما قسم اللهُ للعباد أفضلَ من العقل ، فنومُ العاقل أفضلُ من سَهَر الجاهل ، وفِطرُ العاقل أفضل من صَوْم الجـاهل ، وإقامةُ العاقل أفضلُ من شخوص الجاهـل ، وما بعث الله رسولًا حتى يَستـكمل العقل ،

وحتى يكون عقله أفضل من عقول جميع أمّته ، ومايُضْمره فى نفسه أفضلُ من اجتهاد جميع المجتهدين ، وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتى عَقَل عنه ، ولا يبلُغ جميعُ العابدين فى عباداتهم ما يَبلُغه العاقل ، والعقلاء هم أولُو الألباب ، الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

قال أبو العبّاس : وقال رجل من أصحاب أبى عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول ، بل روى[1] مرفوعا : إذا بلغكم عن رجلٍ حُسن الحال فانظروا فى حُسْنِ عَقلِه ، فإنما يُجازى بعقله . يابن رسولِ الله ، إن لى جارا كثيرُ الصَّدَقة ، كثيرُ الصلاة ، كثير الحجّ ، لا بأس به ! فقال : كيف عقله ؟ فقال : ليس له عَقْل ؛ فقال : لا يرتفع بذاك منه .

وعنه عليه السلام : ما بعَثَ الله نبيّا إلّا عاقلا ، وبعضُ النبيّين أرجَحُ من بعض ، وما استخلف داودُ سليمان عليه السلام حتى اختبر عَقْله ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فمكث فى مُلكه ثلاثين سنة .

وعنه مرفوعا : صديقُ كلِّ امرئٍ عقله ، وعدوّه جهله .

وعنه مرفوعا : إنا معاشرَ الأنبياء نكلِّم الناسَ على قَدْر عقولهم .

قال أبو العباس : وسئل أبو عبد الله عليه السلام : ما العقل ؟ فقال : ماعُبِد به الرَّحمٰن ، واكتُسِبت به الجِنان .

قال : وقال أبو عبد الله : سُئل الحسن بنُ علىّ عليه السلام عن العقل ، فقال : التجرُّع للغُصّة ، ومداهنة الأعداء .

قلت : هذا كلامُ الحسن عليه السلام ، وأنا أقطع بذلك .

---

(١) ا : « وروى » .

قال أبو العبّاس : وقال أبو عبد الله : العاقل لا يُحدِّث من يخافُ تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منْعه ، ولا يثق بمن يخاف غدره ، ولا يرجو من لا يوثق برجائه .

قال أبو العبّاس : ورُوِى عن أبى جعفرٍ عليه السلام ، قال : كان موسى عليه السلام يُدنى رجلا من بنى إسرائيل لطول سجوده ، وطُولِ صَمْتِه ، فلا يكاد يذهب إلى موضعٍ إلا وهو معه ، فبينا هو يوما من الأيام إذ مرّ على أرض مُعْشبة تَهتزّ ، فتأوّه الرجلُ ، فقال له موسى :على ماذا تأوّهتَ ؟ قال: تمنيت أن يكون لربى حمارٌ وأرعاه[1] ها هنا ، فأكبَّ موسى طويلاً ببَصَره إلى الأرض اغتماما بما سمِع منه، فانحطّ عليه الوَحْى ، فقال: ما الذى أنكرت من مقالة عبدى ! إنما آخُذ عِبادى على قَدْر ما آتيتُهم .

قال أبو العبّاس : ورُوى عن على عليه السلام : هَبَط جبرائيلُ عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويَدَع اثنتين ، وهى : العقل ، والحياء ، والدين ؛ فاختار العقل ، فقال جبرائيل للحياء والدين : انصرفا ؛ فقالا : إنّا أُمِرْنا أن نكون مع العقل حيث كان ، فقال : فشأنَكما ! ففازَ بالثلاث .

***

فأما قوله عليه السلام : « ولا ميراثَ كالأدب » فإنى قرأتُ فى حِكَم الفُرس عن بُزُرجُمِهْر : ماورّثت الآباءُ أبناءها شيئاً أفضل من الأدب ، لأنها إذا ورّثتها الأدب اكتسبتْ بالأدب المال ، فإذا ورّثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل ، وقعَدَتْ صِفرا من المال والأدب .

قال بعض الحكماء : من أدّب ولدَه صغيرا ، سُرَّ به كبيرا .

وكان يقال : مَن أدّب ولده أرغم حاسدَه .

وكان يقال : ثلاثةٌ لا غُرْبةَ معهنّ : مجانبة الرِّيَب ، وحسُن الأدب ، وكفُّ الأذى .

---

(١) د : « أرعاه » .

وكان يقال : عليكم بالأدب ، فإنه صاحبٌ فى السفر ، ومؤنسٌ فى الوَحدة ، وجمالٌ فى المحفل ، وسببٌ إلى طلب الحاجة .

وقال بُزُرْجُمِهر : مَن كثُر أدبُه كثُر شرَفُه وإن كان قبلُ وَضيعا ، وبَعُد صِيته وإن كان خاملا ، وساد وإن كان غريبا ، وكثرت الحاجةُ إليه وإن كان مُقِلّا .

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه : ما خيرُ ما يُرزقه العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ؛ قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : أدبٌ يتحلّى به ، قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : مالٌ يَستتِر به ؛ قال : فإن عَدِمَه ؛ قال : صاعقة تُحْرِقه فتُريحُ منه العباد والبلاد .

وقيل لبعض الحكماء : متى يكون العلم شرًّا من عَدمه ؟ قال : إذا كثُر الأدب ونَقَصَت القريحة — يعنى بالقريحة العقل .

فأما القول فى المَشُورة فقد تقدّم ، ورُبّما ذكرْنا منه نُبذاً فيما بعد .

(٥٣)

الأصْـلُ :

الصَّبْرُ صَبْرَان : صَبْرٌ عَلَى مَا تَـكْرَهُ ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ .

***

الشَّـرْحُ :

النوع الأول أشقّ من النوع الثانى ، لأن الأول صبرٌ على مَضرّة نازلة ، والثانى صبرٌ على محبوب متوقّـع لم يحصل ، وقد تقدم لنا قول طويل فى الصبر .

سُئل بُزُرْجمهر فى بليّته[1] عن حاله ، فقال : هوّن علىّ ما أنا فيه فـكْرى فى أربعة أشياء : أولها أنّى قلت : القضاء والقدَر لابدّ من جريانهما ، والثانى أنّى قلت : إن لم أصبر فما أصنع ! والثالث أنّى قلتُ : قد كان يجوز أن تـكون المِحْنة أشدَّ من هذه ! والرابع أنى قلت : لعلّ الفرج قريب !

وقال أنو شرْوان : جميعُ أمر الدنيا منقسم إلى ضربين لا ثالث لهما : أمّا ما فى دفعه حيلة فالاضطراب دواؤه ، وأما ما لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه .

---

(١) د : « بلواه » .

(٥٤)

الأصـل :

الْغِنَى فِي الغُرْبَةِ وَطَنٌ ، والفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ .

***

الشـرح :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنع فى الفَقْر والغنى ومدحِهما وذمّهما على عادتنـا فى ذِكر الشىء ونقيضِه ، ونحن نذكرُ هاهنا زيادةً على ذلك .

قال رجلٌ لبقراط (١) : ما أشدّ فقركَ أيّها الحـكيم ؟ قال : لو عرفتَ راحةَ الفَقْر لشَغَلك التوجّع لنفسك عن التوجّع لى ؛ الفَقْر مَلِك ليس عليه مُحاسَبَة.

وكان يقال : أضعفُ الناس من لا يحتمِل الغنى .

وقيل للـكِنْدِى : فلانٌ غنىّ ؟ فقال : أنا أعلم أنّ له مالا ، ولـكنى لا أعلم : أغنىٌّ هو أم لا ! لأننى لا أدرى كيف يعمل فى ماله !

قيل لابن عمر : توفى زيد بن ثابت وترك مائة ألف درهم ، قال : هو تركها لـكنّها لم تتركه .

وقالوا: حسبك من شرَف الفقر أنك لا ترَى أحدا يعصى الله ليفتقر؛ أخذه الشاعرُ فقال:

يا عائبَ الفقرِ ألا تَزدَجِرْ عَيبُ الغِنَى أكبرُ لو تعتبِرْ
إنّك تَعصِى اللهَ تبغِى الغِنَى وليس تَعصِى اللهَ كى تَفتَقِرْ

وكان يقال : الحلال يَقْطُر ، والحرام يَسِيل .

---

(١) ا : « سقراط » .

وقال بعض الحكماء : ألا تَرَون ذا الغِنَى ما أدوَمَ نَصَبه ، وأقلَّ راحتَه ، وأخسّ من ماله حظّه ، وأشدّ من الأيام حذَره ، وأغرَى الدهرِ بنقصه وثَلْمه ! ثمّ هو بين سلطان يرعاه ، وحقوقٍ تسترعيه ، وأكفاء يُنافِسونه ، ووَلَدٍ يودّون موتَه ، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء ، ومن أكفائه الحسَد ، ومن أعدائه البَغى ، ومن ذَوِى الحقوق الذّم ، ومن الوَلَد المَلالَة وتمنّى الفقْد ، لا كَذِى البُلْغَة قَنع فدامَ له السرور ، ورَفَض الدنيا فسَلِم من الحسَد ، ورَضِيَ بالكَفاف فكُفِيَ الحقوق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥٥)

الأصْلُ :

الْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

قال الرضى رحمه الله تعالى : وقد روى هذا الكلام عن النبى صلى الله عليه وآله :

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرْنا نُكتاً جليلةَ المَوْقع فى القَناعة فيما تقدّم ونَذكُرها هنا زيادةً على ذلك .

فمن كلام الحكماء : قاوم الفقرَ بالقناعة ، وقاهِر الغِنَى بالتعفّف ، وطاولْ عَناءَ الحاسِد بحُسْن الصُّنْع ، وغالِب الموتَ بالذِّكر الجميل .

وكان يقال : الناسُ رجلان واجِدٌ لا يَكتَفِى ، وطالِبٌ لا يَجِد ، أخَذَه الشاعر فقال :

وما الناسُ إلا واجدٌ غيرُ قانعٍ بأرزاقِه أو طالبٌ غيرُ واجِدِ

قال رجل لبقراط[١] ورآه يأكُل العُشْب[٢] : لو خدمتَ المَلِك لم تَحتجْ إلى أن تأكل الحشيشَ ، فقال له : وأنتَ إنْ أكلتَ الحشيشَ لم تَحتجْ أن تَخدِم المَلِك !

---

(١) ا ، ب : « سقراط » . (٢) د : « عشبا » .

(٥٦)

الأصْلُ :

المَالُ مادَّةُ الشَّهَوَاتِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم لنا كلامٌ في المال مَدْحا وذَمّا .

وقال أعرابيّ لبَنِيهِ : اجمَعوا الدراهم فإنّها تُلبِس اليَلْمَقَ ، وتطعِم الجرْدَق [١] .

وقال أعرابيّ وقد نَظَر إلى دينار : قاتَلَكَ اللهُ! ما أصغَر قمّتَك ، وأكبَر همّتَك! .

ومن كلام الحكماء : ما اخترتَ أن تَحيَا به فمت دونَهُ .

سئل أفلاطونُ عن المال ، فقال : ما أقولُ في شيء يُعطِيه الحظّ ويَحفَظه اللّؤمُ ، ويبلِعُه الكَرَمُ !

وكان يقال : ثلاثة يؤثِرون المالَ على أنفُسِهم: تاجرُ البَحْر ، والمقاتِل بالأجْرة، والمرتَشِي في الحُكْم ، وهو شرّهم ؛ لأنّ الأوّلَين ربّما سَلِما ، ولا سلامةَ للثالث من الإثم .

ثم قالوا : وقد سمّى الله تعالى المالَ خَيْرا في قوله : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [٢] ، وفي قوله : ﴿ وإنّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [٣] .

كان عبدُ الرحمن بنُ عَوْف يقول : حبّذا المـال ، أصُون به عِرْضي ، وأقرضُه ربّي

(١) اليلمق : القباء المحشو ؛ وهو بالفارسية : « يلمه » والجردق : الرغيف ؛ فارسية أيضا .

(٢) سورة البقرة ١٨٠ . (٣) سورة العاديات ٨ .

فيضاعفَه لى . وقالوا فى ذمّ المال : المالُ مِثلُ الماء غادٍ ورائح ، طبعُه كطَبْع الصّبى لا يُوقَف على سببِ رضاه ولا سُخْطه . المالُ لا ينفعك ما لم تُفارِقْه .

وفيه قال الشاعر :

وصاحبِ صِدقٍ ليس يَنفَع قربُـه   ولا وُدُّه حـتّى تُفارِقَه عَمْـدا

وأَخَذ هذا المعنى الحريرىّ فقال :

وليس يُغنى عنك فى المَضايِقِ   إلا إذا فَرّ فِرَارَ الآبِقِ

وقال الشاعر :

ألم ترَ أنّ المـال يُهْلِك ربَّـه   إذا جَمّ آتِيـه وسُدَّ طَرِيقُهُ

ومَن جاوزَ البَحْر الغَزِيرَ بقَحْمَةٍ   وسَدّ طريقَ المـاء فهو غَرِيقُهُ

(٥٧)

الأصْـلُ :

مَنْ حَذَّرَكَ ، كَمَنْ بَشَّرَكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا مِثلُ قولِهم : اتّبع أمرَ مُبْكياتِك ، لا أمرَ مُضْحِكاتك[1] . ومِثْلُه : صديقك من نهاكَ ، لا من أغراكَ . ومثلُه : رَحِم الله امرأً أهدَى إلىّ عيوبى .

والتحذير هو النّصح ، والنّصح واجب ، وهو تعريفُ الإنسان ما فيه صَلاحُه ، ودفع المَضَرّة عنه ، وقد جاء فى الخبر الصّحيح : « الدِّين النصيحة » ، فقيل : يارسول الله ، لمن؟ فقال : « لعامّة المسلمين » . وأوّل ما يجب على الإنسان أن يُحذِّر نفسَه وينَصَحها ، فمن غَشّ نفسَه فقلّما يُحذِّر غيرَه وينصَحُه ، وحَقّ من اُستنُصح أن يَبذُل غايةَ النُّصح ولو كان فى أمرٍ يضرّه ، وإلى ذلك وقعتِ الإشارة فى الكتاب العزيز بقوله سبحانه: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾[2] ، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾[3] .

ومعنى قوله عليه السلام « كمن بشّرك » أى ينبغى لك أن تُسَرّ بتحذيره لك ، كما تُسَرّ لو بشّرك بأمرٍ تحبّه ، وأن تَشكُرَه على ذلك كما تشكُره لو بشّرك بأمرٍ تحبّه، لأنّه لو لم يكن يُريدُ بك الخير لما حَذّرك من الوُقوع فى الشرّ .

---

(١) الميدانى ١ : ٣٠ ، ولفظه هناك : « أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك » .

(٢) سورة النساء ١٣٥ .   (٣) سورة الأنعام ١٥٢ .

(٥٨)

الأصْـلُ :

اللِّسَانُ سَبُعٌ ، إنْ خُلِّىَ عَنْهُ عَقَرَ .

* * *

الشَّـرْحُ

قد تقدم لنا كلام طويل فى هذا المعنى .

وكان يقال : إن كان فى الكلام دَرَك ففى الصّمت عافية .

وقالت الحكماء : النّطق أشرف ما خُصّ به الإنسان ، لأنّه صورتُه المعقولة الّتى باين بها سائرَ الحيوانات ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1]، ولم يقل: « وعلّمه » بالواو لأنّه سبحانه جعل قوله : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ تفسيراً لقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ؛ لا عطفاً عليه ؛ تنبيهاً على أنّ خلْقه له وتخْصِيصَه بالبيان الذى لو تُوُهِّم مرتفعا لارتفعَتْ إنسانيّته ؛ ولذلك قيل : ما الإنسانُ لولا اللّسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة ، أو صورةٌ ممثَّلة .

وقال الشاعر :

لسانُ الفَتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبْقَ إلّا صورة اللّحمِ والدَّمِ[2]

قالوا : والصّمت من حيثُ هو صَمْتٌ مَذْموم ، وهو من صفات الجمادات ، فَضْلا

---

(١) سورة الرحمن ٣، ٤.

(٢) ينسب لزهير ، من معلقته بشرح الزوزنى ٩٤ .

عن الحيوانات ، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وغيره من العُلَماء فى مَدْح الصّمت محمول على مَنْ يسىء الكلامَ فيقَعُ منه جنايات عظيمة فى أمور الدِّين والدّنيا ، كما رُوِىَ فى الخبر : إنّ الإنسان إذا أصبَح قالت أعضاؤه للسانه : اتّقِ اللهَ فينا ، فإنّك إن استقَمتَ نجوْنا ، وإن زُغْت هَلَكْنا » ، فأما إذا اعتُبر النُّطقُ والصَّمتُ بذاتَيْهما فقط ، فمُحالٌ أن يقال فى الصمت فضلٌ ، فضلا عن أن يخايَرَ ويقايَسَ بينه وبين الكلام .

(٥٩)

الأَصْـلُ :

الْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ اللَّسْبَةِ .

***

الشَّـرْحُ :

اللَّسْبة : اللّسعة ، لَسَبَتْه العَقْرب بالفتح : لسعته. ولَسِبْت العسل بالـكسر ، أى لعقْتُه .

وقيل لِسُقراط : أىُّ السِّباع أجسر ؟ قال : المرأة .

ونظرَ حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة على شجرةٍ ، فقال : ليتَ كلَّ شجرةٍ تحمل مِثل هذه الثّمرة .

مرّت بسقراط امرأةٌ وهى تتشوّف[١] ، فقالت : يا شيخ ، ما أقبَحَك ؟ فقال : لولا أنّكِ من المرايا الصَّدِئة لغَمّنى ما بان مِن قُبْح صورتى فيكِ .

ورأى بعضهم مؤدّبا يعلِّم جاريةً الـكتابة ، فقال : لا تَزِد الشرّ شرّا ، إنما تسقى سَهْما سمّا لترمِى به يوماً ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمل نارا ، فقال : نارٌ على نار ، والحامل شرٌّ من المحمول .

وتزوّج بعضهم امرأةً نحيفة ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : اخترتُ من الشرّ أقلّه .

كَتب فيلسوفٌ على بابه : ما دَخَل هذا المنزل شرٌّ قطّ ، فقال له بعضهم : اكتُبْ : « إلّا المرأةَ » .

---

(١) د : « تتشرف » .

ورأى بعضُهم امرأةً غريقــة فى الماء ، فقال : زادتالــكَدَرَ كَدَرًا ، والشرّ بالشرّ يهلِك .

وفى الحديث المرفوع : استعيــذوا بالله من شِرار النِّساء ، وكونوا من خيارهنّ على حَذَر .

وفى كلام الحــكماء : اعص هَواكَ والنساء ، وافعلْ ما شئت .

دعا بعضهم لصاحبه ، فقال : أماتَ اللهُ عدوَّك ؟ فقال : لو قلت : زوّج الله عدوّك ، لــكان أبلغ فى الانتقام !

ومن الــكنايات المشهورة عنهنّ : « سِلاحُ إبليس » .

وفى الحديث المرفوع : « إنهنّ ناقصاتُ عَقْلٍ ودِين » .

وقد تقدّم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا الــكتاب ما هو شرحٌ وإيضاح لهذا المعنى .

وجاء فى الحديث أيضا : « شاوروهنّ وخالِفوهنّ » .

وفى الحديث أيضاً : « النساء حبائلُ الشيطان»

وفى الحديث أيضاً : « ما تركتُ بعدى فتنةً أضرَّ من النِّساء على الرّجال » .

وفى الحــديث أيضاً : « المرأةُ ضِلَــع عَوْجاء إنْ دارَيْتَها استمتعت بها ، وإن رُمْت تقويمها كسَرْتَها » وقال الشاعر فى هذا المعنى :

هى الضِّلَع العَوْجاء لستَ تقيمُهــا ... ألَا إنّ تقويمَ الضّلوعِ انكِسارُها
أيجمعن ضَعفاً واقتداراً على الفتى ... أليسَ عجيباً ضَعفُها واقتِــدارُها ؟

ومن كلام بعض الحــكماء : ليس ينبغى للعاقل أن يمدح امرأةً إلّا بعد موتها .

وفى الأمثال: لا تَحمَدنّ أَمَةً عامَ شِرائها ، ولا حُرّةً عام بنائها .

ومن كلام عبد الله المأمون : إنهن شرٌّ كلُّهن ، وشرّ ما فيهن ألّا غِنًى عنهن .

وقال بعضُ السّلف : إنّ كيدَ النّساء أعْظمُ من كيد الشيطان ، لأن الله تعالى ذكر الشيطان ، فقال : ﴿ إنّ كيدَ الشّيطان كان ضعيفا[١] ﴾ .

وذكر النساء فقال : ﴿ إنه من كَيدكُنّ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾[٢] .

وكان يقال : من الفواقِر امرأة سَوْء إن حَضَرْتَها لسَبَتْك ، وإن غِبتَ عنها لم تأمَنْها .

وقال حكيم : أضرّ الأشياء بالمال والنفس والدّين والعقل والعِرض شِدّة الإغرام بالنساء؛ ومن أعظم ما يبتلى به المغرَم بهنّ أنه لا يقتصر على ما عنده منهنّ ولو كنّ ألفا ، ويَطمَح إلى ما ليس له منهنّ .

وقال بعض الحكماء : مَن يُحصى مساوئَ النساء ! اجتمع فيهنّ نَجاسةُ الحيض والاستحاضة ، ودم النِّفاس ، ونَقْصُ العقل والدين ، وتَرْك الصوم والصلاة فى كثير من أيّام العمر ، ليست عليهن جماعة ولا جُمُعة ، ولا يسلَّم عليهنّ ، ولا يكون منهنّ إمامٌ ولا قاض ولا أمير ولا يسافرن إلّا بوَلِيّ .

وكان يقال : ما نهِيَت امرأةٌ عن أمر إلّا أتته .

وفى هذا المعنى يقولُ طُفَيل الغَنَوىّ :

إنّ النساءَ كأشْجارٍ نَبَتْنَ معاً ... هُنّ المُرَارُ وبعضُ المُرّ مأكولُ

إنّ النساءَ متى يُنْهَيْنَ عن خُلُقٍ ... فإنه واجبٌ لا بدّ مفعولُ

---

(١) سورة النساء ٧٦ .   (٢) سورة يوسف ٢٨ .

(٦٠)

الأصْلُ :

إِذَا حُيِّيتَ بِتَحِيَّةٍ فَحَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَإِذَا أُسْدِيَتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافِئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا ، وَالفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِئ .

* * *

الشَّرْحُ :

اللفظة الأولى من القرآن[1] العزيز ، والثانية تتضمّن معنًى مشهورا .

وقولُه : « والفَضْل مع ذلك للبادئ » ، يقال فى الكَرَم والحثّ على فِعل الخَيْر .

ورَوَى المدائنيّ ، قال : قَدِم على أسدِ بنِ عبدِ الله القُشَيْرِيّ بخراسانَ رجلٌ ، فدخلَ مع الناس ، فقال أصلَح الله الأمير ! إنّ لى عنـدك يداً ؛ قال : وما يَدُك ؟ قال : أخذتُ بركابك يـومَ كذا قال : صدَقْتَ ؛ حاجَتَك ؛ قال : تولّينى أَبِيوَرْد ؛ قال : لِمَ ؟ قال : لأكسَب مائةَ ألف دِرْهم ؛ قال : فإنّا قد أمَرْنا لك بها السّاعة ، فتكون قد بلّغناكَ ما تحبّ ، وأقرَرْنا صاحبَنا على عمَله ، قال : أصلَح اللهُ الأمـير ! إنّك لم تَقض ذِمامى ؛ قال : ولِمَ ؛ وقـد أعطيتُك ما أمّلت ؟ قال : فأين الإمارة ؟ وأين حُبّ الأمرِ والنّهى ! قال : قد ولّيتُك أَبِيوَرْد ، وسوّغتُ لك ما أَمرتُ لك به ، وأعفيْتُك من المحاسَبة إن صرفْتُك عنها ؛ قال : ولِمَ تصرِفُنى عنها ولا يـكون الصّرف إلّا مِنْ عَجْز أو خِيانة ،

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾

وأنا برىء منهما ؟ قال : اذهبْ فأنتَ أميرُها مادامتْ لنا خُراسان ؛ فلم يزل أميرا على أبيوَرْدَ حتّى عُزِل أسد .

قال المدائنىّ : وجاء رجلٌ إلى نَصْر بنِ سَيّار يَذكُر قرابةً[1] ، قال : وما قَرابتُك ؟ قال : ولدتْنى وإيّاكَ فُلانة ! قال نصر : قرابة عَوْرة ، قال : إنّ العَوْرة كالشَّنّ البالى ، يَرقَعه أهله فينتفعون به ؛ قال : حاجَتك ؛ قال : مائة ناقة لاقِح ، ومائة نَعْجة رُبَّى ـ أى معها أولادُها ـ قال : أمّا النِّعاج فخُذْها ؛ وأمّا النُّوق فنأمرُ لك بأثمانها .

ورَوَى الشَّعبىّ ، قال : حضرتُ مجلسَ زِياد وحضرَه رجلٌ فقال : أيّها الأمير ، إنّ لى حُرْمةً أفأذكرها ؟ قال : هاتِها ، قال : رأيتُك بالطائف وأنتَ غُلَيِّم ذو ذُؤابة ، وقد أحاطت بك جماعةٌ من الغِلْمان ، وأنت تركُض هذا مرّةً برجْلِك ، وتَنطَح هذا مرّةً برأسك ، وتَكدِم مرّةً بأنيابك ، فكانوا مرّة ينثالون عليك، وهذه حالُهم ؛ ومرّة يَندّون عنك وأنت تَتْبَعُهم ؛ حتّى كاثَروك واستَقوَوْا عليك ، فجئتُ حتّى أخرجْتُك من بينهم وأنت سَليم وكلُّهم جريح ؛ قال: صدقت ، أنت ذاك الرجل ! قال : أنا ذاك ؛ قال حاجَتك، قال : الغِنَى عن الطّلب ؛ قال : يا غلام ، أعطِه كلّ صَفْراء وبَيْضاء عندَك ، فنظر فإذا قيمةُ كلّ ما يَملِك ذلك اليوم من الذّهب والفضّة أربعةٌ وخمسون ألف دِرْهَم . فأخَذَها وانصَرَف، فقيل له بعد ذلك : أنتَ رأيت زِيادا وهو غلام بذلك الحال ؟ قال : إى واللهِ ، لقد رأيتُه وقد اكتَنَفَه صبيّان صغيران كأنّهما من سِخالِ المَعز ، فلولا أنّى أدركتُه لظننتُ أنهما يأتيان على نفسه .

وجاء رجلٌ إلى معاويةَ وهو فى مجلس العامّة ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّ لى حُرمةً[2]، قال : وما هى ؟ قال : دنوتُ من ركابِك يومَ صِفِّين ، وقد قربت فرسُك لتفرّ ، وأهلُ

---

(١) د : « قرابته » .

(٢) د : « حرمة وذماما » .

العراق قد رأَوا الفتحَ والظَّفَر ، فقلتُ لك : واللهِ لو كانت هندُ بنتُ عُتبةَ مكانَك ما فرّت ولا اختارت إلّا أن تموت كريمةً أو تعيشَ حميدة ، أين تفرّ وقد قلّدَتْك العربُ أزِمّة أمورِها ، وأعطتْكَ قِيادَ أعِنّتها ! فقلتَ لى : اخفِض صوتَك لا أمَّ لك ! ثمّ تماسَكْت وثُبْتَ وثابَتْ إليكَ حماتك ، وتمثّلتَ حينئذٍ بشعرٍ أحفَظ منه :

وقَوْلِي كلَّما جَشَأَتْ وجاشَتْ مكانَكِ تُحْمَدِى أو تَسْتَرِيحى(١)

فقال معاوية : صدقتَ ، وَدِدْتُ أنّك الآن أيضا خَفّضتَ من صوتِك ؛ يا غلام أعطِه خمسين ألفَ دِرهم ، فلو كنتَ أحسنتَ فى الأدب لأحسَنّا لك فى الزيادة .

---

(١) لابن الإطنابة ؛ الكامل ٤ : ٦٨ ، وقبله :

أبَتْ لِى عِفّتِى وَأَبَى بَلَائِى وأخذِى الحمدَ بالثّمَنِ الرَّبيحِ
وإجشامِى على المكروه نفسِى وَضَرْبِى هامة البطلِ المشيحِ

(٦١)

الأصْـلُ :

الشَّفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

جاء فى الحديث مرفوعاً : « اشفَعوا إلىَّ تُؤْجَروا ، ويَقضِي اللهُ على لسان نبيّه ما شاء » .

وقال : المأمونُ لابراهيمَ بن المهدىّ لمّا عفاعنه : إنّ أعظمَ يداً عندكَ مِن عَفْوى عنك أنّى لم أجرِّعك مَرارة امتنانِ الشافعين .

ومن كلامِ قابوسَ بنِ وَشْمَكِير: بزَنْد الشفِيع تُورَى نارُ النّجاح، ومِنْ كَفّ المُفيض يُنتَظَر فوزُ القِداح .

قال المبرّد : أتانى رجل يَستشفِع بى فى حاجة ، فأنشدنى لنفسه :

إنِّى قصدْتُك لا أُدْلِي بمَعرفـةٍ ولا بقُربَى ، ولـكنْ قد فَشَتْ نِعَمُكْ
فبتُّ حَـيْرانَ مَـكْروبا يؤرِّقُنِى ذُلُّ الغَريب ويغشَينى الـكَرَى كَرَمُكْ
ولو هَمَمْتَ بِغـير العُرْف ما عَلِقَتْ به يَدَاكَ ولا انقادَتْ له شِيَمُكْ
ما زِلتُ أُنكَبُ حتّى زُلزِلتْ قدَمى فاحتَلْ لتَثْبِيتها لا زُلزِلَتْ قدَمُكْ

قال : فشفعتُ له وقمتُ بأمره حتّى بلغتُ له ما أحَبَّ .

بُزُرْجُمِهر : مَن لم يستغنِ بنفسِه عن شفيعِه ووسائِله وَهَتْ قُوَى أسبابِه ؛ وكان إلى

الحرمان أقربَ منه إلى بلوغ المراد. ومِثلُه : من لم يرغب أودّاؤه فى اجتنابه لم يَحظَ بمَدْح شُفَعائه . ومِثله : إذا زرتُ الملوكَ فإنّ حَسْبى شفيعا عندهم أن يَعرِفونى .

كلّم الأحنفُ مصعبَ بنَ الزّبير فى قومٍ حَبَسهم ، فقال : أصلَحَ اللهُ الأمير ! إن كان هؤلاء حُبسوا فى باطلٍ فالحقّ يُخرجهم ، وإن كانوا حُبِسوا فى حقٍّ فالعفو يَسَعُهم ، فأَمَر بإخراجهم .

آخر :

إذا أنت لم تَعْطِفْكَ إلّا شفـاعةٌ　　فلا خيرَ فى وُدٍّ يكونُ بشافِـعِ

خرج العطاء فى أيّام المنصور ، وأقامَ الشّقرانىّ ــ من وَلَد شُقْرانَ مولَى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ــ ببابه أيّاما لا يَصل إليه عطاؤه ؛ فخَرَج جعفرُ بنُ محمّد من عند المنصور ، فقام الشّقرانىّ إليه ، فذكر له حاجتَه ، فرَحّب به ، ثم دخل ثانيا إلى المنصور ، وخرج وعطاءُ الشّقرانىّ فى كمّه فصَبّه فى كُمّه ثم قال : يا شُقْران ، إنّ الحَسَن من كلّ أحدٍ حَسَنٌ ، وإنّه منك أحسَنُ لِمكانك مِنّا ، وإن القبيحَ من كلّ أحدٍ قبيحٌ ، وهو منك أقبحُ لِمكانك منّا . فاستحسَن الناسُ ما قالَه ، وذلك لأنّ الشّقرانىّ كان صاحبَ شراب . قالوا: فانظر كيف أحسَنَ السعىَ فى استنجاز طَلِبته ، وكيف رَحّب به وأكرَمه مع معرفته بحاله ، وكيف وَعَظه ونَهاه عن المُنكَر على وجه التّعريض ! قال الزّمَخْشرىّ : وما هوَ إلّا من أخلاق الأنبياء .

كتَبَ سعيدُ بنُ حُميد شفاعةً لرجل : كتابى هذا كتابُ مُعْتَنٍ بمن كُتِب له ، واثقٍ بمن كُتِب إليه ، ولن يضيعَ حامِلُه بين الثّقة والعناية إن شاء الله .

أبو الطّيب :

إذا عَرَضَتْ حاجٌ إليه فنَفْسُه　　إلى نفسِه فيها شفيعٌ مشفعُ(١)

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٤٣ .

[محمد بن جعفر والمنصور]

كان المنصورُ مُعجَبا بحادثة محمّد بنِ جعفر بنِ عُبيد الله بنِ العبّاس ، وكان الناسُ لعظم قدرِه عندَ المنصور يَفزَعون إليه في الشّفاعات وقضاء الحاجات ، فثقُل ذلك على المنصور فحَجبَه مدّة ، ثم تتبّعَتْه نفسُه ، فحادَثَ الربيعَ فيه ، وقال : إنّه لا صبرَ لى عنه لكنّى قد ذكرتُ شفاعاتِه ، فقال الربيع : أنا أشترط ألّا يعودَ ، فكلّمَه الربيع ، فقال : نَعَم ، فمكَث أيّاما لا يشفع ، ثمّ وقف له قومٌ من قُرَيش وغيرِهم برِقاع وهو يريدُ دارَ المنصور ، فسألوه أن يأخذَ رِقاعَهم ، فقصّ عليهم القصّة ، فضرَعُوا إليه وسألوه ، فقال أمّا إذ أبَيْتم قبول العُذْر فإنّى لا أَقبِضها منكم ، ولكنْ هَلُمّوا فاجعلوها فى كُمّى ؛ فقذَفوها فى كُمِّه ، ودَخَل على المنصور وهو فى الخضراء يُشرِف على مدينة السلام وما حولَها بين البَساتين والضِّياع ، فقال له : أما ترَى إلى حُسْنها ! قال : بلى يا أميرالمؤمنين، فبارك اللهُ لك فيما آتاك ، وهنّأك بإتمام نِعمتِه عليك فيما أعطاك ! فما بَنَت العربُ فى دولة الإسلام ، ولا العَجَمُ فى سالف الأيّام ؛ أحصَنَ ولا أحسَنَ من مدينتك ، ولكن سمّجَتْها فى عينى خَصْلةٌ ، قال : ما هى ؟ قال : ليس لى فيها ضَيعة ، فضَحِك وقال : نحسِّنها فى عينِكَ ، ثلاثُ ضِياع قد أقطعْتُكَها ؛ فقال : أنتَ واللهِ يا أميرَ المؤمنين شريفُ الموارِد ، كريمُ المَصادِر ، فجعل الله باقِيَ عمرِك أكثرَ من ماضيه ؛ وجعَلَتِ الرِّقاعُ تَبدُر من كُمّيه فى أثناء كلامِه وخطابه للمنصور ، وهو يَلتفِت إليها ويقول : ارجِعْن خاسئاتٍ ، ثمّ يعود إلى حديثه، فقال المنصور : ما هذه بحَقّى عليكَ؟ ألّا أعلمْتَنى خبرَها ! فأعلَمه ، فضَحِك فقال: أبَيْتَ يابنَ معلِّم الخيرِ إلّا كَرَما ! ثم تمثّل بقول عبدِ الله بنِ معاويةَ بنِ عبد الله بنِ جعفر ابنِ أبى طالب :

لَسْنا وإنْ أحسابُنا كَمُلتْ ... يوماً على الأحساب نَتَّكِلُ[1]
نَبْنِي كما كانت أوائلُنــا ... تَبْنِي ونفعل مِثــلَ ما فعَلوا

ثمّ أخذها وتصفّحها ووقّع فيها كلّها بما طلب أصحابُها .

قال محمد بنُ جعفر : فخرجتُ من عنده وقد رَبِحْتُ وأرْبحتُ .

***

قال المبرّد لعبد الله بن يحيي بن خاقان: أنا أشفع إليك أصلحَك الله في أمر فلان، فقال له : قد سمعتُ وأطعتُ ، وسأفعل في أمره كذا، فما كان مِن نقصٍ فعليّ ، وما كان من زيادة فله ؛ قال المبرّد : أنت ــ أطال الله بقاءك ــ كما قال زُهَير :

وجارٍ سارَ معتمداً إلينا ... أجاءتْه المخافةُ والرّجاء[2]
ضمنّــا مالَه فغدَا سَلِيماً ... علينا نَقْصُه وله النَّمــاءُ

وقال دِعْبِل :

وإنّ امرأ أَسْدَى إليّ بشافــع ... إليه ويَرْجُو الشكر مِنّى لأحمَقُ[3]
شفيعُــك يا شكر الحوائج إنه ... يَصونك عن مكروهها وهو يخلق

آخر :

مَضى زَمني والناسُ يستشْفعون بى ... فهل لى إلى ليلى الغَداةَ شفيعُ !

آخر :

ونبئتُ لَيلى أرسلتْ بشفاعةٍ ... إليّ ، فهلا نفسُ ليلى شفيعُها ![4]
أأكرَمُ من لَيلَى عليّ فتبتغي ... به الجاهَ، أم كنتُ امرأً لا أطيعُها !

---

(١) في د : « كرمت » . (٢) ديوانه ٧٧ .
(٣) ديوانه ١١٢ . (٤) للمجنون ، ديوانه ١٩٥ .

آخر :

وَمَن يكُنِ الفَضْلُ بنُ يحيى بنِ خالدٍ شفيعاً له عنـــد الخليفة يَنْجَحُ

آخر :

وإذا امرؤ أَسْدَى إليك صنيعةً مِن جاهِهِ ، فكأنّها من مالِهِ

وهذا مِثلُ قولِ الآخر :

وعطاء غـــيرِكَ إنْ بَذَلْـ ـتَ عنايةً فيـــه عطاؤُكْ

ابن الرومىّ :

يَنامُ الذى استنْعاكَ فى الأمر إنه إذا أيقظ الملهوف مثلك ناماَ

كفَى العَوْدُ منك البَدْءَ فى كلّ موقفٍ وجُرِّدتَ للجُلَّى فكنتَ حُساما

فما لك تَنْبُو فى يَدِى عَنْ ضَرِيبتى ولم أرث مِنْ هَزٍّ وكنت كهاما !

(٦٢)

الأصْلُ :

أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

***

الشَّرحُ :

هذا التشبيه واقعٌ وهو صورة الحالِ لا مَحالة .

وقد أتيتُ بهذا المعنى فى رسالةٍ لى كتبتُها إلى بعض الأصدقاء تعزيةً ، فقلت : « ولو تأمّل النـاسُ أحوالَهم[1] ، وتبيّنوا مآلَهم ، لعَلِموا أنّ المقيم منهم بوَطَنِه ، والساكنَ إلى سَكَنِه ، أخو سَفَرٍ يُسرَى به وهو لا يَسْرِى ، وراكبُ بحرٍ يُجرَى به وهو لا يدْرِى » .

---

(١) ا : « فى أحوالهم » .

(٦٣)

الأصْـلُ :

فَقْدُ الْأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

فلا تَحسَبِي أنّ الغريبَ الّذى نَأَى ... ولـكنّ مَن تنأيْنَ عنه غَرِيبُ(١)

ومِثلُه قولُه عليه السلام : « الغريبُ من ليس له حبيب » .

وقال الشاعر :

أسْرَةُ المــرءِ والِداهُ وفيما ... بين حِضْنَيْهما الحياةُ تَطِيبُ(٢)

وإذا وَلَّيـا عنِ المرءِ يَوْماً ... فهْوَ فى الناس أجنَبِىٌّ غَرِيبُ

وقال آخَر :

إذا مامضَى القَرْنُ الّذى كنتَ فيهمُ ... وخُلِّفتَ فى قَرْنٍ فأنتَ غَرِيبُ(٣)

---

(١) نأى : بعد . (٢) الحضن : ما دون الإبط إلى الـكشح .

(٣) القرن : الجيل من الناس .

(٦٤)

الأصلُ :

فَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا .

***

الشَّرحُ :

قد سَبَق هذا المعنى ، وذَكَرْنا كثيراً ممّا قيل فيه .

وكان يقال : لا تطلُبوا الحوائج إلى ثلاثة : إلى عَبْد يقول : الأمْر إلى غيرى ، وإلى رجل حديثِ الغِنَى ، وإلى تاجرٍ هِمّته أن يستَرْبِحَ فى كلّ عشرين دينارا حبّة واحدة[1] .

---

(١) ساقطة من ا .

(٦٥)

الأصْلُ :

لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا نوعٌ من الحثّ على الإفضال والجود لطيف ، وقد استُعمِل كثيراً فى الهديّة والاعتذار لقِلّتها ؛ وقد تقدّم منّا قولٌ شافٍ فى مَدح السّخاء والجودِ .

وكان يقال : أفضِلْ على مَن شِئتَ تَكنْ أميرَه ، واحتَجْ إلى مَن شئتَ تكن أَسِيرَه ، واستغْنِ عمّن شئتَ تكن نَظِيرَه .

وسُئل أرِسْطو : هل من جُودٍ يستطاع أن يُتناول به كلُّ أحد ؟ قال : نَعَم ، أن تَنوِىَ الخيرَ لكلّ أحد .

(٦٦)

الأصْلُ :

الْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى .

* * *

الشَّرْحُ :

من الأبيات المشهورة :

فإذا افتقرتَ فلا تكن متخشِّعاً وتجمَّلِ

ومن أمثالهم المشهورة : « تجوعُ الحرّة ولا تأكلُ بثدييها »[1] .

وأنشد الأصمعىّ لبعضهم :

أُقسِم بالله لَمَصُّ النَّوَى وشربُ ماءِ القُلُبِ المالِحَهْ
أحسنُ بالإنسان مِن ذُلِّه ومن سؤالِ الأوجُهِ الكالِحَهْ
فاستغنِ باللهِ تكنْ ذا غِنًى مُغْتَبِطاً بالصَّفْقة الرّابحه[2]
طُوبَى لمن تُصبِح مِيزانُه يومَ يُلاقِي رَبَّه راجِحَهْ

وقال بعضُهم : وقفتُ على كَنيفٍ وفى أسفلِه كنّاف ؛ وهو يُنشِد :

وأُكرِمُ نفسى عن أمورٍ كثيرة ألا إنّ إكرامَ النفوس من العَقْلِ

---

(١) الميدانى ١ : ٨١ ؛ قال : أى لا تكون ظئراً وإن آذاها الجوع . ويروى : « ولا تأكل ثدييها » قال : « وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدى » فى خبر معروف ذكره هناك .

(٢) ب : « مغبطا » تحريف .

وأبخلُ بالفَضْـل المبين على الأُلَى ... رأيتُهمُ لا يُـكرِمون ذَوِى الفَضْـلِ

وما شانَنِي كَنْسُ الـكَنِيف وإنّما ... يَشِينُ الفَـتَى أن يَجتدِى نائلَ النذْلِ[1]

وأقبَـحُ ممّا بى وُقوفِى مؤمِّلًا ... نَوالَ فتًى مِثلى ، وأىّ فتًى مِثلِى !

وأمّا كون الشّـكر زِينة الغنى ، فقد تقدّم من القول ما هو كافٍ .

وكان يقال : العِلْم بغير عملٍ قولٌ باطل ، والنّعمة بغيرِ شُـكْرٍ جِيدٌ عاطِل .

---

(١) النذل : المحتقر من الناس فى جميع أحواله .

(٦٧)

الأصْلُ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ ، فَلَا تُبَلْ كَيْفَ كُنْتَ !

***

الشَّرْحُ :

قد أُعجم تفسيرُ هذه الكلمة على جماعةٍ من الناس ، وقالوا : المشهورُ فى كلام الحكماء: إذا لم يكن ما تُريد فأرِدْ ما يكون ، ولا مَعنَى لقوله : « فلا تُبَلْ كيف كُنتَ » ! وجَهلوا مُرادَه عليه السلام .

ومُرادُه : إذا لم يكن ما تُريد فلا تُبَلْ بذلك ، أى لا تكترِثْ بفَوْت مُرادِك ولا تَبْتَئِسْ بالحِرْمان ، ولو وَقَف على هذا لتمّ الكلام وكَمَل المعنى ، وصار هذا مِثل قوله : « فلا تُكثِر على ما فاتَكَ منها أسَفا » ، ومثل قولِ الله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾[1] ؛ لكنّه تمّم وأكّد فقال : « كيف كنت » ، أى لا تُبَل بفوْتِ ما كنتَ أمّلته ، ولا تَحمِل لذلك همّا كيف كنت ، وعلى أىّ حال كنتَ ، من حَبْسٍ أو مرضٍ أو فقر أو فقدِ حبيب ؛ وعلى الجملة ، لا تُبالِ الدّهر ، ولا تكترِث بما يَعكِس عليكَ من غرَضِك ، ويَحرِمك من أمَلك ؛ وليكن هذا الإهْوانُ به والاحتقارُ له ممّا تعتَمِده دائما على أىّ حال أفضَى بك الدهر إليها . وهذا واضح .

---

(١) سورة الحديد ٢٣ .

(٦٨)

الأَصْـلُ :

لَا يُرَى الجَاهِلُ إِلَّا مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً .

* * *

الشَّـرْحُ :

العدالة هى الْخُلُق المتوسّط ، وهـو محمود بين مَذْمُومين ، فالشجاعة محفوفة بالتهوّر والجُبْن ،والذّكاء بالغَبَاوة والجربزة[1]،والجود بالشحّ والتبذير،والحلم بالجادية والاستشاطة، وعلى هـذا كلّ ضدّين من الأخلاق فبينهما خُلُق متوسّط ، وهو المسمّى بالعدالة ، فلذلك لا يُرَى الجاهلُ إلّا مُفرِطا أو مفرِّطا ، كصاحب الغَيْرة ، فهو إمّا أن يفرِط فيها ، فيَخرُج عن القانون الصّحيح فيَغار لا مِنْ مُوجب ، بل بالوَهْم وبالخيـال وبالوَسْواس ، وإمّا أن يُفرِّط فـلا يَبحَث عن حالِ نسائِه ولا يُبَالى ما صنَعْن ، وكلا الأمْرَيْن مذموم ، والمحمودُ الاعتدال .

ومن كلام بعضِ الحكماء[2] : إذا صحّ العقل الْتَحَمَ[3] بالأدَب كالْتِحام[4] الطعامِ بالجَسَد الصحيح ، وإذا مرضَ العَقْل نَبا عنه مايَستمع من الأدب كما يقِيء المَعْمود ما أَكل من الطّعام ، فلو آثر الجاهلُ أن يتعلّم شيئاً من الأدَب لَتحوّل ذلك الأدبُ جهْلا ، كما يتحوّل ما خالَطَ جوفَ المَريضِ من طَيّب الطّعام داءً .

---

(١) الجربزة : الخب والمكر . (٢) ا : « ومن كلام الحكماء » .
(٣) ا « التأم » . (٤) ا : « كالتئام » .

(٦٩)

الأَصْلُ :

إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق القولُ فى هذا المعنى .

وكان يقال : إذا رأيتم الرجلَ[1] يُطيل الصمتَ وَيَهرُب من النّاس ، فاقرُبوا منه فإنه يلقَّى الحِكْمة .

---

(١) ا : « رجلا » .

(٧٠)

الأصل .

الدَّهْرُ يُخْلِقُ الأبْدَانَ ، ويُجَدِّدُ الآمالَ ، ويُقَرِّبُ المَنِيَّةَ ، ويُبَاعِدُ الأُمْنِيَّةَ . مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصَبَ ، ومَنْ فاتَهُ تَعِبَ .

***

الشَّرْحُ :

قد سبق لنا قول طويل عريض فى ذكر الدهر والدنيا ، ونذكر الآن شيئاً آخر ، قال بعضُ الحكماء : الدنيا تَسُرّ لِتَغُرّ ، وتفُيد لتَكيد ، كم راقدٍ فى ظلّها قد أيقَظَتْه ، وواثقٍ بها قد خذَلَتْه ، بهذا الخُلُق عُرِفَتْ ، وعلى هذا الشرْط صُوحِبَتْ .

وكتب الاسكندرُ إلى أرِسْطوطاليس : عِظْنى ، فكتب إليه : إذا صَفَتْ لك السلامة فجدّد ذِكْرَ العَطَب ، وإذا اطمأنّ بك الأَمْن فاستشعرْ الخوف ، وإذا بلغتَ نِهايةَ الأمل فاذكر الموتَ ، وإذا أحببت نفسك فلا تجعل لها نصيباً فى الإساءة ، وقال شاعر فأَحسَن :

كأنّك لم تَسْمَعْ بأخبارِ مَن مَضى ... ولم تر بالباقين ما صنع الدهرُ

فإن كنتَ لا تدرى فتلك دِيارُهمْ ... عَفاها مَحال الرّيح بعدَكَ والقَطْرُ

وهل أبصرَتْ عيناكَ حيًّا بمَنزِلٍ ... على الدهر إلاّ بالعَراءِ له قَبْرُ

فلا تحسبنّ الوَفْر مالاً جمعتَه ... ولكنّ ما قدمْتَ من صالحٍ وَفْرُ

مَضَى جامِعُو الأموال لم يتزوّدوا ... سوى الفقْر يا بُؤْسَى لمن زادُه الفقْرُ !

فحتّامَ لا تَصحُو وقد قربَ المدى ... وحَتّام لا يَنجابُ عن قَلْبِك السُّكْرُ !

بلى سَوْف تَصحُو حين ينكشِف الغِطا ... وتذكرُ قولى حين لا ينفع الذِّكرُ

وما بين ميـلاد الفتى ووفاته ... إذا انتصح الأقوامُ أنفسهم عُمْرُ(١)

لأنّ الذى يأتيه شِبْهُ الذى مَضى ... وما هوَ إلّا وقتك الضّيّق النّزْرُ

فصبراً على الأيَّام حتَّى تَجُوزَها ... فعَمّا قليل بعـدها يُحمَد الصّبرُ

(١) د : « غمر » .

(٧١)

الأصْلُ :

مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ ؛ وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

الفروع تابعة للأصول ، فإذا كان الأصل معوجّا استحالَ أن يكون الفرعُ مستقيما ، كما قال صاحبُ المَثَل : « وهل يستقيمُ الظِّلّ والعُود أعوج » ، فمن نَصَب نفسه للناس إماما، ولم يكن قد علّم نفسه ما انتصب ليعلمه النـاس ، كان مثل من نصب نفسه ليُعلّم النّاس الصِّياغة ، والنجارة ، وهو لا يُحْسِن أن يصوغَ خاتما ، ولا ينجُر لوحا ، وهذا نوعٌ من السَّفَه، بل هو السَّفَهُ كلُّه ؛ ثم قال عليـه السلام : وينبغى أن يكون تأديبُه لهم بفعله وسيرته قبل تأديبه لهم بلسانه ، وذلك لأنّ الفعْل أدلّ على حال الإنسان من القول.

ثم قال : ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم . وهذا حقّ ، لأنّ من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظمُ قَدْرا ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غيرُ عامل بشىء منه ، فأما من عَلم نفسه وعلّم الناس فهو أفضل[1] وأجَلّ ممن اقتصر على تعليم نفسه فقط لا شُبْهةَ فى ذلك .

---

(١) ا : « وأعظم » .

(٧٢)

الأَصْلُ :

نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

وجدتُ هذه الكلمةَ منسوبةً إلى عبد الله بن المعتزّ فى فصلٍ أوّله : « الناس وفْد البلاء ، وسُكان الثرى ، وأنفاس الحىّ خُطاه إلى أجله ، وأمله خادعٌ له عن عَمَله ، والدنيا أكذب واعِديه ، والنفس أقرَب أعادِيه ، والموتُ ناظرٌ إليه ، ومنتظر فيه أمراً يُمْضيه » فلا أدرى هل هى لابن المعتز ، أم أخَذَها من أمير المؤمنين عليه السلام !

والظاهر[1] أنها لأمير المؤمنين عليه السلام ، فإنها بكلامه أشبه ، ولأنّ الرضىّ قد رواها عنه ، وخبرُ العَدْل معمولٌ به .

---

(١) ا : « ويظهر » .

(٧٣)

الأصْـلُ :

كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

***

الشَّـرْحُ :

الـكلمة الأولى تؤكّد مذهب جمهور المتـكلّمين فى أنّ العـالم كلّه لابد أن ينقضىَ ويَفْنَى ، ولـكنّ المتـكلمين الذاهبين إلى هـذا القَوْل لا يقولون : يجب أن يكون فانيا ومنقضيا لأنه معدود ، فإن ذلك لا يلزم ؛ ومن الجائز أن يكون معدودا ولا يجب فناؤه ، ولهذا قال أصحابنا : إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا مِن طريق العقل ، فيجب أن يُحمل كلامُ أميرالمؤمنين عليه السلام على ما يُطابق ذلك ، وهو أنه ليس يعنى أن العدَدَ علّةٌ فى وجوب الانقضاء ، كما يُشعِر به ظـاهرُ لفظِه ، وهو الذى يسمّيه أصحابُ أصول الفقه إيماء ، وإنمـا مُراده [1] كلّ معدود فاعلموا أنه فانٍ ومنقضٍ ، فقد حـكم على كلّ معدود بالانقضاء حُـكْما مجرَّداً عن العلّة ، كما لو قيـل : زيد قائمٌ ، ليس يعنى أنه قائم ، لأنه يسمّى زيدا .

فأما قوله : « وكلّ متوقّع آتٍ » فيماثلهُ قول العامة فى أمثالها : « لو انتُظرَت القيامةُ لقامت »؛ والقولُ فى نفسه حق، لأنّ العُقلاء لاينتظرون ما يَستحيل وقوعه، وإنماينتظرون ما يمـكن وقوعه ، وما لابدّ من وقوعه ، فقد صَحّ أنّ كلّ منتظَر سيأتى .

---

(٢) ا : « ومراده » .

(٧٤)

الأصلُ :

إنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا .

***

الشَّرْحُ :

روى : « إذا استَبْهَمَتْ » ، والمعنى واحد وهو حقّ ، وذلك أن المقدّمات تدلّ عَلَى النتائج ، والأسباب تدلّ على المسبّبات ، وطالما كان الشيئان ليسا عِلّةً ومعلولا ، وإنما بينهما أدنى[1] تناسُب ، فيُستدَلّ بحالِ أحدهما على حال الآخر ، وإذا كان كذلك واشتَبَهَتْ أمورٌ على العاقِل الفَطِن ولم يعلم إلى ماذا تَئُول ، فإنه يُسْتَدَلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفوَاتِحها ، كالرّعيّة ذاتِ السلطان الرَّكيك الضعيف السياسة ، إذا ابتدأت أمورُ مملـكتِه تضطرِب ، واستَبْهَم على العاقل كيف يكون الحالُ فى المستقبل ، فإنه يجب عليه أن يعتبر أواخرها بأوائلها ، ويَعلم أنه سيفضى أمرُ ذلك المُلْك إلى انتشار وانحلال فى مُستقبل الوقت ، لأنّ الحركات الأولى مُنذرة بذلك ، وواعدة بوقوعه ، وهذا واضح .

---

(١) ا : « أقرب » .

(٧٥)

الأصلُ :

ومنْ خبرِ ضِرار بنِ ضمرة الضّابىّ عندَ دخولِهِ على معاوِيةَ ، ومسألتِه لهُ عنْ أميرِ المؤمنينَ عليهِ السلامُ ، قالَ : فأشهد لقدْ رَأيتهُ فى بعض موَاقفهِ وقدْ أرْخى الليلُ سُدوله وهو قائم فى محرَابهِ قابض على لحيتهِ ، يتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السليم ، ويبَكى بُكاءَ الحزِينِ ، وهوَ يقولُ :

يا دُنْيا يا دنيا إلَيْكِ عَنِّى ، أَبِى تعَرّضْتِ ، أمْ إلَىَّ تَشَوَّفْتِ ! لا حانَ حَيِنُك ، هَيْهاتَ ، غرِّى غَيْرِى ، لا حاجَةَ لِى فِيكِ ، قَدْ طَلَّقْتُك ثلاثًا ، لا رَجْعَةَ فيها ، فَعَيْشُكِ قَصِيرٌ ، وخَطَرُكِ يَسِيرٌ ، وأمَلُكِ حَقِيرٌ . آهِ مِنْ قِلَّةِ الزّادِ ، وطُولِ الطَّرِيقِ ، وبُعْدِ السَّفَرِ ، وعَظِيمِ الْمَوْرِدِ !

***

الشَّرحُ :

السُّدُول : جمعُ سَدِيل ، وهو ما أسدل على الهَوْدَج ، ويجوز فى جمعه أيضا أسْدال وسدائل، وهو هاهنا استعارة . والتّمَلْمُل والتّملّل أيضا: عدمُ الاستقرار من المرض، كأنه على مَلّة ، وهى الرّماد الحارّ .

والسليم : اللسوع .

ويروَى « تشوّقت » بالقاف .

وقوله : « لا حان حَيِنُك » ، دعاء عليها ، أى لا حَضَر وَقْتك ، كما تقول : لا كُنت .

فأما ضِرارُ بن ضَمْرة ، فإنّ الرِّياشيّ رَوَى خبرَه ، ونقلته أنا من كتاب عبدِ الله بن إسماعيلَ بن أحمدَ الحلبي فى «التذييل على نَهْج البلاغة» ، قال : دخل ضِرارٌ على معاويةَ — وكان ضِرارٌ من صحابةِ علىٍّ عليه السلام — فقال له معاوية : يا ضرار ، صف لى عليّا ، قال: أوَ تُعفِينى ! قال : لا أُعْفيك ، قال: ما أصف منه ! كان[1] واللهِ شديدَ القوَى، بعيد المَدى، يتفجّر العِلْم من أنحائه ، والحكمةُ من أرْجائه ، حَسَنَ المُعاشَرة ، سَهْل المباشرة ، خَشِن المأكَل ، قصير المَلْبَس ، غَزِير العَبْرة ، طويل الفِكْرة ، يقلّب كَفّه ، ويخاطِب نفسَه ، وكان فينا كأحدِنا ، يُجيبنا إذا سألْنا ، ويبتدِئُنا إذا سكَتْنا ، ونحن مع تقريبه لنا أشدّ ما يكون صاحبٌ لصاحبٍ هيبةً ، لا نبتدئه الكلام لعظَمَتِه ، يحبّ المساكين ، ويقرِّب أهلَ الدّين ، وأشهَد لقد رأيتُه فى بعض مَواقفِه . . . وتمامُ الكلامِ مذكورٌ فى الكتاب .

وذَكَر أبو عمرَ بنُ عبد البرّ فى كتاب «الاستيعاب» ، هذا الخبرَ ، فقال : حدّثنا عبدُ الله بنُ محمّد بنِ يوسفَ ، قال : حدّثنا يحيى بنُ مالك بنِ عائذ ، قال : حدّثنا أبو الحسن محمّدُ بنُ محمّدِ بنِ مُقْلة البَغْداديّ بمصرَ . وحدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بنِ دُرَيد ، قال : حدّثنا العُكْلىّ ، عن الحِرْمازيّ ، عن رجل من هَمْدان ، قال: قال معاويةُ لضِرار الضّبابىّ[2] : يا ضرار صِفْ لى عَليّاً ، قال : اعفِنى يا أميرَ المؤمنين ؛ قال : لتَصِفَنّه ؛ قال: أمّا إذ لابدّ من وَصْفِه ، فكان واللهِ بعيدَ المَدَى ، شديدَ القوَى، يقول فَصْلا، ويَحكُم عَدْلا ، يتفجّر العِلم من جَوانبه ، وتَنطِق الحكمة من نَواحيه ، يَستوحِش من الدنيا وزَهرتِها ، ويأنَس بالّليل ووَحْشَتِه ، [وكان][3] غزيرَ العَبْرة ، طويلَ الفكْرة ، يُعجبه من اللّباس ما قَصُر ، ومن الطعام ما خَشُن . كان فينا كأحدِنا، يجيبُنا إذا سألناه، ويُنبئنا إذا استَفْتَيْناه ؛ ونحن واللهِ

(١) ب : « وكان » ، والصواب ما أثبته . (٢) فى الاستيعاب : « الصدائى » .
(٣) من الاستيعاب .

مع تقريبه إيّانا ، وقربه منّا ، لا نكاد نكلّمه هيبةً له . يعظِّم أهلَ الدّين ، ويقرِّب المساكينَ . لا يَطمَع القويُّ فى باطله ، ولا ييئس الضعيفُ من عَدلِه ؛ وأشهَد لقد رأيتُه فى بعض مَواقفه وقد أَرخَى الليلُ سُدولَه ، وغارَتْ نجومُه ، قابضا على لِحيته ، يتَمَلْمَل تَمَلْمُل السَّليم[1] ، ويبكى بكاءَ الحزين ، ويقول : يا دُنْيا غُرِّى غَيْرى ، أبى[2] تعرّضتِ ! أم إلىّ تشوّقتِ ! هيهاتَ هيهاتَ ! قد باينتُكِ ثلاثا لا رجعةَ لى فيها ، فعُمرُكِ قصير ، وخطرُكِ حقير ! آهِ من قِلّة الزاد ، وبُعد السّفر ، ووَحشةِ الطريق ! فبكى معاويةُ وقال : رَحِم اللهُ أبا حسن ، كان والله كذلك ؛ فكيف حُزْنُك عليه يا ضِرار ؟ قال : حزنُ مَن ذُبِح ولدُها فى حِجْرها[3] .

(١) السليم : اللديغ . (٢) الاستيعاب : « ألى » .

(٣) الاستيعاب ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، وهو أيضا فى أمالى القالى ٢ : ١٤٧ .

(٧٦)

الأصْلُ :

ومن كلامه عليه السلام للسائل الشامى لما سأله : أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره ؟ بعد كلام طويل هذا مختاره :

وَيْحَكَ ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِماً ، وَقَدَراً حَاتِماً ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً ، وَكَلَّفَ يَسِيراً ، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً ، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً ، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً ، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً ، وَلَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِباً ، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً ، وَلَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ؛ ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ .

***

الشرح :

قد ذكر شيخُنا أبو الحسين رحمه الله هـذا الخبرَ فى كتاب „ الغُرَر “ ورواه عن الأصبغ بنِ نُباتة ، قال : قام شيخٌ إلى علىّ عليه السلام فقال : أخبِرْنا عن مَسيرنا إلى الشام ، أكانَ بقضاء الله وقدَرِه ؟ فقال : والّذى فَلَق الحبّة ، وبَرَأ النَّسمة ، ما وَطِئْنا مَوْطِئا ، ولا هَبطنا وادياً إلّا بقضاء الله وقدَرِه . فقال الشيخ ! فعندَ الله أحتَسِب عَنائى ! ماأرَى لى من الأجْر شيئاً ! فقال : مَهْ أيّها الشيخ ، لقد عَظّم اللهُ أجرَكم فى مَسيرِكم وأنتم سائرون ، وفى مُنصرَفكم وأنتم منصرِفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرَهين ،

ولا إليها مضطرِّين . فقال الشيخ : وكيف القضاء والقدَر ساقانا ؟ فقال : وَيْحَك ! لعلّك ظننتَ قَضاء لازما ، وقدَرًا حَتْما ! لو كان ذلك كذلك لبَطَل الثواب والعقاب ، والوَعْد والوَعيد ، والأمرُ والنّهى ، ولم تأتِ لائمةٌ من الله لمُذنب ، ولا محمَدة لمُحسِن ، ولم يكن المُحسِن أَولَى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أَولَى بالذّم من المُحسِن ؛ تلك مقالةُ عُبّاد الأوثان ، وجنودِ الشّيطان ، وشهودِ الزور ، وأهلِ العَمَى عن الصواب ، وهم قَدَرِيّةُ هذه الأمّة ومجوسُها ؛ إنّ الله سبحانه أَمَرَ تخييرا ، ونَهَى تحذيرا ، وكَلَّف يسيرا ، ولم يُعْصَ مغلوبا ، ولم يُطَع مُكرِها ، ولم يُرسِل الرسلَ إلى خلقه عَبَثا ، ولم يَخلُق السموات والأرض وما بينهما باطلا ﴿ ذلك ظنّ الّذين كَفروا فوَيلٌ للّذين كفروا من النار ﴾(١) فقال الشيخ : فما القَضَاء والقدَر اللّذان ما سِرْنا إلّا بهما ؟ فقال : هو الأمرُ من الله والحُكْم ، ثمّ تلا قولَه سبحانه : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ ﴾(٢) ، فنهضَ الشيخُ مسرورا وهو يقول :

أنتَ الإمامُ الّذى نَرجُو بطاعتِه ... يومَ النشورِ من الرّحمن رِضْوانا
أَوْضحتَ مِن دِينِنا ما كان مُلتَبِسًا ... جزاكَ رَبُّك عنّا فيه إحسانا

ذَكَر ذلك أبو الحسين فى بيانِ أنّ القضاء والقدَر قد يكون بمعنى الحُكْم والأمر ، وأنّه من الألفاظ المشترَكة .

---

(١) سورة ص ٢٧ . (٢) سورة الإسراء : ٢٣ .

(٧٧)

الأَصْلُ :

خُذِ الْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ .

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلام فِي مِثْلِ ذلِكَ : الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ .

* * *

الشَّرْحُ :

خَطَب الحجّاج فقال : إنّ الله أمرَنا بطلب الآخرة ، وكفانا مئونة الدّنيا ، فليْتَنا كُفينا مئونةَ الآخرة ، وأُمِرنا بطلب الدنيا !

فسمعها الحسن فقال : هذه ضالّة المؤمن خرجت من قلب المنافق .

وكان سُفيانُ الثّوريّ يُعجبه كلامُ أبي حَمْزة الخارجيّ ويقول : ضالّة المؤمن على لسان المنافق . تَقوَى الله أكرَمُ سَرِيرة ، وأفضَلُ ذخيرة ، منها ثقةُ الواثق ، وعليها مِقَةُ الوامق. لِيعمَل كلّ امرئٍ في مكان نفسه وهو رَخِيّ اللَّبَب ، طويلُ السّبب ، ليَعرفَ مَمدّ يَدِه ، وموضعَ قَدَمِه ، وليَحذَر الزّلَل ، والعِلَل المانعةَ من العمل . رَحِم الله عبدا آثَرَ التقوَى ، واُستشْعَرَ شِعارها ، واجتنى ثِمارَها ، باعَ دارَ البقاء بدارِ الآباد ، الدّنيا كرَوْضة يونق مَرْعاها ، وتُعجِب من رآها . تَمُجّ عرُوقُها الثّرى ، وتنطف فروعُها بالنّدى ، حتّى إذا بلغ العُشْب إناه ، وانتهى الزِّبْرِج مُنْتَهاه ، ضَعُف العمود ، وذوى العُود ، وتولّى من الزمان ما لا يعود ؛ فحتّت الرياحُ الوَرَق ، وفرّقتْ ما كان اتّسق ، فأصبحَتْ هشِيما ، وأمْسَت رَمِيما.

(٧٨)

الأَصْـلُ :

قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ .

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَهَذِهِ الْـكَلِمَةُ الَّتِي لا تُصَابُ لَهَا قِيمَةٌ ، وَلَا تُوزَنُ بِهَا حِكْمَةٌ ، وَلَا تُقْرَنُ إِلَيْهَا كَلِمَةٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد سَلَف لنا فى فَضْل العلم أقوالٌ شافية ، ونحن نذكر ها هنا نُـكَتا أخرى .

يقال : إنّ من كلام أَرْدَشير بن بابك فى رسالته إلى أبناء الملوك : بحَسْبِكم دلالةً على فَضْل العلم أنّه ممدوح بكلّ لسان ، يتزيّن به غير أهله ، ويدّعيه من لا يلصقُ به . قال : وبحَسْبِـكم دَلالةً على عَيْب الجهل أنّ كل أحد يَنتفِي منه ، ويَغضَب أن يسمَّى به .

وقيل لأنُوشَرْوانَ : ما بالُـكُمْ لا تستفيدون من العلم شيئاً إلّا زادكم ذلك عليه حِرْصاً؟ قال : لأنّا لا نستفيد منه شيئاً إلا ازدَدْنا به رِفعةً وعِزّا . وقيل له : ما بالُـكُمْ لا تأنفون من التعلّم من كلّ أحد ؟ قال : لعلِمْنا بأنّ العلم نافع من حيث أُخذ .

وقيل لبُزُرْجِمهْر : بم أدركتَ ما أدركتَ من العِلم ؟ قال : ببكُور كبُـكورِ الغُراب ، وحِرْصٍ كحرصِ الخنزير ، وصبرٍ كصبرِ الحمار .

وقيل له : العِلم أفضلُ أم المـال ؟ فقال : العِلم ، قيل : فـما بالُنا نرَى أهلَ العِلم على

أبواب أهلِ المال أكثر مما نرى أصحابَ الأموالِ على أبواب العُلَماء ! قال : ذاك أيضا عائد إلى العِلم والجَهْل ، وإنما كان كما رأيتم ، لعلم العلماء بالحاجة إلى المال ، وجَهْلِ أصحابِ المال بفَضيلةِ العِلم .

وقال الشاعر :

تَعلَّم فليس المرء يُخلَقُ عالمـا ... وليس أخو علمٍ كمن هوَ جاهلُ

وإن كبيرَ القَوْمِ لا عِلمَ عندَه ... صغيرٌ إذا التفّتْ عليه المَحافلُ

(٧٩)

الأصلُ :

أوصيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْها آبَاطَ الإِبلِ لَكَانَتْ لِذلكَ أَهْلاً : لَا يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إلاَّ رَبَّهُ ، ولَا يَخَافَنَّ إلاَّ ذَنْبَهُ ، ولاَ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنكم إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لَا أعْلَمُ ، ولا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إذا لَمْ يَعْلَمِ الشَّىْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، وعليكم بالصَّبْرِ ، فإنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإيمانِ كالرَّأسِ مِنَ الجَسَدِ ، ولا خَيْرَ فى جَسَدٍ لارَأْسَ مَعَهُ ، ولا خيرَ فى إيمانٍ لا صَبْرَ مَعَهُ .

* * *

الشَّرحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى جميع الحِكَم المنطوى عليها هذا الفَصْل ؛ وقال أبو العَتَاهِيَة :

والله لا أرجُو سِوا ... كَ ولاأخافُ سِوَى ذنوبى
فاغفرْ ذنوبى يا رَحِيـ ... ـمُ فأنتَ سَتّارُ العيوبِ

وكان يقال : من استَحْيا من قولِ : «لا أَدْرِى » كان كمن يَستحْيِى من كَشْفِ رُكْبته، ثم يكشف سَوْءَته ، وذلك لأنّ من اُمتَنعَ من قول : « لا أَدْرِى» وأَجابَ بالجَهْل والخطأ فقد واقَعَ ما يجبُ فى الحقيقة أن يُستحيا منـه ، وكَفَّ عمّا ليس بواجب أن يُسْتَحْيَا منه ، فكان شبيها بما ذكَرْناه فى الرُّكبة والعَوْرة .

وكان يقال : يحسُن بالإنسان التعلّم ما دامَ يقبح منه الجهل ، وكما يقبح منه الجهل ما دام حيّا كذلك يحسُن به التعلم ما دام حيّا .

وأمّا الصبر فقد سبق فيه كلامٌ مُقنع ، وسيأتى فيما بعدُ جملة من ذلك .

(٨٠)

الأصْلُ

وقالَ عليهِ السَّلَامُ لرجلٍ أفرَطَ فى الثَّناء عليهِ ـ وكانَ لهُ مُتَّهِما : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وفَوْقَ مَا فِى نَفْسِكَ .

* * *

الشَّرحُ :

قد سَبَق منّا قولٌ مُقنِـع فى كراهية مدح الإنسان فى وجهه .

وكان عمرُ جالساً وعنده الدِّرّةُ ، إذ أَقبل الجارُود العَبْدِىّ ، فقال رجل : هذا الجارود سيّدُ ربيعة ؛ فسَمِعها عمرُ ومن حَوله ، وسَمِعها الجارود ، فلمّا دنا منـه خَفقَه بالدِّرّة فقال : ما لِى ولك يا أمير المؤمنين ! قال : ما لى ولك ! أما لقد سمعتَها ؛ قال : وما سمعتُها فمه ! قال : ليخالطنّ قلبك منها شىء ، وأنا أحبّ أن أطأطئ منك .

وقالت الحكماء : إنّه يَحدُث للممدوح فى وجهه أمرانِ مُهلِكان : أحدُهما الإعجاب بنفسه ، والثانى إذا أُثنى عليـه بالدِّين أو العلم فَتَر وقَلّ اجتهادُه ، ورضىَ عن نفسه ، ونَقَصَ تشميرُه وجِدُّه فى طلب العـلم والدّين ، فإنه إنما يتشمّر من رأى نفسَه مقصِّراً ؛ فأمّا مَنْ أطلقت الألسُنُ بالثّناء عليه ، فإنّه يظنّ أنه قد وصل وأدرك ، فيقلّ اجتهاده ، ويتّـكل على ما قد حَصَل له عند الناس ؛ ولهذا قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لمن مَدَح

إنسانا كاد يَسمَعه : « وَيْحك ! قطعتَ عُنُق صاحبك ، لو سمِعها لما أفلَح » .

فأمّا قوله عليه السلام له : « وفوقَ ما فى نفسك » ، فإنه إنمـا أراد أن ينبِّهه على أنه قد عَرَف أنه كان يَقَع فيه ، وينحرف عنه ، وإنما أراد تعريفه ذلك لِما رآه من المَصلحةِ ، إمّا لظنّه أنه يُقلع عمّا كان يذمّه به ، أو ليُعلِمَه بتعريفه أنه قد عَرَف ذلك ، أو ليخوّفه ويزجُرَه ، أو لغير ذلك .

(٨١)

الأصْـلُ :

بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَنْمَى عَدَدًا ، وَأَكْثَرُ وَلَدًا .

***

الشَّـرْحُ :

قال شيخنا أبو عثمان : ليته لما ذَكَرَ الحُـكم ذَكَر العِلّة !

ثم قال : قد وجدْنا مِصـــداق قوله فى أولاده وأولاد الزبير وبنى المهلَّب وأمثالهم ممن أسرعَ القتلُ فيهم .

وأُتِىَ زيادٌ بامرأة من الخوارج فقال لها : أما والله لأحْصِدنّكم حَصْدًا ، ولأفنينّكم عَدًّا ، فقالت : كلّا إنّ القتل ليَزْرَعُنا ، فلما همّ بقتلها تستّرت بثوبها ، فقال : اهتكوا سترها لَحَاها الله[(١)] ! فقالت: إنّ الله لا يَهتِك سترَ أوليائه ، ولكن الّتى هُتك[(٢)] سترُها على يد ابنها سُمَيّة ، فقال : عجّلوا قتلَها أبعدَها الله ! فقُتِلَتْ .

---

(١) لحاه الله ، أى قبحه ولعنه . (٢) ا : « هتكت » .

(٨٢)

الأمثال :

مَنْ تَرَكَ قَوْلَ : « لَا أَدْرِي » أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ .

***

الشرح :

جاءت امرأة إلى بُزُرْجُمِهْرْ ، فسألته عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقالت : أيعطيكَ المَلِكُ كلَّ سنةٍ كذا كذا وتقول : لا أدرى ؛ فقال : إنما يعطيني الملك على ما أَدْرِي ، ولو أعطاني على ما لا أَدْرِي لما كفاني بيت ماله .

وكان يقول : قولُ « لا أَعْلَمُ » نِصفُ العِلم .

وقال بعضُ الفُضَلاء : إذا قال لنا إنسانٌ : « لا أَدرِي » عَلَّمناه حتى يَدرى ، وإن قال : أدرى ، امتحنّاه حتى لا يدرى .

(٨٣)

الأَصْـلُ :

رَأْىُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ الْغُلَامِ .

ويُرْوَى : « مِنْ مَشْهَدِ الغُلَامِ » .

***

الشَّـرْحُ :

إنما قال كذلك لأنّ الشيخ كثيرُ التَّجربة ، فيبلغ من العَدُوّ برأيه ما لا يبلُغ بشجاعته الغلام الحدَث غير المجرَّب ، لأنه قد يغرِّر بنفسه فيَهلك ويُهلِك أصحابَه، ولا رَيبَ أنّ الرأى مقدَّم على الشجاعة ، ولذلك قال أبو الطيّب :

الرأىُ قبلَ شجاعةِ الشُّجْعانِ ... هو أوّلٌ وهْى المحَـلُّ الثانى(١)

فإذا هما اجتَمعا لنفسٍ مِرّةٍ ... بلغتْ من العَلْياء كلَّ مكانِ(٢)

ولرُبمـا طَعن الفتى أقرانَه ... بالرّأى قبـلَ تطاعُن الأقرانِ

لولا العقولُ لـكانَ أَدنَى ضَيغمٍ ... أدنى إلى شَرفٍ من الإنسانِ

ولَمـا تَفاضلت الرجالُ ودَبَّرتْ ... أيدِى الكُماة عَوالِىَ المُرّانِ

ومِن وَصايا أَبرَويز إلى ابنه شيرويه : لا تستعمل على جيشك غلاما غمرا ترِفا ، قد كثر إعجابه بنفسه ، وقلّت تجـاربه فى غيره ، ولا هَرِما كبيرا مدبِرا قد أَخَذ الدهرُ مِن عقـله ، كما أخذَتِ السنُّ من جِسمه ؛ وعليـك بالكُهول ذَوِى الرأى !

(١) ديوانه ٤ : ١٧٤، ١٧٥ (٢) النفس المرة: القوية الشديدة. من قوله تعالى « ذو مرة فاستوى ».

وقال لَقيط بن يَعْمَر الإيادىّ فى هذا المعنى :

وقَلِّدوا أمرَكم للهِ دَرُّكُمُ رحْبَ الذِّراع بأمر الحربِ مُضطلِعا[(١)]

لا مُترَفا إنْ رَخاء العيشِ ساعدَه ولا إذا عَضَّ مكروهٌ به خَشَعا[(٢)]

ما زال يَحلُب هذا الدهرَ أشطُرَه يكون متَّبِعاً طورا ومُتَّبَعا[(٣)]

حتّى استمرّ على شَزْرٍ مَرِيرته مستحكِمَ الرأى لا قَحْماً ولا ضرِعا[(٤)]

(١) مختارات ابن الشجرى ١ : ٥ . مضطلعا ، من الضلاعة ؛ وهى القوة .

(٢) خشع ، أى خضع للأمر .

(٣) ابن الشجرى : « ما انفك يحلب » :

(٤) الشزر : فتل الحبل مما يلى اليسار والقحم : الشيخ الكبير السن الهم . والضرع : الرجل الضعيف .

(٨٤)

الأصْـلُ :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الِاسْتِغْفَارُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قالوا : الاستغفار حَوارسُ الذّنوب .

وقال بعضهم : العبدُ بين ذَنْب ونِعْمة لا يُصْلِحهما إلّا الشكر والاستغفار .

وقال الربيع بن خَثْم[1] : « لا يقولَن أحدكم أستغفِر الله وأتوبُ إليه » فيكون ذَنْباً وكذبا إن لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهمّ اغفر لى وَتُب علىّ .

وقال الفُضَيل : الاستغفار بلا إقلاع[2] توبةُ الكذّابين .

وقيل : من قدّم الاستغفار على الندم ، كان مستهزئاً بالله وهو لا يعلم .

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب : « خثيم » .

(٢) الإقلاع : ترك الذنوب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٨٥)

الأصْـلُ :

وحكى عنه أبو جعفر محمد بن على الباقر عليهما السلام أنه كان عليه السلام قال:

كانَ فى الأرْضِ أمانانِ مِنْ عَذَابِ اللهِ ، وقَدْ رُفِـعَ أحَدُهما ، فَدُونَـكُمْ الآخَرَ فَتَمَسَّـكُوا بِهِ ، أما الأمانُ الذِى رُفِعَ فَهُوَ رَسولُ اللهِ صلّى اللهِ عليهِ وسلّم، وأمّا الأمانُ الْباقى فالاسْتِغْفارُ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وما كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ وماَ كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

قال الرَّضِيّ رَحمه اللهُ تعالى : وهـذا مِنْ مَحاسَنِ الاسْتِخْرَاجِ ، ولَطَائِفِ الاسْتِنْبَاطِ.

* * *

الشَّـرْحُ :

قال قومٌ من المفسِّرين : ﴿ وهم يستغفِرُونَ ﴾ ، فى موضع الحال : والمرادُ نفى الاستغفار عنهم ، أى لو كانوا ممّن يستغفرون لما عذّبهم ، وهذا مثلُ قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّـك لِيُهْـلِكَ القُرَى بظلم وأهلُها مُصلحون (٢) ﴾ ؛ فـكأنه قال : لـكنهم لا يَستغفرون فلا انتفاء للعذاب عنهم .

وقال قوم : معناه ، وما كان الله معذّبهم وفيهم مَنْ يستغفروهم المسلمون بين أظهرُهم ممن تَخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من المستضعفين (٣) .

(١) سورة الأنفال ٣٣ .

(٢) سورة هود ١١٧ . (٣ ـ ٣) ساقط من ا .

ثم قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ﴾(١) ، أى ولأىِّ سَبَب لا يعذّبهم الله مع وجود ما يَقتضِى العذاب ، وهو صَدّهم المسلمين والرّسول عن البيت فى عام الُحدَيْبية ! وهذا يدلّ على أنّ ترتيبَ القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث ، لأنّ سُورة الأنفال نَزلتْ عقيبَ وَقْعة بَدْرٍ فى السّنة الثانية من الهجرة ، وصدّ الرسول صلّى الله عليه وآله عن البيت كان فى السّنة السادسة ، فكيف يجعل آيةً نَزلتْ فى السنة السادسة فى سورةٍ نَزلتْ فى السنة الثانية !

وفى القرآن كثيرٌ من ذلك ، وإنّما رتّبه قومٌ مِن الصّحابة فى أيّام عثمان .

---

(١) سورة الأنفال ٣٤

(٨٦)

الأصل :

مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .

وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ .

وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ .

* * *

الشرح :

مِثلُ الكلمة الأولى قولُهم : رِضا المخلوقِين عُنوانُ رِضا الخالق ؛ وجاء فى الحديث المرفوع : « ما مِنْ والٍ رَضِىَ الله عنه إلّا أرضَى عنه رعيّتَه » .

ومِثلُ الكلمة الثانية دُعاء بعضهم فى قوله :

أنا شاكرٌ أنا مادحٌ أنا حامدٌ　　أنا خائفٌ أنا جائعٌ أنا عارِ
هى ستّةٌ وأنا الضّمِينُ بِنصْفها　　فكُنِ الضمينَ بِنصْفها يا بارِى

ومِثلُ الكلمة الثالثة قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة النحل ١٢٨ .

(٨٧)

الأصْلُ :

ألْفَقِيهُ كلُّ الفقيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قَلَّ موضعٌ من الكتاب العزيز يَذكُر فيه الوعيد إلّا ويَمزُجه بالوعد ، مِثل أن يقول : « إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَاب » ثم يقول: « وإنه لَغَفور رحيم » ، والحكمة تقتضِي هذا ليكون المكلَّف متردِّدا بين الرّغبة والرّهبة .

ويقولون فى الأمثال المرموزة : لقِيَ موسَى وهو ضاحكٌ مستبشرٌ عيسَى وهو كالِحٌ قاطِب ، فقال عيسى : مالكَ كأنّكَ آمِنٌ من عذاب الله ؟ فقال موسى عليه السلام : مالكَ كأنّكَ آيِسٌ من رَوْح الله ! فأوحَى الله إليهما: موسى أحبُّكما إلىّ شِعارا ، فإنِّى عِنْدَ حُسْن ظَنِّ عبدى بى .

واعلم أنّ أصحابَنا وإن قالوا بالوعيد ؛ فإنّهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنِّطونه من رحمة الله ، وإنما يَحُثّونه على التوبة ، ويخوِّفونه إن ماتَ من غير توبة ، وبحقٍّ ما قال شيخُنا أبو الهُذَيل : لولا مَذهَب الإرْجاء لَمَا عُصِيَ الله فى الأرض ؛ وهذا لا رَيبَ فيه ، فإنّ أكثرَ العُصاة إنّما يُعوِّلون على الرحمة ، وقد اُشتَهر

واستفاض بينَ الناس أنّ الله تعالى يَرحَم المذنبين ، فإنّه وإن كان هُناكَ عِقاب فأوقاتا معدودة ، ثمّ يخرجون إلى الجنّة ، والنفوس تُحِبّ الشهوات العاجلة ، فتهافَتُ الناس على المَعاصِي وبلوغِ الشَّهَوات والمآرب ، معوِّلين على ذلك ، فلولا قولُ المرجِئة وظهورُه بين الناس لكان العصيانُ إمّا معدوما ، أو قليلًا جِدّا .

(٨٨)

الأصل :

أَوْضَعُ الْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى اللِّسَانِ ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ .

***

الشرح :

هذا حقّ ، لأنّ العالِمَ إذا لم يَظهر من علمِه إلّا لَقْلَقَةُ لسانِه من غيرِ أن تَظْهرَ منه العبادات ، كان عالمًا ناقصاً ، فأمّا إذا كان يُفيدُ الناسَ بألفاظهِ ومنطقِه ، ثم يشاهِدُهُ النّاسُ على قَدَمٍ عظيمةٍ من العبادةِ ، فإنّ النفعَ يكون به عامّا تامّا ، وذلك لأنّ الناس يقولون : لو لم يكن يَعتقِد حقيقةَ ما يقوله ، لما أَدْأَبَ نَفْسَه هذا الدَّأْب .

وأمّا الأوّل فيقولون فيه : كُلّ ما يقوله نفاق وباطل ، لأنه لو كان يعتقد حقيقةَ(١) ما يقول لأخَذَ به ، ولظَهَرَ ذلك فى حَرَكاته ، فيَقْتَدون بفعله لا بقَوْله ، فلا يَشتغِل(٢) أحدٌ منهم بالعبادة ولا يهتمّ بها .

---

(١) د : « أحقية » . (٢) ا : « يشتغلون » .

(٨٩)

الأصْـلُ :

إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَـلُّ كَمَا تَمَـلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِـكْمَة .

***

الشَّـرْحُ :

لو قال : إنّها تَمَـلّ كما تملّ الأبدان ، فأحمِضُوا [١] كما نقل عن غيرِه لَحُمِل ذلك على أنّه أراد نَقلَها إلى الفُـكاهات والأخبار والأشعار ، ولـكنّه لم يقل ذلك ، ولـكن قال : « فابتَغوا لها طرائفَ الحِـكمة » ، فوَجَب أن يُحمَل كلامُـه عليه السلام على أنّه أراد أنّ القُلوبَ تَمَـلّ من الأنظار العقليّة ، فى البراهين الـكلاميّة على التوحيد والعدل ، فابتغوا لها عندَ مَلالِها طرائفَ الحِـكمة ، أى الأمثال الحِـكْمية الراجعة إلى الحِـكمة الخلقية ، كما نحن ذاكرُوه فى كثيرٍ من فصولِ هذا الباب ، مِثل مدح الصبر ، والشجاعة ، والزهد ، والعِفَّة ، وذمّ الغضب ، والشهوة ، والهوى ، وما يَرجِع إلى سياسة الإنسان نفسه ، وولده ، ومنزله ، وصديقه ، وسلطانه ، ونحو ذلك ؛ فإنّ هــذا عِلْمٌ آخَر وفَنّ آخر ، لا تَحتاجُ القلوب فيهِ إلى فِـكْر واُستنباط، فتَتْعَب وتَـكِلّ بترادُف النّظر والتأمّل عليها، وفيه أيضاً لذّةٌ عظيمةٌ للنفس .

وقد جاء فى إجمام النّفس كثيرٌ .

قال بعضهم : رَوِّحوا القلوب برَواتِع [٢] الذِّكر .

---

(١) يقال : أحمض القوم إحماضا ؛ إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والـكلام ، كما يقال : فكه ومتفكه .

(٢) د : « تعى » .

وعن سَلْمان الفارسيّ : أنا أحتَسِب نَوْمَتى كما أحتَسِب قَوْمَتى .

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : إنّ نفسى راحِلتى ، إن كلّفتُها فوقَ طاقتِها انقطعتْ بى .

وقال بعضهم : روِّحوا الأذهان ، كما تروِّحوا الأبدان .

وقال أردشيرُ بنُ بابك : إنّ للآذان مَجّة ، وللقلوب مَلّة ؛ ففرِّقوا بين الحِكمتين[1] بلَهْوٍ يكن ذلك استِجْماماً .

---

(١) د : « الحكمين » .

(٩٠)

الأصْلُ :

لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مَنِ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ . ومَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ ، وَالرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِى بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَكْرَهُ الْإِنَاثَ ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ ، وَيَكْرَهُ انْثِلَامَ الْحَالِ .

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ الله تعالى : وهَذَا مِنْ غَرِيبِ ما سُمِعَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فى التَّفْسِير .

* * *

الشَّرْحُ :

الفتنة لفظٌ مشترَك ؛ فتارةً تُطلَق على الجائحة والبليّة تصيبُ الإنسان ، تقول : قد افتَتَن زيد وفُتِن فهو مفتون إذا أصابتْه مُصيبة فذَهَب مالُه أو عقلُه ، أو نحوُ ذلك ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يَعنِى الّذين عذّبوهم بمكّة ليرتدّوا عن الإسلام ، وتارةً تُطلَق على الاختبار والامتحان ، يقال : فتنتُ الذهبَ إذا أدخلتَه النار لتَنظرَ ما جوْدَته ، ودينارٌ مَفْتون ، وتارةً تُطلَق على الإحراق ؛ قال تعالى :

---

(١) سورة البروج ١٠ .

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾(١) ووَرِق مَفْتون ، أى فِضّة مُحرَقة ، ويقال للحَرَّة : فَتِين كأنّ حِجارتَها مُحرَقة ، وتارةً تُطلَق على الضّلال ، يقال رجلٌ فاتن ومُفتن ، أى مُضِلّ عن الحقّ جاء ثُلاثيّا ورُباعيّا ؛ قال تعالى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾(٢) أى بمضلّين ، وقرأ قومٌ « مفتِنين » ، فمن قال . إنّى أعوذُ بك من الفِتْنة ، وأرادَ الجائحة ، أو الإحراق أو الضلال ، فلا بأس بذلك ، وإنْ أراد الاختبار والامتحانَ فغيرُ جائز ، لأنّ الله تعالى أعلمُ بالمَصلَحة ، وله أن يَختبر عبادَه لا ليَعلَم حالهم ، بل ليَعلَم بعضُ عبادِه حالَ بعض ، وعندى أنّ أصلَ اللّفظة هو الاختبار والامتحان ، وأنّ الاعتبارات الأخرى راجعة إليها ، وإذا تأمّلْتَ علمتَ صحّةَ ما ذكرناه .

---

(١) سورة الذاريات ١٣ . (٢) سورة الصافات ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٩١)

الأصْلُ :

وسُئِلَ عن الخيْرِ ما هُوَ ؟

فقَالَ : لَيْسَ الخيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مالُكَ وَوَلَدُكَ ، ولَكِنِ الخيْرُ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ، وأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِعِبادةِ رَبِّكَ ، فإنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ اللهَ ، وإنْ أَسأْتَ اسْتَغْفَرْتَ اللهَ . ولا خَيْرَ فى الدُّنْيا إلاَّ لِرَجُلَيْنِ : رَجُل أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُها بالتَّوْبَةِ، ورَجُلٍ يُسَارِعُ فى الخيراتِ ؛ ولا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ التَّقْوَى ، وكَيْفَ يَقِلُّ ما يُتَقَبَّلُ !

* * *

الشَّرْحُ :

قد قال الشاعر لهذا المعنى :

ليس السّعيدُ الذى دُنْياه تُسعِدُه   بل السعيد الذى ينجُو من النارِ

قوله عليه السلام : « ولا يقِلّ عملٌ مع التقوى » ، أى مع اجتناب الكبائر ، لأنه لو كان مُوقِعاً لِكَبيرة لما تُقُبِّل منه عملٌ أصلا على قول أصحابنا ، فوجب أن يكون المراد بالتقوى اجتنابَ الكبائر ؛ فأمّا مذهبُ المرجئة فإنهم يحملون التّقوى ها هنا على الإسلام ، لأنّ المسلم عندهم تتقبّلُ أعماله ، وإن كان مُواقعا للكبائر .

فإن قلت : فهل يجوز حملُ لفظة « التقوى » على حقيقتها ، وهى الخوف ؟

قلت : لا . أما على مَذهبنا فلأن من يخافُ الله ويواقع الكبائرَ لا تتقبل أعماله ،

وأمّا مذهب المرجئة فلأن من يخاف الله مِن مخالفى مِلّة الإســلام لا تتقبل أعمالُه ، فثبت أنه لا يجوز حملُ التقوى ها هنا على الخوف .

فإن قلت : مَنْ هو مخالفٌ لِملة الإسلام لا يخافُ الله لأنه لا يعرفه .

قلت : لا نسلّم ، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصِفاته ، كما نعرفه نحن ، ويجحد النبوّة لشُبْهة وقعت له فيها ، فلا يلزم من جَحْد النبوة عدمُ معرفة الله تعالى .

(٩٢)

الأصل :

إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بالأنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جاءوا بِهِ ، ثُمَّ تَلا عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ الآية .

ثُمَّ قالَ عَلَيْهِ السَّلَامَ : إنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطاعَ اللهَ وإن بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ ، وإنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللهَ وإن قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

* * *

الشَّرحُ :

هكذا الرواية « أَعلمهم » ، والصحيح « أعملهم » ، لأن استدلاله بالآية يقتضى ذلك ، وكذا قوله فيما بعدُ . « إنّ وَلِيَّ محمد من أطاع الله . . . » إلى آخر الفصل ، فلم يذكر العلم ، وإنما ذكر العمل . واللُّحْمة بالضم : النسب والقرابة ، وهذا مثلُ الحديث المرفوع : « ائتونى بأعمالكم ، ولا تأتونى بأنسابكم ، إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكم » ؛ وفى الحديث الصحيح : « يا فاطمة بنت محمد ، إنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وقال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : أرأيت قوله صلى اللهُ عليهِ وسلّم : « إن فاطمةَ أحصنتْ فرجها فحرّم اللهُ ذرّيتها على النار » ، أليس هذا أمانا لكل فاطمى فى الدنيا ؟ فقال : إنك لأحمق ، إنما أراد حسناً وحسَينا ، لأنهما من لُحمة أهل البيت ، فأما مَن عداهما فمن قَعد به عملُه لم يَنهَضْ به نَسَبُه .

(٩٣)

الأَصْـلُ :

وَسَمِـعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْحَرُورِيَّـةِ يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ ، فَقَالَ : نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ ، خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ عَلَى شَكٍّ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا نهيٌ عن التعرّض للعبادة مع الجهل بالمعْبود ، كما يصنع اليوم كثيرٌ من الناس ، ويظنون أنّهم خير الناس ، والعقلاء الألبّاء من الناس يضحكون منهم ، ويستهزئون بهم ، والحَرُوريّة : الخوارج ، وقد سَبق القول فيهم . وفى نِسبتهم إلى حَروراء[1] .

يقول عليهِ السلام : تَرْكُ التنفُّل بالعبادات مع سلامة العقيـدة الأصلية ، خيرٌ من الاشتغال بالنوافل وأورادِ الصّلاة مع عدم العلم ؛ وهو المعنيُّ بقوله : « فى شَكّ » ، فإذا كان عدمُ التنفّل خيرا من التنفّل مع الشكّ فهو مع الجهل المحض ـ وهو الاعتقاد الفاسد ـ أَوْلى بأنْ يكون .

---

(١) حروراء : قرية بظاهر الكوفة ، نزل بها الخوارج الذين خالفوا على بن أبى طالب ؛ وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا عليه » .

(٩٤)

الأصْـلُ :

اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ .

***

الشَّـرْحُ :

نهاهم عليه السلام عن أن يقتصروا إذا سمِعوا منه أو من غيره أطرافا[1] من العِلْم والحكمة ، على أن يَرووا ذلك رواية كما يفعله اليومَ المحدثون ، وكما يقرأ أكثرُ الناس القرآن دراسةً ولا يَدْرِى من معانيه إلّا اليسير .

وأمرَهم أن يعقِلوا ما يَسمَعونه عقلَ رِعاية أى مَعرفة وفَهْم .

ثم قال لهم : « إنّ رُواة العلم كثير ، ورُعاته قليـل » ، أى من يُراعِيه ويتدبّره ؛ وصَدَق عليه السلام !

(١) ا : « طرفا » .

(٩٥)

الأصْـلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ، فَقَالَ: إِنَّ قَوْلَنَا « إِنَّا لِلّٰهِ » إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمِلْكِ ، وَقَوْلَنَا : « وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قوله إنّا لله اعترافٌ بأنّا مملوكون لله وعبيدٌ له، لأنّ هذه اللامَ لامُ التمليك ، كما تقول: الدارُ لِزَيد ؛ فأمّا قولُه : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [١] ؛ فهو إقرار واعترافٌ بالنّشور والقيامة ، لأنّ هذا هو معنى الرّجوع إليه سبحانه ، واقتنع أميرُ المؤمنين عن التصريح بذلك ، فذَكَر الهُلْك ، فقال : إنّه إقرارٌ على أنفسنا بالهُلْك ، لأنّ هُلْكنا مُفض إلى رجوعِنا يومَ القيامة إليه سبحانه ، فعبّر بمقدمة الشيء عن الشيء نفسه ، كما يقال : الفقرُ الموْت ، والحمّى الموت ، ونحو ذلك .

ويُمكِن أن يفسّر ذلك على قول مُثبتِى النّفس الناطقة بتفسيرٍ آخر فيقال : إنّ النفس ما دامت فى أسْرِ تدابير البَدَن فهى بمَعزِل عن مبادئها ، لأنّها مشتغِلةٌ مستغرِقة بغير ذلك ، فإذا مات البَدَن رجعت النفسُ إلى مَبادِئها ، فقوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [١] إقرارٌ بما لا يصحّ الرجوع بهذا التفسير إلّا معَه ، وهو الموت المعبّر عنه بالهُلْك .

---

(١) سورة البقرة ١٥٦ .

(٩٦)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام ومدحه قوم فى وجهه :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِى مِنْ نَفْسِى ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِى مِنْهُمْ . اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى خَيْرًا مِمَّا يَظُنُّون ، وَاغْفِرْ لِى مَا لَا يَعْلَمُونَ !

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى كراهِيَة مَدْحِ الإنسان فى وجهه . وفى الحديثِ المرفوعِ : « إذا مدحْتَ أخاكَ فى وجهِهِ ، فكأنّما أمرَرْتَ على حَلْقِه مُوسَى وَمِيضة » .

وقال أيضا لرجلٍ مَدَح رجلا فى وجهه : « عَقَرْتَ الرجلَ عَقَرَكَ الله ! » .

وقال أيضا : « لو مَشَى رجلٌ إلى رجل بسَيْف مرهَفٍ كان خيراً له من أن يُثنِيَ عليه فى وجهه » .

ومن كلامِ عمرَ : المَدْح هو الذَّبْح ؛ قالوا : لأنّ المذبوحَ يَنْقَطِع عن الحركة والأعمال ، وكذلك المَمْدوح يَفتُر عن العمل .

ويقول : قد حَصَل فى القلوب والنفوس ما استَغْنَى به عن الحركة والجدّ .

ومن أمثال الفلّاحين : إذا طارَ لك صيتٌ بين الحصّادة ، فاكْسِر مِنْجَلَك .

وقال مُطرف بنُ الشِّخِّير : ما سمعتُ من ثناء أحدٍ علىّ ، أو مِدحةِ أحدٍ لى ، إلّا وتصاغرتْ إلىَّ نفسى . وقال زياد بنُ أبى مسلِم : ليس أحد سَمِع ثناءَ أحدٍ عليه إلّا وتَراءى له شيطان ، ولكنّ المؤمن يراجع .

فلمّا ذُكِر كلامُهما لابن المبارك قال : صَدَقا ؛ أمّا قول زياد فتلك قُلوبُ العوامّ ، وأمّا قولُ مطرِّف فتلك قلوب الخواصّ .

(٩٧)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِاسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تَقدَّم لنا قَوْلٌ مستقصًى فى هذا النحو ، وفى الحوائج وقضائِها واستنجاحِها .

وقد جاء فى الحديث المرفوع : « استعِينوا على حاجاتِكم بالكِتمان ، فإنّ كلّ ذى نِعْمة محسود » .

وقال خالدُ بنُ صَفْوان : لاتطلُبوا الحوائجَ فى غير حِينِها ، ولا تَطلُبوها إلى غيرِ أهلِها، ولا تَطلُبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمَنْع خُلَقاء .

وكان يقال : لكلّ شىء أسٌّ ، وأُسُّ الحاجة تعجيلٌ أروَحُ من التأخير .

وقال رجلٌ لمحمّد بن الحنفيّة : جئتُك فى حُوَيْجة ، قال : فاطلب لها رُجَيْلا !

وقال شَبيبُ بن شَبّة بن عِقال : أمران لا يَجتمِعان إلّا وَجَب النُّجْح ، وهما العاقل لا يَسأَل إلّا ما يجوز ، والعاقل لا يرُدُّ سائلَه عمّا يُمكِن .

وكان يقال : من استعظَم حاجَة أخِيه إليه بعد قضائها امتنانا بها فقد استَصْغَر نفسَه .

وقال أبو تمّام فى المَطْل[١] :

وكان المَطْل فى بَدْء وعَوْدٍ ... دُخاناً للصّنيعة وهى نارُ[٢]
نسيبَ البُخْل مُذْ كانا وإلّا ... يكنْ نَسَبٌ فبينَهما جِوارُ
لذلك قيل : بعضُ المَنْع أدنَى ... إلى جُودٍ ، وبعضُ الجودِ عارُ

(١) ديوانه ٢ : ١٥٩ ــ بشرح التبريزى

(٢) قال شارح ديوانه : «أى يتأذى بالمطل كما يتأذى بالدخان ؛ فكما أن المحمود من النار أن تخلص من الدخان ؛ كذلك المحمود من العطاء خلوصه من المطل » .

(٩٨)

الأصْـلُ :

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاحِلُ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ، وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ؛ يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنًّا، وَالْعِبَادَةَ اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الْإِمَاءِ، وَإِمَارَةِ الصِّبْيَانِ، وَتَدْبِيرِ الْخِصْيَانِ.

***

الشَّـرْحُ :

المَحْل: المكر والكَيْد؛ يقال مَحَل به إذا سَعَى به إلى السلطان، فهو ماحِلٌ ومَحُول؛ والمُماحَلة: المماكَرة والمكايدة.

قوله: « وَلَا يُظرَّف فيه إلَّا الفاجر »، لا يَعُدّ الناسُ الإنسانَ ظريفاً إلا إذا كان خليعاً ماجناً متظاهراً بالفسق.

وقولُه: « ولا يضعَّف فيه إلا المنصِف »، أى إذا رأَوا إنسانا عنده وَرَع وإنصاف فى معاملتِهِ الناسَ عدُّوه ضعيفاً، ونَسَبوه إلى الرِّكّة والرَّخاوة، وليس الشَّهم عندهم إلا الظالم.

ثم قال: « يعُدّون الصدقة غُرْما »، أى خسارة[1]، ويَمُنّون إذا وَصَلوا الرَّحِم

---

(١) ا: « غرما وخسارة ».

وإذا كانوا ذوى عِبادة استطالوا بهـا على الناس وتبجّحوا بها ، وأعجبتهم أنفسهم ، واحتقروا غيرهم .

قال : فعند ذلك يكون السلطان والحكم بين الرعايا بمشورة الإماء . . . إلى آخر الفصل ، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهى إحدى آياته ، والمُعجِزات المختصّ بها دون الصّحابة .

(٩٩)

الأصل :

وقال عليه السلام :

وَقَدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلَقٌ مَرْقُوعٌ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ .

* * *

الشرح :

قد تقدم القولُ فى هـذا الباب ، وذكَرْنا أنّ الحكماء والعارفين فيه على قسمين : منهم من آثر لبسَ الأدْنى على الأعلى ، ومنهم من عكس الحال ، وكان عمرُ بنُ الخطاب من أصحاب المذهب الأوّل ، وكذلك أميرُ المؤمنين ، وهو شِعار عيسى بن مريمَ عليه السلام ، كان يلبسُ الصوف وغليظ الثياب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النّوعين جميعا ، وأكثر لُبسِه كان الجيّد من الثياب مِثل أَبراد اليمن ، وما شاكل ذلك ، وكانت مِلحفتهُ مورَّسَةً[(١)] حتى إنها لتردِع[(٢)] على جِلده كما جاء فى الحديث . ورُئِيَ محمّد بن الحنفية عليه السلام واقفا بعرفات على بِرْذَوْن أصفر ، وعليه مُطْرَف خزٍّ أصْفر ، وجاء فَرْقَد السَّبَخيّ[(٣)] إلى الحسن وعلى الحسَن مُطرف خزٍّ ، فجعل يَنظُر إليه وعلى فَرْقد ثيابُ صوف ، فقال الحسن : ما بالُك تنظُر إلىّ وعلىّ ثيابُ أهلِ الجنّة ،

(١) مورسة ، أى مصبوغة بالورس ؛ وهو نبت أصفر يكون باليمن ، تصبغ به الثياب .

(٢) فى اللسان عن ابن عباس : « لم ينه عن شىء من الأردية إلا عن المزعفرة التى تردع على الجلد » قال : أى تنفض صبغها عليه ، وثوب رديع ؛ مصبوغ بالزعفران .

(٣) ب : « السنجى » ، والصواب ماأثبته ، منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، ذكره ياقوت ؛ وذكر بنسبة فرقد إليه .

وعليك ثيابُ أهلِ النار ! إن أحَدكم ليَجْعل الزهـد فى ثيابه والكِبْرَ فى صَدْره ، فلَهُو أشدُّ عجباً بصوفه من صاحبِ المُطْرَف .

وقال ابن السَّمَّاك لأصحاب الصّوف : إن كان لباسُكم هذا موافِقا لسرائرِكم فلقد أحببتم أن يطّلع الناسُ عليها ، ولئن كان مخالفا لها لقد هَلَكتم .

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطاب فى مَلْبوسه ، وكان قَبلَ الخلافة يلبس الثياب المثمَّنة جـدّا ، كان يقول : لقد خِفْتُ أن يَعْجَز ماقَسم الله لى من الرّزق عمّا أريده من الكسوة ، وما لبستُ ثوبا جديدا قطّ إلّا وخُيِّل لى حين يراه الناس أنه شَمِلٌ أو بالٍ ، فلما ولىَ الخلافة ترَك ذلك كلّه .

وروى سعيدُ بنُ سُويد ؛ قال : صلَّى بنا عمرُ بنُ عبد العزيز الجمعة ، ثمّ جلس وعليه قميص مرقوع الجَيْب من بين يديه ومن خَلْفه ، فقال له رجـل : إنّ الله أعطاك يا أمير المؤمنين ؛ فلو لبستَ ؛ فنكّس مَليّا ثم رفع رأسه فقال : إنّ أفضل القصْد ما كان عند الجِدَة ، وأفضلُ العَفْو ما كان عند القَدْرة .

وروى عاصمُ بن مَعدلة : كنت أرى عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فأعجب من حُسن لونه وجودة ثيابه وبزّته ، ثم دخلت عليه بعد أنْ وَلى ، وإذا هو قد احترق واسودّ ولَصِقَ جِلْدُه بِعَظْمِه؛ حتى ليس بين الجلد والعظم لحم ، وإذا عليه قلنسُوَة بيضاء قداجتمع قطنُها ويعلم أنها قد غسلتْ ، وعليه سُحُق(١) أنبَجانيّة قد خرج سَدَاها ، وهو على شاذكونة(٢) ؛ قد لَصِقت بالأرض تحت الشاذكونة عباءَةٌ قَطَوانيّة(٣) من مُشاقة الصوف، وعنده رجل يتكلم ، فرفع صَوْته ، فقال له عمر:اخفِض قليلا من صوتِك ، فإنما يكفى الرجل من الكلام قدرُ ما يُسمِعُ صاحبَه .

وروى عبيد بنُ يعقوبَ أن عمرَ بنَ عبد العزيز كان يَلبس الفَرْوَ الغليظ من الثياب ، وكان سِراجه على ثلاث قَصَبات فوقهنّ طِين .

---

(١) جمع سحق ؛ وهو الثوب البالى . (٢) الشاذكونة : ثياب غلاظ تعمل باليمن .

(٣) قطوانية : منسوبة إلى قطوان ، موضع بالكوفة .

(١٠٠)

الأصْلُ :

إنَّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ الآخِرَةَ وَعَادَاهَا ، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا ، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ .

* * *

الشّرْحُ :

هذا الفصل بَيّنٌ فى نفسِه لا يَحتاج إلى شَرْح ، وذلك لأنّ عَمَل كلّ واحد من الدارين مُضادٌّ لِعَمَل الأخرى ، فعَمَل هذه : الاكتساب ، والاضطراب[1] فى الرزق ، والاهتمام بأمر المعاش ، والولد والزوجة ، وما ناسَبَ ذلك . وعمل هذه : قَطْعُ العلائق ، ورفض الشهوات ، والانتصاب للعبادة ، وصَرْف الوجه عن كلّ ما يصدّ عن ذِكْرِ الله تعالى ؛ ومعلومٌ أن هذين العَمَلين متضادّان ، فلا جَرَم كانت الدّنيا والآخرة ضرّتين لا يجتمعان !

(١) ا : «والضرب فى سبيل الرزق ».

(١٠١)

الأصْـلُ :

وَعَنْ نَوْفٍ الْبَـكَّالِيّ ـ وَقِيلَ الْبَـكَالِيّ بِاللَّامِ ؛ وَهُوَ الْأَصَحّ ـ قَالَ : رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَام ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنظَرَ إِلَى النُّجُومِ ، فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، أَرَاقِدٌ أَنْتَ أَمْ رَامِقٌ ؟ قُلْتُ : بَلْ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا ، الرَّاغِبِينَ فِي الآخِرَةِ ! أُولَـئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطًا ، وَتُرَابَهَا فِرَاشًا ، وَمَاءَهَا طِيبًا ، وَالْقُرْآنَ شِعَارًا ، وَالدُّعَاءَ دِثَارًا ، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ . يَا نَوْفُ ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ فِي مِثْلِ هٰذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْـلِ ، فَقَالَ : إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَشَّارًا ، أَوْ عَرِيفًا ، أَوْ شُرْطِيًّا ، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ ـ وَهِيَ الطُّنْبُورُ ـ أَوْ صَاحِبَ كُوبَةٍ ، وَهِيَ الطَّبْـلُ .

وَقَدْ قِيلَ أَيْضًا : إِنّ الْعَرْطَبَةَ الطَّبْـلُ ، وَالْـكُوبَة الطُّنْبُورُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قال صاحبُ الصّحاح : نَوْفُ البَـكالِيّ كان صاحبَ عليّ عليه السلام .

وقال ثعلب : هو منسوبٌ إلى قبيلة تُدعَى بَـكالة ، ولم يذكر من أيّ العرب هى ، والظاهر أنّها من اليَمَن ، وأمّا بَكيل فحىّ من هَمْدان ، وإليهمْ أشارَ الـكُمَيت بقوله :

* فقد شركتْ فيه بَكيلٌ وأرْحَبُ *(١)

---

(١) صدره : * يَقولونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا تُرَاثُهُ *

فأمّا البَكالىّ فى نسب نوف فلا أَعرِفه .

قوله : أم رامق ، أى أم مستيقِظٌ ترمُق السماءَ والنجومَ ببَصَرِك .

قوله : قرَضوا الدّنيا ، أى ترَكوها وخلّفوها وراءَ ظهورِهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾[1] أى تترُكهُم وتُخلفهُم شمالا ، ويقول الرجل لصاحبه : هل مَررتَ بمكانِ كذا ، يقول : نَعَم قرَضْته ليلًا ذاتَ اليَمين ، وأنشَدَ لذى الرمّة :

إلى ظُعُنٍ يَقرِضْن أجوازَ مشْرفٍ شمالا وعن أيمانهنّ الفَوارسُ[2]

قالوا : مشرف والفَوارس : موضعان ، يقول : نظرتُ إلى ظُعُن يَجُزن بين هَذين الموضعين .

(١) سورة الكهف ١٧ . (٢) الصحاح (قرض) .

(١٠٢)

الأصل :

إنَّ اللهَ تعالى افترضَ عليكم فرائضَ فلا تُضيِّعوها ، وحدَّ لكم حُدودًا فلا تعتدُوها ، ونهاكُم عن أشياءَ فلا تنتهِكوها ، وسكتَ لكم عن أشياءَ ولم يدعْها نِسيانًا فلا تتكلَّفوها .

* * *

الشرح :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[1] .

وجاء فى الأثر : أبهِموا ما أبهَم الله .

وقال بعضُ الصالحين لبعض الفقهاء : لِمَ تفرض مسائل لَمْ تقع وأتعبت فيها فكرَك ! حَسْبُك بالمتداوَل بين الناس .

قالوا : هذا مِثلُ قولِهم فى باب المَسْح على الخفّين : فإنْ مَسَح على خفّ من زُجاج ؛ ونحو ذلك من النّوادر الغريبة .

وقال شريك فى أبى حنيفة : أجهَلُ الناسِ بما كان ، وأعلَمُهم بما لم يكن .

وقال عمر : لا تتنازعوا فيما لم يكن فتختلفوا ، فإنّ الأمر إذا كان أعان الله عليه ، وانتهاكُ الحُرْمة : تناوُلها بما لا يَحِلّ ، إمّا بارتكاب ما نُهى عنه ، أو بالإخلال بما أمر به .

---

(١) سورة المائدة ١٠١ .

(١٠٣)

الأصـلُ :

لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

مثالُ ذلك إنسان يضيِّع وقتَ صلاةِ الفريضة عليـه ، وهو مشتغِل بمحاسَبَةِ وَكيله ومخافتهِ على مالِه ، خوفاً أن يكون خانَه فى شىء منه ، فهو يَحرِص على مناقَشَتِه عليه ، فتفوته الصّلاة .

قال عليه السلام : مَن فَعَـلَ مِثلَ هذا فَتَحَ الله عليـه فى أمرِ دُنْياه ومالِه ما هو أضرّ عليه ممّا رام أن يَستدرِكَه بإهماله الفريضة .

(١٠٤)

الأصْلُ :

رُبَّ عالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ ، وعِلْمُهُ مَعَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد وَقع مِثلُ هذا كثيرا ، كما جرَى لعبد الله بن المقفع ،وفضلُه مشهور ، وحِكْمتُه أشهر من أن تذكر ، ولو لم يكن له إلا كتاب "اليتيمة" لكَفَى .

[محنة المقفّع]

واجتمع ابنُ المقفَّع بالخليل بن أحمد ، وسمع كلّ منهما كلام الآخر ، فسئل الخليلُ عنه فقال : وجدتُ علمَه أكثر مِن عقله ؛ وهكذا كان ، فإنه كان مع حكمته متهوِّرا ، لا جرَم تهوُّره قتَله ! كتب كتابَ أمان لعبد الله بن علىّ عمّ المنصور ويوجد فيه خطّه ، فكان من جملته : ومَتى غدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله ، أو أبطن غير ما أظهر أو تأوّل فى شىء من شروط هذا الأمان فنساؤه طوالقُ ، ودوابّه حُبُس ، وعبيدُه وإماؤه أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بَيْعته . فاشتدّ ذلك على المنصور لمّا وقف عليه ، وسأل : مَن الذى كتَب له الأمان ؟ فقيل له : عبد الله بنُ المقفع كاتبُ عمّيك عيسى وسليمان ، ابنى علىّ بالبصرة ، فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سُفيان بن معاوية يأمره بقتْله .

وقيل : بل قال : أمَا أحدٌ يكفينى ابنَ المقفع ! فكتب أبو الخصيب بها إلى

سفيان بن معاوية المهلّبي أمير البصرة يومئذ ــ وكان سُفْيان واجداً على ابن المقفّع لأنه كان يعبث به ويَضحَك منه دائما ، فغضِب سفيانُ يوما من كلامه ، وافترَى عليـه ، فردّ ابن المقفّع عليه رَدّا فاحشا ، وقال له : يابن المُغتلِمة ! وكان يمتنع ويعتصم بعيسى وسليمان ابنَىْ علىّ بن عبد الله بن العباس ، فحقدها سُفيان عليه ــ فلما كُوتب فى أمره بمـا كُوتِب اعتزمَ قتله ، فاستأذن عليه جماعةٌ من أهل البصرة ، منهم ابن المقفع ، فأدخل ابن المقفع قبلهم ، وعدَل به إلى حجرة فى دِهليزه ، وجلس غلامُه بدابّته ينتظره عـلى باب سفيان ، فصادف ابنُ المقفع فى تلك الحجْرة سُفْيان بن معاوية ، وعنده غلمانه وتنُّور نار يُسجر ، فقـال له سفيان : أتذكر يوم قلتَ لى كذا ! أمى مغتلِمةٌ إن لم أقتُلك قِتله لم يُقتل بها أحد ؛ ثم قطع أعضاءه عُضوا عُضْوا ، وألقاها فى النار وهو ينظر إليها حتى أَتَى على جميع جسده ، ثم أطبقَ التنوّر عليه، وخرج إلىالناس فـكلّمهم ، فلما خرجوا من عنده تخلّف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرُج ، فمضى وأخبَرَ عيسى بن علىّ وأخاه سليمان بحاله ، فخاصما سفيان بن معاوية فى أمره ، فجحد دُخوله إليه ، فأشْخَصاه إلى المنصور ، وقامت البينة العادلة أن ابنَ المقفّع دخل دار سفيان حيا سليما ولم يخرج منها . فقال المنصور : أنا أنظر فىهذا الأمر إن شاء الله غداً ؛ فجاء سُفيان ليـلًا إلى المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، اتّق الله فى صَنيعتك ومتّبع أمرك ، قال : لا ترُع ، وأحضرَهم فى غـد ، وقامت الشهادة ، وطلب سليمان وعيسى القصاص ، فقال المنصور : أرأيتم إن قتلتُ سفيان بابن المقفع ، ثم خرج ابن المقفّع عليـكم من هذا الباب ــ وأومأ إلى باب خَلفه ــ من ينصّب لى نفسه حتى أقتله بسُفْيان ؟ فسكتوا ، واندفع الأمرُ ، وأضرَب عيسى وسليمانُ عن ذكر ابن المقفع بعدها ، وذَهب دمُه هدَرا .

قيل للأصمعىّ : أيمـا كان أعظم ذَكاء وفِطنةً الخليلُ أم ابن المقفع ؟ فقال : كان ابن المقفع أفصح وأحكم ، والخليلُ آدب وأعقل ؛ ثم قال : شتانّ ما بين فِطْنة أفْضَتْ بصاحبها إلى القتل ، وفطنة أفضَتْ بصاحبها إلى النُّسك والزهد فى الدنيا ! وكان الخليلُ قد نَسك قبل أن يموت .

(١٠٥)

لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هَذَا الْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ الْقَلْبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ مَوَادَّ مِنَ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَاداً مِنْ خِلَافِهَا ، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْحِرْصُ ، وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسَفُ ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَا نَسِيَ التَّحَفُّظَ ، وَإِنْ غَالَهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ ، وَإِنِ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْرُ اسْتَلَبَتْهُ الغِرَّة ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ الْجَزَعُ ، وَإِنْ أَفَادَ مَالًا أَطْغَاهُ الْغِنَى ، وَإِنْ عَضَّتْهُ الفَاقَةُ شَغَلَهُ البَلَاءُ ، وَإِنْ جَهَدَهُ الْجوعُ قَعَدَتْ بِهِ الضَّعَةُ ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشِّبَعُ كَظَّتْهُ البِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

***

الشَّرح :

رُوِي : «قَعَد به الضّعف» . والنِّياط : عِرْق عُلّق به القلب من الوَتين ، فإذا قُطِع ماتَ صاحبُه ، ويقال له النّيط أيضا . والبَضْعَة بفتح الباء : القِطْعة من اللّحم ، والمراد بها ها هنا القلب ؛ وقال : يعتَوِر القلبَ حالاتٌ مختلفاتٌ متضادّات ، فبعضُها من الحِكْمة ، وبعضُها - وهو المضادّ لها - منافٍ للحكمة ، ولم يذكُرْها عليه السلام ، وليست الأمورُ الّتي عدّدها شرحا لِما قدّمه من هذا الكلام المُجمَل ، وإن ظَنّ قومٌ أنه أراد ذلك ، ألا تَرَى أنّ الأمورَ الّتي عدّدها ليس فيها شيء من باب الحِكْمة وخلافِها !

فإن قلت : فما مثالُ الحكمة وخلافها ، وإن لم يذكر عليه السلام مثاله ؟

قلت : كالشجاعة فى القلب، وضدّها الجبن ، وكالجود وضده البُخْل ، وكالعفّة وضدّها الفُجُور ، ونحو ذلك .

فأمّا الأمور التى عدّدها عليه السلام فكلامٌ مستأنف ، إنّما هو بيانٌ أنّ كلّ شىء ممّا يتعلّق بالقلب يَلزَمه لازمٌ آخر نحوُ الرّجاء ، فإنّ الإنسان إذا اشتدّ رجاؤه أذلّه الطمع ، والطّمع يَتْبع الرّجاء ، والفرْق بين الطمع والرّجاء أنّ الرّجاء توقّع منفعة ممّن سبيله أن تَصدُر تلك المنفعة عنه ، والطمع توقّعُ منفعة ممّن يُستبعَد وُقوعُ تلك المنفعة منه ؛ ثم قال : وإن هاج به الطمع قتله الحِرْص، وذلك لأنّ الحِرْص يَتْبع الطّمع، إذا لم يعلم الطامعُ أنّه طامع ، وإنّما يَظن أنّه راج .

ثم قال : وإن مَلَكه اليأس ، قتله الأسف ، أكثرُ الناس إذا يئسوا أسفوا .

ثم عدّد الأخلاقَ وغيرَها من الأمور الواردة فى الفصْل إلى آخره ، ثمّ ختمه بأن قال : «فكلّ تقصيرٍ به مُضِرّ، وكلّ إفراط له مفسد» ؛ وقد سبق كلامُنا فى المدالة ، وإنما الدّرجة الوسطى بين طرفين هما رَذيلتان، والعدالة هى الفضيلة، كالجود الذى يكتنفه التبذير والإمساك، والذّكاء الّذى يَكتنفه الغباوة . والجُرْبُزة[1] ، والشجاعة الّتى يَكتنفها الهوَج والجُبْن، وشرَحْنا ما قاله الحكماء فى ذلك شرحا كافيا ، فلا معنى لإعادته .

---

(١) الجربزة : الخب والخديعة .

(١٠٦)

الأصلُ :

نَحْنُ النُّمْرُقَةُ الْوُسْطَى الَّتِي يَلْحَقُ بِهَا التَّالِي ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْغَالِي .

* * *

الشَّرْحُ :

النُّمرُق والنُّمرُقة بالضم فيهما : وِسادةٌ صغيرةٌ ، ويجوز النِّمرِقة بالكسر فيهما ؛ ويقال للطِّنْفسة فوقَ الرَّحل نُمْرُقة . والمعنى أنّ كلّ فضيلة فإنّها مجنّحة بطرَفَين معدُودَين من الرّذائل كما أوضحناه آنفا ، والمراد أنّ آل محمد عليه وعليهم السلام هم الأمرُ المتوسِّط بين الطّرفين المذمومين ، فكلُّ مَن جاوَزَهم فالواجب أن يَرجِع إليهم ، وكلّ من قَصّر عنهم فالواجبُ أن يَلحق بهم .

فإن قلت : فلِمَ اُستعار لفظَ النّمرقة لهذا المعنى ؟

قلت : لمّا كانوا يقولون : قد رَكِب فلانٌ من الأمر مُنكَرا وقد اُرتَكَب الرأىَ الفلانىّ ، وكانت الطِّنْفِسة فوق الرّحل ممّا يُركَب ، استعارَ لَفظَ النّمرقة لما يراه الإنسانُ مَذهَبا يَرجِع إليه ويكون كالرّاكب له ، والجالِس عليه ، والمتورِّك فوقَه .

ويجوز أيضاً أن تكون لفظة « الوُسْطَى » يراد بها الفُضْلَى ؛ يقال : هذه هى الطريقةُ الوُسْطى ، والخليقةُ الوسطى ، أى الفضلى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾[١] أى أفضلهم ، ومنه : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾[٢] .

(١) سورة القلم ٢٨ . (٢) سورة البقرة ١٤٣ .

(١٠٧)

الأصْلُ :

لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ ، وَلَا يُضَارِعُ ، وَلَا يَتَّبِـعُ الْمَطَامِعَ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق من كلام عمرَ شىءٌ يُناسِب هذا إن لم يكن هو بعَينه ؛ والمُصانَعة : بَذْل الرِّشْوة . وفى المَثَل : مَن صَانَع بالمال ، لم يَحتشِم مِن طَلَب الحاجة .

فإن قلت : كان ينبغى أن يقول : « من لا يصانَع » بالفتح .

قلتُ : المُفاعَلة تدلّ عَلَى كون الفعل بين الاثنين كالمُضارَبة والمُقاتَلة .

ويضارع : يتعرّض لطَلَب الحاجَة ؛ ويجوز أن يكون من الضّراعة وهى الخضوع أى يخضعُ لزَيدٍ ليَخضَع زيدٌ له ؛ ويجوز أن يكون من المضارَعة بمعنى المشابَهة ، أى لا يتشبّه بأئمّة الحقّ أو وُلاة الحقّ ، وليس منهم .

وأمّا اتّباع المَطامِع فمعروف .

(١٠٨)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام ، وَقد تُوُفِّىَ سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ ٱلْأَنصارىُّ بالْـكوفَةِ بَعْدَ مَرْجعهِ مِنْ صِفِّينَ مَعَه ، وَكَانَ مِن أَحَبِّ النَّاس إليه :

لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ .

قال الرَّضىُّ رحمه الله تعالى :

وَمَعْنى ذَلِك أَنَّ ٱلْمِحْنَةَ تَغْلُظُ عَلَيْهِ ، فَتُسْرِعُ ٱلْمَصَائِبُ إِلَيْـهِ ، وَلَا يُفْعَلُ ذَلِكَ إِلّا بِالْأَتْقِيَاءِ ٱلْأَبْرَارِ ، ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ . وَهَـذَا مِثْلُ قَوْلِهِ عليهِ السَّلامُ : « مَنْ أَحَبَّنَا أَهْلَ ٱلبَيْتِ فَلْيَسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْبَابًا » وَقَدْ يُؤَوَّلُ ذَلِكَ عَلَى مَعْنًى آخَرَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

***

الشَّـرْحُ :

قد ثبت أنّ النبيّ صلّى الله عليـه وآله قال له : « لا يُحبّك إلّا مؤمن ؛ ولَا يبغضكَ إلّا منُافق » .

وقد ثبَتَ أنّ النبيّ صلَّى الله عليه وآله قال : « إنّ البَلوَى أسرَعُ إلى المؤمن من الماء إلى الحدُور » .

وفى حَديثٍ آخَر : « المؤمنُ مُلقًّى ، والـكافرُ مُوَقًّى » .

وفى حديثٍ آخر : « خيرُكم عند الله أعظمُـكم مصائبَ فى نفسِه ومالِه وولدِه » .

وهاتان المقدّمتان يَلزَمهما نتيجة صادقة ، وهى أنه عليه السلام لو أحبّه جبلٌ لتهافَت .

ولعلّ هذا هو مرادُ الرضىّ بقوله : « وقد يؤوَّل ذلك على معنًى آخَر ليس هذا موضع ذِكره » .

(١٠٩)

الأصْلُ :

لا مالَ أعْوَدُ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْعُجْبِ ، ولا عَقْلَ كالتَّدْبيرِ ، ولا كَرَمَ كالتَّقْوَى ، ولا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ، ولا مِيرَاثَ كالأدَبِ ، ولا قائِدَ كالتَّوفِيقِ ، ولا تِجارَةَ كالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، ولا زَرْعَ كالثَّوَابِ ، ولا وَرَعَ كالوُقُوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، ولا زُهْدَ كالزُّهْدِ فى الحَرَامِ ، ولا عِلْمَ كالتَّفَكُّرِ ، ولا عِبَادَةَ كأدَاءِ الْفَرائِضِ .

ولا إيمانَ كالحياءِ والصَّبْرِ ، ولا حَسَبَ كالتَّوَاضُعِ ، ولا شَرَفَ كالْعِلْمِ ، ولا عِزَّ كالحِلْمِ ، ولا مُظاهَرَةَ أوْثَقُ مِنَ الْمُشاوَرَةِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى جميع هذه الحِكَم .

أما المال فإنّ العقل أعوَدُ منه ، لأن الأحمق ذا المال طالما ذهب مالُه بحمقه ، فعادَ أحمقَ فقيرا ، والعاقل الذى لا مال له طالما اكتسب المال بعقله ، وبقى عقلُه عليه .

وأما العُجْب فيوجب المَقْت ، ومن مُقِت أُفرد عن المخالطة واستُوحِش منه ، ولا رَيْب أن التدبير هو أفضلُ العقل ، لأنّ العيش كله فى التدبير .

وأما التقوى فقد قال الله : ﴿ إنّ أكرمَكُمْ عنْدَ الله أتْقاكُمْ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .

وأما الأدب فقالت الحكماء : ما ورّثت الآباء أبناءها كالأدب .

وأما التوفيق فمن لم يكن قائده ضلّ .

وأما العمل الصالح ، فإنه أشرف التجارات ، فقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١) .

ثم عدّ الأعمال الصالحة .

وأما الثواب فهو الربح الحقيق ، وأما ربح الدنيا فشبيهٌ بحلم النائم .

وأما الوقوف عند الشُّبُهات فهو حقيقةُ الوَرَع ، ولا رَيْب أنّ مَن يَزْهد فى الحرام أفضل ممن يزهد فى المباحات ، كالمآكل اللذيذة ، والملابس الناعمة ، وقد وَصَف الله تعالى أرباب التفكّر فقال : ﴿ ويتفكّرُونَ فى خَلْقِ السَّموات والأرْض ﴾(٢) . وقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ولا ريبَ أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل . والحياء مخّ الإيمان ، وكذلك الصبر والتواضُع مَصْيدة الشرف ، وذلك هو الحسب ، وأشرف الأشياء العلم ، لأنه خاصّة الإنسان ، وبه يَقَع الفَضْل بينه وبين سائر الحيوان .

والمشورة من الحَزْم فإنّ عقل غيرك تستضيفهُ إلى عقلك . ومن كلام بعض الحكماء : إذا استشارَك عدوُّك فى الأمر فامحَضْه النصيحة فى الرأى ، فإنه إنْ عمل برأيك وانتفع نَدِم على إفراطه فى مُناوأتك ، وأفْضَتْ عداوتُه إلى المودّة ، وإن خالفَك واستضرّ عرف قدر أمانتك بنُصْحه ، وبَلَغْت مُناك فى مَكروهه .

---

(١) سورة الصف ١٠ . (٢) سورة آل عمران ١٩١ .

(١١٠)

الأصْـلُ :

إِذَا اسْتَولَى الصَّلاحُ على الزَّمان وأهْلِهِ ثُمَّ أساءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُل لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ حَوْبَةٌ ، فَقَدْ ظَلَمَ ، وإذا اسْتَوْلَى الْفَسَادُ على الزَّمانِ وأهْلِهِ ، فأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

يريد أنه يتعيّن على العاقل سوءالظّنّ حيث الزمانفاسد ، ولا ينبغى له سوءالظّن حيث الزمان صالح ، وقد جاء فى الخبر المرفوع النهى عن أن يظنّ المسلم بالمسلم ظَنّ السوْء ، وذلك محمولٌ على المسلم الذى لم تظهر منه حَوْبة ، كما أشار إليه علىٌّ عليه السلام ؛ والحوْبة : المعصية ، والخبر هو ما رواه جابر قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الـكعبة فقال : « مرحباً بكِ من بيتٍ ! ما أعظمك وأعظم حُرْمَتك ! والله إن المؤمن أعظم حرمة منك عند الله عز وجل ؛ لأنالله حرّم منك واحدة ، ومن المؤمن ثلاثة : دمَه وماله وأن يظن بهظنّ السوء».

ومن كلام عمر ؛ ضَعْ أمر أخيك على أحْسَنِه حتى يجىء ما يغلبك منه ، ولا تُظَنّنّ بكلمة خرجتْ من فى أخيك المسلم سوءا وأنت تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرَّض نفسه للتّهم فلا يلومَنّ من أساءَ به الظنّ .

شاعر :

أسأتُ إذْ أحسنتُ ظنِّى بكمْ ... والحزمُ سوءُ الظّنّ بالنـاسِ

قيل لعالِم : من أَسوأُ الناس حالًا ؟ قال : من لا يثق بأحدٍ لسوء ظَنّه ، ولا يثق به أحد لسُوء فعله .

شاعر :

وقد كان حُسْنُ الظّنّ بعضَ مَذَاهِبِي فأدّبني هــذا الزمانُ وأهلُهُ

قيل لصوفيّ : ما صناعتك ؟ قال : حُسنُ الظنّ بالله ، وسوء الظنّ بالنــاس . وكان يقال : ما أحسنَ حُسن الظنّ إلّا أنّ فيه العجز ، وما أقبح سوء الظن إلّا أن فيهِ الحَزْم .

ابن المعتزّ :

تَفَقّدْ مَساقِطَ لَحْظِ المُرِيبِ فإنّ العيونَ وجوهُ القلوبِ[1]
وطالِعْ بَوَادِرَه فى الـكلام فإنّك تجني ثمارَ العُيوبِ

(١) ديوانه .

(١١١)

الأَصْـلُ :

وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَام : كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ :
كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ ، وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا مِثلُ قَوْلِ عَبَدَة بن الطّبيب :

أرَى بَصرِى قد رَابَنِي بعد صِحّة ... وحسْبُكَ داءً أن تَصِحّ وتسلما
ولن يَلبثَ العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبا أن يُدرِكا ما تيمّما

وقال آخَر :

كانت قَنــاتِي لا تَلينُ لِغامِزٍ ... فألانَهـا الإصْبـاحُ والإمْساءُ
ودعوتُ ربّي بالسلامةِ جاهدًا ... ليُصِحّني فإذا السّــلامةُ داءُ

(١١٢)

الأَصْـلُ :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ! وَمَا ابْتَـلَى اللهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الاستدراج والإملاء .

فأمّا القولُ فى فِتنة الإنسان بحُسْن القولِ فيه فقد ذَكَرْنا أيضا طَرَفا صالحا يتعلّق بها .

وقال رسولُ الله صلّى الله عليـه وآله لرجلٍ مَدَح رجلا وقد مَرّ بمجلس رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فلم يسمع ، ولـكن قال : « وَيْحَكَ لـكدتَ تَضرِب عنقَه ، لو سَمِعها لما أفلح » .

(١١٣)

الأصْـلُ :

هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ : مُحِبٌّ غَالٍ ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى مِثل هذا ، وقد قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : « والله لولا أنّى أُشفِق أن تقولَ طوائفُ من أمّتى فيكَ ما قالت النصارى فى ابنِ مريم ، لقلتُ فيك اليومَ مقالا لا تمرّ بأحدٍ من الناس إلا أَخَذوا التّرابَ من تحتِ قدَميك للبَرَكة » .

ومع كَونِه صلّى الله عليه وآله لَم يَقل فيه ذلك المَقَالَ فقد غلَت فيه غُلاةٌ كثيرةُ العَدَد منتشِرة فى الدنيا ، يعتقِدون فيـه ما يَعتقِد النصارى فى ابن مريم ، وأَشنَع من ذلك الاعتقاد .

فأمّا المُبغض القالى فقد رأيْنا مَنْ يبغضه ، ولـكن ما رأينا من يَلعَنه ويصرّح بالبراءة منه ، ويقال : إنّ فى عُمَان وما والاها من صُحار وما يَجرِى مَجرَاها قوماً يعتقدون فيه ما كانت الخوارجُ تعتقِده فيه ، وأنا أبرأ[1] إلى الله منهما .

---

(١) ا « ونحن نبرأ » .

(١١٤)

الأصل :

إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ .

***

الشرح :

فِي الْمَثَل : انتهزوا الفُرَص ، فإنّها تمرّ مرّ السّحاب .

وقال الشاعر :

وإن أمكنتْ فرصةٌ فى العدوّ فلا يَكُ هَمُّك إلّا بِها

فإن تَكُ لم تأتِ مِنْ بابِها أتاك عدوُّك من بابِها

وإيّاك مِن نَدَمٍ بعدَها وتأميل أخرى ، وأنّى بها ..؟

(١١٥)

الأَصْلُ :

مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا ، وَالسُّمُّ النَّاقِعُ فِى جَوْفِهَا ؛ يَهْوِى إِلَيْهَا الْغِرُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللُّبِّ الْعَاقِلُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الدنيا مِرارا ، وقد أَخذ أبو العَتاهِيَة هذا المعنى فقال :

إنّما الدهرُ أَرقَمٌ ليّنُ المَسّ وفى نابِه السِّقامُ العُقامُ

(١١٦)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام : وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ :

أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ ، تُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ. وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْعَدُهَا رَأْياً ، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا ، وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ .

***

الشَّـرْحُ :

[فصل فى نسب بنى مخزوم وطرَف من أخبارهم]

قد تقدّم القولُ فى مُفاخَرة هاشم وعبدِ شمس ، فأمّا بنو مخزوم فإنّهم بعد هذين البيتين أفخرُ قُرَيش وأعظمُها شرفا .

قال شيخنا أبو عثمانَ : حظيتْ مخزومُ بالأشْعار ، فانتشر لهم صيتٌ عظيم بها ، واتّفق لهم فيها ما لم يتّفقْ لأحد ، وذلك أنّه يُضرَب بهم المثل فى العِزّ والمَنَعة والُجود والشّرف وأوضَعُوا فى كلّ غاية ، فمن ذلك قول سيحان الجسرى حليف بنى أميّة فى كلمةٍ له :

* وحين يناغى الرَّكبُ موت هشام *

فدلّ ذلك على أنّ ما تقوله مخزوم فى التاريخ حق ، وذلك أنّهم قالوا : كانت قريش وكنانة ومن والاهم من النّاس يؤرّخون بثلاثة أشياء : كانوا يقولون : كان ذلك زمنَ

مَبنَى الكعبة ، وكان ذلك من مجىء الفِيل، وكان ذلك عامَ ماتَ هشامُ بنُ المغيرة. كما كانت العرب تؤرِّخ فتقول : كان ذلك زَمن الفِطْحِل ، وكان ذلكَ زَمَن الحيّـان ، وكان ذلك زَمن الحجارة ، وكان ذلك عامَ الحجّاف ، والرُّواة تَجعَل ضرب المَثَل من أعظم المَفاخر ، وأظهرِ الدلائل . والشِّعر ـ كما علمت ـ كما يرَفع يَضَع ، كما رَفَع من بـنى أَنْف الناقة قول الحطَيئة :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهُم   ومن يسوِّى بأنفِ الناقةِ الذَّنبَا ؟

وكما وَضَع من بنى نُمَيرٍ قولُ جَرير :

فغُضَّ الطَّرفَ إنّك من نُميرٍ   فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلاَبَا

فلقيتْ نُمير من هذا البيت ما لقيتْ .

وجعلهم الشاعر مَثَلا فيمن وَضَعه الهجاء ، وهو يَهْجو قوما من العرب :

وسوف يزيدُكمْ ضَعَةً هِجائى   كما وَضَع الهجاءُ بنى نُمَيرِ

ونُمَيْر قَبِيلٌ شريف ، وقد ثَلَم فى شرفِهم هذا البيت .

وقال ابنُ غزالة الكِندىّ ؛ وهو يَمدَح بنى شَيْبـان ولم يكن فى موضع رَغْبة إلى بنى مخزوم ، ولا فى موضع رَهْبة :

كأنِّى إذ حطَطتُ الرحلَ فيهمْ   بمكَّةَ حين حَلَّ بها هشامُ

فضَرَب بهِشام المَثَل .

وقال رجلٌ من بنى حزْم أحد بنى سَلْمى ، وهو يَمدَح حربَ بنَ معاوية الخفاجىّ وخفاجة من بنى عُقَيل :

إلى حَزْن الحزونِ سَمتْ رِكابى   بوابل خلفها عَسَلانُ جَيْشِ

فلمّا أن أنخْتُ إلى ذُراهُ   أمِنتُ فَراشَنِى منه برِيشِ
توسّط بيتُـــه فى آلِ كعبٍ   كبيتِ بنى مغيرة فى قُرَيْش

فضَرَب المَثَل ببيتهم فى قريش .

وقال عبد الرحمن بن حسّانَ لعبد الرحمن بن الحَكَم :

مارَسْتُ أكيَسَ من بنى قَحْطانِ   صعبَ الــذّرا متمنّـعَ الأركانِ
إنّى طمعتُ بفخرِ من لو رامَــه   آلُ المُغــيرة أو بنو ذَكْوانِ
لـــلاَتُها خيلًا تضبّ لثاتُها   مثـــل الدّبَا وكوابِسِ العِقْبانِ
منهمْ هِشامٌ والوَليد وعِــدُّهم   وأبو أميّـــةَ مَفزَع الرُّكْبان

فضرب المثل بآل المغيرة .

وأمّا بنو ذَكْوان فبنو بَدْر بن عمرو بن حوية بن ذَكْوان أحد بنى عدىّ بن فزَارة منهم حُذَيفة وحَمَل ورهْطهما ، وقال مالكُ بن نُوَيْرة :

ألم ينه عنّا فخر بــكرِ بنِ وائلٍ   هزيمتهم فى كلّ يــومِ لزامِ
فمنهنّ يومُ الشرّ أو يومُ منْعِجٍ   وبالجزْعِ إذ قسّمن حىَّ عِصامِ
أحاديثُ شاعتْ فى مَعَدٍّ وغيرِها   وخــبّرها الركبانُ حَىّ هِشامِ

فجعل قريشا كلّها حيًّا لهشام :

وقال عبد الله بن ثور الخفاجىّ :

وأصبحَ بطنُ مَــكّة مقشعِرًّا   كأنّ الأرضَ ليس بها هِشامُ(١)

وهذا مَثل وفوق المثل .

قالوا : وقال الحروف الكلبىّ — وقد مرّ به ناس من تجّار قريش يريدون الشام بأذَيْن

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١٤٢ من غير نسبة : قال فى شرحه : « يقول : هو وإن كان مات فهو مدفون فى الأرض ؛ فقد كان يجب من أجله ألا ينالها جدب » .

قشفِين ـ : مالكم معاشرَ قريش هكذا أجدَبْتم أم ماتَ هشام ، فجعل موت هشام بإزاء الجدب والمحل ، وفى هذا المعنى قال مُسافرُ بنُ أبى عمرو :

تقول لنا الرُّكبانُ فى كلّ مَنزِلٍ : أماتَ هشامٌ أم أصابَكُمُ جَدْبُ ؟

فجعل موتَ هشام وفَقْدَ الغَيث سواء .

وقال عبدُ الله بنُ سَلَمة بن قشير :

دَعِينى أصطبِحْ يابَكْرُ إنّى رأيتُ الموتَ نَقَّبَ عنْ هشامِ(١).

وقال أبو الطَّمَحان القينىّ ـ أو أخوه :

وكانت قريشٌ لا تخون حريمَها من الخوفِ حتى ناهضتْ بهشامِ

وقال أبو بكر بن شعوب لقومِه كنانة :

يا قومَنا لا تهلكوا إخفاتَا إنّ هشامَ القرشىَّ ماتَا

وقال خِداشُ بنُ زهير :

وقد كنتُ هجّاءً لهمْ ثمّ كفكفوا نوافذَ قَوْلى بالهمامِ هِشامِ

وقال علىّ بن هَرْمة ؛ عمّ إبراهيم بن هَرْمة :

ومن يرتَئِى مدحِى فإنّ مدائحِى نَوافقُ عند الأكرَمين سَوامِ

نَوافِقُ عندالمشترِى الحمدِ بالنَّدى نَفاقَ بناتِ الحارثِ بنِ هشامِ

وقال الشاعر وهو يهجو رجلا :

أحَسِبْتَ أنّ أباكَ يوم نَسبْتَنِى فى المجد كان الحارثَ بنَ هِشامِ

أولَى قريشٍ بالمكارِمِ كلِّها فى الجاهليّة كان والإسلامِ

---

(١) الكامل ٢ : ١٤٣ من غير نسبة ؛ ونقب ، أي طوف حتى أصاب هشاماً . وانظر نسب قريش ٣٠١

وقال الأسود بنُ يعفُر النَّهشَلى :

إنّ الأكارمَ من قريش كلّها شهِدوا فرامُوا الأمرَ كلَّ مرَامِ
حتى إذا كَثُر التجادُل بينهمْ حزَم الأمورَ الحارثُ بن هِشامِ

وقال ثابت قطنة ـ أو كعب الأشقرىّ لمحمد بن الأشعث بن قيس :

أتوعِدنى بالأشْعَثىّ ومالكٍ وتَفخر جَهْلًا بالوَسيط الطُّماطِمِ !
كأنك بالبَطحاء تذمُر حارِثاً وخالد سيف الدّين بين الملاحِمِ

وقال الخزاعىّ فى كلمته التى يذكُر فيها أبا أُحَيْحة :

له سُرَّة البَطْحاء والعدّ والثرى ولا كَهشامِ الخير والقلب مردِفُ

وسأل معاويةُ صعصعة بن صُوحان العبدىّ عن قبائل قريش ، فقال : إن قلنا : غضبتم، وإن سكَتْنا غضِبتم ، فقال : أقسمتُ عليك ، قال : فيمن يقولُ شاعرُكم :

وعَشْرَةٍ كلّهُمْ سيدٌ آباء سادات وأبناؤها
إن يُسألوا يُعطُوا وإن يُمدموا يبيَضّ من مكة بَطْحاؤها

وقال عبد الرحمن بن سَيْحان الْجَسْرىّ حليف بنى أميّة وهو يهجو عبد الله بن مطيع من بنى عدىّ :

حرامٌ كنّتى مِنّى بسَوْء وأذكر صاحِبى أبدا بذامِ[1]
لقد أصرمتُ ودَّ بنى مُطيعٍ حرام الدهر للرجل الحرامِ
وَإن خِيفَ الزمانُ مددتُ حَبْلًا متَينا من حبال بنى هِشامِ
وَريقٌ عُودُهم أبدا رطيبٌ إذا ما اهتزّ عيدانُ الكرامِ

---

(١) الأغانى ٢ : ٢٥٥ مع اختلاف فى الرواية .

وقال أبو طالب بنُ عبـد المطلب وهو يَفخَر بخاليه : هشام والوليد على أبى سُفيان ابن حرب[١] :

وخالى هشامُ بنُ المغيرة ثاقبٌ   إذا همَّ يوما كالحسام المهنَّدِ
وخالى الوليدُ العدْلُ عالٍ مكانُه   وخالُ أبى سفيان عمْرُو بنُ مَرْثَدِ

وقال ابن الزِّبَعْرَى فيهم :

لهم مشيةٌ ليستْ تَليقُ بغيرِهمْ   إذا احْدَودَبَ الثرون فى السَّنَة الجَدْب

وقال شاعر من بنى هَوازِن ، أحد بنى أَنف الناقة حين سَقَى إبله عبد الله بن أبى أمية المخزومى بعد أن مَنَعه الزِّبرقان بن بدر :

أتَدرى من منعت سِيالَ حَوْضٍ   سليل خَضارمٍ منعوا البِطاحا
أزادَ الركب تمنع أم هِشاماً   وذا الرّمحين أمنعهمْ سِلاحا
همُ مَنَعوا الأباطح دون فِهرٍ   ومَن بالخَيْف والبلد الـكفاحا
بضربٍ دونَ بيضهمُ طِلَخْفٍ[٢]   إذا اللهوف لاذ بهم وَصاحا
وما تدرِى بأيّهمُ تُلاقى   صـــدورَ المَشْرَفيّة والرِّماحا

فقال عبد الله ابن أبى أميّة مجيبا له :

لَعَمْرِى لأنت المرء يحسُن باديًا   وتَحسُن عودا شيمةً وتَصَنُّعَا
عرفتَ لقوم مجدَهم وقديمَهُمْ   وكنت لما أسديت أهلًا وموضِعا

قالوا : وكان الوليدُ بن المغيرة يجلس بذى المجاز فيحكم بين العرب أيام عُكاظ وقد كان رجل من بنى عامر بن لؤىّ رافق رجلًا من بنى عبد مناف بن قصىّ ، فجرى بينهما كلام فى حبل ، فعلاهُ بالعصا حتى قتله ، فـكاد دمه يُطَلّ ، فقام دونه أبو طالب

---

(١) ديوانه ٧٦ .   (٢) الطلخف : الضرب الشديد .

ابن عبد المطلب وقدّمه إلى الوليد ، فاستَحْلَفه خمسين يمينا أنه ما قتله ، فنى ذلك يقول أبو طالب :

أمِنْ أجل حَبلٍ ذى رِمامٍ علوتَه بِمنْسَأةٍ قد جاء حبلٌ وأحبُلُ(١)
هلمَّ إلى حُكْم ابن صخرةَ إنّه سيحكم فيما بيننا ثمّ يعدِلُ

وقال أبو طالب أيضا فى كلمة له :

وحُكْمك يُبقى الخير إنْ عزَّ أمرُه تَخمَّطَ واستَعْلى على الأضعف الفرْدِ

وقال أبو طالب أيضا يرثى أبا أميّة زاد الرّكب وهو خالُه :

كأنّ على رَضْرَاضِ قَصٍّ وجَنْدلٍ من اليبس أو تحتَ الفراشِ الجامر(٢)
على خير حافٍ من مَعَدّ وناعِلٍ إذا الخيرُ يُرجى أو إذا الشرّ حاسِرُ
ألَا إنَّ زادَ الركب غيرُ مدافع بِسَرْو سُحَيْمٍ غيَّبْته المقابرُ
تنادَوا بأن لا سيّد اليومَ فيهمُ وقد فُجع الحيّان كعبٌ وعامرُ
وكان إذا يأتى من الشام قافِلا تَقدّمَه قبل الدنُوّ البشائرُ
فيصبح آل الله بيضاً ثيابهم(٤) وقدْماً حَباهمْ والعيون كَواسرُ
أخو جَفْنةٍ لا تبرَح الدهر عندنا مُجَعْجِعة تَدْمى وشاءٌ وباقِرُ
ضَرُوبٌ بنصْل السيفِ سوقَ سمانها إذا أرسلوا يوماً فإنك عاقِرُ
فيالَكَ من راعٍ رُميت بآلة شراعيةٍ تَخضرّ منه الأظافرُ

وقال أبو طالب أيضا يرثى خاله هشام بن المغيرة :

---

(١) ديوانه ١٤٢ . (٢) ديوانه ٧٧ .
وكان ختنه خرج تاجرا إلى الشام فمات بموضع يقال له سرد سحيم .
(٣) الديوان : « كأنما » .
(٤) الديوان : « كستهم حبيرا ريدة ومعافر » .

فقدْنا عميدَ الحىّ والركن خاشعٌ ... كفقْد أبى عُثمان والبَيْتُ والحِجْر (١)
وكان هشامُ بن المغيرة عِصمةً ... إذا عرَكَ الناسَ المَخاوفُ والفقْرُ
بأبياته كانت أراملُ قومه ... تلوذُ وأيتامُ العَشيرة والسَّفْرُ
فوَدّتْ قريشٌ لو فدَتْه بشَطْرها ... وقَلَّ لَعَمرى لو فدَوْه له الشَّطْرُ
تقول لعَمرٍو أنتَ منه وإنّنا ... لَنَرجوك فى جُلِّ المُلِمّات ياعَمرو

عمرو هذا هو أبو جهل بن هشام، وأبو عثمان هو هشام.

وقالت ضُباعةُ بنتُ عامر بنِ سلمة بن قرط تَرثيه:

إنّ أبا عثمانَ لم أنسَهُ ... وإنّ صَبْرا عن بُكاه لَحُوبْ
تَفاقَدوا من معشرٍ ما لَهمْ ... أىّ ذَنوبٍ صُوِّبوا فى القَليبْ

وقال حَسّان بنُ ثابت وهو يهجو أبا جَهْل، وكان يُكنَى أبا الحَكَم:

النّاسُ كَنّوْه أبا حَكَمٍ ... واللهُ كَنّاه أبا جَهْلِ (٢)
أبقتْ رِياستُه لأسْرَتِه ... لؤمَ الفُروع ودِقّة الأصل (٣)

فاُعترف له بالرياسة والتقدّم.

وقال أبو عُبَيد مَعمَر بنُ المثنَّى: لمّا تَنافَرَ عامرُ بن الطُّفَيل وعَلقمةُ بنُ عُلاثة إلى هَرِم بن قُطْبة وتَوارَى عنهما، أرسَلَ إليهما: عليكما بالفتى الحديث السّنّ، الحديدِ الذِّهن؛ فصارا إلى أبى جَهْل، فقال له ابنُ الزِّبَعْرَى:

فلا تَحكُمْ فِداك أبى وخالى ... وكن كالمرء حاكِمِ آل عَمْرو

(١) ديوانه ٨٠.
(٢) ديوانه ٣٤٤، وروايته:
سمّاهُ معشرُه أبا حكمٍ ... واللهُ سمّاهُ أبا جَهْلِ
(٣) الديوان:
أبقَتْ رياستُهُ لمعشرِهِ ... غضبَ الإلـه وذِلّةَ الأصلِ

أَبَى أن يَحكُم ، فرَجَعا إلى هَرِم .

وقال عبدُ الله بنُ ثَور :

هَرِيقَا من دُموعِكُما سِجاماً ضُباعُ وحارِبى نَوْحاً قِياماً
فَمَن للرَّكْب إذ جاءوا طُروقاً وغُلِّقَتِ البيوتُ فلا هِشاما

وقال أيضا فى كلمةٍ له :

وما ولَدت نساءُ بنى نِزارٍ ولا رَشَّحْنَ أكرمَ مِنْ هِشامِ
هشامِ بن المُغيرةِ خيرِ فِهْرٍ وأفضلِ من سقى صَوْبَ الغَمامِ

وقال عُمارة بنُ أبى طَرَفة الهُذَلىّ ، سمعتُ ابنَ جُرَيج يقول فى كلام له : هَلَك سيّد البَطْحاء بالرُّعاف ؛ قلت : ومن سيّد البَطْحاء ؟ قال : هشامُ بنُ المغيرة .

وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : «لو دخل أحدٌ من مُشرِكى قريشٍ الجَنّة لدَخَلها هشامُ ابنُ المغيرة ، كان أبذَلَهم للمعروف ، وأحمَلَهم للكَلّ» .

وقال عُمرُ بنُ الخطّاب ، لا قليلٌ فى الله ، ولا كثيرٌ فى غير الله . ولو بالخُلق الجَزْل والفَعال الدَّثْر ، تُنال المَثوبة لَناَلها هشامُ بنُ المغيرة ، ولكن بتوحيد الله ، والجهاد فى سبيله .

وقال خِداشُ بنُ زُهَير فى يوم شَمْطة[1] ، وهو أحدُ أيّام الفِجار ، وهو عدوّ قريش وخَصْمُها :

وبَلِّغْ إن بَلَغْتَ بنا هِشاماً وذا الرُّمْحين بلِّغ والوَليدا[2]
أولئك إن يكنْ فى الناس جُودٌ فإنّ لديهمُ حَسَباً وَجودا
همُ خيرُ المَعاشرِ من قريشٍ وأَوْراها إذا قَدَحوا زُنودا

(١) لقيس على كنانة وقريش . وشمطة : موضع قريب من عكاظ .
(٢) أيام العرب فى الجاهلية ٣٣٢ .

وقال أيضا وذَكَرَها فى تلك الحروب :

يا شَدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذبةٍ   على سَخِينةَ لولا اللّيلُ والحَرَمُ[(١)]
إذَا ثَقِفْنا هِشاماً بالوَليد ولو   أنّا ثَقِفْنا هِشاما شالَت الجِذَمُ

وذَكَرَهم ابنُ الزِّبَعْرَى فى تلك الحروب فقال :

ألا للهِ قومٌ وَ   لدتْ أختُ بنى سَهْمِ[(٢)]
هِشامٌ وأبو عبدِ   منافٍ مِدْرَه الخَصْمِ
وذو الرمحين أشباكَ   من القوّة والحَزْمِ[(٣)]
فهذانِ يَذُودانِ   وذا عَنْ كَثَبٍ يَرْمى
وهمْ يومَ عُكاظٍ مَـ   نَعُوا الناسَ من الهَزْمِ
بجأواء طَحُونٍ فَخْـ   ـمةٍ القَوْنَسِ كالنَّجْمِ
أُسُودٌ تَزدَهِى الأقرا   نَ مَنّاعُون للهَضْمِ[(٤)]
فإنْ أحلفْ وبيتِ اللـ   ـهِ لا أحلفْ على إثمِ
وما من إخوةٍ بين   دروبِ الشامِ والرَدْمِ
بأزكى من بنى رَيْطَـ   ـةَ أو أَرْزَنَ من حِلمِ

رَيْطة ، هى أمّ وَلَد المغيرة ، وهى رَيْطة بنتُ سعيد بن سَهْم بن عَمْرو بن هصيص ابن كَعْب ، وأبو عبد مناف هو أبو أُميّة بن المُغيرة ، ويُعرَف بزاد الرَّكْب ، واسمُه حُذَيفة ، وإنّما قيل له : زادُ الرَّكْب لأنّه كان إذا خرج مسافرا لم يتزوَّدْ معه أحدٌ ، وكانت

(١) الأغانى ١٩ : ٧٦ ؛ من أبيات أربعة ، والثانى فى نسب قريش ٣٠٠ مع اختلاف فى الروايات .
(٢) الأغانى : ١ : ٦٢ ، الأمالى ٣ : ١٩٦ ، ١٩٧ (طبعة دار الكتب) .
(٣) فى الأصول : « أشبال » ، صوابه من الأمالى ٢ : ٢٠٨ . قال ، يقال : أشباك بفلان ؛ كما يقال حسبك بفلان ؛ وأنشد البيت .
(٤) الأغانى : « منعوا الناس من الهزم » .

عندَه عاتكةُ بنتُ عبدِ المطّلب بنِ هشام ، وأمّا ذو الرُّمْحين فهو أبو ربيعةَ بن المغيرة واسمُه عَمرو ، وكان المُغيرةُ يُكنَى باسم ابنِه الأكبر ، وهو هاشم ، ولم يُعقِب إلّا مِن حَنْتَمةَ ابنته ، وهى أمّ عُمرَ بنِ الخطّاب .

وقال ابنُ الزِّبَعْرَى يمدَح أبا جهل :

رُبَّ نَديمٍ ماجدِ الأصلِ مهذَّبِ الأعراق والنَّجلِ
منهمْ أبو عبدِ منافٍ وكم سربت بالضَّخْم على العَدْلِ
عَمْرو النّدى ذاكَ وأشياعهُ ما شئتَ مِن قولٍ ومِن فِعلِ

وقال الوَرْد بن خلاس السَّهْمِىّ : سَهْم باهلةَ يمدَح الوليد :

إذا كنت فى حَيْ جَذيمةَ ثاوِياً فعندَ عظيم القَرْيتين وليدُ
فذاكَ وحيدُ الرّأى مشتركُ النّدَى وعِصْمة مَلْهوف الجَنان عَميدُ

وقال أيضا :

إنّ الوَليدَين والأبناء ضاحية رَبَّا تِهامةَ فى الَميْسور والعُسُرِ
هُمُ الغِياثُ وبعضُ القومِ قِرْقمةٌ عِزّ الذّليل وغيظُ الحاسدِ الوَغِرِ

وقال :

ورهْطُكَ يابنَ الغَيْثِ أكرَمُ محتِد وأمنَع للجارِ اللّهيفِ المُهضَّم

قالوا : الغيثُ لَقَب المُغيرة ، وجعلَ الوليدَ وأخاه هِشاما رَبّىْ تِهامةَ كما قال لَبيدُ بنُ ربيعة فى حُذَيفة بن بَدْر :

وَأَهْلَكْنَ يوماً رَبَّ كِندةَ وابنَه وربّ معدٍّ بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ (١)

فجعله رَبَّ مَعَدّ .

***

(١) ديوانه ٥٥

قالوا : يدلّ على قَدْر مخزوم ما رأينا من تعظيم القرآن لشأنهم دونَ غيرهم من سائر قريش ، قال الله تعالى مُخبِرا عن العرب : إنّهم قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ هَـذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(١) فأحدُ الرّجلين العظيمين بلا شكّ الوليدُ بنُ المغيرة ، والآخَر مختلَفٌ فيه ؛ أهو عُرْوَة بنُ مسعود ، أم جدُّ المُخْتار بنِ أبى عُبَيد .

وقال سبحانَه فى الوليد : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً ... ﴾(٢) الآيات .

قالوا : وفى الوليد نزلتْ : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾(٣).

وفى أبى جهل نزلتْ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾(٤) .

وفيه نزلتْ : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾(٥).

وفى مخزوم : ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾(٦) .

وفيهم نزلتْ : ﴿ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾(٧) .

وزعم اليقطرىّ أبو اليقظان وأبو الحَسَن أنّ الحجّاج سأل أعشى هَمْدانَ عن بيُوتات قريش فى الجاهليّه ، فقال : إنّى قد آليْتُ ألّا أنفّر أحدا على أحد ، ولكن أقول وتَسْمَعون ، قالوا : فقُلْ . قال : من أيّهم المحبَّب فى أهله ، المؤرَّخ بذِكْره ، مُحَلِّى الكَعْبة ، وضاربُ القُبَّة ، والملقَّب بالخير ، وصاحبُ الخير والمَيْر ؟ قالوا : مِن : بنى مخزوم ، قال : فمن أيّهم ضجيعُ بَسْباسة ، والمَنْحور عنه ألف ناقة ، وزادُ الركب ، ومبيِّض البَطْحاء ؟ قالوا : مِنْ بنى مخزوم ، قال : فمِنْ أيّهم كان المقنعُ فى حُكْمه ، والمنفّذ وصيّته على تهكّمه ، وعدل الجميع فى الرِّفادة ، وأوّل من وَضَع أساسَ الكَعْبة ؟ قالوا مِن بنى مخزوم ، قال : فمن

(١) سورة الزخرف ٣١ . (٢) سورة المدثر ١١ ـ ١٣ .
(٣) سورة عبس ٥ ، ٦ . (٤) سورة الدخان ٤٩ .
(٥) سورة العلق ١٧ . (٦) سورة المزمل ١١ .
(٧) سورة الأنعام ٩٤ .

أيّهم صاحب الأرِيكة ، ومُطعِم الخزِيرة ، قالوا من بنى مخزوم ؛ قال فمِن أيّهم الإخْوة العَشَرة ، الكرام البرَرة ؟ قالوا من بنى مخزوم ، قال : فهو ذاك ؛ فقال رجلٌ من بنى أميّة ، أيّها الأمير ، لو كان لهم مع قديمهم حديث إسلام ! فقال الحجّاج : أوَ ما علمت بأنّ منهم ردّاد الرِّدّة ، وقاتل مُسَيْلِمة ، وآسِر طُلَيحة ، والمُدرِك بالطائلة ، مع الفتوح العِظام والأيادِى الجِسام ! فهذا آخرُ ما ذكَرَه أبو عثمان .

ويُمكِن أن يُزاد عليه فيقال: قالتْ مخزوم ما أنصَفَنامن اُقتَصَر فى ذكْرِنا على أن قال: مخزوم ريحانةُ قُرَيش، تحبّ حديثَ رجالِهم، والنّكاحَ فى نسائهم، ولنافى الجاهليّة والإسلام أثَر عظيم ، ورجالٌ كثيرة ، ورؤساءُ شهيرة ، فمِنّا المغيرةُ بنُ عبد الله بن عمْرو بنِ مخزوم، كان سيّدَ قريش فى الجاهليّة ، وهو الذى منَع فزَارةَ من الحجّ لما عيّر خشين بن لأى الفزَارِىّ ، ثمّ الشّمخِى قوماً من قريش إنّهم يأْخذُون ما ينحَره العَرَب من الإبل فى المَوْسم ، فقال خشين لمّا منع من الحجّ :

يا رَبِّ هل عندَكَ من عَقِيرهْ   أُصلِحُ مالى وَأَدَعْ تنحيرَهْ
فإنّ منّا مانع المغـيرهْ   ومانعاً بعـد منى بثيرَهْ
* ومانعاً بَيْتَكَ أنْ أزورَهُ *

منّا بنو المغيرة العشرة أمُّهم رَيْطة ، وقد تقدّم ذكرُ نسبِها ، وأمُّها عاتكةُ بنتُ عبدِ العُزّى بن قُصَىّ ، وأمُّها الُحطَيّا بنت كَعْب بن سعد بن تيم بنِ مُرّة ، أوّل امرأة من قريش ضَربتْ قِبابَ الأَدَم بذى المَجاز ، ولها يقول الشاعر :

مَضَى بالصالحاتِ بنو الُحطَيّا   وكان بسَيْفهم يَغْنَى الفقيرُ

فمِن هؤلاء ـ أعنِي الُحطَيّا ـ الوليدُ بنُ المغيرة أمّه صَخْرة بنتُ الحارث بنِ عبـد الله

ابن عبدِ شمس القُشَيرىّ ، كان أبو طالب بنُ عبد المطلب يَفتخِر بأنّه خاله ، وكفاكَ من رجل يَفتخر أبو طالب بخُئُولته ! ألا ترَى إلى قولِ أبى طالب :

وخالِى الوليــد قد عرفتمْ مَكانَه ... وخالى أبو العاصِى إياسُ بنُ مَعبدِ

ومنهم حفصُ بنُ المغيرة ، وكان شريفا . وعثمان بنُ المغيرة . وكان شريفا . ومنهم السيّد المُطاع هشامُ بنُ المغيرة ، وكان سيّدَ قريش غيرَ مُدافَع ، له يقول أبو بكر بنُ الأسود ابن شعوب يرثيه :

ذَرِينِى أصطبِحْ يا بَكْرُ إنّى ... رأيتُ الموتَ نقَّبَ عن هِشامِ

تَخيَّرَه ولم يَعــدِل ســواهُ ... ونعِم المرءُ بالبَــلدِ الحرامِ !

وكنتُ إذا ألاقِيــه كأنّى ... إلى حَرَمٍ وفى شهرٍ حَرامِ

فودَّ بنو المُغــيرةِ لو فَدَوْه ... بألفِ مُقاتِلٍ وبألفِ رامِ

ووَدَّ بنو المغــيرة لو فَدَوْه ... بألفٍ من رجالٍ أو سَــوامِ

فبَكِّيه ضُبــاعُ ولا تَمَلِّى ... هِشــاماً إنَّهُ غَيثُ الأنامِ

ويقول له الحارث بن أُميّة الضَّمْرىّ :

ألاَ هلك القَنّاصُ والحامِلُ الثِّقْلا ... ومن لا يَضَنّ عن عشيرتِه فَضْلا

وحَرْبٍ أبا عثمانَ أطفأت نارَها ... ولولا هِشامٌ أوقَدَتْ حَطَبا جَزْلا

وعانٍ تَرِيكٍ يستــكِين لِعِلَّةٍ ... فككْتَ أبا عثمانَ عن يَدِه الغُلّ

ألا لَسْتَ كالهُلْكِى فتُبكَى بكاءَهم ... ولكنْ أرى الهُلاّكَ فى جَنْبه وَغْلا

غداة غدتْ تبكى ضباعةُ غَيثَنا ... هِشاماً وقد أغْلتْ بمَهْلكِه ضَحْلا

ألم تَرَيَا أنّ الأمانة أصعدَتْ ... مع النَّعْش إذْ وَلَّى وكان لها أهْلا !

وقال أيضاً يبكيه ويَرْثيه :

وأصبحَ بطنُ مَكّة مقشعِرًّا شديدَ المَحْل ليس به هِشامُ
يَرُوح كأنّه أشلاء سَوْطٍ وفوقَ جِفانِه شَحْمٌ رُكامُ
فللْكُبراءِ أكْلٌ كيفَ شاءوا وللوِلْدان لَقْمٌ واغتِنامُ
فبَكّيهِ ضُباعُ ولا تَمَلّى ثِمالَ الناس إن قَحَط الغَمامُ
وإنّ بنى المُغيرة من قُرَيش هم الرأسُ المقدَّم والسَّنامُ

وضُباعة التى تذكرها الشعراء زوجةُ هِشام ، وهى من بنى قُشَير .

قال الزبيرُ بنُ بَكّار : فلما قال الحارث : « ألا لستَ كالهَلْكى . . . » البيت ، عَظُم ذلك على بنى عبد مناف فأغرَوْا به حكيمَ بن أميّة بن حارثة بن الأَوْقص السُّلمىّ حليفَ بنى عبدِ شمس ، وكانت قريشٌ رضيتْ به واستعملتْه على سِقَايتها ، ففرّ منه الحارث ، وقال :

أفِرُّ من الأباطِحِ كلَّ يوم مخافَةَ أن ينكِّل بى حَكيمُ

فهدم حكيمٌ دارَه ، فأعطاه بنو هشام دارَه التى بأجْياد عِوَضا منها .

وقال عبد الله بنُ ثور البَكّائىّ يرثيه :

هَرِيق من دموعهما سِجاما ضباعُ وجاوبى نَوْحاً قياماً
على خير البريّة لن تراه ولن تلقى مَواهبَه العظاماَ
جَوادٌ مثل سَيْل الغَيْث يوما إذا علجانُه يعلو الإكاما
إذا ما كان عامٌ ذو عُرامٍ حسبتُ قُدورَه جَبلا صِياماً

فمن للرَّكْب إذا أمسَوْا طُروقاً ... وغُلِّقتِ البيوتُ فلا هِشاماَ

وأوْحَش بطنُ مَكَّة بعدَ أُنْس ... ومجد كان فيها قد أقاماَ

فلم أرَ مِثله فى أهل نَجْدٍ ... ولا فيمن بغَوْرِكِ يا تِهاماَ

* * *

قال الزبير : وكان فارس قريش فى الجاهلية هشامُ بنُ المغيرة ، وأبو لَبيد بن عَبْدة ابن حَجْرة بن عبد بن مَعيض بن عامر بن لؤىّ ، وكان يقال لهشام : فارس البَطْحاء ، فلمّا هَلَكا كان فارِسَىْ قريشٍ بعدها عمرو بن عبد العامرىّ المقتول يوم الخَنْدق ، وضرارُ ابنُ الخطّاب المحاربىّ الفِهْرى ، ثمّ هُبَيرة بن أبى وهب وعِكْرمة بن أبى جهل المخزوميّان . قالوا : وكان عامَ ماتَ هشامٌ تاريخا ، كعام ِ الفيل ، وعام الفِجار ، وعام بُنْيان الكعبة . وكان هشام رئيسَ بنى مخزوم يومَ الفِجار .

قالوا : ومنّا أبو جهل بن هشام ، واسمه عَمرو ، وكُنْيته أبو الحكم ، وإنّما كناه « أبا جهل » رسول الله صلى عليه وآله ، كان سيّدا أدخلته قريش دار النَّدْوة فسوّدَتْه وأجلسَتْه فوق الجِلّة من شُيوخ قُرَيش ، وهو غلام لم يطرّ شارِبُه ، وهو أحد من سادَ على الصّبا . والحارث بن هشام أخو أبى جَهل كان شريفا مذكورا ، وله يقول كَعب ابن الأشرف اليهودى الطائىّ :

نُبِّئتُ أنّ الحارث بن هِشامٍ ... فى الناس يبنى المكرُماتِ ويجمَعُ[(١)]

ليزورَ يَثرِب[(٢)] بالجموعِ وإنما ... يبنى على الحسب القديم الأرْوَعُ

وهو الذى هاجَرَ من مكّة إلى الشام بأهله وماله فى خلافة عمرَ بن الخطّاب ، فتبعه أهلُ مكّةَ يبْكون ، فرقّ وَبَكى وقال : إنّا لو كنّا نستبدِل داراً بدار ، وجارا

---

(١) نسب قريش ٣٠١ .

(٢) فى نسب قريش « أثرب » ؛ وهى لغة فى « يثرب » .

بجار ، ما أردْنا بكم بدلا ، ولكنها النُّقْلة إلى الله عزّ وجلّ ، فلم يزل حابساً نفسه ومن معه بالشام مُجاهدا حتى مات .

قال الزُّبير : جاء الحارثُ بنُ هشام وسُهَيلُ بنُ عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأوّلون والأنصار يأتون عمرَ فيُنَحِّيهما ويقول : ها هنا يا سُهَيل ، هاهنا يا حارث ! حتى صارا فى آخر الناس ؛ فقال الحارث لسُهيل : ألم تر ماصنع بنا عمر اليوم ! فقال سُهيل : أيّها الرجل ، إنه لا لَوْم عليه ، ينبغى أن نرجع باللَّوْم على أنفسنا ، دُعِيَ القومُ ودُعينا ، فأسرَعوا وأبطأْنا . فلما قاما من عند عمرَ أتَياه فى غدٍ فقالا له : قد رأينا ماصنعتَ بالأمْس، وعلِمْنا أنا أُتينا من أنفسِنا فهل من شيء نَستدركُ به ؟ فقال : لا أعلم إلّا هذا الوجه ـ وأشار لهما إلى ثغر الرّوم فخرجا إلى الشام ، فجاهدا بها حتى ماتا .

قالوا : ومنّا عبدُ الرحمن بنُ الحارث بن هشام ، أمّه فاطمةُ بنتُ الوَليد بنِ المُغيرة ، وكان شريفا سيّدا ، وهو الّذى قال لمعاوية لمّا قُتِل حُجْر بن عَدِيّ وأصحابه : أين عَزَب منكَ حِلْمُ أبى سُفْيان ، ألا حبَسْتَهم فى السّجون ، وعرَّضْتَهم للطاعون ! فقال حين غاب عنّى مثلك من قومى . وعبد الرحمن بنُ الحارثِ بن هشام هو الّذى رَغِب فيه عثمانُ بنُ عَفّان وهو خليفة فزوَّجه ابنَته .

قالوا : ومنّا أبو بكر بنُ عبدِ الرحمن بن الحارث بنِ هشام ، كان سيّدا جوَادا وفقيها عالما ، وهو الّذى قَدِم عليه بنو أسَد بن خزيمة يسألونه فى دِماء كانت بينهم ، فاحتَمل عنهم أربعَمائة بعير دِية أربعةٍ مِنَ القَتْلى ، ولم يكن بيَدِه مال ، فقال لابنه عبدِ الله بن أبى بكر : اذهَب إلى عمّك المغيرة بن عبد الرحمن فاسأله المعونة ، فذهَب عبد الله إلى عمّه فذَكَر له ذلك ، فقال المغيرة : لقد أكبر علينا أبوك ، فانصرَف عنه عبدُ الله وأقام أيّاما

لا يَذكُر لأبيه شيئاً ، وكان يَقُودُ أباه إلى المسجد وقد ذَهَب بصرُه ، فقال له أبوه يوما : أذَهَبْتَ إلى عمّك ؟ قال : نعم ، وسكَت ، فعرَف حين سَكَت أنه لن يجد عند عمّه ما يُحِبّ . فقال له : يا بُنَيّ ألا تُخبِرني ماقال لك ؟ قال : أيفعل أبو هاشم ـ وكانت كُنْية المُغيرة ـ فربّما فَعَل ، ولكن اُغدُ غداً إلى السّوق فخُذْ لى عِينَةً ، فغدا عبد الله فتعيّن عينة من السّوق لأبيه وباعَها ، فأقام أيّاما لا يَبيع أحد فى السّوق طعاما ولا زَيْتا غير عبد الله ابنِ أبى بكر من تلك العِينة ، فلمّا فرغ أمَرَه أبوه أن يدفَعها إلى الأسَديّين فدَفَعها إليهم .

وكان أبو بكر خَصيصا بعبدِ الملك بن مَرْوان، وقال عبدُ الملك لابنه الوَليد لمّا حضرتْه الوفاة : إنّ لى بالمدينة صَديقَين فاحفَظْنى فيهما : عبدُ الله بنُ جعفر بن أبى طالب وأبو بكر ابنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام .

وكان يقال : ثلاثة أبيات من قريش توالَتْ بالشّرف خَمْسة خَمْسة ، وعدّوا منها أبا بكر ابن عبد الرّحمن بن الحارث بنِ هشام بنِ المغيرة .

قالوا : ومنّا المغيرةُ بن عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام ، كان أجوَدَ الناس بالمال ، وأطعَمَهم للطّعام ؛ وكانت عَيْنُه أصيبتْ مع مَسلَمة بن عبد المَلك فى غزْوة الروم ، وكان المُغيرةُ يَنحَر الجزور ، ويُطعِم الطّعام حيث نزل ، ولا يردّ أحدا ، فجاء قومٌ من الأعْراب فجلسوا على طعامه ، فجعل أحدُهم يُحِدّ النظَر إليه ، فقال له المغيرة : مالَكَ تُحِد النّظر إلىّ ! قال : إنّى لَيرَيبنى عينُك وسَماحُك بالطعام ؛ قال : وممّ ارْتَبْتَ ؟ قال : أظنّك الدّجّال ، لأنّا روينا أنّه أعوَر ، وأنّه أطعَمُ الناسِ للطّعام ، فقال المغيرة : وَيْحَك ! إنّ الدجّال لا تُصابُ عينُه فى سبيل الله . وللمغيرة يقول الأقَيْشر الأسَدىّ لمّا قَدِم الكوفة فنَحَر الجزرَ وبَسَط الأنْطاع وأطعَم الناس ، وصارَ صِيتُه فى العرَب :

أتــاكَ البَحْرُ طَمَّ على قريشٍ مُعيريّ فقد راعَ ابنَ بِشرٍ[1]
وراعَ الجدْى جَدْى التَّيْم لمّا رأى المعروفَ منه غيرَ نَزْرِ
ومن أوتارِ عُقْبة قد شَفَانى ورهط الحاطبىّ ورَهْط صَخْرِ
فلا يغرُرْكَ حُسنُ الزِّىّ منهمْ ولا سرح ببَزْيونٍ وبُمرٍ[2]

فابن بِشْر ، عبدُ الله بنُ بِشْر بن مروان بن الحَكَم ، وجَدْى التَّيْم : حمّاد بن عمران ابن موسى بن طلحة بن عُبَيد الله ، وأوْتار عُقْبة يعنى أولاد عُتْبَة بن أبى مُعَيط ، والحاطبىّ لُقْمان بنُ محمد بن حاطب الجُمَحىّ ، ورهط صَخْر : بنو أبى سُفْيان بن حَرْب بن أمَيّة ، وكلّ هؤلاء كانوا مشهورين بالكوفة ، فلمّا قدمَها المغيرة أخمَلَ ذِكرَهم ، والمغيرة هذا هو الّذى بَلَغه أنّ سُلَيم بنَ أفلح مولى أبى أيّوب الأنصارِىّ أراد أن يبيع المنزلَ الّذى نزل فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله مَقدَمَه المدينة على أبى أيّوب بخمسمائة دينار ، فأرسَل إليه ألف دينار ، وسأله أن يبيعه إيّاه ، فباعَه ، فلمّا ملَكه جعلَه صدقةً فى يومه .

قال الزبير : وكان يزيدُ بنُ المغيرة بنِ عبد الرحمن يطافُ به بالكوفة على العِجْل ، وكان يَنحَر فى كلّ يوم جَزورا ، وفى كلّ جمعة جَزورَين . ورأى يوما إحدَى جَفَناتِه مُكلَّلة بالسَّنام تكليلا حَسَنا ، فأعجَبه ، فسَأل فقال : من كَلَّلها ؟ قيل : اليَسَع ابنك ؛ فسُرّ ، وأعطاه ستّين دينارا .

ومرّ إبراهيم بن هشام على بُرْدةِ المغيرة وقد أشرقتْ على الجَفْنة ، فقال لعبدٍ من عبيد المغيرة : يا غلام ، على أىّ شىء نصبتم هذا الثريدَ على العمد ؟ قال : لا ، ولكن على أعضادِ الإبل ، فبلغ ذلك المغيرة ، فأعتق ذلك الغلام .

والمغــــيرة هو الذى مرّ بجَرّة الأعراب فقاموا إليه ، فقالوا : يا أبا هاشم ، قد فاضَ

---

(١) نسب قريش ٣٠٥ .

(٢) البزيون ، بالضم : السندس ، وقال ابن برى : هو رقيق الديباج .

معروفُك على الناس ، فما بالُنا أشْقى الخلْق بك ! قال : إنه لا مالَ معى ، ولـكن خذوا هذا الغلام فهو لـكم ، فأخذوه ، فبـكى الغلامُ فقال : يا مَوْلاى ، خدمتى وحُرمتى ! فقال : أتبيعونى إيّاه ؟ قالوا : نعم ، فاشتراه منهم بمالٍ ثمّ أعتقه ، وقال له : والله لا أعرّضك لمثلها أبدا ، اذهبْ فأنتَ حرّ ، فلما عاد إلى الـكوفة حمل ذلك المال إليهم .

وكان المغيرة يأمر بالسكّر والجوْز فيدقّان ويُطعِمُهما أصحاب الصُّفّة المساكين ، ويقول : إنهم يشتَهون كما يَشتهى غيرهم ولا يمـكنهم ، فخرج المغيرةُ فى سفرٍ ومعه جماعةٌ فوَرَدوا غديراً ليس لهم ماء غيره ـ وكان مالحا ـ فأمر بِقرب العَسَل فشقّت فى الغدير وخيضت بمائه ، فما شَرِب أحدٌ منهم حتى راحوا إلّا من قرب المغيرة .

وذكَر الزبيرُ أنّ ابناً لهِشَام بن عبد الملك كان يسوم المُغيرة ماله بالمـكان المسمّى بديعا ، فلا يبيعه ، فغَزَا ابن هشام أرض الروم ومعه المغيرة ، فأصابت الناسَ مجاعة فى غَزاتهم ، فجاء المغيرة إلى ابن هشام فقال : إنك كنت تَسومُنى مالى ببديع[1] ؛ فأبى أن أبيعكه ، فاشترِ الآن منّى نِصفَه بعشرين ألف دينار . فأطعم المغيرةُ بها الناس ، فلما رجع ابنُ هشام بالناس من غزوته تلك وقد بلغ هشاما الخبرُ قال لابنه : قبّح اللهُ رأيك أنت أمير الجيش ، وابن أمير المؤمنين ، يصيبُ الناس معك مجاعة فلا تُطعمهم حتى يبيعك رجل سُوقة ماله ، ويطعم به الناس ! وَيْحَك أخشيتَ أن تفتقر إن أطعمتَ الناسْ !

قالوا : ولنا عِـكْرمة بن أبى جَهل الذى قام له رسول الله صلى الله عليه وآله قائما ، وهو بَعدُ مُشرِك لم يُسلِم ولم يَقُم رسول الله صلى الله عليه وآله لرَجُلٍ داخِلٍ عليه من الناس شريفٍ ولا مشرّفٍ ، إلّا عكرمةَ ، وعكرمة هو الذى اجتهد فى نُصْرة الإسلام بعدَ أن كان شديد العداوة ، وهو الذى سأله أبو بكر أن يقبل منه معونةً على الجهاد فأبى ،

---

(١) بديع : ماء عليه نخيل وعيون جارية بقرب وادى القرى . ياقوت .

وقال : لا آخذ على الجهاد أجراً ولا معونة ، وهو الشهيد يوم أجْنَادين ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تسألنى اليومَ شيئاً إلا أعطيتُك » ، فقال : فإنى أسألك أن تستغفرَ لى ؛ ولم يسأل غيرَ ذلك ، وكلّ قريش غيره سألوا المالَ ، كسُهيل بن عمرو وصَفْوان بن أميّة وغيرهما .

قالوا : ولنا الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ، كان شاعرا مجيدا مُكثرا ، وكان أميرَ مكة استعمَله عليها يزيدُ بنُ معاوية .

ومِن شِعره :

مَن كان يَسألُ عنّا أينَ منزلُنا ... فالأُقْحُوانةُ منّا منزلٌ قَمِن (١)

إذْ نَلبَس العيْشَ غضًّا لا يُكدِّرُه ... قربُ الوُشاة ولا يَنْبو بنا الزّمنُ

وأخوه عِكرمة بنُ خالد كان من وجوهِ قريش ، وروَى الحديث ، وروى عنه .

ومن ولد خالدِ بنِ العاص بن هشام بن المغيرة خالد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ، كان جَواداً مِتْلافا ، وفيه قال الشاعر :

لَعمرُك إن المجدَ ما عاشَ خالدٌ ... على العُمْر من ذى كَبدة لَمُقيمُ

وتَندَى البِطاحُ البيضُ من جُود خالد ... ويُخْصِبن حتى نبتُهنّ عميمُ

قالوا : ولنا الأوْقص ، وهو محمّد بنُ عبدالرحمن بن هشام بن المغيرة ، كان قاضى مكة ، وكان فقيها .

قالوا : ومن قُدَماء المسلمين عبدُ الله بن أمية بن المغيرة أخو أمّ سلمة زوج رسول الله

---

(١) نسب قريش ٣١٣ ، معجم البلدان ١ : ٣٠٩ من غير نسبة . والأقحوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطىء بحيرة طبرية .

صلّى الله عليه وآله ، كان شديدَ الخلاف على المسلمين ، ثم خرج مهاجرا ، وشهد فتح مَكّة وحُنين ، وقُتِل يومَ الطائف شهيدا .

والوليدُ بنُ أمية ، غيّر رسول الله صلى الله عليه وآله اسمه ، فسمّاه المهاجر ، وكان من صُلحاء المسلمين .

قالوا : ومنا زُهيرُ بن أبي أميّة بن المغيرة ، وبُجَيْر بن أبي ربيعة بن المغيرة ، غيّر رسول الله صلى الله عليه وآله اسمه ، فسماه عبدَ الله ، كانا من أشراف قريش ، وعباس بن أبي ربيعة ، كان شريفا .

قالوا : ومنّا الحارثُ القُباع ، وهو الحارث بنُ عبد الله بن أبي ربيعة ، كان أميرَ البَصْرة ، وعمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر ، المشهور ذى الغزَل والتشبيب .

قالوا : ومن ولدِ الحارث بنِ عبد الله بن أبي ربيعة الفقيه المشهور ، وهو المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث ، كان فقيهَ المدينة بعد مالك بن أنس ، وعَرَض عليه الرشيدُ جائزةً أربعة آلاف دينار ، فامتنَع ولم يتقلّد له القضاء .

قالوا : ومَن يعدّ ما تعدّه مخزوم ولها خالد بن الوليد بن المغيرة سيف الله ! كان مُباركا ، ميمونَ النقّيبة شُجاعا ، وكان إليه أعِنّة الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشهد معه فتحَ مَكّة ، وجُرِح يوم حُنَين ، فنفَث رسرل الله صلى الله عليه وآله على جُرْحه فبَرَأ ، وهو الذى قتَل مُسَيْلمة وأسَر طُلَيحة وَمهَّد لخلافة أبي بكر ؛ وقال يوم موته : لقد شهدتُ كذا وكذا زَحْفا ، وما في جَسَدى موضعُ إصْبَع إلّا وفيه طعنة أو ضربة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعيُنُ الجُبناء ! ومرّ عمرُ بن الخطاب على دُور بنى مخزوم والنساء يندُبن خالدا ، وقد وصلَ خبرُه إليهم

وكان مات بحِمْص ، فوقف وقال : ما على النساء أن يندُبن أبا سليمان ، وهل تقوم حُرّة عن مِثله ! ثم أنشد :

أتبكى ما وصلتَ به النّدامى ولا تَبكى فوارس كالجبالِ
أولئك إنْ بكيت أشدُّ فَقَدًا من الأنعام والعَكَر الحلالِ[1]
تَمنّى بعدَهمْ قومٌ مَداهمْ فما بَلَغوا لِغايات الكمالِ

وكان عمرُو مُبغِضاً لخالد ، ومنحرفا عنه ، ولم يمنعه ذلك من أن صدق فيه .

قالوا : ومنا الوليد بن الوليد بن المغيرة ، كان رجلَ صِدْق من صُلَحاء المسلمين .

ومنّا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان عظيم القَدْر فى أهل الشام ، وخاف معاوية منه أن يَثِب على الخلافة بعدَهم ، فسمَّه ؛ أمر طبيبا له يُدعى ابن أثال فسقاه فقتله .

وخالدبن المهاجر بن خالد بن الوليد قاتل ابن أثال بعَمّه عبدِ الرحمن والمخالف على بنى أمية ، والمنقطع إلى بنى هاشم . وإسماعيل بن هشام بن الوليد كان أمير المدينة . وإبراهيم ومحمد ابنا هشام بن عبد الملك . وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، وكان من رجال قريش ، ومن ولدِه هشام بنُ إسماعيل بن أيوب وسلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، ولى شُرْطة المدينة .

قالوا : ومن ولد حَفْص بن المغيرة عبدُ الله بن أبى عمر بن حفص بن المغيرة ، هو أوّل خَلْق الله حاجَّ يزيد بن معاوية .

قالوا : ولنا الأزْرَق ، وهو عبد اللهُ بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس ابن المغيرة والى اليمن لابن الزبير ، وكان من أجودِ العَرَب ، وهو مَمْدوح أبى دَهْبَل الجمحىّ .

(١) العكر : مافوق الخمسمائة من الإبل .

(٢) فى د : « الناس » .

قالوا : ولنا شريك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو عبد الله بن السائب بن أبى السائب ، واسم أبى السائب صَيْفِىّ بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، كان شريك النبى صلى الله عليه وآله فى الجاهليّة ، فجاءه يوم الفتح فقال له : أتعرفنى ؟ قال : ألستَ شَرِيكى ؟ قال : بلى ، قال : لقد كنت خير شَرِيك ، لا تُشارِى ولا تُمارى .

قالوا : ومنا الأرقم بن أبى الأرقم الذى استتر رسولُ الله فى داره بمكة فى أوّل الدعوة ، واسم أبى الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومنا أبو سَلَمة بن عبد الأسد ، واسمه عبد الله ، وهو زوج أمّ سَلَمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، قَبْلَ رسول صلى الله عليه وآله ، شهد أبو سَلَمة بَدْرا ، وكان من صُلَحاء المسلمين .

قالوا : لنا هُبَيرة بن أبى وَهب ، كان من الفُرسان المذكورين ؛ وابنه جَعدة بن هبيرة ؛ وهو ابن أخت على بن أبى طالب عليه السلام ، أمه أم هانئ بنتُ أبى طالب ، وابنه عبدالله ابن جعدة ابن هُبَيرة هو الذى فتح القُهُنْدر وكثيرا من خُراسانَ ، فقال فيه الشاعر :

لولا ابنُ جعدة لم تُفْتَحْ قُهُنْدُرُكُمْ ولا خراسانُ حتى ينفخُ الصُّورُ

قالوا : ولنا سعيد بن المسيِّب الفقيه المشهور . وأما الجواد المشهور فهو الحكم بن المطلب ابن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم .

وقد اختصرْنا واقتصرنا على من ذكرْنا ، وتركْنا كثيرا من رجال مخزوم خوف الإسهاب .

***

وينبغى أن يقال فى الجواب : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقارا لهم ، ولا استصغارا لشأنهم ، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثر همّه يوم المُفاخرة أن يفاخر بنى عبد شمس لما بينه وبينهم ، فلما ذكر مخزوما بالعرَض قال فيهم ما قال ، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم ، على أنّ أكثر هؤلاء الرجال إسلاميّون بعد عصر علىّ عليه السلام ، وعلىّ عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من يجىء بعده .

فإن قلت : إذا كان قد قال فى بنى عبدِ شَمْس إنهم أَمنَعُ لما وراءَ ظهورهم ، ثم قال فى بنى هاشم : إنهم أسمحُ عند الموت بنفوسهم ، فقد تناقض الوَصْفان .

قلتُ : لا مُناقضةَ بينهما ، لأنه أراد كثرة بنى عبدِ شمس ، فبالكثْرة تمنع ما وراء ظهورها ، وكان بنو هاشم أقلَّ عددا من بنى عبدِ شمس ، إلّا أن كلّ واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كلّ واحد على انفراده من بنى عبدِ شمس ، فقد بان أنه لا مناقَضَة بين القولين .

(١١٧)

الأصْلُ :

شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْن ؛ عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ ، وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ ؛ وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ ، وَيَبْقَى أَجْرُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

أخذ هذا المعنى بعضُ الشعراء ، فقال :

تفْنَى اللذَاذَةُ مِمّن نَال بُغْيَتَهُ   من الحرَام ويبقى الإثمُ والعارُ
تُبقِى عواقِبَ سوءٍ فى مَغَبَّتِها   لا خيرَ فى لذّةٍ من بعدِها النّارُ

(١١٨)

الأصلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَبِعَ جنازَةً فسمعَ رَجلًا يضحَكُ ، فقَالَ :

كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ ، وَكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ ، وَرُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ .

طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ ، وَطَابَ كَسْبُهُ ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى بِدْعَةٍ .

***

قَالَ الرَّضِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى : أقولُ : ومِنَ الناس مَن يَنسُبُ هـذا الـكلامَ إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وآله .

***

الشَّرحُ :

الأشهر الأكثر في الرّواية أنّ هذا الـكلام من كلام رسولِ الله صلى الله عليـه وآله ومثل قوله : « كأن الموت فيها على غيرنا كُتِب » قولُ الحسن عليه السلام : ما رأيت حقّا لا باطلَ فيهِ أشبَه بباطلٍ لا حَقّ فيه من المَوْت ؛ والألفاظ التى بعده واضحة ليس فيها ما يُشْرَح ، وقد تقدّم ذِكرُ نظائرها .

(١١٩)

الأصل :

غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ .

***

الشرح :

الرجع فى هذا إلى العَقْل والتماسك ، فلمّا كان الرجل أعقَل وأشدّ تماسُكا كانت غَيْرَته فى موضعها ، وكانت واجبةً عليه ، لأنّ النهى عن المنكَر واجب ، وفعل الواجبات من الإيمان ، وأما المرأة فلما كانت أنقصَ عَقْلا وأقلَّ صَبْرا كانت غَيْرَتها على الوَهْم الباطل والخيال غير المحقَّق ، فكانت قبيحةً لوقوعها غير موقعها ، وسمّاها عليه السلام كُفْراً لمشارَكَتها الكُفْرَ فى القُبْح فأجرى عليها اسمَه .

وأيضا فإن المرأة قد تؤدِّى بها الغيرةُ إلى ما يكون كُفْرا على الحقيقة كالسِّحْر ، فقد وَرَد فى الحديث المرفوع أنه كُفْر ، وقد يُفضى بها الضَّجَر والقَلَق إلى أن تتَسَخَّط وتَشْتُم وتتلفظ بألفاظٍ تكون كُفراً لا محالة .

(١٢٠)

الأصْـلُ :

لَأَنْسُبَنَّ الإسْلامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْها أَحَدٌ قَبْلِى . الإسْلامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، والتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ ، واليَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ ؛ والتَّصْدِيقُ هُوَ الإقْرَارُ ، والإقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ ، والأَدَاءُ هُوَ العَمَلُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

خلاصةُ هذا الفَصْل تقتضى صحة مَذهَب أصحابنا المعتزلة فى أنّ الإسلام والإيمان عبارتان عن معبّر واحد ، وأنّ العمل داخلٌ فى مفهومِ هذه اللفظة ، ألا تراه جَعَل كلّ واحدة من اللّفَظات قائمةً مقامَ الأخرى فى إفادة المفهوم ، كما تقول : اللّيث هو الأسَدُ والأسد هو السّبع ، والسبع هو أبو الحارث ! فلا شُبهةَ أن اللّيث يكون أبا الحارث ؛ أى أنّ الأسماء مترادفة ، فإذا كان أوّل اللّفظَات الإسلام ، وآخرها العَمل ، دَلّ على أنّ العمل هو الإسلام ؛ وهكذا يقول أصحابُنا : إنّ تاركَ العمل وتاركَ الواجب لا يسمّى مسلما .

فإن قلت : هَبْ أنّ كلامَه عليه السلام يدلّ على ما قلت ، كيف يدلّ على أن الإسلام هو الإيمان ؟

قلت : لأنه إذا دَلّ على أن العمل هو الإسلام وَجَب أن يكون الإيمان هو الإسلام لأنّ كلّ من قال : إنّ العمل داخل فى مُسمّى الإسلام ؛ قال : إنّ الإسلام هو الإيمان ،

فالقول بأنّ العمل داخلٌ فى مسمَّى الإسلام ، وليس الإسلام هو الإيمان ، قول لم يَقُل به أحد ؛ فيكون الإجماع واقعا على بُطْلانه .

فإن قلتَ : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل كما تقوله المعتزلة ، لأنّ المعتزلة تقول : الإسلامُ اسمٌ واقعٌ على العَمَل وغيرِه من الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وأمير المؤمنين عليه السلام جَعل الإسلامَ هو العمل فقط ، فكيف ادّعيتَ أنّ قولَ أميرِ المؤمنين عليه السلام يُطابق مذهبهم ؟

قلت : لا يجوز أن يريد غيره ، لأن لفظ العَمَل يشمل الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وحركات الأركان بالعبادات ، إذ كلُّ ذلك عملٌ وفِعْل ، وإن كان بعضه من أفعال القلوب ، وبعضه من أفعال الجوارح ، ولو لم يُرِد أميرُ المؤمنين عليه السلام ما شرَحْناه لكان قد قال : الإسلام هو العمل بالأركان خاصة ، ولم يعتبِر فيه الاعتقاد القلبىّ ، ولا النطق اللفظىّ ، وذلك مما لا يقوله أحد .

(١٢١)

الأَصْـلُ :

عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ الْفَقْرَ الَّذِى مِنْهُ هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ الْغِنَى الَّذِى إِيَّاهُ طَلَبَ ، فَيَعِيشُ فِى الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ ، وَيُحَاسَبُ فِى الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَـكَبِّرِ الَّذِى كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً ، وَيَـكُونُ غَدًا جِيفَةً ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِى اللهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللهِ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى مَنْ يَمُوتُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْـكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى ، وَعَجِبْتُ لِعَامِرٍ دَارَ الْفَنَاءِ ، وَتَارِكٍ دَارَ الْبَقَاءِ .

***

الشَّـرْحُ :

قال أعرابىّ : الرِّزق الواسعُ لمن لا يَستمتِـع به بمنزلة الطعامِ الموضوعِ على قبْر . ورأى حكيمٌ رجلا مُثرِياً يأكل خُبْزا ومِلْحا ، فقال : لِمَ تَفْعَـل هذا ؟ قال : أخافُ الفقرَ ، قال : فقد تعجَّلتَه . فأمّا القول فى الـكِبْر والتِّيه فقد تقدّم منه ما فيـه كفاية ؛ وقال ابنُ الأعرابى : ما تاهَ علىَّ أحدٌ قطّ أكثرَ من مرّة واحدة ، أخَذَ هذا المعنى شاعرٌ فقال وأَحسَن :

هذه مَنكَ فإن عُدْ ... تَ إلى البـابِ فَمِنِّى

وقد تقدّم من كلامِنا فى نظائرِ هذه الألفاظ المذكورة ما يُغنى عن الإطالة ها هُنا .

(١٣٢)

الأصل :

مَنْ قَصَّرَ فِي الْعَمَلِ ، ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ .

***

الشرح :

هـذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين ، والاعتقادِ الصّحيح ، فإنّهم الّذين إذا قَصّروا في العمل ابتُلوا بالهَمّ ، فأمّا غيرُهم من المُسرِفين على أنفسهم وذوى النّقص فى اليَقين والاعتقاد ، فإنّه لا هَمَّ يَعْرُوهم وإن قَصّروا فى العمل ، وهذه الـكلمة قد جَرّبْناها من أنفسِنا فوَجَدْنا مِصداقَها واضحا ، وذلك أنّ الواحد منّا إذا أخَلّ بفريضةِ الظّهر مَثَلا حتّى تغيبَ الشمس وإن كان أخلّ بهـا لِعُذْر وَجَد ثِقْلا فى نفسِه وكَسَلا وقِلّةَ نَشَاط ، وكأنّه مشـكولٌ بشِـكالٍ أو مقيَّدٌ بقَيْد ، حتّى يقضىَ تلك الفَرِيضة ، فـكأنّما أُنشِطَ من عِقال .

(١٢٣)

الأَصْـلُ :

لَا حَاجَةَ لِلّٰهِ فِيمَنْ لَيْسَ لِلّٰهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد جاء فى الخبر المرفوع : « إذا أَحَبَّ اللهُ عبدًا ابتلاه فى مالِه أو فى نفسِه » .

وجاء فى الحـديث المرفوع : « اللّهمّ إنّى أعوذ بك من جَسَدٍ لا يَمرَض ، ومن مالٍ لا يُصاب » .

ورَوَى عبدُ الله بنُ أَنَس عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « أيّـكم يُحِبّ أن يَصِحّ فلا يَسقَم؟ » ، قالوا : كلُّنا يارسولَ الله ، قال : « أتحبّون أن تـكونوا كالحُمُر الصائلة؟ ألا تُحِبّون أن تـكونوا أصحابَ بَلاَيا وأصحابَ كَفّارات ! والّذى بَعَثنى بالحقّ إنّ الرجل لتـكونُ له الدّرجة فى الجنّة فـلا يَبلُغها بشىء من عَمَلِه فيَبتَليه اللهُ ليُبلِّغه الله درجةً لا يَبلُغها بعمَله » .

وفى الحديث أيضا : « ما مِن مُسلِم يَمرَض مرضا إلّا حَتّ الله به خَطَاياه كما تَحُتّ الشجرة وَرَقها » .

ورَوَى أبو عثمانَ النَّهْدِيّ قال : دخل رجل أعرابىّ عَلَى رسول الله صلّى الله عليه وآله ذو جُثْمانٍ عَظيم ، فقال له : مَتَى عَهْدُك بالحُمَّى ؟ قال : ما أعرفها ، قال : بالصُّداع ،

قال : ما أدرِى ما هو ؟ قال : فأُصِبْتَ بمالِك ؟ قال : لا ، قال : فرُزِئت بوَلَدِك ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : « إن الله ليَكرَه العِفْرِيت النِّفْرِيت الّذى لا يُرزأ فى وَلَدِه ولا يُصَابُ فى مالِه » .

وجاء فى بعض الآثار : « أشدّ الناس حسابا الصحيحُ الفارغ » .

وفى حديث حذيفةَ رضى الله عنه : إنّ أقرَّ يوم لعينى لَيَوْمٌ لا أجد فيه طعاما ، سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يقول : « إنّ الله ليَتعاهَد عبدَه المؤمنَ بالبلاء كما يَتعاهَد الوَالد ولدَه بالطّعام ، وإنّ الله يَحمِى عبدَه المؤمنَ كما يَحمِى أحدُكم المريض من الطعام » .

وفى الحديث المرفوع أيضا : « إذا أحَبَّ اللهُ عبداً أبتلاه ، فإذا أحبّه الُحبَّ البالغَ أقتَناه » قالوا : وما أقتناؤُه ؟ قال : « ألّا يَترُكَ له مالا ولا ولداً » .

مَرّ موسى عليه السلام برجل كان يعرِفه مطيعا لله قد مزّقَت السباعُ لَحمَه وأضلاعَه وكَبِدُه ملقاةٌ ، فوَقَف متعجّبا فقال : أى ربِّ ، عبدُكَ المطيعُ لك ابتليتَه بما أَرَى ، فأَوحَى اللهُ إليه : إنّه سألنى درجةً لم يَبلُغها بعَمَله ، فجعلتُ له بما تَرَى سبيلا إلى تلك الدرجة .

وجاء فى الحديث : « إنّ زكريّا لم يزَل يرَى وَلَدَه يحي مَغْموما باكيا مشغولا بنفسه ، فقال : يا ربّ طلبتُ منك ولدا أنتفع به فرَزَقْتَنِيه لا نَفْع لى فيه ، فقال له : إنّك طلبتَه وليّا ، والولىّ لا يكون إلّا هكذا ، مِسْقاما فقيرا مهموما .

وقال سُفْيان الثّوْرِىّ : كانوا لا يعدّون الفقيهَ فقيهاً من لا يَعُدّ البلاءَ نِعْمة والرخاءَ مُصيبة .

جابرُ بنُ عبد الله يَرفعه : « يَوَدّ أهل العافِية يومَ القيامة أنّ لحومَهم كانت تُقرَض بالمَقارِيض لما يَرَوْن من ثواب أهل البَلاء » .

(١٢٤)

الأصل :

تَوَقَّوْا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الْأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي الْأَشْجَارِ ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ ، وَآخِرُهُ يُورِقُ .

***

الشرح :

هذه مسألةٌ طبيعيّة قد ذَكَرها الحكماء ، قالوا : لمّا كان تأثيرُ الخريف في الأبدان ، وتوليدُه الأمراض كالزُّكام والسُّعال وغيرها أكثرَ من تأثيرِ الرّبيع ، مع أنّهما جميعا فَصْلَا اعتدال ، وأجابوا بأنّ بَرْد الخريف يَفْجأ الإنسان وهو معتادٌ لحرّ الصّيف فينكأ فيه ، ويسُدّ مَسامَّ دِماغه ، لأنّ البرد يَكثِّف ويَسُدّ المَسامّ فيكون كمن دَخَل من موضع شديدِ الحرارة إلى خيش بارد .

فأما المُنتقِل من الشّتاء إلى فَصْل الربيع فإنّه لا يكاد بَرْد الربيع يُؤذِيه ذلك الأذى لأنّه قد اعتاد جسمُه برَد الشتاء ، فلا يُصادِف من بَرْد الربيع إلّا ما قد اعتاد ما هو أكثر منه ، فلا يَظهَر لبَرْد الربيع تأثيرٌ في مِزاجه ، فأمّا لِمَ أورقت الأشجار وأَزْهَرت في الرّبيع دون الخريف ؟ فلما في الرّبيع من الكيفيّتين اللّتَين هما مَنْبَع النموّ والنفس النباتيّة ، وهما الحَرارَة والرّطوبة وأما الخريف فخالٍ من هاتين الكيفيّتين ومستبدل بهما ضدّها ،

وهما البرودة واليُبْس المُنافِيان للنّشوء وحَياةِ الحيوَان والنّبات . فأما لِمَ كان الخريف باردا يابسا والرّبيع حارّا رَطْبا مع أنّ نسبَـة كلّ واحد منهما إلى الفَصْلين الخارجَيْن عن الاعتدال وهما الشّتاء والصّيف نسبةٌ واحـدة ؟ فإنّ تعليلَ ذلك مذكورٌ فى الأصول الطبية ؛ والـكُتُب الطبيعيّة ، وليس هذا الموضع ممّا يَحسُن أن يُشرح فيه مثلُ ذلك .

(١٢٥)

الأصْـلُ :

عُظْمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ المَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

لا نِسبَةَ للمخلوق إلى الخالق أصْلا وخصوصا البَشَر ، لأنّهم بالنّسبة إلى فَلَكَ القمَر كالذّرّة ، ونسبة فلك القمر كالذّرّة بالنِّسبة إلى قُرْص الشّمس ، بل هُمْ (١) دون هذه النسبة ممّا (٢) يَعجَز الحاسبُ الحاذِقُ عن حِساب ذلك ، وفَلَكَ القمَر بالنّسبة إلى الفَلَك المحيط دون هـــذه النِّسبة ، ونِسْبة الفلَكَ المحيط إلى البارئ سبحانه كنِسْبة العَدَم المَحْض والنّفى الصرف إلى الموجود البائن ، بل هذا القياس أيضا غيرُ صحيح ، لأنّ المعدوم يُمكِن أن يصير موجودا بائنا ، والفلَكَ لا يتصوّر أن يكون صانع العالم الواجبِ الوجود لِذاتِه .

وعلى الجملة فالأمرُ أعظَم من كلّ عظيم ، وأجلُّ من كلّ جليل ، ولا طاقةَ للعُقول والأذْهان أن تعبِّر عن جلالة ذلك الجناب وعَظَمتِه ، بل لو قيل : إنّها لا طاقة لها أن تعبِّر عن جلالِ مَصْنوعاته الأولَى المتقدِّمة علينا بالرّتبة العقليّة والزمانيّة لـكان ذلك القولُ حقّا وصِدْقا ، فمن هو المخلوق لِيقال : إنَّ عِظَمَ الخالِق يصغّره فى العين ؛ ولـكنّ كلامَه عليه السلام محمولٌ على مخاطَبة العامّة الّذين تَضيق أفهامُهمْ عمّا ذكرْناه .

---

(١) ساقط من ا ، ب .   (٢) ب : « بما » .

(١٢٦)

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام ، وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ :

يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ . يَا أَهْلَ التُّرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْغُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ . يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ ، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ ، وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِّمَتْ ، هَذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا ، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ ؟

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ :

أَمَا وَاللهِ لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ ، لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

***

الشَّرْحُ :

الفَرَط : المتقدِّمون ؛ وقد ذكرْنا من كلامِ عمرَ ما يُناسِب هذا الكلام ، لمّا ظعن في القبور وعادَ إلى أصحابه أحمرَ الوجه ، ظاهرَ العروق ، قال : قد وقفتُ على قبورِ الأحبّة فناديتُها الحديثَ . . . إلى آخره ، فقيل له : فهل أجابتْك ؟ قال : نعم ، قالت : إنّ خيرَ الزّاد التقوى .

وقد جاء في حديث القبور ومخاطبتِها وحديثِ الأموات وما يتعلّق بذلك شيءٌ كثير يتجاوز الإحصاء .

وفى وصيّة النبىّ صلّى الله عليه وآله أبا ذرّ رضى الله عنه : زُر القبورَ تذكُرْ بها الآخرة ولا تزُرها ليلاً ، وغسِّل الموتى يتحرّكْ قلبُك ، فإنّ الجسد الخاوِىَ(١) عِظةٌ بليغة ، وصلِّ على الموتى فإن ذلك يُحزِنُك ، فإنّ الحزين فى ظِلّ الله .

وُجِد على قبرٍ مكتوباً :

مقيمٌ إلى أن يبعثَ الله خَلْقَهُ ... لقاؤُكَ لا يُرجَى وأنت رقيبُ

تَزيدُ بِلًى فى كلِّ يومٍ وليلةٍ ... وتُنْسَى كما تَبلَى وأنت حبيبُ

وقال الحسن عليه السلام : مات صديق لنا صالح ، فدفنّاه ومدَدْنا على القبر ثوباً ، فجاء صِلَة بنُ أُشيَم ، فرَفَع طرفَ الثّوب ونادَى : يا فلان :

إنْ تَنجُ منها تَنجُ مِن ذى عَظيمةٍ ... وإلّا فإنّى لا إخالُكَ ناجِيا

وفى الحديث المرفوع ، أنّه عليه السلام كان إذا تَبِع الجنازة أكثرَ الصُّمات(٢) ؛ ورُئِىَ عليه كآبةٌ ظاهرة ، وأكثرَ حديثَ النفس .

سَمِع أبو الدّرداء رجلا يقول فى جنازة : من هذا ؟ فقال : أنت ، فإنْ كرهتَ فأنا .

سَمِع الحسنُ عليه السلامُ امرأةً تَبكِى خلف جَنازة ، وتقول: يا أبتاه ، مِثلَ يومِك لم أرَه ! فقال : بل أبوكِ مِثل يومِه لم يرَه .

وكان مكحولٌ إذا رأى جِنازة قال : اغدُ فإنّا رائحون .

وقال ابن شَوْذَب : اطّلعَت امرأةٌ صالحة فى لَحْد فقالت لامرأةٍ معها : هذا كُندُوج العَمَل — يَعنِى خزانته . وكانت تُعطيها الشىء بعد الشىء تأمُرُها أن تتصدّق به ، فتقول : اذهبِى فضَعى هذا فى كُندوج العَمَل .

---

(١) الخاوى : الخالى من الروح . (٢) الصمات ، مصدر صمت .

شاعر :

أجازِعةٌ رُدَينةُ أنْ أتاهـا ... نَعِـيِّي أم يكون لها اُصطِبارُ !
إذا ما أهْـلُ قبْرى ودّعونى ... وراحُوا والأكُفّ بها غُبارُ
وغُودِرَ أعظُمِى فى لحـدِ قبرٍ ... تُراوِحُـه الجنَائب والقِطارُ
تَهُبُّ الريحُ فوق مَحَطِّ قبْرى ... ويَرعَى حولَه اللَّهَقُ النوّارُ(١)
مقيمٌ لا يُـكلِّمنى صـديقٌ ... بقَفْر لا أَزورُ ولا أزارُ
فَذاكَ النأىُ لا الهِجْرانُ حَوْلاً ... وحَوْلاً ثمّ تجتمعُ الدّيارُ

وقال آخر :

كأنِّى بإخوانى على حافَتَىْ قبرِى ... يُهيلُونه فَوْقى وأدمُعُهمْ تَجرى
فيأيّها المُذْرى علىَّ دموعَـه ... ستُعرِضُ فى يومين عنّى وعن ذِكرِى
عفـا اللهُ عنى يومَ أُترك ثاوِياً ... أُزارُ فلا أَدْرِى وأُجْفَى فـلا أَدْرى

وجاء فى الحديث المرفوع : « ما رأيتُ مَنظَرا إلّا والقبرُ أفظع منه » .

وفى الحديث أيضا : « القبر أوّلُ منزلٍ من منازلِ الآخرة ، فمن نَجا منه فما بعدَه أيسَر ، ومن لم يَنْجُ منه فما بعدَه شرٌّ منه » .

---

(١) اللهق بالتحريك : الثور الأبيض ، والنوار : الناشز .

(١٢٧)

الأصل :

وقال عليه السلام وقد سمع رجلا يذم الدنيا :

أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا ، الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا ، الْمُنْخَدِعُ بِأَبَاطِيلِهَا ؛ أَتَفْتَتِنُ بِهَا ثُمَّ تَذُمُّهَا ! أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ ، أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ ! أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى ، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ! كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ ، وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ ؛ غَدَاةَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ ، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ !

لَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ، وَقَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ ، وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ .

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا . مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللهِ ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ ؛ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا ، وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا ، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ !

رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً ، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً ،

فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَذَكَّرُوا؛ وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا.

* * *

الشَّرْح :

تجرّمتُ على فلان : ادّعيتُ عليه جُرْما وذنبا ؛ واُستهواه كذا : استزَلّه .

وقولُه عليه السلام : « فمثّلتْ لهم ببلائها البلاء » ، أى بلاء الآخرة وعذابَ جهنّم ، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور ، أى إلى سُرورِ الآخرة ونعيمِ الجنّة .

وهذا الفصل كلّه لمدح الدنيا ، وهو ينبئ عن اُقتدارِه عليه السلام على ما يريدمن المعانى ، لأنّ كلامَه كلّه فى ذمّ الدنيا ، وهو الآن يَمدَحها، وهو صادقٌ فى ذاك وفى هذا ؛ وقد جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وآله كلام يتضمّن مدحَ الدنيا أو قريبا من المَدْح ، وهو قولُه عليه السلام : « الدّنيا حُلوةٌ خَضِرة ، فمن أخَذَها بحقّها بُورِكَ له فيها » .

واحتَذَى عبدُ الله بنُ المعتزّ [1] حَذْوَ أميرِ المؤمنين عليه السلام فى مدحِ الدنيا فقال فى كلامله : الدّنيادارُ التّأديب [2] والتعريف، التى بمَكْروهِها توصّل إلى محبوب الآخرةِ ،ومضمار الأعمال ، السابقة بأصحابها إلى الجنان، ودرجة الفَوْز التى يرتَقَى عليها المتّقون إلى دار اُلخُلْد، وهى الواعظةلمن عَقَل ، والناصحة لمن قَبِل ، وبِساط المَهَل، ومَيْدان العمل، وقاصِمَةا لجبّارين، ومُلحِقة الرّغم معاطِسَ المتكبّرين ، وكاسية التّراب أبدانَ المختالين ، وصارعة المغترّين ، ومفرّقة أموال الباخلين ، وقاتلة القاتلين، والعادلة بالموت على جميع العالَمين ، وناصرة المؤمنين، ومُبِيرة الكافرين . الحسنات فيها مضاعَفة ، والسّيئات بآلامها ممحوّة ، ومع عُسرها يُسْران ، والله تعالى قد ضَمِن أرزاق أهلِها ، وأقسم فى كتابه بما فيها ، وربّ طيّبة

(١) د : « المغيرة » . (٢) د : « التأدب » .

من نعيمها قد حمِد الله عليها فتلقّتها أيدِي الكَتَبة ووَجَبَتْ بها الجنّة ؛ وكم نائبةٍ من نوائبها ، وحادثةٍ من حوادثها ، قد راضت الفَهْم ، ونبّهت الفِطْنة ، وأذْكَت القريحة ، وأفادت فضيلَةَ الصّبر ، وكثَّرَت ذخائرَ الأجْر .

ومن الكلام المنسوبِ إلى عليّ عليه السلام : الناسُ أبناء الدّنيا ، ولا يُلامُ المرء على حبِّ أمِّه ، أخذَه محمّد بن وَهْب الحِمْيَرِيّ فقال :

ونحن بنُو الدّنيـا خُلِقْنا لغيرِها　　　وما كنتَ منـه فهو شيءٌ مُحبَّبُ

(١٢٨)

الأصلُ :

إنَّ لِلهِ مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لِدُوا لِلْمَوْتِ ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ ، وَابْنُوا لِلْخَرَابِ .

***

الشَّرحُ :

هذه اللام عند أهل العربية تسمّى لامَ العاقبة ، ومِثلُ هـذا قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُون لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[1] ، ليس أنّهم التقَطوه لهذه العلّة ، بل التقَطوه فكان عاقبةُ التقاطِهم إيّاه العداوةَ والحُزْن ، ومثلُه :

* فللْمَوْتِ ما تَلِدُ الوالدة *

ومثلُه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾[2] ؛ ليس أنّه ذرأهم ليعذّبهم فى جهنّم ، بل ذَرَأَهم وكان عاقبةُ ذَرْئِهم أن صاروا فيها ، وبهذا الحرف يحصُل الجوابُ عن كثيرٍ من الآيات المتشابِهة الّتى تتعلّق بها المجبِرة .

وأمّا فَحْوَى هـذا القول وخلاصتُه فهو التّنبيه على أنّ الدنيا دارُ فَناء وعَطَب ، لا دارُ بَقاء وسلامة ، وأنّ الولد يَمُوت ، والدُّور تُخرَّب ، وما يُجمَع من الأموال يَفْنَى .

---

(١) سورة القصص ٨ .   (٢) سورة الأعراف ١٧٩ .

(١٢٩)

الأصْلُ :

الدُّنيَا دَارُ مَمَرٍّ ، لَا دَارُ(١) مَقَرٍّ ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا ، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز يوماً لجلَسائه : أخبرُونى مَن أحمَقُ الناس ؟ قالوا : رجلٌ باعَ آخرتَه بدُنْياه ؛ فقال : ألا أنبئكم بأحمق منه ؟ قالوا : بلى ؛ قال : رجلٌ باعَ آخرته بدُنْيَا غيره .

قلتُ : لقائلٍ أن يقول له : ذاك باعَ آخرته بدُنْياه أيضا ، لأنه لو لم يكن له لذّةٌ فى بَيْع آخرته بدُنْيا غيره لما باعها ، وإذا كان له فى ذلك لذّة، فإذَنْ إنما باع آخرته بدُنْياه ، لأنّ دُنْياه هى لذّتُه .

---

(١) فى د « إلى دار » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(١٣٠)

الأصْـلُ :

لايَـكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقاًحَـتَّى يَحْفَظَ أخاهُ فى ثَلاثٍ:فى نَـكْبَتِهِ، وغَيْبَتِهِ ،ووَفاتِهِ.

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم لنا كلامٌ فى الصّديق والصّداقة ؛ وأمّا النَّـكْبة وحفظ الصديق فيها فإنه يقال : فى الحُبوسِ[1] مَقابرُ الأحياء ، وشماتةُ الأعداء ، وتجربةُ الأصدِقاء .

وأمّا الغَيْبَة فإنه قد قال الشاعر :

وإذا الفـتَى حَسُنتْ مـودّتهُ ... فى القُرْب ضاعَفَها على البُعْدِ

وأما الموت فقد قال الشاعر :

وإنّى لأستحييه والتُّربُ بيننا ... كما كنتُ أستحييهِوهو يرَانِى

ومن كلامِ علىٍّ عليه السلام : الصديق من صَدَق فى غَيْبَته .

قيل لحـكيم : مَن أبعد الناس سَفَرا ؟ قال : من سافر فى ابتغاء الأخِ الصالح .

أبو العلاء المعرّى :

أزْرَتْ بكم يا ذَوِى الألبابِ أربعةٌ ... يتركن أحلامَـكم نَهْب الجهالاتِ

ودُّالصَّديق، وعِلْمِ الـكيمياء، وأحْـ ... ـكامُ النّجوم ، وتفسيرُ المناماتِ

قيل للثّورىّ : دُلّنى على جليس أجلس إليه[2] ؟ قال : تلك ضالّة لا توجد .

---

(١) د : « الحبس » . (٢) د : « عنده » .

(١٣١)

الأصْـلُ :

مَنْ أُعْطِىَ أَرْبَعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً : مَنْ أُعْطِىَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةَ ، وَمَنْ أُعْطِىَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ ، وَمَنْ أُعْطِىَ الِاسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ ، وَمَنْ أُعْطِىَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ .

***

قال الرَّضىّ رحمهُ اللهُ تعالى : وتَصْدِيقُ ذَلِكَ فى كِتابِ اللهِ تعالى ؛ قالَ فى الدُّعاء : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(١) .

وقالَ فى الاسْتِغْفَار : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيماً ﴾(٢) .

وقالَ فى الشُّكْرِ : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(٣) .

وقالَ فى التَّوْبَةِ : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَـئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾(٤) .

***

الشَّرْحُ :

فى بعض الروايات أنّ ما نسب إلى الرّضى رحمه الله مِن استنباط هـذه المعانى من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقد سبق القولُ فى كلّ واحدةٍ من هذه الأربع مُستقصى .

(١) سورة غافر ٦٠ . (٢) سورة النساء ١١٠ .
(٣) سورة ابراهيم ٧ . (٤) سورة النساء ١٧ .

(١٣٢)

الأصْلُ :

الصَّلاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ ، وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ، وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصَّوْمُ ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى الصّلاة والحجّ والصّيام ، فأمّا أنَّ جهادَ المرأة حسنُ التبعُّل ، فمعناه حسنُ معاشرةِ بَعْلها وحِفظُ ماله وعرضه ؛ وإطاعته فيما يأمر به ، وترك الغيرة فإنها بابُ الطلاق .

***

[نبذ من الوصايا الحكيمة]

وأوصت امرأةٌ من نساء العرب بِنْتَها ليلةَ إهدائها(١) فقالت لها : لو تركتُ الوصيّة لأحدٍ لحُسْنِ أدب وكَرَم حَسَب ، لتركتُها لكِ ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ، ومَئُونةٌ للعاقل . إنك قد خَلّفْتِ العُشَّ الذى فيه دَرَجْتِ ، والوَكْر الذى منه خَرَجْتِ ، إلى منزلٍ لم تَعرِفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فكونى له أَمَةً ، يكُن لكِ عَبْدا ، واحفَظِى عنّى خِصالا عَشْرا :

---

(١) ليلة إهدائها ، أى ليلة زواجها ؛ يقال : هدى العروس إلى بعلها وأهداها هداء وإهداء .

أما الأولى والثانية، فحُسْنُ الصّحابة بالقناعة، وجميلُ المعاشرة بالسَّمع والطاعة، ففى حُسْن الصَّحابة راحةُ القلب ، وفى جميل المُعاشَرة رِضا الرَّبّ .

والثالثة والرابعة ، التفقّد لمواقع عَيْنِه ، والتعهُّد لمواضع أنفِه ، فلا تقع عينه منكِ على قبيح ، ولا يَجِد أنفهُ منكِ خبيث ريح ، واعلَمى أنّ الكُحْل أحسَنُ الحسن المفقود ، وأن الماء أطيَبُ الطِّيب الموجود .

والخامسة والسادسةُ ، الحِفْظُ لماله ، والإرْعاء على حشمه وعِياله ، واعلمى أنّ أصل الاحتفاظ بالمال حُسنُ التقدير ، وأصلَ الإرْعاء على الحشم والعيال حُسن التّدبير .

والسابعة والثامنة، التّعهّد لوقت طَعامِه، والهُدُوّ والسّكون عند مَنامِه ، فحرارةُ الجوع مُلْهِبَة ، وتَنْغيص النوم مَغْضبة .

والتاسعة والعاشرة : لا تُفْشِينَ له سِرّا ، ولا تَعْصِينَ له أمرا ، فإنك أن أفْشَيْتِ سِرّه لم تأمَنِى غَدْره ، وإن عصيتِ أمرَه أوغَرْتِ صَدْرَه .

***

وأوصت امرأةٌ ابنتها وقد أهدَتْها إلى بَعْلها ، فقالت : كُونى له فِراشا ، يكن لكِ مَعاشا ، وكُونى له وِطاء ، يكن لكِ غِطاء ، وإيّاكِ والاكتئاب إذا كان فَرِحا ، والفرَح إذا كان كئيبا ، ولا يَطّلعَنّ منك على قبيح ، ولا يَشُمَّنّ منكِ إلا طيّبَ ريح [1] .

***

وزَوّج عامرُ بنُ الظّرِب ابنته من ابن أخيه ، فلما أراد تَحْويلَها قال لأمِّها: مُرِى ابنتك ألّا تنزل مفازَةً إلاّ ومعها ماء ، فإنّه لِلأَعْلَى جِلاء ، وللأسْفَل نقاء، ولا تُكْثِرْ مُضاجَعَته، فإذا ملّ البدنُ ملّ القلب ، ولا تمنعه شهوته ، فإن الحظْوة فى المواقعة . فلم يلبث إلا شهرا حتى جاءته مشجوجة ، فقال لابن أخيه : يا بُنَىّ ارفَعْ عصاكَ عن بَكْرَتك ،

---

(١) د : « ريحاً طيباً » .

فإن كان من غير أن تنفر بك فهو الدّاء الذى ليس له دواء ؛ وإن لم يكن بينكما وفاق ففِراق، أُلخلع أحسن مِنَ الطّلاق ، وأن تترك أهلك ومالك .

فردّ عليه صداقَها ، وخلَعها منه ، فهو أول خُلْعٍ كان فى العرب [1] .

***

وأوصَى الفَرافِصة الكلبىّ ابنته نائلة حين أَهدَاها إلى عثمان ، فقال : يا بُنيَّة ، إنّك تقدمين على نساء من نساء قريش هنّ أقدَرُ على الطِّيب منكِ ، ولا تُغلَبين على خَصْلَتين : الكُحْل والماء . تطهَّرى حتى يكون ريح جِلْدِك ريح شَنٍّ أصابه مطر ، وإيّاك والغَيْرة على بَعْلِك ، فإنّها مفتاح الطلاق .

***

ورَوَى أبو عمرو بنُ العلاء قال : أنكح ضرارُ بنُ عمْرو الضبىّ ابنته من معْبد ابن زُرارة ، فلما أَخرَجها إليه قال : يا بُنَيّة ، أمسكى عليك الفضْلين : فضل الغُلْمة ، وفضلَ الكلام .

قال أبو عمرو : وضِرار هذا هو الذى رَفع عَقِيرته بعُكاظَ ، وقال : ألا إنّ شَرَّ حائل [2] أمّ ، فزّوجوا الأمهّات ؛ قال : وذلك أنه صُرِع بين الرماح ، فأشبل عليه إخوته لأمّه حتى استنقذوه .

***

وأوصت أعرابيةٌ ابنتها عندَ إهدائها ، فقالت لها : اقلعى زُجَّ رُمحِه ، فإن أقرّ فاقلَعى سِنانه ، فإن أقرّ فاكسِرى العظام بسيفه ، فإن أقرّ فاقطعى اللحم على تُرْسه ، فإن أقرّ فضعى الإكاف على ظَهْره ، فإنما هو حمار .

وهذا هو قُبْح التبعّل ، وذكرناه نحن فى بابِ حسْنِ التبعّل، لأنّ الضّد يُذكر بضدّه.

(١) يقال : خلع الرجل امرأته وخالعها إذا افتدت منه بمال فطلقها وأبانها من نفسه .

(٢) الحائل : التى لا تحمل .

(١٣٣)

الأصْـلُ :

اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

***

الشَّـرْحُ :

جاء فى الحديث المرفوع ـ وقيل : إنّه موقوفٌ على عثمان : « تاجروا الله بالصَّدَقة تربَحُوا » .

وكان يقال : الصَّدَقَةُ صداقُ الجنّة .

وفى الحديث المرفوع : « ما أحسن عبـدٌ الصَّدَقة ، إلّا أحسنَ الله الخلافة على مُخَـلَّفِيه » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « ما مِن مسلمٍ يكْسو مسلماً ثوباً إلّا كان فى حفظِ الله ما دام منه رُقْعة » .

وقال عمر بن عبد العزيز : الصّلاة تبلِّغك نصفَ الطّريق ، والصّوم يبلّغك باب المَـلِك ، والصّدقة تُدْخِلك عليه .

(١٣٤)

الأصل :

وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ .

***

الشرح :

هذا حقّ ، لأنّ من لم يُوقِن بالْخَلَف ويتخوّف الفقرَ يَضِنّ بالعطيّة ، ويَعلَم أنّه إذا أَعطَى ثمّ أَعطَى استنفدَ مالَه ، واحتاج إلى النـاس لانقطاع مادّته ؛ وأمّا من يُوقِن بالْخَلَف ، فإنّه يَعلَم أنّ الجود شَرَفٌ لصاحبِه ، وأن الجواد ممدوحٌ عنـد الناس ، فقد وَجَد الداعى إلى السّماح — ولا صارفَ له عنه — لأنّه يعلَم أنّ مادّته دائمةٌ غيرُ منقطعة ، فالصارف الّذى يَخافُه من قدّمنا ذِكرَه مفقودٌ فى حقّه ، فلا جَرَم أنّه يجو بالعطيّة !

(١٣٥)

الأصلُ :

تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَؤُونَةِ .

***

الشَّرحُ :

جاء فى الحديث المرفوع : « مَن وَسَّع وُسِّع عليه ، وكلَّما كثُر العيال كثُر الرزق » .

وكان على بعض المُوسِرين رسومٌ لجماعة من الفُقَراء يَدفعُها إليهم كلَّ سنة ، فاستكثرها ، فأمَرَ كاتبَه بقَطْعها ، فرأى فى المنام كأنّ له أهواء كثيرة فى دارِه ، وكأنّها تصعِّدها أقوامٌ من الأرض إلى السّماء ، وهو يَجزَع من ذلك ، فيقول : يا ربّ رِزقى رِزْقى ! فقيل له : إنما رزَقْناكَ هذه لتَصرِفها فيما كنتَ تَصرِفها فيه ، فإذ قَطعتَ ذلك رفعناها منك ، وجعلناها لغيرك . فلمّا أصبح أمَرَ كاتبَه بإعادة تلك الرّسوم أجمع .

(١٣٦)

الأصلُ :

مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ .

* * *

الشرحُ :

ما عال ، أى ما افتقَر ، وقد تقدّم لنا قولٌ مُقنع فى مدح الاقتصاد .

وقال أبو العَلاء :

وإن كنتَ تَهوَى العيشَ فابْغِ تَوسُّطاً ... فعنـد التَّناهى يَقصُر المُتطاوِلُ[1]

تُوَقَّى البُدورُ النقصَ وهْى أهِلّةٌ ... ويُدرِكها النّقصان وهىَ كَواملُ

وهذا الشعرُ وإن كان فى الاقتصاد فى المراتب والوِلايات ، إلّا أنّه مدحٌ للاقتصاد فى الجملة ، فهو من هذا الباب .

وسَمِع بعضُ الفُضلاء قَولَ الحكماء : التدبيرُ نصفُ العَيش ، فقال : بل العيشُ كلُّه .

---

(١) سقط الزند ٥٢٢ .

(١٣٧)

الأصل :

قِلَّةُ الْعِيَال أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ .

***

الشرح :

اليسار الثانى كثرة المال ؛ يقول : إن قِلّة العيــال مع الفقْر كاليسار الحقيقىّ مع كثرتهم .

ومن أمثال الحكماء : العيالُ أرَضَة المال .

(١٣٨)

الأَصْـلُ :

التَّوَدُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

دخل حبيب بنُ شَوْذَب على جعفر بن سليمانَ بالبَصْرة ، فقال : نِعْمَ المرءُ حَبيب ابن شَوْذَب ! حَسَن التودّد ، طيِّب الثناء ، يكرَه الزيارة المتصلة ، والقِعدةَ المنسيَة .

وكان يقال : التودّد ظاهرٌ حَسَن ، والمعامَلة بين الناس على الظاهر ، فأمّا البواطن فإلى عالِم الخفيّات .

وكان يقال : قلّ مَن تودَّد إلّا صار محبوباً ، والمحبوب مستورُ العيوب .

(١٣٩)

الأصل :

والهمّ نِصفُ الهَرَمِ .

***

الشرح :

مِن كلام بعض الحكماء : الهمّ يُشيب القلب ، ويُعقم العقل ، فلا يتولّد معه رأى ، ولا تَصدُق معه رَوِيّة .

وقال الشاعر :

هموم قد أبَتْ إلّا التباسا   تَبُثّ الشيبَ فى رأس الوَليدِ
وتُقعد قائماً بَشجا حَشاهُ   وتُطلق للقيام حُبَا القُعودِ
وأضحتْ خُشّما منها نِزارٌ   مركّبة الرواجب فى الخُدودِ

وقال سُفيان بنُ عيينة : الدنيا كلّها هموم وغموم ، فما كان منها سرور فهو رِبح .

ومن أمثالهم : الهمّ كافورُ الغُلْمة .

وقال أبو تمّام :

شاب رأسِى وما رأيتُ مَشيبَ الرّأس إلّا مِن فضلِ شيبِ الفُؤادِ[1]
وكذاك القلوبُ فى كلّ بؤس   ونعيم طلائعُ الأجسادِ
طالَ إنكارِىَ البياضَ ولو عُمِّرْ   تُ شيئاً أنكرتُ لونَ السّوادِ[2]

(١) ديوانه ١ : ٣٦٠ .   (٢) الديوان : « وإن عمرت » .

(١٤٠)

الأصْلُ :

يَنْزِلُ الصَّبْرُ على قَدْرِ الْمُصِيبةِ ، ومَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلى فَخِذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أجْرُهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد مضى لنا كلامٌ شافٍ فى الصبر ؛ وكان الحسنُ يقول فى قصصه : الحمد لله الذى كلّفنا مالو كلّفنا غيرَه لصِرنا فيه إلى معصيته ، وآجرَنا على مالا بدّ لنا منه ؛ يقول : كلّفنا الصبر ، ولو كلّفنا الجزَع لم يمكنّا أن نقيم عليه ، وآجرَنا على الصبر ولابدّ لنا من الرجوع إليه .

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، كان يقول عند التعزية : عليكم بالصّبر ، فإنّ به يأخذ الحازمُ ، ويعود إليه الجازع .

وقال أبو خِراش الهُذَلِيّ يذكر أخاه عُروة :

تقول أراهُ بعدَ عُروة لاهِياً ... وذلك رُزْءٌ لو علمتِ جليلُ[1]
فلا تَحسَبى أنِّى تناسيتُ عهدَه ... ولكنّ صبرى يا أُمَيم جميلُ

وقال عمرو بن مَعدِيكرِب :

كم مِنْ أخٍ لىَ صالحٍ ... بوّأتُه بِيدَىَّ لَحْدَا[2]

(١) ديوان الهذليين ٢ : ١١٦ . (٢) ديوان الحماسة ١ : ١٧٤ ، ١٧٥ ـ بشرح التبريزى .

أَلْبَسْـــتُهُ أَكفانَهُ وخُلِقْت يومَ خُلِقتُ جَلْدَا

وكان يقال : من حدّث نفسه بالبقاء ، ولم يُوَطّنها على المصائب ، فهو عاجزُ الرأى .

وكان يقال : كفى باليَأْس مُعزِّيا ، وبانقطاع الطمع زاجرا !

وقال الشاعر :

أيا عمْرُو لَمْ أصبر ولى فيكَ حِيلةٌ ولـكن دَعانى اليأسُ منكَ إلى الصّبر
تصـــبّرتُ مغلوبا وإنّى لمُوجَــعٌ كما صَـــبر القُطّانُ فى البَلَدَ القفْرِ

(١٤١)

الأصلُ :

كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ . حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ !

***

الشرحُ :

الأكياس ها هنا العلماء العارفون ؛ وذلك لأنّ عباداتهم تقع مطابقةً لعقائدهم الصحيحة ، فتكون فروعاً راجعةً إلى أصلٍ ثابت ، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى ، لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجهةً إليه فلم تكن مقبولةً ، ولذلك فَسَدَتْ عبادة النصارى واليهود .

وفيهم وردَ قوله تعالى : ﴿ عاملةٌ ناصِبَةٌ * تَصْلَى ناراً حامِيَةً ﴾(١) .

---

(١) سورة الغاشية ٣ ، ٤ .

(١٤٢)

الأصلُ :

سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى الصّدقة والزّكاة والدّعاء ، فلا معنًى لإعادةِ القولِ فى ذلك .

(١٤٣)

الأصْلُ :

ومن كلام له عليه السلام لـكميل بن زياد النخعى :

قال كُمَيل بنُ زياد : أخذ بيَدِى أميرُ المؤمنين علىُّ بنُ أبى طالبٍ عليـه السلام فأخرَجَنى إلى الجَبّانِ ، فلمّا أصحَرَ تَنَفَّس الصُّعَداء ، ثمّ قالَ :

يَا كُمَيْـلَ بْنَ زِيَادٍ ؛ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا ، فَاحْفَظْ عَنِّى مَا أَقُولُ لَكَ .

النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ .

يَا كُمَيْـلُ ، الْعِلْمُ خَـيْرٌ مِنَ الْمَالِ ؛ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ . وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ .

يَا كُمَيْـلَ بْنَ زِيَادٍ ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ ، بِهِ يَـكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِى حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ . وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ .

يَا كُمَيْـلَ بْنَ زِيَادٍ ؛ هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِىَ الدَّهْرُ ؛ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِى الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْمًا جَمًّا — وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ — لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ! بَلَى أُصِيبُ لَقِنًا غَـيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا ، وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ،

أَوْ مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ؛ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ . أَلَا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ، أَوْ مَنْهُومًا بِاللَّذَّةِ ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ، أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالِادِّخَارِ ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهًا بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ .

اللَّهُمَّ بَلَى ؛ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا ، وَإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا ، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ .

وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ ! أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَدًا ، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا ، يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ . هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رَوْحَ الْيَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى ؛ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ ، آهِ آهِ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ !

انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ .

***

الشَّرْحُ :

الجَبّان والجَبّانة : الصّحراء .

وتنفَّسَ الصُّعَداء ، أى تنفّس تنفُّسا ممدودا طويلا .

قولُه عليه السلام : « ثلاثة » قِسمةٌ صحيحة ، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأمور الإلٰهيّة: إمّا عالِم على الحقيقة يَعرِف الله تعالى ، وإمّا شارع فى ذلك فهو بعد فى السّفر إلى الله يَطلُبه بالتعلّم والاستفادة من العالم ، وإمّا لا ذا ولا ذاك ؛ وهو العامّىّ الساقط الّذى

لا يَعبأ اللهُ . وصَدَق عليه السلام فى أنّهم همَج رَعاع أتباعُ كلِّ ناعق ، ألا تراهم ينتقلون من التقليد لشخصٍ إلى تقليدِ الآخَر ، لأدنى خَيال وأضعفِ وَهْم !

ثمّ شرع عليه عليه السلام فى ذِكر العِلْم وتفضيلِه على المال ، فقال : « العلم يحرُسك، وأنت تَحرُس المالَ »، وهذا أحدُ وجوه التفضيل .

ثمّ ابتدأ فذَكَر وجها ثانيا ؛ فقال : المالُ يَنقُص بالإنفاق منه ، والعلم لا يَنقُص بالإنفاق بل يَزْكو ؛ وذلك لأنّ إفاضةَ العلم على التلامذة تفيد المُعلّمَ زيادَة استعداد ، وتقرُّر فى نفسه تلك العلوم التى أفاضها على تلامذته وتثبّتها وتزيدها رسوخا .

فأمّا قوله : « وصَنيعُ المال يزولَ بزواله » ، فتحته سرّ دقيق حكمىّ ، وذلك لأنّ المال إنما يَظهر أثرُه ونفعُه فى الأمور الجِسْمانية ، والملاذّ الشّهوانية ، كالنّساء والخيل والأبنية والمأكَل والمشرَب والمَلابس ونحو ذلك ؛ وهذه الآثار كلّها تزول بزوال المال أو بزوال ربِّ المال ؛ ألا ترَى أنّه إذا زال المالُ اضطُرّ صاحبُه إلى بَيْع الأبنية والخيل والإماء ، ورَفض تلك العادة من المآكل الشهيّة والملابس البهيّة ! وكذلك إذا زال ربُّ المالِ بالمَوْت، فإنّه تزول آثارُ المالِ عندَه : فإنّه لا يَبقَى بعد الموت آكِلاً شاربا لابساً ، وأما آثار العِلم فلا يمكن أن تزولَ أبدا والإنسان فى الدّنيا ، ولا بعدَ خروجه عن الدّنيا ؛ أما فى الدنيا فلأنّ العالِمَ بالله تعالى لا يعودُ جاهلا به ، لأنّ انتفاء العلوم البديهيّة عن الذّهن وما يَلزَمها من اللّوازم بعدَ حصولها مُحال ، فإذاً قد صَدَق قولُه عليه السلام فى الفَرْق بين المالِ والعِلم : « إنّ صنيع المال يَزولُ بزواله » ، أى وصنيع المال لا يَزول ولا يحتاج إلى أن يقول « بزَواله » لأنّ تقديرَ الكلام: وصنيع المال يزول ، لأنّ المالَ يَزول ؛ وأما بعد خروج الإنسانِ من الدّنيا فإنّ صنيع العِلْم لا يزول ، وذلك لأن صنيعَ العِلم فى النّفس الناطقة اللّذّة العقليّة الدائمة لدوام سببها ، وهو حصولُ العِلم فى جَوْهر النفس الّذى هو مَمْشُوق

النّفس مع انتفاء ما يُشغِلها عن التمتّع به ، والتلذّذ بمصاحبته ؛ والّذى كان يشغِلها عنه فى الدّنيا استغراقُها فى تدبير البدن، وما تُورِدُه عليها الحواسّ من الأمور الخارجيّة ، ولاريبَ أنّ العاشق إذا خلا بمَعشوقه ، وانتفَتْ عنه أسبابُ الكَدَر ، كان فى لذّة عظيمة ، فهذا هو سرُّ قولِه : « وصنيع المال يزولُ بزَواله » .

فإن قلت : ما معنى قولِه عليه السلام : « معرفةُ العِلْم دِينٌ يُدانُ به » ، وهل هذا إلّا بمنزلة قولك : معرفةُ المَعرفة أو عِلم العِلم ! وهذا كلامٌ مضطرِب .

قلت : تقديرُه : معرفةُ فَضْل العلم أو شَرفِ العلم ، أو وُجوب العلم دِينٌ يُدانُ به ، أى المعرفة بذلك من أمرِ الدّين ، أى رُكنٌ من أركان الدّين واجبٌ مفروض .

ثمّ شَرَح عليه السلام حالَ العِلْم الّذى ذكر أنّ معرفةَ وجُوبهأو شرفه دِينٌ يُدانُ به ، فقال : « العِلم يَكسِب الإنسانَ الطّاعة فى حَياته » ، أى مَنْ كان عالما كانلله تعالى مُطيعا، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

ثم قال : « وجميل الأُحدوثة بعدَ وفاتِه » ، أى الذّكر الجميل بعد موْته .

ثم شرع فى تفضيل العِلم على المال من وجهٍ آخَر ، فقال : « العلمُ حاكِم ، والمال محكومٌ عليه » ، وذلك لِعلْمك أنّ مَصلحتَك فى إنفاق هذا المال تُنفِقه ، ولِعلمك بأنّ المصلحة فى إمساكه تمسِكه ، فالعِلم بالمصلحة داعٍ ، وبالمَضرّة صارف ؛ وهما الأمْران الحاكمان بالحرَكات والتصرّفات إقْداما ، وإحْجاما ، ولا يكون القادر قادرا مختارا إلّا باُعتبارها ؛ وليسا إلّا عبارةً عن العِلم أو ما يجرى مَجرَى العِلم من الاُعتقاد والظّنّ ، فإذَنْ قد بان وظهرَ أن العلم من حيثُ هُوَ علمٌ حاكم ، وأنّ المال ليس بحاكم ، بل محكوم عليه .

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .

ثم قال عليه السلام : « هَلَكَ خُزّان المال وهم أحياء » ، وذلك لأنّ المالَ المخزون لافرقَ بينه وبين الصّخرة المدفونة تحتَ الأرض ، فخازنه هالك لا محالة ، لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه؛ ولم يَصرِفْه فى الوجوه الّتى نَدَبَ اللهُ تعالى إليها ؛ وهذا هو الهلاكُ المَعْنَوىّ ، وهو أعظمُ من الهلال الحِسّىّ .

ثم قال: « والعلماء باقون مابقىَ الدهر » ؛ هذا الكلامُ له ظاهر وباطن ، فظاهرُه قولُه : « أعيانُهم مفقودة ، وأمثالُهم فى القلوب موجودة » ، أى آثارُهم وما دَوّنوه من العُلوم ، فكأنّهم موجودون ، وباطنه أنّهم موجودون حقيقةً لا مجازا ، على قولِ مَن قال ببقاء الأنْفس ، وأمثالهم فى القلوب كنايةٌ ولُغز ، ومعناه ذواتُهم فى حظيرة القُدّوس ؛ والمُشاركة بينها وبين القلوب ظاهرة ، لأنّ الأمرَ العامَّ الّذى يَشمَلُهما هو الشّرف ، فكما أنّ تلك أشرَفُ عالَمها ، كذا القلبُ أشرفُ عالمه ، فاستُعير لفظُ أحدِهما وعُبّر به عن الآخَر .

قولِه عليه السلام : « ها إنّ ها هنا لَعِلْما جَمّا ، وأشار بيَدِه إلى صدره» ، هذا عندى إشارةٌ إلى العِرْفان والوُصول إلى المقام الأشرَف الّذى لا يصل إليه إلّا الواحد الفذّ من العالَم ممّن لله تعالى فيه سرّ ، وله به اتّصال .

ثم قال : « لو أصبت له حَمَلةً ! » ومن الّذى يُطيق حَمْله ! بل مَن الذى يُطيق فهمَه فضلا عن حَمْلِه !

ثم قال : « بلى أصيب » .

ثمّ قسّم الذى يصيبهم خمسةَ أقسام :

أحدُهم : أهلُ الرّياء والسُّمْعة؛ الذين يظهِرون الدّين والعلم ومقصودُهم الدّنيا، فيَجعَلون الناموس الدِّينى شبَكةً لاقتناص الدّنيا .

وثانيها : قومٌ من أهل الخير والصّلاح ليسوا بذَوِى بَصيرة فى الأمور الإلٰهيّة الغامضة،

فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تنقدح فى قلوبهم شُبْهة بأدنَى خاطر ؛ فإنّ مَقَام المعرفة مَقامٌ خَطِر صَعْب لا يَثبُت تحته إلّا الأفرادُ من الرّجال ، الذين أُيِّدوا بالتّوفيق والعصمة .

وثالثها : رجلٌ صاحبُ لَذّات وَطَرب مشتهِر بقضاء الشّهوة ، فليس من رجالِ هذا الباب .

ورابعُها : رجلٌ عرف بجَمْع المال وادّخارِه ، لا يُنفقه فى شَهَواته ولا فى غيرِ شَهَواته ، فحكمُه حكمُ القِسْم الثالث .

ثم قال عليه السلام : « كذلك يَمُوت العلمُ بموت حامِليه » ، أى إذا مِتُّ ماتَ العلمُ الذى فى صدرى ، لأنى لم أجد أحدا أدفعُه إليه ، وأُوَرِّثُه إيّاه . ثم اُستَدرك فقال : « اللّهمّ بلى ، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ بحجّة الله تعالى » كَيْلا يخلوَ الزمان ممّن هو مهيمِنٌ لله تعالى على عبادِه ، ومسيطِرٌ عليهم؛ وهذا يكاد يكونُ تصريحا بمذهب الإماميّة ، إلّا أنّ أصحابَنا يحملونه على أنّ المراد به الأبْدال الذين وردت الأخبارُ النبويّة عنهم أنّهم فى الأرض سائحون ، فنهم من يُعرَف ، ومنهم من لا يُعرَف ، وإنهم لا يموتون حتّى يودِعُوا السرّ ، وهو العِرْفان عند قومٍ آخَرين يقومون مَقامَهم .

ثمّ استنزَرَ عددَهم فقال : « وكم ذا ! » أى كم ذا القَبِيل ! وكم ذا الفريق !

ثم قال : « وأين أولئك ! » استبَهم مكانَهم ومحلّهم .

ثم قال : « هم الأقلّون عددا ، الأعْظمون قَدْرا » .

ثمّ ذكر أنّ العِلم هجم بهم على حقيقة الأمر ، وانكَشَف لهم المستور المُغطَّى ، وباشروا راحَة اليقين وبَرْدَ القَلْب وثَلْج العلم ، واُستَلانوا ماشَقّ على المترَفين من النّاس ، ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشّهوات وخُشونة العيشة .

قال : « وأَنِسوا بما اُستوحَش منه الجاهلون » ، يعنى العُزْلةَ ومجانبةَ الناس ، وطول الصّمت ، وملازَمة الخلْوة ؛ ونحوَ ذلك ممّا هو شِعار القوم .

قال : « وصَحِبوا الدّنيا بأرواحٍ أبدانُها معلَّقةٌ بالمَحَلّ الأعلى » ، هذا ممّا يقوله أصحابُ الحكمة مِن تعلّق النفوس المجرَّدة بمبادئها من العقول المفارقة ، فمن كان أزكَى كان تعلّقُه بها أتمّ .

ثم قال : « أولئك خُلفاء الله فى أرضِه ، والدعاةُ إلى دينـه » ، لا شُبهةَ أنّ بالوصول يستحقّ الإنسان أن يسمَّى خليفة الله فى أرضِه ، وهـو المعنى بقوله سبحانه للملائكة ﴿أنّى جاعـلٌ فى الأرض خليفة﴾[1] ، وبقـوله : ﴿هُوَ الذى جَعَلـكُم خَلائِفَ فى الأرض﴾[2].

ثم قال : « آهِ آهِ شوقاً إلى رؤيتهم ؟ » ، هو عليه السلام أحقّ الناس بأن يشتاق إلى رؤيتهم ، لأنّ الجنسية عِلّة الضمّ ، والشىء يشتاق إلى ماهو من سِنْخِه وسُوسَتِه وطبيعته ، ولما كان هو عليـه السلام شيخ العارفين وسيّدَهم ، لا جرَم . اشتاقت نفسه الشريفةُ إلى مُشاهدةِ أبناء جنسِه ، وإن كان كلٌّ واحد من الناس دونَ طبقته .

ثم قال لِكميل : « انصرف إذا شئت » ، وهذه الكلمة من محاسِن الآداب ، ومن لطائف الكلم ، لأنه لم يقتصر على أن قال : «انصرف» كَيلا يكونَ أمرا وحُكْما بالانصراف لا محالة ، فيكون فيه نوعُ عُلوٍّ عليه ، فأتْبَع ذلك بقوله : « إذا شئتَ » ليُخرِجه من ذُلّ الحكم وقهْر الأمر إلى عِزّة المشيئة والاختيار .

---

(١) سورة البقرة ٣٠ . (٢) سورة الأنعام ١٦٥ .

(١٤٤)

الأَصْلُ :

الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تكرّر هذا المعنى مرارا ، فأما هذه اللفظة فلا نظير لها فى الإيجاز والدلالة على المعنى ، وهى من ألفاظه عليه السلام المعدودة .

وقال الشاعر :

وكائنْ ترَى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتُه أو نقْصُه فى التكلُّمِ(١)

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يَبْقَ إلّا صورةُ اللحمِ والدّم

وتكلم عبدُ الملك بنُ عُمَيْر وأعرابىٌّ حاضر ، فقيل له : كيف ترَى هذا ؟ فقال : لو كان كلامٌ يؤتَدَم به لكان هذا الكلامُ مما يؤتَدَم به .

وتكلم جماعةٌ من الخطباء عند مَسلَمة بن عبد الملك فأسْهَبوا فى القول ، ولم يَصنعوا شيئاً ، ثم أفرغ النطق رجل من أخرياتهم ، فجعل لا يخرُج من فَنّ إلّا إلى أحسنَ منه ، فقال مَسلَمة : ما شبّهت كلامَ هذا بعقب كلام هؤلاء(٢) إلّا بسحابةٍ لبدتْ عجاجةً .

وسمع رجلٌ منشدا ينشد :

وكان أخلّائى يقولون مَرْحَباً فلمّا رأوْنى مُقْتِرا مات مَرْحَبُ

---

(١) ينسبان لزهير ، من معلقته ٩٤ بشرح الزوزنى . (٢) بعدها فى د : « أصحابه » .

فقال : أخطأَ الشاعر ، إنّ مرحبا لم يَمُتْ ، وإنما قتله علىٌّ بنُ أبى طالب عليه السلام !

وقال رجل لأعرابىّ : كيف أهلك ؟ قال : صلبا إن شاء الله .

وكان مَسلَمة بن عبد الملك يعرض الجند ؛ فقال لرجل : ما اسمك ؟ فقال : «عبدِ» الله ، وخَفض ، فقال : ابنُ من ؟ فقال : ابن « عبدَ » الله ، وفتح ، فأمر بضَرْبه ، فجعل يقول : « سبحانُ » الله ، ويَضُمّ ، فقال مَسلَمة : ويحكم ! دعوه فإنه مجبولٌ على اللّحْن والخطأ ، لو كان تاركًا للحن فى وقتٍ لتركه وهو تحت السِّياط .

(١٤٥)

الأصلُ :

هَلَكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَه .

***

الشَّرحُ :

هذه الكلمة من كلماته المعدودة . وكتب النعمان بن عبد الله إلى القاسم بن عبيد الله كتابا يُدِلّ فيه بخِدْمته ، ويستزيد في رِزْقه ، فوقّع على ظهره : رحِمَ الله امرأً عَرَفَ قدرَه ! أنتَ رجلٌ قد أعجبتْك نفسُك فلستَ تعرفها ، فإن أحببتَ أن أعرّفكَها عرّفتُك .
فكتب إليه النعمان : كنتُ كتبتُ إلى الوزير أعزّه الله كتابا أستزيده في رِزْقي ، فوقّع على ظهره توقيع ضَجِرٍ لم يخرج فيه مع ضَجَره عمّا أَلِفتُه من حِياطته وحُسنِ نظره، فقال : إنّه قد حدَثَ لعَبْده عُجْب بنفسه ، وقد صدق — أعلى الله قدرَه — لقد شرّفني الوزيرُ بخِدْمته ، وأعلى ذكرى بجميل ذِكرِه، ونبّه على كفايتي باستكفائه ، ورَفعني وكثّرني[1] عندَ نفسي ، فإن أعجِبْتُ فبنعمتِه عندي ، وجميل تطوّله عليّ ، ولا عجب ، وهل خلا الوزيرُ من قومٍ يَصطَنِعهم بعدَ مَلّة ويَرفَعهم بعد خُمول، ويُحدِث لهم هِمَمًا رفيعة وأنفسا عليّة ، وفيهم شاكر وكفور ، وأرجو أن أكون أشكرَهم للنّعمة ، وأقومَهم بحقّها . وقد أطال الله بقاءه : إن عرَفَ نفسَه وإلّا عرّفناه إيّاها ، فما أنكرَها ، وهي نفس أنشأتْها نعمةُ الوزير وأحدثَتْ فيها ما لَم تَزَل تُحدِثه في نُظَرائها من سائر عبيدِه وخدَمِه ؛ والله يَعلَم ما يأخذ به نفسَه من خدمةِ مولاه ووليّ نعمتِه ، إمّا عادةً ودُرْبة وإما تأدّبا وهَيْبة ، وإمّا شكرًا واستدامةً للنعمة .

فلما قرأ القاسمُ بنُ عبيد الله كتابَه استحسَنَه ، وزاد في رِزْقه .

---

(١) ب : « كبرني » .

(١٤٦)

الأَصْـلُ :

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه :

لَا تَـكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَـلٍ ، وَيَرْجُو التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَـلِ ؛ يَقُولُ فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِ الزَّاهِدِينَ ، وَيَعْمَـلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاغِبِينَ ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَـعْ ، وَإِنْ مُنِـعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ ، يَعْجِزُ عَنْ شُـكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَمْ يَأْتِ .

يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَـلُ عَمَلَهُمْ ، وَيُبْغِضُ الْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ، يَـكْرَهُ الْمَوْتَ لِـكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَـكْرَهُ الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِماً ، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِياً . يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُـلِيَ ! وَإِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرًّا ، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرًّا ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ . إِنِ اسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُـتِنَ ، وَإِنِ افْتَقَرَ قَنِطَ وَوَهَنَ ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ ؛ إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ انْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ .

يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَـبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَّعِظُ ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ .

يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى ، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى ؛ يَرَى الْغُنْمَ مَغْرَماً ، وَالْغُرْمَ مَغْنَماً ، يَخْشَى الْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ الْفَوْتَ ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ

مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يُحَقِّرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ .

اللَّغْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، يُرْشِدُ نَفْسَهُ وَيُغْوِي غَيْرَهُ(١) ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي ، وَيَسْتَوْفِي وَلَا يُوفِي ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

***

قال الرَّضيّ رحمه الله تعالى :

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا هَذَا الْكَلَامُ لَكَفَى بِهِ مَوْعِظَةً نَاجِعَةً ، وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، وَبَصِيرَةً لِمُبْصِرٍ ، وَعِبْرَةً لِنَاظِرٍ مُفَكِّرٍ .

***

الشَّرح :

كثير من الناس يَرجون الآخرَة بغيرِ عَمَل ، ويقولون : رحمة الله واسعة ؛ ومنهم من يَظُن أنّ التلفّظ بكلمتَي الشهادة كافٍ في دُخول الجنّة ، ومنهم من يسوِّف نفسَه بالتوبة ، ويرجئ الأوْقات من اليوم إلى غَد ، وقد يُخْتَرَم على غِرّة فيفوته ما كان أمّله، وأكثرُ هذا الفصل للنّهي عن أن يقول الإنسان واعظا لغيره ما لم يعلمْ هو منْ نفسِه ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢) .

فأوّل كلمةٍ قالَها عليه السلام في هذا المعنى من هذا الفصل قولُه : «يقول في الدّنيا بقول الزّاهدين ، ويَعمَل فيها بعمل الراغبين » .

---

(١) د « يرشد غيره ويغوى نفسه » . (٢) سورة البقرة ٤٤ .

ثم وَصَف صاحبَ هـــذا المذهب وهذه الطريقة فقال : « إنّه إنْ أُعطِىَ من الدّنيا لم يَشبَع » ، لأنّ الطبيعة البشرّية مجبولةٌ على حُبّ الازدياد ، وإنما يَقهَرها أهلُ التوفيق وأربابُ العَزْم القوىّ .

قال : « وإن مُنِــع منها لم يَقنَع » بما كان وَصَل إليه قبل المَنْع .

ثم قال : يَعجَز عن شــكرِ ما كان أنعَمَ به عليه ، ليس يعنى العجزَ الحقيقىّ ، بل المراد تَرْكَ الشّــكر ، فسمَّى تركَ الشــكر عَجزاً . ويجوز أن يُحمَل على حقيقته ، أى أنّ الشــكر على ما أُولِى من النّعم لا تَنتهى قُدْرَته إليه ، أى نِعَم الله عليه أجلّ وأعظَم من أن يُقام بواجب شــكرها .

قال : « ويَبتغِى الزيادةَ فيما بَقِى » ، هذا راجعٌ إلى النّحو الأوّل .

قال : « يَنهَى ولا يَنتهِى ويأمرُ الناسَ بما لا يأتى » ، هذا كما تقدَّم .

قال : « يُحِبّ الصالحين ولا يعمَل عَمَلهم » ، إلى قوله : « وهو أحدُهم » ، وهو المعــنَى الأوّل بعينه .

قال : يَــكرَه الموتَ لــكثرةِ ذُنوبه ، ويقيمُ على الذّنوب ، وهـــذا من العجائب أن يَــكرَه إنسانٌ شيئاً ثم يُقيمُ عليه ، ولــكنّه الغرورُ وتسويفُ النّفس بالأمانىّ .

ثم قال : « إن سَقِمَ ظَلّ نادما ، وإن صَحَّ أَمِن لاهيا » ، ﴿ فإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[١] . . . الآيات .

قال : « يُعجَب بنفسِه إذا عُوفِى ، ويَقنَط إذا ابتُلِى » ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾[٢] ، ومثل الــكلمة الأخرى : « إن أصابَه بَلاء » ، و « إنْ ناله رَخاء » .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٥ . (٢) سورة الفجر ١٥ ، ١٦ .

ثم قال: « تغلبه نفسُه على ما يَظُن، ولا يغلبها على مايَستيقِن » ، هذه كلمة جليلةٌ عُظيمة يقول : هو يستيقِن الحسابَ والثوابَ والعقابَ ، ولا يغلِب نفسَه على مجانبةِ ومتاركةِ ما يُفضِي به إلى ذلك الخطَر العظيم ، وتغلبُه نفسه على السّعى إلى ما يَظن أن فيه لَذّةً عاجلةً ؛ فواعجبا ممّن يترجّح عنـدَه جانبُ الظنّ على جانب العلم ! وما ذاك إلّا لضعفِ يقينِ الناس وحب العاجل .

ثمّ قال : « يخاف على غيره بأدنى من ذَنْبه ، ويرجو لنفســه أكثرَ من عَمَله » ، ما يزال يرَى الواحد منّا كذلك يقول : إنّى لخائف على فلان من الذّنب الفلانىّ وهو مقيمٌ على أفحشَ من ذلك الذنب ، ويرجو لنفسِه النّجاة بما لاتقوم أعمالُه الصّالحة بالمصير إلى النّجاة به، نحو أن يكون يصلّى رَكعاتٍ فى اللّيل أو يصومَ أياما يسيرةً فى الشّهر ، ونحو ذلك .

قال : « إن استغنَى بَطِر وفُتِن ، وإن افتقَر قَنِط ووهن » قنَط بالفتْح يَقنِط بالكسر ، قُنوطا مثل جَلَس يَجلِس جلوسا ، ويجوز قَنَط يَقنُط بالضمّ مثل قَعَد يقعُد، وفيه لغة ثالثة : قَنِط يَقنَط قنَطاً ، مثل تَعِب يَتعَب تَعباً وقَناطةً فهو قَنِط ، وبه قرئَ : ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾[1] ، والقُنوط اليأس . ووهَن الرجلُ يَهِن ، أى ضَعُف وهذا المعنى قد تكرّر .

قال : « يقصِّر إذا عَمِل ، ويُبالِغ إذا سُئِل » ، هذا مِثْلُ ما مَدَحَ به النبىّ صلّى الله عليه وآله الأنصارَ : « إنّكم لتكثُرون عند الفزَع ، وتَقِلّون عند الطمع » .

قال : « إن عَرَضَتْ له شهوةٌ أسلفَ المعصية ، وسوّف التوبة ، وإن عرَتْه محنة انفرَج عن شرائط الملّة » ، هذا كما قيل : أمدَحُه نَقْدا ويُثيبُنى نَسِيئة ، وانفرج عن شرائط الملّة ، قال: أوفعل مايقتضى الخروجَ عن الدّين ؛ وهذا موجودٌ فى كثيرٍ من الناس إذا عرتْه المِحَن كَفَروا أو قال : ما يُقارِب الكفرَ من التسخّط والتبرّم والتأفّف .

---

(١) سورة الحجر ٥٥ ، وهى قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب ، وانظر تفسير القرطبى ١٠ : ٣٦ .

قال : « يَصِف العِبْرة ولا يَعتبِر ، ويُبالِغ فى الموعظة ولا يتّعظ » ، هـذا هو المعنى الأوّل .

قال : « فهو بالقول مُدِلّ ، ومن العمل مُقِلّ » ، هذا هو المعنى أيضا .

قال : « ينافِسُ فيما يَفنَى » ، أى فى شَهَوات الدنيا ولذّاتها ، و « يُسامِح فيما يَبقَى » أى فى الثّواب .

قال : « يَرَى الغُنْم مَغرَما ، والغُرْم مَغنَما » ، هذا هو المعنَى الّذى ذكرْناه آنِفا .

قال : « يَخشَى الموت ، ولا يُبادِر الفَوْت » ، قد تكرّر هذا المعنى فى هذا الفَصْل ، وكذلك قولُه : « يَستعظِم من معصيةِ غيرِه ما يستقلّ أكثر منه من نفسِه . . . » ، وإلى آخر الفصل كلّ مكرّر المعنى وإن اختلفت الألفاظ ، وذلك لاقتدارِه عليه السلام على العِبارة ، وسَعَةِ مادّة النّطق عندَه .

(١٤٧)

الأصلُ :

لِكُلِّ امْرِئٍ عَاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ .

***

الشَّرحُ :

هكذا قرأناه ووجدْناه فى كثيرٍ من النُّسَخ ، ووجدْناه فى كثير منها « لكلّ أمرٍ عاقبة » ، وهو الأليَق ، ومثْل هذا المعنى قولُهم فى المَثَل : لكلّ سائلٍ قرار ، وقد أخذَه الطائىّ فقال :

فكانتْ لوعةً ثمّ استقرّتْ كذاكَ لكلّ سائلةٍ قَرارُ[1]

وقال الكُمَيت فى مِثلِ هذا :

فالآنَ صِرْتَ إلى أُمَيَّـ ـةَ والأمورُ إلى مَصايرْ[2]

فأمّا الرواية الأولى وهى : « لكلّ امرئٍ » فنظائرُها فى القرآن كثيرة ، نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[3]، وقوله : ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[4] ، وغير ذلك من الآيات .

---

(١) ديوانه ٢ : ١٥٣ . (٢) الأغانى ١٥ : ١١١ (ساسى) .

(٣) سورة هود ١٠٥ . (٤) سورة والنازعات ٣٥ ـ ٤١ .

(١٤٨)

الأصْـلُ :

الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِى بَاطِلٍ إِثْمَانِ : إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ ، وَإِثْمُ الرِّضَا بِهِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

لا فرقَ بين الرّضا بالفعل وبين المُشارَكة فيه ؛ ألا ترى أنّه إذا كان ذلك الفعل قبيحا استَحَقّ الراضى به الذمّ كما يستحقّه الفاعل له ! والرّضا يفسَّر على وجهين : الإرادة، وتَرْك الأعتراض، فإن كان الإرادة فلا رَيْبَ أنّه يَستحِق الذّم لأنّ مُرِيد القَبِيح فاعلٌ للقبيح ، وإن كان ترك الأعتراض مع القدرة على الأعتراض فلا رَيْبَ أنّه يستحقّ الذمّ أيضا، لأنّ تاركَ النهى عن المنكر مع ارتفاع المَوانِع يستحقّ الذمّ .

فأمّا قولُه عليه السلام : « وعلى كلّ داخل فى باطلٍ إثمـان » ، فإن أراد الدّاخل فيه بأن يَفعَله حقيقة فلا شُبْهة فى أنّه يأثم من جهتين :

إحداهما من حيثُ إنّه أراد القبيح .

والأخرى من حيث إنه فعَله ، وإن كان قومٌ من أصحـابنا قالوا : إنّ عِقابَ المُراد هو عقابُ الإرادة .

وإن أراد أنّ الراضىَ بالقبيح فقط يستحقّ إثمين : أحدهما لأنّه رَضِىَ به ، والآخَر لأنه كالفاعل ، فليس الأمْر على ذلك ، لأنّـه ليس بفاعل للقبيح حقيقـةً لِيستحقّ الإثم من جهـة الإرادة ومن جهـة الفعليّة جميعا ، فوَجَب إذَنْ أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على الوجه الأوّل .

(١٤٩)

الأصْلُ :

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ ، وَمَا أَدْبَرَ فَكَأَنْ لَمْ يَكُنْ .

***

الشَّرْحُ :

هذا معنًى قد استُعمل كثيرا جدّا ، فمنه المثل :

ما طارَ طيرٌ وارتفَعْ ... إلّا كما طارَ وَقَعْ

وقول الشاعر :

بقدْر العُلوّ يكونُ الهبوطُ ... وإيّاكَ والرُّتبَ العاليَهْ

وقال بعض الحكماء : حركةُ الإقبال بطيئة ، وحركة الإدبار سريعة ، لأن المُقبِل كالصاعد إلى مِرْقاة ، ومِرْقاةُ المُدبِر كالمَقْذوف به من عَلْو إلى أسْفل ، قال الشاعر :

فى هذهِ الدّار فى هذا الرِّواقِ على ... هذى الوِسادة كان العزُّ فانقرَضا

آخر :

إنّ الأمورَ إذا دَنَتْ لزَوالها ... فعلامَةُ الإدبار فيها تظهرُ

وفى الخبر المرفوع : كانت ناقةُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله العَضْباء لا تُسْبَق ، فجاء أعرابىٌّ عَلَى قَعودٍ له فسبَقها ، فاشتد على الصحابة ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ حقّا على الله ألّا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلّا وَضَعه » .

وقال شيخٌ من هَمْدانَ : بعثَنى أهلى فى الجاهليّة إلى ذى الكَلَاع بهَدَايا ، فمكثتُ

تحت قصرِه حَوْلا لا أَصِل إليه ، ثم أشرَف إشرافةً من كُوّةٍ له فخرّ له مَنْ حَوْلَ العرش سُجَّدا ، ثمّ رأيتُه بعد ذلك بحِمْص فقيرا يشترى اللّحم ويسمِّطه (١) خلف دابته ، وهو القائل:

أفٍّ لدنيــاً إذا كانت كذا ... أنا منها فى همــومٍ وأذَى
إنْ صفا عيشُ امرئٍ فى صُبْحها ... جَرّعتْـه ممسياً كأس القَذَى
ولقــد كنتُ إذا ما قِيل مَن ... أنعَمُ العالَم عَيْشا ؟ قيـــل : ذا

وقال بعضُ الأدباء فى كلامه: بينا هذه الدنيا تُرضع بدرّتها وتصرّح (٢) بزبدتها، وتلحف فضل جناَحِها ، وتغرّ بركود رياحِها ، إذ عطفتْ عطف الضّروس ، وصرَخت صُراخ (٣) الشّموس ، وشنّت غارة الهموم ، وأراقت ما حَلبتْ من النعيم ، فالسعيد من لم يغترّ بنكاحِها، واستعدّ لو شك طَلاقها .

شاعر – هو إهاب بن همام بن صَعْصعة المجاشعى ؛ وكان عثمانيّا :

لعمرُ أبيكَ فلا تَــكذِبَنّ ... لقد ذهبَ الخيرُ إلاّ قليلاَ
وقد فُتِنَ الناسُ فى دِينهمْ ... وخَلّى ابنُ عَفّان شرّا طويلا

وقال أبو العتاهية :

يَعمُرُ بيتٌ بخراب بيْتِ ... يَعيشُ حىٌّ بتراثِ ميْتِ

وقال أنس بن مالك : ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا شهرٍ ولا سنةٍ إلاّ والذى قبله خيرٌ منه، سمعتُ ذلك من نبيِّــكم عليه السلام ، فقال شاعر :

ربَّ يومٍ بكيتُ منه فلمّــا ... صرتُ فى غيرِه بكيتُ عليهِ

---

(١) يسمطه ، أى يعلقه .   (٢) ب : « تصرخ » ، تحريف .
(٣) ب : « صرحت » تحريف .

قيل لبعض عُظماء الكُتّاب بعد ما صُودِر : ما تُفكِّر فى زوال نِعمَتِك ؟ فقال : لا بدّ من الزوال ، فلأن تزولَ وأبقى خيرٌ من أن أزولَ وتبقى .

ومن كلام الجاهلية الأولى : كلّ مقيمٍ شاخِص ، وكل زائدٍ ناقص .

شاعر :

إنما الدنيا دُوَلْ فراحِلٌ قيلَ نَزَلْ
* إذ نازلٌ قِيلَ رَحَلْ *

لما فَتحَ خالدُ بنُ الوليد عين التمر سأل عن الحُرَقة بنتِ النّعمان بن المنذر ، فأتاها وسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعتْ علينا الشمس وما من شىء يَدِبّ تحت الخَوَرْنَق إلا وهو تحتَ أيدينا ، ثم غرَبَتْ وقد رَحِمْنا كلّ من نُلِمّ به ، وما بيت دخلته حَبْرَة ، إلّا ستدخله عَبْرة ، ثم قالت :

فبَيْنَا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سُوقةٌ نتنصّفُ
فأفٍّ لدنيا لا يَدُوم نعيمها تَقَلَّب تاراتٍ بنا وتَصرَّفُ

وجاءها سعدُ بنُ أبى وقاص مرّة ، فلما رآها ، قال : قاتل الله عَدِىّ بن زيد ، كأنه كان ينظر إليها حيث قال لأبيها :

إنّ للدّهرِ صَرْعَةً فاحذَرَنْها لا تبيتنّ قد أمِنْتَ الدّهورَا[1]
قد يبيتُ الفَتى مُعَافًى فيَرْدَى ولقد كان آمِناً مَسرُورا

وقال مطرِّف بنُ الشِّخِّير : لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك ولين رِياشهم ، ولكن انظروا إلى سُرعةِ ظَعْنِهم وسوء مُنقَلَبهم ، وإن عُمْرا قصيرا يستوجب به صاحبُه النار لعُمرٌ مشئومٌ على صاحبه .

لما قتل عامِرُ بنُ إسماعيل مَرْوانَ بن محمد وقعَد على فراشه ، قالت ابنة مَرْوان له : ياعامر ، إنّ دهراً أنزلَ مروانَ عن فُرُشِه وأقْعَدَك عليها لَمُبْلِغٌ فى عِظَتك إن عقلْتَ .

---

(١) شعراء النصرانية ، الأغانى .

(١٥٠)

الأصْلُ :

لا يَعْدَمُ الصَّبُورُ الظَّفَرَ وإنْ طَالَ بِهِ الزَّمانُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم كلامُنا فى الصبر .

وقالت الحكماء : الصّبرُ ضَرْبان : جسميّ ونفسيّ ، فالجسميّ تحمُّل المَشاقّ بقدر القوّة البدنيّة ، وليس ذلك بفضيلة تامّة ، ولذلك قال الشاعر :

والصبرُ بالأرواحِ يُعرَف فضله صبر الملوك وليس بالأجْسامِ

وهذا النّوع إمّا فى الفعل كالمشى ورَفْع الحجَر أو فى رفع الانفعال كالصّبر على المَرَض واحتمال الضرب المُقْطِع . وأما النفسيّ ففيه تتعلّق الفضيلة ؛ وهو ضَرْبان : صبرٌ عن مشتهى ، ويقال له : عِفّة ، وصَبْر على تحمل مكروه أو محبوب . وتختلف أسماؤه بحسب اختلافِ مَواقِعه ، فإن كان فى نزول مصيبة لم يتعدّ به اسم الصبر ، ويضادّه الجزَع والهلع والحُزْن ، وإن كان فى احتمال الغنى سمّى ضبط النفس ، ويضادّه البَطر والأشَر والرّفغ وإن كان فى محاربة سمّى شجاعةً ويضادّه الجبن ، وإن كان فى إمساكِ النفس عن قضاء وَطَر الغضب سمى حِلْما ، ويضادّه التذمّر والاستشاطة ، وإن كان فى نائبة مضجرة سمّى سَعة صدْر ، ويضادّه الضَجَر وضيق العَطَن والتبرّم ، وإن كان فى إمساك كلامٍ فى الضمير سمّىَ كِتْمان السرّ ، ويضادّه الإفشاء ، وإن كان عن فضول العيش سمّى قناعةً وزهدا ويضادّه الحرْص والشّرَه . فهذه كلها أنواعُ الصبر ، ولكن اللفظ العرْفىّ واقع على الصبر الجُسْمانىّ ، وعلى ما يكون فى نزول المصائب ، وتنفرد[1] باقى الأنواع بأسماء تخصُّها .

(١) ب : « وينفرد » .

(١٥١)

الأصْـلُ :

مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا عند أصحابنا مختصٌّ باختلاف الدّعوة فى أصول الدّين ، ويَدْخل فى ذلك الإمامة ، لأنها من أصول الدين ، ولا يجوز أن يَختلِف قولان متضادّان فى أصول الدين فيكونا صوابا ، لأنه إن عَنَى بالصواب مطابقة الاعتقاد للخارج ؛ فمستَحيل أن يكون الشىء فى نفسه ثابتا منفيا ، وإن أراد بالصّواب سُقوط الإثم — كما يحكى عن عُبَيْد بن الحسن العَنْبرى — فإنه جعل اجتهاد المجتهدين فى الأصول عُذْرًا ، فهو قولٌ مسبوق بالإجماع .

ولا يحمل أصحابنا كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على عمومِه ، لأن المجتهدين فى فروع الشريعة وإن اختَلَفوا وتضادّت أقوالهمْ ليسوا ولا واحد منهم على ضلال ، وهذا مشروحٌ فى كُتُبنا الـكلاميّة فى أصول الفِقْه .

(١٥٢)

الأصْلُ :

مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِبْتُ ، وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضُلَّ بِى .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه كلمةٌ قد قالها مرارا ، إحداهنّ فى وقعة النّهروان .

وكُذِبت بالضم أُخْبِرْت بخبَر كاذب ، أى لم يخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله عن المخدَج خبراً كاذبا ، لأن أخبارَه صلى الله عليه وآله كلها صادقة .

وضُلّ بى ، بالضمّ نحو ذلك ، أى لم يُضلِلنى مضلّل عن الصدق والحقّ ، لأنه كان يَسْتَنِد فى أخباره عن الغيوب إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وهو منزّه عن إضلاله وإضلال أحد من المكلفين .

فكأنّه قال لما أخبرهم عن المخدَج[1] وإبطاء ظهورِه لهم : أنا لم أكذِب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا يكذب فيما أخبرنى بوقوعه ، فإذاً لابدّ من ظفرَكم بالمخدَج فاطلبوه .

---

(١) المخدج : ناقص اليد ؛ وهو ذو الثدية .

(١٥٣)

الأصل :

لِلظَّالِمِ الْبَادِى غَدًا بِكَفِّهِ عَضَّةٌ .

***

الشرح :

هذا من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾(١) ، وإنما قال : « للبادى » لأنّ من انتصر بعد ظُلْمه فلا سبيل عليه . ومن أمثالهم : البادى أظلم .

فإن قلت : فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالمًا ، فأىّ حاجة له إلى الاحتراز بقوله : « البادى » ؟

قلتُ : لأنّ العرب تُطلق على ما يَقع فى مُقابلة الظلم اسم « الظلم » أيضاً كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾(٢) .

---

(١) سورة الفرقان ٢٧ . (٢) سورة الشورى ٤٠ .

(١٥٤)

الأصل :

الرَّحِيلُ وَشِيكٌ .

* * *

الشرح :

الوشيكُ : السريع ، وأراد بالرحيل ها هنا الرّحيل عن الدنيا وهو الموت .

وقال بعضُ الحكماء : قبل وجود الإنسان عدم لا أوّل له ، وبعدَه عدَم لا آخر له ، وما شبّهت وجوده القليل[1] المتناهى بين العدمين غير المتناهِيَين إلّا ببَرْق يخطَف خَطْفة خفيفة[2] فى ظلام مُعتكر ، ثم يخمد ويَعود الظّلام كما كان .

---

(١) ا : « الوجود القليل » . (٢) ا : « يسيرة » .

(١٥٥)

الأصْـلُ :

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم تفسيرُنا لهذه الكلمة فى أوّل الكتاب ، ومعناها : من نابَذَ الله وحاربَه هلك ، يقال لمن خالَف وكاشَف : قد أبْدَى صَفْحَته .

(١٥٦)

الأصْلُ :

اسْتَعْصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَارِهَا .

* * *

الشَّرْحُ :

أى فى مَظانّها وفى مركزها ، أى لا تستنِدوا إلى ذمامِ الكافرين والمارِقين ، فإنهم ليسوا أهلا للاستِعصامِ بذممِهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾[١] . وقال : ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾[٢] .

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمرِ الجمل وحضور قومٍ من الطُّلَقاء بين يديه ليُبايعوه ، منهم مَرْوان بن الحكَم ؛ فقال : وماذا أصنع ببَيْعتك ؟ ألم تُبايعْنى بالأمْس ! يعنى بعدَ قتل عثمان ، ثم أمر بإخْراجهم ورفْعِ نفسه عن مبايعة أمثالهم ، وتكلم بكلامٍ ذكر فيه ذِمامَ العربية وذِمامَ الإسلام ، وذكر أنّ من لا دِين له فلا ذِمامَ له .

ثم قال فى أثناء الكلام : « فاستعصِمُوا بالذمم فى أوتارِها » ، أى إذا صَدَرَتْ عن ذَوِى الدّين ، فمَنْ لا دين له لا عَهْدَ له .

---

(١) سورة التوبة ١٠ .   (٢) سورة التوبة ١٢ .

(١٥٧)

الأصْلُ :

عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ فِي جَهَالَتِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

يعنى نفسَه عليه السلام ؛ وهو حقٌّ على المذهَبين جميعا ، أما نحن فعندنا أنه إمامٌ واجبُ الطاعة بالاختبار ، فلا يُعذَر أحدٌ من المكلّفين فى الجهل بوجوب طاعته ، وأمّا على مذهبِ الشِّيعة فلأنه إمامٌ واجبُ الطّاعة بالنّص ، فلا يُعْذَر أحدٌ من المكلفين فى جَهالة إمامته ، وعندهم أنّ معرفة إمامته تَجرى مجرى معرفةِ محمد صلّى الله عليه وآله وَتجرَى معرفة البارئ سبحانه ، ويقولون : لا تصحّ لأحد صلاةٌ ولا صَوْمٌ ولا عبادة إلا بمعرفة الله والنبيّ والإمام .

وعلى التحقيق ، فلا فرق بيننا وبينهم فى هذا المعنى ، لأنّ من جَهل إمامة علىٍّ عليه السلام وأنكرَ صِحّتها ولزومها ، فهو عند أصحابنا مخلد فى النار ، لا ينفعه صوم ولا صلاة ، لأنّ المعرفة بذلك من الأصول الكلّيّة التى هى أركانُ الدين ، ولكنا لا نُسَمّى مُنكر إمامته كافرا ، بل نسمّيه فاسقا ، وخارجيا ، ومارِقا ، ونحو ذلك ، والشِّيعة تسميه كافرا ، فهذا هو الفرْق بيننا وبينهم ، وهو فى اللفظ لا فى المعنى .

(١٥٨)

الأصل :

مَا شَكَكْتُ فِي الْحَقِّ مُنْذُ أُرِيتُهُ .

* * *

الشرح :

أى منذ أُعلِمْتُه ، ويجب أن يُقدَّر ها هنا مفعول محذوف ، أى منذ أُرِيته حقّا ، لأنّ « أرَى » يتعدّى إلى ثلاثة مَفاعيل ، تقول : أرَى اللهُ زَيْدًا عَمْرًا خيرَ الناس ، فإذا بنيتَه للمَفْعول به قام واحدٌ من الثلاثة مَقام الفاعِل ووَجَب أن يُؤتى بمفعولين غيره ، تقول : أُريت زيداً خيرَ الناس ، وإن كان أشارَ بالحقّ إلى أمرٍ مُشاهَد بالبَصر لم يَحتجْ إلى ذلك ، ويجوز أن يَعنِي بالحقّ اللهَ سبحانَه وتعالى ، لأنّ الحق من أسمائِه عزّ وجلّ ، فيقول : منذ عرفتُ اللهَ لم أشُكّ فيه ، وتكون الرؤية بمعنى المَعرِفة ، فلا يحتاج إلى تقدير مَفعولٍ آخَر ؛ وذلك مِثلُ قولِه تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾(١) ؛ أى لا تَعرِفونهم ، الله يَعرِفهم ، والمراد من هذا الكلام ذِكرُ نعمةِ الله عليه فى أنّه منذ عرَف الله سبحانَه لم يَشُكّ فيه ، أو منذ عرف الحقّ فى العَقائد الكلاميّة والأصوليّة وَالفِقْهيّة لم يشكّ فى شىء منها ؛ وهذه مزِيّة له ظاهرة على غيرِه من النّاس ، فإنّ أكثَرهم أو كلّهم يشكّ فى الشىء بعد أن عرفَه وتعتوِره الشُّبَه والوَساوِس ويُران على قَلْبِه وتَختَلِجُه الشياطين عمّا أدّى إليه نظره .

---

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

وقد رُوِى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لمّا بَعَثه إلى اليمن قاضياً ضَرَب على صَدْره وقال : « اللهم اهدِ قلبه ، وثَبِّت لسانَه » ، فكان يقول : ما شككْتُ بعدَها فى قضاء بين اثنين .

ورُوِى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآلِه لمّا قرأ : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[1] قال : « اللهم اجعلها أُذُنَ علىٍّ » ، وقيل له : « قد أُجيبتْ دعوَتُك » .

(١٥٩)

الأصلُ :

وَقَدْ بُصِّرْتُمْ إنْ أَبصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إنِ اهْتَدَيْتُمْ .

***

الشرحُ :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[2] .

وقال بعض الصالحين : ألا إنّهما نَجْدا الخيْر والشّر ، فجعلَ نَجْد الشرّ أحب إليكم من نَجْد الخير .

قلت : النَّجْد : الطّريق.

واعلم أنّ الله تعالى قد نَصَب الأدِلّة ومَكّن المكلّف بما أكمَل له من العقل من الهداية، فإذا ضلّ فمِنْ قِبَل نفسِه أتى .

وقال بعضُ الحكماء : الّذى لا يَقبَل الحكمةَ هو الّذى ضَلّ عنها ليست هى الضالّة عنه .

وقال : متى أحسستَ بأنّك قد أخطأت وأردتَ ألّا تعود أيضا فتُخطئ فانظر إلى أصلٍ فى نفسك حَدَث عنه ذلك الخطأ ، فاحتَلْ فى قَلْعِه ، وذلك إنّك إن لم تفعل ذلك عادَ فثَبَت خطأ آخر . وكان يقال : كما أنّ البدن الخالى من النّفس تَفُوح منه رائحة النّتْن ، كذلك النّفس الخالية من الحِكْمَة ؛ وكما أنّ البَدَن الخالىَ من النّفس ليس يحسّ ذلك بالبدن

(١) سورة فصلت ١٧ . (٢) سورة البلد ١٠ .

بل الّذين لهم حِسّ يُحِسّونه به ، كذلك النفس العَدِيمة للحكمة ليس تحسّ به تلك النفس ، بل يُحِسّ به الحكماء ؛ وقيل لبعض الحكماء : ما بالُ الناسِ ضَلّوا عن الحقّ ؟ أتقول : إنّهم لم تُخْلَق فيهم قوّة مَعرفة ؟ فقال : لا ، بل خُلِق لهم ذلك ، ولكنّهم استعمَلُوا تلك القوّة على غير وجهِها ، وفي غير ما خُلِقَتْ له ، كالسّمّ تَدفَعه إلى إنسانٍ ليَقتُل به عدوّه فيَقْتُلُ به نفسَه .

(١٦٠)

الأصْـلُ :

عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

***

الشَّـرْحُ :

الأصل فى هذا قولُ الله تعالى : ﴿ادْفَعْ بالتى هِيَ أَحْسَنُ فإذا الذِى بينَكَ وبينهُ عداوة كأنّه ولىٌّ حميم﴾ (١) .

وروى المبرد فى ,, الكامل ،، عن ابن عائشة ، عن رجل من أهل الشام، قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلا راكباً على بغلة لم أر أحسنَ وَجْها ولا ثَوْباً ولا سَمْتا ولا دابّة منه ، فمال قلبى إليه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا الحسنُ بنُ الحسن بن علىّ ، فامتلأ قلبى لهُ بغضاً ، وحسدتُ عليًّا أن يكون له ابن مثله ، فصرتُ إليه وقلتُ له : أنت ابن أبى طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت : فبك وبأَبيك ! فلمّا انقضى كلامى قال : أحسَبك غريباً ؟ قلت : أجَل ، قال : فَمِلْ بنا ، فإن احتَجْت إلى منزلٍ أنزلنــاك ، أو إلى مالٍ واسَيْناك ، أو إلى حاجةٍ عاوَنّاك .

فانصرفْتُ عنه وما على الأرض أحدٌ أحبّ إلىّ منه (٢) .

وقال محمود الورّاق :

إنّى شكرتُ لظالمى ظُلْمِى ... وغفَرْتُ ذاكَ لهُ على عِلْمِ
ورأيتُهُ أهــدَى إلَيَّ يداً ... لمّــا أبانَ بجهلِهِ حِلْمى
رجعَتْ إساءتُهُ عليه وإحـ ... ـسانى فَعَادَ مُضَاعفَ الْجُرْمِ

---

(١) سورة فصلت ٣٤ . (٢) الكامل ٢ : ٥ ، ٦ .

وغدَوْتُ ذا أجرٍ ومَحمَدَةٍ   وغَدَا بِكَسْبِ الظلْمِ والإثمِ
فكأنما الإحسانُ كان لهُ   وأنا المُسيءُ إليهِ فى الحُكْمِ
ما زالَ يَظلِمُنى وأَرْحَمُهُ   حتّى بكيتُ له من الظُّلْمِ

قال المبرّد : أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش قال له رجل منهم : إنّى مَرَرْتُ بآل فلان وهم يَشْتمُونك شَتْما رَحِمْتك منه ؛ قال : أفسمِعتَنى أقول إلّا خيراً ! قال : لا ، قال : إيّاهم فارحم[1] .

وقال رجل لأبى بكر : لَأَشْتُمَنَّكَ شَتْماً يَدْخُل معك قبْرَكَ ، فقال : مَعَك والله يَدْخُل ، لَا معى[2] .

(١) الكامل ٢ : ٤ ، ٥ .   (٢) الكامل ٢ : ٥

(١٦١)

الأَصْـلُ :

مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِـعَ التُّهَمَـةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ .

* * *

الشَّـرْحُ :

رأى بعضُ الصّحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً فى دَرْبٍ من دروب المدينة ومعه امرأةٌ فسَلّم عليه ، فردّ عليه ، فلما جاوَزَه ناداه فقال : هـــذه زَوْجتى فلانة ، قال : يا رسول الله ، أوَفيك يُظَنّ ! فقال : « إنّ الشيطان يجرِى مِن ابن آدم مجرَى الدّم » .

وجاء فى الحديث المرفوع : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يرِيبُك » .

وقال أيضاً : « لا يكملُ إيمانُ عبدٍ حتى يترُكَ ما لا بأسَ به » .

وقد أخذ هذا المعنى شاعرٌ فقال :

وزعمتَ أنّك لا تَلوط فقل لنا   هذا القُرْطَقُ واقفاً ما يَصنَعُ !
شَهِدتْ مَلاحتُه عليكَ برِيبــةٍ   وعلى الُريبِ شَواهدٌ لا تُدْفَعُ

(١٦٢)

الأصل :

مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ .

* * *

الشرح :

المعنى أن الأغلب فى كلّ ملك يَستأثر على الرعية بالمال والعزّ والجاه .

ونحو هذا المعنى قولهم : مَن غَلَب سَلَب ، ومن عَزّ بَزّ .

ونحوه قول أبى الطيّب :

والظلمُ من شِيمِ النفوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفّــةٍ فلِعِلّةٍ لا يظلمُ[(١)]

(١٦٣)

الأصْلُ :

مَن اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، ومَنْ شَاوَرَ الرِّجالَ شارَكَها فى عُقُولِها .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ فى المَشُورة مدحا وذما .

وكان عبدُ الملك بن صالح الهاشمىُّ يذمُّها ويقول : ما استَشَرتُ واحدا قطّ إلّا تكبّر علىّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العِزّة ودخلَتْنى الذِّلة ، فإياك والمَشُورة وإن ضاقتْ عليك المذاهبُ ، واشتبهَتْ عليك المسائل ، وأدّاك الاستبدادُ إلى الخطأ الفادح .

وكان عبدُ الله بنُ طاهر يذهب إلىهذا المذهَب ، ويقول : ماحَكّ جِلدكَ مِثلُ ظُفْرِكِ ؛ ولأَنْ أخطىء مع الاستبداد ألفَ خطأ ، أحبُّ إلىّ من أن أستشير وأُرَى بعين النّقص والحاجة .

وكان يقال : الاستشارة إذاعة السرّ ، ومخاطرةٌ بالأمر الذى ترومُه بالمشاوَرة ، فرُبَّ مستشارٍ أذاعَ عنك ما كان فيه فساد تدبيرك .

وأما المادِحون للمشُورة فكثير جدًّا . وقالوا : خاطر مَن استبدّ برأيه .

وقالوا : المَشُورة راحةٌ لك ، وتَعبٌ على غيرك .

وقالوا : مَن أكثر من المَشورة لم يعدَم عند الصواب مادحا ، وعند الخطأ عاذرا .

وقالوا : المستشير على طَرَف النّجاح ، والاستشارة مِن عَزْم الأمور .

وقالوا : المَشُورة لقاحُ العقول ، ورائد الصواب .

ومن ألفاظهم البديعة : ثمرَة رأى المُشير أحلى مِن الأَرْيِ المشور[1] .

وقال بَشّار :

إذا بلغ الرأىُ النّصيحةَ فاستَعِنْ   بعَزْمٍ نصيح أو مشورة حازِمِ[2]
ولا تَجعَل الشورَى عليك غَضاضةً   فإنّ الخوافى عُدّة للقــوادِمِ

(١) الأرى : العسل ، والمشور : المستخرج . شرت العسل : استخرجته .
(٢) شرح مختار بشار ٣١٢ .

(١٦٤)

الأصل :

مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كانَتِ الْخِيَرَةُ فِي يَدِهِ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى السرِّ والأمر بكتمانه ؛ ونذكر ها هنا أشياء أخر .

من أمثالهم : مَقتل الرَّجُل بين لَحْيَيه .

دنا رجلٌ مِن آخر فسارّه ، فقال : إن مِن حق السرّ التدانى .

كان مالكُ بنُ مِسمع إذا ساره إنسانٌ قال له : أظهره ، فلو كان فيه خيرٌ لما كان مكتوما .

حكيم يُوصى ابنه : يا بُنىّ كُنْ جَواداً بالمال فى موضع الحقّ ، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق ، فإنّ أحمد جُود المرء الإنفاق فى وجه البرّ .

ومِن كلامهم : سِرُّك من دَمِك ، فإذا تكلّمت به فقد أرَقْتَه .

وقال الشاعر :

فلا تُفْشِ سِرّكَ إلّا إليكَ ... فإنّ لكلّ نصيح نَصيحَا

ألم تَرَ أنّ غُواةَ الرّجال ... لا يتركون أديمًا صحيحَا !

وقال عمرُ بنُ عبدالعزيز : القلوب أَوْعِيَةُ الأسرار والشِّفاه أقفالها ، والألسُن مفاتِيحُها فليحفظ كلُّ امرئٍ مفتاحَ سِرّه .

وقال بعض الحكماء : مَن أفشى سِرَّه كَثُر عليه المتآمِرُون .

أسَرّ رجل إلى صديقٍ[1] سرًّا ثم قال له : أفهمْت ؟ قال له : بل جهلتُ ، قال : أحفِظْتَ ؟ قال : بل نسيت .

وقيل لرجل : كيف كتمانُك السرّ ؟ قال : أجحد المخبر ، وأحلف للمُسْتَخبِر .

أنشد الأصمعيّ قولَ الشاعر :

إذا جاوَزَ الإثْنَيْنِ سِرٌّ فإنه ... بِنَثٍّ وتكثيرِ الوُشاة قَمِينُ[2]

فقال : والله ما أراد بالاثنين إلّا الشَّفَتَين .

---

(١) ا : « صديقه » .　　(٢) قمين : خليق .

(١٦٥)

الأصْـلُ :

الْفَقْرُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

فى الحديث المرفوع : « أشقى الأشقياء مَن جُمِعَ عليه فقرُ الدنيا وعذاب الآخرة » .

وأتى بُزُرْجُمِهرَ فقيرٌ جاهل ، فقال : بئسما اجتمع على هذا البائس : فَقْرٌ ينقص دنياه، وجهلٌ يُفسِد آخرته .

شاعر :

خُلِق المـالُ واليَسارُ لقَوْمٍ وأرانى خُلِقتُ للإملاقِ
أنا فيما أرَى بقيَّـةُ قومٍ خُلِقوا بعد قِسْمَة الأرزاقِ

أَخَذَ السِّيواسىُّ هذا المعنى ، فقال فى قصيدته الطويلة المعروفة بالساسانية :

ليتَ شِعرى لمّا بدا يقسم الأر زاق فى أىِّ مطبَق كنت[1]

قرئ على أحد جانِـبَىْ دينار :

قُرِنْتُ بالنُّجْح وبى كلُّ ما يرادُ مِن ممتنعٍ يُوجَـدُ

وعلى الجانب الآخر :

وكلّ من كنتُ له آلِفاً فالإنس والجنّ له أَعبُـدُ

---

(١) المطبق : السجن .

وقال أبو الدّرداء : مَن حفظ ماله فقد حَفظ الأكثر من دِينه وعِرْضه .

بعضهم :

وإذا رأيتَ صعوبةً فى مطلبٍ ... فاحمل صعوبته على الدِّينارِ
تردده كالظَّهْرِ الذّلول فإنّه ... حجرٌ يلينّ قوّة الأحْجارِ

ومن دعاء السَّلَف : اللهمّ إنى أعوذ بك من ذُلّ الفقْر وبطَر الغِنَى .

(١٦٦)

الأصل :

مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لَا يَقْضِى حَقَّهُ فَقَدْ عَبَّدَهُ .

* * *

الشرح :

عَبّده بالتشديد ، أى اتخذه عَبْدا ، يقال : عبّده واستَعْبده بمعنى واحد ؛ والمعنى بهذا الكلام مَدْحُ مَن لا يقضى حقّهُ ، أى من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنه لم يفعلْ معه ذلك مكافأةً له عن حقّ قضاه إيّاه ، بل فعل ذلك إنما مبتدأ ، فقد استعبده بذلك[١] .

وقال الشاعر فى نقيض هذه الحال يخاطب صاحباً له :

كُنْ كأنْ لم تلاقِنى قَطُّ فى النّا سِ ولا تجعلَنّ ذِكْراىَ شَوْقا
وتَيقّنْ بأننى غـيرُ راءٍ لك حقّا حتى تَرَى لِىَ حَقّا
وبأنّى مفوِّقٌ ألفَ سَهْمٍ لكَ إن فوّقَتْ يمينُك فُوقا

---

(١) ا : « بهذا » .

(١٦٧)

الأصْـلُ :

لا طاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخالِقِ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذه الكلمةُ قد رويتْ مرفوعة ، وقد جاء فى كلام أبى بكر : أطيعونى ما أطعتُ الله ؛ فإذا عصيتُه فلا طاعة لى عليكم .

وقال معاوية لشدّاد بن أوس: قم فاذكر عليّا فانتقصْه [(١)]؛ فقام شدّاد فقال: الحمد لله الذى افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى آثرَ مِن رضا غيره، على ذلك مَضى أوّلهم ، وعليه مضى آخرهم . أيّها الناس ، إنّ الآخرة وعدٌ صادق يحكم فيها مَلِكٌ قاهر وإنّ الدّنيا أكلٌ حاضر ، يأكل منها البَرّ والفاجر ، وإن السامع المطيع لله لا حُجّة عليه وإن السامع العاصىَ لله لا حجّة له ، وإنّه لا طاعةَ لمخلوقٍ فى معصيةِ الخالق ، وإذا أراد الله بالناس خيراً استعمل عليهم صُلحاءهم، وقضى بينهم فُقهاؤهم [(٢)]، وجعل المال فى سُمَحائهم ، وإذا أراد بالعباد شرّا عمل عليهم سُفهاؤهم ، وقضى بينهم جُهلاؤُهم ، وجعل المال عند بُخَلائهم . وإنّ من إصلاح الوُلاة أن تُصلح قرناءها . ثمّ التفَت إلى معاوية فقال : نَصَحك يا معاوية مَن أسخَطَك بالحق ، وغشّك من أرْضاك بالباطل ! فقطع معاويةُ عليه كلامَه، وأمرَ بإنزاله، ثم لاطفَه وأمرَ له بمال ، فلما قبضه قال : ألستَ من السّمحاء الذين ذكرت ؟ فقال : إن كان لك مالٌ غيرُ مال المسلمين أصبته حلالا ، وأنفقته إفضالا فنعم ، وإن كان مالُ المسلمين احتجبْتَه دونهم أصبْتَه اقترافا ، وأنفقْتَه إسْرافا ، فإن الله يقول : ﴿ إنّ المبَذّرِين كانُوا إخْوانَ الشّياطين ﴾[(٣)] .

---

(١) فى د « وتنقصه » وهو مستقيم أيضا .   (٢) فى د « علماؤهم » .

(٣) سورة الإسراء ٢٧ .

(١٦٨)

الأصلُ :

لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

لعل هذه الكلمةَ قالها فى جواب سائلٍ سأله : لِمَ أخّرت الطالبةَ بحقّك من الإمامة ؟ ولا بدّ من إضمار شىء فى الكلام على قولنا وقولِ الإماميّة ، لأنّا نحن نقول : الأمرُ حقّه بالأفضليّة وهم يقولون : إنّه حقّه بالنصّ ، وعلى كِلاَ التقديرَين فلا بدّ من إضمار شىء فى الكلام؛ لأنّ لقائلٍ أن يقول له عليه السلام : لو كان حَقَّك من غير أن يكون للمكلّفين فيه نصيبٌ لجاز ذَلك أن يؤخَّر كالدَّين الّذى يستحقّ على زيد ، يجوز لك أن تؤخِّره لأنّه خالِصٌ لك وَحْدَكَ ؛ فأمّا إذا كان للمكلّفين فيه حاجةٌ ماسّة لم يكن حقّك وحدَك ؛ لأنّ مصالحَ المكلَّفين مَنوطةٌ بإمامَتك دون إمامةِ غيرِك ، فكيف يجوز لك تأخيرُ مافيه مصلحةُ المكلَّفين ؟ فإذَنْ لا بدّ من إضمار شىء فى الكلام . وتقديرُه : لا يُعابُ المرء بتأخير حقّه إذا كان هناك مانعٌ عن طَلَبه ، ويستقيم المعنى حينئذٍ على المَذهَبيْن جميعا ، لأنّه إذا كان هناك مانعٌ جاز تقديم غيره عليه ، وجاز له أن يؤخّر طلبَ حقّه خوفَ الفتنة ، والكلام فى هذا الموضع مُستقصًى فى تصانيفنا فى علم الكلام .

(١٦٩)

الأصْـلُ :

الْإعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الأزْدِيَادِ .

* * *

الشَّــرْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنِــع فى العُجْب ؛ وإنما قال عليه السلام : « يمنع من الأزدياد » لأنّ المُعجَب بنفسه ظانٌّ أنّه قد بَلغ الغرَض ، وإنما يَطلُب الزّيادةَ مَنْ يستشعِر التقصير لا مَن يتخيّل الـكمال ، وحقيقة العَجَب ظنُّ الإنسان بنفسِه استحقاقَ منزلةٍ هو غــيرُ مستحقّ لها ؛ ولهذا قال بعضهم لرجل رآه معجَباً بنفسِه : يسرّنى أن أكون عندَ الناس مِثلك فى نفسِك ، وأن أكونَ عندَ نفسى مِثلك عند الناس ، فتمـنّى حقيقــة ما يقدّره ذلك الرجل ، ثمّ تمنّى أن يكون عارِفاً بعيوب نفسِه ، كما يَعرِف الناسُ عيوبَ ذلك الرجل المُعجَب بنفسه .

وقيل للحَسَن : مَن شرُّ الناس ؟ قال : مَن يرى أنه خيرُهم .

وقال بعض الحـكماء : الـكاذب فى نهاية البُعْدِ من الفَضْل ؛ والمُرَائى أسوأ حالًا من الـكاذب ، لأنّه يَـكذِب فعلا ، وذاكَ يَـكذِب قوْلا ، والفِعْل آكَدُ من القوْل ؛ فأمّا المُعجَب بنفسِه فأسوأ حالًا منهما ، لأنهما يرَيان نَقْصَ أنفسِهما ، ويُرِيدان إخفاءه، والمُعجَب بنفسِه قد عَمِى عن عيوبِ نفسِه فيرَاها محاسنَ ويُبدِيها .

وقال هذا الحـكيمُ أيضا : ثمّ إنّ المُرَائِيَ والـكاذبَ قد يُنتفَع بِهما كمَلّاح خافَ

رُكّابَه الغرَق من مكانٍ مَخُوف من البَحر ، فبَشّرهم بتجاوُزِه قبل أن يتجاوزه لئلا يَضْطربوا فيتعجّل غرَقهم .

وقد يُحمَد رِياءُ الرئيس إذا قَصَد أن يُقتَدى به فى فِعــل الخير ، والمُعجب لا حظّ له فى سببٍ من أسباب المَحْمَدة بحالٍ .

وأيضا فلأنّك إذا وَعَظْتَ الـكاذب والمرائى فنفْسهما تصدّقك وتثلبهما لمعرفتهمـا بنفسِهما ، والمعجب فلِجهلِه بنفسه يظنُّك فى وَعْظه لاغيا ، فلا يَنتَفع بمقَالِك ، وإلى هذا المعنى أشارَ سبحانه بقوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾(١)، ثم قال سبحانه : ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(٢) ، تنبيها على أنّهم لا يَعْقلون لإعجابهم .

وقال عليه الســلام : ثلاثٌ مُهلِـكات : شُحٌّ مُطاع ، وهوًى متّبَع ، وإعجابُ المرء بنفسه .

وفى المَثَل : إنّ إبليسَ قال : إذا ظفرتُ من ابن آدمَ بثلاثٍ لم أطالِبْه بغيرِها : إذا أُعجِب بنفسِه ، واستكثرَ عملَه ، ونسىَ ذُنوبَه .

وقالت الحـكماء : كما أنّ المُعجَب بفرَسه لا يَرُوم أن يَستبدِل به غيرَه ، كذلك المُعجَب بنفسه لا يُريد بحالِه بَدلًا ، وإن كانت رديئةً .

وأصل الإعجاب من حُبّ الإنسان لنفسِه ، وقد قال عليه السلام : « حُبُّـك الشىء يُعمِى ويُصِمّ » ، ومن عَمِىَ وصَمّ تعذّر عليه رؤيةُ عُيوبه وسماعُها ، فلذلك وَجَب على الإنسان أن يَجعَل على نفسه عيونا تُعرّفه عيوبَه ، نحوَ ما قال عمر : أحبُّ الناس إلىّ امرؤٌ أهدَى إلىّ عيوبى .

ويَجب على الإنسان إذا رَأى من غيره سيئة أن يَرجِع إلى نفسه ، فإن رَأى ذلك

---

(١) سورة فاطر ٨ .

موجوداً فيها نزَعها ولم يَغفَل عنها ، فما أَحسنَ ما قال المتنبّى :

ومن جهلتْ نفسُــه قدرَه   رأى غيرُه منه ما لا يَرَى (١)

وأما التِّيه وماهيّتُه فهو قريب من العُجب ، لـكنّ المُعجَب يصدّق نفسه وَهْما فيما يظنّ بها ، والتيّاه يصدّقها قَطْعا ، كأنّه متحيّر فى تيه . ويُمكِن أن يفرق بينهما بأمرٍ آخَر ، ويقول : إنّ المعجَب قد يُعجَب بنفسِه ولا يؤذى أحداً بذلك الإعجاب ، والتّيّاه يَضُمّ إلى الإعجاب الغَضّ من النـاس والترفُّـع عليهم ، فيَستلزم ذلك الأذى لهم ، فـكلٌّ تائهٍ معجَب ، وليس كلٌّ معجَب تائهاً .

---

(١) ديوانه ١ : ٤٤ .

(١٧٠)

الأصْـلُ :

الْأَمْرُ قَرِيبٌ ، وَالاصْطِحَابُ قَلِيلٌ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذه الـكلمةُ تذكِّرٌ بالموت وسرعةِ زَوال الدّنيا ؛ وقال أبو العلاء :

نفسِى وجِسْمِىَ لمّا استجمَعَا صَنَعَا ... شرًّا إلىّ فَجَلَّ الواحدُ الصَّمَدُ
فالجِسْم يعذل فيه النفسَ مجتهداً ... وتِلكَ تَزْعُم أنّ الظالمَ الجَسَدُ
إذا هُما بعدَ طُولِ الصُّحبة افْتَرَقا ... فإنّ ذاكَ لأحداث الزمانِ يَدُ
وأصبحَ الجوهر الحسّاسُ فى مِحَنٍ ... موصولةٍ واستراحَ الآخر الجَمَدُ

(١٧١)

الأصْلُ :

قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِى عَيْنَيْنِ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الكلامُ جارٍ مَجرَى المَثَل ، ومثله :

* والشمسُ لا تَخفَى عن الأبْصَارِ *

ومثله :

* إنّ الغزَالةَ لا تَخفَى عن البَصَرِ *

وقال ابن هانئ يمدَح المعزّ :

فاستيقظوا من رَقْدَةٍ وتَنَبَّهوا ما بالصّباح عن العُيون خَفاء[1]
ليستْ سَماء الله ما تَرَوْنَها لكنّ أرضا تَحتَويه سَماء

(١) ديوانه ٤ .

(١٧٢)

الأصْـلُ :

تَرْكُ الذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ .

***

الشَّـرْحُ :

هذا حقّ ، لأنّ تركَ الذّنْب هو الإحجامُ عنه ، وهذا سَهلٌ على من يَعرِف أثَر الذّنب على ماذا يكون ، وهو أسهَلُ من أن يُواقِع الإنسانُ الذّنب، ثمّ يَطْلُب التّوبة، فقد لا يخلص داعيه إليها ، ثمّ لو خَلَص فكيف له بحصُوله على شروطها ، وهى أن يَندَم على القبيح لأنّه قبيح ، لا لخَوف العقاب ، ولا لِرجاء الثّواب ، ثمّ لا يكفيه أن يتوبَ من الزّنا وحدَه ، ولا مِنْ شُرب الخمر وحدَه ، بل لا تصحّ توبتُه حتّى تكون عامّةً شاملة لكلّ القبائح فيندَم عَلَى ما قال ويودّ أنّه لم يَفعَل ، ويَعزم على ألّا يُعاود معصيةً أصْلا ، وإن نَقَض التّوبة عادتْ عليه الآثامُ القديمةُ والعقاب المستحق ولا الّذى كان سَقَط بالتّوبة على رأى كثيرٍ من أرباب عِلم الكلام ؛ ولا رَيْب أنّ تركَ الذّنب من الابتداء أسْهَلُ من طَلَب توبةٍ هذه صِفَتها .

وهذا الكلام جارٍ[1] مَجرَى المَثَل يُضرَب لمن يَشرع فى أمرٍ يخاطر فيه، ويرجو أن يتخلّص منه فيما بعدُ بوَجْه من الوجوه .

---

(١) د : « يجرى » .

(١٧٣)

الأصْلُ :

كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلاتٍ .

***

الشَّرْحُ :

أخذ هذا المعنى بلفظه الحريريّ فقال فى المقامات : « رُبَّ أَكْلَةٍ هاضت الآكل ، ومنعته مآكل » ، وأخذه أبو العلاّف الشاعر فقال فى سنّوره الّذى يرثيه :

أردْتَ أن تأكلَ الفِرَاخ ولا   يأكُلك الدهرُ أكلَ مضطهِدِ[1]
يا مَن لذيذ الفِــراخ أوْقعَه   وَيْحَك هــلاّ قنعتَ بالقِددِ !
كم أكلةٍ خامرتْ حَشا شَرِهٍ   فأخرَجَتْ رُوحَه من الجَســدِ

***

[نوادر المُكثِرين من الأكل]

وكان ابنُ عيّاش المَنتوف يُمازِح المنصورَ أبا جعفر فيَحتمله على أنّه كان جدّاً كلّه ؛ فقدّم المنصورُ لجلسائه يوماً بطّة كثيرة الدّهن ، فأكلوا وجعَل يأمرهم بالازدياد من الأكل لطيبها ، فقال ابنُ عيّاش : قد علمتُ غرَضك يا أمير المؤمنين ، إنما تُريد أن ترميَهم منها بالحِجاب ـ يعنى الهَيْضة ـ فلا يأكلوا إلى عشرة أيّام شيئاً .

وفى المَثَل : « أكْلَةَ أبى خارجة » ؛ وقال أعرابىّ وهو يدعو اللّهَ بباب الكعبة : اللّهمّ

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٨ .

مِيتةً كميتة أبى خارِجة ، فسألوه فقال : أكل بذَجا ــ وهوا الحَمَل ــ ، وشرب وَطْبا من اللّبن ــ ويروَى من النّبيذ ــ وهو كالحوْض من جلود ينبذ فيه ، ونام فى الشّمس فماتَ فلَقى الله تعالى شَبْعانَ ريّانَ دفيئا .

والعرب تعيّر بكثرة الأكْل ، وتعيب بالجشَع والشَّرَه والنَّهَم ، وقد كان فيهم قومٌ موصوفون بكثرة الأكْل منهم معاوية ؛ قال أبو الحسن المَدائنيّ فى ,, كتاب الأَكَلة ‘‘ : كان يأكل فى اليوم (١) أربع أَكَلات أخْراهن عُظْماهُنّ ، ثمّ يتعشّى بعدَها بثَريدة عليها بصلٌ كثير، ودُهن كثير قد شَغَلها . وكان أكلُه فاحشا يأكل فيلطّخ منديلين أو ثلاثة قبل أن يَفرُغ ، وكان يأكل حتّى يَستلقىَ ويقول : يا غلام ، ارفَع، فلأنّى والله ما شَبِعت ولكن مَلِلت .

وكان عُبَيدُ الله بنُ زياد يأكل فى اليوم خمس أَكَلات أخراهن خبيّة بعَسَل ، ويُوضَع بين يديه بعد أن يَفرُغ الطعام عَناقٌ أو جَدْى فيأتى عليه وحدَه .

وكان سليمان بنُ عبدِ الملك المصيبة العظمى فى الأكل ، دَخَل إلى الرافقة فقال لصاحب طعامِه : أطعِمْنا اليومَ من خِرْفان الرافقة ، ودخل الحمّام فأطال ، ثمّ خرج فأكَلَ ثلاثين خَروفا بثمانين رغيفا ، ثم قعَدَ على المائدة فأَكَل مع النّاس كأنّه لم يأكل شيئاً .

وقال الشمردلُ وكيلُ آلِ عَمْرو بن العاص: قَدِم سليمانُ الطائفَ وقد عرفتُ اُستِجاعَتَه، فدخل هو وعمرُ بنُ عبد العزيز وأيّوب ابنه إلى بُستانٍ لى هناك يُعرَف بالرَّهْط فقال : ناهيك بمالِك هــذا لولا جِرار فيه ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، إنّها ليست بجرار ولكنّها جرار الزّبيب ، فضَحِك، ثمّ جاء حتى ألقى صدره على غُصْن شجرةٍ هناك ، وقال : يا شمردل ، أمَا عِنــدَك شيء تُطعِمنى ؟ وقد كنت اُستَعدَدْت له ، فقلت : بلَى والله عندى جَدْى كانت تغدو عليه حافلة ، وترُوح عليه أخرى ، فقال : عَجّل به ، فجئته

(١) فى د « كل يوم » .

به مشويّا كأنّه عُكّة سَمْن، فأكله لا يَدْعو عليه عمر ولا ابنه، حتّى إذا بقى فَخذ قال: يا عمر، هَلُمّ، قال: إنّى صائم. ثمّ قال: يا شَمَرْدل، أمَا عندك شىء؟ قلت: بلى، دَجاجات خمس كأنّهنّ رِئلان النّعام؛ فقال: هاتِ، فأتيته بهنّ، فكان يأخذ برجل الدَّجاجة حتى يُعرّى عِظامَها، ثم يُلقيها، حتى أتى عليهنّ، ثم قال: وَيْحك يا شمردل! أما عندك شىء؟ قلت: بلى سَويق كأنّه قُراضة الذّهَب مَلْتوت بعَسَل وسَمْن؛ قال: هَلُمّ، فجئته بعُسّ تغيب فيه الرأسُ، فأخذَه فلَطَم به جَبْهته حتى أتى عليه، فلما فرغ تَجشّأ كأنه صارخ فى جُبّ، ثم التفت إلى طَبّاخه فقال: وَيْحَك! أفرَغتَ من طبيخِك؟ قال: نعم؛ قال: وما هو؟ قال: نيّف وثمانون قِدْرا، قال: فأْتِنى بها قِدْرا قِدْرا، فعَرَضها عليه، وكان يأكل من كل قِدْرٍ لقمتين أو ثلاثا، ثمّ مسح يدَه واستَلْقى على قَفاه، وأذِن للناس، ووُضِعت الموائد، فقعَد فأكل مع الناس كأنّه لم يَطعَم شيئاً.

قالوا: وكان الطعام الذى مات منه سُليمان، أنه قال لدَيْرانىّ كان صديقه قبل الخلافة: وَيْحَك! لاتقْطعنى ألطافَك التى كنتَ تُلطِفُنى بها على عَهْد الوليد أخى؛ قال: فأتيتُه يوما بزِنْبِيلين كبيرين أحدُهما بيْض مسلوق، والآخرَ تِينٌ؛ فقال: لقّمنيه، فكنتُ أقشر البَيْضة وأقرنها بالتِّينة وأُلقِمه، حتى أتى على الزِّنبيلين، فأصابتْه تُخَمة عظيمةٌ ومات.

ويُحكَى أن عَمرو بنَ مَعد يكرِبَ أكل عَنْزاً رَبَاعِية وفِرْقا من ذُرَة ـ والفِرْق ثلاثةُ آصُع ـ وقال لامرأته: عالجى لنا هذا الكَبْش حتى أرجع، فجعلتْ تُوقد تحته وتأخذ عُضْوا عُضْوا فتأكله، فاطّلعتْ فإذا ليس فى القِدْر إلّا المَرَق، فقامت إلى كبش آخَر فذبَحتْه وطبختْه، ثمّ أقبَل عمرو فثرَدتْ له فى جَفْنة المجين وكفأَتْ القِدْر عليها، فمدّ يدَه وقال: يا أمّ ثَوْر، دونَكِ الغَدَاء؛ قالت: قد أكلتُ، فأكلَ الكبشَ كلّه ثمّ اضطجع ودعاها إلى الفِراش فلم يَستطع الفِعلَ، فقالت له: كيف تستطيع وبينى وبينَك كَبْشان!

وقد رُوِى هـذا الخبر عن بعض العرب ؛ وقيل : إنّه أكل حُوَارا (١) وأكلت امرأتُه حائلا (٢) ، فلمّا أراد أن يدنوَ منها وعَجَز قالت له : كيف تَصِل إلىّ وبينى وبينَك بعيران .

وكان الحجّاج عظيمَ الأكل ؛ قال مسلم بنُ قتيبة : كنتُ فى دارِ الحجّاج مع ولده وأنا غلام ، فقيل : قد جاء الأميرُ ، فدخل الحجّاج فأمر بتَنُّور فنُصِب ، وأمر رجلاً أن يَخبِز له خبز الماء ، ودعا بسَمَك ، فأتَوْه به ، فجعل يأكل حتى أكل ثمانين جاماً من السَّمَك بثمانين رَغيفا من خبز المَلّة (٣) .

وكان هلالُ بن أشعرَ المازنىُّ موصوفا بكَثْرة الأكْل ، أكَلَ ثلاثَ جِفانٍ ثَرِيد ، واُستَسْقَى ، فجاءوه بقِرْبة مملوءةٍ نبيذا فوضعوا فَمَها فى فمه حتى شرِبَها بأَسْرها .

وكان هلال بنُ أبى بُرْدة أكولا ، قال قصّابُه : جاءنى رسولُه سَحرةً فأتيتُه وبين يديه كانونٌ فيه جَمْر وتَيْسٌ ضَخْم ، فقال : دونَك هذا التَّيس فاذبحْه فذبَحْتُه وسلَخْتُه ، فقال : أخرِج هذا الكانونَ إلى الرّواق وشَرِّح اللحم وكُبَّه على النار ، فجعلتُ كلّما استَوَى شىءٌ قدّمتهُ إليه حتى لم يبق من التّيس إلا العظام وقطعةُ لَحْم على الجَمْر ، فقال لى : كُلْها ، فأَكَلتُها ، ثمّ شَرِب خمسةَ أَقْداح ، وناوَلَنى قدَحا فشربتُه فهزّنى ، وجاءته جاريةٌ ببُرْمةٍ فيها ناهضان (٤) ودَجاجَتان وأَرْغفة ، فأَكَل ذلك كلّه ، ثمّ جاءته جاريةٌ أخرى بقَصْعة مغطّاة لا أدرِى ما فيها ، فضَحِك إلى الجارية ، فقال : وَيْحَكِ ! لَم يَبقَ فى بطنى موضعٌ لهذا ، فضحِكَتِ الجاريةُ وانصرفت ، فقال لى : الحَقْ بأَهْلِك .

---

(١) الحوار : ولد الناقة . (٢) الحائل : الناقة التى لم تحمل .

(٣) الملة : الرماد الحار . (٤) الناهض : فرخ العقاب .

وكان عَنْبَسة بنُ زِياد أكُولا نهماً ، فحدّث رجلٌ من ثقيف قال : دعانى عُبيدُ الله الأحمر ؛ فقلت لعَنبسة : هل لك يا ذُبحة — وكان هذا لَقَبهَ — فى إتيان الأحمر !. فمضَيْنا إليه ، فلمّا رآه عُبيد الله رحّب به وقال للخَبّاز : ضَعْ بين يدى هـذا مثل ما تَضَع بين يدى أهل المائدة كلّهم ، فجعل يأتيه بقَصْعة وأهل المائدة بقَصْعة ، وهو يأتى عليها ، ثمّ أتاه بجَدْيٍ فأكَلَه كلَّه ، ونهَض القومُ فأكل كلَّ ما تخلّف على المائدة ، وخرجْنا فلقيَنا خَلَف ابن عبد الله القَطامىّ ؛ فقال له : يا خَلَف ، أما تُغدّينى يوما ؟ فقلت لخَلفَ : وَيْحَك ! لا تجِده مثل اليوم . فقال له : ما تَشتَهى ؟ قال : تَمْراً وسَمْناً ، فانطلق به إلى منْزِله فجاء بخَمْس جِلال (١) تَمْراً وجَرّة سَمْنا ، فأكل الجميعَ وخرج ؛ فمرّ برجل يبنى دارَه ومعه مائةُ رجل ، وقد قدّم لهم سَمْنا وتَمْرا ، فدعاه إلى الأكل معهم ، فأكل حتّى شكَوْه إلى صاحب الدار ، ثمّ خرج فمرّ برجل بين يديه زِنْبيل فيه خُبْز أُرزٍ يابس بسِمْسِم وهو يبيعه فجعل يساوِمُه ويأكل حتى أتى على الزّنْبيل ، فأعطيت صاحبَ الزّنبيل ثمنَ خُبْزه .

وكان مَيْسرة الرأسُ أكُولا ؛ حُكِى عنه عند المهدىّ محمّد بن المنصور أنّه يأكل كثيرا، فاستدعاه وأحضَر فِيلا ، وجعل يَرمِى لكلّ واحد منهما رغيفا حتّى أكل كلٌّ واحد منهما تسعةً وتسعين رغيفا ؛ وامتَنع الفيلُ من تمام المائة ، وأكل ميسرة تمامَ المائة وزاد عليها .

وكان أبو الحسَن العَلّاف والد أبى بكر بن العَلّاف الشاعر المحدّث أكُولا دخل يوما على الوزير أبى بكر محمد المهلّبىّ ، فأمَر الوزير أن يُؤخَذ حمارُه فيُذبح ويُطبَخ بماء ومِلح ، ثمّ قُدِّم له على مائدة الوزير ، فأكل وهو يظنّه لحم

(١) الجلال : جمع جلة ، وهو وعاء التمر يصنع من الخوص .

البقر ، ويستَطْيِبُه حتّى أتى عليه ، فلمّا خرج ليَركَب طلَب الحمارَ ، فقيـل له : في جَوْفِك .

وكان أبو العالية أَكُولا ، نَذَرَت امرأةٌ حامل إنْ أتَتْ بذَكَرٍ تُشبِـع أبا العالية خَبِيصاً ، فولَدتْ غلاما ، فأحضرتْه ، فأَكَل سبعَ جِفان خَبِيصا ، ثمّ أمسَك وخرج ، فقيل له : إنّها كانت نَذَرَتْ أن تُشبِعك ، فقال : واللهِ لو علمتُ ما شبعتُ إلى اللّيل .

(١٧٤)

الأصْلُ :

النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

* * *

الشَّرْحُ :

هذه الكلمةُ قد تقدّمت وتقدّم منّا ذِكرُ نَظائِرها . والعِلّة فى أنّ الإنسان عدوّ ما يَجهَله أنّه يخاف من تقريعه[١] بالنَّقْص وبِعَدَم العِلْم بذلك الشيء ، خصوصا إذا ضمّه نادٍ أو جَمْعٌ من الناس فإنّه تتصاغر نفسُه عنده إذا خاضوا فيما لا يَعرِفه ويَنتقِص فى أعيُن الحاضرين ، وكلّ شيء آذاكَ ونَال منكَ فهو عدوُّك[٢] .

---

(١) د : « تعريضه » . (٢) ا : « فهو عدو لك » .

(١٧٥)

الأصلُ :

مَن استقبلَ وُجوهَ الآراءِ عرَفَ مواقِعَ الخطأ .

***

الشرحُ :

قد قالوا في المَثَل : شرُّ الرأيِ الدَّبَرِيّ .

وقال الشاعر :

وخيرُ الرأيِ ما استقبلتَ منه وليس بأنْ تتبّعه اتّباعا

وليس المراد بهذا الأمر سُرْعة فَصْل الحال لأوّل خاطر ، ولأوّل رأى ، إنّ ذلك خطأ ، وقديما قيل : دَعِ الرأىَ يغبّ .

وقيل : كلّ رأيٍ لم يخمَّرْ ويُبَيّت[1] فلا خيرَ فيه .

وإنّما النهىُ عنه تضييعُ الفُرْصة فى الرأى ، ثمّ محاولة الاستدراك بعد أن فات وَجْهُ الرأىِ ، فذاك هو الرأىُ الدبرىّ .

---

(١) د : « يبت » .

(١٧٦)

الأصْلُ :

مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لِلهِ قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ .

* * *

الشَّرْحُ :

هـذا من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكَر ، والكلمة تتضمّن استعارةً تَدُلّ على الفَصاحة ؛ والمعنى أنّ من أرهَف عزمَه على إنكار المنكَر ، وقوِىَ غَضَبُه فى ذاتِ الله ولم يَخَفْ ولم يُراقِب مخلوقا ؛ أعانَه الله على إزالة المُنكَر ؛ وإن كان قويّا صادراً من جهة عزيزة الجانب ، وعنها وَقَعت الكنايةُ بأشدّاء الباطل .

(١٧٧)

الأصْـلُ :

إِذَا هِبْتَ أَمْرًا فَقَعْ فِيهِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

* * *

الشَّـرْحُ :

ما أحسنَ ما قال المتنبّى فى هذا المعنى :

وإذا لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ ... فمِن العَجْز أن تكونَ جَبانا
كلّ ما لم يكن من الصَّعْب فى الأنْـ ... ـفُسِ سهلٌ فيها إذا هوَ كانا

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما المكروهُ إلّا ارتقابه ... وأعظم ممّا حلّ ما يُتوقّعُ

وقال آخر :

صعوبةُ الرُّزْء تُلقَى فى توقُّمه ... مستقبَلا وانقضاءُ الرزء أن يَقعا

وكان يقال : توسَّطِ الخوفَ تأْمَنْ .

ومِن الأمثال العامّيّة : أمّ المقتول تنام ، وأمّ المهدَّد لا تنام .

وكان يقال : كل أمرٍ من خير أو شرّ فسماعُه أعظمُ من عِيانه .

وقال قوم من أهل المِلّة وليسوا عند أصحابنا مُصيبِين : إنّ عذاب الآخرة المتوعَّد به إذا حَلّ بمستحقّيه وَجَدُوه أهونَ ممّا كانوا يسمعونه فى الدّنيا ؛ والله أعلم بحقيقةِ ذلك .

(١٧٨)

الأصْـلُ :

آلَةُ الرِّياسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ .

***

الشَّـرْحُ :

الرئيس محتاجٌ إلى أمور ، منها الجود ، ومنها الشجاعة ، ومنها — وهو الأهمّ — سَعَة الصَّدر ، فإنه لا تتمّ الرئاسة إلاّ بذلك .

وكان معاوية واسعَ الصدر كثيرَ الاحتمال ، وبذلك بَلَغ ما بَلَغ .

***

[سعة الصدر وما ورد فى ذلك من حكايات]

ونحن نذكر من سَعَة الصدر حكايتَين دالَّتين على عِظَم محلّه فى الرئاسة ، وإن كان مذموما فى باب الدين ، وما أحسنَ قولَ الحسن فيه وقد ذُكر عنده عقيبَ ذكر أبى بكر وعمر ، فقال : كانا والله خيراً منه ، وكان أسودَ منهما .

الحكاية الأولى :

وفدَ أهلُ الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالعَهْد بعده ، وفى أهل الكوفة هانئ بنُ عُرْوة المرادىّ — وكان سيّدا فى قومه — فقال يوما فى مسجد دِمشق والناسُ حوله : العجَب لمعاوية يريد أن يقسرنا على بَيْعة يزيد ، وحالُه حالُه ، وما ذاك والله بكائن ! وكان

فى القوم غلامٌ منْ قريش جالسا ، فتحمّل الـكلمة إلى معاوية ، فقال معاوية : أنت سمعت هانئاً يقولهـا ؟ قال : نعم ، قال : فاخرُج فأْتِ حلْقته ، فإذا خفّ الناسُ عنه فقل له : أيّها الشيـخ ، قد وصلتْ كلمتُك إلى معـاوية ، ولستَ فى زمن أبى بكر وعمرَ ، ولا أحبُّ أنـ تتـكلم بهـذا الـكلام فإنهم بنو أُميّةٍ ، وقـد عرفتَ جُرأتهم وإقدامَهم ، ولم يدْعنى إلى هـذا القول لك إلا النّصيحة والإشفاق عليك ، فانظر ما يقول ؛ فأْتنى به .

فأقبل الفَتى إلى مجلس هانئ ، فلما خَفّ منعنده دنا منه فقَصّ عليه الـكلامَ وأَخْرَجه مخرَج النصيحة له ، فقال هانئ : والله يابن أخى ما بلغت نصيحتُك كلَّ ما أسْمَع ؛ وإنّ هذا الـكلام لـكلامُ مُعاوية أعرفه ! فقال الفتى : وما أنا ومُعاوية ! والله ما يعرفنى ؛ قال : فلا عليك ، إذا لقيتَه فقل له : يقول لك هانئ : والله ما إلى ذلك من سبيل ، انهض يابن أخى راشداً !

فقام الفتى فدخل على معاوية فأعلَمَه ، فقال : نستعين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجـكم ــ وهانئ فيهم ــ فعرَضَ عليه كتابَه فيه ذِكرُ حوائجه ، فقال : يا هانئ ، ما أَرَاكَ صنعتَ شيئا ، زِدْ ؛ فقام هانئ فلم يَدَعْ حاجةً عرضتْ له إلاّ ذَكَرها ، ثم عرَض عليه الـكتاب فقال : أراكَ قصّرتَ فيما طلبتَ ، زِدْ ، فقام هانئ فلم يَدَع حاجةً لقومه ولا لأهل مِصرِه إلاّ ذَكَرَها ، ثمّ عرَض عليه الـكتاب ، فقال : ما صنعت شيئا ، زِدْ ، فقال : يا أمـير المؤمنين ، حاجةٌ بقيَتْ ، قال : ما هى ؟ قال : أن أتولّى أخْذَ البَيْعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق ؛ قال : افعل ، فـا زِلْتَ لمثل ذلك أهلا ؛ فلما قَدِم هانئ العراق قام بأمر البَيْعة ليزيد بمَعُونةٍ من المغيرة بنِ شُعبة وهو الوالى بالعراق يومئذ .

وأمّا الحكايةُ الثانية :

كان مالٌ يُحمل من اليمن إلى معاوية ؛ فلما مرّ بالمدينة وثَبَ عليه الحسينُ بنُ عليّ عليه السلام ، فأخَذَه وقَسمَه فى أهل بيته ومواليه ، وكتب إلى معاوية : مِن الحسين بنِ عليّ إلى معاوية بن أبى سُفْيان ، أمّا بعد ، فإنّ عِيراً مرّت بنا من اليمَن تحمِل مالاً وحُللا وعنبرا وطيباً إليكَ لتودِعها خزائنَ دِمَشق ، وتَعُلَّ بها بعد النَّهل بنى أبيك ، وإنّى احتجتُ إليها فأخذتها . والسلام .

فكتب إليه معاوية : من عند عبدِ الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحُسَين بن علىّ : سلامٌ عليك ، أما بعد ، فإنّ كتابك ورد علىّ تذكُر أن عِيراً مرّت بك من اليمن تحمل مالاً وحُللا وعَنْبرا وطِيبا إلىّ لأودِعها خزائن دِمشق ، وأُعلّ بها بعد النَّهَل بنى أبى ، وأنك احتجت إليها فأخذتها ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إلىّ ، لأنّ الوالى أحقّ بالمال ، ثمّ عليه المخرج منه ، وايمُ الله لو تُرِك ذلك حتى صار إلىّ ، لم أبْخَسْك حظَّك منه ، ولكنى قد ظننتُ يابنَ أخى أنّ فى رأسك نَزْوَةً وبودّى أن يكون ذلك فى زمانى فأعرف لك قدرَك ، وأتجاوَزَ عن ذلك ؛ ولكنى واللهِ أتخوّف أن تبتلى بمن لا يُنظِرك فُواقَ ناقةٍ ، وكتب فى أسفل كتابه :

يا حسينُ بنَ علىٍّ ليس ما ‏ جئتَ بالسائغ يوماً فى العِلَلْ
أخذُك المال ولم تُؤْمرْ به ‏ إنّ هذا من حُسين لعَجَلْ
قد أجزْناها ولم نَغْضَبْ لها ‏ واحتمَلْنا من حُسينٍ ما فعَلْ
يا حسينُ بنَ علىّ ذا الأمَل ‏ لك بعدى وَثْبةٌ لا تُحتَمَلْ
وبودّى أننى شاهدُها ‏ فأَليها منك بالخلُق الأَجَلْ
إننى أرْهَب أن تَصْلَى بمَنْ ‏ عنده قد سبَق السيفُ العَذَلْ

وهذه سعةُ صدرٍ وفراسةٌ صادقة .

(١٧٩)

الأصل :

ازْجرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ .

* * *

الشرح :

قد قال ابنُ هانئ المغربىّ فى هذا المعنى :

لولا انبعاثُ السَّيفِ وهو مُسلَّطٌ　　فى قتلهمْ قتلتْهُمُ النَّعْماءُ

فأفصَح به أبو العَتاهية فى قوله :

إذا جازيتَ بالإحسان قوما　　زجرتَ المذنبين عن الذّنوبِ

فما لَكَ والتناوُل من بعيدٍ　　ويمكنك التّناوُل من قريبِ

(١٨٠)

الأَصْـلُ :

احْصُدِ الشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ ، بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا يفسَّر على وجهين :

أحدها أنه يريد : لا تُضمر لأخيك سوءا، فإنّك لا تُضمر ذاك إلّا يضمر هو لك سوءا ، لأنّ القلوب يشعُر بعضها ببعض ، فإذا صفوْتَ لواحدٍ صفا لك .

والوجه الثانى أن يريد : لا تَعظِ الناس ولا تَنْهَهم عن منكرٍ إلّا وأنت مُقلِعٌ عنه ، فإن الواعظ الذى ليس بزكىٍّ لا ينجَعُ[1] وعْظُه ، ولا يؤثِّر نهْيُه .

وقد سَبَق الكلام فى كلا المعنيين .

---

(١) ا : « ينفع » .

(١٨١)

الأَصْـلُ :

اللَّجَاجَةُ تَسُلُّ الرَّأْىَ .

* * *

الشَّـرْحُ :

هذا مشتقّ من قوله عليه السلام : « لا رأى لمن لا يُطاع » ، وذلك لأن عدم الطاعة هو اللّجاجة ، وهو خُلُق يتركَّب من خُلقين : أحدهما الكِبْر ، والآخر الجهل بعواقب الأمور وأكثر ما يعترى الولاة لما يأخذهم من العِزة بالإثم .

ومِن كلام بعض الحكماء : إذا اضطررت إلى مُصاحَبة السلطان ، فابدأ بالفَحْص عن معتاد طَبْعه ، ومألوفِ خُلُقه ، ثم استحْدِث لنَفْسك طَبْعا ففرّغه فى قالب إرادته ، وخُلُقا تركّبهُ مع موضع وفاقه حتى تَسلم معه ، وإن رأيته يَهوَى فنًّا مِن فُنون المحبُوبات فأظهر هَواك لضـدّ ذلك الفنّ ، ليَبْعد عنك إرهابه ، بل ويَكثر سكونهُ إليك ، وإذا بدا لك منه فِعْل ذَميم فإيّاك أن تبدأه فيه بقولٍ ما لم يَستبذل فيه نُصْحك ، ويستدعى رأيك ؛ وإن استدعى ذلك فلْيكن ما تفاوِضه فيه بالرّفق والاستعطاف ، لا بالخشونة والاستنكاف ، فيَحْمِله اللّجاج المركَّب فى طَبْع الولاة على ارتكابه ، فكلّ والٍ لَجُوج ، وإن علم ما يتعقّبه لجاجه من الضرر ، وأنّ اجتنابه هو الحسن .

(١٨٢)

الأصل :

الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ .

***

الشرح :

هذا المعنى مطروقٌ جدّا ، وقد سبق لنا فيه قولٌ شافٍ .

وقال الشاعر :

تعفّف وعِشْ حُرّا ولا تَكُ طامِعاً فما قَطّع الأعناق إلّا المَطامِعُ

وفى المَثَل : أطمع من أشعب ؛ رأى سَلّالا يصنَع سَلّة ، فقال له : أَوْسِعْها ؛ قال : ما لَكَ وذَاك ؛ قال : لعلّ صاحبَها يُهدِى لى فيها شيئاً .

ومرّ بمكتب وغلامٌ يقرأ على الأستاذ : ﴿ إنَّ أَبى يَدْعُوكَ ﴾ ، فقال : قم بين يَدَىّ حَفِظكَ الله وحَفِظ أباك ، فقال : إنما كنت أقرأ وِرْدى ، فقال : أنكرت أن تُفْلِح أو يُفلِح أبوك !

وقيل : لم يكن أطمَعُ من أشعَب إلّا كلبُه ، رأى صورة القَمَر فى البئر فظَنّه رغيفا ، فألقَى نفسه فى البئر يطلبه ، فمات .

(١٨٣)

الأصل :

ثَمْرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ ، وَثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ .

***

الشرح :

قد سبق من الكلام فى الحزم والتفريط ما فيه كفاية . وكان يقال : الحزم مَلَكَةٌ يُورِجبها كثرةُ التجارب ، وأصله قوّة العقل ، فإنّ العاقل خائفٌ أبدا ، والأحمق لا يخاف ، وإن خاف كان قليل الخوف ، ومن خاف أمراً توقّاه ، فهذا هو الحزْم .

وكان أبو الأسود الدّؤَلىّ من عُقَلاء الرجال وذَوِى الحزم والرأى ، وحكى أبو العباس المبرّد قال : قال زياد لأبى الأسوَد ـ وقد أَسَنَّ ـ: لولا ضَعْفُك لاستعملناك على بعض أعمالنا، فقال : أللصِّراع يريدُنى الأمير ! قال زياد : إنّ للعمل مئونة ، ولا أراك إلا تضعف عنه ، فقال أبو الأسود :

زعَمَ الأميرُ أبو المغيرةِ أننى ... شيخٌ كبيرٌ قد دنَوْتُ من البِلَى
صدَق الأميرُ لقد كبرتُ وإنما ... نالَ المكارمَ من يدبّ على العصا
يابا المغيرةِ رُبَّ أمرٍ مُبْهَم ... فرجّتُه بالحَزْم منّى والدَّهَا

وكان يقال: مِن الحَزْم والتّوقّى ترك الإفراط فى التوقّى .

لما نزل بمعاوية الموتُ وقدِم عليه يزيد ابنه فرآه مسكتا لا يتكلم ، بكى وأنشد :

لو فات شىءٌ يُرَى لفاتَ أبو ... حَيّان لا عاجزٌ ولا وَكِلُ
الحُوّل القُلّب الأَرِيبُ ولا ... تدفَع يوم المنيّة الحِيَلُ

---

(١) الكامل . (٢) ديوانه .

(١٨٤)

الأصْلُ :

مَنْ لَمْ يُنْجِهِ الصَّبْرُ ، أَهْلَكَهُ الْجَزَعُ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ شافٍ فى الصّبر والجزع .

وكان يقالُ : ما أحسَن الصّبر لولا أن النفقة عليه من العمر ! أخذه شاعر فقال :

وَإنّى لأدرِى أنّ فى الصّبْرِ رَاحَةً ولكنّ إنفاقى على الصبر من عُمْرِى

وقال ابن أبى العلاء يستبطىء بعض الرؤساء :

فإنْ قيل لى صبراً فلا صَبْرَ للذى غدا بيد الأيّام تقتلُه صَبْرَا

وإن قيل لى عذراً فوالله ما أرى لمن ملك الدنيا إذا لم يَجِدْ عذرا

فإن قلت : أى فائدة فى قوله عليه السلام : « مَنْ لم ينجه الصّبر أهلكه الجزع » ؟ وهل هذا إلا كقول مَنْ قال : « من لم يجد ما يأكل ضرّه[1] الجوع ؟ » .

قلت: لو كانت الجهة واحدة، لكان الكلام عبثا ، إلا أن الجهة مختلفة ، لأن معنى كلامه عليه السلام من لم يخلّصه الصبر من هموم الدّنيا وغُمومها هَلَك من الله تعالى فى الآخرة بما يستبدله من الصبر بالجزع ؛ وذلك لأنّه إذا لم يصبر فلا شكّ أنّه يجزع ، وكلّ جازع آثم والإثم مهلكة ، فلما اختلفت الجهة وكانت تارة للدنيا وتارة للآخرة لم يكن الكلام عبثا بل كان مفيدا .

---

(١) فى د : « أهلكه » .

(١٨٥)

الأصْلُ :

وَاعجَباً أَنْ تَكُونَ الْخِلَافَةُ بِالصَّحَابَةِ ولا تكون بالصحابة وَالْقَرَابَةِ .

قال الرضيّ رحمه الله تعالى وقد روى له شعر قريب من هذا المعنى وهو :

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ ... فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ ! (١)

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ ... فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

***

الشَّرْحُ :

حديثه عليه السلام فى النثر والنظم المذكورين مع أبى بكر وعمر ، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه لأنّ أبا بكر لما قال لعمر : امدد يدك ، قال له عمر : أنت صاحب رسول الله فى المواطن كلّها ، شدّتها ورخائها، فامدد أنت يدك ، فقال على عليه السلام: إذا احتججتَ لاستحقاقه الأمر بصحبته إيّاه فى المواطن كلّها ، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شركه فى ذلك ، وزاد عليه « بالقرابة » ! وأما النظم فموجّه إلى أبى بكر ؛ لأن أبا بكر حاجّ الأنصارَ فى السقيفة . فقال : نحن عِتْرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيضته التى تفقّأت عنه ، فلما بويع احتجّ على الناس بالبيعة ، وأنها صدرت عن أهل الحلّ والعقْد ، فقال علىّ عليه السلام : أمّا احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قومه ، فغيرك أقرب نسباً منك إليه ، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك ، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت !

واعلم أن الكلام فى هذا تتضمّنه كتب أصحابنا فى الإمامة ، ولهم عن هذا القول أجوبة ليس هذا موضع ذكرها ..

تم الجزء الثامن عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء التاسع عشر

فهرس الكتب*

(*) وهى الكتب الواردة فى كتاب نهج البلاغة .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات الواردة فى شرح نهج البلاغة .









